

أينما السندباد

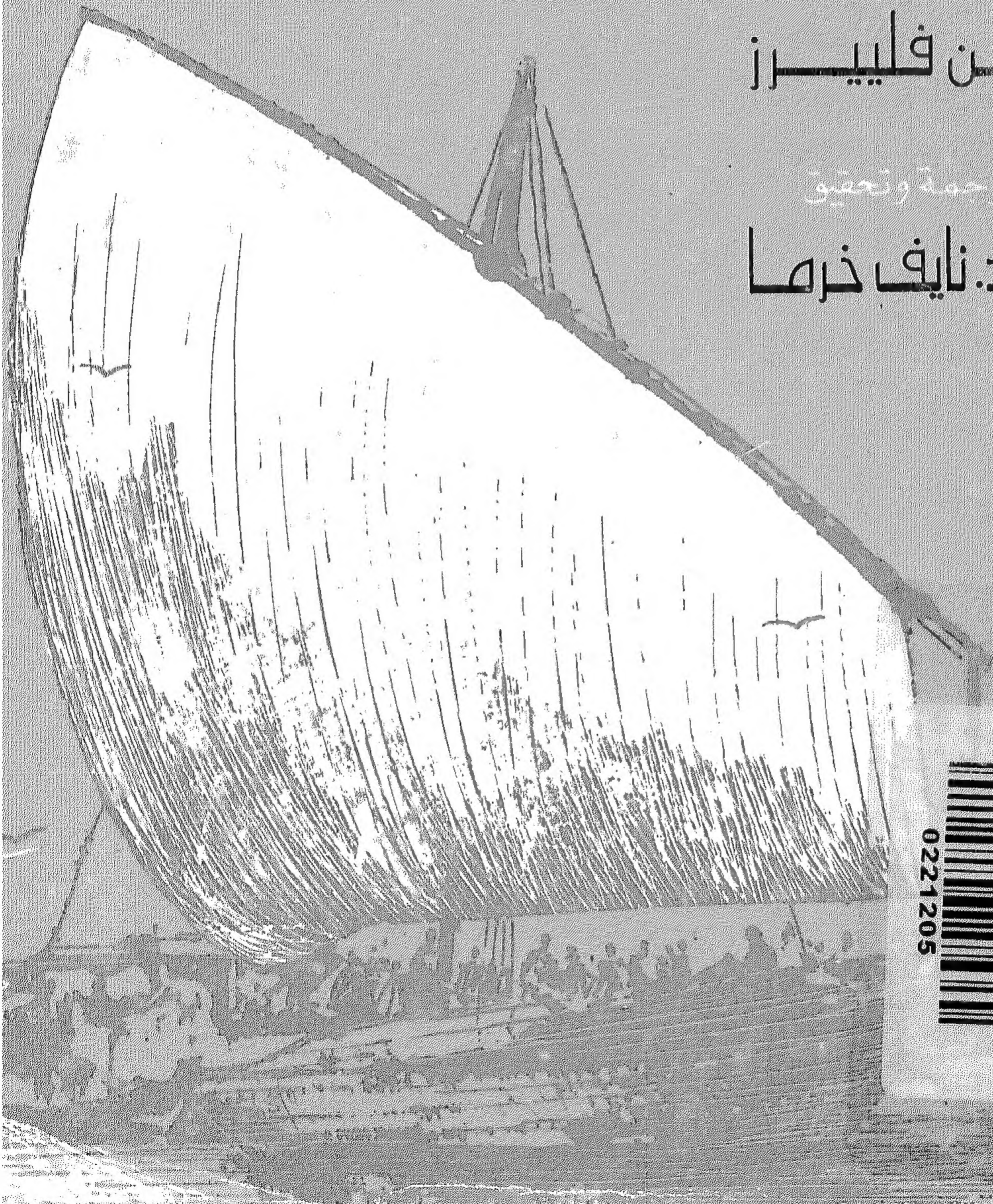
قصة الرحلة المريبة المظلمة في المحيط الهندي

تأليف

ألن فليبرز

ترجمة وتحقيق

د. نايف خرما



Bibliotheca Alexandrina

0221205



ألن فلييرز

أر الشيخ ماجد ، كما كان البحارة العرب يدعونه ، كان آخر الربانة العظام للمراكب الشراعية الكبيرة التي تجوب المحيطات ، وقد أمضى الجزء الأكبر من عمره يقود تلك المراكب ويدرسها ويكتب عنها . فقد بدأ أولى رحلاته من وطنه استراليا ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . وفي عام ١٩٣٥ قاد المركب الشراعي « جوزيف كونراد » في رحلته الشهيرة حول « رأس هورن » كما قام في عام ١٩٥٧ بقيادة المركب « ماي فلور » الذي صنع كنسخة مماثلة للمركب الآخر الذي كان يحمل هذا الاسم والذي استخدمه « كولومبوس » لاكتشاف العالم الجديد .

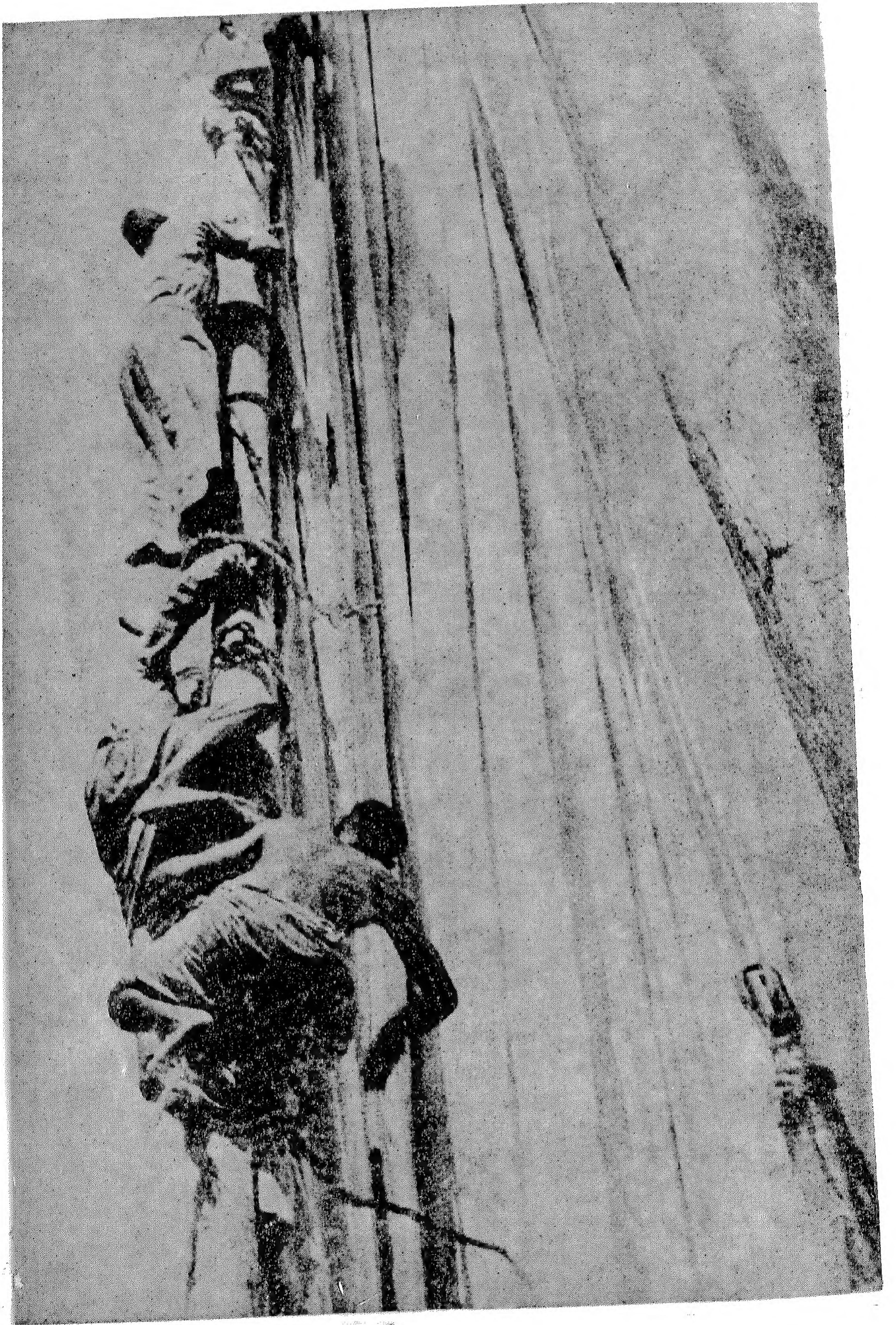
لقد قام « ألن فلييرز » بتأليف عدد يزيد عن العشرة من الكتب ، كان آخرها كتابه المسمى « القبطان جوزيف كونراد » .

مهداة من :

جامعة الكويت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبناء السند باد



أبناء السندباد

(قصة الابحار مع العرب فى مراكزهم الشراعية
فى البحر الاحمر ، وحول ساحل الجزيرة العربية ، الى
زنجبار وتنجانيقا ، وقصة الفوص على اللؤلؤ فى
الخليج العربي ، مع وصف لحياة النواخذة - اى
ربابنة السفن - والبجارة والتجار فى الكويت)

تأليف
ألف فليبرز

ترجمة وتحقيق
د. نكاييف خرمّا

مطبعة حكومة الكويت

١٩٨٢

محتويات الكتاب

فصل	صفحة
كلمة معالي وزير الاعلام بدولة الكويت ...	١١
كلمة المترجم ...	١٣
مقدمة المؤلف ...	٢١
١ شاطئ المعلا ...	٤٣
٢ على ظهر المركب « فتح الخير » ...	٧٧
٣ على ساحل حضرموت ...	١١١
٤ حمولة من البندو ...	١٤١
٥ اسماعيل ينقذ طفلاً ...	١٦٣
٦ أبناء السندباد ...	١٨٧
٧ مشاكل في موقاديشيو ...	٢١٧
٨ زيارة ميناء لامو ...	٢٤٥
٩ قصة ممباسا ...	٢٦٩
١٠ السفر الى زنجبار ...	٣٠١
١١ في جزيرة كوالي ...	٣٣٥
١٢ دلتا التعاسة ...	٣٥٧
١٣ في طريق العودة الى الوطن ...	٣٨٩
١٤ مصباح النبي ...	٤١٩
١٥ في ميناء مطرح ...	٤٤١
١٦ ابن سعود يشترى الشحنة ...	٤٦٥
١٧ نجدى يغذ السير الى الوطن ...	٤٨٥
١٨ الكويت - ميناء المراكب الكبيرة ...	٥٠٩
١٩ الفوص على اللؤلؤ في الخليج ...	٥٣٥
٢٠ الزوجة الجديدة ...	٥٧٣
خاتمة ...	٥٩٥
الملاحق ...	٦٠١

قائمة الصور والخرائط

الرقم	الصورة	الصفحة
	المؤلف : ألن فليبرز	...
١	(بدون عنوان)	...
٢	مقدمة مركب السمبوك	٤٦
٣	المركب يمتخر عباب اليم	٥١
٤	سمبوك كبير مرفوع على رمل الشاطئ	٥٥
٥	النجدى	٨١
٦	مقدمة يوم	٨٤
٧	فتح الخير	٨٥
٨	المكلا - حضرموت	١٢٤
٩	المكلا - البوابة الغربية	١٢٦
١٠	المكلا - دار المعتمد البريطانى	١٢٧
١١	النجدى يحصى المسافرين	١٤٥
١٢	تجهيز جانبى المركب	١٤٨
١٣	البومات على الشاطئ	١٥٣
١٤	خريطة ساحل افريقيا الشرقى	٢٠٢
١٥	البحارة نيام	٢٠٥
١٦	دماء السكر	٢٠٦
١٧	طفل نائم	٢٠٧
١٨	رجل الدين	٢١٢
١٩	فتاة بدوية	٢١٢
٢٠	المهربان ، ماجد وسعيد	٢٣٢
٢١	الركاب فى موقاديشو	٢٣٤
٢٢	رفع العارضة	٢٣٧
٢٣	مدخل لامو	٢٦٠
٢٤	ريح قوية تسير المركب	٢٦٥
٢٥	فى ميناء ممباسا	٢٦٦
٢٦	جانب اليوم	٣١٨
٢٧	اصلاح الشراع	٣٢٣

تابع قائمة الصور والخرائط

الرقم	الصورة	الصفحة
٢٨	سلالة ، دلتا الروفيجي ...	٣٦٢
٢٩	صنع الاشرعة في كوالى ...	٣٦٥
٣٠	خريطة دلتا نهر الروفيجي ...	٣٨٠
٣١	في جزيرة كوالى ...	٣٨٠
٣٢	على الجبال ...	٤٠١
٣٣	سمبوك متجه الى عرض البحر ...	٤٠٧
٣٤	رفع المرساة ...	٤٠٩
٣٥	مدوء ...	٤٢٣
٣٦	حمد بن سالم ...	٤٢٨
٣٧	خريطة الخليج العربى وخليج عمان ...	٤٨٩
٣٨	الطاهى جاسم ...	٤٩٢
٣٩	حسن ، قائد الدفة ...	٤٩٦
٤٠	المعلم يحلق شعر لحيته ...	٤٩٧
٤١	شيخ الكويت مع المعتمد البريطانى ...	٥١٦
٤٢	السوق المسقوف فى الكويت ...	٥٢٧
٤٣	أسرة بدوية ...	٥٢٨
٤٤	الفوص على اللؤلؤ ...	٥٥٨
٤٥	سمبوك للفوص ...	٥٦٣
٤٦	الفواصون يستريحون ...	٥٦٦
٤٧	عبد الله الحمد ...	٥٨٤
٤٨	فى المقهى ...	٥٨٨
٤٩	صانعو المباءات ...	٥٩١
٥٠	غلاف الكتاب الاصلى ...	٦٠١
٥١	خريطة المحيط الهندى ...	٦٣٠

تقديم

يَسُرُّني أن أقدم هذا الكتاب إلى أهل الكويت
بخاصة وإلى الشعب العربي بعامة ، بعد أن تمت
ترجمته بشكل أمين موثق وبدقة متناهية ولغة
عربية رفيعة المستوى ولكنها مفهومة للجميع .

الكتاب وثيقة هامة تسجل للكويت في
أواخر العقد الثالث من القرن الحالي ، وتسجل الكثير
من أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولكنها
على وجه الخصوص تسجل فنون الملاحة الكويتية والعربية
التي كانت تعتمد على الشراع والتي لم يكتب عنها شيء
يذكر منذ أيام ابن ماجد .

وما يزيد من أهمية الكتاب من هذه الناحية أن
مؤلفه قطبان قديم خبير بفنون الملاحة بأشكالها
المختلفة ، وقد زاد من قيمة ما كتبه دقة الملاحظة الهائلة
التي كان يتمتع بها والتي تظهر في كل سطر من سطور
الكتاب .

وفوق ذلك كله ، فإنني أقدم هذا الكتاب للجيل
الجديد من أبناءنا ، أبناء النفط ، الذين لم يقاسوا
من شظف العيش شيئاً ، لكي يطلعوا على ما فعله
الآباء والأجداد من أجلهم وما كانت هؤلاء
الآباء والأجداد يتحلون به من الرجولة والمروءة
والحكمة وقوة الاحتمال ، لكي يكونوا مثلاً أعلى
ومنارة يهتدون بها ويقتفون أثرها .

والله الموفق .

صباح الأحمد الصباح
نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية
ووزير الإعلام

كلمة المترجم

لا شك أن وزارة الاعلام قد أحسنت صنعا باهتمامها الشديد بالكتاب الذي بين أيدينا • فكتاب « أبناء السندباد » سفر عظيم القيمة حقا • وترجع قيمته وأهميته لأسباب عدة :

أولها : أن الكتاب يكاد يكون الوحيد من نوعه الذي يؤرخ للملاحة والرحلات البحرية الكويتية القديمة ، التي كانت تتم على ظهور المراكب الشراعية العربية ذات الشهرة العريقة ، التي كانت تبني في الموانئ العربية بوجه عام وفي ميناء الكويت بوجه خاص • وقد حالف الحظ المؤلف ، إذ أدرك تلك الرحلات وهي تؤذن بنهاية ازدهار عهد مجيد في ارتياد الآفاق ، والتطواف في البحار ابتداء من البصرة شمالا وانتهاء بموانئ الخليج المختلفة في بعض الأحيان ، أو امتدادا الى سواحل الجزيرة العربية الجنوبية الى عدن ، ثم الى سواحل أفريقيا الشرقية من جهة ، أو الى سواحل شبه القارة الهندية من جهة أخرى •

أما السبب الثاني ، الذي يجعل من الكتاب مرجعا لا غنى عنه للباحث في شئون الملاحة والرحلات البحرية العربية بعامة ، والكويتية بخاصة ، فهو أن المؤلف ربما كان أفضل من يستطيع الكتابة عن هذه الناحية لأنه مؤهل لذلك تاهيلا كاملا ، فهو معروف بحبه للبحر والملاحة منذ نعومة أظفاره • فقد بدأ بالابحار على متن مركب شراعي مغادر لوطنه استراليا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره • وفي عام ١٩٣٥ كان ألن فليبرز (أو الشيخ ماجد ، كما كان البحارة العرب يسمونه) يقود المركب الشراعي الشهير « جوزيف كونراد » ، الذي كان آخر مركب شراعي يدور حول رأس « هورن » بأقصى جنوب القارتين الأمريكيتين • كما أنه كان قبطان المركب الشراعي الذي بنى على غرار مركب « ماي فلور » (١) الذي كان كريستوفر كولومبوس

(١) « ماي فلور » هو أحد ثلاثة مراكب استخدمها كريستوفر كولومبوس في الرحلة الأولى التي قام بها الى أمريكا عام ١٤٩٢م •

قد سافر عليه الى أمريكا) ، عندما قام برحلته الشهيرة الى أمريكا عام ١٩٥٧ . وكتابات المؤلف عن البحر والملاحة كثيرة ، كان آخرها « القبطان جيمس كوك » . ويمكن اعتبار المؤلف آخر الملاحين العظام الذين عملوا على ظهور المراكب الشراعية وأكثرهم شهرة . ولذلك فهو ، بهذه الخلفية العظيمة ، أفضل من يتناول موضوع الملاحة العربية الكويتية بالبحث والتقصي .

الا ان المؤلف لم يكتف بالبحث والتقصي عن بعد ، بل ربما ترجع قيمة مؤلفه هذا الى انه جاء ثمرة لمعاناة كاملة ، وتجربة شخصية بعض جوانبها مريرة قاسية . فقد أبى الا أن يرى ويراقب بنفسه كل جانب من جوانب تلك الرحلات البحرية ، التي كان يقوم بها الكويتيون (وغيرهم من العرب) ، في أواخر الثلاثينات من القرن الحالي ، والتي انقرضت أو كادت الآن . فهو يمتطي ظهر أحد المراكب الكبيرة ، ويعايش الرحلة والقائمين بها ساعة فساعة منذ اللحظة التي يبحر فيها المركب من ميناء عدن ليطوف في سواحل الجزيرة العربية الجنوبية ، ثم يقفل عائدا الى ساحل افريقيا الشرقي ، فيجوبه كله ، مرفا مرفا الى أن يصل الى زنجبار جنوبا . بل ويأبى المؤلف الا أن يرافق المركب في رحلته الشاقة المخيفة الى دلتا نهر الروفيجي ، حيث البعوض والمalaria ، والمخاطر الأخرى ، رغم تخلف « نوحدة » المركب في زنجبار . ثم يعود المؤلف مع المركب في رحلة العودة الى أن يدخل الخليج العربي ، ويصعد فيه الى مسقط والبحرين ، وحتى يلقي مراسيه أخيرا في موطنه الكويت .

لقد كانت تجربة الكاتب في رحلته هذه تجربة عميقة ، مثيرة ، غنية بالأحداث ، مليئة بالانفعالات والأحاسيس . وبما أن الرحلات البرية (لا البحرية) التي كان الاجانب من غير العرب يقومون بها للجزيرة العربية هي التي كانت حتى وقت قريب تستأثر بالاهتمام ، كتلك الرحلات التي قام بها وكتب عنها بوركارت ، وسير رتشارد بيرتون ، ودوتي وغيرهم ، لهذا يمكننا ان نعتبر جهد مؤلف هذا الكتاب جهدا رائدا في مجال الرحلات البحرية ، ومن أبرزها ، ان لم يكن أبرزها على الإطلاق .

لقد أدرك المؤلف تلك الحقبة الغاربة من نشاط الملاحة العربية فسجلها احسن تسجيل ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة ، الا أوفاهها حقها من الوصف والدراسة والتحليل . فقد حرص كل الحرص على تدوين الاحداث ، وانطباعاته من الاشخاص ، ووصف المراكب واجزائها ، وصف الفنان

الخبير ، بل وصف العاشق المتيم بها حبا ، وبذل في ذلك جهدا كبيرا حقا .
كما حرص على وصف فنون الملاحة البحرية العربية وصفا تفصيليا دقيقا ،
وعلى مقارنتها في كثير من الاحيان بفنون الملاحة الغربية التي يتقنها هو ،
وعلى الاعتراف بأن الطريقة التي كان « النوخة » العربي يتعامل فيها مع
مركبه كانت تفعل ما لا يمكن أن يفعله هو أو غيره من القباطنة الاوروبيين ،
بالنسبة لتلك المراكب العربية ، وبالنسبة للمياه التي كان يجوبها . ولعلنا
لا نبالغ اذا قلنا أن دقة الكاتب وحرصه الشديد على التأكد من الأشياء
والوقائع سواء المحسوسة والملموسة عن الرحلات : أدواتها ، وأماكنها ،
ومناحي نشاطها ، وما يعمل المركب ، وما يفرغ أو سواها أقول ، لا نبالغ اذا
اعتبرنا هذا الجهد الدقيق ، النابع من المعاناة الغصبة العميقة ، يرقى الى
مرتبة الأثر الوثائقي ، الذي لا يستغني عنه المؤرخ في تسجيل ناحية هامة
من نواحي النشاط الحياتي التجاري للكوييتيين بوجه خاص ، وما يتصل
بذلك من أسفار ورحلات قريبة (كالغوص على اللؤلؤ) ، أو بعيدة كالاتجار
بالتنمر والسلع الأخرى ، كانت الرثة شبه الوحيدة التي يتنسم منها
الكوييتيون أنفاس الحياة قبل ظهور النفط .

وفوق ذلك ، فإن الكتاب لا يخلو من نفس قصصي ، نفس يدعو الى
التشويق ، ويشد القارئ اليه شدا قويا . فالكاتب يملك القدرة على سرد
الأحداث كأنها منظومة في قصة ممتعة ، يتلو بعضها بعضا كأنها سيناريو
فيلم جميل ، وكثيرا ما يأخذ بمجامع القلوب والألباب .

وقد برزت هذه الناحية الفنية ، أو الطاقة القصصية ، في مقدرة
الكاتب على رسم أشخاص الكتاب ، بمن فيهم النوخة ورفاقه من الأخذيين
بزماء المركب ، والبحارة ، والطباخ ، والموسيقي ، والمغني ، العاملين على
المراكب الكبيرة ، والغواصين على اللؤلؤ في مراكبهم الخاصة ، ومساعدتهم ،
وتجار اللؤلؤ ، والوسطاء الخ الخ - فهو يقوم برسم أشخاصهم حتى كأنك
تراهم أمامك بل وتلمسهم بيديك . لقد كان الكاتب بارعا حقا في رسم
لوحات ناطقة لكثير من الشخصيات ، فكانت في واقعيتها ، أحيانا ، أكثر
صدقا من الحقيقة . ولعل الإنسان لا يلقي هذه المقدرة الا في آثار كبار
الأدباء والكتاب ، ولا يتمكن بسهولة من الاهتداء الى لوحة ترسم شخصية
كتلك التي رسمها المؤلف للنوخة « نجدي » : القامة والملامح البدنية ،
والخصائص النفسية ، والحركات والتصرفات التي تنسجم مع التكوين
البدني والنفسي والانساني الخ . لقد وفق المؤلف في رسم شخصياته ، كما
وفق في سرد أحداث رحلته أكبر توفيق ، حتى جعل من كتابه ، وهو من أدب
الرحلات ، شيئا آخر ، بحيث أصبح فنا من الفنون ، أو نوعا من الأدب

القصصي الرفيع • ولعل شخصية « نجدي » بالذات ستخلد ، كما خلدت
شخص كثير في روايات وآثار عالمية ، وذلك لصدق المؤلف وتوفيقه الكبير
في رسمها نموذجاً ممتازاً لوعي العربي الخليجي أو الكويتي ، ولدرايته
وحسن تصرفه وتحفزه الدائم ، ناهيك عن كرمه الفطري ، وسماحة اخلاقه ،
وطيب سجاياء ، مع توفر الحزم والعزم والرجولة الكاملة الأصيلة •

ولم يقتصر الكاتب ، وأسلوبه الأدبي ومقدرته الفنية على رسم
الأشخاص ، بل امتدت الى الأشياء • فقد تحدث عن الموانئ التي تعج
بالحياة ، كما تحدث عن الموانئ الفقيرة المهجورة التي تتبعثر فيها الأشياء
وينتشر فيها التسول والمرض واللصوصية ، وأتى بمعلومات ، أو قل صور
حية ، عن أدق دقائق هذه الموانئ بما فيها ومن فيها ، وبصدق كبير ،
حتى كأنه يرسم خريطة نابضة ، تنبض - على الرغم من الكآبة التي تغلفها
في كثير من الأحيان - بكثير من الحيوية والجمال •

وليست النواحي الملاحية والبحرية هي أهم ما في الكتاب • بل ربما
كان تحليل الكاتب ووصفه للنواحي والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي
تقوم بين أفراد طاقم المركب من جهة وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة في
مدينة الكويت نفسها ، نقول ربما كان ذلك يزيد في الأهمية عن النواحي
الفنية البحتة التي تدخل في حقل اختصاص المؤلف • فهو يفتش في الرحلات
البحرية عند أصولها الاقتصادية وجذورها الاجتماعية ، ويجد وقتاً كافياً
ليتحدث عن الناس ، والأزياء ، والعادات ، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية،
والسمات الأخلاقية ، كل ذلك من خلال اللمسة الانسانية المعبرة التي تولدها
الصلات الانسانية الحميمة ، والتي تعتمد على استقاء المعلومات من مصادرها
الحية ، كما وصف كويت نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات كأصدق
ما يكون الوصف • ولعمري ، فقد كان لا بد لهذه الفترة أن تسجل ويدقق
فيها ، حتى يمكن النظر اليها عند تقييم ما حل بالكويت من تطور ، وما
أصابها من تجدد وتقدم بعد اكتشاف النفط • وستبقى صورة كويت ما قبل
النفط من أهم الصور وأجدرها بالتسجيل الدقيق ، بل لعلها من أكثرها
خلوداً وعراقة ، لأنها تاريخ لعهود طويلة ، ومئات من سني العرق والدموع
والجهد الأصيل المثابر ، والمقدرة على الصمود للتحدي وقسوة البيئة ،
وتحقيق عملية اختراق كبرى ونجاحات اقتصادية جاءت من ركوب البحر
وارتياد المجهل بصبر أخلاقي ، وجلد صوفي ، ومقدرة كبيرة على الإبداع
والإنتاج •

ليس من الممكن إيفاء الكتاب حقه في هذه العجالة ، إلا أنه لا بد من
ذكر ميزة خاصة يتعلّق بها ، ألا وهي الموقف المتعاطف مع الكويت ، المتفهم

لأوضاعها ومشاكلها ، سكانا ومكانا ، أفرادا وجماعات ، نظام حكم ورعية •
فلا يجد القاريء في هذا الكتاب شائبة من شوائب تشويه الحقائق أو نشوزا
في تفسيرها ، كما يفعل كثير من الغربيين الذين يكتبون عن هذا الجزء من
العالم • بل لقد ظل الكاتب في معظم الوقت مخلصا للحقيقة ، معجبا كل
الاعجاب بالكويت والكويتيين ، صادقا صدوقا ، متفقا مع وجهة نظر
الحكومة في الإصلاح التدريجي البطيء - وهي ما أثبتت الأيام صحتها
وحكمتها - متمنيا للجميع الخير والازدهار • قد يخطيء الكاتب - ولعل له
بعض العذر - عندما يتحدث عن موانئ وأشخاص آخرين غير الكويت
والكويتيين لا يستأثرون باعجابه ، ولكنه عندما يتحدث عن الكويت ،
ويتطرق الى الكويتيين ، فانه يحضهم الولاء ، وتنبض سطور كتابه بالتقدير
والاعجاب • وينقى هذا السنن سائدا وهو يجوب الآفاق مع الرحالة الكويتيين
من شرق أفريقيا الى جنوب الجزيرة العربية الى موانئ الخليج ، يشاهدهم
يبيعون ويشترون ، يغنون ويمرحون ، يأكلون ويشربون ، يعانون ما يعانونه
من التعب والشقاء وهم يغوصون الى الأعماق سعيا وراء اللؤلؤ
وفي كل ذلك نلمس بين السطور اعجابا للدرجة الدهشة والذهول أحيانا ،
كما نلمس فيما بين السطور أشياء أكثر من ذلك وأبلغ •



وبعد ، فهذه ترجمة لهذا الأثر النفيس ، موجهة لا للمختصين بأمور
الملاحة والتجارة البحرية فحسب ، ولا للدارسين الراغبين في تقصي أوضاع
الكويت الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في ما قبل النفط فحسب ، ولا
للمهتمين بأدب الرحلات أو بالأدب القصصي فحسب ، بل هي موجهة الى
القاريء المثقف بوجه خاص ، والقاريء العادي بوجه عام • وهي موجهة
بصفة خاصة الى الجيل الجديد والأجيال المقبلة ، من أبناء النفط في
الكويت ، الذين لا يعلمون الكثير عما قاساه آباؤهم وأجدادهم من شظف
العيش ومشاق الحياة ، سواء في المدينة أو في مواسم الغوص ، أو على
متون المراكب الكبيرة ، لعلهم يأخذون من ذلك عبرة ، ويستفيدون موعظة ،
ويسيروا على نهج السابقين في سمو الخلق ، وطيب المعاملة ، والصبر على
المصاعب ، والمثابرة في الجهد لبلوغ الهدف المنشود ، والتعاون مع بعضهم
بعضا ومع حكومتهم الرشيدة في السير بسفينة البلاد الى بر الأمان في هذا
البحر المتلاطم من الأوضاع العالمية المضطربة •

وبما أن الترجمة موجهة الى الجميع تقريبا ، فقد حرصنا فيها على
أمور ثلاثة : أما الأمر الأول فهو الأمانة التامة في نقل الأفكار والمعاني التي
يقصد اليها المؤلف (حتى لو كان فيها بعض الشطط أو الزلل ، أو ما لا يروق

لنا أو يعجبنا) • لقد التزمنا التزاماً تاماً بالنص الأصلي ، وتركنا للقارئ مهمة اكتشاف الخطأ ، أن وجد ، ولم نعلق على النص الا لتوضيح بعض الأمور أو لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة ، وخاصة الدينية منها ، أو لتحديد بعض المواقع الجغرافية • كما اخترنا من الصور التي حصلنا عليها من المؤلف ما يمكن أن يوضح بعض ما ورد في النص ، وذلك بإضافة صورة بصرية الى الصورة المرسومة بالكلمات •

أما الأمر الثاني فهو أننا ، مع حرصنا الشديد على الدقة في نقل الأفكار ، وتفاصيل الوصف للأشياء والأحداث ، لم نحاول أن نستخدم لغة أدبية خاصة يعسر على القارئ العادي أن يفهمها أو يستمتع بها • بل عمدنا الى استعمال لغة عادية ، سليمة بقدر الامكان ، عربية البنية والجرس ، في معظم الأحيان ، وتجنبنا التعابير الفنية الدقيقة المتعلقة بالبحر والملاحة والمراكب الا حيث لم يمكننا تجنبها ، ومندها جعلنا حاشية تشرح معانيها •

أما الأمر الثالث فهو أننا حاولنا ، بقدر استطاعتنا ، الحفاظ على التغييرات التي تطرأ على أسلوب المؤلف ، من الأسلوب الأدبي الرفيع ، الى الأسلوب الفني الدقيق ، الى أسلوب الكلام والخطاب العادي • ولم يكن هذا بالأمر السهل إطلاقاً ، خاصة وأنا وجدنا في أسلوب الكاتب ميلاً الى الاسهاب والتكرار الممل في بعض المواضع • ولكننا لم نحاول أن نتخلص من هذه المميزات وأمثالها ، بل أبقينا عليها ، رغم صعوبة ترجمتها ، لكي نكون أمينين مع أنفسنا ومع المؤلف ، ولكي يتمكن القارئ من أخذ الصورة الحقيقية من معاني الكتاب ومباني لغته •

وبإيجاز ، يمكننا القول أننا لم نحاول أن ننقل معاني الكتاب فقط ، بل حرصنا أيضاً على أن ننقل روح المؤلف ، وأن ننقل أيضاً الى تلك الدقة الأدبية الفنية التي امتاز بها كتابه • وزيادة في الأمانة والدقة ، فقد حرصنا على العودة الى بعض المراجع الموثوقة والى المخضرمين من الكويتيين أرباب البحر حتى نتبين بعض معالم ذلك التراث الغابر في بناء السفن ، وعادات البحارة ، وصفات تلك وأولئك الخ حتى أتت الترجمة ، كما نؤمل ونرجو ، جديرة بهذا الأثر ، وفاء لما بذل فيه صاحبه من جهد وما عانى فيه من معاناة ، راجين أن يصل هذا الكتاب الى قواد قارئه وعقله وأن يتفح الله به ، وأن يضاف الى المكتبة العربية سفراً يخلد مرحلة حساسة وهامة سبقت اكتشاف النفط ، ويسجل نشاط حياة الكويتيين بخاصة ، والخليجيين عامة ، ويؤرخ للأسفار والبحارة والبحار

وكان في كل ذلك شافيا وافيا كاشفا مبينا كاحسن ما يكون الكشف
والإبانة •

وقبل أن اختتم هذه المقدمة أجد لزاما علي أن أتقدم بالشكر الوافر
لعدد من الرجال الأفاضل الذين كانوا وراء هذه الترجمة أو ساعدوا في
اتمامها • ويأتي في مقدمة هؤلاء سعادة الشيخ جابر العلي الصباح ،
وسعادة الاستاذ جاسم المرزوق وزير التجارة ، والسيد محمد الرشيد ، رجل
الأعمال ، والنائب بمجلس الأمة ، وهم الذين كانوا وراء الفكرة والذين
عهدوا الي القيام بها •

كما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لجميع الاخوان الذين اطلعوا علي
الترجمة وزودوني بملاحظاتهم القيمة سواء من حيث المحتوى أو من حيث
الشكل والأسلوب • وهم كثيرون جدا أذكر منهم علي سبيل المثال لا الحصر :
معالي وزير التربية الدكتور يعقوب الغنيم ، والأخوة أحمد البشر الرومي ،
ومحمد أحمد الرشيد ، وسليمان الفهد ، والزملاء والأخوة الدكتور
داود عبده ، والدكتور علي سعود عطية ، والدكتور محمد الرميحي ، وقد
قام كل من هؤلاء بقراءة النص الكامل والتعليق عليه • كما أشكر الأخين
الكريمين الاستاذ عبد الرزاق البصير والدكتور محمد رجائي الدريني
اللذين اطلعا علي جزء من النص ، وأبديا ملاحظتهما القيمة علي ما قرآه •

وأخيرا وليس آخرا ، فلا بد أن أنوه بما أبداه سعادة الشيخ صباح
الاحمد الجابر نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الاعلام
بالوكالة من عناية واهتمام خاصين بالكتاب وتفضله بتصديره بكلمة تقديم
كريمة ، وكذلك فاني أتقدم لسعادته بعظيم الشكر والتقدير علي هذه اللقطة
الكريمة •

واني اذ أزجي الشكر لجميع هؤلاء علي العون الذي قدموه ، فاني اعترف
لهم بالفضل علي عونهم ، ولكنني احتفظ لنفسي بمسئولية أي تقصير يوجد
في هذه الترجمة التي بين يدي القارئ •

والله الموفق وهو من وراء القصد •

الدكتور / نايف خرما

جامعة الكويت

الكويت : ابريل (نيسان) ١٩٨١

مقدمۃ المؤلف

فى أواخر عام ١٩٣٠ اضطرت لبيع السفينة « جوزف كونراد » ، التى كانت بحالة جيدة جدا وهى تستخدم كمعهد تعليمى • بمتها لقلۃ الاهتمام القومى بها أو بأية سفينة مثلها سواء فى بريطانيا ، أو فى الولايات المتحدة ، أو فى وطنى استراليا • فمقدت العزم على التوجه الى المحيط الهندى ، والابحار مع العرب فى مراكبهم • لقد أزعجنى التخلّى عن سفينتى ، لأنه كان من الواضح أن الحاجة لمثل تلك المراكب لا بد أن تشتد فيما بعد • ولقد اشتدت الحاجة لامثالها بالفعل ، ولكنى ، على ما يبدو ، كنت سابقا لزمانى • وقد احتفظت بالسفينة أطول مدة ممكنة ، وأبحرت فيها برحلة حول العالم •

ثم علمت أن العرب وبعض الهنود والصينيين وأهل الملايو ما زالوا يبحرون فى مراكب شراعية • وكنت أعرف أن العرب ما زالوا يحتفظون ببعض تفوقهم السابق فى الملاحة فى المناطق الاستوائية من المحيط الهندى ، ذلك التفوق الذى لم يتغير نسبيا ، ربما لمدة ألفى سنة ، والذى ورثوه مباشرة عن الفينيقيين واستمروا فيه بالرغم من اكتشافات فاسكودى جاما ، وشق قناة السويس ، واستخراج النفط العراقى والايرانى وماالى ذلك • بالسحر العودة الى ذلك العالم ! فأنا أعرف أن مغامرات العرب البحرية المشهورة تعود الى فجر التاريخ المعروف • ولقد عرف هؤلاء البحارة الاكفياۃ فترتين عظيمتين على الاقل : أولاهما تلك الفترة التى ازدهر فيها علم الفلك وعلم الرياضيات اللذان نبعت منهما فكرة الملاحة الفلكية ، وثانيتها تلك الفترة التى شهدت السيطرة العربية قبل أن يشق البرتغاليون ، فى وقت ليس بالبعيد ، الطريق الاوروبى الى مياه آسيا ، حول ذلك الرأس الذى سموه « رأس الرجاء الصالح » • صحيح أن العرب ما عادوا يهيمنون على البحر الآن ، غير أنهم على أية حال ما زالوا موجودين هناك •

ولأن هؤلاء البحارة العظام السامىي الاصل ما زالوا معنا ، فان أحدا لم يعد يهتم بهم كما ينبغى • ولكن الامر كان يختلف بالنسبة لى • فقد كنت أعرف الخلفية اللازمة فى هذه الحالة ، وكان لدى الوقت والميل وكل الخبرة

التي يمكن اكتسابها من ركوب السفن الشراعية الاوروبية . كما كنت أمل أن تكون قدرتي على تحمل المشاق ما زالت بخير . ولم يكن هذا يقلقني كثيرا ، ولكنني كنت متسرعا في الظن بأنني على استعداد لاحتمال جميع المصاعب التي يأتى بها البحر ، ما دمت قد بقيت على قيد الحياة بعد تجارب عديدة شملت الالتفاف عدة مرات حول رأس هورن (١) فى فصل الشتاء ، كما شملت رحلة رائدة لصيد الحيتان فى بحر روس فى المنطقة القطبية الشمالية . (ولقد تبين لى فيما بعد أننى كنت متفائلا جدا لأننى عندما أبحرت مع العرب أصبت مرة بالعرج الشديد لمدة ثلاثة أشهر تقريبا ، كما أصبت أيضا بالعمى المؤقت لمدة شهر من تلك الاشهر الثلاثة) .

ولقد وضعت برنامجا لخمس سنوات أكرسها للبحار فى المياه الشرقية ، أولا مع العرب ، ثم مع الهنود ، ثم مع الباكستانيين من بحارة شيتا جونج (٢) ونهر براهماپوترا ، وبعد ذلك أنتقل الى مرفأ زمكاسر فى جزيرة سيلابس (٣) ، فسنغافورة فمياه أندونيسيا ، ويمكن أن أنتهى بمياه الصين واليابان . لقد كان ذلك كله جديرا بالانجاز وقد عزمت أن أقوم به ، لأنه لم يكن لدى أحد غيرى خطط كهذه . فقد كان السائد عند البحارة الاوروبيين والامريكيين ومعظم الدارسين للمعلوم البحرية أن يهملوا انجازات الآخرين ومعلوماتهم اهمالا تاما .

هل قلت انها خطة خمسية ؟ لقد كنت منطئا ، فقد كان من الممكن أن يستغرق ذلك عشر سنوات . ولكن ما حصل فعلا أنه فى عام ١٩٣٨ لم يبق لى غير هامين حافلين بالنشاط فى هذا الميدان . فباستثناء مدة أخرى فى نهر براهماپوترا ، وبعض الوقت فى جزر مالديف (٤) كانت هناك تغييرات وشيكة الحدوث أدت الى وضع نهاية سريعة لذلك المجال من النشاط .

لقد كانت خطتى أن أبحر فعلا فى جميع أنواع السفن الاسيوية التي يمكن أن أمثر عليها ، والا أكتفى بمشاهدتها عن بعد . فقد أردت أن أرى كيف تجهز بالرجال والقادة ، وكيف يقوم هؤلاء بالملاحة عليها ، وإدارة دفتها ،

(١) هو الرأس الواقع فى أقصى الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية (المترجم) .

(٢) شيتا جونج : مرفأ فى البنغال الشرقية (المترجم) .

(٣) سيلابس (اوسولاوى) هى إحدى جزر اندونيسيا (المترجم) .

(٤) مجموعة من (٣٠٠٠) جزيرة تكون دولة مستقلة فى المحيط الهندى جنوب غرب جزيرة

سيلان او سيرالانكا (المترجم) .

وكيف كانوا يقومون بتسيير أمور رحلاتهم وتجارتهم ، وكيف كانوا يصونون تلك السفن ويمولونها ، وكيف كانوا يستطيعون أن يحافظوا فيها على مجموعة من الخدمات الضرورية اللازمة لملاحتهم كما يحتفظون باحتياطي من الضباط والبحارة الكفيا لخدمتها . أما الاسئلة الاكاديمية عن تطور أنواع السفن المختلفة وسلالاتها وما الى ذلك ، فلم تكن تهمني ، كما أنها ليست من اختصاصي . فان بالامكان دراسة سلالات المراكب وهي عاطلة عن العمل ملقاة على رمال الشواطئ .

حاولت بادئ ذي بدء أن أكتشف ما هو معروف عن الملاحة العربية ، وما هي المعلومات المكتوبة المتوفرة عنها ، غير أنني لم أجد من ذلك شيئا يذكر . فلقد علمت أنه ليس في اللغة العربية أية مراجع عنها ، بل ولا إشارة أقدم من تلك الاشارات المحدودة الموجودة في العهد القديم والمكتوبة باللغة العبرية . فقد كان البحارة العرب من النوع المتكتم لأسباب وجيهة ، فقد احتفظوا لأنفسهم بأسرار المهنة التي كانوا قد تعلموها بشق الأنفس حتى أنهم لم يتركوا أثرا واحدا يوثق به عن السفينة الفينيقية القديمة . أما الرحالة العربي ابن بطوطة في القرن الرابع عشر فقد كان مهتما بالناس وبالجغرافيا أكثر من اهتمامه بالسفن والملاحة ، وقام بمعظم رحلاته برا ، وهذا ينطبق على باقي الرحالة المسلمين المعروفين .

وكل ما توصلت اليه هو أن أحدث مؤرخ أوروبي للملاحة في البحار الآسيوية كان الرحالة ماركوبولو (١) ، الذي شارك في رحلات عدة في سفن كبيرة في تلك المياه ، ولكن ماركوبولو لم يكن بحارا . أما ذلك العدد القليل من الاوروبيين المعروفين برحلاتهم في الجزيرة العربية من أمثال : دوتي ، ولورانس ، وستارك ، ونيبور ، وبيرترام توماس ، وبل ، فقد بقوا على البر الذي كان له سحره الخاص عندهم . أما بيرتون فقد كان أحيانا يسافر في بعض المراكب الشراعية التي تقوم برحلات قصيرة ، وكذلك فعل انجرامز وقلة آخرون . ولكنهم كانوا جميعا رحالة بر

(١) ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) هو الرحالة الايطالي الذي سافر برا الى بلاد المشرق حتى وصل الى الصين عن طريق صحراء جوبي الشهيرة (١٢٧١ - ١٢٧٤) ، حيث ظل في خدمة حاكم الصين الشهير كوبلاخان (١٢١٦ - ١٢٩٤) سبعة عشر عاما ، عاد بعدها بحرا عن طريق سومطرة الى بلاد فارس (١٢٩٢ - ١٢٩٥) ، ومن هناك برا الى بلاده . ويعتبر كتاب رحلاته أقدم اثر سجل فيه رحالة أوروبي مشاهداته الفعلية المباشرة عن بلاد الشرق (المترجم) .

يضطرون أحيانا لركوب المراكب لفترات قصيرة ، للوصول الى بعض الاماكن التى يرغبون فى زيارتها ولذلك لم تتح لهم الفرصة الكافية لدراسة هذا النوع من الملاحة البحرية ، حتى لو كانوا يرغبون فى ذلك .
وجل ما كان يحدث لهم هو أن يتغير نمط حياتهم الاوروبى ، بسبب أسفارهم ، تغيرا مؤقتا ، كما أن الاخلاق العربية الاصيلية ، التى كانت تدفع العربى لتقديم كل ما يستطيع لهم ، جعلتهم لا يشعرون بأكثر من تغير طفيف مؤقت فى نمط حياتهم المألوفة .

بعض المراكب العربية الشراعية تم الاستيلاء عليها ، عندما كانت تتعامل فى تجارة الرقيق الممنوعة . ولكن اذا اعتبر التقرير الذى خلفه القبطان كولومب ، قائد السفينة الحربية البريطانية « درياد » ، دليلا على شيء ، فقد علمنا منه شيئا واحدا ، هو أن تلك المراكب كانت مراكب سريعة ، ولقد روى سير آرنولد ويلسون فى عام ١٨٧٣ عن قبطان أحد تلك المراكب قوله « اذا ما جعلنا حبة كمثرى حادة من طرفها الرفيع ، وقسمناها طوليا الى نصفين ، فان كلا من النصفين يشبه الى حد بعيد ، المركب العسائى شيء ، فقد علمنا منه شيئا واحدا ، هو أن تلك المراكب كانت مراكب سريعة .
أن المقدمة يجب أن تغوص فى الماء بعمق ، بينما تطفو المؤخرة برشاقة فوقه ، وهى فى هذا تختلف عن نماذج السفن الاوروبية المعروفة عالميا ، الا أن هذه المراكب سريعة جدا ، فان أسرع السفن الحربية وهى تمخر عباب اليم بقوة الشراع والبخار معا ، لا تكاد تدركها اذا حاولت مطاردتها فى ربح خفيفة .
الا أن المركب العربى على وجه العموم يسرب المياه ، واذا لم تكن نسبة كبيرة منها تغرق ، فهذا يعود الى قربها الدائم من الشاطئ ، لا الى قوة هيكلها ، فان قطرها بأية سرعة يمكن أن ينتج عنه تحطيمها » (١) . وهذا الكلام صحيح تماما . اذ أن رسما رديئا لبغلة فى شط العرب يرافق هذا الكلام ، ويرينا مركبا ذا هيكل شبيه ببرميل كبير جدا ، ورشاقة تعادل رشاقة فيل سمين .

لقد سبق أن رأيت مراكب من نوع البغلة والسنبوك فى جيبوتى وعدن ، وعرفت عنهما أكثر مما سبق لنا ذكره . فسواء كانت صغيرة أم كبيرة ، فان خطوط هيكلها كانت ممتازة ، وأشكال أجسامها جميلة . فقد كانت رشيقة

(١) من كتاب Sir Arnold Wilson : The Persian Gulf (O.U.P.), 1928

أما الدراسة الممتازة بعنوان « الملاحة العربية فى المحيط الهندى » التى قام بها جورج فضلو حوراني فلم تنشرها مطبعة جامعة برنستون حتى عام ١٩٥١ (المؤلف) .
كتاب جورج حوراني تمت ترجمته الى العربية على يد الدكتور السيد يعقوب بكر تحت عنوان « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » ونشرته مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٥٨ م (المترجم) .

رشاقة طبيعية ، كما لو كان أولئك الذين بنوها قد تعلموا منذ مدة طويلة كيف يصنعون أفضل شكل من أشكال المراكب السريعة ، ثم احتفظوا بتلك المعرفة لأنفسهم . ان التقارير التي تصف تلك المراكب بأنها ذات مقدمات منخفضة ، ومؤخرات كأكوام القش ، ان دلت على شيء ، فانما تدل على قوة ملاحظة ضعيفة ، لأن انحراف هذه المراكب يتجه نحو مقدمتها . كما أن في البفلة حصنا في المؤخرة ، مبنيا بشكل مزخرف ، ومقتبسا من مراكب الرواد البرتغاليين . فقد تركت السفن البرتغالية الضخمة أثرا حسنا لدى العرب ، لأنها كانت تقوم برحلات طويلة شاقة ، كما أنها كانت تصلح لحمل المدافع بقوة وثبات أكثر من مراكبهم ، بالإضافة الى أن مؤخراتها كانت مكانا مناسباً للقتال .

ان الفكرة القائلة بأن المراكب العربية تعتمد على شاطئ قريب لانزال الناجين عند غرقها ، هي فكرة أكثر غرابة مما سبق . فان المراكب الجميلة التي رأيتها كانت قد قامت برحلات بحرية طويلة ، بعضها الى ساحل افريقيا الشرقي ، وبعضها الى الساحل الغربي للهند . وقد كانت تقوم برحلاتها بعيدا عن الشواطئ المناسبة .

لقد قام القبطان كولومب وزملاؤه الضباط بمهمة عظيمة في طرد بعض مراكب تجارة الرقيق من البحر ، ولكن يبدو لي أنهم لم يعرفوا الا النور اليسير عن تلك المراكب . وقد بدا لي غريبا أيضا أنني ، في جميع الكتابات التي قرأتها عن المراكب الشراعية الحقيقية والمزومة ، لم أجد أية إشارة من « خبير » أوروبي أو أمريكي واحد يشير الى أن البحارة العرب (أو الساميين) عرفوا طريقة بناء المراكب الشراعية السريعة ، والابحار عليها منذ قرون طويلة ، هذا ان لم يكن قبل عصر المراكب الشراعية الأوروبية بآلاف السنين . وربما يعود ذلك الى أن المراكب العربية لم تعتبر مراكب صالحة للملاحة في المياه العميقة ، أو ربما لأنها لم تكن تستطيع منافسة السفن الحديثة المبنية في العالم الغربي . وقد تسبب هذا في إهمال دراسة هذه المراكب . وعلى كل حال فان من الواضح أن أحدا لم يهتم بمعرفة الشيء الكثير عنها .

لم يكن العرب يفخرون برحلات قياسية أو بسرعة مراكبهم ، وما الى ذلك ، كما لم يفخر أحد بذلك نيابة عنهم ، فقد كانت جميع المراكب سريعة جدا ، ولم يكن هناك داع للفخر . لقد كانت المنافسة تجري للاعلان عن السفن الشراعية التجارية

الأوروبية بقصد ترويج التجارة، على غرار مايجرى الآن في شارع ماديسون، ولكن لم يكن في شبه الجزيرة العربية ما يشبه شارع ماديسون (١) .

لقد قام العرب برحلاتهم بهدوم وفاعلية ، وكذلك فعل الهنود وأهل الملايو والصينيون . وعندما كان يحدث أن تؤدي الاضطرابات السياسية وعدم الاستقرار في التجارة في المياه الآسيوية البعيدة ، الى جعل الرحلات الى الصين بعيدة المنال بحيث تفقد غير مجزية ، كان لأهل الملايو أرخبيلهم الخاص ، وللعرب والهنود سواحلهم ، بالاضافة الى مياه المحيط الهندي بكاملها ، حيث يمكنهم السفر والتجارة .

ان قدوم البرتغاليين وقيام الرحالة فاسكودى جاما برحلته الرائدة الى موانئ الهند الفنية ، مستعينا بالبهار العربية ابن ماجد ، وكذلك قدوم الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين من بعدهم ، أثر في التجارة الأوروبية ، وعلى الأخص في احتكارهم للبحر الابيض المتوسط . غير أن الاساطيل الشرقية بقيت مزدهرة ، بطريقتها الخاصة المعروفة ، وعلى رأسها المراكب العربية ، التي كانت تجوب الجزء الغربي من المحيط الهندي ، وتبحر الى ساحل افريقيا الشرقى ، وموانئ الهند الكبيرة ، ولاشك أن الأوروبيين ساهموا في ذلك بتوفير عدد أكبر من الموانئ وزيادة حجم التجارة، كما كانوا يقومون بتجارة البهارات والحريز وكنوز الشرق لحسابهم الخاص . الا أن هذه الاشياء ، رغم قيمتها لم تستطع أن تزودهم بشحنات كاملة لمراكبهم ، وبقي اعتماد التجارة على السلع الضرورية للحياة .

وبمرور الوقت قام الأوروبيون بتحديد مداخل الموانئ ، والرؤوس البرية ، وزودوا البحارة الآخرين بالخرائط والخدمات ، وساعدوا على الاستقرار السياسى في بعض البلدان من أن لآخر . وقد كان هذا الاستقرار السياسى نعمة ، الا أن العربى ، في الحقيقة ، لم يكن بحاجة لمساعدة الأوروبيين في فنون الملاحة ، فقد كانت معرفته بالملاحة مبنية على المعاناة الشخصية ، النامية معه منذ كان صغيرا ، كما كان يبحر في مواسم معينة عندما تكون الرياح الموسمية مؤاتية فقط . وكان علي أن اكتشف هذه الأشياء . فلم تكن

(١) شارع ماديسون هو الشارع الذى تقع فيه أو قريبا منه معظم مؤسسات الدعاية والاعلان الكبيرة فى نيويورك (المترجم) .

هناك مراجع أو كتب خاصة بالموضوع منذ كتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر » (١) الذى وضعه الاغريق فى بداية العهد المسيحى ، بعد أن اكتشف فلاح يونانى اسمه «هيبالوس» (٢) ما كان البحارة الشرقيون يعرفونه ويستعملونه لسنوات لا تحصى ، ألا وهو النظام الموسمى للرياح فى شمال المحيط الهندى .
ففى ذلك المحيط كان من الممكن الاستفادة من حركة الرياح أو الفصول الموسمية ، التى تتناوب بين شمالية شرقية وجنوبية غربية ، لمساعدة السفن فى رحلاتها المكوكية . وربما يجدر بنا أن نستعمل كلمة « فصول » بدل كلمة « رياح » ، لأن ما ندموها بالرياح الموسمية ليست مجرد رياح فى الواقع ، بل هى فصل من فصول السنة تهب خلاله معظم الرياح البحرية من جهة معينة . ولقد قال خلفام هيبالوس بأن مراكب المياه الاستوائية فى المحيط الهندى كانت تبحر باتجاه الجنوب مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وفى طريق العودة كانت تتجه شمالا أمام الرياح الجنوبية الغربية ، وكان الكلام نفسه ينطبق على الرحلات التى كان العرب يقومون بها عبر بحر العرب بين الجزيرة العربية وشرق افريقيا والهند .

لكن حتى الجاهل بأمور البحر يعرف تماما أن المراكب الشرقية لم تكن بحاجة الى رياح تهب من خلفها مباشرة للقيام برحلاتها . وفى الحقيقة أن تلك المراكب لم تكن بحاجة الى ذلك ، اذ أنها كانت مراكب صالحة للابحار فى جميع الظروف المناخية المناسبة ، كما أنها تستطيع الابعار ، وهى أقرب الى اتجاه معاكس للرياح ، بصورة أفضل من مثيلاتها من السفن الأوروبية ، فالمراكب الشراعية العربية لم تكن فى رأى ، تحتاج الى رياح مؤاتية بالمعنى الدقيق .
فقد كان العربى ، على ما اعتقد ، يبحر فى الفصل الذى يكون فيه الطقس حسنا ، أى حين تكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لا الجنوبية الغربية هى التى تهب ، فقد كان فصل الرياح الجنوبية الغربية ذا طقس سيئ ورؤية أسوأ ، والمراكب التى رايتها لم تكن مجهزة بشكل يجعلها تتحمل كثيرا من طقس العاصف . ولم تكن فى الحقيقة بحاجة الى ذلك لأنه كان باستطاعتها أن تقوم برحلاتها السنوية ذهابا وإيابا خلال المدة التى يكون فيها الطقس جيدا .

(١) الكتاب هو : The Periplus of the Erythraean Sea : by a merchant of the First Century, (London : Longmans), 1912.

(٢) ورد اسمه فى الكتاب السابق على أنه عرف سر الرياح الموسمية وبالتالي الطريق الى الهند . راجع الكتاب التالى : انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة « عالم المعرفة » التى يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، عدد ١٣ يناير ١٩٧٩ ، صفحة ١٩ (المترجم) .

لقد درست كتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر » بالطبع واطلعت على نظرية الاقلاع فى فصل الرياح الموسمية • ولكن بالنسبة لبحار خبير بالمراكب الشراعية مثلى لم تكن لمثل تلك النظرية أية قيمة عملية ، كما أنها لم تكن بأي شكل من الاشكال ضرورية للمراكب العربية •

ولم يكن الامر بالنسبة لى أمرا نظريا بحثا فلقد أبحرت قليلا فى المحيط الهندى ، كما أن بحارة أشهر منى مثل جوزف كونراد أبحروا فيه أكثر منى • وكانت احدى الطرق التى كانت تسلكها المراكب الشراعية الكبيرة ذات الأشرعة المربعة الشكل ، المسافرة من موانئ استراليا الجنوبية وهى تحمل القمح الى اوروبا خلال شهور الصيف ، هى الدوران حول رأس ليوين فى الطرف الجنوبى الغربى من استراليا ، ثم مواجهة المنطقة الاستوائية ذات الرياح التجارية الجنوبية الشرقية فى المحيط الهندى ، والاتجاه من هناك غربا عندما يتحسن الطقس • وكنت قد سلكت تلك الطريق عام ١٩٢١ فى المركب الانجليزى الكبير ذى الصوارى الاربعة ، والمسمى « بلاندر » ولقد هبت علينا فى ذلك الوقت عاصفة غبارية سيئة فى مكان ما بالقرب من جزيرة موريشيس • وكان كونراد يقود السفينة « أوتاجو » فى منطقة الرياح التجارية حول جزيرة موريشيس • ولقد علمت أنه كان قد أبحر فى اتجاه الشمال حول استراليا ، فى رحلة من سيدنى الى جزيرة السكر ، ولكنه لم يكرر المحاولة مرة أخرى • وفى الفترة التى سبقت شق قناة السويس كانت السفن الشراعية الأوروبية الكبيرة تنقل كميات كبيرة من الجوت الهندى والارز البورمى ، وقد بقى لها نصيب صغير من هاتين التجارتين حتى عام ١٩١٤ •

وقد وجدنا نسخة من دليل المحيط الهندى (١) تأليف فندلى (وهو يعتبر افضل مرجع عن المراكب الشراعية) على ظهر السفينة بارما (التى كانت تسمى السهم) عندما اشتريناها عام ١٩٣١ • ووجدنا فيها اشارة صائبة جدا الى موضوع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية • يصف فندلى تلك الرياح بأنها « أخطر الرياح التى يمكن ان يواجهها الانسان فى أى مكان فى العالم » • ثم يتابع قوله محذرا « من العنف الشديد والعواصف المدمرة ومن الظواهر الكهربائية المخيفة الكثيرة الحدوث • »

(١) عنوان الكتاب « دليل الملاحة فى المحيط الهندى » تأليف الكسندر جورج فندلى •
(A. Findlay : A Directory of the navigation of the Indian Ocean
الطبعة الرابعة سنة ١٨٩٧ • قبل أن يصبح « السهم » مركبا تابعا لشركة النفط
الانجليزى امريكية ، كان فى الاصل ينقل النفط فى البراميل الى بلدان الشرق الاقصى •
(المؤلف) •

وقد كنت أتساءل : هل يمكن أن يبحر العرب بانتظام فى هذا النوع من الطقس؟ وفى مراكب خشبية صغيرة ذات بناء ضعيف بحسب المقاييس الأوروبية وذات أشعة ضخمة مثلثة الشكل ، وغير مزودة بأية معدات لتسهيل ادارتها كما هو الحال بالنسبة للأشعة الأوروبية ؟ لم يكن بمقدورى أن أصدق ذلك وكان هذا هو أحد الجوانب الكثيرة للملاحة العربية التى قصدت دراستها . وكان الواضح أنى كلما أسرعت فى الذهاب الى بلاد العرب كان ذلك أفضل وأكثر جدوى .

ولكن مبرر ذهاب الانسان الى الجزيرة العربية لا يعنى أنه يستطيع أن يكتشف الكثير عن تجارة العرب البحرية او عن أى شىء آخر . ولم يكن من المفيد بأى شكل من الأشكال أن أسافر على ظهر سفن بخارية ، وأن أجلس فى الموانئ وأتحدث مع الأوروبيين أو مع عدد قليل من الآسيويين ، الذين ربما تكون لغتهم الانجليزية أفضل من معرفتهم بالملاحة البحرية . بل كان علي أن أبحر فى مراكب عربية ، وأن أبقى على متنها عدة سنوات اذا اقتضى الأمر ، وأن أتعلم لغة البحارة وأن أكسب ثقتهم . ومن المعروف أن بحارة المراكب الشراعية الأوروبية والأمريكيين مجموعة تصطبغ بالصبغة الدولية، يعرفون كيف يتمايشون مع بعضهم بعضا . ولذلك فانى لم أجد أية مشقة فى الإبحار مع الفنلنديين والنرويجيين والبرتغاليين والألمان ، وأهل بيرو ، على مراكبهم الشراعية . فقد كان عمل البحارة واضحا ، وكذلك ادارة المراكب . وانت واحد من اثنين ، اما انك تعرف هذه الامور أولا تعرفها . فان كنت تعرفها ، يمكنك أن تنسجم بسهولة مع زملائك البحارة ، مهما كانت جنسياتهم . فهناك لغة مشتركة فى البحر مبنية على اللغة الانجليزية ، وكنت أتوقع ان أجد شيئا شبيها بهذا فى المحيط الهندى أيضا (فقد كانت هناك كثير من اللغات كالسواحلية على الجانب الأفريقى ، والهندوستانية فى المياه الهندية ، ولغة الملايو فى أرخبيل الملايو ، واللغة العربية فى كل مكان ، أو على الأقل بين المسلمين ، ولكن لم يكن باستطاعتى فى ذلك الوقت أن أستخدم أيا من تلك اللغات التى تحتاج الى كثير من الوقت لاتقانها) .

لقد كان هناك عدد من المتشائمين،الذين قالوا أن الجزيرة العربية بلاد خطيرة ، وأن حياة الانسان رخيصة فى كثير من أجزائها ، ونصحونى بأن أبدا رحلتى بالاستعداد لذلك وذلك بالتعرف على الأشخاص ، المناسبين على الأقل، فقد كان للبريطانيين وجود من نوع أو آخر فى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا عن طريق المعتمدين السياسيين . فكان هناك حاكم وعدد من الموظفين فى عدن ، ومستشار للسلطان مقيم فى حضرموت ، وضباط سابقون فى الجيش

الهندي في مسقط والكويت ، ومعتمد سياسى رفيع الشأن في البحرين • وهكذا ومن خلال هؤلاء ، كان هناك نوع من الاتصال بينى وبين الشيوخ والامراء المقيمين على السواحل ، باستثناء المناطق النائية من اليمن والعربية السعودية •

وكنت قد سمعت أيضا من دوايت لونج (Dwight Long) أنه كان قد وجد نفسه في مأزق صعب مرة أو مرتين عندما كان يغادر مركبه الشراعى الصغير (Idle Hour) وهو في البحر الاحمر ويذهب الى الشاطئ • ولذلك رايت أن من المناسب أن يعلم هؤلاء الموظفون بوجودى • وقد كان من المنتظر على أية حال أن تتسرب اليهم أخبار وجودى وأنا على مقربة منهم ، خاصة أنه كان هناك رجل فرنسى زعموا أنه يهرب الاسلحة الى اليمن فى مركب عربى ولم أشأ أن يخلطوا بينى وبينه •

وقام صديقى ، أمير البحر ، سيرويليام جودنف (William Goodenough) المتقاعد من الاسطول الملكى ، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، التى كنت زميلا فيها ، بالاتصال مع الرسميين بالنيابة عنى • وكان هذا مشهورا بإدارته للطرادات الخفيفة فى معركة جتلاند (Jutland) ، كما كان أيضا أحد القلائل الذين شجعونى عند قيامى برحلة المركب « جوزف كونراد » • ولقد كان السير ويليام رجلا هادئا قادرا على انجاز الاعمال التى تطلب منه • ولم يمض وقت طويل حتى كنت قد قابلت المستشار البريطانى لسلطان حضرموت فى المكلا - الميناء الكبير فى جنوب الجزيرة العربية - وحصلت منه على توصيات مكتوبة باللغة الانجليزية الى الحاكم البريطانى فى عدن ، وإلى المقيمين البريطانيين فى مسقط وفى أماكن أخرى ، وتوصيات باللغة العربية الى عدد من الامراء والسلطين والشيوخ الموجودين فى المناطق الساحلية الواقعة على البحر الاحمر والخليج العربى • كما قام الشيخ حافظ وهبه ، سفير الملك ابن سعود فى لندن حينئذ ، بكتابة فقرة أو فقرتين باللغة العربية فى جواز سفرى •

لقد كانت جميع هذه المستندات ضرورية جدا ، وقد ثبت لى انها وسائل لا تقدر بثمن لاقامة الاتصالات التى احتجت اليها فيما بعد • وبالرغم من ذلك فقد حدث أن وصلت مرة الى جيزان عندما كان الامير نائما ولم يجرؤ أحد على ايقاظه - وكانت النتيجة أننى وجدت نفسى فى السجن لفترة مؤقتة • وفى مناسبة أخرى كان سلطان « شعر » مهتما جدا بأمر سلامتى وصحتى أثناء وجودى فى بلاده ، لدرجة أنه تحفظ على فى قصره الضخم ، المحروس حراسة شديدة ، طوال المدة التى كان فيها مركبى راسيا فى مياهه •

وكان هذا رجلا لطيفا ، ذا سوائف حمراء ، غير ميال للمغامرة • وفي سجن جيزان كان الحاكم يؤنسني بارسال الشاي والحلوى ، ولكن كان على أن انتظر طويلا ، وشاركني في السجن عدد من المجرمين ، الذين كان بعضهم مقيدا بالاصفاد ، وكان منهم من قطعت يده ، وكان هؤلاء من اللصوص الخطرين حسب قول الحاكم • وكانوا جميعا يعتمدون على كرم أقاربهم أو على المارة لعلهم يتناولونهم بعض الطعام من خلال القضبان الحديدية •

ولقد أوصلتني مساعدة السير ويليام الى عائلة الحمد الكويتية في ميناء عدن ، (١) حيث كان الاخوان الصغيران ، على وعبد الله عبد اللطيف الحمد ، يديران تجارة العائلة في منطقة ممتدة من جدة ، وهي ميناء مكة ، الى بربرة في الصومال البريطاني آنذاك ، ومن أديس أبابا في داخل الحبشة الى المكلا وسحر في حضرموت • وكان من الواضح أن نفوذهما يصل الى كل ميناء صغير أو كبير على جانبي البحر الاحمر وعلى ساحل أفريقيا ، حتى آخر ما تستطيع المراكب العربية الوصول اليه ، (وهو ما يمكن أن تصل اليه الرياح الموسمية الشمالية) • وبمساعدة الاخوة الآخرين ، والاقارب المباشرين ، كان الاخوان يديران أمور المراكز التجارية العربية في الهند والعراق وايران وعسير والحجاز ، وكثير من مناطق العربية السعودية • وكانت لهم مصالح في المراكب الكويتية المشهورة (البوم) التي كانت تسير بانتظام في المحيط الهندي • كما كانوا يستأجرون سبابك البحر الاحمر وما شابهها لتوزيع السلع من عدن الى جيبوتي وبربرة وأرتريا وعسير وجدة • (٢)

وقد أخبرني على ونحن نحتسى القهوة في مكتبه في عدن ، أن لديه سمبوكا ممتازا يدعى « الشيخ منصور » كان يحمل بالبضائع في تلك اللحظة وكان سيتجه الى جيزان في خلال يوم أو يومين وعرض على أن أسافر عليه وقد وافقت على ذلك بالطبع مع أنه خيل الى أنني رأيت نظرة ذات معنى في عيني علي السوداوين ، وكأنه كان يستمتع بشيء ما • ولقد أدركت معنى تلك النظرة عندما التحقت « بالشيخ منصور » في المساء التالي ، وكان التاريخ ٨ نوفمبر ١٩٣٨ • فقد تبين لي أن ذلك السمبوك كان أباس مركب بين ما ينوف عن مائة مركب كانت متجمعة في ميناء المعلا في ذلك الحين ، بالرغم من أنه كان يبدو على البعد مركبا صغيرا رشيقا ذا

(١) عائلة الحمد كانت تتكون من خالد ويوسف واحمد وعلي وعبد الله ، وكان مركز تجارتهم الكويت ، مع فرع في البصرة ، ووكيل في بومباي بالهند • وكان كل منهم يختص بفرع من فروع التجارة • وقد توفي منهم احمد وعلي وما زال الباقيون على قيد الحياة ، واكبرهم خالد وقد جاوز المائة من العمر (المترجم) عن احمد البشر الرومي) •

(٢) انظر الملحق رقم (١) بادناه للتعرف على اوصاف هذه المراكب وغيرها (المترجم) •

مقدمة ومؤخرة متشابهتين ، ومنظر بديع يشير الى سهولة انسيابه فوق الماء . وكان طوله ٥٥ قدما وعرضه ١٤ قدما ، وعمق غاطسه ٦ ١/٢ قدما . ولم يكن له سطح ، ما عدا منصة صغيرة فى المقدمة ، وأخرى فى الخلف ، تستعملان لتشغيله . وكان يؤمل أن يحميه من البحر حصير من سعف النخل على الجانبين ، مخطط على الألواح العلوية ، وممدود على أعمده خشبية خفيفة ، مثبتة على جذوع من الشجر ذات شعبتين ، يبلغ ارتفاع كل منها حوالى ثلاثة أقدام . وكان للمركب صاربان ، وشرع واحد ، مصنوع من القطن الخفيف ، تشده فى الزوايا السفلى قطع من الخيش . ولم يكن فى المركب سوى قارب صغير مصنوع من جذع شجرة ، كما لم يكن فى أى جزء منه مكان يأوى اليه الانسان . وبدلا من المضخة التى يمكن أن تستعمل لتجفيفه من الماء ، كان هناك عدد من الصبيان يقومون بنزح الماء من جوفه بواسطة صفائح كاز قديمة ، وكانت رائحة ذلك الماء كريهة جدا ، كما كان الهواء المحيط بالمركب محملا بالروائح الكريهة أيضا . وحتى مياه خليج الملا كانت تبدو وكأنها تتألم لما شديدا كلما سكب فيها الاولاد صفيحة من ماء المركب القذر الكريه الرائحة .

لقد كان هذا المركب نتاجا واضحا للتفاؤل الكبير والايمان بدوام الطقس الجيد . ولقد كان لذلك الايمان ما يبرره على ما يظهر ، فقد عمر المركب طويلا ، ومع ذلك فقد كان أسوأ مركب رأيت فى حياتى من حيث التجهيزات . وكان بحارته أربعة أو خمسة عجائز وتركيا عجوزاً أشيب من بقايا الحرب العالمية الاولى ، ومساعد وحشى المظهر علاوة على النوخذة . (١) وكان النوخذة يمنية من « اللحيّة » يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين ، نحيفا لكنه قوى البنية ذو وجه لطيف ويدين كأيدي الموسيقيين . وقد رحب بى على ظهر المركب بأدب جم ، ولكن باستغراب واضح ، وكان يبدو أنه قانع بمركبه المثقل بالحمل ، الذى كان فى نظرى مركبا صغيرا سيئا للغاية .

أبحرنا على متن « الشيخ منصور » خلال الاسبوعين التاليين ، حول الركن الجنوبي الغربى من الجزيرة العربية ، عبر مضائق باب المندب الى البحر الاسمر ، متبعين الطريق الداخلى ، أى داخل الصخور المرجانية . وقد اكتشفت بأن ذلك المركب الصغير ، ذا الرائحة النتنة ، الذى كان يقوم برحلته الاعتيادية قريبا من الشاطئ ، ويتاجر بالسلع التى بنى من أجلها ، لم يكن مركبا سيئا على الإطلاق . فقد كنا نرسو ليلا بحماية الصخور المرجانية ، أو الجزر الرملية ، ونبحر نهارا توجهنّا المعرفة الشخصية للنوخذة اللطيف

(١) النوخذة ، بلغة بحارة الجزيرة العربية ، هو الريان ، (المترجم) .

المعشر • وقد كانت هذه المعرفة كافية ووافية بالفرض ، كما كان إيمانه قويا ووافيا بالفرض أيضا •

وكانت مياه البحر الاحمر تتسرب بكثرة الى المركب فتتزعج مرة بعد مرة • وكان الطقس جيدا والرياح مؤاتية ، والبحر خفيف الموج ، وكان غذاؤنا يتألف من السمك الذى كنا نصيده من البحر ، ومن شئ من الأرز والخبز الفطير المخبوز فى الرماد • وكان الوقود أخشابا وحشائش بحر مجففة ، وروث جمال ، وأى شئ آخر يصلح لذلك •

وكنا نفتسل بمياه البحر ، وكان جميع البحارة فى منتهى النظافة ، لأن قوانين الاسلام تقضى بذلك • وكان المرحاض عبارة عن صندوق ، خلع لوحان من قاعه وثبت فى مؤخرة المركب على مستوى السطح ، وبه صفيحة صغيرة قديمة لسحب الماء من البحر ليتطهر به الشخص عند الضرورة ، وكان هذا يحتاج الى مهارة خاصة ، ولم تكن الملابس الاوروبية مناسبة لذلك بأى حال من الأحوال ، وكان الصندوق يستعمل حماما أيضا فلم يكن هناك حمام غيره • وإذا لزم الامر كانوا يربطون صندوقا اضافيا على الجانب الآخر • وعلى كل حال فقد كانت ترتيبات المرحاض البسيطة تؤدي وظيفتها بشكل مرض للغاية ، فلم يكن هناك أنايب أو ما شابهها معرضة للتلف ، وكان الجميع يتوضأون ويؤدون الصلاة نظيفين ، مولين وجوههم شطر مكة ، فى أوقات الصلاة المفروضة يوميا • وكانوا ينظفون أسنانهم بالسواك باهتمام بالغ • أما الاوانى التى كانوا يستعملونها فقد كانت بسيطة للغاية ومصنوعة اما من الخيزران ، أو من عظام بعض الاسماك • وكان الشهر شهر رمضان الذى يمتنعون فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى مغيب الشمس ولم يكونوا بذلك يخسرون الكثير ، اذ لم يكن لديهم وقرة فى الطعام على أية حال •

كذت أحيانا أشعر بمرارة الجوع ، وكنت أقاسي من الزحار (الدوزنطاريا) ، وكانت الليالى باردة والايام طويلة وحارة • ولكننى تعلمت أن أحترم النومة وبحارته ، وأن أنظر باعجاب الى «الشيخ منصور»، ذلك المركب الجميل ، ذى الرائحة الفاسدة ، الذى ينفذ الماء الى داخله من جميع جنباته •

عدت الى عدن بعد أسابيع وقد ذبلت ونحل عودى ، ولفحتنى الشمس بوجهها وأنهكت قواى ، وكان ذلك على قارب بخارى قادم من جدة • وقد بدا لى أن على الحمد كان مندهشا قليلا لرؤيتى ، فقد سألنى قائلا : « هل

تمتعت بالرحلة ؟ » فأجبت بأنه كانت رحلة رائعة • فنظر الى نظرة فاحصة طويلة ، تركت عندي انطبعا بأنتى قد مررت بتجربة معينة ، بل ربما بعدد من التجارب • ثم قال : « حسنا • فالكويتيون مستعدون الآن وسأعمل الترتيبات لك لتقوم بالرحلة الافريقية مع نجدى ، وهو أفضل نواخذة كويتى ، على أحسن مركب « بوم » • فلا داعى لرحلات قصيرة أخرى ، ويمكنك أن تبقى مع نجدى ستة أشهر ، ثم تعود الى الكويت ، وتقوم بعدها برحلة الى الهند اذا أردت ذلك • »

كنت قد رأيت بعض مراكب « البوم » رافعة للأعلام الكويتية الحمراء فى الميناء ، (١) وكانت مراكب كبيرة رشيقة مدهونة جيدا بالزيت ، وذات صوار عالية كبيرة • وكان بحارتها يرتدون أغطية رأس نظيفة ، وجلابيب نظيفة ، يضربون بمجاديفهم فى قواربهم الطويلة بطريقة فنية منتظمة ، شبيهة بطريقة البحارة الهنود القدماء • وكنت أشاهد النواخذة ، وهم يسرون بهيبة وجلال مع مساعدتهم على مؤخرة السفينة ، بين قرع الطبول وضجيج الاغانى فى الوسط •

ها هي ، اذا ، المراكب العربية الشهيرة ، التي كانت تجوب المحيط الهندى والتي لم تكن تشبه مركب « الشيخ منصور » الحقير فى شيء •

وأخيرا ستتاح لى الفرصة ، اذا ، لأن أعود القهقرى الى أيام الملاحة القديمة ، فأبحر فى مركب ذى قيمة من مراكب الاسطول العربى ، التي تبحر فى المياه العميقة ، والتي تنحدر مباشرة من تلك المراكب التجارية التي كانت تتاجر بالبخور فى الايام الفاهرة • ولقد تم لى ذلك بالفصل ، فلقد كان « بوم » نجدى مركبا جيدا ، ورحلته الطويلة لا تغيب عن الذاكرة ، على الرغم من أن اندلاع الحرب العالمية الثانية وضع نهاية لآمالى بالقيام برحلتى الاخرى الى الهند • وقبل نهاية تلك الحرب كانت مشيخة الكويت الفنية بالنفط على نحو اسطورى ، تأخذ شكلها الجديد وتضع نهاية للتقاليد البحرية العربية العظيمة ، وللتجارة العربية البحرية التي استمرت طويلا • وفى اطار الاقتصاد الحديث لتلك الدولة ، لم يعد هناك مكان للبوم ، مركب المياه العميقة •

(١) كان علم الكويت القديم احمر اللون تتوسطه كلمة « كويت » • وظل كذلك الى ان بدل بعد الاستقلال عام ١٩٦١ بالعلم العربى ذى الالوان الاربعة المعروفة (المترجم) •

لقد وصلت في الوقت المناسب تماما . ففي نهاية عام ١٩٣٩ ، كما عرفت من أمين سر شيخ الكويت ، كان هناك (١٠٦) من مراكب المحيط تبخر من ميناء الكويت : ثلاثة منها « بغلات » ، والاخرى من نوع « البوم » ، معدل حمولة الواحد منها مائة طن ، ما بين كبير تبلغ حمولته ٣٠٠ طن وصغير لا تتعدى حمولته سبعين طنا . ولم تكن حمولة المراكب تقاس بالوزن ، بل بمقدار ماتحملة من جمل التمور العراقية (١) . لقد كانت كلها مصنوعة في الكويت وتتراوح قيمتها بين عشرة واثنى عشر ألف روبية هندية ، وهي العملة التي كانت متداولة آنذاك (وكان هذا يعادل تقريبا ما بين ٣٢٥٠ دولارا و ٣٧٥٠ دولارا) . وكانت المراكب تظل راسية في ميناء الكويت خلال الاشهر التي تهب فيها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في المحيط الهندي . ومع بداية هبوب الرياح الشمالية الشرقية تبدأ رحلاتها التجارية الطويلة فتحمل التمور الطازجة من البصرة ، وكانت هذه التمور تعبأ في جمل ، ذات حجم موحد ، أسطوانية ، منبسطة الشكل ثقيلة ، حتى أن حملا قريبا يكاد ينوء بحملها . وكانت هذه التمور المادة الاساسية للتجارة الآسيوية .^{٢٠} أن كثير منها يأتي من المزارع القائمة على شط العرب ، والتي تملكها أسر كويتية من التجار مثل عائلة الحمد . وكانت المراكب تحمل شحنات التمور اما الى الموانئ الهندية أو تدور حول سواحل الجزيرة العربية حيث تباع لحساب التجار .

لم أشاهد ولم أسمع عن أي مركب كويتي ينقل التمور الى موانئ شرق أفريقيا ، لأن هذه التجارة كانت ، على ما يبدو ، قد انتقلت الى أيدي الاوروبيين . أما تلك المراكب التي كانت تنقل البضائع الى جنوب الجزيرة العربية ، فقد كانت تجمل من عدن محطة ارتكاز لها ، لتخزن فيها التمور غير المباعة ، وتواصل رحلتها الى أفريقيا ببضاعة جديدة ومسافرين اخر . وكانت هذه المراكب تقوم برحلة افريقية واحدة في العام . وقد قيل لى أن المراكب التي كانت تتاجر على طريق الهند ، وهي الطريق الاقصر والاكثر تنظيما ، كانت تحاول القيام برحلتين سنويا . ومن الهند كانت السفن تجلب مواد بناء السفن ، والليف لصنع الحبال ، وخشب الساج . أما من شرق أفريقيا فكانت تجلب الأعمدة الخشبية (الشندل) من دلتا نهر « الرفيجي » ، التي تقع فيما كان يسمى تنجانيقا آنذاك ، أو من « لامو » في مستعمرة كينيا .

وكان هناك بالاضافة الى تلك المراكب عدد من المراكب ، يتراوح عددها ما بين ١٠٠ و ١٥٠ مركبا تستخدم للغوص على اللؤلؤ ، تخرج من الكويت في

(١) الجلل والجلال جمع جلة وهي القفة الكبيرة التي كانت تحفظ فيها التمور . (المترجم)

ذلك الوقت ، بعضها صغير وبعضها الآخر يصل طوله الى سبعين قدماً . وكانت جميعها تسير بالمجداف والشرارح معا . وكانت هذه المراكب تقوم بعملها في الفوس على اللؤلؤ في السواحل القريبة من الطرف الشمالى من الخليج ، خلال فصل الصيف الحار ، حين كان يتوافر عدد كبير من الفواصين ، وقواربهم المائدة من خدمة مراكب الرحلات الطويلة . كما كانت الكويت تملك ما بين ٥٠ و ٦٠ مركبا صغيرا ، معظمها ذات صار واحد ولكن أغلبها يشبه « البوم » فى شكلها . وكانت هذه تقوم بالتجارة المحلية ، كنقل الماء السائغ للشرب من شط العرب ، وكانت هناك مراكب جديدة تبنى على الشاطئ بمعدل اثنين أو ثلاثة فى الشهر ، وكانت كبيرة مخصصة للمياه العميقة كما كان هناك على الاقل عدد مماثل يبنى للتجارة الساحلية . ولكن تجارة اللؤلؤ كانت كاسدة بسبب نجاح اليابانيين ، كما علمت ، فى انتاج اللؤلؤ الصناعى .

كانت مراكب « البوم » القديمة تباع فى موانئ الخليج فى قطر وساحل عمان المتصالح ، وكان هؤلاء يستعملونها بشكل رئيسى فى تجارتهم مع افريقيا .

أما خارج الخليج فقد كان مرفأ « صور » ، قرب « رأس العد » ، على خليج عمان ، المنافس الوحيد للكويت . فقد كانت تبنى فيه « البفلات » و « السمايك » الكبيرة ، ولكن لم تكن تبنى فيه أية مراكب من نوع البوم ، كما لم يكن الكويتيون يزورون صور . لذلك لم اذهب الى هناك كما أنى لم أستطع الحصول على أية احصائيات عن ذلك المرفأ . لقد شاهدنا مراكب جديدة رائمة ، تصل حمولتها الى ١٥٠ طنا من بناء مرفأ صور . ولقد قدر « نجدى » عدد المراكب التابعة لاسطول المحيط الهندى الخاص بميناء صور بحوالى مائة مركب . ولم يبد لى أنه كان ينظر اليها نظرة اعجاب كبير . ولم أر مطلقا أية سفينة كبيرة من صنع ساحل عمان المتصالح ، ولكنى رأيت بعض مراكب البوم الضخمة التى ترفع الاعلام الايرانية من صنع موانئ « قشم » و « بندر لنغه » القديمة .

أما الموانئ العربية الاخرى التى رأيت فيها أساطيل كبيرة من المراكب الشراعية فقد كانت « المكلا » فى حضرموت ، و « المعلا » فى عدن ، و « الجديدة ومخا واللحية » فى اليمن ، و « جيزان » فى عسير على البحر الاحمر . وكانت جميع هذه الموانئ تبنى المراكب التى كان معظمها خاصا بالملاحة الساحلية . وقد قدر « نجدى » والنواخذة الآخرون أنه ، فى عام

١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، كان مجموع المراكب العربية الصالحة للملاحة ، يتراوح بين ألفين وألفين وخمسمائة مركب ، تستخدم على الاقل ثلاثين ألف رجل ، ولم يكن فى أى منها محرك ميكانيكى اذ أنه لم تكن هناك حاجة لمثل تلك المحركات (١) .

لقد قال نجدى أن الله عظيم رحيم ، ورياحه لا تكلف شيئاً ، ولذلك فإن على المؤمنين أن يفيدوا منها . وكان نجدى يحساراً قائماً بمهنته التى نشأ عليها .

ومع ذلك ففى خلال عشر سنوات ، لم يصنع « يوم » واحد كبير فى الكويت ، فقد أصبحت مراكب الملاحة العربية غير المساندة تاددة الوجود الا فى ميناء صور . واختفت (١٠٦) من مراكب البوم والبغلات الكويتية الشهيرة من على سطح البحر لأن الامارة أصبحت تعوم على « بحر » آخر من النفط المستخرج بكميات تجارية ، والذي جلب للبلاد ثروة هائلة ، استغلت بحكمة ، ولكنها أنهت ، بالطبع ، جميع طرق الحياة القديمة ، ليس بين النواخذة والبحارة والغواصين فحسب، بل وبين الناس عامة . ففى فترة وجيزة، بحسب مفهوم العرب للزمن ، اندثرت المدينة القديمة المسورة ، وخلفت وراءها مدينة شاسعة ، مكتظة بالسيارات والمباني الضخمة القبيحة الشكل التى ليست لها صفات مميزة ، ولكنها تفخر أيضاً بالمدارس الراقية والمستشفيات والبيوت الحديثة ، وبها ميناء جديد كبير تتجمع فيه السفن الحديثة القادمة من شتى انحاء العالم ، وتتقف على رصيفه لتفرغ ملايين الاشياء ، التى لم يكن قدماء الكويتيين يحلمون بوجودها . ومن خزانات هائلة تقع خارج المدينة ، يتدفق النفط بلا انقطاع فى أنهر غير مرئية ، لكى يملأ خزانات الناقلات الضخمة الجاثمة فى مياه الخليج المجاورة ، وكلما وضع فيها برميل مملوء بالنفط لنقله الى معامل التكرير فى العالم ، حل محله برميل ثان وثالث ورابع الى ما لا نهاية ، كأنها لا تقنع ولا تشبع حتى تستنزف كل قطرة منه من باطن الامارة والمدينة ، بل ومن النار المتأججة فى جوف الارض . وثمنا لهذا النفط تدفع الاموال بدون توقف . وكانت النتيجة أنه ، باستثناء بوابتين

(١) لقد كان م.بى (M. Bess) ، انلى لم يكن عربياً ، يدير شؤون سمبوله آخر او اثنين علاوة على ما ذكر ، فى التجارة القريبة بين الملا ومراهى البحر الاحمر القريبة . (المؤلف)

من بوابات المدينة القديمة (١) سمح لهما بالبقاء قرب فندق ضخم لا تتناغمان معه فى بنيانهما ، فان كل شىء قديم قد تم تدميره ، بما فى ذلك البيوت القديمة ، وحتى الواجهة البحرية الرائعة . واختفت أيضا التجارة البحرية ، العربية بالطبع ، فقد أصبحت قديمة مثل غيرها .

لقد سافرت فى طائرة كوميت نفثة تابعة للخطوط الجوية الكويتية فى مطلع عام ١٩٦٧ ، من لندن عن طريق روما وبيروت ، الى المطار الضخم الذى كان مكانه ، الى وقت قريب ، صحراء خارج مدينة الكويت (وكان قبطان الكوميت الذى يرتدى الكوفية يعرف عمله جيدا) . وعند وصولي قام بعض الاشخاص ، الذين يرتدون الجلابيب الطويلة والمبامات الضخمة ، والكوفيات البيضاء ، التى تلمع فى الليل ، ليحيونى ، ورأيت أنف «نجدى» ، النوخذة ، الذى يشبه أنف الصقر ، ومعه بعض أبنائه وابنام أسرة الحمد الشباب ، الذين بقيت على اتصال بهم خلال السنين الطويلة ، « وحمد » المساعد المخلص لنجدى . وقد علمت أن « نجدى » أصبح الآن رجلا غنيا من كبار رجال الاعمال ، وله بيت كبير يقع على شارع رئيسى واسع ، وعنده كل ما يتمنى . ولقد حرك ريح الليل كوفيته فقلت له : « الله كريم فان رياحه لا تكلف شيئا » . فأجاب : « الله كريم ! » ، وبعد لحظة اضاف كأنما يحدث نفسه : « ولكم اتمنى أحيانا لو أستعمل رياحه كرة أخرى ، فقد كانت حياة طيبة ، لن يعرفها أبنائى ولن يعرفها أبنام الكويت ، فنحن لانستطيع أن نعيدها ثانية » .

وعلى شاطئ البحر كان يقف على الرمال « بوم » لا يعمل فى البحر ، بل يقف هناك شاهداً على أيام الملاحة العظيمة ، التى شاهدها مرفأ الكويت ، والتى ذهبت الى غير رجعة .

ولقد سرنى أنى استطعت أن أذهب فى الوقت المناسب الى تلك المنطقة لأعرف بطريقة مباشرة شيئا عن تلك الأيام العظيمة ، كما سرنى أنى بدلت جهدى لتسجيلها . لقد ترك عيسى القطامى - النوخذة العظيم الذى كان يحتضر فى بيته الجديد بينما كنت أحيى « نجدى » ترك كتابا باللغة العربية (٢) شبيها بكتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر » المشار اليه سابقا ، وكتابه هذا وكتابى هما الاثران الوحيدان الباقيان حتى الآن .

(١) الواقع ان البوابات القديمة الاربع قد تمت المحافظة عليها تذكارا للماضى (المترجم)
(٢) عنوان كتاب عيسى القطامى هو : « دليل المعتار فى علم البحار » ، وقد تمت الطبعة الثالثة منه فى مطبعة حكومة الكويت عام ١٩٦٤م .

بحلول عام ١٩٦٠ كانت تجارة العرب القديمة فى المحيط الهندى قد اندثرت تماما . فقد استطاعت « الامم الناشئة » فى افريقيا الشرقية أن تقوم بما لم يحاول الاوروبيون القيام به ، الا وهو وضع حد نهائى للتنفوذ العربى والتجارة العربية . فلقد وصلت حركة الهجرة القديمة الى نهايتها ، وفسى كثير من البلدان الجديدة لم يعد العرب والهنود يلقون أى ترحيب ، بل وضمت عليهم قيود كثيرة . ومع ذلك فقد كان من الواضح أنهم كانوا تجارا ورجال اعمال ناجحين ، واصبح الاحساس بأن الدور الآن هو دور الافريقيين ، ولا يسعنا الا أن نتمنى لهم التوفيق ايضا .

حتى فى بعض البلاد العربية لم تعد مراكب البوم الجميلة والبفسلات المهيبة والسمايك السريعة تناسب الصورة الحاضرة . وقد تكررت نفس القصة فى الهند والباكستان .

لقد قمت برحلة فى عام ١٩٥٦ فى بغلة مصنوعة فى الهند، وكانت رحلتى بين سيلان ومالى وجزر مالديف ، ولاحظت قوتها وصلابتها . لقد كانت سفينة آسيوية ملائمة للابحار فى مواجهة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . وبما أنها صنعت فى بلاد غنية بغشب الساج ، وعريقة بالخبرة والمهارة فى بناء السفن ، فقد كانت أقوى من المراكب العربية العادية التى عرفتها . وكسان صاريتها الرئيسى موضوعا فى قاعدة فولاذية ، وكانت أشرعيتها وأدواتها قوية وجيدة وقبطانها ملاحا ماهرا . ولكن احدى القوى الاوروبية كانت تمتد أنها بحاجة الى جزيرة مرجانية فى جزر المالديف لبناء مطار فى المحيط الهندى . وكان الثمن الذى طلبه السلطان (بضغط من مجلسه) سفينة قوية مجهزة بمحرك حديث لتحل محل أسطوله المكون من المراكب الشراعية . ولقد كنت فى جزر المالديف فى الوقت المناسب أيضا ، قبل اختفام آخر مركب شراعى .

وفى سنة ١٩٦٠ كنت فى نهر براهما بوتراء، حين كان أسطول رائع من المراكب الشراعية مازال يعمل هناك . وكانت بعض نماذجها تعود الى نماذج سفن مصر القديمة . وكانت أحواض بنام السفن قد بدأت بالفعل ببناء لنشات آلية ضخمة بشعة المنظر، كما كانت الحكومة تقوم بإنشاء الطرق ذات الكلفة العالية لتسيير السيارات الكبيرة عليها ، (ولان تشابك الانهر الثلاثة براهما بوتراء وماجنا والكائج لم يكن يساعد على تنفيذ فكرة الطرق) . فقد كانت هذه الانهار الكبيرة تنساب فى كثير من الاحيان خلال الاراضى الهندية لخدمة سكان سندرابان واسام ، علاوة على شرق باكستان . وفى أوقات الاحتكاك بين

هذه الولايات ، كان من الممكن أن يحدث تأخير لا يطاق على مراكز الحدود
الكثيرة جدا .

فى أثناء الحرب العالمية الثانية رأيت المراكب البورمية ، التى كانت
تنقل الارز فيما مضى ، وهى تتعفن على شواطئ مضيق « بالك » . وفيما
بعد رأيت أسطول الملايو الضخم والمراكب المحلية راسية فى مرفأ سنغافورة
لا يستفيد منها أحد ، عندما فضل حاكم اندونيسيا الجديدة المجابهة على التجارة
ولاحظت أيضا أن اندونيسيا هذه ، التى كانت موطن المراكب الشراعية المعروفة
بـ « الماكسر » و « البرو » الجميلة ، قد بنت سفينة فولاذية حديثة تعمل
بالمحركات ، لتكون سفينة تدريب للمدرسة العسكرية البحرية . فلم يعد
مركب « البرو » القديم يناسب الصورة الجديدة لتلك الارض القديمة
الشامخة . وانى لأتساءل فيما اذا كنت وحدى أمل ألا يناسبهم المركب
الفولاذي الحديث أيضا .

وقد مرت الايام على هذه الشاكلة ، فما أن اتى الوقت الذى عزل فيه
ذلك الحاكم أخيرا حتى أصبح نصف أسطول سنغافورة وقد اعتراه الصدا ،
لأن بقاء السفن زمنا طويلا خارج المياه يدمرها ويأتى عليها .

وفى هونج كونج أيضا ، أصبحت السفن مجهزة بالمحركات ، وحتى فى
مجموعات الجزر البعيدة فى البحار الجنوبية ، فان السفينة الوحيدة غيرالمزودة
بالآلات التى يمكن أن يراها الانسان اليوم هى اليخت الشراعى الذى يجوب
العالم من آن لآخر . وعلى طول سواحل بيرو والبرازيل ، وعلى جانبي أمريكا
الجنوبية ، أصبحت الطوافة الشراعية المصنوعة من خشب البلسا تعتبر من
سقط المتاع ، ولا تصلح لشيء . ولكن هذه الطوافة كانت انتاجا محليا رخيص
الثمن ، سهل الصنع ، تمد السكان بأسباب معيشتهم ، اذ كانت تستخدم فى
صيد السمك ونقل البضائع ، كما كانت خافته الصوت لطيفة المنظر .

ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن القارب الشراعى المصنوع من جذوع
الشجر ، وقارب صيد السمك السنغالي ومراكب هونج كونج ، ومراكب البرو،
والمراكب الشراعية السريعة ، وقوارب براهماپوترا والبفلات والسمايسك
والبوم . فقد أدت جميعها دورها فى التجارة العالمية بكفاءة لبعض الوقت وعلى

مدى واسع • وفى كثير من الاحيان كانت لها مكانتها فى حياة الناس وأحيانا كثيرة فى قلوبهم أيضا •

انى سعيد بمعرفة هذه المراكب ، وبمعرفة العالم الذى خدمته والذى كانت مناسبة له فى حينه وانى أعتقد أن العالم لم يصبح أكثر فقرا فحسب ، باختفاء هذه المراكب ، بل لقد فقد شيئا أكبر بكثير من هذه المراكب الجميلة عندما استغنى عنها وطرحها جانبا •

آلان فليبرز

اكسفورد - ١٩٦٨

الفصل الأول

شاطئ المعلّ

شاطئء المعلا

حول خليج المعلا تنتصب جبال عدن القاحلة الوعرة حارة ومكفهرة كما لو كانت قد صممت ووضعت فى ذلك المكان عن عمد لثمنع رياح المحيط الباردة من الوصول الى مياه الخليج . وعبر الخليج الضحل كانت الرمال تبدو سرايا غريبا كأنها موج يتكسر على أقدام سلسلة الجبال الساحلية ، وكأنما البحر قد ألقى بها هناك وانصرف متخليا الى الأبد عن أية محاولة عقيمة لتبريد الصخور الصماء الصلدة وترطيبها، تلك الصخور التي تتكون منها تلك الأرض الجرداء القاحلة . وكانت السماء زرقاء صافية ، قاسية فى صفائها ، والشمس حارة محرقة والرمل داكنة قدرة ، ورائحة الشاطئ عفنة نتننة . وكانت الكلاب السائبة تتراكم خارجة من الأكواخ البائسة وهى تنبح ، ولكنها سرعان ما تصل الى حالة من الأعياء الشديد، فتكف عن النباح . كما كانت الماعز تشغو وضروعها المثقلة باللبن مغطاة بأكياس من القماش لكى لا ترضعها صغارها الجائعة ، كما كان الأطفال يصرخون وهم يتراكمون طلبا للأكراميسة (البقشيش) ، وكأنهم لا يعرفون من اللغة كلمة غيرها . وعلى طول الطريق المؤدية الى حى « كريتر » كانت الجمال الداكنة اللون تتهاذى شامخة تجسر عربات صغيرة ، أو تنتظم فارغة فى قافلة ، يسير بمحاذاتها بدوى يرتدى اسمالا زرقاء بالية ، وهى متجهة الى لحج ، أو الى أودية اليمن السعيدة . وعلى جانبي الطريق كانت تقوم تلك البيوت الحجرية المتشابهة التي يسكنها الصوماليون الواقدون من « بربرة » المجاورة ، وكان عددهم فى حى الميناء (١) يزيد عن عدد العرب أنفسهم . كان ذلك فى عام ١٩٣٨ وكانت تحلق فوق رؤوسنا تشكيلة غير منتظمة من قاذفات القنابل تتألف من اثنتي عشرة طائرة قديمة الطراز من ذوات المحركين تذكرنا بأن عدن كانت على وشك أن تحتفل بمرور قرن كامل على الاحتلال البريطانى لأراضيها . وهدن هذه التي كانت فيما مضى ملتقى للشرق والغرب ولم تزل مرفأ عربيا ودوليا هاما ، هى الآن (عام ١٩٣٨) قاعدة عسكرية متقدمة للإمبراطورية البريطانية ومركز لتزويد السفن البخارية القادمة من الشرق الأقصى وأستراليا بالوقود . وقد كانت تعرف فى سالف الدهر باسم « اليمن السعيد » وكانت مشهورة بمينائها الممتاز ومائها العذب ، كما عرفها ذلك الريان المجهول الذى ألف كتاب «المراحل الملاحية



للبحر الاحمر « فى القرن الاول للميلاد • ولعل التجار العرب والهنود الذين كانوا يجوبون البحار الشرقية قد عرفوها قبل ذلك التاريخ بقرون عديدة • وما زال هذا الميناء فى ذلك العام ميناء عربيا ، ومركزا هاما لحماية طرق التجارة الاوروبية (والامريكية) •

كنت أسير بمحاذاة شاطئ الملا ، حيث قام أحد التجار فى القرن الثامن برسم خريطة دقيقة للمحيط الهندي على الرمال وبين عليها الموانئ والطرق التجارية التى ظلت غير معروفة لنا مدة تقارب الألف عام ، فعدت بذاكرتى الى تلك الأمجاد القديمة لهذا الميناء العظيم ، أيام ازدهار الملاحة الشرقية • كان سبب وجودى فى ذلك المكان معرفتى أن بقايا من تلك الأمجاد العظيمة مازالت قائمة هناك ، فعدت ليست مكانا يؤمه الناس للنزهة • وقد علمت أن المراكب العربية التى يستخدمونها اليوم تنحدر مباشرة من تلك المراكب القديمة التى كانت تجوب البحار الشرقية ، والتى ربما كانت أقدم مراكب أبحر فيها الانسان • وقد كنت مستعدا للذهاب الى الجحيم اذا كان ذلك سيمكننى من رؤيتها • ولكنى وجدت أنه لم يكن من الضرورى أن أقترب من الجحيم أكثر من مدن التى كانت قريبة منه على أية حال ، فهنا ، على شاطئ الملا تتوافر هذه المراكب ، كما يتواجد العرب الذين ما زالوا يبحرون على متونها •

وعلى امتداد الشاطئ حيث التربة الداكنة الصلبة تستحيل الى طين سبخ كريحه الرائحة ، كان اثنا عشر من المراكب الصغيرة بعضها قائم على دعائم خشبية وبعضها الآخر مائل نحو البحر ، بينما بحارتها يرتدون « الوزرات » ويقومون باصلاحها ، أو يطلون بأيديهم المجردة جوانبها السفلى بالقار ، وهم يفتنون دون انقطاع • وهنا وهناك كانت هياكل جميلة لمراكب لم يكتمل صنعها بعد ، تقف بين أكوام من الأعمدة الخشبية الملتوية المجلوبة من بعض انحاء اليمن ، والجذوع الخشبية المستوردة من ساحل مالابار ، هياكل قام بصنعها نجارون مهرة ، مستخدمين فى عملهم آلتين فقط هما القدوم والمثقب الهندي ، وكانت المقدمات المعقوفة الرشيقة لمراكب « السمبوك » (١) الجديدة كأنها تنظر بدهشة الى بقايا الخشب الذى صنعت منه • وعلى رمال الشاطئ رأيت زمرة من البحارة الذين يصنعون الأشربة ، وهم أقرب الى الزنوج منهم الى العرب ، يجلسون القرفصاء ويخيطون

→ مقدمة مركب السمبوك

(١) انظر وصف هذا النوع من المراكب واية مراكب اخرى يرد ذكرها فى هذا الكتاب فى الملحق رقم ١ (المترجم) •

الأشعة المثلثة الشكل ، والى جوارهم كان آخرون ينشرون حبالا غليظة مصنوعة من ألياف جوز الهند ، أو يحملون مرساة صمدية الى مياه الجزر ، لتساعد على تعويم مركب صغير عندما يرتفع المد . وكان فى مياه الخليج زهاء أربعين من المراكب الصغيرة تتأرجح وهى مربوطة فى مراسيها ، بينما كان البحارة يدفعون عددا آخر منها ، وهم يهزجون ويغنون ، الى الرصيف الحجري لتأخذ دورها فى التحميل أو التفريغ . ولم يكن بوسع المرم أن يتفحص هذه المراكب عن كثب بسبب الرائحة العفنة لسماك القرش ، وزيت السمك ، التى كانت تنبعث منها . وكانت هذه المجموعة من المراكب واحدة من المجموعات الصغيرة التى تأتى الى « الملا » من الموانئ القريبة الواقعة على سواحل اليمن ، وعلى سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، لتحمل فيها البضائع وتوزع على موانئ حضرموت والبحر الأحمر . ووراء هذه كانت ترسو مراكب المياه العميقة : مراكب « البوم » الكبيرة القادمة من الكويت وكذلك مراكب « البغلة » و « السمبوك » مآخرة المحيطات ، قادمة من ميناء صور فى عمان ، وهى محملة بتمور البصرة فى العراق ، حيث قامت بتفريغ حمولتها وشحن بضائع أخرى لحملها فى رحلتها السنوية الى ساحل شرق إفريقيا .

وعلى الرغم من أن الميناء الرئيسى أصبحت تستعمله الآن السفن البخارية الكبيرة التى تسير على خطوط منتظمة ، وأن الطائرات الحربية تحوم فوق حى « كريتر » ، إلا أن خليج الملا الواقع بين النقطتين ما زال ميناء عظيما تستخدمه المراكب العربية التقليدية الصغيرة والكبيرة على حد سواء . أما الصغيرة فانها تجلب البضائع ، وتوزعها على الموانئ القريبة ، وأما الكبيرة فانها تحمل البضائع التى خلفتها السفن الأوروبية الكبيرة المنافسة لها ، فهى تجلب التمر من البصرة الى الاسواق المحلية بتكلفة تقل عن أية سفينة بخارية ، كما تنقل الملح الى ممباسا (١) بتكلفة أقل من المراكب الآلية . وهى لا تزال تقوم برحلاتها التجارية المجهودة منذ القدم تباع وتشترى التمر والملح وسمك القرش المجفف والمنسوجات القطنية الرخيصة اليابانية الصنع ، بدلا من الحرير النادر المصنوع فى الصين والملابس الرسمية الفاخرة الهندية الصنع التى كانت تنقلها فى الازمنة الغابرة ، كما لا زالت تتاجر بالسمن والسمسم وزيت الطبخ العربية والبخور والصمغ .

لقد كان لاغانى البحارة وهم يسحبون القوارب الطويلة الى رصيف الملا ، وقع الموسيقى فى أذنى وأنا أسير على ذلك الشاطئ الحار ، وكان

(١) على ساحل إفريقيا الشرقى فى جنوب كينيا . انظر الخريطة ، ملحق رقم ٥ للتعرف على جميع أسماء الأماكن التى سترد فى النص . (المترجم)

منظر المراكب الكبيرة مصدر بهجة كبيرة لى يشد من عزيمتى فى صباح ذلك اليوم القائظ القاسى ، فقد كنت عازما على أن أجد لى مكانا على متن أحد تلك المراكب قبل غروب شمس ذلك النهار . ومع أن رائحة شاطئ الممر كانت كريهة ، إلا أنه كان بالنسبة لى شاطئاً رومانتيكيا يسترمى الانتباه برصيفه الذى يقابل مكة المكرمة حيث يولى المسلمون وجوههم وهم قائمون للصلاة ، كما يلفت النظر بأسطوله الرائع من المراكب العربية ، فلقد كانت هذه المراكب آخر أسطول فى العالم بأسره تقريبا يستعمل الشراع فقط دون أن تفسده المدنية الحديثة . فمن بين تلك السفن الاوربية الشراعية ذوات الاشرعة المربعة الشكل التى كانت تتاجر بالحبوب المجلوبة من استراليا لم يبق ما يعادل عدد أصابع اليد الواحدة ، كما لم يبق صالحا للاستعمال الا بعض المراكب ذات الشراعين التى تعمل فى البحر الابيض المتوسط ، ومركب أو اثنان من مراكب الصيد البرتغالية ، وثلاثة مراكب تعمل بتجارة السماد فى بيرو ، ومركب المانى واحد أو مركبان يعملان فى نقل النيترات من تشيلى - هذه هى تقريبا كل ما تبقى من المراكب الشراعية غير الآلية فى العالم اليوم . أما تلك المراكب البيضاء التى تجوب البحار الجنوبية فقد استخدمت فيها الآلة مكان الشراع منذ زمن بعيد ، وأصبح دخان الديزل المتصاعد منها يلوث جو كثير من الجزر المنتشرة هناك . وأما المراكب الشراعية الصينية فانها ما زالت منهمكة فى تفادى القنابل اليابانية ، كما أن مراكب جزر الهند الشرقية لا تستطيع منافسة السفن التجارية الكبيرة . ثم أن مراكب الهند الشراعية قد اقتصرت رحلاتها على الشواطئ بحسب التعليمات والقوانين البريطانية بعد أن حرمتها السفن البخارية الكبيرة من معظم تجارتها البعيدة المدى . كما أن مراكب الصيد الانجليزية والمراكب الباليينية (١) ومراكب تسمانيا الشراعية التى تتاجر بالخشب ، ومراكب بحر البلطيق المختلفة - أصبحت جميعها تعمل بالآلة بدلا من الشراع أو بالاضافة اليه .

ولقد بدا لى ، وأنا أهود بذاكرتى الى السنوات العشرين الماضية من خبرتى فى الملاحة ، أنه لم يبق سوى العرب يستعملون المراكب الشراعية القديمة وهى على حالتها الاصلية ، كما لم يبق غير العرب يقومون برحلاتهم البحرية كما كانوا يفعلون دائما فى مراكب شراعية تسير بقوة الريح دون أن يقيدوا من الآلة ، ولم يبق غير العرب متمسكين بمراكبهم الشراعية - يبحرون بها عباب ذلك البحر الواسع بنفس الطرق والاساليب القديمة . ومثلما ان مراكب الحبوب الفنلندية ومراكب النيترات الالمانية هى آخر

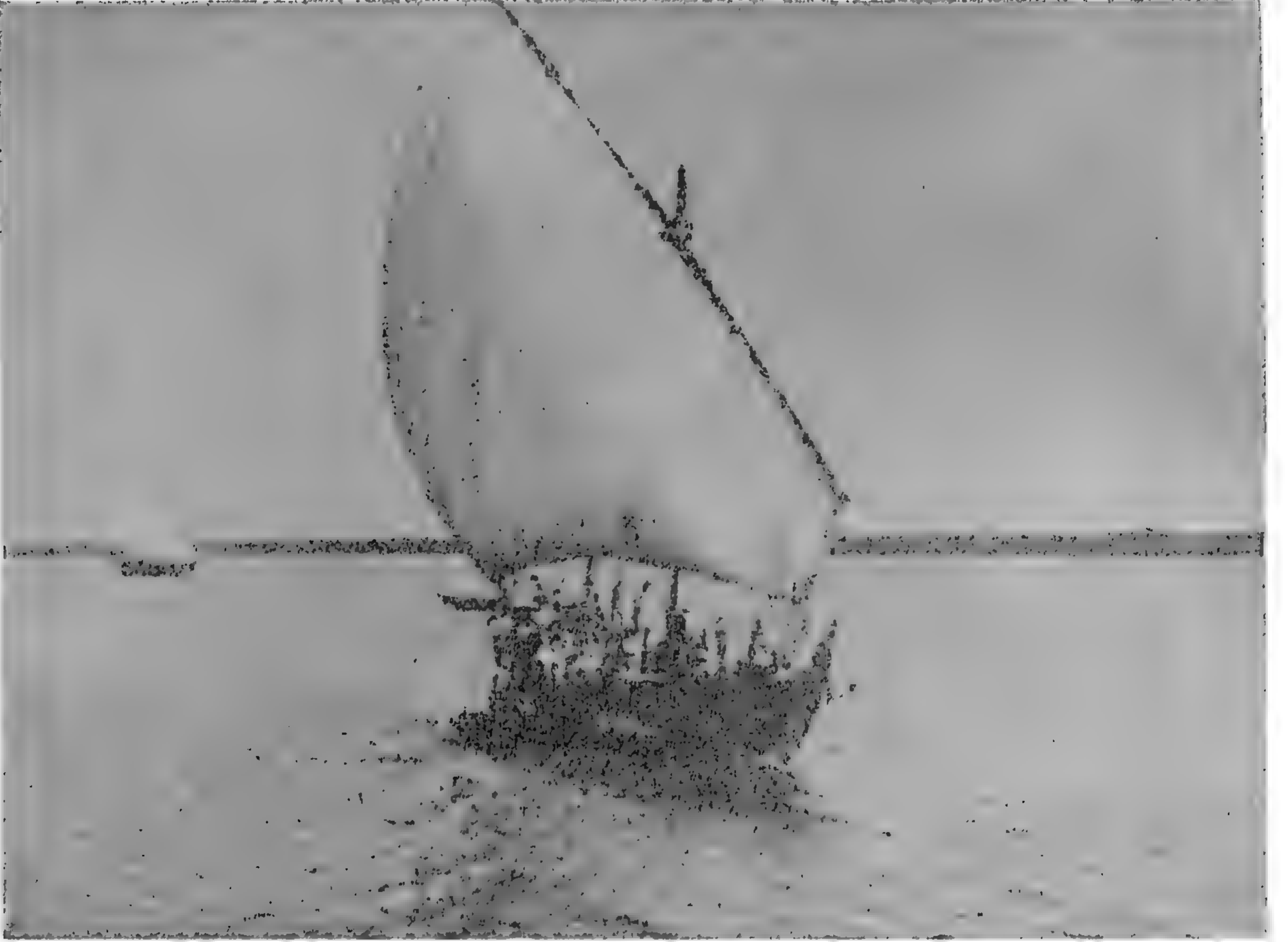
(١) نسبة الى بالي ، وهى احدى جزر اندونيسيا ، وتقع الى الشرق من جاوا . (المترجم)

ما تبقى من السفن الشراعية الاوربية فان المراكب العربية هي آخر ما تبقى من سحر الشرق القديم . وقد أتاحت لي الفرص المتعددة للابحار على متن معظم المراكب الشراعية الأخرى من القوارب الصغيرة المصنوعة من جذوع الشجر المجوفة الى المراكب ذات الصواري الاربعة ، ومن القوارب التسمانية الصغيرة الى السفن الشراعية الكبيرة . ولكنى لم أكن قد حظيت بركوب أى مركب شراعى عربى . ولما كانت جميع المراكب الاخرى قد انقرضت تقريبا ، فقد كنت سعيدا بأن أتوجه الى المراكب العربية ، وان أعلم أنها لا زالت باقية . ذلك أنى كنت دائما مهتما بالمراكب العربية ، كما كنت معجبا بالانسان العربى لاستقلاله واعتماده على نفسه ، ولاخلاقه الهادئة الرقيقة التى تميزت بها حياته المتكيفة مع بيئته تكيفا تاما . فلقد جاب العرب البحار والمحيطات ، وأتقنوا فن الملاحة قرونا طويلة حتى قبل أن نسمع نحن بوجود المحيطات . وما هم الآن ما زالوا يسافرون بمراكبهم متبعين نفس الطرق التجارية ونفس الوسائل التقليدية ، وهذا يعتبر شاهدا على كفاءتهم وروحهم العالية . ولا شك أنى سأكون سعيدا جدا لو أتاحت لي فرصة الابحار معهم فى رحلة الى افريقيا لأتعلم فنونهم البحرية من كتب .

كنت قد قمت فعلا من قبل برحلة بحرية على شواطئ البحر الاحمر فى مركب شراعى وكان المركب من نوع « الزاروق » يملكه شخص يمنى يدعى أحمد ، وكانت تلك الرحلة أشبه ما تكون برحلة تجريبية . وعندما وقفت لألقى نظرة على الشاطئ الزاخر بالحياة والحركة ، شاهدت ذلك المركب وهو يتراقص على سطح الماء بعد أن ألقى مراسيه بعيدا فى الخليج ، وهو خال من الحمولة التى كان قد نقلها الى جيزان(١) . ولا شك عندى أن رحلتى على ذلك المركب كانت بداية طيبة . ولكن ما كان يستحوذ على اهتمامى فعلا هو الابحار على واحد من تلك المراكب الكبيرة ، التى كانت تفد من الكويت وصور (٢) وموانئ ايران . فقد كانت هذه المراكب باقية على حالها منذ أيام الفينيقيين ، وهى من أقدم المراكب الشراعية التى نعرفها ، وما هى الآن هناك تختال على صفحة الماء فى خليج المعلا تحت أشعة الشمس المحرقة ، وبحارتها يهزجون وهم يفرغون حمولتها من تمر البصرة . وما هى الآن هناك راسية فى ميناء المعلا المزدهم بالمراكب ، تستعد لرحلة ربما كانت الألف أو الخمسة آلاف من رحلاتها التجارية السنوية الى أقصى ما تسمح لها الرياح الموسمية بالوصول اليه من سواحل افريقيا الشرقية . لقد كانت تلك المراكب أسطولا مهيبا جميلا بهياكلها المطلية بالزيت ، اللامعة على مياه

(١) ميناء فى المملكة العربية السعودية على ساحل البحر الاحمر (المترجم) .

(٢) ميناء يقع على ساحل عمان الجنوبى . (المترجم)



المركب يسبح حباب اليم

الخليج الزرقاء ، وبصواريها المزدوجة البسيطة المارية من الاشرعة . لقد كان منظرها اخذا حقا ، وقد تركت أثرا كبيرا في نفسي وأنا أهود بالذاكرة الى التاريخ العظيم والتقاليد الرائعة التي تكون خلفيتها . أما الآن فقد أصبحت الطائرات تتر فوق رؤوسنا ، والسواح يسرعون بسياراتهم التي منهلقتى تانكس والشيخ عثمان ، بينما تقوم السفن التي اقلتهم بملء خزاناتها بالوقود دون أن يكلف أحد ، ما عدا العرب ، نفسه بالقاء نظرة واحدة على تلك المراكب العربية الرائعة . ولكن ها هي ذى المراكب تقف هناك على شاطئ الملا ، مما يتيح لى أن أتعلم كل ما أستطيع عنها بشكل مباشر ، وهو أمر ما كان أى انسان فى أوربا يستطيع أن يعلمنى اياه .

وهكذا وجدت نفسى أمام فرصة سانحة لكى أتعلم بنفسى الشئ الكثير من تلك المراكب ، وكان ذلك مدعاة سعادة كبيرة لى . فواصلت سيرى بمحاذاة الشاطئ ببطء حتى أستطيع أن أشاهد أكثر ما يمكننى مشاهدته من المراكب هناك . وكانت وجهتى مكتب أصحاب المراكب الكويتية ، خالد عبد اللطيف الحمدواخوانه ، الذين يستوردون التمور العراقية ويملكون مزارع فى العراق فضلا عن أنهم يملكون ، أو يستأجرون ، مراكب شراعية

للمتاجرة مع أفريقيا واليمن واريتريا والسعودية والصومال والهند . وكنت أعلم أنني سأجد في ذلك المكتب تجمعا لنواخذة المراكب الكويتية ، ومراكب صور ، فقد كان من عادتهم المرور على مكاتب التجار صباحا وقد أثرت أن أسير على قدمي رغم حرارة الجو ، لكي أمتع ناظري بالمناظر الجميلة ، بدلا من المرور بها مرور الكرام في سيارة هابرة . فقد كانت الطريق المتعرجة المؤدية الى ميناء عدن تشرف على المناظر البهيجة الخلافة للميناء والبحر ، وكنت لا أكاد الحظ الطريق المعبدة ، أو السيارات الامريكية والبريطانية التي كانت تعبرها بسرعة كبيرة ، فقد كنت مسحورا بالمناظر الجميلة ، وكنت أنظر خلفي الى خليج المعلا ، حيث كانت المراكب الشراعية تتهاذى على سطح الماء ، وأعود بالفكر الى ذلك التاريخ الطويل من الملاحة البحرية العربية ، فأغبط نفسي لأن الفرصة المرتقبة ستتاح لي أخيرا للابحار على متن واحد من تلك المراكب العظيمة .

ومع ذلك فقد كنت أعلم أن الرحلة نفسها قد لا تكون كلها متعة خالصة ، لاني كنت هائدا لتوى من رحلتي على متن « الزاروق » الصغير الذي يملكه احمد اليمنى ، والذي كان مركبا قميئا يمجج بالبراغيث ، ويتاجر مع الموانئ الحارة الواقعة على البحر الاحمر . فقد كانت الرحلة قاسية وبدائية السي حد بعيد ، وكان ينقصنا الغذاء الضروري ، حتى اني ، في خلال شهر واحد قضيته في تلك الرحلة ، فقدت من وزني عشرين رطلا ، وأصبت بالزحار (الدوژنطاريا) والمalaria . ومع ذلك فقد كانت الرحلة تستحق كل هذا العناء . كان اسم ذلك المركب الصغير « الشيخ منصور » ، ولكنه لم يكن يتمتع بسأى من الصفات التي تؤهله ليحمل اسم « شيخ » ، ولم يكن طوله يتعدى خمسين قدما ، وفيه صاريان صغيران يميلان الى الامام . وكان يبدو كأنه متمطش للماء ، فقد كان الماء يتسرب الى داخله باستمرار ، وكأنه لا يستطيع أن يطفو على سطح البحر الا اذا امتلأ جوفه بالماء . ولا بد أنه كان مبنيا من فضلات الاخشاب الملقاة على أحد الشواطئ ، ثبت بعضها ببعض بمسامير حديدية قديمة صدئة . ومع ذلك فقد كان الهيكل قويا بشكل عام . وكنت قد وجدت هذا المركب في خليج المعلا ، ومن هناك كان آل الحمد يريدون ارساله بشحنة من أرز الهند ، وسكر جاوة ، وبالات القطن الياباني ، والاقمشة النسائية الملونة الى أسواق جيزان ، الواقعة على الحدود الجنوبية لمنطقة عسير ، المحاذية للبحر الاحمر . ولم يكن « الشيخ منصور » سوى قارب صغير مكشوف يسير بمساعدة شراع مثلث . وباستثناء مؤخرة صغيرة ، وجزء مرتفع قليلا في المقدمة ، لم يكن لذلك المركب سطح بالمعنى المفهوم للكلمة .

عندما صعدت الى ظهر « الشيخ منصور » لأول مرة كان بعض البحارة يفرغون الماء الصافي المتجمع في قاع المركب ، فقد كانوا ينزحونه باستمرار ،

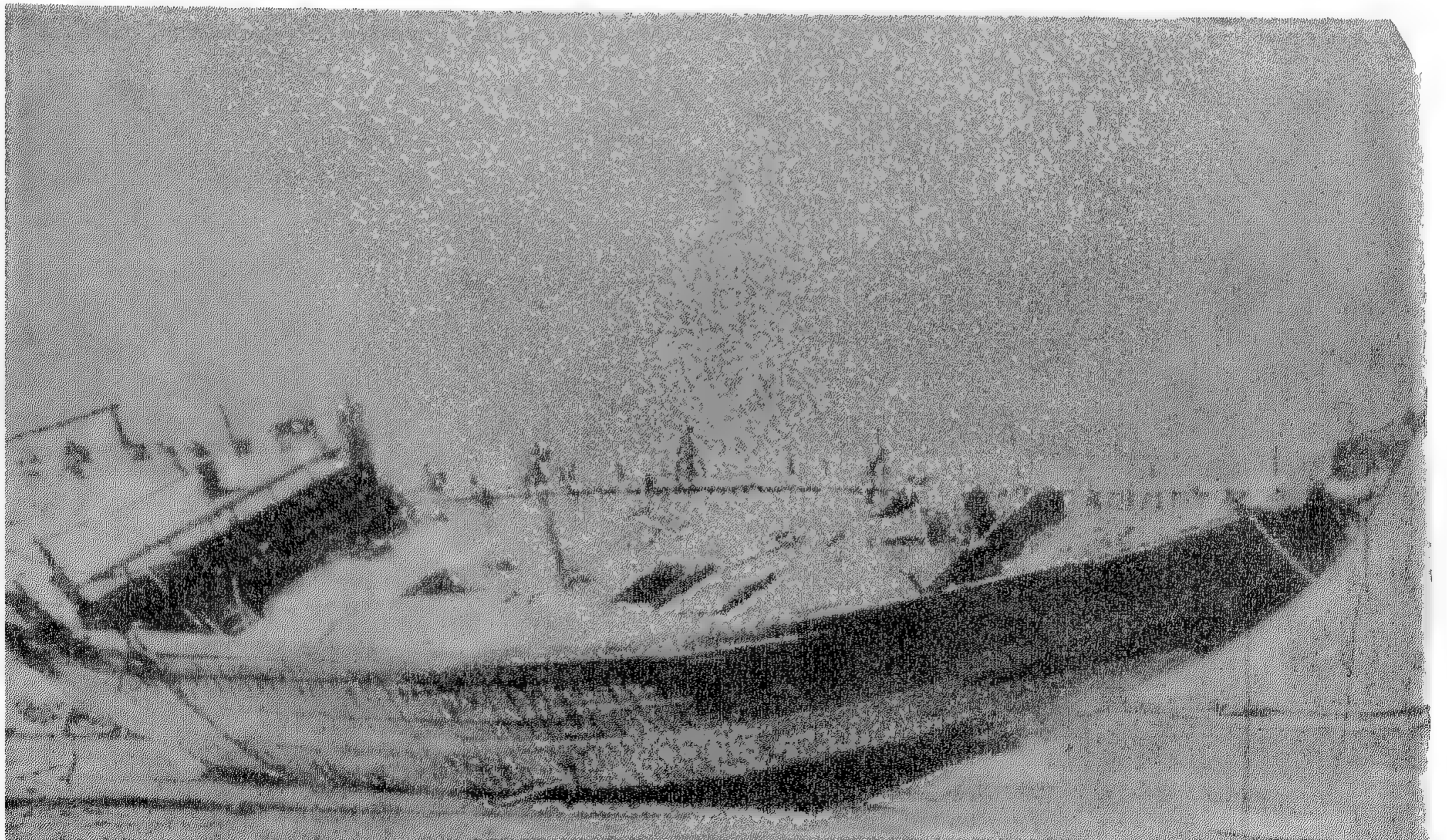
مع أنه كان راسيا في مياه خليج الملا الهادئة ، وقد استمروا على ذلك طوال الرحلة الى جيزان • ومما لاشك فيه أن « الشيخ منصور » كان أحقر المراكب الراسية في الميناء شأنا ، مع أن هذا لم يكن بالطبع ، رأى أحد من بحارته فيه • فقد كان صغيرا للغاية وعليه حمولة مخيفة تزيد عن طاقته زيادة كبيرة كادت تؤدي به الى الغرق • كما كانت تنبعث منه رائحة قظيعة ، ولم يكن فيه أى مكان للمعيشة أو الراحة ، وحتى الطعام لم يكن متوفرا بكمية كافية • وكانت جوانب سطحه مكسوة بحصير مصنوع من سعف النخل ، وذلك لحمايته من ماء البحر خلال الرحلة • ولكن لو قدر ، وهاج البحر مرة واحدة هياجا كبيرا ، لكان فى ذلك خراب المركب وهلاكنا • فلم يكن المركب ، كما قلت ، أكثر من قارب صغير حقير منخفض مدهون باللون الأخضر ، ماعدا المقدمة التى دهمت بالجير الأبيض ، وافرير المؤخرة المزخرف بالاشكال الحمراء والزرقاء اللون • ومع ذلك فقد كان يطفو على سطح الماء برشاقة ، كما كانت خطوطه انسيابية جميلة فقد كان بدنه صغيرا وبديعا ، وصاريه الرئيسى المائل يرتفع شامخا فى الهواء • أما عارضة الصارى (او القَرِيَّة) فكانت تتكون من غصنى شجرة أحدهما مربوطا بالآخر • وكان الشراع الوحيد مكونا من قطعة سيئة الصنع من قماش يابانى رخيص شدت بحبال مجدولة من الياف جوز الهند • وكانت دفته المثبتة على محور ارتكاز واحد ، تبدو غير متوازنة تماما ، وتوحى بأنها قد تنكسر فى أية لحظة • خلاصة القول أن المركب كان يخشى عليه من الغرق حتى وهو راس فى المياه الهادئة فى خليج الملا •

لقد أبحرت فى ذلك المركب الصغير مسافة ستمائة ميل واستمتعت بكل لحظة قضيتها على ظهره ، وشعرت بالأسف عندما أرف موعد فراقه • فعلى الرغم من أنه كان صغيرا وفقيرا ، كما وصفته ، إلا أنه كان مركبا بالمعنى الصحيح ، وكانت الروح المعنوية السائدة على ظهره نادرة فى أيامنا هذه ، ولا مثيل لها فى السفن التجارية الحديثة •

كنا قد أبحرنا من الملا فى ذلك المركب الصغير وسرنا بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية الجنوبي متجهين غربا ، ثم عبرنا باب المندب وسرنا بمحاذاة الساحل اليمنى مارين بموانئ المخا ، والحديدة وكمران ، وتابعا سيرنا باتجاه جيزان فى الطريق الداخلى الذى يمر بين الجزر المرجانية وكنا نبحر نهارا ونلقى بمراسينا ليلا لأن الطريق كانت محفوفة بالمخاطر • ولقد صادف ابحارنا شهر رمضان ، وكانت مصادفة سيئة ، لان ذلك الشهر يجعل الابرار مع العرب فى مراكبهم أمرا شاقا للغاية ، لأن المؤمنين منهم يصومون فى هذا الشهر ، ولا يتناولون طعاما أو شرابا من بزوغ الفجر الى مغيب الشمس • فاذا صادف أن كنت مرافقا لهؤلاء المؤمنين فان الذوق السليم يفرض عليك أن تفعل

ما يفعلون • لقد كان بحارتنا الثمانية ، تحت قيادة أحمد اليمنى ، يصومون طوال النهار ، حتى اذا ما غابت الشمس أدوا الصلاة ، ثم جلسوا لتناول الطعام المؤلف من الأرز والسّمك ، هذا اذا توفر الأرز • وكنا قد صدنا بعض السمك ، وكنا نتناول الطعام بأيدينا اليمنى على الطريقة العربية • لقد كانت الحياة شاقة ، ولكنها كانت بسيطة خالية من التعقيد ، فاذا لم يكن الإنسان يملك شيئا ، فلن يوجد من يحسده على شيء • ولم يكن فى المركب أية اسرة للنوم • ولكن الهواء كان دافئا وكانت النجوم ترافقنا طوال الطريق وكان الطقس جيدا • ولم يكن هذا المركب يعرف الروتين ، كما لم يكن له جدول محدد ، فلم يكن أحد يهتم باليوم أو التاريخ ، لان الايام لم تكن بالنسبة لهم فترات محددة ، مميزة ، لكي يقوموا بتسميتها وعدّها والتحصّر عليها عندما تنقضى • الا اننا كنا مهتمين بحركة القمر خلال شهر رمضان لان محاكاة كان يعنى بالنسبة لنا انتهاء شهر الصيام • وقد عجبت للسهولة الكبيرة التى تكيّفت بها مع البحارة ، وأصبحت مثلهم لاهتم بالزمن • وقد شعرت بالسعادة فعلا عندما انتابنى ذلك الشعور ، فلماذا يهتم الناس بتحديد الايام ؟ فقد كانت الشمس تشرق وتغيب بإرادة الله ، وكانت كل الايام خيرا وبركة • لقد كانت حياة أولئك البحارة بدائية ، ولكنها كانت تبعث فى النفس شعورا غريبا بالراحة والقناعة والاطمئنان •

سمبوك كبير مرفوع على الشاطئ



كان أحمد يبذل قصارى جهده لتسيير السفينة ، والاستفادة من الريح التي كان يسخرها الله له . ولم يكن يظهر الضيق أو يتذمر عندما كانت الاحوال تسوء . لقد كان البحارة يتمتعون بروح طيبة عالية على الرغم من فقرهم ، وكانوا يعتبرون القبطان والدا لهم . ومع أنه كان في الثلاثين من عمره ، وكان معظم البحارة رجالا مكتملي الرجولة ، الا انه كان يتصرف كأنه أب للجميع ، وكانت قيادته لهم أبوية ورحيمة .

لقد كان يهمنى أن أرى الطريقة التي يقود بها أحمد مركبه هذا ، لانه لم يكن يعرف أساليب الملاحة الحديثة كما نعرفها نحن . كما أن تلك البحار خطيرة للملاحة . وقد تبين لى أن أحمد لم يكن بحاجة الى أساليب الملاحة الحديثة ، فقد كان يقود مركبه « الشيخ منصور » بمنتهى السهولة . فعلى الرغم من عدم توافر أى نوع من الاجهزة التي تقيس سرعة الهواء ، وعلى الرغم من أن المرساة لم تكن سوى قطعة من الصخر غرز بها مسمار طويل ، وعلى الرغم من عدم توافر أى نوع من الادوات أو الاجهزة المساعدة على الملاحة سوى بوصلة قديمة جدا ، ربما يعود تاريخها الى القرن الماضى بحيث لم تعد تصلح للعمل ، بل لم يعد بالامكان رؤية ما بداخلها ، وعلى الرغم من عدم توافر حتى حبل بسيط لاستعماله فى قياس الاعماق ، على الرغم من كل ذلك فقد كان « الشيخ منصور » بطريقة ما ، يشق طريقه على صفحة الماء بسهولة وخفة ويسر ، وكان قد مضى عليه على هذا الحال أكثر من ثلاثين عاما فى بحر من أخطر البحار ملاحة فى العالم . لقد كان المركب عاريا تماما ، فلم يكن له سطح ولم يكن فيه مأوى للبحارة والركاب ، ولم يكن مزودا بالخرائط أو بناقوس أو بارومتر أو ساعة أو أى شىء من هذا القبيل . وهل كانت هناك حاجة الى سطح مادام البحر دائم الهدوء ؟ وهل كانت هناك حاجة الى مأوى مادامت السماء لا تمطر أبدا ؟ ومن ذا الذى كان بحاجة الى خرائط ، مادام أحمد يعرف كل نتوء أرضى ، وكل صخرة مرجانية أو غير مرجانية ، وكل مكان على الشاطئ بالمعين المجردة ، لما له من خبرة طويلة جدا فى تلك البحار ؟ وهل كانت هناك حاجة الى ناقوس أو ساعة مادامت لم تكن هناك ضرورة للاهتمام بالوقت ؟ أو الى البارومتر مادام الطقس فى فصل الشتاء دائم الاعتدال ؟ لم يكن فى المركب حتى قماش مشمع لتغطية البضاعة ، التي كانت مكشوفة ومعرضة لكل تقلبات الطقس . ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك مادام البحر لا يهيج أبدا ، لانه لو فعل ذلك لتعرض المركب بكامله ، وبكل ما يحمل ، وليس البضاعة وحدها ، للغرق . فلم يكن فى المركب حتى مضخة بسيطة ، كما لم يكن هناك أدوات للطبخ سوى صندوق مملوء بالرمل وغير ثلاثة أحجار يشعل عليها أحد الغلمان نار الحطب فى الامسيات . أما المواد والمؤن التي زود بها المركب فى عدن ، فقد كانت تتألف من بعض سف النخيل القديمة التي كانت تستخرج اليافها

كلما دمت الحاجة الى ذلك لاستعمالها لصنع الجبال أو الاشرعة أو السلال أو غيرها • وكان الطعام المخصص لاثني عشر رجلا (فقد كان على المركب بعض المسافرين أيضا) لا يملأ أكثر من نصف صندوق صغير موضوع في المؤخرة • وسرعان ما نفذت المؤن ، ليصبح السمك الغذاء الوحيد بعد ذلك • أما مساء الشرب فقد كان يحفظ في برميل صدئ ، معرض لاشعة الشمس المحرقة طوال النهار ، وكان من الطبيعي أن تعشش فيه الحشرات المختلفة • ولم يكن على المركب فانوس ، أو أى مصدر آخر للاضاءة • ولذلك فعندما كانت الشمس تغيب ، كنا نعيش في ظلام دامس لا يبدده شئ ، ومع ذلك فقد كانت الليالي تمر لطيفة والنجوم متألثة ، بينما كان القمر الساطع في ليالي رمضان يؤنسنا ويزودنا بحاجتنا من النور •

وكان المركب يهتز ويفوص بصورة مزعجة اذا ماطرا على البحر أى هياج ، كما كان يعج بالجرذان والصراصير وجميع أنواع الحشرات الاخرى • وفي الليل كان البعوض الجائع يأتينا من الجزر الصغيرة التي كنا نرسو بحداثها ، ويتمتع بما يمتصه من دمي القوى • وعندما انتزعت سمكة القرش منا سنارتنا الوحيدة التي كنا نصيد بها السمك ، أصبح الطعام نادرا وعشنا ثلاثة أيام على حفنة من التمر الجاف • وكنا نفتسل بماء البحر ، ونأكل بأيدينا وننام فوق البضاعة التي كانت ترتفع عن سطح الماء بمقدار قدم أو أقل منه ، وقد حرقتنا أشعة الشمس اللاهبة وشعرنا بالجوع والارهاق ، فاهتزاز مركب صغير في البحر وحركته المستمرة متعبة جدا • ولم أكن أفهم شيئا من كلام البحارة اليمنيين لأنني لم أكن أعرف من العربية الا النزر اليسير •

لقد كانت حياة صعبة ، ولكن هذا لم يخطر على بال أحد غيرى ممن كانوا على ظهر المركب ، كما أنى كنت أشعر بالسعادة لوجودى هناك ، فقد كان جميع البحارة أصدقاء أوفياء وكانت تروق لى بساطتهم وصدقهم وجهلهم للنفاق والرياء ، كما أعجبتني فلسفتهم البسيطة فى الحياة الهادئة الوداعة الخالية من القلق • فقد كانوا يصومون ويصلون ويفتسلون بماء البحر ، ويقومون بالاعمال اللازمة ، ويأكلون ما تيسر لهم بسرور وانشراح • ويبدو لي أن تلك البساطة فى حياتهم الشاقة قد زودتهم بصفات يحسدون عليها وغالبا ما نفتقدها نحن فى حياتنا ، فقد كانت قناعاتهم من صنع أيديهم ، ومتعمهم مقتصره على العالم الخارجي الحقيقي من حولهم • ولقد كان جميع البحارة أحرارا ، على الرغم من أن أحدهم كان عبدا • لقد كانوا بالتأكيد أكثر حرية منا نحن •

مضت الأيام متثاقلة ، يوم ينقضي ويوم يليه ، ونحن متجهون شمالا داخل المنطقة الصخرية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر . وكانت الريح تهب والمركب يمخر عباب الماء ، والبحارة يصلون ويصومون والجميع مطمئنين ، فقد كان أحمد اليميني يعرف طريقه حق المعرفة : لقد كان خبيرا بتلك المياه ، وكان يعرف مركبه جيدا . كما كان بحارا ممتازا . وقد كان مركبه من نواح عدة أهدأ وأمن مركب ركبته في حياتي . وقد تعلمت كيف أعجب بأحمد وأحترم مقدرته ، وكيف أعجب بالبحارة الآخرين وأحبهم فقد كانوا يحبون مركبهم على صفوه ، ولا يرون فيه عيبا . وبعد مدة تفاعلت خلالها مع الروح السائدة على المركب ، بدأت أشعر بالخجل من نفسي لأنني نظرت اليه في البداية نظرة احتقار وبخسته حقه . فقد كان بالفعل مركبا صغيرا صالحا للرحلات التي كان يقوم بها على الرغم من أن حبال شراعه كانت مصنوعة من القش المجدول . وكان يبحر بخفة وبشكل مرض اجمالا ، ولم يسبب لنا أية مشاكل في البحر ، مع أنه تعرض لتيارات مائية قوية مرتين : مرة مقابل « المخا » ومرة أخرى في مضيق باب المندب . ومع أنه كان يحمل ضمن شحنته الكثير من الطعام ، ونحن جياع ، إلا أن شيئا من ذلك أو من غيره من البضاعة لم يسرق أو يمس ، على الرغم من أن البحارة كانوا فقراء ، وكان أي جزء من تلك البضاعة يعادل ثروة بالنسبة لأي منهم . وفي يوم من الأيام عندما شاهدنا مركبا آخر واقعا في مأزق بسبب فقدته لدفته ، سارع أحمد لنجده ، مع أن الريح كانت شديدة في ذلك اليوم ، ومع أن المياه كانت خطيرة هناك . وعندما كنا نلتقي ببعض صغار الصيادين كنا نبادلهم السمك بالارز ، ان كان لدينا شيء منه .

وهكذا مرت الايام تترى واحدا تلو الآخر ، فاسترسلت لحانا ، وهزلت بطوننا ، فشددنا الاحزمة ، وتكاثر الحشرات في برميل الماء تكاثرا عظيما . وفي مساء اليوم الثامن وصلنا جيزان ، بعد أن اخترقنا الاعشاب البرية النامية في البحر ، وألقينا مراسينا بجانب أحد مراكب الحجاج المتجهة الى جدة .

لقد حدث هذا كله قبل أسابيع قليلة خلت ، وما أنذا أقف الآن في الشارع الموصل الى حي كريتر، لألقي نظرة الى الوراء فأرى «الشيخ منصور»، وقد عاد الى عدن ، نقطة خضراء بعيدة في الميناء المزدهم بالمراكب . لعل الحياة على ظهر ذلك المركب كانت قاسية اذا قيست بأى من معايرنا الحاضرة ، كما أنى لم تعد بى رغبة للقيام برحلة أخرى فى البحر الاحمر على ظهر مركب صغير كهذا ، اذ لا بد من أن تكون أمثال تلك الرحلات متشابهة . ولكنى أحببت العرب ، وكنت أتطلع للسفر على ظهر أحد المراكب الكبيرة فى

رحلة طويلة وفي بحار عميقة لان هذه الرحلات تكون دائما أكثر إثارة • لقد كان ذلك ما يجول في خاطري وأنا أتابع سيرى صعدا على طريق كريتر ، وأنا أحس بالسعادة ، وبالراحة أيضا ، لولا أن الطقس كان شديد الحرارة ، وكم كنت أتمنى لو كان أكثر اعتدالا •

في مكتب آل الحمد المعتدل الحرارة ، الذي كان يتألف من بناء كبير من الحجر ، قائم في أحد شوارع معسكر عدن ، وجدت عددا قليلا من نواخذة المراكب الشراعية الكبيرة الراسية في الميناء ، وكان على عبداللطيف الحمد ثاني أصغر الاخوة من آل الحمد يجلس الى مكتب أنيق نظيف ، والى جانبه خزانة ملفات عمرية وجهاز هاتف على متضدة يقربه ، فقد كان في ذلك الوقت هو المسؤول عن مكتب عدن • وقد كان علي شابا نحيل طويل القامة يرتدي بدلة حسنة الخياطة ، ويمتد على رأسه قلنسوة من جلد الفم وكان المكتب يتألف من غرفة بسيطة تطل على الشارع ، وقد صفت على جوانبها الثلاثة مقاعد خشبية مغطاة بالسجاد والمطارف وكان النواخذة ، وهم مجموعة صامته ملتحية ، يفترشون السجاد ، وكانت لحيه أحدهم محنة تبرز من وجهه كأنها حشائش البحر الجافة ، وقد ثبت في عمامته عود سواك لاستعماله عند الحاجة ، على ما أعتقد ، في تنظيف أسنانه • وبالفعل لم يخيب الرجل ظني فقد سحب السواك من عمامته ، وبدأ يفرك به أسنانه دون اكتراث • وكان للنواخذة الآخرين شوارب طويلة ، وكانوا يرتدون الدشاديش البيضاء • وباستثناء أحدهم ، الذي كان زنجي اللون والملامح ، فقد كانت ملامح الباقيين عربية ، وكان لونهم فاتحا نسبيا ، حتى أنهم لو ارتدوا الملابس الاوربية لبدوا كاليونانيين او البرتغاليين ذوي البشرة السمراء • لقد كانوا مجموعة ملفتة للنظر ، وهم جالسون في ذلك المكتب يداعبون حبات سبحاتهم المصنوعة من الكهرمان ، ولا يتكلمون الا اذا وجه الى أحدهم سؤال معين •

شكرت على عبد اللطيف على الرحلة التي أتاح لي القيام بها الى جيزان ، فقد كان هو الذي رتبها لي ، وسألته عما اذا كان بإمكانني أن أبحر الى زنجبار على متن أحد المراكب الكبيرة • فافترت شفتاه عن ابتسامة أظهرت صفين من الاسنان السليمة يعلوها شارب أسود قصير حسن الترتيب ، وتسامل عما اذا كنت بالفعل راغبا في الذهاب على متن مركب كبير الى افريقيا ، وعما اذا لم يكن ما قاسيته على ظهر « الشيخ منصور » كافيا • وتابع كلامه قائلا اني اذا كنت بالفعل راغبا في مثل تلك الرحلة فقد كنت محظوظا

حقا ، ذلك أن أفضل قبطان كويتي شاب كان موجودا في نفس البناية في ذلك الوقت ، يتناول طعام الغداء في إحدى غرف الطابق العلوي ، التي لم أكن قد شاهدها بعد • واستفسر مني عما إذا كنت أرغب في مقابلته فأجبت بالإيجاب • وهكذا كان أول لقاء لي مع « نجدي » صاحب الأنف الأقرنى الذي يشبه منقار الصقر ، وذو العينين الحادثتين الثاقبتين كعينى الصقر ، وابن البحار الشرقية المحنك • لقد كان نجدي قبطان أحد المراكب الكبيرة التي تسافر إلى زنجبار وساحل ملبار ، كما أنه كان ملك صيد اللؤلؤ في الخليج العربي (١) •

عندما لقيت « نجدي » لأول مرة كان يتناول طعامه من لحم خروف محشو بالارز ، فقد كان رمضان قد انقضى وأصبح الأكل مسموحا به خلال النهار • وقد بدا لي من طريقة أكله النهمة بأنه كان يحاول التعويض عما فاتته خلال شهر رمضان • وكان يجلس القرفصاء على سجادة ممدودة في ظل إحدى الشرفات حيث يمكن أن تمر نسيمات الهواء الباردة ، ويمضغ بلا مبالاة قطعة كبيرة من لحم الخروف الناضج ويحشو فمه أيضا بحفنة من الارز بسرعة فائقة • وعندما دخلت عليه توقف عن الأكل وهب واقفا • لقد كان رجلا قصير القامة ، ناحل الجسم ، له وجه قاس لم تتمكن هجمات الجذري من تشويهه ، فقد كان وسيما ، على طريقته الخاصة ، ذا وجه بيضاوي وشارب أسود قصير ، حسن الترتيب ، وأنف كأنف الصقر ، وذقن واضحة المعالم تدل على التصميم وقوة الشكيمة • وعلى الرغم من أنه كان معروقا ونحيفا جدا، إلا أنه كان بادي القوة والبأس ، كما كان شديد السمرة ، أشد سمرة من سائر القباطنة الكويتيين الذين كانوا في الطابق الأرضي • وكان حسن الهندام بشكل بارز فقد كان يرتدي جلبابا فضفاضاً من الحرير الأبيض ، ينغلق عند العنق بزرين من الذهب ، كما كان يضع على رأسه كوفية بيضاء موشاة بخيوط من الذهب الباهت يثبتها في مكانها عقال أسود مصنوع من صوف الغنم ، وهو العقال المستدير الذي يشبه الجبل والذي يعتمره جميع العرب في الصحراء • أما عباؤه المصنوعة من وبر الجمال والمطرزة بالخيوط الذهبية فقد كانت ملقاة على السجادة بجانبه ، كما كانت تبرز من إحدى جيوبه سبحة من حب الكهرمان ، وعلى السطح قريبا من طرف السجادة كان هناك نعل جديد مصنوع من الجلد الأحمر والأخضر ، بجانبه عصا من صناع « ملابار » • وقد كانت يدها صغيرتين جميلتين تنتهيان

(١) في الأصل : « الخليج الفارسي » ، وقد عمدنا إلى إجراء هذا التغيير كلما ورد التعبير • (المترجم)

بأصابع طويلة دقيقة ، الا ان قسما وجهه كانت تدل على القوة وحسن الطوية
فى نفس الوقت . وكانت تبدو على وجهه ، وعليه كله بوجه عام ، سمات
المقدرة واليقظة ، وهذه بالطبع صفات حسنة تساعد على قيادة حكيمة منضبطة
للسفينة التى يعهد اليه بقيادتها . كما كان يتمتع بثقة كاملة بالنفس ، وهذا
بالطبع من سوء حظ من يحاول أن يتحدى قيادته . وكانت له وقفة البحار
المتمرس الممتاز ، البحار المعتاد على اهتزاز المركب فى البحر ، لا على سطح
منزل فى المدينة ، لان وقفته كانت توحى بأنه يتوقع أن يهبط السطح من
تحت قدميه فى أية لحظة ، وبأنه فى الوقت ذاته مستعد لذلك ، فيما لو حدث
فعلا .

قدمنى على اليه ، وشاركناه فى الطعام دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة
الى أن انتهى الجميع ، ولم يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق ، كان الخروف
بعدها قد اختفى كله تقريبا من على القصعة . وعندها غسلنا أيدينا بالماء
الذى أحضره الخادم فى إبريق ، ثم احتسى كل منا ثلاث رشقات من القهوة المرة
الثقيلة جدا ، واستنشقنا البخور من مبخرة أحضرها خادم آخر ثم جلسنا صامتين
بعض الوقت . وقد خيل الى أن هذا هو كل ما سنقوم به ، الا أن عليا أخذ يتحدث
مع هذا الشاب الغريب ، الذى فهمت أنه قد مضت عليه أكثر من عشر سنوات
وهو يقود المراكب الشراعية الكبيرة الى الهند وسواحل أفريقيا . ولم أفهم
بالطبع ما كانا يقولانه لانهما كانا يتكلمان اللغة العربية ، التى لم أكن أفهم
منها حينئذ الا النزر اليسير . ولكن عليا كان يتقن اللغة الانجليزية ، وقد
أخبرنى فيما بعد بأن كل شيء سيكون على ما يرام ، وأن باستطاعتى أن أرافق
«نجدى» فى «يومه» . لقد كان اسم نجدى الكامل هو على بن ناصر النجدى (١)

(١) على ناصر النجدى من نواخذة الكويت المعروفين . كان يسافر عادة فى اليوم الذى
يملكه والده . وهو معروف فى الكويت بسمو أخلاقه ، وكرمه المنقطع النفيير ،
وشهامته ، علاوة على اهتمامه بمظهره الخارجى .

بعد أن ترك السفر فى السنوات الأخيرة ، عينته الحكومة مختارا . ولكنه تابع
هوايته فى صيد السمك وهى الهواية التى كان يمارسها عادة فى عطلة نهاية
الاسبوع .

وفى شهر مارس (اذار) عام ١٩٧٩ كان يمارس هوايته تلك فى مركبه بعيدا
عن الكويت ففاجأته عاصفة قوية وهو فى عرض البحر ، قلبت المركب ، وغرق هو ،
مع واحد آخر من زميلين كانا معه .

تزوج نجدى من شما العدسانى التى رزقت منه بجميع أولاده : إبراهيم فعلى
فعبدالله . وكان عبدالله يصحب والده فى أسفاره . وبعد موتها منذ بضع سنوات ،
تزوج من ابنة التويجرى ، وهى أرملة التى تسكن فى بيته الآن . (المترجم عن أحمد
البشر الرومى) .

وكان بدويا من بدو الكويت . أما مركبه فكان اسمه « فتح الخير » وقد بدا لى بأن هذا الاسم مناسب جدا لاي مركب شراعى يقوم برحلاته البحرية معتمدا على العناية الالهية كالمراكب العربية العادية . ولكنى كنت أخشى أن يكون ذلك الاسم هو أفضل ما فى المركب ، وقد تذكرت حينئذ « الشيخ منصور » ، المركب الذى كان يحمل اسما كبيرا ، ولكنه كان أحقر مركب صغير فى خليج المعلا بأسره . وعلى أية حال فلم أكن متأكدا من أن عليا لم يقصد من تلك الرحلة السابقة فى البحر الاحمر أن يختبر صلابة عودى ومدى عمق اهتمامى الحقيقي بالعرب ومراكبهم الشراعية ، كما أنى خشيت فى قرارة نفسى أن يتبين فيما بعد بأن « فتح الخير » ، الذى يحمل هذا الاسم الطنان ، هو أصغر وأحقر وأقدم « بوم » كويتى فى الميناء ، ولكنى احتفظت بتلك الوساموس لنفسى ، لانى شعرت بعينى نجدى تحديقان بى ، وقد عزمت عندئذ على السفر على ذلك المركب ، دون تردد ، مهما كانت حاله .

لم يتكلم نجدى الا قليلا اثناء ذلك اللقاء ، مع انى فهمت أنه لا يعير بالا لاهتمام الاوربيين بتأليف الكتب . فقد كان يكفيه كتاب واحد، هو القرآن الكريم ، الذى لم يكن به حاجة الى سواء . كما فهمت أيضا أنه عرف أنى بحار عريق وانى قد قدت بنفسى سفنا كبيرة فى رحلات طويلة ، ولذلك ربما أمكنه أن يفيد من خبرتى . أما فيما يتعلق بقضية الكتب ، فقد أخبرنى على بأن نجدى مقتنع تماما بأن عدد الكتب التى ألفها الاوروبيون عن العرب أكثر مما ينبغى ولا حاجة لمزيد منها ، وان كان يرى أن بعض تلك الكتب جيدة - وأشار الى بعضها مثل كتب يورنس (أى لورنس) (١) وستارك (أى فرييا ستارك) - (٢) الا أن القارئ العربى لكثير من الكتب الاخرى لا يستطيع أن يتعرف من خلالها لا على نفسه ولا على بلاده . وعلى الرغم من أن عليا أخبره بأنى لن أكتب الا عن البحر والمراكب والبجارة ، فانه لم يقتنع بضرورة ذلك أو فائدته . ويبدو أنه لم يؤمن بأن البحر موضوع مناسب

(١) لورنس T. E. Lawrence (١٨٨٨ - ١٩٣٥) هو ضابط الاستخبارات البريطانى الذى حرض العرب على الثورة ضد الاتراك خلال الحرب العالمية الثانية ، والنزاع رافق الامير فيصل والامير عبدالله بن الحسين فى حملتهما التى انتهت بتحرير فلسطين وسوريا . وقد سجل احداث تلك الحملة فى كتابه المشهور « أعمدة الحكمة السبعة » (المترجم) .

(٢) فرييا ستارك Freya Stark (١٨٩٣ -) ، رحالة ومكتشفة وكاتبة بريطانية عملت مع وزارة الاعلام البريطانية فى الشرق الاوسط (العراق وسوريا بشكل خاص) خلال الحرب العالمية الثانية . من أهم كتبها : « البوابات الجنوبية للجزيرة العربية » و « شتاء فى الجزيرة العربية » و « الشرق هو الغرب » وغيرها . (المترجم) .

للكتابة ، بل كان يمتد أن من الافضل أن يترك العرب وشأنهم ليقوموا برحلاتهم دون أن يقوم أحد بتسجيلها كما كان الحال معهم لعدة قرون ، وأنه ليس هناك أحد يريد أن يقرأ شيئا عن البحارة ، كما أن من المؤكد أن البحارة أنفسهم لا يرغبون في قراءة شيء عن أنفسهم ، فهم جميعا يتمنون لو كانوا يعيشون على البر ويعملون هنا بدلا من عملهم في البحر . أما افضل الكتب بالنسبة لهم فهي تلك التي تضم بين دفتيها معلومات عن المسافات والشواطئ ووصف الموانئ المرغوب فيها ، ولا شيء غير ذلك . على كل حال فإن نجدى لم يكن يمانع في وجود بحار آخر على ظهر المركب اذا رضيت بركوبه على حاله التي أجسده عليها . ولذلك فإن بإمكانى مرافقته ، وسيكون من نصيبي ستة أقدام من مساحة السدة الخلفية التي يستعملها الضباط ، كما يمكننى أن أشاركهم طعامهم . ولكن ليس من الافضل قبل كل شيء أن ألقى نظرة على المركب كما اقترح نجدى وعلى ؟

لقد راقت لى تلك الفكرة جدا ، خاصة عندما تذكرت «الشيخ منصور» . كان صعودى الى سطح «فتح الخير» يوم الاحد ، وبعد أن القيت عليه نظرة سريعة أدركت فى الحال أنه لادامى للقلق من ناحيته ، فقد كان يوم نجدى مركبا جميلا هريقا يقف هناك منتصبا شامخا ليس هناك مجال للمقارنة بينه وبين «الشيخ منصور» . فقد كان ضخما في غير ثقل ، قويا في غير بطم ، متينا مع انسياب فى الخطوط ، وكان يتهدى على مياه خليج الملا الزرقاء كطير بحرى جميل . وكانت مقدمته التي تشبه منقار الطائر تساعد على تكوين تلك الصورة ، كما كان منخفضا من ناحية المقدمة ، مرتفع المؤخرة مثله فى ذلك مثل باقى المراكب الشراعية العربية . أما مقدمته التي تشق الماء فقد كانت مستقيمة ترتفع الى أعلى مكونة نوعا من الدقل المائل الذي يمتد لمسافة عشرين قدما أمام المركب ، وان لم تكن له أية فائدة سوى الرمز فحسب . ومن ، المقدمة المنخفضة كانت خطوط البدن تناسب بشكل جميل الى مؤخرته التي كانت مرتفعة وواسعة . وقد قدرت حمولته بمائة وخمسين طنا ، مع أن أحدا من العرب الذين سألتهم لم يستطيع أن يحددها ، فلم يكونوا يقيسون حمولة مراكبهم بالاطنان بل بمقدار ما تستطيع حملة من جلال التمر البصرى ، وقد قدروا أن «فتح الخير» يستطيع حمل ألفين وخمسمائة جلة من التمر . ولما كانت حمولته قد أفرغت ، عندما أعتليتة ، فقد كان خفيفا حينئذ ، يقف شامخا متعاليا على جميع المراكب الاخرى من نوع السمبوك والزاروق الموجودة فى الخليج . وكان صاربه الرئيسى المصنوع من الخشب يرتفع الى علو تسعين قدما فوق سطح البحر ، أما القرية الضخمة (١) التي تحمل الشراع المثلث الشكل فقد كانت

(١) القرية : هي العارضة او عود الشراع الذي يجعل فى عرضه من اعلاه . (المترجم) .

مصنوعة من جذوع ثلاث شجرات ربط طرف كل منها بطرف الآخر بعدة لفات من حبال القنب القوية . وقد كانت تفوح من المركب رائحة زيت السمك الكريهة ، شأنه في ذلك شأن المراكب الأخرى ، ولكنى كنت آنذاك قد أصبحت متعوداً على ذلك . وعلى الرغم من تلك الروائح والروائح الغريبة الأخرى التى كانت تنبعث من المدخل الرئيسى الموصل الى جوف المركب عندما صعدنا الى ظهره فقد أدركت فى الحال أن هذا النوع من المراكب هو الذى طالما حلمت بأن أبحر فيه . فقد كان جو المغامرة الحقيقى يخيم على كل شبر من هيكله الجميل ، كما كانت ألواح السطح المتآكلة نفسها مشحونة بروح المغامرة المتنوعة المثيرة . ياله من مركب عظيم ! ان المرء يتعلم ، بعد عشرين عاماً من الخبرة ، كيف يشم رائحة الجو على مركب ما حالما تطلوه قدماءه ، ولذلك فقد أدركت بنظرة واحدة أن هذا المركب مركب خيّر ، حسن القيادة على الرغم من الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث منه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أحد على ظهر المركب يعلم بوجهته القادمة . فقد بدا لى بأن هؤلاء العرب ومراكبهم ، التى تبدو عتيقة جداً ، ووضيعة جداً اذا قيست بمقاييس عالمنا المسعور ، هؤلاء يشعرون بنوع من السعادة فى حياتهم لا ندرك نحن مدى الحاجة اليها . لذلك فقد علوت المركب ، تغمرنى السعادة ، وأنا أتلفت حولى بفخر واعتزاز ، لشعورى بأن هذا المركب مركب حقيقى ، وكنت سعيداً بأن تتاح لى فرصة الإبحار فيه . وقد وجدت مساحة الاقدام الستة التى خصصت لى فى الجزء الخلفى من المركب كافية وافية ، وكانت تظلها ظلة من قماش قطنى هندى متين - لم يعد بالإمكان ثنيه أو طيه بعد ذلك أبداً - ، كما وجدت البحارة الأشداء يؤدون أعمالهم بنشاط ومرح .

ويجب أن اعترف بأنى لم أكن أعرف على وجه اليقين وجهة سفر « فتح الخير » ، ولكن لم يكن هناك داع لاستعجال هذا الأمر ، فلم يكن ذلك أمراً ذا بال ، إذ لا بد أنه سيقوم بنفس الرحلات التى يقوم بها غيره من المراكب العربية . وكان حسبى أن هذا النوع من البحارة ومن الرحلات مازال قائماً وأن تتاح لى فرصة الاشتراك فى إحدى تلك الرحلات ، ومشاهدة ما يحدث فيها عن كثب .

استقبلنا نجدي ونحن نصعد الى ظهر المركب ، وكان يرتدى جلباباً فضفاضاً من القطن « دشداشة » ، ويضع على رأسه كوفية بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية اللون ، ويلقى على كتفيه بلا اكتراث عباءة بيضاء خفيفة . وكانت هذه العباءة الجميلة مصنوعة من وبر الجمال الأبيض ، ومطرزة

من الامام وعلى طول الاكمام وعلى اطرافها بقماش وخيوط مذهبة ، وقد ضمت الى صدره بشرابيتين مذهبتين غير محكمتي العقدة • وكانت في يده اليمنى سبعة تتأرجح هنا وهناك وكان يقف بجانبه شقيقه الاصغر عبد الله ، الذي كان ضابطا صغيرا في « البوم » ، وكان هذا جميل المحيا تظهر على وجهه اثار الجدري ، الذي لا شك انه كان مرضا شائعا في الكويت • وكان يقف خلفهما « المعلم » او مساعد القبطان الذي كان يدعى « حمد بن سالم » (١) • وقد كان هذا أطول قامة من الاثنين الآخرين ، ذا عثون شديد السواد ، منسق بعناية شديدة ، وبطريقة هندسية ، تجعل المرم يتصور كأنه قد قص من مكان ما ، وألصق بذقنه •

وقد تبين لي أن هناك حفلة رقص ستقام على شرفنا • فقد كان المركب يرتدى حلة من الزينة فكانت المؤخرة والقسم الرئيسي من سطح المركب مظللتين بمظلات كبيرة ، أما الارضية فقد فرشت بالسجاد العجمي ذي الازهار الحمراء والزرقة اللون • وكان مقعد القبطان في الخلف مزينا بشكل خاص ومغطى بسجاد سميك وبعدد كبير من الحشايا والوسائد وعلى جانبيه سرجان من سروج الجمال ، كان نجدي يأخذهما معه ليبيعهما الى أحد تجار العاديات الذين يتعاملون مع السواح في زنجبار •

وهنا جلسنا في استرخاء وراحة وقد خلع الضيوف العرب نعالمهم ، وجلسوا يدخنون التراجيل الكبيرة المصنوعة من فخار البصرة ، بينما كانت القهوة العربية المرة والشاي شديد الحلاوة يدوران علينا مرة تلو الاخرى ، والطبول تسخن استعدادا للرقص • ثم أتى البحارة بأطباق من الشراب والحلويات والتين والتمر ، وكانت كلها لذيدة الطعم • وكان نجدي يبدو مهيبا وسيدا للموقف كله ، وكان يدخن نارجيلة عالية وهو ينصت بأدب الى حديث علي التاجر ، ويتمتم من آن لآخر قائلا « طيب » أي « حسنا » ، مبديا موافقته التامة على ما يسمع • وكان يتخلل هذه التتمتات بعض النداءات العالية على يوسف (٢) • وكان هذا بحارا قديما ، يرتدى دشدشة طويلة بيضاء ، ويختفي نصف وجهه تقريبا تحت شارب ضخم مخيف من جهة ، وجزم من كوفية تغطي عينه اليسرى كالقناع ، من جهة أخرى • وكان يبدو وكأن يوسف عبد للنوخذة ، ولكن الواقع أنه لم يكن عبدا ، بل ولم يكن هناك قط

(١) هو حمد بن سالم العمر ، وكان متزوجا من اخت علي النجدي • وقد توفي منذ سنوات (المترجم) •

(٢) هو يوسف الشيرازي ، وهو بحار كان يقوم على خدمة النجدي ، ويشرف على « الدبوسة » وهي مخزن التموين (التي يشار اليها بالقمرة في نص الكتاب) ، ويسكنها أيضا نساء المسافرين • وقد توفي يوسف هذا منذ زمن طويل • (المترجم عن احمد البشر الرومي) •

أي مبيد على ظهر المركب • وكان عمله أن يقوم بين الفينة والفينة بتجديد التبغ والنار في نارجيلة نجدي ، وأن يشرف على تقديم المرطبات • وقد أعجبني منظر يوسف ، فقد كان يبدو بحارا جيدا ، وانسانا طيب السريرة •

جلسنا طويلا على المقعد المغطى بالسجاد ، فليس من عادة العرب أن يتعجلوا الأمور • وكنت خلال ذلك أنظر الى ما يحيط بي من مناظر ممتعة ومثيرة ، حيث كان الميناء المزدحم يعج بالراكب الكبيرة ، التي كان من بينها مراكب من الكويت ومن صور ومن مسقط ومن الساحل المتصالح ، ومن الموانئ الايرانية الصغيرة • وكانت بالقرب منا « بغلة » جميلة من ميناء كونجان الواقع على ساحل ايران الجنوبي • وكانت هذه البغلة سفينة شراعية كبيرة مهيبة ، مبنية على الطراز البرتغالي ، تتميز بمؤخرة منقوشة ذات شرفات أربع • وقد شعرت في تلك اللحظة بالأسف لأنني لم أكن سأبحر على ظهرها ، فقد كانت مقدمتها المنخفضة الجميلة طافية على سطح الماء برشاقة ورفق كأنها رأس دلفين ، كما كانت مؤخرتها ذات النوافذ والشرفات يشع منها النور ، كما تفعل صورتها المنعكسة على ماء الخليج الصافي • وقد كانت سمايك جميلة من مدينة صور العمانية ترسو قريبا منها أيضا ، وكان يسمع منها غناء متواصل ووقع أقدام عارية لا ينقطع بينما يقوم البحارة بشحنها بالبضائع •

كنت أشاهد كل ذلك بسرور واهتمام ، كما كنت انظر الى العدد الكبير من المراكب الأخرى في نفس الوقت الذي كنت أتفحص فيه البحارة السمر الذين يرتدون الوزرات ، والذين قدر لي أن يكونوا رفاق سفري لمدة تصل الى ستة أشهر • كانوا يجلسون في صف طويل مهيب على طول الجانب الأيمن من المركب ، كأنهم مجموعة من الحاشية في مجلس أحد الشيوخ • وخلفي كان الذراع الطويل للدفة المرتفعة يتأرجح بهدوء على سلاسله ، وعجلة القيادة تهتز برفق فتضفي جوا من الحيوية على الهدوء العام الذي كان يلف المراكب الراسية • أما فوق رؤوسنا فقد كانت الصواري الضخمة المزينة ترتفع مائلة نحو السماء الزرقاء • ومن البحر كانت جبال عدن المقفرة تبدو أفضل منظرا • كما كان خليج الملا يبدو للناظر وقد اكتسى تلك الحلة التقليدية التي يتخيلها المرء عن « اليمن السعيد » في غابر الايام ، وعن تلك القرية الواقعة على الشاطئ والتي تستخدم سوقا لبيع العطورات القادمة من حضرموت ، والتوابل والأقمشة القادمة من الهند • أما الآن فليس هناك من بخور تفوح رائحته في الخليج ، أما الأقمشة الوحيدة التي شاهدها فقد كانت مصنوعة في اليابان • الا أن ماء الخليج الذي كان يداعب ألواح خشب الساج ، الذي صنعت منه هذه السفن ، هو نفس الماء ، والسفن الحالية هي نفس السفن القديمة ، كما أن البحارة السمر الحاليين هم نفس البحارة

القدمات ، الذين كانوا يتنقلون على ظهورها ، أو يجلسون القرفصاء على مؤخرتها ، وهم الآن يستخدمون نفس الطرق والأساليب ، ويحملون نفس الآراء وتراودهم نفس الأفكار التي كان يحملها أسلافهم الغابرون منذ قرون طويلة من الزمان •

بدأت الموسيقى وأنا شارد الذهن ، وقد أعادني نشازها الى الحاضر بعنف • وعندئذ نهضنا ونزلنا الى السطح الرئيسي عن طريق الدرج المنقوش الواقع في الجانب الايسر من المركب • وقد كان السطح الرئيسي هذا مغطى بالسجاد أيضا ، وكان يوسف يبدي اهتماما خاصا بتفقد هذا السجاد ليرى فيما اذا كان مبسوطا بشكل سليم ، وإن كل شيء على ما يرام • وقد لاحظت أيضا أن الباب الأرضي الرئيسي الضيق الأسفيني الشكل ، الذي ينتصب الصاري الرئيسي من جزئه الأمامي ، هذا الباب قد تحول هو الآخر الى مقعد مريح مغطى بالسجاد والحشايا ، يمكن التمدد والاسترخاء عليه • وهنا جلسنا بينما راح البحارة يؤدون رقصاتهم • وكان الموسيقي رجلا عربيا ضخما ذا عينين ثاقبتين وشارب أسود ضخم ، وكان يعزف على القيثارة التي بدت لي كأنها قد جلبت من أوروبا (والتي عرفت فيما بعد أنها كانت قد اشترت من البصرة) • وربما كان عزفه جيدا بحسب المفاهيم الموسيقية العربية التي لم تكن لسوء الحظ ، هي نفس مفاهيمي • وقد زاد الطين بلة غناؤه المتصل بصوته الأجلج المزعج • ومهما كان نوع الغناء الذي كان يؤديه ، فقد كان من الواضح أنه كان مستساغا جدا لدى جمهور المستمعين غيري ، فقد كان بإمكانى الاستغناء عنه كلية • وقد همس علي في أذني قائلا بأن ذلك الشخص كان أحد مشاهير الغناء في الكويت • ولكن ذلك الاعلان عن شهرته لم يغير من الامر شيئا بالنسبة لي ، ولم يجعل غناؤه افضل وقعا في مسامعى • وكل ما تمنيته حينئذ هو ألا يكون هذا المغنى الذى قيل لى أن اسمه اسماعيل(١) ، من طاقم المركب الدائم • وقد سرنى أن أرى نفرا من البحارة ومعهم رجل قصير القامة ، كأنه طبّاخ ، يأتون ، وهم يحملون طبقولا صغيرة جدا ، أسطوانية الشكل ، مصنوعة من فخار البصرة ، مشدود على كل منها قطعة من جلد الماعز المسخن • وكان عدد تلك الطبول ستة تقريبا ، كما كانت هناك بعض الدفوف الكبيرة الاخرى • وقد أخذ البحارة يتناوبون على قرعها ، مستخدمين أصابع الابهام والأصابع الامامية الاخرى ، فيصدر عن ذلك ايقاع جميل

،(١) الموسيقى اسماعيل ، قطرى الجنسية ، كان يأتى للكويت للعمل كموسيقي على المراكب الكبيرة • (المترجم - عن احمد البشر الرومى) •

للغاية . وقد أحببت تلك الطبول ، فقد كانت نغمتها خافتة تهدد السمع .
كما كانت تساعد على التخفيف من صخب الموسيقى ، التي كانت تصدر
عن قيثارة اسماعيل .

وكان البحارة من آن لآخر ، يقفون ويرقصون أزواجا ، ويقطع
كل اثنين منهم السجادة جيئة وذهابا وهما مصطفىان جنبا الى جنب . لم
يعجبني ذلك الرقص وضاع على معناه - هذا ان كان له معنى على
الاطلاق - الا أن الباقيين كانوا مستمتعين به كل الاستمتاع . وعلى الرغم
من أن متعتهم كانت أكبر من أية متعة أخرى شاهدها في أية حفلة رقص
أوروبية رسمية ، الا انى اعترف بأنى لم استطع أن أفهم من ذلك الرقص
شيئا . صحيح أنى فى العادة لا أفهم معنى لرقص الباليه ، ولكنى كنت
استطيع فى الماضى أن أفهم كثيرا من رقص أهالى بالى (١)، كما استمتعت مرة
بشكل خاص باحتفال الرابع عشر من يوليو فى جزيرة تاهيتى حيث أقيمت
مسابقات الرقص المشهورة ، وحتى مواطنو جزر سليمان (٢) استطاعوا أن يعبروا
برقصهم عن شىء مفهوم بوجه عام . الا أن هذا الرقص العربى لم يكن
له معنى بالنسبة لى ، ولكنى ربما كنت مخطئا ، وربما كان رقص البحارة
على ظهر المركب فى ذلك الوقت رديئا . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فانى
لم أر افضل منه فى أى وقت لاحق .

وفيما بعد رقص نجدى نفسه . وكانت الرقصات التي أدائها ،
كسابقاتها ، لامعنى لها بالنسبة لى . وكان يرافقه فى الرقص عبد الله
القطامى ، الذى كان شابا ونوخذه « لبوم » كويتى آخر يرسو بمحاذاتنا .
وكان الاثنان ، مثلهما فى ذلك مثل البحارة الآخرين ، يرقصان حفاة
الاقدام ، ويذرعان السجادة جيئة وذهابا ، بخطوات متناغمة مع موسيقى
ذلك الوحش ذى الشارب الضخم . وعلى الرغم من أن حركاتهما كانت أكثر
رشاقة من حركات البحارة الآخرين، الا انه لم يكن هناك اختلاف جوهري بينهم .
وقد كانت قسمات وجهيهما جدية جدا ، وثيا بهما الحريرية تصدر حفيفا
لطيفا ، وهما يذرعان السجادة ذهابا وإيابا . ويبدو أن جزءا هاما من
الاداء كان يتألف من فرقة الاصابع ، التي كانا يؤديانها فتصدر صوتا
عاليا متوائما مع الايقاع الموسيقى . وهكذا كانا يقطعان السجادة جيئة
وذهابا ، وإيديهما متشابكة ، بينما كانت أصابع اسماعيل السوداء تعذب
أوتار القيثارة ، وصوته الاجش يولول . وكلما أصبحا فى مواجهة اسماعيل
المغنى ، كانا يتوقفان لحظة ويفرقعان بأصابعهما ، وأحيانا يهزان بطنيهما .

(١) احدى جزر اندونيسيا (المترجم) .

(٢) ارخبيل فى غرب المحيط الهادى الى الشرق من غينيا الجديدة (المترجم) .

وجسميهما حتى الكتفين ، بطريقة تشبه ماتفعله فتيات مراكش أثناء تأديتهن للرقصة الوطنية ، ثم يعودان مرة أخرى للرقص حتى الطرف الآخر من السجادة ، وهما منكسا الرأس وأقدامهما السمرام اللون تنزلق عليها ، وكان على وجهيهما السمراروين قناعا يخفى أية مشاعر يمكن أن يرغباً في التعبير عنها . وعندما أخذت دقات الموسيقى بالاسراع ، وطالت الجلسة ، أصابني الملل ، ووجدت نفسي أشيح ببصري عن الرقص ، وأجيله على صواري المراكب العديدة الراسية حولنا - ولكن الرقص بقي مستمرا ، يتوقف الراقصان من أن لآخر ويهزان جسميهما من الكتفين حتى أخمص القدمين بعنف ، ثم يقفزان فجأة في الهواء ويدوران الى الخلف ، ثم يعودان الى نفس الخطوات الراقصة ثانية . لقد كان الاداء كله غريبا بالفعل ، وكنت أعجب لماذا يقوم الراقصون بتلك الحركات . ولكن من المحتمل أن أى نوع آخر من الرقص لم يكن يناسب ذلك النوع من المناخ .

في بعض الاحيان كان البحارة ، في أثناء غنائهم ، لا يستطيعون ضبط أعصابهم عند سماعهم إحدى المقطوعات المؤثرة من ذلك المغنى الحزين، فينفعلون ويهبون واقفين ، ويكونون صفوفاً خلف القبطانيين ، ويفرقعون أصابعهم ، ويهزون أجسادهم بعنف شديد ثم يستبد بهم الحماس فيقفزون قفزات عالية في الهواء ، ويستديرون وهم في الهواء ، ثم يعودون الى أماكنهم وهم يضحكون من الاعماق وكأنهم مجموعة من الاطفال الابرياء المرحين . والواقع أن روحاً رائعة من المرح كانت تطبع الاداء بأكمله ، ولم يكن بإمكان أحد ألا يتأثر بها . وينسجم معها ، وعندما كان البحارة جميعاً يغنون الاغاني البحرية ، كان غناؤهم لطيفاً بالفعل . ولكنى شعرت في تلك الامسية بأن عليّ أن أوطن نفسي على محاولة الاستمتاع بالرحلة القادمة ، بنض النظر عن الموسيقى والغناء .

وخلال ذلك كله ، كان نجار المركب ، وهو شاب صغير السن له شارب أسود قصير ، يملأ الجو بأصوات مطرقة ، هو يعالج أضلاع مركب جديد كان في طور البناء هناك على طول الطرف الايسر من الجزء الامامى من السطح الرئيسى « لليوم » الذى كنا عليه . وقد كان مركباً كبيراً ، يبلغ طوله خمسة وثلاثين قدماً على الاقل ، وعرضه باتساع نصف سطح اليوم . وقد أخبرنى علي همساً بأن هذا المركب يجرى صنعه لكى يباع فى افريقيا . وقد كان عليّ يهمس بأمور أخرى فى أذنى ، كلما كانت هناك فسحة من الهدوء ، فقد كان مزاجه منشراحاً فى ذلك اليوم ، وكان ميالاً للحديث مع الآخرين . ولمعرفتى بأن العرب لا يحبون الكلام الكثير ، فقد أصغيت له باهتمام ، الا أن كل ما استطعت معرفته منه ، مع الاسف الشديد ، هو أن اسماعيل ملازم للمركب كأحد

أفراد طاقم البحارة الدائمين • وقد شعرت بالغم الشديد عندما سمعت ذلك •
لكنني كنت أرجو ألا يستعمل اسماعيل قيثارته ، ونحن في عرض البحر ، والا
فأني سأضطر لشراء طبل كبير لامتنع صوت عزفه من الوصول الى أذني •

لقد كان مركبنا « فتح الخير » يفضل « الشيخ منصور » من نواح عدة •
فقد كان له سطح يمكن للمرء أن يتمشى عليه ، وكانت هذه نعمة كبيرة • صحيح
أن البضائع بكافة أنواعها كانت مكدسة عليه ، من أسفله حيث ضلوع الهيكل ،
الى أعلاه حيث موقد الطباخ وخزانات الماء الخشبية ، ومع ذلك فقد كان هناك
متسع للمشى ولاشياء أخرى • وقد كانت المؤخرة مزدحمة أيضا ، عليها
صناديق البحارة جميعها ، وكانت هناك عدة صفوف منها ، موضوعة على
الجانبين ، يبرز من بينها ، على الجانب الايسر ، رأس رحوية حديدية ، كأنه
ينظر حوله بشيء من الارتباك لوجوده هناك • وقد كان من دواعي فخر
« فتح الخير » ان تتوافر عليه عجلة قيادة حقيقية ، مصنوعة من خشب الساج ،
المحاط باطار من النحاس الاصفر ، وحاملة بوصلة نحاسية رشيقة ، ورافعتان
تستعملان في رفع وانزال قارب النجاة • وفيما عدا ذلك ، فقد كان « اليوم »
شبهها بالمراكب الأخرى الا انه أكبر منها وينتهي بأطراف مدببة • وقد كان على
المركب قمرة كبيرة (دبوسة) كما هو الحال في أى مركب كبير آخر ، وكانت
هذه تشغل معظم مساحة المؤخرة ، ولكن جميع الافكار الرومانسية ، التي يمكن
أن تكون قد استقرت في ذهني عن تلك الخلوة التقليدية بالنسبة للمراكب
القديمة ، قد تبخرت في الحال ، عندما هبت على أول نسمة من الروائح
المنبعثة من القمرة • فقد تبين لي أنها لم تكن سوى مخزن مظلم كالكهف ،
ترتع فيه الصراصير ، وتخوض فيه الرائحة الكريهة للسماك القديم المجفف
معركة خاسرة مع الرائحة العامة المسيطرة على الجو ، والمنبعثة من زيت
السماك ومن الماء الآسن الراكد في جوف السفينة • وقد كانت القمرة
منخفضة السقف جدا حتى انها لا تسمح لطفل بالوقوف فيها • وخلف هذا
المكان ، الذي دعونا مجازا « بالقمرة » ، وفي نهاية مؤخرة المركب تماما ،
كانت تقوم غرفتان أخريان صغيرتان جدا ، تشبهان الزرائب أو صناديق
القمامة • وقد قال لي على بمرح ان بإمكانى استعمال هاتين الحجرتين
الفخمتين ، فانهما مخصصتان لي ، ولكنني كنت أشك في ذلك لسببين : أولهما
أن كلامه كان مدعاة للشك بموجب مبادئ عامة كنت قد كونتها عن العرب ،
فقد كانوا أحيانا يبالغون في أقوالهم ووعودهم بدافع من عاطفة مؤقتة لا عن
نية حقيقية للوفاء بتلك الوعود • ومن الناحية الأخرى فقد كان المكانان
موبوءين ، وكنت أفضل الهواء الطلق • فقد كانت كل منهما مملوءة
بالمخزون من المواد التي تسيطر عليها رائحة السمك القديم • وقد اتخذت
قرارى النهائي ، وعزمت على عدم استخدام هاتين الغرفتين ، حتى عندما

أشار نجدى الى أهمية ذينك المكانين لحل مشاكل الملاحة ، ولحفظ أدوات الملاحة المختلفة • فقد كان متحمسا أن أحضر معى الى المركب الميقت (الكرونوميتر) (١) والة السدس (٢) اللذين أملكهما • أما أنا فقد كانت لى وجهة نظر أخرى بالنسبة لهذا الامر أيضا • فقد كان من الواضح تماما بأن الاداة التى سآحملها الى داخل المركب لا تستحق أن تغادره ثانية ، والاداتان المذكورتان حساستان وغاليتا الثمن • وعلاوة على ذلك ، اذا كان بإمكان نجدى أن يبحر بدونهما ، فعلى أن أعرف كيف يفعل ذلك • وقد فهمت من نجدى أن الملاحة لن تكون مشكلة بالنسبة له ، فهو ذاهب الى زنجبارر فقط ، وهو يعرف طريقه الى هناك معرفة تامة •

وعلى الرغم من كل العيوب التى ذكرتها ، فقد أعجبني « فتح الخير » كل الاعجاب ، وقررت فى الحال أن أسافر عليه مع « نجدى » • ولم تكن هناك ضرورة لكثير من الاجراءات الرسمية ، فقد كان على فقط أن أسجل اسمى لدى مركز الشرطة المحلية فى الملا ، وأعلمهم عن وجهة سفرى • وفيما عدا ذلك ، لم تكن هناك أية أوراق رسمية ، أو شروط مكتوبة ، أو شىء من هذا القبيل • وقد بدا لى أنك ، اذا أردت أن تبحر مع العرب ، فما عليك الا أن تحضر معك سجادة لتنام عليها ، وتحمل صندوق أمتعتك ، وتصعد بهما على ظهر السفينة ، بعد اجراء الترتيبات الاولى مع النوخدة • اقصد أن هذا ما تفعله اذا كنت عربيا • اما بالنسبة لى ، فلولا مساعدة عبد اللطيف ، لما سارت الامور ، كما أعتقد ، بالسهولة التى سارت عليها ، وما كنت لاستطيع أن أبحر مع نجدى دون صعوبات كبيرة ، فلا يزال كثير من العرب من الطراز القديم ، يرتابون فى المسيحى القادم من بلاد كأوروبا ، لم تحسن معاملتهم فى يوم من الايام • ومهما كان الامر، فقد وجدت نفسى وقد رتبت جميع أمورى وما كان على الا أن انتظر ابحار المركب •

عدنا الى الشاطئ فى قارب النجاة الطويل • وعلى الطريقة الكويتية التقليدية ، كان عشرون من البعارة الأشداء يقومون بالتجديف بالمجاديف الطويلة ، وهم يرتدون افضل ملابسهم ويهزجون بقوة وحماس • لقد كان تجديفهم ممتازا ، وكانت أهازيجهم أفضل من أغانيهم ، وعندما لم يكونوا

(١) الميقت (Chronometer) آلة لقياس الزمن بدقة بالغة (المترجم) •
(٢) السدس (Sextant) آلة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية من على ظهر السفينة • (المترجم)

يهزجون كانوا يصدرون من أقصى حناجرهم أصواتا عميقة مدممة كأنها هدير سرب من الطائرات قاذفات القنابل القادمة من بعيد • وكانوا يجدفون بانتظام كأنهم فى احتفال رسمى ، وكانت مؤخرة القارب مفروشة بالسجاد الزاهى الالوان • لقد كان المنظر جميلا مقعما بالحياة ، ونحن نمر من بين المراكب الكبيرة الكثيرة العدد ، الراسية ، التى تنتظر دورها فى التفريغ أو الشحن • وقد أعجبني الاسلوب ، وأعجبني الطابع الرسمى الذى كانت مسيرتنا قد اتخذته • وكان من الواضح أن هناك حيوية ونشاطا على المراكب الكبيرة، لا تتوافران على مركب صغير - كالشيخ منصور - واستنادا الى القليل من نمط الحياة الذى شاهدته على ظهر « فتح الخير » فقد أصبحت متشوقا للقيام بالرحلة المقبلة آيا كانت وجهة السفر •

لقد فهمت أن مركبنا كان قد انتهى من تفريغ حمولته من تمر البصرة فى ميناء بربرة ، وأنه كان الآن يشحن للتجارة مع افريقيا ، ويحمل ببضائع لبيعها فى الموانئ الواقعة على شواطئ بنادير وسواحيل وزنجبار ، أو بعبارة أخرى على سواحل الصومال الايطالى وكينيا وتنجانيقا وزنجبار • وقد ذكر نجدى أسماء عدد من الموانئ التى أعلن ، بشكل غير واضح تماما ، أن فى نيته ، بمشيئة الله ، أن يسافر اليها ، اذا كانت الاحوال الجوية مؤاتية ، وكانت بالنسبة لى أسماء رومانتىكية موسيقية الجرس مثل حيفون، وعبية وعثليت وماركا وموقاديشو وكيسيمايو ومالندي وميكندانى ، وكلواكسنجى وغيرها كثير مما لم أسمع به من قبل (١) أما عن العدد الصحيح للاماكن التى سيزورها المركب فعلا - هذا اذا كان سيزور أيها منها على الاطلاق - فلم يكن أحد يعلم شيئا ، وذلك راجع الى أن « فتح الخير » ، كأمثاله من المراكب ، كان مسافرا فى رحلة تجارية على حسابه الخاص، لافى رحلة منظمة بموجب جدول وبرنامج محددين ، كما يحصل عندما تكون الشحنة خاصة بأحد التجار • فقد كان ما يحمله معروضا للبيع ، ويمكن بيعه فعلا فى افضل الاسواق • وكان يوسق بالملح والارز والسكر والحليب الملبب والذرة الهندية الرخيصة ومواد غذائية اخرى ، كما كان من المتوقع أن يكون جاهزا للاقلاع فى غضون أيام قلائل • وعندها سيبحر الى شواطئ حضرموت لاتمام الحمولة بالتبغ والسمن والعسل وكتب البحر المجفف ، وربما - كما قيل لى - لحمل بعض الركاب المتجهين الى مقاديشو وممباسا • وقد كان من المؤكد انه سيزور موانئ المكلا وشر ، وربما أيضا موانئ حامى وسيحوت شرقا • وكان كل شيء يتوقف على مشيئة الله ، والله طبعاً يعلم عن رحلة نجدى القادمة أكثر مما يعلم نجدى نفسه أو أى انسان آخر على سطح المركب • ومهما يكن من أمر

(١) انظر مواقع هذه الاماكن والاماكن الاخرى على الخريطة ، ملحق رقم ٥ (المترجم)

فمن المتوقع أن يصل فى النهاية ، بمشيئة الله ، الى زنجبار ومن هناك يعود بطريقه ما الى الخليج العربى . وربما ذهب الى مكان ما فى مدغشقر أو جزر سيشل ، بل ربما سافر الى ملابار ، حيث يمكنه أن يحمل الخشب لبيعه فى البحرين والبصرة . وباختصار فان وجهة السفر لم تكن محددة تماما ، وكان هذا مدمعة سرور بالنسبة لى . فقد كان على المركب أن يتجه الى حيث يمكن الحصول على ربح وفير ، وأن يعود فى النهاية ، بطريقه أو بأخرى ، سالما الى مينائه الاصلى فى الكويت . وربما استغرقت الرحلة ستة أشهر أو تزيد ، ولم يكن ذلك بالامر الذى يشغل البال .

وطالما أن الامر ليس بذى أهمية بالنسبة للعرب ، فانه لم يكن مهما بالنسبة لى أيضا ، فقد رغبت فى ذلك النوع من الرحلات . وبما انى لم أكن قد سافرت فى السابق الى الساحل الشرقى لافريقيا ، فقد سرنى أن يكون هناك احتمال بأن يقوم المركب بالوصول اليه ، وأتمكن أنا من رؤيته . وكنت لأزال ضعيفا بعض الضعف من جراء مرض الزحار ، الذى أصابنى خلال رحلتى فى البحر الاحمر ، ولكنى كنت آمل ، بعد أن انتهيت من رحلتى على متن « الشيخ منصور » ، أن تكون الحياة على ظهر « فتح الخير » مرفهة نسبيا . فقد كانت خزانات الماء الخشبية أفضل بكثير من برميل أحمد المعدنى الصدى . ومع أن القمرة كانت تعج بالصراصير ، فلم يكن هناك مايدل على وجود الحشرات بكثرة مزعجة على ظهر « فتح الخير » . وباختصار ، فقد كان هذا المركب وافيا بالفرض بوجه عام .

وأخيرا جاء اليوم الذى سنقلع فيه فعلا ، بعد أن كان ذلك قد أعلن . وتأجل ثلاث مرات فى السابق . وكان صندوق أمتعتى المعدنى بين صناديق البحارة الخشبية على مؤخرة المركب ، وكنت جاهزا للصعود الى ظهره للسفر . وقد فعلت ذلك عشية السفر ، وأوصلنى اليه قارب النجاة من رصيف الميناء فى عدن . وكان فى القارب نجدى وزميله وصديقه الحميم ، النوخذة عبد الله القطامى ، الذى كان قد شاركه الرقص يوم الاحد الماضى . وفى منتصف الطريق ، ونحن نعبى الميناء ، أعلن الاثنان أنهما لن يبحرا على مركبيهما الآن . فقد قال نجدى بشكل عابر جدا ، وكان الامر كان عاديا بالنسبة للقبطان العربى ، انه سيذهب هو وعبد الله القطامى الى المكلا فى أحد المراكب البخارية الصغيرة التى يملكها - مستر بسى - ، بينما يقوم المعلم بقيادة المركب الكبير . وقد ظننت فى البداية بأن هذا ترتيب غريب من نوعه ، ولكنى فهمت فيما بعد بأنه كان عاديا جدا . فقد كانت كثير من المراكب قد سبقتنا الى المكلا ، وقد كانت الطريقة الوحيدة التى يمكن أن

يسلكها نجدي وعبد الله القطامي للوصول قبلها هي تلك الطريقة الملتوية ،
وذلك بأن يستخدم مركبا بخاريا سريعا • وكان من الواضح أن هناك منافسة
شديدة على الحمولة والركاب من موانئ حضرموت • وقد كان على النوخدة ،
بالإضافة الى عمله فى قيادة المركب ، أن يكون وكيلا له أيضا ، وأن يحصل
على الحمولة والركاب أيضا • وواقع الامر أن قيادة المركب فى رحلة بسيطة
نسبيا كالسفرة من عدن الى المكلا كانت مسألة ميسرة ، يمكن أن يقوم بها
الضابط أو نائب القبطان بسهولة • ويبدو أن هذه المهمة كانت المهمة الرئيسية
للمضابط أو وكيل القبطان ، ولا شك بأن حمدا بن سالم كان قادرا على قيادة
« فتح الخير » فى رحلة كهذه الى المكلا (أو الى أي مكان آخر بالفعل) ،
كما أن أحد عبيد القطامي المحررين كان سيقوم بقيادة مركب عبد الله فى
نفس الرحلة •

بعد أن وصل نجدي وعبد الله القطامي سالمين الى المركب البخارى الذى
لم أكن أحسدهما على ما فيه من رفاهيه ، اتجه قاربنا الصغير الى حيث يقف
« فتح الخير » صورة جميلة لروعة المركب الشراعي وجلاله تحت نجوم
السماء المتألثة • لقد كان منظره جميلا ورومانسيا بشكل لا يمكن
تصديقه ، وكان رشيقا وعميقا ومثقلا بالبضائع • وقد كان بإمكانى مشاهدة
خيالات صواريه ، التي يخلفها الظلام ، وهي مشرّبة نحو النجوم • وقد
أضاف قرع الطبول الكبيرة والصغيرة ، ووقع أقدام الراقصين ، الى الجو
نوعا من النغم الغريب • وكانت الأنوار مضاعة على سطح المركب ، عندما
صعدت اليه ، وسمعت البحارة يغنون بصوت خافت ، وهم يعدون الشراع
الرئيسي للاقلاع ، وكانوا يؤدون أعمالهم وهم حفاة الاقدام ، وقد رفعت
جلاليبهم وربطت عند الخواصر ، وأزيحت كوفياتهم الى خلف رؤوسهم •
وكانوا يقومون بالأعمال الكثيرة المتنوعة اللازمة لاعداد المركب للابحار
بسرعة وانتظام • وكان كل هذا مختلفا عما عهدته على ظهر « الشيخ
منصور » • فقد كان ذلك دائما مستعدا للسفر وهو كما خلقه الله ، ولم
يكن اعداده للابحار يستغرق أكثر من خمس دقائق • أما على هذا المركب
الكبير فقد كان الاستعداد للابحار يتطلب الكثير من الاعمال • فقد كانت هناك
معدات بحرية يجب أن تجهز وتوضع فى مكانها الصحيح ، وكان هناك زورق
النجاة الصغير الذي يجب أن يرفع ويوضع على حوامله ، كما كان هناك
القارب الطويل الذي يجب أن يرفع ويوضع على الجانب الأيمن من السطح
الرئيسي • وكانت هناك مرساة يجب أن ترفع كليا ، وأخرى ترفع الى
منتصف المسافة • ثم كان هناك الشراع الرئيسي الذي يجب أن يطوى على
طول العارضة (القرية) الضخمة • وبعد كل هذا كانت هناك العارضة
نفسها • فبعد أن يلف حولها الشراع باحكام ، يجب أن ترفع الى رأس

الصاري بخفة ، وخطوة خطوة • وقد استغرقت هذه العملية الاخيرة أكثر من ساعة على الرغم من أن مجموعة كاملة من البحارة كانت قد أتت من مركب القطامي للمساعدة ، وعلى الرغم من أن أكثر من أربعين بحارا كانوا يتصببون عرقا وهم يشدون حبال الشراع • لقد كان عملا شاقا ، بل كاد يكون وحشيا • وكان البحارة يتوقفون من آن لآخر ، لكي يرقصوا ويغنوا ، ضاربين الارض ضربات منتظمة منسقة بأقدامهم الحافية ، ومصفيين بأيديهم الضخمة بحيث كان صوت تصفيقهم يسمع في جميع أرجاء الميناء ، بينما كان عريف الملاحين (المقدمي) يدق طبلا هنديا • لقد كان هذا الرقص أفضل بكثير من أداء يوم الأحد ، وكان يعمل كدواء مقو للبحارة ، يجدد نشاطهم لمتابعة أداء مهامهم الشاقة • فلم يكونوا يقومون بأي عمل من غير مقدمة راقصة ، كما أنهم كانوا دائما يهزجون بشكل موسيقي وهم يعملون •

في مؤخرة المركب كان يقف حمد « المعلم » منتصب القامة ، مهيب الطلعة ، يرتدي جلبابا وعباءة ، ورأسه الكبير ملفوف بالكوفية ، بحيث لم يكن يظهر من وجهه غير عينيه وأنفه الكبير • قلما قابلت حامدا هذا من قبل ، فقد كان قليل الكلام في حضرة نجدي ، ولكنه الآن كان يصدر الاوامر من آن لآخر ، بكل هدوء ورزانة ، بينما كان العمل مستمرا • لقد كان منظره أخذا ، وهو يقف في مؤخرة المركب ، حافي القدمين ، بعباءته الموشاة بخيوط الذهب ، كما وقف منذ أقدم العهود آلاف غيره من ربابنة المراكب الشراعية العربية من البوم والبغلات وغيرها ، المنطلقة من اليمن السعيد في رحلات متجهة الى سوفالا وأوفير وزنجبار ، بافريقيا الشرقية • حياني حمد بهدوء ، وأنا أصعد الى المركب ، وأشار الي بأن آخذ مكاني على السدة في الخلف ، وأرسل يوسف الشيرازي لكي يضع أمتعتي في المكان المناسب • ولكني لم أكن مهتما بتنظيم أمتعتي ، كما أنه كان على يوسف الشيرازي أن يؤدي مهام أخرى • لقد كنت راغبا فقط في استجلاء روعة المنظر • فقد كان القمر ساطعا وكان بحارة المراكب الاخرى المشحونة ، الراسية في الميناء ، يدقون الطبول ويعزفون على آلاتهم الموسيقية الوترية ، وقد جعل كل ذلك من المنظر بأكمله منظرا مثيرا للمشاعر حقًا • حتى تلال عدن المحترقة السوداء اكتست ، تحت نور القمر ، مسحة من الليونة ، بحيث أصبحت الخلفية كلها من ميناء وجبال خلفية مثالية لاقلاع المراكب الكبيرة ، المتجهة الى زنجبار • وعندما رفعت القرية حاملة الشراع:

الى أعلى ، بدا كأن صواري المركب الشامخة تعانق النجوم المتدلية من السماء • وكانت الدفة تهتز برفق على محورها ، وكان وهج مصباح زيتي ينبعث من

حامل البوصلة • لقد كان كل شيء جاهزا للاستعمال عندما يصل السد
المؤاتى •

خرجنا من خليج المعلا مع أنفاس الهواء الباردة القادمة من البر قبل
الساعة الثالثة صباحا • وما أن انبلج الصبح ، حتى كنا قد أصبحنا خارج
ميناء عدن • وكان يوم القطامي يسير خلفنا بينما كانت أمامنا بغلة
فارسية • وكان قائد الدفة (السلونى) يجلس قبالة عجلة القيادة ، متربعا
على مقعده ، وممسكا بالعجلة بواسطة مقبضين ، واحد من كل ناحية ، بينما
كان حمد بن سالم يراقب ذلك بانتباه وحذر كاملين ، وهو يجلس القرفصاء
على السدة الواقعة خلفه •

الفصل الثاني

على ظهر المركب "فتح الخير"

على ظهر المركب «فتح الخير»

أبحرنا من عدن في الاسبوع الاول من شهر ديسمبر ، حين كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تهب برفق ، وهي الرياح التي ستدفعنا الى افريقيا ، وتستمر عادة في الهبوب حتى أواخر مارس أو أوائل ابريل ، عندما نكون قد وصلنا اما الى زنجبار أو تنجانيقا أو سواحل افريقيا البرتغالية الشرقية ، وذلك بحسب الجهة التي نقصدها . ومن هناك نبدأ رحلة العودة الى الوطن مع بداية هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وما كان علينا أن ننتظر ذلك الانقلاب في اتجاه الريح لكي نطلع ، بل يجب أن نبدأ الرحلة باتجاه الشمال في فترة الانتقال .

أما الآن ، فقد كانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بعكس اتجاهنا ، ولذلك كان علينا أن نكافح لكي نقطع مسافة الخمسمائة ميل الأولى من الرحلة ، وبعد ذلك تصبح الملاحة سهلة ميسورة . أما أنا شخصيا ، فلم أكن اهتم بالرياح المعاكسة لنا ، أو بالمدة التي تستغرقها الرحلة حتى نصل الى أول ميناء ، لأنه تبين لي في الحال بأن الحياة على مركب كبير كهذا ستكون ممتعة جدا ، وأن هناك أمورا كثيرة يمكن أن أتعلّمها . ولذلك فقد وطلدت مقامي هناك على الأقدام الستة من السدة التي خصصت لي على يمين المؤخرة ، وبدأت أتعلّم كل ما أستطيع تعلّمه .

كان موقعي على السدة موقعا ممتازا ، أمام النوخدة . وكان عرض السدة قدمين ونصف القدم ، أي أنها لم تكن ضيقة . كما أنه كان لدي سجادة أنام عليها . ولم يكن على المركب من الأفاريز ما يمنعنا من الانزلاق عن ظهره ، فيما لو اهتز اهتزازا شديدا ، وهو أمر لم يحدث الا نادرا . ومهما يكن من أمر فلم يحدث أن سقطت عن ظهر المركب مرة واحدة في أية مرحلة من مراحل السفر ، مع أنني كنت آوي الى مكاني المذكور كل ليلة مدة ستة أشهر كاملة . وكان قائد الدفة يجلس متربعا على مقعده بجائبي ، ويقود المركب وهو جالس . وكان باستطاعتي أن أنظر الى البوصلة القريبة لأتحقق من أن المركب يسير في الاتجاه الصحيح ، كما ان نظرة الى أعلى كانت تريني الوضع واضحا بالنسبة للأشعة . خلاصة القول ، أن موضعي على ظهر المركب كان ممتازا ، لأنه كان يمكنني من مراقبة كل ما يجري عليه ، فيما عدا ما يدور تحت مؤخرته . فقد كنت أستطيع رؤية الطباخ وهو جالس الى موقده في المقدمة ، والنجار وهو يعمل في مركبه ، وصهاريج

المياه العذبة ، والقارب الطويل المثبت على الجانب الأيمن من المركب ، وكذلك الباب المؤدى الى جوف المركب . وكان مقعدى هذا مظللا بمظلة تقيه بعض حرارة الشمس ووجهها ، مع أن حمداً كان دائماً يعارض نشر المظلة أكثر مما ينبغي ، لأنه كان يؤثر البقاء في الهواء الطلق ، حيث يمكنه أن يشعر بهبوب الرياح واتجاهاتها بشكل أفضل . ولكن ذلك ، لسوء الحظ ، كان يعرضنا للمزيد من أشعة الشمس الحارة .

لم تكن حرارة الشمس مزعجة ونحن في عرض البحر ، فبعد أن غادرنا عدن غداً الجو لطيفاً . وقد كرسنا الأيام الأولى من الرحلة لأتعلم أقصى ما أستطيع أن أتعلمه . فعلى الرغم من أنني كنت قد قضيت شهراً في البحر الأحمر ، إلا أنني وجدت أن هذه الرحلة كانت نوعاً جديداً وغريباً من الملاحة . فقد كانت الحياة على المركب تسير هنيئة هادئة ، وكنا نسير ببطم بعكس اتجاه الرياح يوماً بعد يوم ، كما أن حمداً بن سالم وعبدالله النجدى والآخرين أخذوا يتعودون على وجودي بينهم . أما أنا فقد سكنت الى حياة المركب دون صعوبة تذكر ، فلم يكن هناك عملياً شيء محدد أقوم به ، إذ لم تكن هناك حاجة الى علوم الملاحة . وكما كان الحال عليه على متن « الشيخ منصور » ، لم يكن على ظهر مركبنا أيضاً النظام اليومي الرتيب المعروف على ظهر السفن الأوروبية . فلم تكن نحفظ سجلات ظاهرة ، كما أنه لم يكن لدينا مفكرة ندون فيها الأحداث اليومية ، ولم تكن نقرع الأجراس ، أو نطلب عقد الاجتماعات ، أو نقوم بأية تدريبات على المركب . كما أنه لم يكن هناك نظام رسمي لمناوبة الحراسة على سطح المركب ، أو ترتيب واضح للدخول الى جوف المركب . إذ كيف يمكن أن يكون هناك شيء من هذا ، ولم يكن للمركب « جوف » يأوى اليه البحارة ؟ فقد كانوا جميعاً يعيشون على سطح المركب ، وبذلك كانوا دائماً رهن الإشارة . أما الزمن فلم يكن له أى حساب ، بل انه كان أقل أهمية مما كان عليه الحال وأنا على ظهر « الشيخ منصور » وهو يبحر بنا فى البحر الأحمر ، فذلك المركب كان على الأقل يقوم بعدة رحلات فى العام الواحد ، أما مركبنا الكبير فقد فهمت أنه يقوم برحلة سنوية واحدة فقط . وعندما يكون الامر كذلك ، وتكون السنة بأكملها لا أهمية لها ، فما أهمية الأشهر والأيام ؟ لقد وجدت ذلك الوضع الذى لاحساب للوقت فيه، وتلك الحياة الهادئة التى لايمكر صفوها معكر وضعا لطيفاً ، وقد بدأت استمريء تلك الحياة ، وأتخلى عن اهتمامى السابق بالزمن والتاريخ، بينما شغلت نفسى بالعناية بصحة البحارة، وبتعلم ما يمكنني تعلمه ، فقد كانت معي بعض الأدوية والضمادات البسيطة ، وكان بعض البحارة قد تقرحت أرجلهم .

النجدى ←



وعلاوة على هذا العمل العلاجي ، فقد تعلمت كل ما أستطيع من الأسماء العربية التي تطلق على الأشربة والمعدات الأخرى ، بالإضافة الى الأوامر التي تستخدم في المناورات البحرية المختلفة . ولم تكن محاولة تعلم اللغة العربية بهذه الطريقة سهلة ، فقد كانت معي بعض الكتب العربية ، ولكنها كانت اما باللهجة السورية أو المصرية ، وقلما كانت هاتان اللهجتان تتفقان مع لهجة البحارة . وكنت قد حفظت عن ظهر قلب جميع الدروس التي تلقيتها على يدي شيخ عدني ضعيف البصر ، ولكنني وجدت أن أكثر التعابير التي تعلمتها منه فائدة لى هى طريقة السؤال عن اسم الشيء باللغة العربية : « شنو هذا ؟ » . فكنت ألاحق الجميع ، حمداً بن سالم ، وعبد الله النجدي ، ويوسف الشيرازي ، وعرفاء البحارة وغيرهم ، وألحف عليهم بذلك السؤال لدرجة جعلتهم يقرقرون منه ومني قرفاً شديداً ، ولكنهم كانوا دائما يزودونني ببعض الاجابات ، وان كانت تلك الاجابات ، للأسف ، كثيرا ما تختلف من شخص لآخر ، وكثيرا ما تنقصها الدقة أو يجانبها الصواب . لقد كان تعلم اللغة العربية أمرا شاقا ، زاده ألك العرب صعوبة . ولكن سرعان ما وصلت مرحلة تمكيني من التفاهم مع البحارة ومن أن أتعلم منهم شيئا ما على الأقل . فقد اكتشفت ، لحسن الحظ ، أن التعابير البحرية ، كما هو الحال في معظم اللغات الأخرى ، أسهل في العادة من اللغة المستعملة على اليابسة . أما اللهجة العربية اليمينية التي كنت قد اكتسبتها وأنا على ظهر « زاروق » أحمد الصغير ، فقد كانت عديمة الفائدة . فقد اكتشفت ، بعد ستة أشهر قضيتها على ظهر « فتح الخير » ، أن بعض الكلمات التي كنت أستخدمها طوال الوقت كان يحسبها الكويتيون كلمات انجليزية ، فقد أخذوا تلك العبارات التي كنت أعتقد أنها عربية ، أخذوها عني ، واستخدموها على أنها تعابير انجليزية .

كان البحارة يستخدمون كلمات كثيرة من اللغات السواحلية والهندوستانية والفارسية ، وكانت كلها أسهل من اللغات العربية ، كما أن لغتهم اليومية كانت تحتوى على كلمات محرفة بشكل غريب . فعندما كانوا مثلا يريدون أن يعبروا عن أنهم في عجلة من أمرهم ، كانوا يصرخون بأعلى صوته قائلين « فول سبيت » ، وهو تعبير اعتقد انه يعني " Full speed ahead " باللغة الانكليزية ، ويستعمل للأمر بقيادة السفينة بأقصى سرعة الى الامام . كما كانوا يشيرون الى « بومهم » ، الذي كانوا يتصورون أنه سريع جدا ، بقولهم « فسميل » ، ويقصدون تشبيهه بمراكب البريد السريعة " Fast mail liners " التي تعمل في الخليج العربي . وكان عبدالله النجدي يرغب في تعلم اللغة الانجليزية ، فأخذت أتبادل معه الدروس مرتين يوميا ، مرة أنا أعلمه الانجليزية ، ومرة يقوم هو بتعليمي اللغة العربية . ان عمليتي التعلم والتعليم لم تكونا

سهلتين بأي حال من الاحوال . فبعد مضي أسبوع ، قررت أن تعلمه الانكليزية أشق علي من أن أتعلم منه العربية ، لأنني عندما كنت أسأله بلغتي العربية البحرية عن اسم هذا الشيء أو ذاك ، كان يجيبني بلغته الانكليزية غير البحرية ، وكانت تمر بضعة أيام أحيانا قبل أن أدرك أنه كان يتخيل أنه يتكلم الانجليزية . لقد قررت أن من الأفضل أن أتعلم اللغة كما يتعلمها الأطفال ، أي عن طريق استعمال اللغة نفسها ، لا عن طريق الترجمة . فلم يكن هناك أحد على ظهر المركب يتكلم الانجليزية غيري ، وعندما غادرنا المركب بعد انتهاء الرحلة ، كان عبد الله قد تعلم ما لا يزيد عن عشرين كلمة ، كما كان باستطاعته أن يعد الى السبعة . أما يوسف الشيرازي ، فلم يكن يعرف من اللغة الانجليزية الا شتيمة تعني « لعنة الله عليك أيها المتسول الحقيير » ، قال انهم كانوا يوجهونها اليه عندما كان في الهند .

لقد كان تعلم اللغة العربية عملية بطيئة ، ولكنه مع ذلك شغل كل وقتي . كما أنني أصبحت على علاقة صداقة مع عبد الله والتجار والعجوز يوسف الشيرازي ، ولكن وقتا طويلا انقضى قبل أن أتعرف الى أسماء البحارة جميعا وأميز بينهم . ففي الايام الاولى من الرحلة ، بدا لي أن نصف البحارة على الأقل كانت أسماؤهم « محمدا » ، والنصف الآخر « عبد الله » ، مع أنني علمت فيما بعد أن خمسة فقط كان اسم كل منهم « محمدا » وثلاثة يحملون اسم « عبد الله » ، من بين سبعة وعشرين بحارا . وكانت المشكلة في بادئ الأمر أنني كنت أسمع عددا كبيرا من الأسماء ، وكأنها « محمد » ، وذلك لأن أذني لم تكن قد تدربت على تمييز الفروق بينها ، وأمثال ذلك : « حامد وأحمد » وحتى « حمود ومحمود » . فقد كانت جميع هذه الأسماء تبدو متشابهة ، عندما يصيح بها العرب من أول المركب الى آخره بطريقتهم الخاصة . فعندما كانوا ينادون الاسم « محمد » مثلا قلما كانوا يجهرون بصوت الميم في أول الكلمة ، ولذلك فقد كان الاسم يبدو وكأنه « حمد » ، وكان هذا الأمر مربكا للغاية . فعندما كنت أريد أحد البحارة ، ولم يكن يوسف الشيرازي موجودا ، كنت أصيح مناديا « محمد » فقط ، وكان عدد منهم دائما يرد على النداء ، وقد يبلغ العدد نصف دسته ، وقد يكون بينهم جميع مَن أسماؤهم « عبد الله » .

لقد كانت الحياة على ظهر المركب بدائية ساذجة ، ولكن هذا المركب الكبير كان يبدو كأنه قصر منيف بالمقارنة « بالشيخ منصور » . فقد كانت من مميزات الحسنة أن الفرد يستطيع أن يمارس رياضة المشي على ظهره ، وإن كان العرب لا يفعلون ذلك مطلقا . بل انهم كانوا ينظرون الي شورا ، وأنا أتمشى جيئة وذهابا . وعندما رأي حمد أفعل ذلك للمرة الثالثة ، خاطبني قائلا : « يظهر أنك لا تحب مركبنا أيها النصراني ! » وعندما أجبته



مقدمة بوم

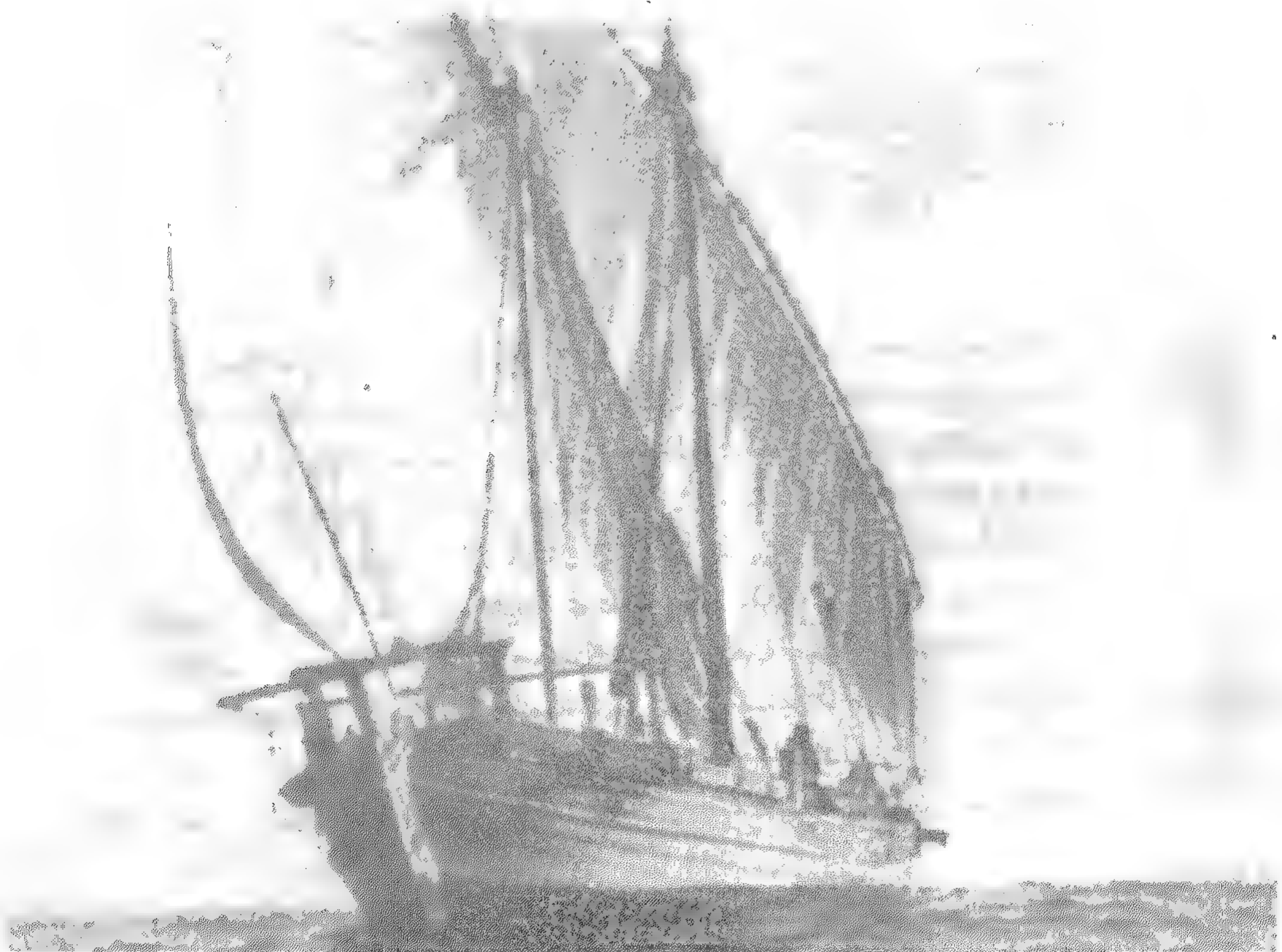
بما استطعت جمع شتاته من لغتي العربية قائلا « بل على العكس ، فاني أحب المركب بالفعل ، يا معلم حمد • لماذا تعتقد أنني لست سعيدا هنا ؟ » ، قال : « لأنك تمشي كالأسد الهصور ، وتخطر بقوة كحيوان محبوس في قفص • ولو كنت سعيدا أيها النصراني ، لكان قد استقر بك الأمر وهدأت » •

لقد كان من العبث أن أناقشه وأفهمه بأني أتريض ، فلم يسمعوا بكلمة « رياضة » على الإطلاق • وفي الواقع أنني لم أجد في أي من الكتب العربية التي كنت أستخدمها كلمة مرادفة للكلمة الانجليزية ، ولذلك فقد تخليت عن المحاولة ، وجلست • وكنت أحيانا أساعد البحارة في عملهم الشاق ، عند رفع الشراع الرئيسي أو رفع العارضة ، بعد أن يكونوا قد أنزلوها لسبب أو لآخر • ولكن هذا النوع من الرياضة كان أكثر من أن أحتمله في تلك البحار الساخنة ، كما أن سرعتهم في العمل كانت مهلكة • وفي بعض الأحيان الأخرى ، كنت أعاون في صنع الأشرعة أو اصلاحها • ولكنهم كانوا يقولون بأني كنت أخيط الأطراف أفضل من اللازم ، فأجعل الأشرعة أقوى من المطلوب أيضا • فقد كانوا هم يخيطنونها خياطة سيئة عن

عمد ، ويباعدون ما بين الغرزة والأخرى • وفي بعض الاحيان كنا نجد
الحبال من ألياف جوز الهند المتوافرة لدينا •

تابعنا سيرنا باتجاه المكلا • وفي البداية كان المركب يسير الريح
فيتجه مسافة باتجاه ساحل الصومال البريطاني ، بل ان حمداً أشار في أحد
الايام الى اليابسة التي تقع عليها مدينة « بربرة » • ولكننا اتجهنا بعد ذلك
الى الشرق ، بحذاء ساحل الجزيرة العربية الجنوبي ، قريبا من البر • وقد
كان هذا أفضل ، في رأي حمد ، الذي كان يعرف المنطقة معرفة جيدة ، فقد
كانت هذه رحلته الخامسة والعشرين في تلك البحار ، لأنه اذا ابتعد عن البر
ودخل خليج عدن ، فانه يلقي هناك ريحا قوية تدفعه باتجاه الغرب ، أما
اذا بقي قريبا من الساحل فيمكن تجنبها ، بل ان بإمكانه ، اذا حالفه الحظ ،
أن يقابل ريحا مضادة تهب باتجاه الشرق • لقد كان حمد يعرف كل فنون
التجارة البحرية • فقد كنا في أمان ما دمنا قريبين من الشاطئ ، لأن ذلك
الشاطئ خال من الاخطار نسبيا • وهكذا تابعنا سيرنا بشكل هادئ وممتع ،
وكانت السماء زرقاء صافية والندسيم عريلا ، ومع أن تقدمنا لم يكن بالمستوى
المطلوب ، الا أن أحدا لم يبد كبير اهتمام بذلك • كما أنني شخصيا لم

فتح الخير



أكثر ، لذلك فقد كانت الحياة ناعمة هادئة ، اذ كان من أهم الامور التي تميز ذلك المركب العربي الكبير ، روح الهدوء والطمأنينة التي كانت تلف المركب ومن عليه .

كنا نعدل اتجاه المركب مرتين يوميا ، ونأكل عادة ثلاث مرات يوميا ، ونؤدي (أو بالاحرى يؤدي العرب) الصلوات الخمس المفروضة في مواقيتها ، وفيما عدا ذلك ، كان كل منا يهتم بأموره الخاصة . وكنا ندور بالمركب حول نفسه عند تغيير الاتجاه ، بدلا من تغيير الاتجاه دفعة واحدة ، لأن سحب الشراع المثلث الشكل الى الخلف ، عندما تكون الريح شديدة ، عملية خطيرة . فقد كان الصاري الرئيسي ثابتا وقويا بذاته ، وأسوة بجميع المراكب العربية الاخرى ، لم يكن في مركبنا نظام الحبال الثابتة ، بل كان كل ما يدعم الشراع الرئيسي ويثبتته في مكانه عبارة عن بعض الحبال المتحركة ، التي تشد دائما بعكس اتجاه الريح ، ثم ترخى في أثناء تغيير اتجاه المركب . أما حبال الشراع الرئيسية التي كانت تمتد الى مؤخرة المركب فقد كانت وظيفتها أن تكون سندا خلفيا للاشعة . وهكذا فقد كنا نغير اتجاه المركب ، بأن نطلق له العنان عندما تكون الريح خلف الشراع ، ونلف المارضة الضخمة عندما تكون الرياح ساكنة تماما . لقد كنت أبدي اهتماما شديدا وأراقب تلك العملية بكل دقة كلما كانوا يقومون بها ، لأنها كانت عملية شاقة ومعقدة . وكان عليهم أن يؤدوا تلك العملية بمنتهى العناية والحرص ، كلما كانت الريح - مهما كانت ضعيفة - تهب عليهم ، خوفا من أن يمتليء الشراع بالهواء وينطلق المركب بعكس ما يريدون . . . ولكنني اكتشفت أن مركبنا كان مركبا مطواعا ، سهل القيادة جدا على الرغم من ضخامة الشراع الرئيسي وثقله ، وأن بحارتنا كانوا يتقنون عملهم اتقانا تاما .

لم يمض وقت طويل على ابحارنا ، حتى اكتشفت أنني لم أكن الدخيل الوحيد على ظهر المركب ، فما أن غادرنا الميناء وأصبحنا في وسط البحر حتى برز رجلان غامضان من مكان مجهول . أما أين كانا مختبئين ومن أين جاءا فلم أكن أدري ، كما أنني لم أسأل ، لأن أسئلة من هذا النوع لم يكن مرغوبا فيها . وبالنسبة لي ، كان الرجلان غريبين ومختلفين ، وكان من الواضح أنهما ينتميان الى قبيلة تختلف قطعاً عن القبيلة التي ينتمي اليها الكويتيون . فكان أحدهما يبدو كأنه من مدينة صور ، أما الآخر فلم أستطع تحديد أصله . كما كان بصحبتهما صبي صغير ، خيل الى أنه كان يقوم على خدمة أحدهما . لقد كانا ثنائيا غريبا حقا ، ولكنني كنت الوحيد الذي استغرب ظهورهما المفاجيء ، على ما يبدو ، لأن الآخرين لم يعيروا

ذلك أى اهتمام ، وكأنه أمر عادى جدا . وكنت قد حزمت أمرى من قبل وقررت ألا أبدى دهشتى أو استغرابى لأي حدث يقع على ظهر المركب ، وكنت أتساءل في نفسي عمن سيظهر فجأة أيضا بعد ذينك الرجلين الملتحيين المتلفعين اللذين برزا فجأة فى اليوم الثانى من ابحارنا ، ولكن أحدا غيرهما لم يظهر بعد ذلك .

كان أحدهما صغير الجسم ، ذا وجه يدل على الخبث ، ولحية كاملة ، وكان يبدو شيطانا صغيرا ذكيا تشع من مآقى عينيه الصغيرتين علامات المكر والدهاء . وكان يحمل معه صندوقا فضيا من الكحل ، الذى كان يطلى به جفونه مرتين فى اليوم ، كما كان فى ثنايا عمامته الحمراء سواك ينظف به أسنانه قبل كل صلاة . وكانت لحيته مصبوغة فى بعض أجزاءها بالحناء ، كما رأيت يصبغ بالحناء أيضا أظافر قدميه ويديه وأخمصى قدميه المتشققتين . وكان يبلغ من العمر خمسين عاما على وجه التقريب . وكان كل ما استطعت معرفته عنه فى ذلك الوقت أنه تاجر . أما المواد التى كان يتاجر بها ، فلم أستطع معرفتها عندئذ ، ولكنى عرفت فيما بعد أنه كان يتاجر بالحشيش والحدروات ، وأنه كان من نوع المغامر المستعد لكل طارئ ، وكأنه سندباد عصرى يحمل صرته على كتفه . وكان اسمه « سعيد الصورى » ، مع أنه لم يكن من مدينة صور بالذات ، بل من مكان آخر أبعد منها على شاطئ عمان .

أما الرجل الآخر فقد كان أصغر سنا بكثير ، فقد اعتلى مؤخرة المركب بخطا ثابتة مهيبة ، وعيناه الجميلتان تدلان على أنه محارب من محاربي الصحراء الاشداء . فحيا حمدا ولم يعرني أى اهتمام ، ثم بدأ يخبىء سيفه طويلا ، وترسا جلديا ، وخنجرا مزخرفا ، فى الفراغ الواقع خلف صندوق أمتعتي . وقد سببت لي تلك المعدات الحربية شيئا من الارتباك وأردت أن أسأله عن معناها وسبب حمله لها . ولكنى أحجمت عن السؤال ، وأقنعت نفسي بأني سأكتشف بمرور الزمن الهدف من وجودها ، ان كان لها هدف ، كما تولد لدي احساس داخلي بأني اذا بقيت على ظهر ذلك المركب مدة كافية من الزمن فلا بد أن اكتشف وأتعلم أمورا كثيرة . وكان ذلك الرجل يرتدي جلبابا أصفر ، أقصر من ذلك الذى يرتديه الكويتيون ، لا ياقة له ، مطرزا بقليل من الخيوط الحمراء من أعلاه حيث ينطبق عند العنق . كما أنه كان يتمنطق بخنجر فضي ، مربوط على خاصرته بحزام موشى بلون الذهب ، وفي هذا الحزام أيضا حافظة نقود من الفضة . وكان يضع على رأسه عمامة ذات لون أصفر باهت ، كبيرة الحجم جدا ، غير محكمة الربط ، مثبتة في

مكانها بعقال خفيف أسود اللون • وكان مسواك يتدلى من طرف عمامته ،
وقد بدا لي أن هذا المسواك والاسلحة التي ذكرتها كانت كل ما لدى ذلك
الرجل من متاع الدنيا •

هذا وقد استقر الرجلان على ظهر المركب كأنهما كانا يعيشان عليه
طوال حياتهما ، ومنذ ذلك الحين أصبحا كأنهما جزء من الأشياء الثابتة فيه •
وكانا يشتركان في الطعام العام المخصص للضباط على مؤخرة المركب ،
كما أنهما كانا يساعدان في الأعمال الخفيفة ، عندما كانت الحاجة تدعو
الى جهد الجميع ، كما كان يحدث عند تغيير اتجاه المركب • لقد كانا رجلين
غريبين حقا • وقد كان الصبي الذي يرافقهما مثيرا للاهتمام أيضا ، وكان
أكثر صراحة وكلاما منهما • فقد كان اسمه محمدا ، وكان صبيا مرحا يبلغ
من العمر ثماني سنوات تقريبا • وكان دائما يرتدي نفس الجلباب الرث ،
ونفس العمامة المهلهلة ، ولم يكن يملك شيئا من متاع الدنيا ، بل انه لم يكن
يملك سواكا • وقد أخبرني أنه يخدم سعيدا مقابل سفره الى أفريقيا ،
ومقابل الطعام الذي يتناوله - وقد استغرقني الحصول على هذه المعلومات
حوالي أسبوع كامل - أما الطعام ، فقد كان مما على المركب ، يقدم له في
مقابل خدمات متنوعة يقدمها للضباط والبحارة على السواء •

ففي الموانئ كان الصبي خادما لسعيد ، أما على ظهر المركب فقد كان
يعمل كخادم للنوخذة وللبحارة • ولم يكن يعرف اسم أبيه ، أو المكان الذي
ولد فيه سوى أنه مكان ما على ساحل خليج عمان • وقد مضت عليه بضعة
سنوات وهو يتنقل من مركب الى آخر ، فقد بدأ ذلك منذ كان في الثالثة
من العمر ، لأن الأولاد من مناطق صور وعمان والساحل المتصالح يبدأون
بامتهان أعمال البحر ، وهم في سن مبكرة جدا ، بل أبكر مما يمكن تصديقه •
أما قبل الثالثة ، فانه لا يستطيع أن يتذكر سوى أنه كان دائم التسكع على
الشاطئ • وقد يبدو من الصعب تصديق هذا الكلام ، ولكنني تأكدت من
احتمال صحته • وإذا كان الامر كذلك ، فلا بد أن محمدا هذا كان صلب
المود ، فقد كان صبيا نحيلا ذا فم ضخم وعينين كبيرتين ضاحكتين ، ومزاج
مرح جدا • وكان قد وصل الى عدن كواحد من البحارة العاملين على بغلة
صورية ، وهناك قابل سعيدا (الذي كان يبحث عن صبي مثله بالضبط) ،
فترك البغلة بدون استئذان ، وتبعه • وها هو معنا مسافر الى أفريقيا ،
كأنه مسافر في نزهة بحرية لا تستغرق نصف يوم • وقد أخبرني أنه كان
قد زار زنجبار من قبل ، وأنه في هذه المرة ينوي الاستقرار هناك ، لأنه
يعتقد أنها مكان أفضل من الجزيرة العربية •

لم يكن محمد قد دخل المدرسة قط ، ولذلك فهو لا يعرف القراءة أو الكتابة ، وكان على ظهر المركب يهتم بنارجيلة سعيد ، ويقوم على خدمة البحارة فيجلب لهم ما يطلبونه من صناديق أمتعتهم ويحمل الابريق ليصب منه الماء على أيدي البحارة لتنظيف أيديهم وأفواههم قبل الطعام وبعده ، كما أنه كان ينام وقد كور نفسه كالقطة خلف أحد أكياس الأرز تحت مؤخرة المركب ، وكانت تبدو عليه السعادة التامة . أما كيف كان يخدم سعيدا على البر ، فأمر لم أعرفه الا فيما بعد .

لقد كان مركبنا مركبا غريبا وغير عادي . فقد أختفت تلك الشحنات القديمة المثيرة من الطيب واللبن ، التي كانت تنقلها المراكب العربية في الأيام الخوالي ، وحلت محلها شحنات الملح والأرز والسكر والقهوة ، والمنسوجات القطنية ، وبعض التمور القديمة . وكنا سنكمل حملتنا من موانئ حضرموت ، بإضافة الدهن والسمن المجفف ، وربما بعض نوى الفاكهة الصالحة للطبخ ، وذلك لبيعها في كينيا . بالإضافة الى ذلك فقد كان لكل من النوخدة ، وحمد وعبد الله الشقيق الأصغر للنوخدة ، وعريف البحارة ، وقائدي الدفة والطباخ ، وكل من البحارة الآخرين ، بضاعته الخاصة به . فقد كان من الواضح أنه كان مسموحا لكل فرد من أفراد طاقم المركب أن يحمل معه صندوقا واحدا من البضائع ، كما كان على النوخدة أن يسلفهم مبلغا كافيا من المال - ما بين عشر روبيات وعشرين روبية - لشراء تلك البضائع من ميناء عدن . وكانوا يحتفظون بصناديق بضائعهم منظمة في صفيين كاملين على جانبي مؤخرة المركب ، وكانوا يحبون أن يتفرج بعضهم على بضائع البعض الآخر ، ويفعلون ذلك كلما توافر الوقت الخالي من العمل . وكان بعضهم يشتركون معا في شراء زجاجات كبيرة من العطر الفرنسي الرخيص ، ويقضون الأوقات الطويلة هناك على مؤخرة المركب وهم يخلطون بعضها ببعض ثم يصبونها في أحقاق صغيرة الحجم لبيعها على هذا الشكل . والحقيقة أن أشياء عجيبة غريبة كانت تحدث على مؤخرة مركبنا ، التي كانت تبدو أحيانا أشبه بالمخزن منها بجزء من المركب . فقد كانت هناك بضائع متنوعة أخرى كالعمائم المختلفة ذات الألوان الزاهية ، بل أن عددا من البحارة كان قد اشترى بعض البضائع الكمالية كالمصابيح حافظة الحرارة (الترموسات) اليابانية الصنع ، الرخيصة الثمن ، والمصابيح التي تعمل على البطاريات وآلات الحلاقة . وخلاصة القول أن البضائع كانت تحتوي على كل ما يمكن للبحارة أن يبيعوه الى الصوماليين على شواطئ بنادير أو السواحليين في زنجبار . وقد خامرني شك فيما إذا كانوا سيدفعون أية رسوم جمركية على البضائع ، ومع ذلك فقد تمنيت لهم التوفيق . فقد كان معظمهم متزوجين ، وأرباب أسر خلفوها وراءهم في

الكويت ، ولم يكن نصيبهم من أرباح المركب كبيرا ، فلا يمكن لانسان أن يجمع ثروة كبيرة من بيع الملح .

وبالإضافة الى الشحنة التي كانت على ظهر المركب ، وبضائع البحارة والرجلين الغامضين اللذين ركبا معنا ، فقد كان من المتوقع أن ينضم إلينا عدد من الركاب أيضا . وقد تساءلت عن عددهم ، على الرغم من أنني لم أكن أتوقع جوابا دقيقا ، ولكنني كنت أمل أن آخذ فكرة عامة فقط . فأجابني حمد أن عددهم سيكون كبيرا جدا ، وأن ذلك يتوقف على مدى نجاح نجدي في مهمته التي ذهب فيها الى المكلا ، فقد كان نجدي هناك منذ اسبوع ، وربما يكون قد تمكن من جمع مائة أو أكثر . وعندما سألت حمدا باستغراب ودهشة كبيرين ان كان جادا في كلامه عن هذا العدد ، لأنه ليس هناك مكان على ظهر المركب يتسع حتى لجزء من ذلك العدد ، أجاب انه يرجو أن تركب معه قبيلة كاملة . ولكنني عندما نظرت حولي بدهشة ، لم أستطع بكل ما أوتيت من قوة الخيال ، أن أجد مكانا يمكن أن يتسع لقبيلة كاملة ، فلم يكن هناك أي مأوى لشخص اضافي واحد في أي مكان . فمؤخرة المركب كانت موسوقة بالصناديق ، والسطح الرئيسي بالقوارب على الجانبين ، والمخزن بالبضاعة التي نحملها . صحيح أن البحارة قادرون على النوم في مكان ضيق للغاية ، فقد كانوا جميعهم يتكورون ويتكومون حول موقد الطباخ وحول قاعدة الصاري الرئيسي ، في مساحة لا تتسع الا بصعوبة كبيرة لسته من الخراف . أما التفكير في قبيلة كاملة ، فقد كان ضربا من المستحيل . اما حمد ، فانه لم يقدم لي أي تفسير آخر لما قاله ، بل انه كان في الواقع ينظر الى النقاش في الموضوع وكأنه لفو من القول لا طائل تحته ، لأن العرب كانوا يؤمنون دائما بعدم التفكير في المستقبل ، بل بترك مشاكله تحل نفسها بنفسها . وكل ما أضافه حمد الى كلامه هو أن الله دائما رحيم كريم ، وأن كان قد ترك لي مهمة تفسير تلك العبارة . فلم أفهم ما اذا كان يعني ان رحمة الله ستتكفل بتأمين القبيلة التي تمناها حمد ، أو أن تلك القبيلة في حالة توافرها ستحتاج الى رحمة الله لتبقى على قيد الحياة على ظهر ذلك المركب . ولما لم يشر الموضوع مرة ثانية لبضعة أيام تالية ، فقد تولد لدى « انطباع » بأن قصة القبيلة هذه ضرب من المبالغة المعروفة عن العرب . ولكنني كنت مخطئا في ذلك كل الخطأ .

طوال هذا الوقت كان النجار لا يكف عن الطرق ، وهو منهمك في صنع مركبه الجديد وكان هذا النجار شابا نشطا ماهرا في عمله ، وكانت مهمته الأساسية ، على ما يبدو تنحصر في صنع المراكب . فلم يكن يقوم

بأي عمل له علاقة بمركبنا من صيانة أو اصلاح وما الى ذلك (١) ، ولم يكن المركب بحاجة الى شيء من ذلك على كل حال ، فقد كان مركبا جديدا ومتينا نسبيا ، وكان الخشب الذي صنع منه في حالة جيدة • ولا شك أنه كان مركبا قويا ، تشده من الداخل أضلاع كافية — معظمها أغصان شجر معقوفة وهى فى حالتها الطبيعية — ، مرصوفة بعضها بجانب بعض بشكل يمنع تسرب الماء الى الداخل ، حتى لو لم تغط بالالواح اللازمة • وفي هذا طبعاً مبالغة كبيرة ، ولكن ما أريد أن أقوله هو ان العربي عندما يصنع مركبه ، يزوده بأكبر عدد ممكن من الاضلاع ويرصها واحدا بجانب الآخر بشكل متين جدا • الا أن عيبه الأساسي يكمن في طريقة التثبيت ، فهو لا يستعمل لذلك سوى بعض المسامير الطويلة المصنوعة من الحديد المطاوع •

لم يكن النجار يكف عن الطرق والعمل طوال النهار ، من مطلع الشمس الى ما بعد المغيب • وكانت لديه كمية وافرة من أغصان الشجر الطبيعية لاستعمالها كضلوع ، وقد كانت الطاقة التي يتمتع بها طاقة جبارة ، بينما كانت أدواته قليلة وبسيطة للغاية • وقد كان هذا النجار يبني المركب دون الاعتماد على أي تصميم سوى ما في داخل رأسه • فاذا أردت أن يصنع لك مركبا ، فما عليك الا أن تخبره بنوع ذلك المركب ومقدار حمولته من جلال التمر ، فهو لا يعرف أية قياسات أو معايير أخرى • وعندما تخبره بأنك تريد أن يكون المركب من نوع السمبوك أو البلم أو الجلبوت أو الشوعي ومقدار حمولته ، فانه يبدأ العمل في الحال ودون أي تأخير • فقد كانت الأنواع كلها متشابهة الى حد كبير بينما كانت فروق بسيطة في هيكل المركب هي التي تميز نوعا عن الآخر ، ولم يكن الاختلاف يزيد عما نلاحظه في تلك القوارب التي نصنعها في أحواض بناء السفن عندنا • فقد كانت جميع تلك المراكب تتمتع بنفس الصفات الملاحية تقريبا • أما الجلبوت فقد كانت مقدمته مستقيمة ، بينما البلم له مؤخرة مزدوجة • اما مراكب السمبوك والشوعي فهي مراكب صغيرة رشيقة متشابهة جدا ، سوى أن عمود المقدمة في السمبوك يختلف عن مثيله في الشوعي • لقد كان النجار قادرا على صنع أي من تلك المراكب ، كما كان بإمكانه أن يبني لك بوما اذا شئت • ولكن اليوم في العادة لا يبني بحمولة أقل من أربعمئة أو خمسمئة جلة من التمر ، بينما كان المركب الذي يقوم بصنعه — وهو من نوع الجلبوت ذي المقدمة المستقيمة — لا يستطيع ان يحمل أكثر من مائة وخمسين جلة •

(١) كانت المهمة الأساسية للنجار هي اصلاح أى خراب يطرا على المركب فى الحالات الطارئة (المترجم)

أما الادوات التي كان يستعملها أكثر من غيرها ، فقد كانت تتكون من القدوم والمثقب الهندي ، ولم يكن لديه ملزمة سوى قدميه الحافيتين ، ولعله كان يضطر الى ترك مهنة صنع السفن لو أجبر على ارتداء الحذاء . كما كان لديه أيضا بعض المناشير الصغيرة ، ونوع بسيط من مسحاج المسح (فارة النجار) . وكان قد أتم بناء أحد القوارب التي على ظهر المركب في وقت سابق من الرحلة ، وهو في طريقه من البصرة الى المكلا ، مرورا بمسقط ، وكان معروضا للبيع ، بل اني فهمت أن جميع القوارب التي كانت على ظهر المركب كانت للبيع أيضا . فلم يكن العرب يتورعون عن بيع أي شيء إذا توفرت الفرصة المناسبة . فقد قال حمد مثلا انه يسره أن يتخلص من « فتح الخير » نفسه في زنجبار أو أي مكان آخر يمكن أن يباع فيه بربح مجز ، لأن بإمكانهم عندئذ أن يعودوا الى الكويت على ظهر مراكب كويتية أخرى دون أن يتكلفوا في ذلك مالا كثيرا . ويبدو أن أي مركب كويتي كان على استعداد لأن يحمل على ظهره أي بحار ، أو حتى أية أطقم كاملة من مراكب أخرى يجري بيعها أو تتحطم في البحر . وقد كان من الواضح لدي ، حتى في أوائل هذه الرحلة ، أن الكويتيين كانوا يوفرون على أنفسهم عنام مشاكل كثيرة ، يشكو منها الاوروبيون من ملاكين للسفن ، وقباطنة لها ، ولكن كانت لديهم ، في مقابل ذلك ، مشاكلهم الخاصة .

كان لدينا في تلك المرحلة من الرحلة اربعة قوارب ، وسنكون محظوظين بحسب قول حمد ، لو عدنا بواحد منها .

في كثير من الايام عندما كانت الريح تهب بلطف ، كنا نجد أنفسنا بحذاء بعض المراكب الاخرى ، المتجهة الى افريقيا ، والتي كانت قد أبحرت من المكلا في نفس اليوم الذي أبحرنا فيه . والعرب يحبون أن يبحروا كل مركبين أو ثلاثة معا ، ما أمكنهم ذلك ، وخاصة على طول سواحلهم . وكانوا يفعلون ذلك حبا في الرفقة من ناحية ، ورغبة في السلامة من ناحية أخرى . وفي معظم الوقت كنا نبحر برفقة بوم القطامي الصغير وبفلة فارسية أخرى . وعندما يكون البحر هادئا ، كان باستطاعتنا أن نسمع بوضوح أصوات طرقات نجاريهم ، الذين كانوا أيضا منهمكين ببناء المراكب لبيعها في افريقيا . وقد فهمت أن عملية بناء المراكب الصغيرة على المراكب الكبيرة عملية قديمة جدا . وقد كان الكويتيون مشهورين بأنهم صانعو مراكب مهرة ، وكان بإمكانهم أن يأخذوا المراكب الجديدة الى أماكن بعيدة مثل « لامو » ، ويبيعوها هناك بسعر يقل عن سعر مثيلاتها من المراكب التي

يصنعها العرب المقيمون هناك أو السواحليون أو « الباجون » • أما المبلغ الذي كنا سنطلبه ثمننا للمركب الجديد فهو ألف شلن ، كما يمكن أن يباع القارب بثلاثمائة •

كان النجار الشخص الوحيد على ظهر المركب الذي لا يفتأ يعمل طيلة النهار ، ولكن الطباخ كان يقوم بعمل شاق أيضا • أما حمد ، نائب النوخدة ، فقد كان يقضى معظم وقته متكئا على السدة الخلفية ، وإن كان نادرا ما يستلقي عليها • فقد كان يقضي معظم النهار جالسا هناك ، محني الظهر ، يرقب أو يقرأ القرآن • أما في المساء فقد كان يلتف بعباءته ويجلس القرفصاء ، تاركا أنفه الكبير معرضا للهواء ليعرف اتجاه الريح • ولا شك أنه كان بحارا ممتازا خبيرا بسلوك الريح • فقد كنت اعتقد أنني قد تعلمت الكثير عن قيادة المراكب في الاحوال المختلفة ، من هدوء الريح الى اشتدادها ، بعد كل تلك الرحلات على السفن التي كانت تنقل العجوب ، وبعد قيادتي للسفينة « جوزف كونراد » في بحر السولو (١) ، إلا أن خبرة حمد كانت تبدأ من حيث انتهيت • ففي الظروف التي لم أكن أستطيع أن أتنبأ فيها بهبوب أية نسمة من الهواء ، أو بالاتجاه الذي ستأتي منه الهبة التالية ، كان بإمكان حمد أن يسير المركب بشكل حسن • فقد كان استاذا بالفعل في هذه النوع من الملاحة ، ولم تكن تأخذه رحمة في نفسه أو في بحارته ، وكان يفيد من كل هبة من الريح ، ومن كل تغيير مهما كان طفيفا ، في اتجاهها ، ويتجاوب مع ذلك تجاوبا كاملا • لقد أثبت حمد أنه بحار رائع ، ومع أنني لم أكن في البداية أقدر بعض حركاته حق قدرها (بل أنني لم أكن أفهم بعضها أبدا) إلا أنني تعلمت فيما بعد أن أحترم الرجل ، وأن أشهد أنه من خيرة البحارة الذين عرفتهم •

وهكذا مضينا في سيرنا بهدوء ، أحيانا مع نسيمات الهواء اللطيف ، وأحيانا أخرى بدونها ، ممتعين أنظارنا بالمناظر الخلابة للشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية • وكان دائما على مرأى منا « بوم » القطامي والبغلة الفارسية وهما المركبان اللذان كنا نسافر برافقتهم • وكانت الحياة على ظهرهما تسير رتيبة ، على غرار الحياة على ظهر مركبنا ، وكان يتسنى لنا ، مرة في اليوم على الأقل ، أن نقترّب من بعضنا اقترابا كبيرا ، بحيث لا تفصل بيننا أكثر من بضعة ياردات ، ولمدة نستطيع أن نتجاذب خلالها أطراف الحديث • وكان

(١) (Sulu Sea) غرب جزر الفلبين (المترجم) •

الربابنة والضباط وبقية البحارة في أثناء ذلك يتحادثون بهدوء ، وكثيرا ما كان بعضهم يستعير أدوات البعض الآخر . وكنا نسمع مؤذنيهم وهم يؤذنون للصلاة يوما بعد يوم ، وكان هناك سباقا بين المؤذنين الثلاثة . فقد كان مؤذننا بحارا يدعى « سلطان » ، كان أبوه فيما مضى عبدا في الكويت . وكان هذا مايكاد يتبين أول خيوط الفجر وهي تنير الأفق الشرقي ، حتى يصعد الى مكان مرتفع في المركب ، ويبدأ الأذان بصوت عال ، واضعا يده اليمنى على أذنه اليمنى ، وسبابته على خده الأيسر ، وكان يفعل ذلك دائما وإن كنت لم أكتشف أبدا سببا لذلك أو تأثير ذلك على الأذان . ولأذان الفجر هذا ، كان دائما يضيف كلاما يعني أن الصلاة خير من النوم ، وإن كنت أشك في أن البحارة كانوا يوافقونه ، على ذلك ، فهم قلما كانوا ينالون قسطا وافرا من النوم، إذ لم يكن هناك مكان مناسب لنومهم، أو أسرة، أو فرش أيا كان نوعها ، ولذلك فقد كانوا يتكورون ويتكومون على ظهر المركب ، وكان يبدو لي أن باستطاعتهم أن يناموا أنى يشاؤون . وكانوا يفعلون ذلك كلما وجدوا أن ليس لديهم من عمل أو واجب يؤدونه ، إلا أنهم كانوا ينضمون لنظام عمل رتيب لم يكن يترك لهم وقتا كافيا للراحة . وكانوا ينامون بكامل ملابسهم ، وعمائمهم على مقربة منهم بحيث يهبون واقفين متأهبين للعمل ، وكانهم في ميدان سباق وقد أذنت إشارة البدء بالجري .

كانوا يبدأون يومهم بالوضوء والصلاة ، ولم تكن صلاة الفجر جماعة، بل كان كل منهم يصلى كما يحلو له ، بعد أن يكون قد غسل يديه ووجهه وقدميه بماء البحر . وفي صلاتهم كانوا دائما يولون وجوههم شطر مكة ، ويفرشون الوزرة أو الكوفية على الأرض أمامهم — فلم يكن فقرهم يساعد على امتلاك حصيرة أو سجادة خاصة للصلاة — ويقفون دقيقة صامتة خاشعين متناسين كل هموم الدنيا ومشاكلها ، ثم يبدأون القيام بسائر حركات الصلاة وشعائرها بشكل بسيط ومتناسق وكان أمرا ممتعا لى أن أراقب التغيرات التي كانت تطرأ على وجوههم . فقد كانت الملامح القاسية تخشع وتلين ، ويخبو البريق الذى يشع فى العادة من العيون المتفطرسة ، ويتلاشى كل ما يمكن أن يكون هناك من الصلف والعجرفة والغرور . فلم يكن هناك أى رياء أو نفاق فى تلك الوجوه القوية المتجهة الى مكة ، وكان من الواضح أن دينهم كان بالنسبة لهم أمرا جوهريا وحقيقة حية ، فلم تكن صلاتهم مجرد أدعية تتلى وتراويل ترده ، بل كانت وسيلة للاتصال الحقيقى بالله يؤمنون بوجوده ايمانا قويا . فلم يكن أحد منهم يصلى على عجل ، بل كانوا دائما يقضون بضع لحظات فى بداية الصلاة فى خشوع وتأمل وصمت يخلصون خلالها من التفكير بأمور الدنيا ، وكنت أرقبهم وأنا أغبطهم على ذلك ، لأنى لم أكن أستطيع أن أتخلص من التفكير فى الامور الدنيوية بتلك

السهولة • وكان بعضهم يؤدون صلاتهم على سطح خزانات الماء ، والبعض الآخر على ظهر الابواب الموصلة الى جوف المركب ، بينما كان البعض الآخر يفعل ذلك فى القوارب وهى محمولة على مساندها •

كان جاسم الطاهى ، الجدى المزاج ، دائما يصلى على رأس السلوقية فى مقدمة المركب فيقف هناك صورة لانسان نحيل مضطرب فى ثياب خشنة رثة ، ويؤدى صلاته على عجل خوفا من احتراق الخبز على النار ، لانه يقع فى ورطة لو حصل ذلك ، وكثيرا ما كان جاسم يواجه المشاكل • اما حمد بن سالم فقد كان دائما يؤم فى صلاته كلا من مديرى الدفة وعبد الله شقيق النوخدة ، وذلك على مؤخرة المركب ، وكان المسافران سميد وعبدالله فى العادة يشاركان فى تلك الصلاة • وقد كان حمد اتقى رجل على ظهر المركب ، وأقوى ايمانا من سائر بحارته وركابه ، وكانت تلك الصفـة المميزة شيئا هاما ، كما فهمت • فمن الافضل أن يكون على ظهر المركب انسان معروف بتقواه وورعه الحقيقيين، وأفضل من ذلك أن يكون هذا الانسان هو قائد ذلك المركب • ولا أعنى بهذا أن حمدا كان القائد الفعلى للمركب، فقد كان أهـدا وألطف من أن يكون كذلك ، بل كان لا يمدو أن يكون بديلا مؤقتا فقط « لتجدي » الحازم العنيف •

بعد انقضاء الصلاة ، كنا نتناول طعام الافطار ، وكانت هذه الوجبة لا تتغير أبدا ، ولا تزيد عن كسرة من الخبز الفطير ، يضيفون اليه شيئا من السمسم فى المناسبات الكبرى والاعياد ، فيصبح طعمه مستساغا وهو خارج لتوه من الفرن ، ورطباً غير مستساغ اذا كان من خبز اليوم السابق • وكانوا يسمونه « خبزا » وكنا نتمكن من ازدراده بمساعدة الشاي الشديد الحلاوة الذي كنا نشربه فى أكواب صغيرة جدا (استكانات) • وقد كان هذا هو كل ما نتناوله فى الصباح ، وكان الجميع بلا استثناء يتناولون نفس الوجبة التى لم تكن لها طقوس خاصة ولم يكن يمد لها السماط • وكان بحار صغير الجسم يدعى « قدرفى » (١) هو الذى يحضر الشاي فى ابريق من الصفيح ، ويصبه بدون أية مراسم فى الأكواب الصغيرة التى كانت تحفظ فى صندوق بسيط تحت مقعد قائد الدفة ، كما كان يوسف الشيرازي هو الذى يوزع كسرات الخبز • وكان كل شيء ينتهى فى دقيقة أو اثنتين ، كما

(١) ليست هذه اللفظة من الاسماء المعروفة فى بلدان الخليج العربى ، ولم نستطع الاهتداء الى لفظة مقاربة لها مستعملة فعلا • ويبدو أن المؤلف قد اخطا فى نطقها خطأ بالغا بحيث ابتعد بها عن الاصل (المترجم) •

كان البحارة الصغار يصبون الشاي للبحارة الكبار ، وقد كان على المركب بحاران لا يزيد عمر أحدهما على ثمانية عشر عاما ، وكان متوسط أعمار البحارة يبلغ ، بحسب تقديري ، حوالى ثلاثة وعشرين عاما ، ولكن كان من الصعب اجراء التقدير السليم ، لأن كثيرا من البحارة ، كانوا يبدوون أكبر من اعمارهم الحقيقية . وعندما ينتهي طعام الافطار كانوا يؤدون أية أعمال يرونها ضرورية ، وكان هناك عمل للجميع مدة اربع ساعات أو خمس في الصباح الباكر . فكان اول ما يفعلونه هو أن يجففوا قاع المركب اذا كان ذلك ضروريا . ولما كان المركب جديدا نسبيا ، ولا يسمح لكثير من الماء بالتسرب الى الداخل ، فقد كانوا يقومون بهذا العمل كل ثلاثة أيام . اما الماء الذي كانوا ينزحونه من القاع ، فقد كانت رائحته كريهة جدا ، تفوح منه رائحة التمر الفاسد وزيت السمك ، وروائح أشياء أخرى لا أعرفها ، تشمئز منها النفوس وتعافها الى أبعد الحدود . وكان الرجال يقفون في صفين ممتدين من القاع حتى جانب المركب ، صف يرفع الدلاء الملأنة ، وصف يسترجعها بعد تفريغ مائها في البحر .

وبعد أن ينتهي البحارة من نزح الماء ، ينصرفون الى الأعمال الأخرى التي لم يكن من بينها أية أعمال لها علاقة بتنظيف المركب . ففي بعض الاحيان ، كان واحد أو اثنان من صغار البحارة يساعدان جاسما في نشر الحطب ، أو هرس القمح ليصنع منه الخبز في اليوم التالي ، بينما يقوم آخرون بصنع الحبال من مواد هندية خاصة بذلك ، أو يعملون في رتق الأشرعة . وكانت عملية صنع الحبال أكثر اعمالهم انتظاما ، فكانوا يجلسون في ظل الشراع ، في مجموعات كبيرة ، يجدلون الحبال ، ويتحدثون بهدوء ، وكانوا يتمتعون بعملهم هذا ، وينسجم بعضهم مع البعض الآخر انسجاما كبيرا ، بحيث تعذر علي ، لمدة شهور طويلة ، أن اكتشف من منهم كان العريف ، بل اني كنت اعتقد في بادئ الامر أنه لم يكن بينهم من هو مسؤول عنهم ، فلم يكن يسمع أي صياح ، أو أوامر تعطى بصوت جهوري ، أو مناكفة أو ملاحقة شديدة للعمل . فقد كان أولئك البحارة العرب قد تعلموا ، منذ أمد طويل . كيف يعملون معا للصالح العام ، بكل هدوء وسكينة ، ولذلك فقد كانت جميع الأعمال تتم بهدوء وانسجام ويسر ، حتى انى امضيت ثلاثة أشهر على ظهر المركب قبل أن أعرف المسؤول أو عريف البحارة . ثم اكتشفت انه كان هناك عريفان ، عريف لكل نوبة حراسة . ولم أكن في السابق أعلم بوجود نوبات حراسة أصلا ، لأنه لا يوجد ما نسميه « باطن السفينة » ، يستريح فيه بعض البحارة من نوبة الحراسة ، فكيف يمكنني أن أعرف ان كانت هناك نوبات حراسة ، خاصة وان جميع البحارة كانوا يتعاونون على القيام بأي عمل ؟ كما لم يكن هناك ضبط للوقت ،

ونظام محدد للعمل ، فلم يكن أحد على ظهر المركب يعرف اليوم الذي نكون فيه • وكثير منهم لم يكن يعرف السنة التي نحن فيها ، ولكنهم جميعا يعرفون ان شهر رمضان قد ولى ، وقد شكرت الله على ذلك شكرا جزيلا ، فقد كان قضاء شهر رمضان بين مسلمين أتقياء محنة كبرى بالنسبة لي •

لقد كان الجميع يعملون منذ الانتهاء من وجبة الافطار حتى موعد الغداء ، ولم يكونوا يتوقفون عن العمل الا اذا كان ذلك ضروريا لوضع الشراع في الوضع المناسب • وكنا في العادة نبحر ونحن ننشر الشراع الرئيسي المثلث الشكل ، ولكن حمداً كان أحيانا ينشر الشراع المزيني (١) أيضا اذا كانت الريح تهب باعتدال • وكان هذا الشراع أصغر بكثير من الشراع الرئيسي ، وكانت له من المساوىء ما جعلني لا أرى له أية فائدة على الإطلاق • وفي أحد الاوقات ، عندما كانت الريح خفيفة بالفعل ، أخبرني حامد أن بإمكاننا أن ننشر شراعين آخرين ، وذلك بأن ننصب عمود تطويل خفيفا على مقدمة المركب ، وننشر عليه شراعا ، وبأن ننصب صاري القارب الطويل امام حجلة القيادة وننشر عليه شراعه الرئيسي أيضا • وقد رأينا البغلة الفارسية تفعل ذلك في أحد الأيام بالفعل ، وكانت تسير سيرا حسنا • وقد لاحظت فيما بعد أن بإمكان العرب والفرس أن ينشروا شراعا خامسا ، بأن يرفعوا نوعا من الشراع الخفيف على قمة صاري الشراع الرئيسي ، ولكننا لم نفعل ذلك على مركبنا قط •

كنا أحيانا نتناول وجبة الغداء ما بين الساعة العاشرة والنصف والحادية عشرة صباحا • ولم يكن الوقت محددا بالضبط ، فقد كان كل شيء يتوقف على مزاج النوخة ، وعلى الرغم من وجود ساعة على ظهر المركب ، الا أنها كانت ساعة سويسرية عتيقة جدا ، من أرخص الاصناف ، كبيرة الحجم وماطلة من العمل • وكانت تحفظ في الدرج الكائن في مقعد قائد الدفة • ومن آن لآخر ، كان قائد الدفة ، كائنا من كان ، يخرج تلك الساعة من مخبئها ، فيجدها عادة متوقفة ، فيهزها بعنف واشمئزاز ، وينظر فيها نظرة طويلة ثم يعلن الوقت • وكانت تلك الساعة ، اذا هزت هذا عنيقا ،

(١) يبدو ان المؤلف قد اطلق هذا الاسم خطأ على شراع الصاري الثاني الذي يسمى « الغلمي » باللهجة الكويتية بينما الشراع المزينى هو شراع القارب الطويل الذى يعمل على اتركب • وكان هذا الشراع ينصب أحيانا على صاري المركب ويضاف الى الأشرعة الأخرى المنشورة على المركب • (المترجم - عن أحمد البشر الرومى)

تعمل لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، وكان صوت دورانها يشبه صوت آلة جهنمية . وكانت وجبة الغداء تتألف دائما من الارز المسلوق ، الممزوج ببعض البهارات ، والدهون بالسمن ، مع شيء من السمك الطازج او المجفف ، المطبوخ في البهار الهندي الغريب الطعم (الكاري) ، وتمد على الحصير على مؤخرة السفينة ، وتؤكل بموجب قواعد متعارف عليها . فقد كنا نجلس حول الحصير ونأكل بأيدينا ، ولكن بطريقة واسلوب معروفين . فلم يكن من اللائق أن نستعمل سوى أصابع اليد اليمنى ، وهذه يجب ألا تلمس الشفتين . فكان على الواحد منا أولا أن يتناول لقمة من السمك ، أو ما يوجد بديلا عنه ، ثم يجمع ما يستطيع من الأرز باستعمال أطراف الأصابع بكل عناية - ، أو على الاقل هذا ما كان العرب يفعلونه ، فقد كنت أنا دائما شديد الحرص عند أكل الأرز - ، ثم يجعل من ذلك كله كرة منتظمة باستعمال الأصابع والابهام فقط ، ثم يقذف بها بدفعة سريعة من الابهام الى داخل الفم . وقد كان بإمكان العرب أن يأكلوا بهذه الطريقة دون أن يسقطوا حبة واحدة من الأرز ، ودون أن يتركوا على أصابعهم أثرا لذلك ، ودون أن يلمسوا شفاههم بأصابعهم . وقد استغرق اتقاني لطريقة الأكل هذه فترة طويلة من الزمن ، وان كنت لم أصبح خبيرا جيدا بها على أية حال ، ولكنني كنت أبذل جهدي ، فقد كانت آداب المائدة عندهم لائقة جدا ، ولم أشأ أن أظهر بمظهر الانسان الساذج أو الفظ . وعندما كنت لا أتقن طريقة الأكل ، لم يكونوا يسخرون مني ، وكان كل منا يأكل بعناية من الجزء الذي يواجهه على الطبق . وقد كانت بالفعل طريقة حسنة للأكل ، اذا ما تعود الانسان عليها ، كما أن الامتناع عن الكلام في اثناء تناول الطعام له فضائله ، فلم تكن الثثرة على الطعام تعتبر لائقة ، بل كان عليك أن تأكل حتى تشبع ، ثم تنسحب بهدوء . فلم يكن أحدينبس ببنت شفة اثناء تناول الطعام .

وكانت تنصب ثلاث موائد للأكل ، ولكنها كلها كانت تتكون من نفس الطعام ونفس الكمية . فكانت هناك مائدتان على السطح الرئيسي يشترك فيهما البحارة والعريفان . أما حمد وشقيق النوخدة (الذي كان يعمل أحيانا كمدير للدفة ، ولكنه في غالب الأحيان لم يكن يقوم بأي عمل) وقائد الدفة ، و خليل النجار ، وكذلك المسافرين الغريبان ، فقد كانوا جميعا يأكلون على المؤخرة . وكان الصبي محمد يحمل الماء الذي يغسل به أيدينا وأفواهنا ، وكان الأكل يتم في سكون تام على جميع الموائد ، بما يتناسب مع مثل هذه المناسبة الهامة . ولم تكن نضيع كثيرا من الوقت في الأكل ، فقد كانت العملية كلها ، منذ مد السماط الى طيه ، لا تستغرق اكثر من خمس دقائق ، كما لما تكن هناك أطباق تحتاج الى غسل . وكان سماطنا

يمد خلف شراع الفلمي على مؤخرة المركب في المساحة الفارغة بين صفوف الصناديق . أما أسمطة البحارة فكانت تمتد حيث يريدون ، وإذا لم يشبع أحد منهم ، يمكنه الذهاب الى المائدة الأخرى ليكمل وجبته ، فقد كان الطعام وفيرا . وقد بدا لي أن التغذية الوحيدة في تلك الأكوام من الأرض كانت تكمن في السمن الذي كان يصب عليها ، وكان هذا يتألف من زبدة الماعز المصفاة المجلوقة من حضرموت . ومع أنه كان ذا رائحة زنخة ، إلا أنه كان يعوض عن قلة الفيتامينات في الطعام ، ويبقي من مرض الأسقربوط ، فقد كان السمك قليلا جدا .

وعندما كنا نفرغ من الطعام ، كان جميع البحارة يستريحون بعض الوقت ، فيعمد أولئك المدمنون على النارجيلة الى تدخينها ، ولم تكن النارجيلة سوى اناء من فخار البصرة به ثقب لادخال قصبية التدخين الجوفاء فيه . أما الطبايق فقد كان يفرش فوق جمرات مأخوذة من موقد جاسم ، وموضوعة على علة صغيرة من الصفيح ، وكان البحارة يستمتعون استمتاعا كبيرا بتلك النارجيل مع أن الطبايق كان من نوع رديء جدا . كما كان طعم القصبية المحترقة كفيلا بأن ينفرنى منها ، ان لم يمرضني بالفعل . وقد كان معظم البحارة يدخنون تلك النارجيل ، إلا ان قلائل جدا هم الذين كانوا يملكونها ، ولذلك فقد كانت دائما تمرر من واحد الى آخر ما دام الجمر مشتعلا ، وكانت قصبية التدخين تنتقل من فم الى آخر لتفي بحاجة أكبر عدد ممكن . وعلى الرغم من أن هذه العملية لم تكن صحية ، إلا أنهم لم يكونوا يبالون بذلك .

حتى اذا ما فرغوا من تدخين النارجيل ، ولم تكن هناك أية نسمة من لريح ، خلد الجميع الى النوم في ظل الشراع على سطح المركب . وكان حمد قلما ينام وحتى اذا نام بقيت إحدى عينيه مفتوحة ، وهو مكور على المقعد القائم خلف قائد الدفة ، وبجانبه دواة تدل على اتجاه الريح ، تتألف من طائر منحوت من الخشب ، في ذنبه ريش يهتز عند هبوب أضعف نسمة من الهواء ، فيتحرك الطير . وحالما تصدر أية حركة من ذلك الريش كان حمد يصحو . لقد كان من الواضح أن بإمكان العرب أن يناموا نوما عميقا مع بقائهم متيقظين في نفس الوقت ، وكنت أحسدهم على ذلك . لم يكن البحارة ينامون أكثر من ساعة بعد وجبة الغداء ، وعندما كانوا يستيقظون يكون وقت صلاة الظهر قد حان . فتبدأ الفروض المعروفة ، من وضوء كامل بالماء المسحوب من البحر ، وصلاة باتجاه مكة ، وترتيل رائع للقرآن الكريم لم أمل من سماعه رغم تكراره مئات المرات . وعند الانتهاء

من الصلاة التي لم تكن تستغرق وقتا طويلا ، كان البحارة عادة يعودون للعمل ثانية ، ولكنهم لم يكونوا يعملون في فترة العصر بنفس الجدية والعناء كما كانوا يفعلون في فترة الصباح . أما اذا لم يكن هناك عمل عاجل يتوجب عليهم القيام به ، فانهم لا يكونون متحمسين للقيام بأي عمل . ففي بعض الاحيان ، عندما كانت الحرارة تشتد ، أو عندما كان عليهم أن يغيروا اتجاه السفن مرة تلو المرة ، لم يكونوا يؤدون أي عمل حتى الساعة الرابعة تقريبا ، وعندها يعملون مدة ساعة أو قرابة ذلك . أما اذا كان الشراع الرئيسي قد تمزق ، وعليهم انزاله واصلاحه ونشره ثانية ، فقد كانوا يعملون بجد طوال النهار . وكان النجار هو الوحيد الذي لا يتوقف عن العمل طيلة النهار سواء أكان المركب راسيا في الميناء ، أم مبحرا في وسط البحر . ولم يكن أحد يتقيد بيوم الجمعة كعطلة أسبوعية ونحن في البحر ، فلم تكن هناك بالفعل أية عطلة اسبوعية ما دمنا على ظهر المركب .

وعند العصر كان « سلطان » المؤذن يؤذن لصلاة العصر كالعادة ، وكانت هذه الصلاة دائما فردية لا جماعية . وعند مغيب الشمس ، حالما يختفي آخر شعاع من اشعتها في مياه البحر ، كان يؤذن للصلاة ثانية . وكانت هذه الصلاة ، مع صلاة الفجر ، أهم السلوات جميعا . فقد كانت الصلاة الرابعة تستغرق حوالي عشر دقائق ، وأحيانا أكثر من ذلك ، عندما كان حمد يؤدي بعض الركعات (الاضافية) السنة) . وعند الانتهاء من هذه الصلاة ، كنا نتناول وجبة العشاء التي كانت تتكون من الأرز والسمن في الغالب ، وفي أحيان قليلة من الأرز و « الدال » ، وهو نوع من الحبوب الهندية الصغيرة التي كانت تطبخ مع البهارات أو الفلفل الحار ، وكان البحارة مولعين بهذا الفلفل المطبوخ ، يأكلونه ، اذا توافر ، مع أي شيء . وكانت وجبة العشاء هذه تنتهي بسرعة كبيرة ، وقبل أن يختفي آخر شعاع من أشعة الشفق ، وكان هذا ايدانا بانتهاء النهار . فكان كل من البحارة عندئذ يأتي الى المؤخرة ، حيث يجلس حمد ، ويحييه ومن حوله ، متمنيا لهم ليلة سعيدة . وكان حمد يجيب كلا منهم باسمه ، وعندها ينصرفون عائدين الى السطح الرئيسي . وبعد ذلك يجتمع افراد نوبتي الحراسة الليليتين ، ويلتفون حول قاعدة صاري شراع الغلمي ، على مؤخرة المركب ، يأخذون بالحديث الهادئ ، بينما تنتقل النارجيلة من فم الى آخر .

وهكذا كان الليل يدركنا ، ونحن ننساب في نور القمر يخيم علينا السكون والصمت ، في مركب كأنه ملاك السلام الصامت ، تنعكس صورته ، برغم العتمة ، على صفحة الماء الفضية ، بينما البحارة المتلفعون بجلابيبهم

وعمائهم ينفثون دخان النرجيلة على مؤخرة المركب ، وقائد الدفة الملتف بكوفيته ، وقدماه الحافيتان مطويتان تحت جلبابه ، يجلس أمام الدفة وكأنه ابو الهول ، ويحاول أن يقود المركب في الطريق الصحيح ، بينما يجلس حمد خلفه يرقب كل شيء بصمت . ولم تكن نوقد أية مصابيح ، ما عدا ذلك المصباح الخافت النور الذي ينير البوصلة ، وعلى الرغم من وجود عدد من المصابيح في المركب ، فقد كانت كلها مهملة ، لم يستعمل أي منها خلال الأشهر الستة التي قضيتها على ظهر المركب . ولم أكن أفهم لذلك سببا ، خاصة أن بعض ناقلات النفط المحملة والآتية من البحرين وعبدان كانت تمر قريبة جدا منا . وفي مثل هذه الحالات كان حمد دائما ينتظر من تلك السفن أن تغير اتجاهها ، ولم يفكر مرة واحدة ، على ما يبدو ، أن ينير مصابيحها . وكان يتذرع بالقول بأن الناقلات كانت لديها اساليب وقاية جيدة ، وان الله رؤوف بالعباد . وفي العادة ، كانت الرؤية جيدة دائما ، ويبدو أن حمدا كان يعتقد بأن الله سيحفظ المراكب العربية ، اما السفن البخارية فعليها أن تحافظ على نفسها ، وهذا ما كان يحصل بالفعل على أية حال .

مرت الأيام على ظهر مركبنا الكبير في أثناء الرحلة من عدن الى المكلا بكل يسر وأمان وجمال ، وقد وجدت أن من السهل أن أعود على عدم الشعور بالوقت ، ونسيان كل ما يمت بصلة الى العالم المعاصر . وقد كان القرآن هو الكتاب الوحيد الموجود على ظهر المركب ، والذي كثيرا ما كان حمد ، وعبد الله آخر النوخذة ، والمسافران يقرأون فيه . وعندما كان حمد يصل في قراءته الى جزء جميل ، كان أحيانا يدعو جماعة صغيرة من البحارة ليجلسوا حوله ، ويستمعوا اليه يتلو عليهم بعض الآيات بصوته الجهوري ، ويرتلها ترتيلا جميلا . وكثيرا ما كانوا يتدارسون معنى ما يسمعون ، ويستغرقهم ذلك الساعات الطوال . وقد كان من الواضح انهم قانعون راضون تماما بهذا الكتاب ، ولا يملون من قراءته أبدا . وفي بعض الأحيان كان بعضهم يرتل القرآن الذي يحفظونه عن ظهر قلب . وفيما عدا ذلك ، فقد كانت الجماعة من النوع الصامت ، وكانوا دائما هادئين ، حتى اذا توفر عمل يقومون به ، فانهم يؤدونه وهم يهزجون بدون انقطاع . ففي بعض الأحيان كانت تمر ساعات طوال لا يسمع فيها صوت على ظهر المركب . لقد كان هذا نوعا جديدا من الملاحاة بالنسبة لي . وقد ادهشتني بساطة النظام المتبع على المركب ، وهو نظام لا يحتاج الى مجهود ثبير ، كما أعجبني جدا ذلك التناغم والوفاق والسعادة الدائمة التي كانوا يعملون في ظلها . وربما كان ذلك راجعا الى أنهم كانوا فقراء لا يملئون سوى القليل من الملابس ، وبعض البضائع التي كانوا يتاجرون بها ، ولا شيء غير

ذلك ، أي أنهم في واقع الأمر لم يكونوا يملكون شيئاً . وقد بدأت بعد فترة من الزمن أتساءل عما اذا لم تكن فكرة جيدة الا يملك المرء شيئاً من حطام الدنيا على الاطلاق .

الا أن هذه الحياة السعيدة المثيرة توقفت فجأة في أحد الايام ، بعد أن كان قد مضى اسبوع على وجودنا في البحر ، وبعد أن كان قد استقر بي المقام . فقد وقع حادث لم أعلم له تفصيلاً في وقته ، ولا أعلم ذلك الآن . ولكنه ، على كل حال ، حدث لي . وأعتقد أن شيئاً ما قد سقط من عل وصدمني . أما كيف ولماذا ومن أين انفلت ذلك الشيء ، فليس لدى أدنى فكرة عن ذلك ، كما أن سؤالي عن ذلك فيما بعد ، لم يوضح الأمر . فلم يكن السؤال على ظهر المركب مستحباً ، ولم تكن الاجابة تكشف عن أية اسرار . فقد سألت مرة واجابني حمد بأن الله كان بي رؤوفاً . وقد قدرت أن معنى تلك الاجابة اما أن الحادث كان من الممكن أن يكون أسوأ ، أو أنه لا يريد ان يبدو ناكراً لجميل الله العلي القدير لتوجيهه ضربة للكافر واعطاء عبرة للمؤمنين على ظهر المركب . ولكنني متأكد أن التفسير الاول هو التفسير الصحيح فلم يكن حمد ضيق الافق أو شديد التزمت . ومهما يكن من أمر ، فقد وقع الحادث ، ولا أذكر شيئاً عنه ، سوى أنه أفقدني البصر لمدة اسبوع كامل ، وأصابني بالمرج لبضعة شهور . فما شعرت الا وقد دب صداع مخيف في رأسي ، وأني قد فقدت البصر . ولم أجد أرى شيئاً أو أميز الليل من النهار . وليست لدى فكرة عن نوع الحوادث التي يمكن أن تسبب هذه الأمراض ، فقد كانت هذه أول تجربة لي من نوعها ، وكانت مزعجة للغاية . لقد وجدت نفسي مستلقياً في مكان ما داخل المركب على نوع من الخيش وتحت رأسي حقيبة هي بمثابة الوسادة . وأذكر أنني لم أصدق في البداية أنني قد أصبت بالعمى ، بل حسبت أن الظلمة المحيطة بي كانت ظلمة جوف السفينة ، وكانت رأسي تؤلني وعيناي تنبضان بالألم ، وكنت أستطيع أن أسمع الجرذان السمينه تتراكم من حولي ، والمراصير تزحف بسرعة وتتطاير ، كما أن أصوات صرير المركب كانت تبدو لي في ذلك المكان غريبة وهادرة كالرعد . ولكن ما أزعجني فعلاً خوفي من أن يكون العمى دائماً ، لأنني كنت أعرف خطر التهابات العيون في حياة العرب ، فقد كان العمى ونصف العمى شائعا بينهم ، لا ينظرون اليه كعاهة خطيرة ، ولكن ذلك كان بالنسبة لي عاهة كاملة . فاذا كنت أعمى ، فلا معنى لبقائي في المركب ، ولن يكون بوسعي أن ألاحظ ما لا أستطيع رؤيته .

لقد كان الألم شديداً جداً لدرجة أنني لا بد أن أكون قد مررت بفترات من الهذيان والغياب التام عن الوعي ، فباستطاعتي أن أتذكر الآن أنني كنت

أمر بفترات من الألم المتواصل تعقبها كوابيس مخيفة . ولكن الفكرة التي كانت تؤرقني ، وأنا في حالات الوعي ، أنني ربما اضطررت الى التخلي عن مواصلة الرحلة ، وكان هذا أصعب علي من الخوف من العمى الدائم الذي كان يمكنني اعتباره ضربة من ضربات الحظ السيء . ولكنني كنت أفكر أيضا فيما اذا كان من المنطق أن أستمر طوال تلك المدة الطويلة أمارس نوعا من الحياة التي تكون المخاطر فيها كبيرة الى هذا الحد . فقد كنت اعتقد أنني قد أصبحت متعودا على مشاق الحياة البحرية ، بعد أن عملت صيادا للحيثان في المنطقة القطبية الجنوبية ، وبعد أن درت مرة أو اثنتين حول رأس هورن (في جنوب أمريكا الجنوبية) . ولكن تبين لي أنني كنت مخطئا في ذلك .

لقد اتضح لي أنني كنت في القمرة الكبيرة ، ذلك المكان الكريه المخيف . فقد كانت الرائحة كريهة ، حتى بعد أن أمضيت في نفس المكان بضعة أيام ، ولم يكن الهواء يتجدد ، بينما كانت الجرذان تجرى هنا وهناك وأحيانا أسمع صوت عراكها . أما الصراصير السمينة ، الدهنية الملمس ، فقد كانت تتساقط علي من السقف وتجري على وجهي وتعبث بجسدي كله . وكان الجو حارا والهواء عفنا مخيفا . وكانت الرائحة العفنة ، المنبعثة من أشياء مخيفة لا حصر لها ، تملأ الهواء الساخن ، بينما تطلع روائح أخرى ، لا تقل قرفا ، من السمك المتعفن الفظيخ ، وزيت السمك ، والماء الأسن المتجمع في جوف المركب . وكنت أرقد على قطعة من الخيش ملقاة فوق بعض البالات ، تحيط بها رزم غامضة المحتوى من كل ناحية تحتك بي فتغيظني بينما المركب يسير الهويني . ومن حين لآخر ، كنت أحاول أن أتحرك ، ولكن الألم كان يمزقني ، فلم أكن متعودا على الألم ، ولذلك لم يكن باستطاعتي أن أصبر على تجربة غير مفهومة ولا معنى لها . ولم تكن هنالك طريقة للتخلص من الألم في عيني ، وكنت أشعر وكأن رأسي قد شق بمحراث ، بل كنت أحيانا أتمنى لو كان الأمر كذلك فحسب . فقد كنت أحس كأن عيني قد اجتثتا من محاجرهما ، وقلبتا على الجمر ، ثم أعيدتا الى مكانيهما . كما أنني كنت أشعر كأن جسمي قد انتابته حمى خبيثة . وهكذا مرت الايام ثقيلة مخيفة ، تنتابني خلالها تلك الروائح الرهيبة دون انقطاع ، وعيناي لا تستطيعان الابصار ، والهواء ساكن مخنوق ، والحر على أسوأ ما يكون .

لا أدري كم من الزمن مر علي وأنا في تلك الحجرة ، وقد قدرت أن يكون قد مر أسبوع على الأقل . فقد كنت أعرف تاريخ آخر شيء كتبت في مفكرتي اليومية ، ولكنني لا أعرف التاريخ الذي شفيت فيه ، كما لم يكن

أحد على ظهر المركب يعرف تاريخا ولا يوما ، فلم يكن أحد يسمي الأيام بأسمائها ، بل كانوا يتركونها تمر بسلام ، دون أن يعيروها أي اهتمام . ومع أن حمدا قد خمن التاريخ الا ان تخمينه كان خاطئا ، ولم أكتشف أنا التاريخ الا بعد وصولي الى المكلا ، فقد كانت الأيام تمر ، يوم يعقبه يوم ، ولم يكن باستطاعتي أن أميز واحدا من الآخر . وكانت أصوات البعارة وهم يعملون في تغيير اتجاه المركب تصل الي في بعض الأحيان وأنا راقد في مكاني . فقد كانت تتناهى لي من بعيد ، وكأنني في حلم ، وقع الأقدام المسرعة فوق رأسي ، وصوت الشراع وهو ينشر أو يطوى ، وصيحات البعارة وهم منهمكون في عملهم . وفي إحدى المرات تمكنت من سماع أصوات أهاريجهم العميقة وهي تتردد مدة ساعة تقريبا . وأحيانا كنت أسمع صوت ماء البحر وهو يقاوم مرور المركب فيه ، بينما كان المركب في بعض الأحيان يقف ساكنا بلا حراك ، فأنا ما كنت أحس بأية حركة حيث أرقد ، سوى بقبقة خفيفة ناتجة عن ملاسة ماء البحر لهيكل المركب . وفي تلك الفترات كان كل شيء ساكنا تماما ، كان البعارة قد هجروا المركب وتركوني عليه وحيدا - وحيدا مع الجرذان ، والروائح المخيفة ، والصراصير والحشرات البائسة الأخرى المتراكضة من حولي . لقد مرت بي أيام عصيبة حقا .

ولكن الأيام كانت تمر ، وأخذ الألم ، حتى الذي في عيني ، يخف تدريجيا . وقد أحسست براحة هائلة ، وأنا أشعر أخيرا بأن عيني تحاولان الانفتاح ، وبأن باستطاعتي أن أنظر من حولي الى ذلك الوكر . عرف الكريه الرائحة الذي سلخت فيه أياما ، لا يعلم عددها الا الله . وسع اني لم أكن بعد قادرا على الرؤية الكاملة أو الصحيحة ، فقد كنت أنظر حولي بحنان وعاطفة جياشة حتى الى تلك الصناديق العفنة ، والى السمك المجفف الفظيخ الذي كان يحيط بي ، وأعجب كل العجب أين كانت كل تلك السمكة السرداز تتراكم . وقد استطعت أن أشاهد أضخم صراصير رأيتهما في حياتي وهي تتراكم - عنوا فأنا لا أقصد ذلك تماما ، فلم يكن بإمكان مثل تلك الحشرات السمينه الكسولة أن تتحرك بأية سرعة تشبه الركض ، بل كانت تتجول في المكان بكل لكاعة وبطء وكأنه ملكها الخاص .

ثم . . . كان هناك يوسف العجوز ، يوسف الشيرازي ، يوسف ذلك الذل العجوز ، الذي تبينت أنه كان يعنى بشأني خلال تلك المحنة ، يوسف الأشيب ، يوسف الشرير التائب الذي كان ، على ما يبدو ، يقوم بوظائف عديدة فيعمل دليلا ، وأميننا للمخزن ، ومضيفا ، وخادما خاصا للنوخذة . فاذا صادف أن احتجت اليه وطلبتة ، لم أجده ، اما اذا لم أكن بحاجة اليه ،

فهو دائما هناك ، واذا حدث أن غفوت ، وجدته يصيح في اذني بالطبع .
اذاً ها هو هناك ، ذلك الاحمق العجوز الكثير الخطأ ، الحسن النية ، استطيع
أن أراه أخيرا ، وهو مقرفص على كعبي قدميه اللذين أصبحا كالقرون
صلابة ، متعب بلا شك ، الا أنه متيقظ وحزين . ها هو يوسف اذاً ، يوسف
بقدميه المتحجرتين الممدوتين على وسادتي ، كائنة ما كانت ، ينظر الي بعينيه
الكليبتين . والحق يقال ، أن يوسف قد عني بي عناية جيدة خلال تلك
الأيام العصيبة ، وأصبحت أنظر اليه الآن بشيء من الحب . وقد كنت قد
أحسست منذ البداية بنوع من الميل نحو هذا العجوز ذي الوجه اللطيف ،
مع أنه لم يفعل شيئا يخطب به ودي . فقد كان عجوزا هادئ الطباع ،
ينتمي الى أسرة شيرازية فقيرة تعيش في الكويت ، أي أنه كان من أصل
ايراني ، الا أنه ترعرع في الجزيرة العربية ، حيث كان أبواه قد هربا من
ايران سخطا على بعض الأوامر الملكية . وقد كان من الواضح أن يوسف
قد أصيب بالارتباك عندما طلب منه أن يقوم بمهمة العناية بأوروبي
مصاب ، ولكن لا شك أنه قد بذل كل ما يستطيع . فقد كان يأتيني ثلاث
مرات في اليوم ، ويقدم لي ما لذ وطاب من الطعام — مما لم أرغب فيه —
مثل عصص سمين لخروف مذبوح في بربرة منذ مدة طويلة ، وأطباق
مرق الدال المملوء بالفلفل الحار ومخلل الليمون ، ومثل أكرام الأرز المسلوق
المغطى بالدهن الكويتي . وقد كنت اطلب منه أن يحتفظ ببعض تلك الأشياء
لنفسه ، ولكنه كان دائما يأبى علي ذلك . وكنت أتحدث معه أحيانا ، على
سهوة الحديث بلغة عربية ركيكة لا أعرف سواها وتبعد كل البعد عن أية
لهجة عربية ، كما أن اللغات الفارسية والسواحلية والهندية ، التي كان
يمكن أن يتكلم بها يوسف ، لم تكن ذات نفع بالنسبة لي . ومع كل ذلك فقد
ثبت أنه كان انسانا عظيما ، وقد سرنى جدا أن أتمكن من رؤيته ثانية .

وحالما تأكدت أن باستطاعتي الابصار ثانية همست ليوسف طالبا منه أن
يبعد بي عن ذلك المكان ، ويأخذني الى سطح المركب ، حيث يمكنني
التمتع بالهواء النقي . الا أن يوسف أجاب بأن المكان الذي كنت فيه جيد .
فكان يقول « هنا طيب ، هنا طيب » وقد استطعت أن أفهم ذلك منه .

ولكن المكان لم يكن كذلك بالنسبة لي . وبعد فترة تمكنت من تسلق
السلم العامودي والصعود الى سطح السفينة ، بمساعدة يوسف ، وزايد
البحار الزنجي صاحب المنكبين العريضين جدا والجسم الرياضي الجميل
الذي يحسده عليه أي رياضي ، وحمد بن سالم ، وسعيد التاجر المكحل
العينين الذي شبهته سابقا بالسندباد . يا الهي ! ما أطيّب الهواء عندما

أستنشق لأول مرة بعد تلك الايام الكثيبة ! كانت عيناى لا تزالان غائمتين ، كما أن رأسى كانت تدور ، الا أن الهواء كان رائعا • وكنت أحس بشكل غامض بهيئة الشراع المنشور فوق رأسى ، فقد كانت هناك ريح مؤاتية ، وكان لأصوات المركب وهو يشق عباب الماء وقع الموسيقى في أذنى • وقد استيقنت أنى سأبصر ثانية ، وأن بإمكانى أن أبقى فى المركب • وقد بدا لى سطح المركب ، المغطى بجميع انواع الاقدار ، نظيفا وجميلا وخاليا من الاوساخ ، وفى ظل الشراع ، بدا لى البحارة السمر كأنهم آلهة فى مقتبل العمر يرتدون الجلابيب •

مضت مدة طويلة قبل أن أستعيد قوتى ، وأتمكن من المشى بشكل طبيعى مرة ثانية ، وكنت خلال تلك الايام الرهيبة التى أمضيتها فى القمرة قد فقدت ثلاثين رطلا من وزنى • على أية حال ، فقد انتهى هذا كله الآن • لقد رحت أفكر ، وأقول فى نفسى انى ، ما دمت قد أصبت بهذا الحادث الخطير فى الأسبوع الاول من الرحلة ، فقد نلت ، بموجب قانون المعدلات أو قانون الاحتمالات ، نصيبى من مصائب الرحلة • وقد حصل هذا بالفعل • فبعد الذى أصابنى هنا ، لم أصب بالمalaria حتى فى دلتا الروفيجى ، كما أن جسمى استطاع أن يعيش ويتروعرع على الماء المجلوب من مستنقعات كينيا الآسنة • لقد كان الجميع ، من حمد بن سالم حتى أصغر بحار ، فى منتهى الطيبة معى فى أثناء مرضى • وقد كنت أشعر بالحرج ، وأنا أعرج ، وأتنقل بصعوبة حتى بعد أن زال عني العمى • ولكن البحارة ، على ما يبدو ، لم يكن يهمهم أن يفرض كسيح عليهم ، فقد كانوا جميعا يمدون لى يد المساعدة ، اذا احتجت اليها ، وكان يوسف المجوز دائما على أهبة الاستعداد للمساعدة • وقد كنت أستلقي على سجادة فى مكاني المعهود على السدة وكان البحارة عندما يصعدون الى مؤخرة المركب صباحا ومساء ليؤدوا التحية ، يضيفون بضع كلمات تفيد أن الله كان رحيمًا بى فى أثناء مرضى ، وقد كانت تلك الكلمات عبارات مواساة صادقة صادرة من القلب ، وكنت أشعر بالراحة عند سماعها • وقد تمكنت بمساعدة الشمس والهواء ، أن أستعيد صحتى تدريجيا ، وان لم أستطع أن أسترده كثيرا من وزنى الذى فقدته الا بعد مدة طويلة • لقد كانت تجربة مثيرة ، وبخاصة عندما أنظر اليها الآن بعد الخلاص منها ، ولكنى أكره أن أمر بها ثانية •

عندما تمكنت بعد مرضى من الصعود الى سطح المركب ثانية ، وجدت أن المركب كان على مقربة من « رأس الكلب » ، قريبا جدا من شاطئ حضرموت ، وكنا نسير بالقرب من بعض الجزر غير المستوية ، التى كانت

قمة احداها مغطاة تماما بذرق الطيور البحرية . لقد كنا قريبين جدا من الشاطئ لدرجة أن حمداً اضطر لايقاف المركب والرسو ، عندما تغير اتجاه المد ، حيث بقينا بدون حراك بقية ذلك اليوم ، ولم يكن يسمع نفس أو حركة ، وخلفنا ، على مسافة منا ، كان بوم القطامي يرسو أيضا ، وقد لف شراعه الكبير حول العارضة التي كانت — كما هو الحال في مركبنا — تمتد متعارضة مع الصاري الرئيسي . الا أنني لم أستطع رؤية البغلة الفارسية . وعندما استفسرت عن ذلك من حمد ، كان جوابه الوحيد ان الله رؤوف رحيم . لقد كنت أنظر الى الخلف ، بينما كان هو ينظر الى الامام ، وقد فهمت من ذلك موقع البغلة ، فقد كانت أخف منا حملا ، ولذلك لا بد انها قد سبقتنا .

في صباح اليوم التالي ، ومع أول نسمة من الهواء ، عاودنا سيرنا الهادئ باتجاه المكلا ، ولم نكن ، طوال بقية الرحلة الى المكلا ، نبعد اكثر من مرمى الحجر عن شاطئ حضرموت . وعلى الرغم من أن الشمس كانت تحرق ذلك الشاطئ ، وانه كان خاليا من الحياة النباتية ، الا أنه كان شاطئا لا يعوزه الجمال ، بل كان أحيانا يبدو في غاية الروعة عند الفجر ، وعند الشفق . ولم نكن نبعد عن الشاطئ الا عندما يشتد الهواء قليلا ، ولكننا كنا نعود بسرعة ونتابع سيرنا بمحاذاة الشاطئ . وفي بعض الاحيان ، عندما كانت الرياح تموت ويكون المد غير مؤات ، كنا ننزل المرساة ونتوقف بضع ساعات من غير أن ننزل الشراع . وقد كانت الظروف حسنة بوجه الاجمال ، فيما عدا الريح المقابلة لنا التي لم يكن نكف عن الهبوب ، وكان حمد يقود المركب بعكس الريح ، مستفيدا من اتجاه الريح التي تهب على البر ، ولا شك أنه كان حكيما في ذلك ، لأنه لو كان قد أبعد المركب عن البر ، وأخرجه الى خليج عدن لكننا خسرنا اكثر مما كسبنا . فقد كان اتجاه الريح هناك دائما الى الغرب ، بسبب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية . وقد كان واضحا أن حمداً يعرف تلك المياه ، ويعرف كيف يتصرف فيها .

وقد حدث أن غيرنا اتجاهنا مرة ، وهي المرة الوحيدة التي رأيت فيها البوم الكبير يغير اتجاهه كلية ، بحيث تصبح مقدمته بعكس الريح تماما . ولم يكن حمد ليفعل ذلك أبدا ، لو لم يكن المد قد هجم عليه بشكل مفاجئ دافعا المركب نحو الشاطئ ، الذي كان يبرز منه لسان طويل ضحل كأنه يقايا مصب نهر جاف . لقد كنا قريبين جدا من ذلك الشاطئ ، وكان المركب متوجها نحوه ، ولم يكن هناك الوقت أو المساحة اللازمان لادارة المركب بالطريقة العادية ، لأننا لو كنا استغنيينا عن الريح ، لكننا حتما قد اتجهنا الى الشاطئ . وقد كنت سعيدا بعودتي الى ظهر المركب ثانية ،

واستعادتني لبصري ، لكي أرى كيف سيعمل حمد على تغيير اتجاهه في مثل هذا الموقف . وقد تصرف هذا بهدوء (وان لم يكن دائما يحافظ على هدوئه) ، فأصدر أمرا بصوت خافت ، كرره مدير الدفة بصوت عال . وفي الحال كان جميع البحارة في مراكزهم ، وكان كل منهم يعرف مركزه عند إدارة المركب ، وكذلك عند تغيير اتجاهه . ثم أنزل شراع الغلمي بسرعة ، وبعد ذلك ، وبإشارة من رأس حمد ، الذي كان يقف في أحد القوارب ، أديرنا الدفة بهدوء . وفي ذلك الوقت ، كنا قد أصبحنا على وشك الاصطدام بالشاطئ ، فقد أصبحنا في الماء الضحل جدا ، نستطيع أن نرى رمل القاع الذي لا يكاد يفصله شيء عن أسفل المركب . إلا أن المركب استجاب للدفة استجابة ممتازة ، وأثبت الشراع الكبير المثلث الشكل انه شراع ممتاز . فقد استدار المركب على عقبه وابتعد عن الشاطئ ، على الرغم من أن الشراع الكبير كان مواجه للهواء المضاد .

لقد كانت لحظة حرجة بالفعل ، لأنه لو أمتلأ الشراع بالهواء المضاد ، لكانت في ذلك نهاية المركب ، ولكن ذلك لم يحصل ، فقد استجاب المركب استجابة طيبة ، واستدار بكل رشاقة ، على الرغم من أن التعامل مع الشراع الرئيسي الذي قلب اتجاهه ، وتغيير اتجاه العارضة من الوضع الأفقي الى الوضع العمودي ، مع توافر كل ذلك الضغط من الريح التي تحاول أن تكسره ، من العمليات المتناهية في الصعوبة . فقد كان الشراع الرئيسي ، مثله في ذلك مثل جميع الاشرعة العربية الأخرى لا تتصل به معدات وحبال ثابتة ، ولذلك فقد كان يلتف كما اتفق على شكل طيات ضخمة ، على المساحة الواقعة بين العارضة والصاري ، ويحاول جاهدا أن تعلق اطرافه بالحبال والبكرات والمعدات الأخرى عند نشره . ولذلك فقد كان البحارة يجدون صعوبة كبيرة في نشره من ذلك الوضع غير المناسب . وعندما كانوا يفعلون ذلك ، كانوا يواصلون الغناء والهزج بشكل وحشي وبدون توقف ، بينما الشراع يرتفع ، والصاري يصر ، والعارضة تتمايل ، وأصوات الأمواج القريبة المتصلة تنذر بشر مستطير . وقد خشيت أن تنكسر العارضة ، لأن ضغط الريح كان كله مسلطا عليها ، بسبب وضع الشراع في الخلف ، كما كان من الممكن أن يسقط الصاري بكل سهولة . لقد كانت عملية ملاحية في غاية التعقيد والخطورة ، ولم يكن باستطاعة أي شيء ، سوى القوة البشرية المجردة ، أن تضع ذلك الشراع الرئيسي تحت سيطرة الانسان مرة ثانية . فقد كان الشراع مكونا من قطعة من القماش القطني القوي ، يبلغ ارتفاعها ١٣٠ قدما ، وطول جزئها الأمامي أكثر من ٩٠ قدما ، وعرضها من الأسفل مائة قدم ، أي أن مساحة الشراع كانت تزيد عن ستة آلاف قدم مربع . لقد كان شراعا هائلا . كيف لا ، وهو الشراع الوحيد

الذي ينتظر منه أن يسير مركبا حمولته تزيد عن مائة وخمسين طنا . وقد كنت سعيدا في تلك اللحظة الحرجة بأن يكون لدينا ذلك العدد الهائل من البحارة ، فقد كنا بحاجة لكل فرد منهم . فلم يكن باستطاعة اي شيء مقاومة تلك القطعة الجبارة الهائجة من القماش ووضعها تحت السيطرة مرة ثانية ، الا تلك القوة العارمة الجامحة التي واجهها بها البحارة . ومما زاد الأمر صعوبة أن ذلك كان يجب أن يتم بمنتهى الحرص والهدوء ، لئلا ينشقق الشراع من أماكن الوصل الضعيفة ، فيضطرب البحارة لترك المركب في ذلك الموقف الخطر من غير شراع صالح للعمل (١) .

لقد كان عملا ممتازا ، وقد سرتني أن أشهده ، ولكنني لم أعد أستغرب لماذا لم نغير اتجاهنا مرة أخرى . فقد بدأت أتفهم عزوف العرب عن إدارة المركب بعكس اتجاه الرياح ، كما بدأت اعتقد ان الشراع المثلث لا يصلح الا للرياح الخفيفة ، وهي الطريقة التي كان العرب يستعملونه بها ، لأن المراكب التي تسير بمثل هذا الشراع لا تستطيع أن تمخر في البحار ، الا اذا كانت الرياح من نوع هذه الرياح الموسمية (٢) .

وصلنا المكلا في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي ، وقد مضى علينا بموجب أدق حساباتي ، اثنا عشر يوما في البحر ، وكنت خلال تلك الفترة قد طاب لي المقام على ظهر المركب ، وكان هذا من حسن حظي ، لأننا لم نستمتع ثانية برحلة هادئة كهذه لمدة أشهر تالية . وكان نجدي أول من رأينا ، فقد كان ينتظرنا على الرصيف ، وبصحبتة أشرس مجموعة من العرب الذين رأيتهم في حياتي .

(١) يبدو من هذا الكلام كانه ليس في المركب غير شراع واحد ، بينما الواقع أن بكل مركب ثلاثة اشراعة للصاري الكبير : شراع كبير يطلق عليه باللهجة الكويتية اسم « العود » ، وآخر متوسط يسمى « الغديرة » ، وثالث صغير يطلق عليه اسم « التركيت » . هذا علاوة عن شرارين للصاري الصغير أيضا . (المترجم - عن أحمد البشر الرومي) .

(٢) لقد اعترف المؤلف نفسه في بداية هذا الكتاب بأن الشراع المثلث صالح لجميع الرياح ، وعلى الاخص باتجاه عين الرياح (المترجم) .

الفصل الثالث

على ساحل حضر موت

على ساحل حضرموت

تبدو المكلا لأول وهلة مكانا رومانسيا رائعا ، وهي - بعد عدن التي طبعها البريطانيون بطابعهم ، والأماكن الواقعة على البحر الأحمر التي ليس فيها شيء من الجمال - تعطي صورة كاملة عما يتوقع المرء من المرفأ العربي أن يكون الى الحد الذي يصعب تصديقه . ولكن ما أن ينزل المرء الى الشاطئ ، حتى تنقلب الصورة ويبدو المرفأ أسوأ مما كان الانسان يتصوره . وبلدة المكلا اليوم ، كما كانت دائما ، هي المرفأ الرئيسي في حضرموت ، وهي ملتقى التجار من أماكن عدة ، وهي المكان الذي يبدأ الحضرمي الجوال رحلته منه قاصدا جاوا والهند وأفريقيا ، وهي المكان الذي يعود في نعمة الطاف . وقد كان الحضرمي دائما كثير التجوال ، يغادر بلاده القاحلة ويطرف في أرجاء المعمورة ليحصل على تليل من المال ، ثم يقفل عائدا الى بلده لينفق فيها . وما كان سبب ذهابنا الى حضرموت الا جمع اكبر عدد ممكن من هؤلاء الجرائة واخذهم ركابا على مركبنا ، لأن بعضهم ما زال يبحر على متن المراكب الشراعية الى افريقيا والهند ، مع أن معظمهم أصبح في هذه الايام يفضل السفر على سطح إحدى السفن البخارية الى جاوا وجزر الهند الشرقية ، وخاصة في السفن الهولندية التي كانت تمر بالمكلا بانتظام لتحمل هؤلاء الركاب .

ومرفأ المكلا مكان ممتع بمبانيه البيضاء التي تبدو كأنها تصارع بوجل لتحفظ بموطئ قدم فيما بين جبال حضرموت العظيمة والبحر . وحول الواجهة البحرية للخليج الصغير المكشوف تتكدس الأبنية قوية وعالية وبادية ازدهار ، تبرز من بينها مآذن المساجد هنا وهناك . الا أن الأبنية التي تبعد عن الميناء مسافة ليست بالطويلة ، تبدو داكنة ومتهدمة وهي تقاوم الزوال من على سفوح جبال حضرموت الشديدة الانحدار . انها تلك الجبال التي تلفت النظر أكثر من البلدة نفسها ، تلك الجبال العابسة بحصونها ذات البروج البيضاء التي لم تعد تستعمل الآن . وربما كان السبب الاساسي لوجود المرفأ في ذلك المكان هو امكانية الدفاع عنه عن طريق الحصون الجبلية اذا ما هوجم من الخلف . فالجبل يشرف من عل على البلدة ، كأنما تراوده فكرة دفعها دفعة واحدة الى البحر ، وهو ما يستطيع أن يفعله ، لو هز كتفيه هزة خفيفة . فانه بحجمه الهائل

وقربه المخيف من المباني - يبدو لأول وهلة كأنه يهدد ما تحته من البيوت، خاصة وأن كتل الصخر الهائلة موجودة في الأودية وكأنها تنتظر الأمر بالتدحرج . ويستطيع المرم فعلا أن يرى هنا وهناك أماكن انزلاق بعض تلك الصخور ، وأن يتصور ما حدث للمباني التي صادف أن كانت في طريقها . وفي الواقع اني لو كنت أسكن المكلا ، لكنت ارتعدت فرقا من رؤية الأمطار الغزيرة .

والميناء نفسه مكان ممتع . كما أن الخليج نفسه هادئ ما دامت الرياح تهب من الشمال الشرقي . أما الرياح الجنوبية الغربية ، فأنها تهب على الخليج مباشرة ، وعندما يتفرد الاحتمام فيه . وعندما وصلنا ، كان هناك ما يقارب عشرين مركبا عربيا واقفا ازام المرسى ، كما كان غيرها على الشاطئ . وفي مكان صغير محمى يقع في شرق المدينة ، كان على الشاطئ حوض لبناء السفن . وهنا وجدنا بعض الصناعات يبنون سمبوكين كبيرين من ذوات المؤخرات المربعة الجميلة . ومن الواضح أن صانع المراكب الحضرمي يحب أن يزين مراكبه ، فقد كانت مؤخرات بعض السمايك الواقعة على الشاطئ أو في المرسى محفورة ومزخرفة بالألوان . وكانت الزخرفة في العادة تتألف من عدة صفوف من الأشكال الهندسية ، كالمثلثات والنجوم والأهلة المرسومة بالألوان الزرقاء والحمراء والخضراء ، والمزدانة بآيات مناسبة من القرآن الكريم محفورة على جانبي المؤخرة . وفي كثير من تلك المراكب كنا نرى صفين من النوافذ المزينة ، محفورة ومدهونة بالطلاء على جانبي المركب ، صفا على كل جانب . ولكي تبدو كأنها نوافذ حقيقية ، فقد رسمت عليها ستائر نصف مفتوحة أيضا ، وكان هذا التصميم شائما جدا . وفي بعض المراكب كان هناك صفان من النوافذ مرسومان على المؤخرة ، بالإضافة الى الجانبين . كما كان كثير منها أيضا قد طليت مؤخرته كلها بالألوان الزاهية من مستوى سطح الماء حتى سطح المركب . وقد كان أثر تلك الزخارف كبيرا في بعض الأحيان ، خاصة عندما تنعكس صور تلك المؤخرات الجميلة وتتلألأ على سطح الماء الأزرق . كما كانت هياكل المراكب ، المغمورة بالماء ، والحديثة الطلاء بالجير الأبيض ، تسطع ، وأجسامها غير المزخرفة ، تلمع من كثرة الدهن الذي يكسوها . وعلى وجه الاجمال ، كان منظر المراكب جميلا . كما كانت هناك أيضا بعض السمايك العدنية القديمة وهي تحمل العلم الايطالي ، ويقودها بحارة صوماليون ضخام الأجسام يصحبهم عدد من الفتيان .

لقد كان في أولئك البحارة الصوماليين جفاء وغلظة لا نجدهما لدى العرب ، وكان الجميع يحاولون تجنبهم . حتى أولئك الرجال ، الذين كانوا

يتنقلون في الميناء بقواربهم الصغيرة يبيعون الفاكهة والتمر للمراكب ، كانوا يخشون الاقتراب من سمائك الصوماليين . وكان هؤلاء طوال القامة جدا تغطي رؤوسهم جدائل من الشعر المحنّى ، ويرتدون وزرات طويلة جدا ، ويلقون على اكتافهم قطعاً غير مخاطة من الخام عندما كانوا ينزلون الى البر . وهناك كانوا يختالون في مشيتهم ، مزهوين بأنفسهم الى حد كبير ، كأنهم سعداء قانعون بنصيبهم من الحياة .

وفي الميناء كانت هناك أنواع غريبة أخرى من المراكب تضم ، فيما تضم ، بعض المراكب الصغيرة الآتية من سيحوت ، ومن مرافق أخرى على ساحل المهرة . وكانت هذه المراكب واطئة ، طويلة ، مقدماتها مائلة ومنخفضة جدا ، وصواريها تميل أكثر من أي صارية رأيتموها من قبل . وقد أخبرني حمد بأن تلك المراكب سريعة جدا ، ومع أن أكبرها لا يزيد طوله عن أربعين قدماً ، إلا أنها كانت تسافر الى زنجبار . وقد كانت هناك مراكب أخرى ، يقودها رجال متجهمون يرتدون القمصان الغامقة ، ويضعون على رؤوسهم العمامات الصورية الكبيرة . وكانت لتلك المراكب مقدمات مستقيمة ، ومؤخرات على شكل أكباش ، وصوار عامودية عالية . وقد أخبرني حمد بأن هذه المراكب هي من نوع « البدن » . وعلى الرغم من كونها صغيرة جدا ، لا تبدو صالحة للسفر في البحر ، إلا أنها ، بحسب قول حمد ، كانت تسافر الى زنجبار أيضا .

لقد كان الميناء طيلة الوقت جميلاً ومسلماً . ولكنني بدأت ، بعد مضي بضعة أيام ، أتساءل ما الذي أتى بنا الى هنا . ففي اليوم الأول ، جلب نجدي معه حفنة من البدو الغلاظ ، ذوي الوجوه القاسية ، كانوا يرتدون الملابس السوداء ، وقد طلوا أجسادهم وأيديهم وأرجلهم باللون الأزرق القاتم ، ليحميهم ، من الحرارة والبرودة على حد سواء . وقد كان هذا الاعتقاد يمنحهم شيئاً من الشعور بالراحة ، لأنهم في واقع الأمر لم يكونوا يرتدون من الملابس إلا النزر اليسير . وكان كل من هؤلاء الرجال مسلحاً بخنجر كبير معكوف ، في غمد من الفضة ، مربوط حول وسطه دون السرة . وفي نفس الحزام الذي ثبت فيه الخنجر ، كان الرجل على ما يظهر ، يحمل بقية أمتعته الدنيوية . فعلى جانب الخنجر الكبير ، كان هناك أيضاً ما أرجح أنه سكين آخر - أصغر حجماً ، لعله يستعمل للقضاء على الضحية نهائياً بعد طعنها بالخنجر ، أو لأعمال أخرى ، كصنع قصبه للعزف عليها مثلاً - ، وفي مكان آخر من الحزام كانت هناك جيب للنقود والطباق . وكان هؤلاء البدو يسيرون عراة الرؤوس ، وشعر رؤوسهم طويل ومدهون بكثير من الزبد ،

كما انهم كانوا حفاة الاقدام أيضا . أما أجسامهم ، فقد كانت نحيلة ومعروقة ولكنها نشطة ، خفيفة الحركة ، وكانوا دائما متيقظين ، وعيونهم شديدة الملاحظة . وعندما صعدوا الى ظهر المركب مع نجدي ، الذي كان يختلف عنهم اختلافا يدعو للمعجب (مع أنه كان متحدرا من نفس القبائل البدوية التي تعيش في صحراء نجد) أخذوا يتراكمون هنا وهناك على سطح المركب كالأطفال . وقد لاحظت أنهم كانوا يتفرجون على المركب ، كما لاحظت أنهم كانوا معجبين جدا به ، وكأنهم على ظهر سفينة بخارية عابرة للمحيطات . وقد كان هؤلاء ، على ما يبدو ، هم الركاب الذين يريد نجدي أن يصحبهم معه . وكان بينهم رجل ضئيل الحجم ، جميل الطلعة ، قال حمد انه زعيم قبيلة من قبائل الداخل . وقد سمعته يقولون ، بطريقة عابرة جدا ، ان هذا الزعيم كان ينظر في أمر الهجرة مع قبيلته الى أفريقيا ، ولكنني ما زلت لا أصدق أننا يمكن أن نحمل قبيلة كاملة على مركبنا . وكان هذا الزعيم يصعد الى ظهر المركب عدة مرات ، وفي كل مرة كان يدور هنا وهناك ، ويتفحص كل شيء ، ويبدو أنه هو والآخرين قد أعجبوا بسعة المركب ، ولم يكونوا يعيرون الأمور الأخرى ، كالتجهيزات وتخصيص الأماكن وغير ذلك ، أي اهتمام . فقد كان كل ما يهمهم هو الحجم ، وكان حجم المركب بالنسبة لهم كبيرا جدا .

ولكن ما أدهشني وحيرني جدا هو ذلك الوقت الذي كانوا جميعا يقضونه في القمرة الكبيرة الفضائية ، لأنهم لم يكونوا ينسون أن يمعنوا النظر فيها ، حتى لو لم يتفقدوا أي مكان آخر في المركب ، بينما كان يوسف الشيرازي يتفنى بمزاياها العظيمة . وكانوا ينزلون اليها من الباب الكائن على الجزء الأيسر من السطح ، ثم ما يلبثون أن يخرجوا منها وهم يدندنون بكلمة « طيب » التي كانت تعني ، على ما يبدو ، أن المكان حسن جدا . وعندما كنت أسأل يوسف المعجوز ، عما يجدونه حسنا في ذلك المكان ، وماذا يريد البدو منه ، وعما اذا كانوا سيشحنون بعض البضاعة فيه ، كان يوسف لا يجيب الا بكلمات من رحمة الله التي وسعت كل شيء - وهي كلمات لم أفهم مناسبتها للمقام حينئذ . وان كنت عرفت ذلك فيما بعد . فقد تبين لي أننا سنحصل بالتأكيد على « حمولة » من نوع ما ، تملأ تلك القمرة ، وان رحمة الله كلها ستكون ضرورية للتخفيف من أوضاع تلك الحمولة . وفي إحدى المرات التقطت إشارة سريعة من يوسف تنم عن نوع الحمولة ، ولو كنت أعرف مزيدا من اللغة العربية لفهمت السر . فقد ذكر شيئا عن « بنت » أو « بنات » . وقد عجبت لذلك جدا . ماذا يعني يا ترى ؟ هل يمكن أن يقصد أننا سنحمل على المركب بنات ! نساء ! (فحتى في استراليا ، كلمة « بنت » تعني « فتاة ») . ولكنني كذبت ما سمعت . فمن المؤكد أن المراكب

العربية لا تحمل النساء أبدا ، لأن العرب المهاجرين الى بلدان أخرى لا يصبحون نساءهم معهم ، وقد أكدت ذلك جميع الكتب التي كنت قد قرأتها عنهم . ولكني ، عندما حاولت الاستفسار عن ذلك من يوسف ، لم أنل منه سوى تكرار لايمانه برحمة الله الواسعة . أما حمد ، فلم يحر جوابا على استفساري ، حتى عندما كان البحارة ينظفون القمرة الكبيرة . ولا أقصد أن أقول طبعا بأن القمرة كانت تنظف بالفعل . بل كل ما في الامر أن بعض ما فيها من متاع كان يرفع منها ، ويلقى به في القمرة الصغيرة الأخرى الواقعة خلفها ، وبهذا انتهت عملية التنظيف . وعندما انتهى تفريغ القمرة جزئيا بهذا الشكل ، أصبحت هناك ساحة في وسط القمرة لا تزيد عن ثمانين قدما مربعا .

وفي اثناء ذلك كله ، كان نجدي لا يأتي الى المركب الا لحضور الولاثم ، التي كانت تقام واحدة منها كل يومين . ولم تكن نحن نعمل شيئا ، سوى المشاركة في تلك الولاثم ، والانتظار في المركب الواقف في المرسى ، فلم يكن شيء جديد يحدث عليه . وقد راقبت لي تلك الحياة الهائلة ، كما لا بد أن تروق لأي انسان اخر ليس لديه أية مهمة ينتظر منه أن يقوم بها . فعند ظهيرة كل يوم كان يقدم لنا خروف مطبوخ نتغذاه ، فنجعل من تلك المناسبة وليمة . وكان اعداد ذلك أمرا سهلا . فقد كان عبد الله ، أخو النوخدة ، ينزل الى البر في الليلة السابقة ليشتري خروفا صوماليا سمينا ، أو معزاة حضرمية هزيلة ، تمضي الليلة وهي تثغو على رأس السلوقية في مقدمة المركب ، ثم تذبح في فجر اليوم التالي . والظاهر أن الجميع كانوا خبراء في أعمال الجزارة ، فقد كانوا يقطعون عنق الخروف بكفاءة وحماس ، ثم يسلخونه ويضعونه كاملا في القدر . وكان القدر شبيها بتملك الآنية الضخمة المستديرة السوداء ، التي صورتها الحكايات والأساطير آنية تستعمل لسلق البشرين في مجاهل افريقيا ، وفي الجزر النائية الواقعة في البحار الجنوبية . وفي هذا القدر ، الذي يغطي مأؤه على نار الحطب التي يشعلها جاسم ، كان يلقي بالذبيحة كما هي ، فيما عدا بعض القطع التي تعتبر من أطايب اللحم ، والتي كانت تؤخذ منها وتوزع على آنية صغيرة أخرى ، توضع على مواقد صغيرة . وفي مثل هذه المناسبات كان باستطاعة جاسم أن ينظم خمس مواقد في داخل صندوقه الصغير ، بل كان باستطاعته أن يصنع الأعاجيب لاعداد الوليمة ، وقد كانت العناصر الرئيسية التي تتكون منها الوليمة واحدة دائما ، وهي الأرز ولحم الماعز أو الغنم . وكان الأرز يطيب أحيانا بالزبيب ، كما كان لحم الفراخ يقدم أحيانا لفتح الشهية . وكان البطيخ يقدم فاكهة بعد الاكل ، لأنه كان متوافرا بكثرة في المكلا ، وكان العرب يحبونه حبا جما . وعندما يصبح كل شيء جاهزا ، كان

يوسف يحضر بضع سجادات عجمية من مكان ما في أسفل المركب ، ويبسطها على مؤخرة المركب بأكملها ، ثم يضع في وسطها سباطا صوماليا من الحصير المزخرف ، ثم يأتي مديرو الدفة باللحم والأرز والأطياب المتنوعة • وفي أثناء ذلك يتوافد الأغراب على ظهر المركب زمرا زمرا •

كان نجدي يقيم الولائم العامة ، بل كان ، في نظري ، مسرفا في كرمه • فقد كان جميع النواخذة الموجودين في الميناء بأكمله ، وجميع موظفي الميناء ، وجميع سماسرة الركاب ونصف زبائنهم ، ومجموعة من السوريين والمهرة ، وأحد الأشراف اليمنيين ، الذي كان يفكر في السفر الى الكونغو ليجمع بعض ماله من ديون هناك ، وكتبة الجمارك والتجار - لقد كان جميع هؤلاء يتكدسون على ظهر المركب ، حتى يصبح المكان كأنه نادى الروتاري(١) • وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يجلس جميعهم فيها حول أطباق الطعام أن يجلسوا بانحراف ، كشرائح السرددين المعلقة ، بحيث يكون الكتف الأيمن لكل منهم مواجهًا للطعام ، واليد اليمنى تعمل عملها في الطعام ، فلم يكن هناك متسع لأي منهم لأن يجلس متربعا وينال شيئا من الطعام • أما الجزء المفضل من الذبيحة في مثل تلك الولائم ، فقد كان الرأس دائما ، وكان هذا يوضع على طبق الأرز القريب من نجدي • وقبل أن توشك الوليمة على الانتهاء ، كان نجدي يمد يده بغير اكتراث ، فيتناول الرأس ، ويعمل كلتا يديه في الجمجمة ، فينتزع العينين واللسان ، ثم يدقها على سطح السفينة فيكسرها ليخرج المخ منها ، ثم يقوم بتوزيعه قطعا على ضيوف الشرف • وعندها تكون يد نجدي اليمنى قد غطيت بالسمن والأرز ، بينما تبدو أيدي الجميع بلا استثناء وكأنهم يعملون في مطحنة للأرز - ففي مثل هذه الولائم لم يكونوا يتقيدون بجميع قواعد الأكل التي كانت تحكم سلوكنا أثناء تناول وجباتنا اليومية العادية • وقد كنت دائما أحزن لمراى الشاة ، فقد كان رأسها يبدو مسالما ونظرتها حزينة • وليس هذا بمستغرب ، فقد كانت تلك العينان تؤديان وظيفتهما قبل ساعات ، كما كانت الشاة تشغو حتى فجر ذلك اليوم • أما الآن ، فما هو نجدي يحطم تلك الرأس على سطح السفينة لكي ينزع المخ من داخلها •

(١) الروتاري : منظمة عالمية للاندية المتخصصة لرجال الاعمال واصحاب المهن الراقية • تأسست بمدينة شيكاغو ، بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٠٥ ، وتهدف ، بحسب دستورها ، الى خدمة المجتمع ، وتنمية العلاقات الودية بين أعضائها على المستويين المعلم والعالم ، (المترجم) •

وبعد الوليمة ، كنا نتناول القهوة ثم ننام . وبعد النوم ، يحين موعد صلاة الظهر (١) ، يتبعها عزف من اسماعيل الموسيقى على قيثارته اللينة ، يقضي على كل ما كنا ننعم به من الهدوء والسكينة . لقد كان عزفا نشازا لم تكف ستة أشهر لكي أعود عليه ، فلم يكن فيه ، من وجهة نظري ، ما يحبه الي . فان بإمكان المرء أن يتعود على قرب الاسكتلنديين ومزامير السيامييين ، وأجراس أهل بالي وجاوا . وحتى السواحليون ، عندما يقرعون طبولهم ، فانهم يصدرون نوعا من الايقاع الموسيقي ، كما أن مزامير البدو كانت نغماتها مقبولة الى حد ما . الا أن عزف اسماعيل على قيثارته كان يمزق آذان البشر . فاذا ما شجعه أحد ، كان اسماعيل ينطلق بالغناء ، وكان هذا شر المصائب . فقد كانت أغانيه طويلة رتيبة حزينة بغیضة ، يشدو بها بشكل غير طبيعي ، وبصوت قبيح الى أبعد الحدود . ومع كل ذلك فقد كان الجميع يقولون باصرار ان اسماعيل كان موسيقيا معروفا في الكويت ، وأنه من أفضل مزايا المركب . وقد علمت أن نجدي كان قد بذل جهدا كبيرا للغاية لاقتناع اسماعيل على ركوب البحر على ظهر « فتح الخير » ، وأنه اشترى له القيثارة بنفسه . ومنحه امتيازات خاصة على المركب . وسرعان ما لاحظت فعلا بأنه كان يعفى من العمل بقية اليوم ، كما كان يجمع الاكراميات من اعلى الضيوف شأنا ، بل انه كان يضيف الى قصائده التي ينفياها بعض الأبيات التي تهدف الى ذلك ، مع أن معظم أغانيه كانت تدور حول الحب ، كما كنت أقدر مما استطيع فهمه منها ، كما كانت مملوءة بالاشارة الى النساء ، والى الميرون المفعمة بالعاطفة ، التي في طرفها حور . ولم تكن نرى النساء طبعا ، بل نسمع عنهن في الاغاني فقط . أما الاغاني فلا أعتقد أنها كانت دائما ذات مستوى أخلاقي رفيع . وقد كنت ، في كثير من المناسبات ، آسف لأنني لم أكن اتقن اللغة العربية . ولا بد أن اسماعيل كان يضمن أغانيه بعض الامور التي تجذب المستمعين اليه ، والا فكيف يمكنهم أن يتحملوا تلك الانغام الفظيعة ، وذلك الاداء البغيض ؟ ولم يحصل اسماعيل مني على أية اكرامية جزاء على موسيقاه الرائعة ، وان كان قد اشار مرارا الى رغبته في امتلاك ساعة يد ذهبية . ولكني كنت ، كلما امكنني ذلك ، أعطيه بعض المال ليكف عن الغناء ، الا أن ذلك المال كان يضيع هدرا ، وأعتقد أن عملي ذاك لم يكن لاثقا ، فليس من المعقول أن أطلب منه التوقف عن العزف والغناء ، بينما كان الجميع يستمتعون بانشاده . ولكنه كان يبالي في الامر أحيانا ، فيمتد عزفه وغناؤه الى الهزيع الاخير من الليل ، وكانت الابل تصاحب القيثارة في بعض الاحيان ، وكان هذا أفضل ، لأن دوي الطبول كان يطغى على الموسيقى الفظيعة . وغالبا ما كان

(١) هكذا في الاصل ، ولعلها صلاة العصر (المترجم) .

الرجال يرقصون ، ولكنه كان نفس الرقص الرتيب الممل ، الذي لا يزيد عن المشي ذهابا وايابا والقفز وهز الاكتاف وفرقة الاصابع ، الذي كنت قد شاهدته في خليج المعلا للمرة الاولى . كما لم يشترك في الرقص على ظهر المركب أية فتيات ، لأن الفتيات لم يكن يغادرن اليابسة .

طال بنا المقام في المكلا وأمتد أياما بعد أيام ، دون أن يحدث شيء . ففي اليوم الاول لوصولنا ، كنا قد أنزلنا بعض البضائع للسلطان . وفي كل يوم بعد ذلك كان بعض البدو الغامضون يتجولون على سطح المركب ، ويختمون جولتهم بأن يدلّفوا الى داخل القمرة الكبيرة ، ثم يغادرونها وهم يهتممون بكلمة « طيب » . وكنت دائما اعجب ما هو الطيب في ذلك المكان يا ترى ؟ ولماذا هذه الزيارات والجولات ؟ وكنت أعلم طبعا أن لا فائدة من السؤال ، ولذلك فقد كانت الطريقة الوحيدة أن اصبر وانتظر لأرى ما سيحدث .

كانت المراكب الكبيرة من نوع « البوم » تصل قادمة من الكويت أو من موانئ كنجان وبندر لنغه بايران ، ثم تغادر المكان ، الا نحن فقد كنا باقين هناك . ولم نكن نرى نجدي الا نادرا ، وفي الولاثم فقط ، فقد كان أمر الحصول على الركاب ، على ما يبدو ، عملية شاقة . ولم يكن يزور المركب الا نادرا . وكلما أتى كانت تقام الولاثم ، ويكون بصحبته خمسون رجلا على الاقل . وكان بحارنا يستغلون المناسبات للتجارة ، فكانوا يضيفون الى بضائعهم هنا كميات كبيرة من مراوح القش ، ومن السلال التي كان بعضها جميل الصنع . وكانوا يشترون هذه البضائع بالجملة ، وبأسعار رخيصة طبعا . وكان يوسف يقول أن تلك السلال من الاشياء التي يرغب فيها الاوروبيون في ممباسا وزنجبار ، كما شحن المركب كمية من حجارة الرحي والهاونات والمدقات ، وهي أدوات يستعملها الحصارمة لطحن القمح لصنع الخبز منه . وكانت هذه الاشياء ، بالإضافة الى بعض الطباق الحضرمي ، وبعض السمن المعب في صفائح الكاز الفارغة ، وبعض سمك القرش المملح ، هي كل ما نلّسه من البكلا ، ولم يزد وزنها جميعا عن خمسة أطنان .

وقد قام البحارة أيضا بملء المركب بالماء العذب ، وفعلوا ذلك بواسطة القرب الجلدية ، التي كانت على قارب النجاة الطويل ، الذي كانوا يأخذونه

الى واد يقع في الطرف الغربي من المدينة . وكانوا يفعلون ذلك فجر كل صباح . وهناك كانوا يجرون القارب الى البر ، ويسرون على أقدامهم الى أن يصلوا الى بركة في احدى الواحات المعروفة ، التي تبعد حوالي ميل واحد عن بوابة المكلا الغربية . وقد استغرقت العملية ثلاثة أيام ، ولكنهما كانت الطريقة الوحيدة . فقد كان الماء الذي يحصلون عليه بهذه الطريقة بلا مقابل ، وكنت ارجو أن يكون مستساغاً ، فقد كان علي أن اشرب منه فيما بعد . وكان البحارة ، في اثناء القيام بهذا العمل ، يقضون الصباح عملاً وخنماً ، وينامون القيلولة . وفي معظم الاحيان لم يكونوا يباليون بأن ينزلوا الى البر ، لأنهم لم يكونوا يملكون مالا . وكان اسماعيل أحياناً يختفي هو وقيثارته لكي يزعم الناس في مكان آخر ، وفي مثل تلك المناسبات القليلة كنت أحس بالراحة والسعادة .

ومرت الايام على هذه الشاكلة ، وكانت المراكب المختلفة كالسمبوك والمراكب الصومالية والأبوام الفارسية تأتي وتروح ، ونحن في مكاننا . وذات يوم ، وصل مركب هندي من نوع « الكوتية » (Kotia) محملاً بشحنة من القرميد ، قادماً من منجالور . وكان هذا المركب قريب الشبه من « البغلة » العربية سوى أن معداته كانت أثقل ، وصنعه أفضل ، وعدد بحارته أقل لم يزيدوا عن ثمانية رجال ، بينما يكون عدد بحارة مركب عربي من نفس الحجم عشرين رجلاً . وكان ذلك المركب يرفع علماً كبيراً من الحرير الأرجواني اللون مع خطين أفقيين أبيضين اللون ، وقد رسا بقرب بغلة فارسية تدعى « أمل الرحمة » . وكانت معظم المراكب العربية تحمل أسماء دينية لطيفة كهذا الاسم ، ولكنني كثيراً ما كنت اعتلي احد تلك المراكب ، وأسأل عن اسمه فلا أجد أحداً يعرفه ، وحتى النواخذة كان يفتش عنه ليجده في سجل المركب ، كما لم تكن هناك أية أسماء تكتب على هيكل المركب . وقد فهمت فيما بعد أن هناك سبباً وجيهاً لذلك . فعندما كان المركب مثلاً يحمل شحنة من أعمدة المانجروف من دلتا الروفيجي ، أو عندما كان ينسل من موقاديشو حاملاً بضعة آلاف من الليرات ، في مثل هذه الحالات لم يكن العربي يحب أن يسهل التعرف على مركبه ، وكان يعرف أن جميع المراكب تبدو لعين الاوروبي واحدة . وكانوا في اثناء كلامهم يتحدثون عن المراكب باسم نواخذتها . فقد كان مركبنا مثلاً مركب نجدى ، ونادراً ما كان بحارته يشيرون اليه باسم « فتح الخير » كما أنه كان للمركب اسمان آخران ، كما كانت العادة بالنسبة للمراكب الاخرى ، فالعربي بطبعه يكره التسمية الرسمية . وكان الحال نفسه ينطبق على المراكب الاخرى . فقد كان لبوم عبد الله القطامي الصغير اسمان آخران أيضاً ، ولكن كل من له علاقة بالبحر كان يعرفه باسم « بوم عبد الله القطامي » . كما أن بوم

غانم بن عثمان المسمى « مرسى الباز » كان يعرف باسم يوم غانم بن عثمان ،
وهلم جرا . ولكن هذا كان ينطبق على المركب في حالة واحدة فقط ، هي
أن يكون قبطانها هو مالكها ولو اسميا .

وخلال ذلك كله ، بقيت على ظهر المركب ، لأنني لم أكن أستطيع
المشي . وقد كان ظهر المركب بالنسبة لي ممتعا دائما ، وأنا أجلس هناك
على سدة النوخدة خلف الدفة أراقب كل ما يجري حولي . وقد كان هناك
الكثير مما يستحق المراقبة ، وإن لم يكن على مركبنا ، فعلى المراكب
الآخرى التي تحيط بنا . وكانت المراكب تأتي وتروح بمعدل أربعة أو
خمسة كل يوم ، حاملة شحنات من البضائع من عدن وسيحوت وساحل المهرة ،
فتفرغها ، وتحمل بدلا منها البضائع الأخرى لشحنها إلى الصومال واليمن
وإرتريا . وكانت معظم المراكب الراسية في الميناء ، شأنها في ذلك شأن
جميع المراكب العربية الأخرى التي رأيته في كل مكان آخر ، تنتظر في
المرسى لا تعمل شيئا ، بينما يكون ربانيتها على البر يحاولون أن يحصلوا
على أجرة شحن البضائع التي نقلوها ، أو يعملون على تأمين بضائع أخرى
لنقلها إلى أماكن أخرى . ولم يكن نصيبنا نحن من الانتظار قصيرا ، بل
كنت أحيانا أشعر بالتعب من طول الانتظار . ومع ذلك فقد كان مما يطمئنني
أننا لن نذهب إلى أي مكان دون أن نمكث فيه أسبوعا على الأقل ، وربما
شهورا ، وهذا يتيح لي فرصة مناسبة للتفرج على الموانئ التي نزررها ،
وجمع بعض المعلومات عنها .

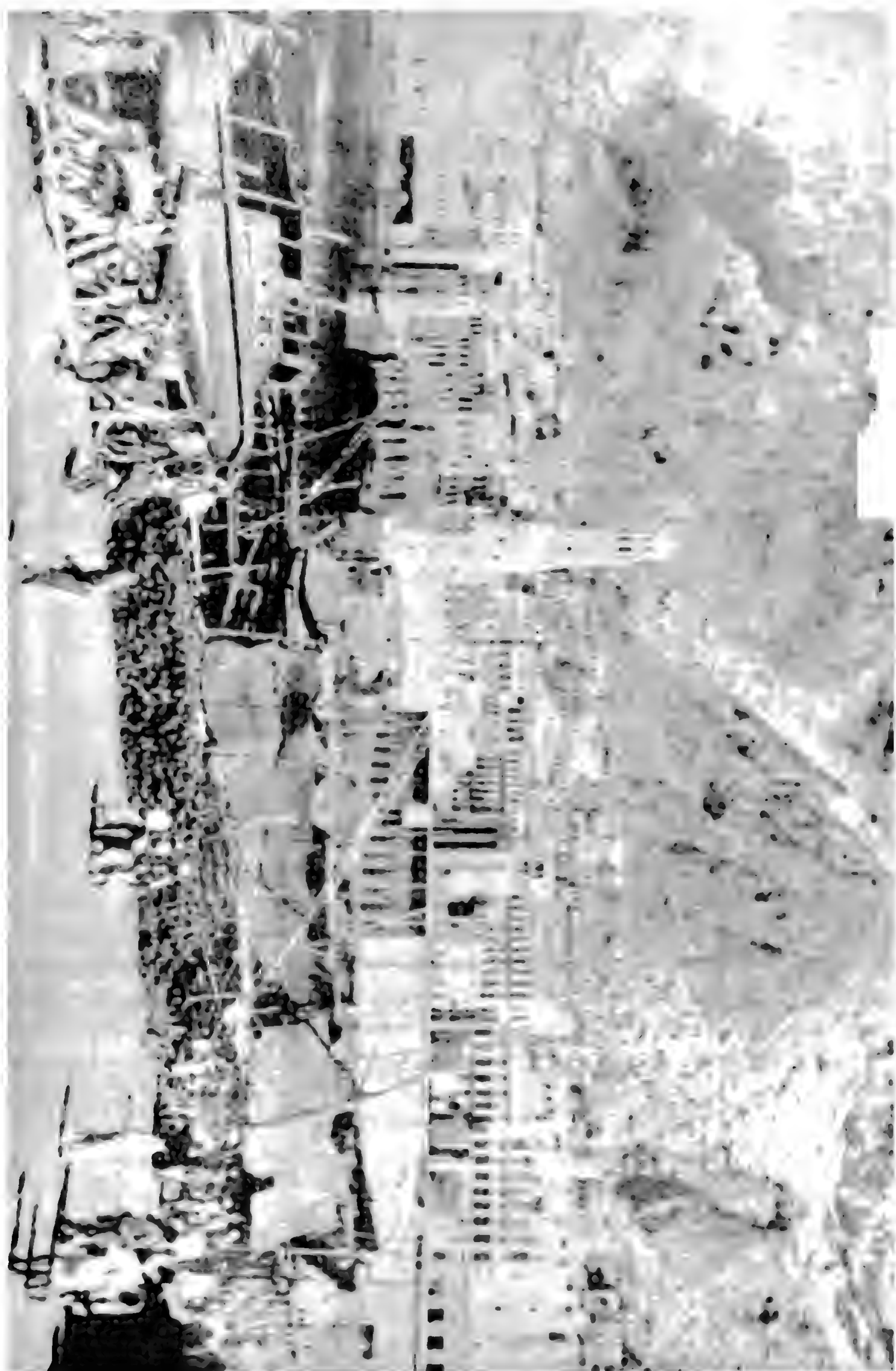
حل عيد الميلاد ومركبنا لا يزال راسيا في ميناء المكلا ، وفي اليوم
الذي قدرت أن تاريخه الخامس والعشرون من ديسمبر (كانون أول) ،
تمكنت أخيرا من النزول إلى الشاطئ . وقد نزلت في قارب صغير سريع
مع عبد الله ، الأخ الأصغر لنجدي ، والراكب سعيد الذي كان منطلقا في
مهمة غامضة ، والذي كان يبدو أكثر دهاء وخبثا من أي وقت مضى ، وتوقفنا
عند الفرضة الحجرية الصغيرة ، فترجلنا هناك . وسرعان ما اختفى سعيد
ولم استطع أن أعثر له على أثر ، وكان زميله عبد الله قد غادر المركب في
اليوم الأول لوصولنا بسرعة فائقة ، حتى أنني لم أراه عندما رحل . مشينا أنا
وشقيق نجدي ببطء على الطريق الذي يمر بحوض بناء السفن ، بأكوام
المكدسة من الأخشاب الصالحة لصنع باطن المركب ، الآتية من اليمن ،
وبالالواح الآتية من ملابار ، حيث شاهدنا مركبا جديدا من نوع
السنبوك يجري بناؤه تحت ستار من الحصار لحمايته من الشمس ، وكان
الطريق نفسه يؤدي إلى السوق الذي يكون في العادة أكثر أجزاء المدينة
العربية إثارة وامتعا . وكان عبد الله قد أخبرني أن سوق المكلا سوق جيد ،

وأنه كان في نيته البحث عن بعض البضائع التي يمكن أن تباع على ساحل بنادير(١) . الا اننا لم نستطع الوصول الى السوق ، لان ساقى خذلتني ، ولم استطع مواصلة السير ، مما اضطرنا الى الجلوس بعض الوقت في مقهى قريب من حوض بناء السفن ، نراقب المنظر من حولنا ، والناس يمرون من أمامنا ، ونحن نحتمي لبن الماعز الحار المطيب بحب الهال ، الذي كان مذاقه مستساغا .

كأن المنظر ممتعا بالفعل . فقد كانت شوارع المكلا تعج بالاغراب الرافدين من كل حدب وصوب ، الذين يرتدون ملابس شرقية زاهية من كل نوع ولون . فكان هناك التجار الهنود المتجولون بسر او يلهم الفضفاضة الشفافة وقبعاتهم الصغيرة السوداء ، واليمنيون بوزراتهم وعمائمهم الضخمة . كما كان باستطاعتنا أن نرى البدو يملأهم السوداء واجسادهم المطلية باللون البني ، وهم يسوقون جمالهم الضخمة ، تتهاذى حاملة الطيب والبضائع المختلفة ، والبحارة والربابنة الايرانيين ، والصوماليين ، والكويتيين ، والصيريين ، والباطنيين(٢) والاجناس الاخرى من الناس المهجنين الذين تجري في عروقهم دماء من جميع انحاء الشرق ، فهم اما أنصاف ماليزيين ، أو أنصاف أتراك ، أو أنصاف افريقيين ، أو أنصاف مصريين ، أو أنصاف بلوشيين ، أو أنصاف بالينييين(٣) . فقد كان الحضرمي يسافر الى بلاد بعيدة ، ويتزوج من أي مكان ، ثم يعود معه بالذكور من ذريته الى وطنه ، ولذلك فان دماء الشرق الاقصى بأسره تنبض في عروق هؤلاء الناس الذين نراهم في شوارع المكلا . وقد كان أكثر هؤلاء وقفا على نفسي أولئك البدو الأقحاح ، ذوو الدماء العربية الصافية ، الذين كانوا دائما يسكرون بقامات منتصبة ، ورؤوس مرفوعة ، لا تعرف الخوف ، على الرغم من هزالهم وجوعهم وفقرهم ، ورؤوسهم مطلية بالزيت ، وأجسامهم نصف عارية . وكان كثير منهم يتمنطقون بالخنجر الحضرمي ، وبعضهم يحمل البنادق القديمة والطبنجات المختلفة ، الا أن هذه العادة كادت تنقرض الان ، ولم تعد شائعة كما كانت قبل أن يمرض البريطانيون الهدنة بين القبائل المتحاربة ، منذ فترة قصيرة .

جلسنا في المقهى مبتهجين ، ومن آن الى اخر كان عبد الله يطلب جمرات جديدة للنارجيلة التي كان يدخنها ، بينما كان الناس يمرون من

(١) على ساحل الصومال الشرقي (المترجم)
(٢) نسبة الى ساحل باطنة بجنوب عمان (المترجم)
(٣) نسبة الى جزيرة بالي الواقعة في ارجيل الملايو (المترجم)



امامنا ومن حولنا • فقد كان المقهى مكانا بدائيا مكشوقا معظمه في الشارع نفسه لا على جانبه • وكان يتألف من كوخ ذي جدران ثلاثة وسقف من الحصير ، تنتشر على أرضه الترابية مقاعد عديدة ، يجلس عليها أعراب من جميع الاعمار • وكان هؤلاء يجلسون في جماعات صغيرة ويتحدثون في أمور جدية ، فكان منظرهم رومانسيا وهم ينفثون دخان النارجيلة أو يرشفون الشاي الاسود من الاكواب الصغيرة ، ومن آن لآخر كان ربان كويتي أو فارسي يدخل المقهى الذي كان مخصصا للربابنة وحدهم • ومما يجدر ذكره هنا أن المقاهي في المرافئ العربية كانت موزعة توزيعا دقيقا ، كل منها لفئة معينة من الناس ، فقد كانت أندية وأمكنة للتجمع والمقايسات حيث تتم معظم المعاملات التجارية • وقد قيض لي أن أرى عددا كبيرا من هذه المؤسسات المثيرة للاهتمام قبل انتهاء رحلتى على المركب « فتح الخير »

وكنت على وشك الانتهاء من احتساء الكوب الثالث من حليب الماعز المعطر عندما دخل مستر انجرامز ، المستشار البريطاني المقيم في حضرموت وسألني لماذا لم أزرهم في دارهم حتى ذلك الوقت • ولم يضع كثيرا من الوقت ، بل أخذني معه في السيارة بدون تأخير • لقد كنت أظن أن اليوم كان يوم عيد الميلاد ، وهو يوم عطلة يتصرف فيه الانسان على هواه • ولذلك لم يكن في نيتي أن أتطفل على أسرة انجرامز في مثل ذلك اليوم • كما أنها كانت المرة الاولى التي أستطيع أن أنزل فيها الى الشاطئ وأسير على قدمي ، ولذلك لم أرغب في الذهاب اليهم وأنا أعرج ، عاجز ، لا حول لي ولا قوة • ولكنني كنت سعيدا جدا عندما قاموا هم باصطحابي معهم • وقد اكتشفت أن اليوم لم يكن يوم عيد الميلاد بل اليوم السابق له • وأني قد أخطأت يوما واحدا في حسابي •

لم تمض ساعة من الزمن ، حتى كنت قد استقررت في دار المستشار ، وهي بناء أبيض جميل كان فيما مضى ملكا لأحد أغنياء العرب ، وقد مكثت هناك بضعة أيام ، وكان المقام طيبا ، وكنت سعيدا بأن أحصل على وجبة طعام جيدة • وكنت أسكن في غرفة تخص إحدى زوجات المالك السابق • وكنت أستطيع من هناك أن ألقى نظرة على الحديقة التي كان يتدرب فيها أفراد الشرطة الجدد صباحا ، ثم أمد بصري الى قصر السلطان حيث كانت الفرق الموسيقية تصدح بالموسيقى • كما كانت الاصوات الصادرة عن الميناء تصلني من خلال النافذة المفتوحة ، وكنت أستطيع سماع أهاريج البحارة وهم يقودون القوارب الطويلة الى حيث المام العذب • بل كان باستطاعتي أن أراقبهم وهم يملأون قربهم بالماء ، تلك القرب السوداء ، المبتلة ، التي تهتز

→ المكلا : حضرموت

كانها حيوانات غريبة حية ولكن بلا رؤوس ، كما كنت أرقب بوابة المكلا الغربية التي كانت أمواج الناس الداخلة اليها والخارجة منها لا تنقطع أبدا .

في ذلك الوقت ، كان مستر انجرامز يقوم بتنفيذ مشروع شامل للطرق لأول مرة في تاريخ حضرموت ، فكان يبني طرق السيارات المعبدة الى « شبام » والى الاماكن الهامة الاخرى في البلاد . ولكن هذا المشروع لم يعجب الجميع . فهو ، مثلا ، لم يعجب البدو الذين كانوا يعيشون على نقل البضائع على ظهور جمالهم ، كما لم يعجب تلك القبائل التي كانت الطرق تمر في اراضيها . فكان البدو ، الذين كانوا متمودين على القيام بعمل ما ضد ما لا يعجبهم ، يخربون تلك الطرق المفتوحة حديثا . وفي مثل هذه المناسبات ، كان مستر انجرامز يتصرف بحكمة وتعقل ، فبدلا من أن يرسل حملات تأديبية ضد أولئك البدو ، كان يذهب اليهم بنفسه ، ويقابل الساخطين منهم ، ويحادثهم وسرعان ما يتم توظيفهم في الشرطة المحلية الموكل بها حماية الطرق . وهؤلاء هم المخلوقات الوحشية الشكل التي كنت أراها تتدرب في ساحة دار المستشارية .

ذهبت مع مستر انجرامز وأسرته في جولة على امتداد الشاطئ الواسع

المكلا : البوابة الغربية





المكلا : دار المعتمد البريطاني

الى الغرب من مدينة « المكلا » . ورأيت الجمال وهي تتهاذى على امتداد ذلك الشاطئ برزانتها وهدوئها ، والحمير ترزح تحت أحمالها الثقيلة . وكان موقف الجمال بقرب البوابة الغربية مزدحما مملوءا بالحياة والحركة دون انقطاع . فالى هنا تأتي الجمال من داخل البلاد تحمل أثقالها ، وهنا تبرك وتنتظر الحمولة الجديدة . وكثيرا ما كان البدو يأتون ويتكلمون معنا ونحن نقوم بتلك الجولات ، كما كنا كثيرا ما نرى النساء وهن يعنين بالغنم والماشية ويجمعن الحطب للوقود . وعلى الرغم من أنني لم أر الكثير من حضرموت ، فقد كان جل اهتمامي منصبا على المراكب ، فقد لاحظت أن معظم حضرموت تتمتع بجمال طبيعي أخاذ . وفي أحد الايام سرنا في الشارع الجديد الذي يقطع التلال الحجرية ، وراقبنا الشمس ، وهي تغيب وراء تلك التلال المتصلة التي لم تمسسها يد البشر ، وكأنها قرص من الجمال الاحمر ، يغمق لونه تدريجيا ، ثم يختفي خلفا وراءه الظلمة تكسو المنظر كله . ولكن سرعان ما تظهر النجوم في السماء ، فيسبغ نورها على الليل هدوءا ، وعلى المناظر القاسية شيئا من الرقة والسكينة . وكان البدو ، الذين يمرون بنا وهم يسوقون جمالهم ، يهزجون بتلك الاغاني الجميلة المتناهية في القدم ، بينما كانت أمواج البحر تتدحرج واحدة بعد الاخرى

الى داخل « خليج المكلا » ، وكأنها تترنم باحدى أغاني الاطفال الرقيقة التي يحب الاطفال سماعها قبل النوم (١) .

تمشيينا في احدى الامسيات مع السلطان في قصره ، فى حجرة يسمع منها صوت البحر . وكانت طريقة الخدمة ، والملابس ، والاطباق كلها اوروبية اكثر منها عربية ، بل ان السلطان نفسه كان اقرب الى الهنود منه الى العرب . وكان في العقد الخامس من العمر ، ولكنه كان يبدو متعبا ، مما يجعله يبدو اكبر سنا مما هو فعلا . وقد جلس على كرسي اوروبي على رأس مائدة كبيرة ، مرتديا طربوشا ومعطفا هنديا طويلا ملتصقا بجسمه ، وجلسنا نحن أيضا وقد أكلنا وأكلنا كما لم نأكل من قبل . وكان ابن السلطان ، ولي عهد سلطنة حضرموت ، يجلس سعيديا على الطرف الآخر من المائدة وهو يبتسم ، لأنه كان في ذلك اليوم قد تزوج ثانية من احدى زوجاته الأثيرات ، التي كان قد اضطر قبل مدة الى تطليقها لأسباب سياسية . أما الآن فيبدو أن تلك الأسباب ، كائنة ما كانت ، لم تعد قائمة ، ولذلك فإن الأمير لم يضع وقتا ، على ما يبدو ، في إعادة زوجته اليه .

وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، أتى شقيق نجدي الى دار المستشار ، ليعلمني بأن اليوم أصبح مستعدا للسفر ، وربما أطلع عند الفجر ، وليسألني اذا كنت راغبا في السفر على المركب ، أم أنني أفضل ركوب الجمل ومصاحبة نجدي في سفرته الى ميناء « شحر » . وقد أجبتة بأني أكره الجمال كرها حما ، لأن لها رائحة كريهة ، كما أصاب عند ركوبها بدوار كدوار البحر . ولذلك فقد رافقت عبد الله الى المركب بعد أن أمضيت مع اسرة انجرامز أياما سعيدة ، شكرت لهم أن أتاحوا لي فرصة قضائها معهم . وغادرت المكلا بعد أن قرئت ساقلي ، واشتد عودي وتحسنت صحتي وتزودت بالزاد الكافي لكي يمنع عني مرض الأسقربوط لسته أشهر قادمة .

صعدت الى ظهر السفينة عند منتصف الليل فوجدت المؤخرة والسطح الرئيسي مزدحمين بالركاب ازدحاما هائلا لدرجة تكاد لا تترك موطئا لقدم . وقد كان هناك اشباح سوداء لرجال يرتدون الجلابيب والعمائم ويتحدثون همسا . وأينما توجهت كنت أرى أشكالا آدمية متمسدة على الحصير ومستغرقة في النوم . لقد غير مجيء هؤلاء القوم وجه المركب تغييرا كليا ، فقد أصبح يعج بالحياة لدرجة لم أعرف معها أين يمكنني أن أنام . الا أنني

(١) ينصح القارئ الذى له اهتمام خاص بحضرموت بمراجعة كتاب فرييا ستارك : « الابواب الجنوبية للجزيرة العربية » حيث يجد وصفا ممتعا شاملا لتلك البلاد (المؤلف)

وجدت أن مكاني على السدة نفسه ما زال محفوظا لي ، وأن صندوق أمتعتي كان تحته • وهناك استلقيت لأنام بضع ساعات ، وأكون جاهزا لأرقب اقلاع المركب في الصباح • وقد همس عبد الله في اذني ، بأن عددا قليلا من الركاب قد صعدوا على ظهر المركب • وقد سألت باستغراب : « عدد قليل ؟ يبدو أنهم يزيدون عن المائة » ، فأجاب : « نعم عدد قليل ، فلم يمكن الحصول على أكثر من ذلك ، لأن التقارير الواردة عن الركود الاقتصادي على ساحل بنادير وفي زنجبار وكينيا جعلت الكثيرين يلزمون بيوتهم بدلا من السفر • ولكن هذا لا يهم ، فان نجدي سيسبقهم الى بلدة « شحر » الواقعة على الساحل الى الشرق من المكلا ، حيث يأمل أن يحصل على مزيد من الركاب » • وعندما استغربت ذلك ، وسألت ان كان هناك مكان للمزيد ، لم يجب عبدالله ، بل ارتسمت على شفتيه ابتسامة • وقد اضطرت أن أسير فوق ستة من البدو ، وواحد من الأشراف ، وشيخ حضرمي آخر ، قبل أن أصل الى المكان الذي أنام فيه ، كما أنني لم أتمكن من الوصول الى صندوق أمتعتي بسبب ذلك العدد الهائل المتكوم حوله • ومع ذلك فاننا على ما يبدو ، لم نكن قد حملنا الا الشحنة الاولى من الركاب •

لقد بدأت أتساءل عن هذه الرحلة الى أفريقيا • صحيح أن المسافة ليست بعيدة ، من الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، عبر خليج عدن ، ثم جنوبا مع الرياح الموسمية الى موقاديشو في الصومال ، فقد أخبرني عبد الله بأن المراكب الكويتية كانت تقطع المسافة من المكلا الى زنجبار في أقل من ثمانية أيام • ولكن لا يبدو ، كما تبين لي ، أننا ذاهبون مباشرة الى موقاديشو أو ممباسا أو زنجبار ، بل مسافرون في رحلة تجارية ، والله وحده يعلم متى يمكن أن نتخلص من هؤلاء الركاب • كان كثيرون منهم يشخرون أثناء نومهم ، كما كانوا يحتلون هم وأمتعتهم معظم سطح المركب ، بل أنني استطعت أن أرى ، على ضوء القمر الساطع ، أن كمية الأمتعة على المركب قد بلغت حدا كبيرا ، حتى أن بعضها كان مربوطا بالأفاريز من الخارج • ولا بد أننا قد أخذنا معنا أحد التجار المعروفين ، فقد كان مربوطا على الجزء الأيسر من المؤخرة ، أمام صندوق المرحاض

لقد اضطررت للسكوت مؤقتا عن السؤال عن هذا الموضوع • ولكنني
اكتشفت ذلك السر في وقت لاحق •

كان اقلاعنا من المكلا مع أول خيوط الفجر ، قبل أن تشرق الشمس ،
«وخرجنا من الخليج بمساعدة ريح خفيفة مؤاتية ، وبصحبة البغلة الفارسية
والبوم الصغير الذي كان يملكه عبد الله القطامي • وكان موقفنا على
المرسى في مكان مزدحم ، تحيط بنا المراكب من جميع الاتجاهات ، فيما عدا
الجهة الامامية ، حيث كان هناك طريق ضيق محصور بين الحاجز الصخري
من جهة والقارب الصغير الذي كان المصباح الاعصاري فيه مشتتلا ليدل على
موقع الميناء ، الذي لم يكن فيه أي نور آخر • وكنت مهتما بأن أرى كيف
سيتمكن حمد بن سالم من اخراج المركب من مكانه المزدحم ، الا أنه قام بتلك
العملية بكل سهولة • فكان أول شيء فعله ، كما هي العادة في المراسي ، أنه
رفع الشراع الرئيسي على عارضته بخطوات سريعة خفيفة ، بحيث أن جذبة
خفيفة يمكنها أن تنزل الشراع كله مفتوحا وخفاقا في مهب الريح • ثم
رفع المرساة الرئيسية ، وفي نفس الوقت رمى حبلا لسنبوك واقف خلفنا
بغربي المركب مربوطا بمرساة واحدة • وبعد قليل هبت نسمة من الهواء لا تكاد
تحرك سطح الماء في الخليج ، وما أن وصلت النسمة اليها حتى أصدر حمد
أمرا بصوت عال ، وفي الحال أسقط الشراع ، فامتلا بالهواء ، وتخلصنا من
المرساة ، وأفلت السنبوك الحبل ، فانطلق مركبنا منسابا بهدوء في طريقه
على سطح الماء • وعندما نظرت الى الخلف ، حيث كنا نقف بين المركب
الهندي والبغلة العمانية ، وجدت أن المساحة التي كنا نحتلها هناك كانت
صغيرة جدا لدرجة جعلتني لا أستطيع التعرف على المكان الذي كنا فيه قبل
لحظات •

لا شك أن حمداً بحسب اعتقادي ، قد تدبر الامر بشكل رائع ، وأن
البحارة كانوا يؤدون مهامهم تأدية تامة • ولم تكن العملية سهلة بوجود
جمهور من البدو على سطح المركب وجماعة أبناء السندباد على المؤخرة •
الا أنني لاحظت ان البحارة لم يكونوا يعيرون هؤلاء جميعا أي انتباه ، عندما
كان الأمر يتعلق بالعمليات الملاحية ، بل كانوا يطرحون أرضا أي انسان
يعترض سبيلهم ، ولذلك فقد تعلم الركاب بسرعة كيف يهربون الى الجانب
الأخر من سطح المركب ، عندما كان البحارة يندفعون نحوهم وهم يهزجون ،
فلم يكن هؤلاء البحارة يقومون بأي عمل من أعمالهم بهدوء دون غناء ، بل
كانوا يندفعون الى العمل ، وهم يغنون بحماس ، ويجاهدون الى أن يتموا
ذلك العمل • وقد كان هذا هو أسلوب نجدي في العمل • وكان البحارة
يمارسونه حتى في أثناء غيابه عن المركب •

وهكذا أقلعنا من خليج المكلا في ذلك الصباح البهيج ، وكانت الشمس تشرق على البلدة فتضفي عليها جمالا وروعة . وقد هدأت الامور على ظهر المركب فيما بعد وكان باستطاعتنا أن نرى المكلا طيلة النهار . لقد كان من الصعب مغادرة ذلك المكان ، وقد لاحظت أن البدو كانوا يودعونه بنظرات حزينة ، وكان بعض هؤلاء يعزفون ألحانا حزينة على مزاميرهم ، بينما كان البعض الآخر يشعر بدوار البحر ، على الرغم من انعدام الموج تقريبا . وكان غير هؤلاء وأولئك يتدافعون على سطح المركب ، يجمعون أمتعتهم القليلة ، ويخرجون منها أواني الطبخ ، فقد كان هؤلاء يجلبون طعامهم معهم . أما التجار المسافرون على المؤخرة ، فكانوا يتناولون طعامهم مع البحارة . وكان بعض التجار خشنين صلاب العود ، بينما كان بعض البدو أصلب منهم . عودا ، وأشد بأسا . ولم تكن عصبة الركاب كلها من النوع الذي يسر ، بل أن انطباعاتي الاولى عنهم كانت سيئة . وقد أخذت اتساءل أكثر عن تلك الرحلة الى افريقيا ، وعندما استفسرت من حمد عن المدة التي سيقضيها هؤلاء القوم على ظهر المركب ، أجاب بأنهم لن يبقوا ، بمشيئة الله ، على المركب أكثر من عشرة أيام ، فقد كان معظمهم مسافرين الى مقاديشو ليعملوا مع الايطاليين هناك وفي داخل الصومال . وقد تساءلت عما اذا كان لديهم جوازات سفر ، أو تصاريح من القنصل الايطالي ، أو ما شابه ذلك . فأجاب حمد بأن ليس لديهم شيء من ذلك على الاطلاق ، فقد كانت عملية انتقال الناس من الجزيرة العربية الى الساحل الافريقي مستمرة منذ فجر التاريخ ، ولم يستطع حتى الاوربيون الحمقى ايقافها . وقد فهمت أن بعض التجار كانوا يحملون أوراقا تثبت هوياتهم ، كما انه كان من المفروض ان تكون لدى المركب قائمة بأسماء الركاب . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن اذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أنهم قد ألقوا بتلك القائمة في عرض البحر ، لأنني لم أتمكن من رؤيتها قط ، كما أنني أعلم بأنها لم تكن على ظهر المركب ، عندما وصلنا الى « حيفون » ، وهو أول ميناء صومالي توقفنا فيه .

كانت الريح ساكنة طوال ذلك اليوم ، ولم نحز تقديما كبيرا ، ولكن المسافة من المكلا الى « شحر » قصيرة ، وقد وصلنا الى ذلك الميناء السبئي في صباح اليوم التالي ، والبغلة أمامنا تنساب برشاقة وجمال ، وبوم القطامي خلفنا . وقد استغرقت الرحلة بين الميناءين أربعين ساعة . وفي ميناء « شحر » ، وجدنا أنفسنا بين تسعة مراكب أخرى راسية هناك : سبعة منها كويتية ، واثنان فارسيان ، وكانت جميعها مسافرة الى زنجبار . ولم يكن الميناء في « شحر » سوى مرفأ مفتوح معرض لتيارات الهواء ، تهتز المراكب داخله أكثر من اهتزازها في عرض البحر . ولذلك فقد أصيب البدو الذين على مركبنا بدوار البحر ، وأصبح السطح الرئيسي كأنه مستشفى للمجانين .

كان الرسو على الشاطئ « شحر » صعبا وخطرا . فقد كان الموج عاليا ، ولم نستطع الاستفادة من القارب الطويل . وقد عمل مدير الدفة على ارسائها خارج نطاق الموج الساحلي ، وكان على البحارة أن يرفعوا أطراف دشايشهم على اكتافهم . ويخوضوا الماء المرتفع ليصلوا الى الشاطئ . وقد حملني زيد ، العبد الكويتي المحرر ، على ظهره الضخم — ولا أنسى أن أذكر أن زيدا هذا كان ظييا جدا معي في اثناء مرضي وفقدان بصري — . ولكننا قبل أن نصل الى البر بسلام ، هجمت علينا موجة عاتية فطرحت زيدا أرضا ، وألقت بي معه أيضا . وقد أصيبت ركبتني من جراء هذا الحادث ونهضت ، أسب وأشتم ، وأنا مبتل حتى العظم . فقد شتمت ملكة سباً لاختيارها ذلك المكان لتقام عليه مدينة « شحر » (هذا اذا كان ذلك صحيحا ، فانا أشك في الامر) . وكان جريد قد أخبرني بأن الملكة الاسطورية قد بنت أسطولها الحربي في هذا الميناء ، لكي تقوم بمحاربة بعض الاعداء ، ولكنني أشك في ذلك أيضا . اما الآن والألم ينبض في ركبتني ، فقد تذكرت فقط أن ملكة سباً لم تكن الا امرأة ، وأن سخفها هو الذي جعلها تختار هذا المكان السخيف لتبني فيه سفنها ، حيث لا يتوافر الخشب لبنائها ، ولا المكان المناسب لتدشينها وانزالها الى البحر بعد الفراغ من بنائها . فلم تكن مدينة شحر ، في نظري سوى قطعة مسورة من الرمل تواجه بحر العرب ، وكنت اتساءل ان كان هناك أي سبب أو عذر لوجودها أصلا . وكانت تمتد مسافة ميل تقريبا على الشاطئ ، ولكن لم يكن في أي جزء منها مكان مناسب للرسو والنزول الى البر . وكانت المدينة نفسها حقيرة فقيرة ، شوارعها غير معبدة ، وكثير من أبنيتها اما آيلة للسقوط أو غير مكتملة البناء . ولم يكن فيها من البناء ما هو في حالة جيدة سوى قصر السلطان المؤلف من بناء أبيض ضخم ، والصور المحصن الذي يحيط بها . أما سوقها ، فقد كان صغيرا ، ليس فيه ما يستحق الشراء .

وكان صيد السمك ، هلى ما يبدو ، المهنة الوحيدة الشائعة هناك . وقد لاحظت أن الصيادين كانوا لا يزالون يستخدمون القوارب القديمة ذاتها ، التي كانت تواجهها تخاطر بعضها مع بعض بخيوط من الألياف ، ولا يستعمل فيها أي شيء آخر لتثبيتها معا . وكان بعضها صغير الحجم ، بينما كان البعض الآخر الذي يستعمل في نقل البضائع من السفن ، أكثر حجما ، وكان للقوارب الصغيرة أشربة ، بينما كانت المجاذيف تستعمل في الكبيرة . وكانت تلك القوارب الجميلة الشكل مقدماتها شبيهة بمؤخراتها ، وانحناءاتها لطيفة ، كما كانت مزخرفة بخطوط بيضاء وشكل هندسي أسود وآخر أخضر على المقدمة والمؤخرة . وكان بعضها يوجه بمجاذيف قصيرة والبعض الآخر بواسطة السيكان ، الذي كان يوازن بحيث يبقى كله تحت سطح الماء

باستمرار ، ويحرك عن طريق قطعة من الحبل تتصل بأصبع قائد الدفة ، فإذا أراد هذا تغيير اتجاه القارب كان عليه فقط أن يحرك قدمه حركة خفيفة .
وقد كانت القوارب الصغيرة التي يستخدمها الصيادون تستخدم شراعا مربعا واحدا ، وكانت تناسب بيسر ولطف إذا توفرت أقل نسمة من الهواء . وكان السمك اللذيذ الممتاز متوافرا بكميات هائلة على ذلك الساحل ، فقد كان الصيادون طوال النهار منهمكين في انزال صيدهم السمين الى الشاطئ ، كما كان السمك رخيصا جدا ، فلم يكن ثمن حمولة قارب كاملة يزيد عن دريهمات قليلة . وكانت عملية تجفيف السمك الصغير لاستخدامه علفا للجمال تجرى في كل مكان تقريبا على طول الشاطئ . ولم ألاحظ وصول أي شيء الى ذلك المكان سوى السمك والتمور ، وقد شاهدت احد المراكب الفارسية وهو ينزل حمولته من التمر في المرسى . ولم يكن في شجر سوى سوق فقيرة ، وعدد من المساجد البسيطة ، وبعض الابنية الآيلة للسقوط ، وقصر السلطان وجمال وحمير وماز ودجاج ، وبعض صغار التجار ، وعدد قليل جدا من الجنود ، وعدد من البدو ، ومقهى واحد أو اثنين وكثير من السمك . وكان هذا كل ما فيها . وفيما عدا بعض الابنية الحقيرة الشأن ، فقد كانت المدينة باقية على حالها ، كما خلقها الله ، وكنت أتساءل عما اذا كان فيها شيء يستحق أن يبني حوله ذلك السور الكبير . وقد مللت النظر الى المدينة بسرعة وقفلت عائدا الى المركب .

طال بنا المقام في « شحر » ، يوم يروح ويوم يأتي ، ولم نر أثرا لنجدي . ولم يكن شيء يجري على ظهر المركب سوى أن البدو جعلوا منه مستشفى للمجانين . ولم تحمل أو تنزل أية بضاعة . ولا بد أن نجدي كان قد وصل من رحلته على ظهر الجمال . الا أننا علمنا أنه يبحث عن مزيد من الركاب الذين لم أدر أين سنضعهم ، فقد كان لدينا حتى الان ما يزيد عن الخمسين . مع أن بعضهم ، على ما يبدو ، كانوا سيفادرون المركب في ميناء « شحر » بعد أن يقوموا بتوديع أبناء عشيرتهم .

وفي اليوم الثالث ، عند مطلع الفجر ، برز جندي ضخم ، أتيا في واحد من تلك القوارب التي ذكرتها آنفا ، وأخذ يسأل عني . يا ستار ! ماذا في الأمر هذه المرة ؟ خير ! فقد كان « النائب » يطلب مني أن أصحبه الى قصره . ولم أستطع . إن أفهم وظيفة النائب على وجه التحديد ، سوى أنه كان يعيش في القصر . وأنه كان أشبه ما يكون برئيس بلدية المدينة . فقد كانوا جميعا متشابهين : السلاطين والأمراء والنواب والشيوخ ، وان اختلفت الألقاب . وعلى أية حال ، فإن عليك ، اذا دعاك النائب ، أن تلبى الدعوة . وقد كنت سعيدا ومستعدا للذهاب على الرغم من أن ساقى كانت

تؤلني ألما شديدا عندما أقوم بأية حركة ، فقد كانت الضجة والفوضى قد ضربت أطنابها على ظهر المركب ، وكان بعض الركاب من الحضارمة قد بدأوا يتشاجرون باستمرار . ولذلك فقد كانت فكرة قضاء يوم مع النائب في قصره الأبيض المنيف فكرة حسنة ، فلم أتردد ، بل رافقت الجندي ، على أن أعود في مساء اليوم ذاته . ولكن أسبوعا كاملا انقضى قبل أن أعود بالفعل . .

كان النائب نفسه ينتظرني على الشاطئ في سيارة عتيقة ، امتطيناها متجهين الى القصر . وكان نائب مدينة شحر هذا رجلا قصيرا نحىلا ذا لحية حمراء بلون النار ، كما كان رجلا لطيفا ، حسن المعشر ، لبقا ومهذبا جدا ، يرتدى ملابس زاهية الألوان تتألف من عمامة ذات لون أخضر فاقع ، ووزرة مخططة باللونين الأخضر والأحمر ، فوقها سترة قديمة ، وحول وسطه كان يرتدي زنارا سميكاً من القماش يتدلى منه خنجر ذو مقبض عاجي وجراب فضي . وكان المقبض العاجي مطعما بالذهب ، وكان يرتدى نعلين بسيطين من الجلد الملون ، ويمضغ باستمرار شيئا يشبه السعوط . وعلى الرغم من أنني لم أستطع التحادث معه (فقد كانت المفردات الفعلية التي أعرفها من العربية تتعلق بالملاحة ومأخوذة من البحارة أنفسهم) ، إلا أن الأمور سارت بيننا على مايرام . فقد جعلني أشعر بالراحة في قصره الذي كان يتألف من بناء كبير جميل ، يشرف على المدينة وعلى البحر ، وعلى بعض الآثار الجميلة التي كانت قائمة في الفناء . ومنذ أن وصلت الى القصر لم أبرحه إلا فترات قصيرة جدا . وكان دخولنا القصر من بوابة ، اصطف على جانبها بعض الجنود البدو في جلسة مريحة وبنادقهم بجانبهم ، كما كانت هناك بعض البنادق الأخرى والسيوف الكبيرة معلقة على الجدران . وكان بعض أهل المدينة يجلسون القرفصاء خارج البوابة ، وقد وقف هؤلاء لتحيتنا عند دخولنا . ثم صعدنا عددا كبيرا من الأدراج حتى وصلنا الى الغرفة المخصصة لي . وكانت غرفة مؤثثة بأريكة ، وعدد من الكراسي المريحة ، وطاولة ، وسرير كبير ، كما كانت الأرض مغطاة بالسجاد ، أما الجدران البيضاء فقد كانت عارية إلا من تقويم مصري — روزنامة — ، يرجع تاريخه الى ثلاث سنوات خلت .

كان الطعام ممتازا في القصر ، فقد كنا دائما نفطر دجاجا وعجة وبيضاً مقليا بالسمن ، وخبزا فطيرا مقليا بشيء لا يعلمه إلا الله ، ونشرب القهوة بدون حليب . وعند الظهر كنا نتناول غداء فاخرا يتألف عادة من خروف مسلوق ، وموز طازج وأناناس معلب مستورد من الملايو . وفي المساء كنا نتعشى السمك والأرز . وكان هذا النظام أكلنا اليومي الذي

لا يتغير ، سوى أننا كنا أحيانا ناكل السمك ظهرا ولحم الغنم مساء • وبعد كل وجبة ، كانت تحضّر للنائب العناصر التي تتألف منها المادة التي يمضغها ، وتجلب له • فكان يمزج أوراقا خضراء بنوع من الليمون الحامض وأشياء أخرى تتألف منها الخلطة ، ثم يبدأ بمضغها بصوت عال وبانتظام مدة من الزمن ، ومن آن لآخر يبصق بعض ما في فمه في مبصقة موضوعة على الطاولة • وفي أوقات العصر كنا نتجول قليلا حول المدينة وخارجها ، فنصل الى واحة يقوم فيها ثور صغير يسحب الماء من ساقية في دلو من الجلد • وفي إحدى المرات ، زرنا مضربا لخيام البدو حيث يكثّر الاطفال الصغار والكلاب النابحة • وكان هذا يستغرق عشر دقائق على الأكثر • وقد رأيت كل ما يستحق الرؤية في شحر في تلك الجولات • أما بقية اليوم فقد كنت أقضيه في قصر النائب أتفرج على العالم الخارجى • ولكنى سرهانا ما بدأت أشك - على الرغم من لطف النائب العجوز وحسن وفادته - بأن حالى هذا فى الداخل أسوأ من بقائى فى الخارج انظر الى مافى الداخل • ولكن مادمت ضيف النائب ، فلم يكن باستطاعتى أن أرحل •

لقد افتقدت المركب ، وافتقدت العجوز يوسف الشيرازى ، وزيدا العبد المعتقد وعبدالله ، شقيق نجدى ، والشيخ الصامت حمدا بن سالم وجاسما الطباخ الصغير الحزين • لقد افتقدت هؤلاء • وبقية الملاحين • فقد تعودت عليهم وأصبحت أحبهم ، وكنت أود أن أعرف ما الذى كان يجرى على ظهر المركب فى غيابى ، بل ربما تيسر لى أن أعرف سر القمصرة الكبيرة ، لو كنت بقيت هناك • لقد شعرت بالملل فى القصر ، فلم يكن هناك شيء أقرأه • كما أنى لم أحضر معى شيئا ، لأنى لم أكن أتوقع أن أمكث طويلا هناك • وحتى فى المركب لم يكن معى كتب كثيرة ، فلم أشأ أن أحمل معى ما يشئت انتباهى ويبعدنى عن المراقبة الممتعة لكل مايجرى هناك • ولذلك لم يكن معى سوى خمسة كتب ، واحد منها فقط ديوان شعر ، أما الأربعة الأخرى فكانت جميعها تتعلق بالجزيرة العربية •

فى اليوم الرابع أو الخامس ، أى بعد وصولنا الى شحر بعشرة أيام تقريبا - اذ لم أكن متأكدا من التواريخ ، ولم يكن أحد غيرى يهتم بها أيضا - اتى عبد الله الى القصر ليعلمنى بأن نجدى قادم تلك الليلة ، وأن المركب سيقطع قبل مطلع الصبح • وقد أضاف أن من المحتمل أن يعرج المركب على مرفأ أو مرفأين آخرين على ذلك الساحل قبل أن يقفل عائدا باتجاه أفريقيا ، وذكر أسماء مدن الحامى ، وسيحوت • غادرنا القصر فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وركبنا سيارة النائب القديمة : النائب وعبد الله وأنا متجهين صوب الشاطيء • وقد أحببت النائب العجوز مع أنى لم أتبادل كلمة

أطفال رضع يصرخون وأطفال أكبر منهم يتصايحون ، وجميعهم من البدو الذين كانوا ينظرون الى فوق بغباء وبلاهة وهم متلفسون بأسمالهم السوداء .

في ذلك الوقت ، وقد غربت الشمس ، وفي نور الشفق الذي لا يدوم طويلا ، والبحارة يؤدون صلاتهم بين الفوضى الضاربة أطنابها على مؤخرة المركب ، كانت عملية تحميل الركاب تسير على قدم وساق ، وقد استمر ذلك فترة طويلة خلال الليل . وكان النور الضعيف المنبعث من المصباح الاعصاري يولد ظلالا غريبة ، وهو يشع على ذلك الجيش الجرار من البدو الرحل ، وهم يتسلقون جانبي المركب ويلقون بأنفسهم على ظهره . ولم يكن هناك حتى سلم من الجبال متدل من جانب المركب ليساعدهم على التسلق ، كما لم يكن هناك من يعدم أو يدقق في هوياتهم . فكان كل منهم يحاول التسلق من على جانب المركب بأفضل طريقة يعرفها ، وقبل أن يصل الى السطح ، يقذف بامتعة - ان كان لديه شيء منها - ثم يجلس حيث يجدها قد استقرت . وكانت هذه هي الطريقة التي يستخدمها كل منهم لتأمين مكان له . فعندما كان أحدهم يلقي بربطة امتعته على السطح ، كان من تكاد تسقط عليه تلك الأمتعة يبعد عنها ليتجنبها ، وبذلك يفسح مجالا لغيره لاحتلال مكانه . أما من لم تكن لديه أية أمتعة ، فلم يكن له مكان في المحاولة الاولى . وسرعان ما كان هناك صف طويل منهم يجلسون على العارضة الرئيسية ، الا أن حمدا وعبد الله طرداهم من هناك ، فقد كان على السطح ، في رأيهما متسع للجميع . وقد ملأوا الفراغ الموجود تحت طرف المؤخرة ، وتكوموا في المركب الجديد الذي كان البعار يبنيه ، بأن حشروا أنفسهم بين أضلاعه وبين حافة المركب وأصطفوا على الجزء الامامي من المؤخرة ، وكانوا يجلسون في كل مكان : على الرحوية ، وعلى رأس السلوقية ، وعلى صناديق البحارة . وكان أولئك الذين يتمتعون بخبرة سابقة ، يذهبون فورا ليحتلوا الفراغ الكائن تحت طرف المؤخرة ، على الجزء الامامي من الباب الخارجي للقمرة الكبيرة . أما أولئك الذين كانوا يقومون بالرحلة الاولى - وهؤلاء كانوا ، على ما يبدو ، يكونون الاغلبية العظمى - فقد كانوا يتجولون هنا وهناك كالغنم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم . وكان صندوق يتبع صندوقا الى مؤخرة المركب ، وبالة تلحق بها بالة ، وحزمة من الفراش تتلوها حزمة ، حتى أصبح هناك ستة صفوف من الصناديق على كل جانب تتكدس فوقها الصفائح والبالات والفراش . ولم أكن أتصور كيف يمكن بأي شكل من الاشكال التخلص من تلك الفوضى ! وقد استمر المد الهائل من البشر يصعدون ، موجة تلو الموجة ، الى ظهر المركب وكان الأمر لا نهاية له . وكان البشر من كل جنس ولسن ولون ومهنة . فقد كان بينهم الرجال المتقدمون في السن والمكفوفون والعرج ، ومن يلفسون

أطرافهم باللفائف ومن يرتدون الملابس البيضاء ، ومن يرتدون الملابس السوداء ، والاطفال والصبية والتجار كما كان بينهم سائقو الجمال وهم يحملون عصيهم ، وأحد الشرفاء مع حاشيته ، ورجال تبدو عليهم سيما التوحش والاستعداد لعمل أي شيء ، وآخرون تبدو عليهم الدماثة واللفظ . وكان بينهم البدناء ، كما كان بينهم النحيلون المعروقون . ولم يتوقف ذلك الموج العارم من البشر ، بل كانت موجة تتدفق على المركب ، تتلوها موجة ، حتى خشيت أن يغمروه بشكل كامل ، وأصبحت أشعر بالازدحام حتى على الأقدام الستة المخصصة لي على السدة أياها ، وأخذت أتساءل - ليس للمرة الأولى ولا الأخيرة - عما سيحدث في تلك الرحلة الغريبة التي ورطت نفسي فيها .

ولكن ما هذا ؟ لقد كان شيء غريب يحدث حتى في ذلك الجو غير العادي . فقد لاحظت أنهم كانوا يواصلون حمل رزم طويلة غريبة ملفوفة بالسواد ، وينقلونها واحدة بعد الأخرى ، بشيء من العناية ، إلى حيث تختفي في الحال في الظلام المخيم تحت المؤخرة ، وكان من الواضح أن تلك الرزم كانت تخزن في القمرة الكبيرة . وبعد الرزمة الخامسة أو السادسة ، ثار اهتمامي بالفعل ، فقد كانت إحدى تلك الرزم تتحرك ، فاستفسرت عن معنى ذلك من يوسف العجوز ، الذي كان يشتم ويجري هنا وهناك ، يحاول أن يحافظ على النظام ، ويفسح طريقا لتلك الرزم ، ويتأكد أنها تصل إلى مقرها بسلام . ولكن يوسف لم يسمعني . فكررت السؤال مستفسرا عن تلك الرزم التي كان يعمل على إيصالها إلى القمرة الكبيرة بتلك العناية الكبيرة ؟ فأجاب وهو يجري « بنات » . ماذا بحق السماء ! نساء ! لا بد أنهم قد نقلوا حوالي خمس عشرة من تلك الرزم . إذا هذا هو سر تنظيف القمرة من الأمتعة ! مسكينات هؤلاء الفتيات ! لقد كن ، كبقية الفتيات ، صغيرات الحجم ، فقد رأيت فيما بعد واحدة منهن تسقط من اللفة التي كانت فيها . وفي الحال هبت واقفة وجرت برشاقة وهي تمسك بالحجاب أمام عينيها ، إلى الباب الذي كان يؤدي إلى السجن . لقد كانت ذكرياتي عن ذلك المكان البغيض الذي أمضيت فيه أسبوعا حية ماثلة أمام عيني . لذلك فقد أصبت بصدمة كبيرة عند رؤيتي أولئك النسوة وهن يكدسن فيه . فكيف يمكن لخمس عشرة فتاة أو امرأة أن يبقين على قيد الحياة خلال الرحلة وهن محبوسات في ذلك الوكر القذر الكريه ! إذا هذا هو سر انشراح البدو وهم يأتون إلى ذلك الجحيم ويتفحصونه ويخرجون منه وهم يهممون بكلمة « طيب » ! فهو المكان المخصص لشحن نساءهم ! ولم أكن أفهم أبدا ما الذي كان طيبا أو حسنا في ذلك المكان ، سوى أنه مكان مناسب لعزل الجنسين عن بعضهما ، فلا يمكن ، حتى لأولئك البدو ، أن يعتبروا

«المكان سكنا جيدا • ولكن يبدو أن الذكور والاناث فى الجزيرة العربية يجب أن يفصلا عن بعضهما بأي ثمن ، حتى ولو مات بعضهم ثمنا لذلك ، وقد مات البعض منهن فعلا ، على ظهر « فتح الخير » قبل أن تأتي الرحلة الى نهايتها •

وقبل منتصف الليل بقليل ، وبعد أن تمكن آخر الركاب من الصعود الى ظهر المركب برزت فجأة فوق افريق المركب كوفية ، كان من الواضح أنها لا تخص أحدا من البدو • فقد كانت كوفية بيضاء موشاة بالذهب ، مثبتة على الرأس بعقال من الحرير الأسود • وكانت احدى ثنياتھا ملفوفة حول وجه لابسھا ، عندما تخطى الحاجز وصعد الى السطح ، ملقيا بعصاه ونعليه أمامه • ولكن حتى لو لم يظهر من ذلك الرجل سوى أنفه الأقرنى الكبير الذي يشبه أنف الصقر ، لعرف جميع البحارة أنه نجدي • اذا هاهو نجدي ، عائدا من رحلته الصحراوية التي قطعھا على ظهر البعير ، نجدي الذي استطاع سوق ذلك القطيع الهائل من البشر بأية وسيلة ، حسنة كانت أم سيئة ، من مكان لا يعلمه الا الله • ها هو يعود الى مركبه العظيم الآن ليقوده ، والجميع على ظهره ، الى بلاد لا يعلمھا الا الله •

وقد صعد الى ظهر المركب بهدوء ، وألقى نظرة على أسطحته المزدحمة ، ثم صعد الى المؤخرة وهو يمشي على ظهور الصناديق ، فلم يكن أمامه طريق غيرها • وقد أتى معه شيخ معطر معم يرتدي الملابس الحريرية ، مكث فترة متربعا على السدة الخلفية وهو يهمس في أذنه بحديث طويل • وأخيرا قام الرجل المعطر وألقى تحية الوداع قائلا « بأمان الله » بصوت خافت ، ثم غادرنا نازلا من جانب المركب الى القارب الذي كان قد أتى فيه • وبقي نجدي جالسا هناك على المؤخرة ، يرقب الطقس مركزا عينيه السوداوين وتفكيره على الريح والبحر • وكان يبدو متعبا ، وكأنه أت من سفرة بعيدة ، الا أنه كان متيقظا • لقد كان الشراع معدا للابحار من قبل • وكان كل شيء جاهزا للرحيل • وقبل الساعة الرابعة صباحا هبت نسمة خفيفة من الهوام ، ساعدتنا على الاقلاع ، فانساب المركب مظلما خلال الليل ، صامتا كأنه الشبح ، وصاريه الكبير واقف ، كأنه لا يسنده شيء ، في ذلك البحر الخضم من البشر النائمين على غير هدى في ظل الشراع • وكانت النساء في القمرة الكبيرة صامتات ، ولم تكن حركة واحدة تبدر من أحد • وعندما أنزل الشراع وامتأل بالهواء ، تحركت الدفة بهدوء ، ويدأنا الاقلاع على بركة الله •

الفصل الرابع

حمولة من البدو

حمولة من البدو

لم نذهب الى « حامي » كما لم نذهب الى « سيحوت » ، فقد كان نجدي قد جاب المنطقة كلها على ظهر بعيره حتى وصل الى سيحوت ، وقرر ان لا فائدة ترجى من زيارتنا لذينك المرفأين . ولا بد ان رحلة نجدي تلك على ظهر جملة كانت رحلة هائلة ، فسيحوت تبعد عن شحر اكثر من مائة ميل . ولم أستطع أن أقطع بأنه كان راضيا عن رحلته ، وغالب الظن أنه لم يكن ، فلم تكن علامات الرضا بادية عليه . الا أن الحكم على ذلك ليس سهلا ، فلم يكن يبدو على نجدي الرضا بأي شيء أو عن أي شيء . ولكنه كان يشكو من عدم توافر العدد الكافي من الركاب ، وأنه كان باستطاعة المركب أن يحمل مائة زيادة على ما فيه . في بادئ الامر لم أصدق ذلك ، ولكنني ، بعد أن رأيت الركاب يستقرون على ظهر المركب ، أقررت بأن ذلك ممكن ، فقد كان هناك متسع للمزيد فعلا . فالمسافر العربي يشغل حيزا صغيرا جدا ، ولا يطلب أكثر من مكان يلقي بنفسه فيه . وكان « فتوح الخير » مركبا كبيرا ، يبلغ عرضه ٢٩ قدما ، وطول سطحه الرئيسي من باب القمرة الكبيرة الى رأس السلوقية حوالي ٧٠ قدما . كما يبلغ اكبر عرض لسطح المؤخرة ٢٦ قدما بينما يبلغ طوله ٢٧ قدما . وهكذا كانت المساحة التي يمكن الاستفادة منها من السطح الرئيسي تبلغ حوالي (١٩٠٠) قدما مربعا ، كما تبلغ تلك المساحة على المؤخرة حوالي ٣٠٠ قدم مربع . فاذا قدرنا أن كل مسافر كان يحتاج الى حوالي اثني عشر قدما مربعا - أي ٦ أقدام × قدمين ، - وهي مساحة تزيد عن حاجة كل منهم ، فإن مساحة السطح كله يمكن أن تتسع لأكثر من (١٨٠) راكبا ، يضاف الى ذلك بضعة عشر راكبا يمكن ايواؤهم في القمرة الرئيسية . كما كان هناك القارب الطويل ، والمركب الذي يجري بناؤه ، ومساحة أخرى تحت رأس السلوقية في المقدمة - وهكذا يتبين أن باستطاعة المركب ، في حالة الضرورة ، أن يحمل عددا يصل الى (٢٥٠) راكبا عربيا . ولكن لو حصل ذلك ، لكرهت أن أكون من أولئك الركاب على ظهر المركب .

كان القارب الطويل والمركب الجديد يحتلان شيئا من الحيز المتوفر على السطح الرئيسي ، ولكن العرب كانوا ينامون تحتهما وحولهما وفيهما وفوقهما

— فلم يكونوا يتركون أي فراغ دون أن يستفيدوا منه — كما كانوا ينامون على الصناديق ، وعلى الرزم وعلى أي شيء آخر • وكان العربي ينام دائما على جنبه ، ولا يطلب حيزا يمكنه من الحركة لتغيير وضعه • ولم يكن أحد يحمل أمتعة بالمعنى الدقيق ، فيما عدا التجار بالاضافة الى شيخين كانا مسافرين الى مدينة « لامو » في كينيا ، سعيا وراء اكتساب الخبرة في الامور التجارية • أما البدو فقد كانت أمتعتهم تتألف من صندوق خشبي واحد لكل أربعين منهم ، بالاضافة الى بالة من روث الماشية المجفف لاستعماله وقودا لنار الطبخ •

لم استطع أن أكتشف أبدا العدد الصحيح للركاب في تلك المرحلة من الرحلة ، مع اني كنت أحاول كل يوم ان أحصيهم عددا • فقد كان هذا سرا من اسرار المركب ، مثله في ذلك مثل أي شيء آخر يتعلق به • فلم يكن العرب أبدا يتطوعون لاعطاء أية معلومات • ومع أن نجدي وحمدا ابن سالم كانا أحيانا يطلبان مني أن أدلهما على محتويات بعض أوراق المركب ، وأن أفحص وأترجم بعضها — وقد أصبح هذا يحدث في وقت لاحق ، عندما زادت معرفتي باللغة العربية — فاني لم أستطع أن أعرف شيئا بهذه الطريقة • كما اني لم أتمكن من معرفة أي شيء عن طريق السؤال • ولم يكن على المركب قائمة بالركاب القادمين من « شحر » ، كما أن الفرق بين احصاءاتي اليومية كان يصل الى عشرين • ولم أستطع بالطبع أن أعدد النساء والأطفال القابعين تحت المؤخرة ، فقد كان محظورا على أي كان أن يقترب من ذلك المكان ، فيما عدا العجوز يوسف الشيرازي • وقد لاحظت أن عبد الله الصوري ، وسعيدا ، وهما الراكبان اللذان رافقانا من عدن ، ما زالا معنا ، مع ان عبد الله كان قد اختفى في كل من المكلا ، وشحر • ويبدو أننا قد أركبنا معنا أيضا عددا آخر من أمثال عبد الله وسعيد ، كذلك الراكب الصوري الضخم المسمى « ماجد » — وكانوا يلفظون هذا الاسم « مايد » — ، وكانت المؤخرة ، تحت سدة الضباط من الناحية اليسرى ، مملوءة ببضائعهم • وقد أصبح لدينا الآن حوالي أربعين شخصا على المؤخرة وحدها ، وأصبح في تأدية الصلاة مشقة كبيرة ، فلم يكن هناك مكان يقوم فيه كل هذا الحشد الهائل بالركوع والسجود •

كان بين ركاب المكلا تاجر كفيف عجوز من مكان ما في داخل حضرموت ، حيث كان قد استقر به المقام ردحا من الزمن ، ولكنه كان مسافرا الآن ، وقد بلغ من العمر الخامسة والستين ، ليسوى أمور أخ له

النجدي يحصى المسافرين



متوف ومدفون فى مكان ما من الكونجو . لقد كان رجلا عجوزا مهيبا ذا وجه نحيف وسيم ، وكان معه خادم يقوده خمس مرات فى اليوم الى مؤخرة المركب لكي يتوضأ ويؤدي الصلاة التي كان فى أثناءها يرتل القرآن بصوت ضعيف متهدج . وكان حمد ونجدي وسائر الباقين فى غاية اللطف والكرم مع ذلك العجوز المحترم ، مع أنهم قلما كانوا يراعون شعور الآخرين . وأنى لهم ذلك فى ذلك النخضم الهائل من البشر ، وفى مثل تلك الحياة ! وكان ذلك الرجل العجوز يؤم الجماعة فى الصلاة ، وهو واقف أمام صف طويل من ذلك الحشد العجيب موليا وجهه النحيل الحزين الفاقد البصر شطر مكة . لقد كان وجهه معبرا ومؤثرا جدا . فعندما لم يكن الرجل يؤدي فروض الصلاة ، كان يجلس عند قاعدة الشراع المزيني ويفرق فى الفكر والتأمل ، ويداه مشبوكتان أمامه ، غير مكترث بالحياة الزاخرة حوله . وكان دائما يرتدي جلبابا ناصع البياض ، وعمامة بيضاء طويلة يلفها حول جبهته العالية . ولكني لم أستطع أن أفهم كيف كان يحتفظ بنظافته الى ذلك الحد فى كل ذلك الزحام وكل تلك الفوضى . فلم يكن قد مضى على ابحارنا من « شعر » يوم واحد ، حتى أصبح سطح المركب الرئيسي مستنقعا من القذارة لا يمكن تنظيفه أبدا ، ما دام الركاب عليه ، لأنه لم يكن بإمكان أحد الوصول اليه ليقوم بتلك العملية . كما أني لم أستطع أن أفهم كيف كان بحارتنا يعيشون فى خلال تلك الفترة الرهيبة ، التي امتدت الى ستة أسابيع . ولكن ما أن غادر آخر راكب المركب فى ممباسا ، بعد بضعة أسابيع ، حتى ظهر البحارة ، من مكان ما وبشكل ما ، والتعب والارهاق والهزال تبدو واضحة عليهم . ويبدو أنهم كانوا ينامون متكومين فوق المراسي ، والحبال ، وعلى سطح الموقد .

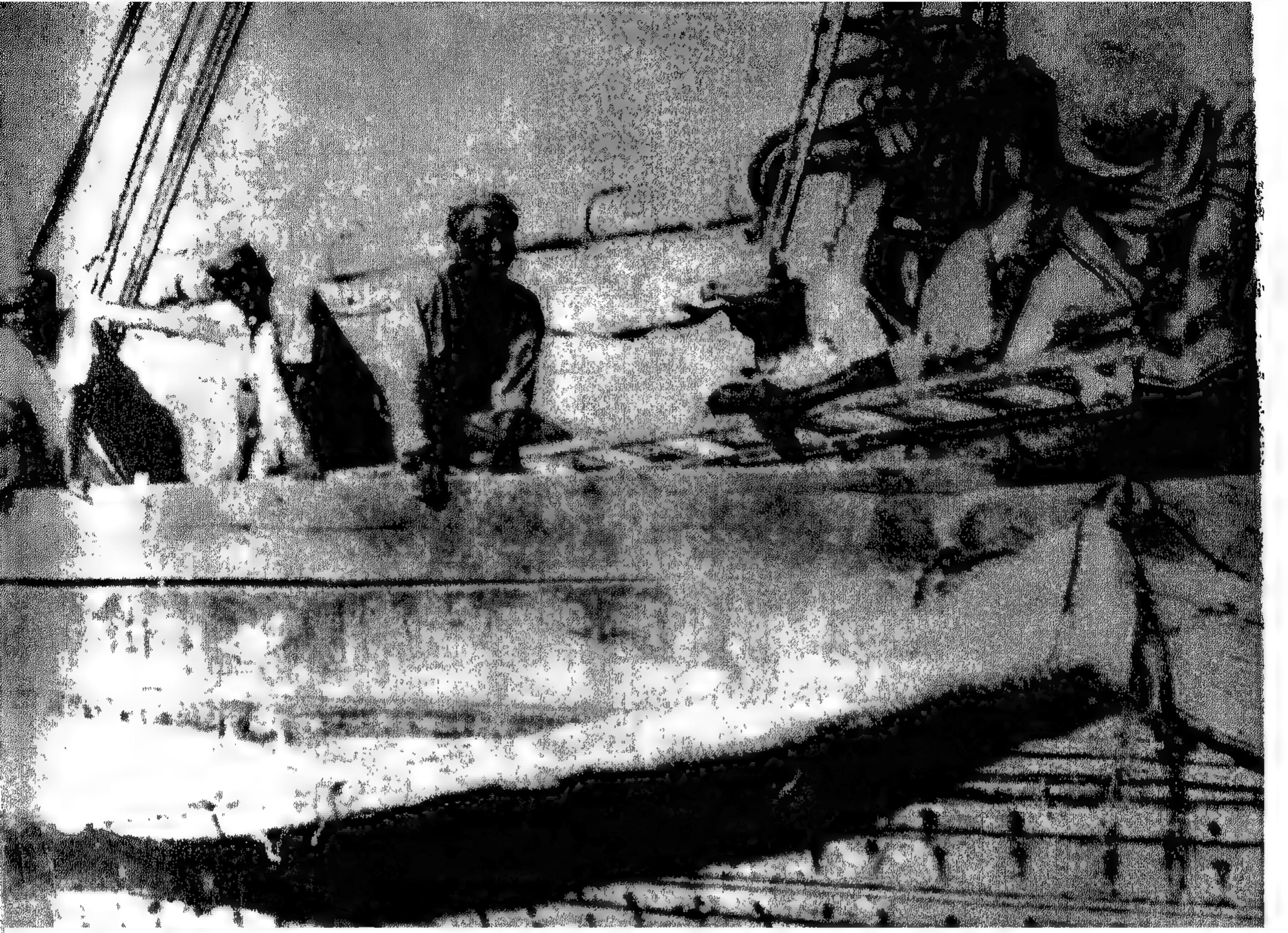
فى اليوم الاول من رحلتنا الى أفريقيا ، كنا نبحر بمحاذاة ساحل حضرموت ، وبعكس الريح التي كانت تهب باتجاه رأس عسير(١) . ومع اننا كنا فى منتصف شهر يناير (كانون الثانى) ، أى فى الوقت الذي ينتظر أن تكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تهب فيه بشكل منتظم ، الا أن الريح كانت متقلبة ، تهب فى الغالب من الشرق بدلا من الشمال الشرقي . وقد قام نجدي بتغيير اتجاه المركب بضع مرات ، ونحن بمحاذاة الساحل ، حتى لا نبتعد كثيرا عنه ، وهي نفس الطريقة التي كان حمد قد اتبعها ونحن قادمون من عدن الى المكلا ، لأننا لو ابتعدنا كثيرا عن

(١) رأس عسير يقع على القرن الافريقى فى الصومال ، مقابل الجزيرة العربية ، ويطلق عليه الاوروبيون اسم (Cape Guardafui) انظر الخريطة ، ملحق رقم ٥ (المترجم) .

الساحل ، لأصبحنا في مهب الريح الشرقية واتجهنا غربا ، وخسرنا بسبب ذلك كثيرا من الوقت وطالت بنا الرحلة . أما قريبا من الشاطئ فقد كان التيار العاكس يساعدنا على التقدم ببطء . وقد مررنا بقرب مرفأ « الحامي » ، الذي كان عبارة عن قرية صغيرة ، بدت لي شيئا مختلفا كثيرا للاهتمام حتى أنني أسفت لأننا لم نتوقف فيها . فقد كانت ثلاثة مراكب من نوع « السمبوك » راسية هناك ، ولكنني لم أر أي « بوم » كبير . وكان « بوم » القطامي و « البغلة » الفارسية قد سبقانا . ولذلك كنا وحدنا ، فقد كان « بوم » القطامي متجها الى ممباسا مباشرة .

كان ساحل حضرموت بالقرب من « الحامي » ، وعلى امتداده حتى « رأس شارما » جميلا جدا ، وكنا نرى في الأفق البعيد الصخور الشاهقة المستوية السطح تقف شامخة على جانبي الوادي ، ومن هناك تمتد باتجاه البحر تلال صغيرة يتماوج عليها الضياء والظلال ، فتبدو كأنها قطعة من القماش المظلل . ومن آن لآخر كنا نرى إحدى القرى الصغيرة اللطيفة ، جميلة ساكنة ، أو هكذا كانت تبدو من بعيد .

واصل نجدى سيره بمحاذاة الساحل ، وقد عقد العزم على أن يصبح مواجهها لتلك الريح التي تهب من ناحية الشواطئ العربية باتجاه قارة افريقيا بأكملها ، قبل أن يغير اتجاهه وييمم وجهه شطر « حيفون » . وكان هدفه السليم هو أن يبحر بعكس اتجاه الريح أطول مسافة ممكنة ، ثم ينقلب ، مستخدما الريح الشرقية ، ليسير بخط مستقيم باتجاه الأنوار المنبعثة من « رأس عسير » ، الذي يجب أن يصل اليه بموجب تخمين دقيق ، لأنه لم يكن يعرف شيئا من علم الملاحة ، كما أنني لم أحضر معي أية أجهزة ملاحية . ولم تكن المسافة بعيدة ، على كل حال ، كما ان نجدى كان دائما يسافر الى افريقيا بنفس الطريقة . وعندما يخبرك ربان أحد المراكب العربية أنه يعرف المياه والطرق البحرية معرفة جيدة ، فانه يعني ما يقول تماما . فهو لا يتكلم عن معرفة نظرية بكيفية القيام برحلة بحرية بمراقبة النجوم ، أو بمساعدة المعلومات المتوفرة عن الريح والطقس ، أو بالاستعانة بأحدث الخرائط البحرية ، وأجهزة قياس الأعماق ، وأجهزة قياس السرعة ، وبقية القائمة الطويلة من الأجهزة الملاحية المعروفة . فقد كان نجدى يسيّر مركبه مستعينا فقط بمعرفته بالأوضاع المحلية ، فقد كانت السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (وكذلك سواحل الخليج العربي ، وبلوختان ، وغربي الهند) كتابا مفتوحا بالنسبة له . وما هو يستخدم معرفته تلك الآن ويستفيد منها استفادة كاملة ، مع أنني يجب أن أذكر هنا أنني كنت أحيانا لا أفهم معنى لحركاته القصيرة في تغيير اتجاه



تجهيز جانبي المركب

المركب • فلو كان على أنا أن أخرج مركبا من هناك ، لكانت تحويلاتي لاتجاه المركب طويلة ، على افتراض أن الرياح الموسمية ستكون أفضل ونحن بعيدون عن البر ، وتساعدنا على السير بشكل أفضل • ولكن ذلك لو حدث ، لكان خطأ كبيرا • لقد كان نجدي يعرف الرياح والمياه التي يتعامل معها معرفة تامة •

وأخيرا وصلنا الى نقطة انطلاق الريح من « رأس شارما » ، ثم انشيننا بشكل مفاجيء مبتعدين عن الساحل ، ومتجهين صوب افريقيا ، على خط يمر شمال جزيرة سوقطرة ، ولا يبعد عن رأس عسير أكثر من عشرة أميال • وكنت مهتما بمعرفة الطريقة التي سيرسم نجدي بها خطة سيره • وقد قام بذلك بشكل سليم بمساعدة رسم البوصلة الموجودة على طرف خريطة حديثة نسبيا • ولكنه لم يكن معه مسطرة لرسم الخطوط المتوازية ، فاستخدم قضيبا مستقيما من سعف النخل بالاضافة الى ابهاميه ، وكانت طريقته فعالة على الرغم من أنها قد لا تنال موافقة الهيئة التجارية العالمية • ولكن ثقته العمياء بالبوصلة ، التي كان يصر دائما على صحة

دلالاتها ، بغض النظر عن المكان الذي يكون فيه المركب ، أو كمية الحديد التي يمكن أن تكون ملقاة حول صندوق البوصلة ، تلك الثقة كان يمكن أن تقود الى تدمير المركب لو كانت الظروف غير تلك التي كنا نواجهها .
فبالنسبة له ، كانت البوصلة صادقة دائما . ألم يشتريها ويدفع ثمنها ؟ ولكنني عرفت المزيد عن أساليب نجدي الملاحية فيما بعد .

أصيب أكثر من مائة من ركابنا بالدوار ، وأصبح المركب بسببهم في حالة يرثى لها . فلم يكن البدو يحرصون على الذهاب الى جانب المركب ليفرغوا ما في جوفهم في البحر ، بل ان بعضهم كان ، عندما يجلس على افرين المركب ، يتقيأ في داخله ، ولم يفلح كل الصراخ الذي ينهاتهم عن ذلك بتغيير موقفهم . وربما رأوا أن البحر نظيف جدا بالنسبة لسطح المركب ، فلم يريدوا أن يوسخوه ، وفضلوا التقيؤ على المركب . أما المسافرون الذين كانت لديهم خبرة أكبر ، فقد كانوا يستخدمون كثيرا من الوسائل الغريبة ليبعدوا الدوار عن انفسهم . فكانوا يصلون كثيرا بخشوع وتقى ، كما كان آخرون يضعون ليمونا أخضر أمام أنوفهم ويشمون به باستمرار ، ويحشون أنوفهم وأذانهم بقطع من الورق . وكان منظر بعضهم مضحكا وكميات الورق الكبيرة بارزة من أنوفهم ، بينما أطرافها مربوطة بخيوط حول أعناقهم . ولكن جميع هذه الطرق لم تفد في كثير أو قليل ، ومعظمهم كانوا يصابون بالدوار في نهاية الامر . الا انهم كانوا يقومون بعمل حكيم ، فلم يكونوا ينقطعون عن الأكل أبدا . لقد كانت حركة المركب معقولة ، كما كان الطقس ممتازا . وكان البحر خفيف الموج ، وكان النسيم لطيفا يساعد على الابحار ، ويغدو معتدلا عندما كنا نسير بعكسه ، وما كان على المركب الا أن يسير باتجاه الريح فينسب بخفة باتجاه رأس عسير . لقد كانت الظروف المناخية ممتازة ، وكان ذلك من حسن حظنا ، بعد ان أصبح معنا ذلك الخليط العجيب من البشر على ظهر المركب .

أما الظروف الفعلية للحياة على ظهر المركب ، فقد كانت سيئة جدا خلال هذا الجزء من الرحلة ، الا أنني أشك في أن هذا ما كان يشمر به العرب نحوها . فعلى أقصى المؤخرة كان ركاب الدرجة الاولى وهم : التجار السندباديون سعيد وعبد الله وماجد ، والشريف القادم من المكلا والمسافر الى افريقيا ليجمع بعض الآتاوات المستحقة ، والشيخ المعجوز الكفيف ، والشيخان الصغيران ، وكثير غيرهم . وكان هؤلاء يأكلون مما يقدمه المركب من طعام ، ويدفعون مقابل تلك الخدمة روبية واحدة زيادة عن أجرة السفر من المكلا أو شحر الى اي مرفأ في افريقيا . ثماني روبيات

بدون طعام ، وتسعة مع الطعام ، واثنيتي عشرة روبية للنساء • وقد أوضح نجدي سبب تقاضيه أجرا عاليا عن النساء ، بأنه لم يكن راغبا في أخذهن معه - فلم يكن على مركب القطامي سوى ثلاث نساء من بين مائة وخمسين راكبا - ولذلك طلب الأجور العالية ، فقد كان من الضروري عزلهن عن الرجال وايواؤهن ، وكثيرا ما يكتن سببا للمشاكل ، ولذلك فقد كان من الافضل الا يحمل أحدا منهن معه ، ولكنه كان مضطرا لاخذ بعضهن على هذه الرحلة • أما الأجرة فقد كانت واحدة سواء أكان الركاب مسافرين الى مقاديشو أو لامو أو ممباسا • كما كانت العادة أن تدفع تلك الأجرة مقدما ، وان لم يكن ذلك دائما ضروريا ، فركاب الدرجة الاولى ، الذين كان من بينهم ، على ما يبدو ، بعض أصدقاء نجدي القدامى ، لم يكونوا يدفعون الأجرة مقدما ، بل ان بعضهم لم يدفع أجرة قط •

وكان على الجزء الأمامي من المؤخرة عدد من الحضارمة المولدين الذين كانوا في الغالب يبدون نصف ماليزيين ، وكان بعضهم يبدو عليهم اللؤم ، وكثيرا ما كانت المشاجرات تقوم في هذا الجزء • وهنا أيضا كان يركب الشيخان الشابان اللذان كانا مسافرين لكي يكتسبا بعض الخبرة في الاعمال التجارية • أما أكبرهما فكان يبلغ حوالى الثانية والعشرين من العمر ، وهو مولود في صورابايا(١) بحسب قوله ، ويتكلم الماليزية بالإضافة الى قليل من الهولندية ، كما يتكلم لغة خاصة به • وكان شابا وسيما ، يؤدي من الصلوات أكثر من أي راكب آخر على ظهر المركب ، فقد كان يستمر في الصلاة طويلا ، بعد أن ينتهي جميع الآخرين منها ، وهو راكع على ركبتيه في وسط ذلك الخضم الهائل من البشر ، ويداه على صدره ، وتعبير من الخشوع والاستغراق ظاهر على وجهه • وعندما كان يصاب بالدوار كان يصلى أكثر من العادة • وكان معه أخوه الذى كان يبلغ حوالى الثامنة عشرة من العمر ، ولم يكن هذا مسلما متحمسا لاسلامه كأخيه ، كما كان معه بعض الخدم وماليزى مولد كان أكثر الركاب سببا في القرف وأكثرهم ازعاجا بلا استثناء • وقد كان مع هذا المولد - نصفه حضرمي ونصفه الآخر ماليزي - جراموفون عتيق وعدد من الاسطوانات الفظيعة ، بعضها من دمشق وبعضها الآخر من القاهرة ، وكلما كانت الأصوات على المركب تهدأ - وكان هذا نادرا ما يحصل - كان هذا يبدأ بتشغيل الاسطوانات ويزعج الدنيا ، علاوة على انه كان أيضا يغني بصوت أسوأ بكثير من صوت اسماعيل ، موسيقينا العظيم ، الذي كان يصاب بالقرف ويضطر الى السكوت وهو يشعر بالألم •

(١) مدينة فى جزيرة جاوا ، باندونيسيا (المترجم)

وفي خلال الليل ، كان بعض الركاب غريبو الأطوار يأتون أيضا الى المؤخرة ، ويتمددون بطريقة خطيرة على حواف الصناديق ، او في أي مكان آخر يجدونه مناسباً . أما على السطح الرئيسي ، فقد كان هناك حوالى أربعين مسافرا يجلسون تحت حافة المؤخرة البارزة ، وقد قسموا أنفسهم الى زمر . . كانت احداها تتكون من أولئك الآتين من قرية قريبة من « شبام » ، في الجزء الداخلي من حضرموت ، كما كانت زمرة أخرى تتكون من شباب قادمين من ميناء صور . ولست أدري كيف تمكن هؤلاء من الوصول الى شحر ، ولكن من المحتمل أنهم أبحروا على الشواطئ في بعض المراكب الصورية أو المهرية الصغيرة ، فعندما يبدأ العربي بالتجوال ، يصعب التخمين أين سينتهي به المطاف . ومثال ذلك الشريف العجوز الراكب على المؤخرة . فقد كان هذا عاملا في مصنع للسيارات بمدينة ديترويت (بالولايات المتحدة الأمريكية) ، كما أنه أمضى ثمانى سنوات داخل غرف الآلات في السفن التجارية عابرة المحيطات . وكانت معرفته باللغة الانكليزية قليلة جدا بالنسبة لشخص مثله خدم مدة طويلة تحت العلم البريطاني ، ولكنه كان كثيرا ما يخاطبني بلغة غريبة ، لم تكن اللغة العربية ، ولو أنني لم أكن متأكدا من ذلك ، لأن عبد الله هو الذي قال ذلك ، واضاف أنها لم تكن لغة سواحليه أو فارسية أو هندوستانية أو أية لغة أخرى مستعملة في الهند . كما أن من المؤكد أنها لم تكن تشبه اللغة الانكليزية في شيء ، ولم تكن من اللغات الأوروبية التي يمكن أن أتعرف عليها . وقد مضى وقت طويل قبل أن أكتشف أنه كان في الواقع يتكلم لغة بولونية مكسرة ، كان قد تعلمها في مدينتي بافالو وديترويت وهو يحسب أنها لغة انكليزية . فقد كان يعيش في حي « هامترانك » وهو ضاحية من ضواحي ديترويت يقطنها البولنديون ، ولا بد أن زملاءه في العمل كانوا من البولنديين .

لقد كان الشيخ الصغير السن ، الذي كان يصلي كثيرا ، شابا شهما شجاعا ، وكان عادة يقرأ لأتباعه كل يوم شيئا من القرآن الكريم ، وأحيانا من كتب غيره . وكان يقرأ بصوت جهورى ، حتى أثناء اصابته بدوار البحر - وهذا يتطلب شجاعة بدون شك - . لقد كان هذا أحب الركاب جميعا الي ، وقد احببت أخاه أيضا .

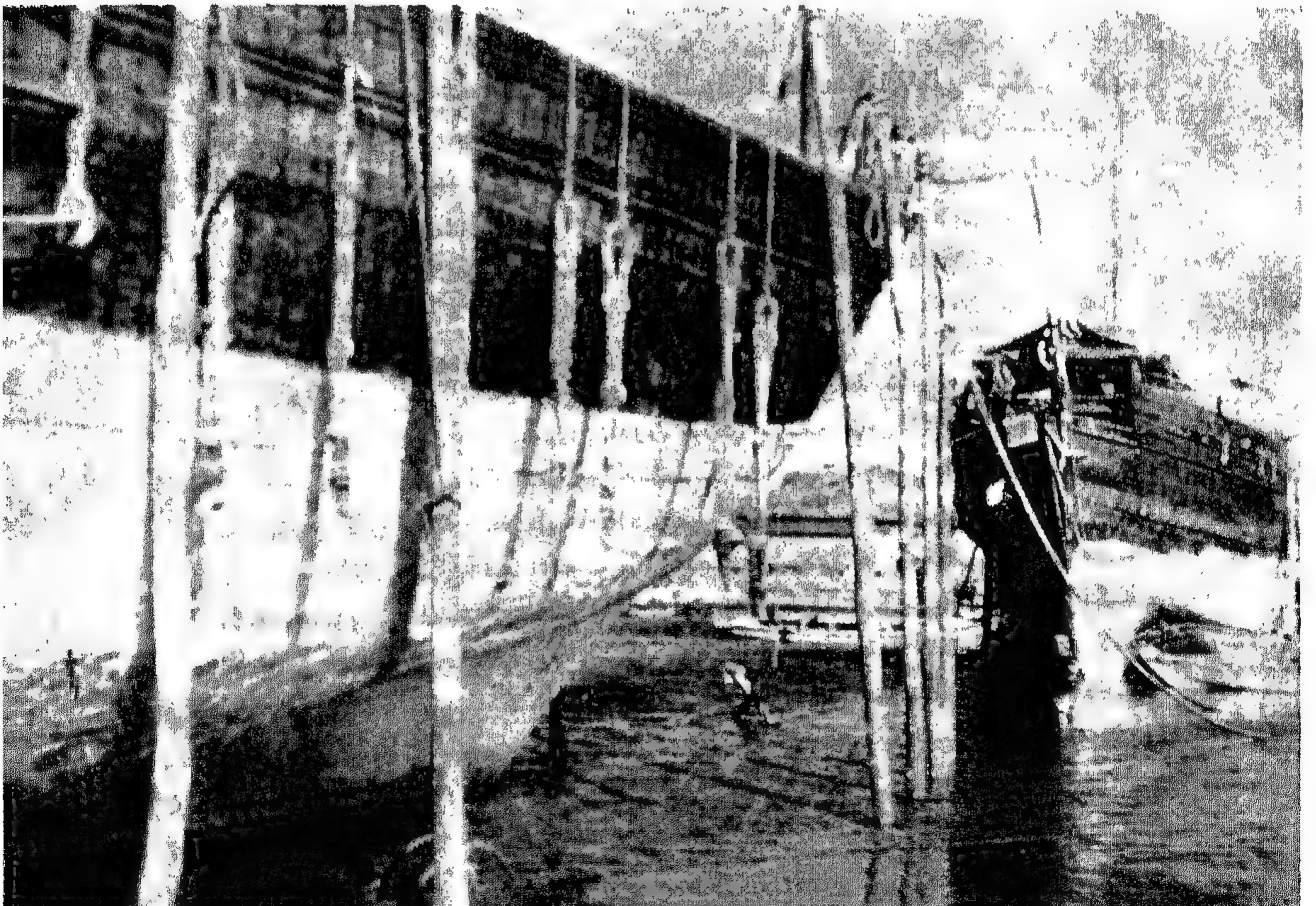
كان البدو على السطح الرئيسي يعيشون حياة من الفوضى التامة . وكان هناك صراخ وشجار دائم على ذلك السطح . الا أنني لاحظت أن البدو لم يكونوا هم البادئين بالشجار ، مع أنهم كانوا يستمرون فيه ، بل كان البادئون بذلك هم المولدين الذين كان أسوأهم على الإطلاق رجلا نصف صومالي ومعه ثلاثة أطفال : صبي صغير مزعج للغاية اسمه عبد الله ، وصبي

آخر أصغر سنا وأسوأ طبعا وسلوكا ، وبنت صغيرة ، ذات وجه يدل على السلاطة ، مطلي باللون الأسود تحت العينين وعلى عرض الجبهة بشكل لا معنى له . وكانت هذه الفتاة السليطة ترافق أباهما الضخم طوال النهار ، فإذا جن الليل اختفت في القمرة الكبيرة . وكانت تقرر وتنمش جميع الأولاد الآخرين الأصغر منها سنا عندما لا يكون أبائهم منتبهين ، ولكنها كانت تزعق بأعلى صوتها إذا مسها أي إنسان . لقد جعلت من حياة الأطفال الآخرين جحيما لا يطاق ، ولكن ثلاثة من الأولاد الصغار الذين تبلغ أعمارهم حوالي الرابعة ، تجمعوا عليها وجلدوها ، وكانت تستحق ذلك بالتأكيد . كان لها حوالي سبع سنوات من العمر ، وكانت ترتدي فستانا وسروالا طويلين ، إلا أن وجهها الشيطاني لم يكن يغطيه إلا بعض الطلاء . وليتها كانت تتحجب ، وتسد فمها ، هي وبقية أفراد أسرتها ، فربما كان ذلك قد جلب شيئا من الهدوء وراحة البال للركاب . فقد كان أبوها يقضي النهار بطوله وهو ينادي ابنه الأكبر ، عبد الله ، بأعلى صوته ، ويطلب منه أن يقوم بعمل ما ، هذا إذا لم يكن مشتركا في شجار مع بعض الركاب الآخرين - . لقد كان عالي الصوت ، مزعجا ، كثير الشجار مناكفا ، ولم يكف عن مناداة ابنه عبد الله بأعلى صوته . وكان دائما يشكو من أنه لا يتوافر له الحيز الكافي لقدر الطبخ ، ولا يتوافر له الماء الكافي من المركب . كما كان أطفاله في شجار دائم . وكان معه جميع أمتعته المنزلية ، لأنه كان مهاجرا للاقامة في موقاديشو ، وكانت أمتعته كلها محفوظة في أحد الصناديق . كما كان معه رأسان من الماعز يقفان طيلة الرحلة مربوطين إلى الطرف الأمامي من خزان الماء ، وكانا أفضل أفراد تلك الأسرة سلوكا ، وأكثرهم هدوءا .

ولم يكن هذا المخلوق المزعج وأسرته النمط السائد على المركب ، بل كان العكس هو الصحيح . فقد كان معظم ركابنا أناسا هادئين ، مذهبين ، لم يستغرقهم الاستقرار على ظهر المركب سوى القليل من الوقت ، ينصرف كل منهم بعده إلى الاهتمام بأموره الخاصة ، يجلس وينام ويتحدث مع الآخرين ويطبخ طعامه القليل دون أن يزعج أحدا أو يعطل عمل البحارة . وكان زعيم البدو رجلا عربيا ضئيل الحجم ، نحيل الجسم ، حليق الوجه ، جذابا يدعى « عودة » ، يرافقه ابنه البالغ من العمر حوالي ثلاث سنوات . وقد أحببت « عودة » وأحببت الصبي الذي كان يبدي اهتماما وسرورا بالمركب وبكل ما يجري على سطحه ، وكانت له حظوة خاصة عند البحارة . فقد كان هذا الصبي ، الذي كان له بطن كبير بارز ، وتسريحة شعر خاصة فقد كان شعر رأسه مخلوقا بالموس من الجانبين متروكا في الوسط لينمو كأنه صف من أشجار النخيل الواقفة على شاطئ البحر - كان هذا الصبي يجد متعة ما بعدها متعة في أن يتبع البحارة وهم يقومون

بأعمالهم ، وأن يتظاهر بأنه يشد الحبال ويرفعها معهم ، وأن يغني ما يفتنون •
وكان الحماس والاهتمام يبلغان به أحيانا مبلغا كبيرا ، بحيث يأخذ بالجري
هنا وهناك بمفرده ويشد الحبال كالبحارة بيديه الصغيرتين ، ويغني
بحماس أغاني البحارة على طريقته الخاصة • كما كانت له هواية أخرى هي
صيد السمك ، مع أنني لم أره يصيد شيئا قط • ولا ريب أنه كان طفلا
قويا ، صلب العود ، وكانت تلك الفتاة المزعجة تتجنب قرصه عندما تقع عليه
وحيدا • وقد جربت ذلك مرة واحدة كانت نتيجتها وبالا عليها ، فقد انصرفت
هاربة وهي تزعم وتقول بعد أن نالت صفة مدوية على وجهها • لقد كانت
تلك الفتاة وكأنها قد خلقت برغبة مشبوبة للانتقام لبنات جنسها من رجال
المسلمين ، ومع أن انتقامها كان يقتصر على الضربات الخفيفة ، والرفس
بالأرجل ، والقرص والخمش ، وأن الرجال الوحيدين الذين كان بإمكانها
أن تهاجمهم كانوا من الأطفال الأصغر سنا ، إلا أنها كانت مثابرة على
الوصول إلى هدفها بعناد وخبث كبيرين وبقوة وطاقة لا تنتهيان • إلا أن
ذلك الصبي البدوي الصغير كان ندا كاملا لها • ولم يكن هذا يرتدى سوى
وزرة صغيرة سميكة سوداء • وكان أبوه يدهن شعر رأسه القاسي جسدا
بالزبد ، أو يجدد طلاء بطنه الأزرق • لقد كانا زوجا طيبا من الناس ، وكانا
منسجمين ، أحدهما مع الآخر •

البومات على الشاطئ



وكان على المركب عدد كبير من الاطفال ، بعضهم مسافرون وحدهم ، على ما يبدو ، لأنني لم ألاحظ أن أحدا كان يعني بأمورهم ، ولكن معظمهم كانوا ينتمون الى أسر ، وكانوا كلهم ، ولو اسميا ، تحت رعاية رجب-ال بالفين . وقد اكتشفت فيما بعد أن بعض هؤلاء الصبية كانوا يرافقون المتسولين الى أفريقيا ، على أن يقوموا هم بما يلزم من الاعمال ، بينما يقوم الرجال بالتسول . وكان على المركب رجل كفيف سيء الخلق يصحب ولدين لا يزيد عمر أي منهما عن ثمانية أو تسعة أعوام ، وكان الاتفاق بينهم ، على ما يبدو ، أن يقوم الولدان على خدمة الرجل ، مقابل أن يزودهما هو بالملايس والطعام ويدفع عنهما أجرة السفر الى افريقيا ذهابا وإيابا . وبما أنه لم يكن من ركاب الدرجة الاولى ، فقد كان عليه أن يتكفل بأمر طعامه بنفسه . وقد اتضح بعد مرور بضعة أيام أنه لم يكن يطعم الطفلين شيئا على الاطلاق . لقد كان رجلا مكتئبا ، وكان يلعب على مزماره المحطم أنغاما حزينة طيلة اليوم ، وكانت هذه ، على ما يبدو ، طريقته في التسول ، لأنه كان يطلب مني احسانا بصوت ذليل بائس كلما مرت بقربه . وقد تمكن الطفلان ، اللذان يبدو أنهما يسافران الى أفريقيا للمرة الاولى ، من تحمل معاملته السيئة بضعة أيام ، ولكن المسألة وصلت في النهاية الى مسامع نجدي ، الذي تصرف ازاءها التصرف السليم في الحال ، فقد كان هو القاضى وهو هيئة المحلفين ، وعليه ان يبت فى كل ما ينشأ من النزاعات على ظهر المركب .

فعلاوة على تسيير المركب والوصول بالركاب بأمان الى حيث يريدون، كان نجدي مسؤولا عنهم مسؤولية كاملة ، وكان يحكمهم بيد من حديد : كان يحكم في نزاعاتهم ، ويؤمهم في الصلاة ، ويسكنهم ويهدئهم عند الضرورة ، ويرعى جميع شؤونهم ، عدا ما يتعلق منها بالامور الطبية والعلاجية ، فلم يكن على المركب أدوية أو ضمادات من أي نوع .

وكلما كان الركاب يحتاجون شيئا من نجدي ، كانوا يأتون الى طرف المؤخرة ، ويرفعون رؤوسهم وينادون نجدي باسمه المجرد : « يا نجدي » ، ثم يبدأون فى الحال بسرد مظالمهم . لقد كانت حياة ديمقراطية حرة - صحيح أن نجدي كان ملكا ، الا أن أفراد رعيته لم يكونوا من الجبناء . فقد كان كل من هؤلاء ملكا أيضا ، ولم يكن يساعد نجدي على حكم رعيته وحفظ النظام بينهم ، الا ما يتمتع به من مقدرة وصفات طبيعية خاصة . فكان يضبطهم بقوة شخصيته ، ولم يكن يصرخ قط . فقد كان قائدا لهم لأنه كان القائد الطبيعى ، لا لأي سبب آخر . لم تكن الحياة على ظهر مركبنا مع هؤلاء الركاب نزهة ممتعة ، ولولا نجدي ، لكان المركب مستشفى للمجانين .

ولولا المحافظة على القاعدة الاولى من قواعد المركب ، لما كان بإمكان أحد أن يتحمل تلك الحياة . وكانت القاعدة الاولى تقول بكل بساطة ووضوح : انه مهما حدث وتحت أية ظروف ، فالراكب دائما على خطأ . وكان هذا مبدأ شاملا وفعالا جدا ، أعجبني كثيرا . فعلى الرغم من صعوبات الحياة ومشاقها على ظهر المركب ، كانت الفرصة التي أتيت لي لمراقبة كيفية تطبيق هذا المبدأ السليم والعمل لتتنظيم سلوك الركاب في البحر ، فرصة عظيمة عوضتني عن شهر من مرض الزحار . ففي جميع المنازعات التي كانت أحيانا تقوم بين البحارة والركاب ، كان الراكب هو الذي يعطل العمل وعليه أن يبتعد عن طريق البحارة . وربما كان هذا يبدو وضعاً قاسياً بالنسبة للركاب . ألم يدفع هؤلاء أجور سفرهم ؟ ولكن الشرط كان واضحا فقد دفع الراكب بعض المال لقاء شيء واحد ، هو ان تتاح له فرصة الركوب على المركب كما هو ، وعليه أن يقبل به على حاله . وليس له أي رأي في إدارة المركب ، كما لا يسمح له بتسبب أي ازعاج أو ارباك للعمل . فقد كانت الطريقة الوحيدة لإدارة ذلك المركب ، بشرائه الضخم الثقيل - بل ان الطريقة الوحيدة لإدارة وتسيير أي مركب شرعي من أي نوع ، وحتى لتسيير وإدارة أي مركب تجاري - هي أن تتوافر لدى القيادة الكفاءة والالتقان واليقظة والقدرة ، فليس هناك أي مجال لتدليل الركاب . وهؤلاء كانوا على السطح ، لأنه لم يكن هناك مكان آخر يذهبون اليه ، وما داموا جميعا على ذلك السطح ، فلا بد أن يعترض بعضهم سبيل البحارة في بعض الأحيان . وهم في المركب ، في الأساس ، لأن المركب بحاجة الى ذلك الدخل الذي يكسبه منهم . ولذلك فقد كان مجرد السماح لهم بركوب المركب أول امتيازاتهم وآخرها . وما أن يصبحوا على ظهر المركب حتى يعتبروا أثقالا حية تساعد على توازن المركب ، بل ربما أسوأ من ذلك ، لأن المركب كان محملاً بشحنة ثقيلة ، ولا يحتاج الى ثقل آخر يوازنه . ففي نظر أهل المركب كان هؤلاء الركاب مصدر ازعاج رديء كثير الصخب ينبغي التخلص منه في أسرع وقت ممكن ، وكان عليهم أن يفهموا هذا ، وقد فهموه فعلا وبسرعة . فاذا لم يجلبهم الحال على المركب ، فلديهم الجمال يمتطون ظهورها ، ويتنقلون عليها . ولهذا كله كان الوضع بالنسبة للركاب مقبولا ومحملا جدا .

كان اليوم الذي شكنا فيه الصبيان من سوء معاملة الرجل الضريير نموذجا لجميع الايام الاخرى . ففي كل يوم ، كان على نجدي أن يصدر أحكامه العادلة في جميع أنواع النزاعات التي كانت تنشأ على المركب ، فيما عدا ما يختص منها بالنساء . على كل حال ، فقد كانت هؤلاء محجوزات في أماكنهن ، ومنسيات تماما ، ولا يسمح لهن حتى باستنشاق نسمة من الهواء على السطح . وربما كان هذا شاقا عليهن ، ولكنه أمر لا يمكن تجنبه في

عالم كهذا ، بل ربما كان هذا أفضل ما يمكن أن يحصل لهن . وكما قال نجدي ، فربما لن يمكن في ذلك المكان مدة تزيد عن الشهرين (وكانت هذه المدة في الاصل ، وحسب الوعد الاول ، اسبوعا فقط) . في هذا اليوم ، يوم المنازعات ، كان كل شيء عاديا : فقد كانت مجموعة من البدو تنظف وزراتها الزرقاء من القمل على سطح القارب الطويل ، كما كانت عنزتا الصومالي تثغوان في مكانهما بجانب صهريج الماء ، والصومالي يصرخ بأعلى صوته على مجموعة من الماليزيين المولدين ذوي الاسنان البارزة تحت حافة المؤخرة . وكانت تلك الفتاة الشريرة تدور هنا وهناك تبحث عن الفرصة المناسبة لتنفث سمومها على أحد أبناء الجنس الاخر ، كما كان « عودة » الزعيم البدوي يلعب مع ابنه الصغير ، والعمال البدو والحضارمة يتحادثون ، أو يجلسون ، أو ينامون ، أو يطبخون ، أو يأكلون ، أو يصلون ، أو يقرأون القرآن ، أو يدهنون شعور بعضهم بعضا بالزيت ، أو يمسكون بتلابيب قطع من سمك القرش المجفف القاسي كحجر الصوان ، يقضمونها وهم يبدون الاستحسان بطعمها . لقد كان كل شيء طبيعيا . وفجأة ، مزق هذا المنظر الجميل الهادئ نسبيا صراخ عال جدا ، تبعته اللعنات والشتائم المخيفة باللغة العربية التي يمكن أن تفزع الجمال . وقد كانت مثل هذه الاحداث كثيرة الوقوع لدرجة أنها لم تكن تثير كثيرا من الاهتمام ، لأن الصومالي المولد كان يثير مثلها عشر مرات كل يوم . ولكن الشيء الغريب في هذا الحادث أنه لم يكن من فعل الصومالي ذاك .

وفي لحظة من اللحظات ، خفت حدة الاصوات قليلا ، واتضح أن النزاع كان مصدره تحت افريز المؤخرة . ولم تمض مدة طويلة حتى انتشر الصراخ والشغب الى سطح المركب الرئيسي ، حيث أخذت القدور وأطباق الارز تندلق في كل اتجاه ، وانطلقت إحدى العنزتين تجري وتثغو ، بينما هربت تلك الفتاة الماكرة ، التي بدا عليها الخوف لأول مرة ، واختفت في القمرة الكبيرة . وقد بدا أن العناصر الرئيسية ، المشتركة في ذلك الشجار ، الذي كان يمتد ويتسع في كل لحظة ، تتألف من المتسول الضرير ، والصبيبين الصغيرين اللذين يرافقانه ، وماليزي مولد من ذوي الاسنان البارزة ، ورجل عجوز يرتدي نصف وزرة ، وصائغ عربي عريض المنكبين من موقاديشو . وعلى الرغم من صعوبة فهم ما يجري بشكل واضح ، فقد استطعت أن أفهم أن الشحاذ الكفيف كان يحاول مهاجمة الولدين اللذين كانا يصرخان ويتشاجران ، بينما كان الماليزي ذو الاسنان البارزة والصائغ يتشاجران على من منهما سيقوم بمنع الضرير من مهاجمة الولدين . أما الرجل العجوز فقد وجد نفسه في وسط المعمة ولم يدر كيف يخرج منها . وقد اشترك أناس آخرون في العراك ، وأخذ البحارة يتراكمون لكبح جماحهم وإيقاف الشجار ، ولكنهم وجدوا صعوبة كبيرة في ذلك ، لأن الحركة على السطح الرئيسي

كانت صعبة جدا حتى في الاحوال العادية ، فكيف والحال على ما هو عليه الآن ، ومؤخرة السطح الرئيسي بأكملها ، من مؤخرة القارب الطويل على ميمنة المركب حتى مقدمة المركب الجديد الصنع ، تموج بالبدو وهم يصرخون ويتراكضون .

في هذه اللحظة ، رأيت « نجدي » - الذي كان متكئا على السدة الخلفية يتلو شيئا من القرآن للتاجرین السوريين - يهب واقفا على قدميه بسرعة وخفة لم أشهدهما من قبل ، ويلتقط عصا مما تساق بها الجمال ، ويقفز من فوق افریز المؤخرة المنخفضة ، فاذا هو كالسهم على السطح الرئيسي للمركب ، ثم يشق طريقه بالعصا ، التي كان يحملها كمذراة الحنطة ، والتي كانت الشيء الوحيد الصامت بين الغوغاء ، حتى يصل الى المتخاصمين الذين كان عددهم قد بلغ العشرين على الأقل ، بينما كان البحارة يصارعون الأمواج البشرية للوصول اليه من جهة مقدمة المركب ونجدته . ولكن نجدي لم يكن بحاجة الى مساعدتهم ، فقد كان يؤدي العمل بمفرده بشكل ممتاز . لقد استطاع في مثل لمح البصر ان يوقف القتال - وان كان الهياج قد استمر طيلة النهار - . فقد كان قد أمسك باحدى يديه بذلك الرجل الضريع من مؤخرة عنقه ، كما أمسك بالماليزي ذي الاسنان البارزة وبالرجل المعجوز باليد الاخرى ، بينما كان الولدان قد أصبحا تحت قدميه . وبعد ذلك وصل البحارة اليه ، وسيق المتخاصمون وتبعهم آخرون الى مؤخرة المركب ، حيث عقدت جلسة فورية للتحقيق في الأمر واصدار الحكم المناسب بشأنه . وكانت المحكمة تتألف من نجدي وحده ، وكان الانسان الوحيد ، عدا المتخاصمين ، الذي جرؤ على فتح فمه هو ذلك « السيد » أو الشريف الحضرمي . فقد كان هذا الشخص ، نظرا لانتسابه الى النبي (صلعم) الحق في الكلام ، وكثيرا ما كان يتدخل لفض بعض النزاعات التي كانت تنشأ على المركب ، وان لم يكن دائما موفقا في ذلك . وقد بدأ المتخاصمون الآن في الصياح في وقت واحد معا ، بالاضافة الى حوالي خمسين من الركاب الآخرين الذين صعدوا الى المؤخرة ، واستمروا في ذلك الى أن عمل نجدي على تهدئتهم ، وطردهم الركاب الآخرين من المؤخرة الى أماكنهم الأصلية . وقد تبين ، بعد أن أخذ التحقيق مجراه ردحا من الزمن ، أن الرجل الضريع كان قد استأجر الولدين ليساعده في أثناء رحلته الى افريقيا وفي أي بلدان أخرى يزورها ، مقابل أن يقدم هو لهما المأكل والملبس ويدفع عنهما أجرة السفر . ولكنه ما أن وصل بهما الى ميناء شحر ، حيث كان يدعي أنه والدهما ، وما أن أطمأن الى وصولهما سالمين الى ظهر المركب ، حتى تنكر لهما وتناسى ما اتفقا عليه ورفض امدادهما بالطعام . وكان من الطبيعي أن يشتمز الولدان من عمله هذا وأن يتركا خدمته ، فقد رفضا أن يعدا طعامه أو يعنيا به ، أو حتى أن يهدياه للسير والتحرك على ظهر المركب .

وقد ادعيا أنهما غير ملزمين بخدمة الرجل الضير ما دام هو قد تنصل من واجباته نحوهما ، ولم يقدم لهما الطعام ، مما كلفهما أشد العناء للبقاء على قيد الحياة على ظهر ذلك المركب المزدحم بالناس الجياع . ولذلك فقد قررا أن يعرضا خدماتهما على الصائغ الموقاديشي ، الذي كان عربيا كريما عطوفا يدعى « عشوان » . ولكن هذا لم يكن بحاجة اليهما ، فقد كانت معه أسرته الخاصة . ولما اشتد بهما اليأس بعد أن عاشا بدون طعام ثلاثة أيام كاملة ، قاما هذا الصباح بالتمرد والعصيان وحاولا الاغارة على طعام مخدومهم الأصلي . ولكن هذا أمسكهما متلبسين بالجرم المشهود - فقد كان حاد السمع ومتيقظا ، على الرغم من عاهته - وأخذ يضربهما ، الا أن الصائغ تدخل لمنعه من ذلك ، وسرعان ما عم الشجار والهياج ، وانتشر كالهشيم بين تلك الجموع .

لقد استغرق اكتشاف هذه الحقائق البسيطة نصف الصباح . (وكانت هناك مناوشات أخرى عديدة ، وان لم تكن أي منها خطيرة ، قامت بين مؤيدي الماليزي وآخرين معارضين لهم) . . لم يلق الرجل الضير التأييد من أحد ، فقد كان من الواضح أنه كان مخطئا في تصرفه . وفي نهاية الجلسة حكم نجدي عليه بالتقيد بشروط الاتفاقية وتقديم الطعام الكافي للولدين . وعندما اعترض هذا بأن الولدين كسولان لا يصلحان لشيء ، وأنهما هما اللذان فرضا نفسيهما عليه ، سأله نجدي لماذا ، اذا ، تظاهر بأنه كان والدهما ؟ ألم يفعل ذلك لكي يتمكن من تسفيرهما معه على المركب ؟ ولكن الشحاذ أجاب بأن ذلك كان بدافع العطف والشفقة عليهما . الا أن نجدي تساءل عما اذا لم يكن ذلك العطف هو الذي سيدفع بهما الى التسول للرجل الضير في شوارع ممباسا ودار السلام وأي مكان آخر يذهبان اليه معه ؟ وقد أقر الرجل الضير بذلك فهو يكره أن يرى أطفالا عاطلين عن العمل . فقد كان هذان الولدان ، بحسب قوله ، مشردين بلا مأوى أو أصدقاء على شواطئ ميناء شحر ، فصادقهما ، ولكنهما ، مكافأة له على هذا الكرم ، ينقلبان عليه الآن ويرفضان العمل ويتهمانه بعدم تقديم الطعام لهما . وعند سؤاله عما اذا كان الواقع أنه منع عنهما الطعام بالفعل ، أجاب بالايجاب فقد كان الطعام معه قليلا . ولكن الصائغ سرعان ما قدم الصندوق الذي كان الضير يحفظ فيه طعامه من السمك المجفف الوفير ، كما أبرز نصف كيس من الارز . لقد كان من الواضح أن قضية الرجل الكفيف قضية خاسرة . وقد أفهمه نجدي بأنه اذا لم يعمل على اطعام الولدين ، فانهما سيأكلان من طعام المركب ، وعندها سيحجز هو على ظهر المركب ولا يسمح له بالنزول الى أن يسدد ثمن طعامهما . عندها تظاهر الشحاذ بالفقر وأخذ يتوسل الى نجدي ، ولكن الجميع كانوا يعلمون أنه من أغنى الرجال على ظهر المركب . وقد جعل نجدي الولدين يعتذران له لعدم محافظتهما على

«الهدوء والنظام ، كما جعلهما يعدان بأن يخرجا الرجل الضريير بكل اخلاص ،
سما دام يقدم لهما المأكل والملبس . وبعد شيء من الاحتجاج ، وافق الصبيان
على طلبه ، وانتهت القضية .»

وما أن وصل الأمر الى هذا ، حتى كانت مشكلة اخرى قد بدأت
بالظهور في وسط المركب ، حيث كان الصومالي المولد السليط اللسان يصيح
«قائلا أن شخصا ما قد استغل فرصة النزاع الذي قام وسرق الحليب من
عنزتيه وقد كان ادعاؤه صحيحا .»

لقد عجبت بأن أحدا على ظهر المركب لم يلحظ أن الولدين كانا
يتضوران من الجوع ، على الرغم من الازدحام الشديد وكثرة الناس ، وبأنهما
لم يلقيا أحدا يهتم بهما أو يمد لهما يد المساعدة ، كما أنني لم أرهما من
قبل . ربما كان السبب أن الانسان لا يستطيع أن يلحظ حاجة غيره ، اذا كان
الجميع جوعا . ولكن سرعان ما هب الجميع لتقديم العون عندما لفت انتباههم
الى الأمر . ومنذ ذلك الحين كان الصائغ حريصا على أن ينال ذاك الصبيان
كفايتهما من الطعام ، كما كان نجدي دائم المراقبة لذلك الضريير الشرير .

لقد كان نجدي دائم اليقظة والمراقبة لأشياء كثيرة . فمنذ اللحظة
التي كان يطأ فيها ظهر المركب الى اللحظة التي يفادره فيها ، كان سيد
الموقف كله . فقد كان يعرف كل ما يدور حوله ، وكان معظمه يدور بتوجيه
منه . ولم يكن يبدو عليه في أي وقت من الأوقات أنه مستغرق في نوم عميق .
وحالما كان نجدي يعتلي ظهر المركب ، كان حمد بن سالم يتعطل عن العمل ،
وعند ذاك تصبح قيادة المركب في يدي نجدي ، ولم يكن يسمح لأحد بمشاركته
في مسؤوليته . فلم يكن حمد يرقى الى درجة مساعد ربان . لقد كان ربانا
احتياطيا ، وضابطا يهتم بشؤون المركب وهو راس في الميناء ، ويبصر بالمركب
عندما لا يكون نجدي فيه . أما عندما يكون نجدي موجودا ، فقد كان حمد
يقوم بمسك الحسابات ، ولا شيء غير ذلك . ولم يكن أحد يتفوه بكلمة
الا لتكرار ما يقوله النوخدة ، وقلما كان أحد يسمع ما يقال ، لا بسبب تلك
الضجة المستمرة التي كانت تصدر عن الركاب الموجودين على السطح
فحسب ، بل أيضا لأن البحارة كانوا دائما ، عندما يقومون بأي عمل ، يغنون
ويهزجون بصوت عال جدا وبقوة وحماس كبيرين ، حتى أنهم لم يكن بإمكانهم
أن يسمعوا أوامر النوخدة .

وقد اقترحت عدة مرات على نجدي أن يستعمل صفارة يستطيع

بواسطتها أن يسمع الجميع من خلال ذلك الضجيج الهائل ، بل اني اشتريت له واحدة بالفعل ، ولكنه لم يستعملها اطلاقا ، لأنها ، بحسب رأيه ، غير لائقة . فقد كان يحب ابقاء القديم على قدمه ، ويكره التغيير . وقد كان يخيل الي أحيانا أن اهمال الأوامر - لعدم سماعها - يمكن أن يشكل خطرا على المركب ومعداته ، لأنه عندما يمسك عشرون من البحارة الأقوياء بطرف حبل ويشدونه وينجرفون معه ، فمن المحتمل أن يتسببوا في شيء من الخراب والتلف ، اذا لم يوقف شدهم في الوقت المناسب . ولكنهم لم يكونوا يكثرثون لما كانوا يقومون به من عمل ، فقد كانوا يندفعون الى العمل اندفاعا كبيرا وينتظرون الأوامر التي لم يكن باستطاعتهم أن يسمعوها ، كما لم يكونوا يتوقفون عن الغناء والأهازيج ما داموا يعملون . فما يكادون يسمعون أمرا ، حتى لو كان همسا ، حتى يهبوا وقفا ويبدأوا بالغناء . ولم يكونوا يكفون عن الغناء أبدا ، وكانوا يغنون وهم يتراكمضون الى العمل ، سواء أكانوا يجرون على السطح ، أو فوق القوارب ، ولا يهمهم اذا اصطدموا بالركاب وألقوا بهم أرضا . لقد كانوا يغنون ويهزجون ما داموا يقومون بأي عمل ، وعندما يكون العمل كثيرا بالفعل - كرفع العارضة الرئيسية مثلا - كانوا أحيانا يتوقفون عن العمل ليؤدوا شيئا من الرقص .

كثيرا ما كنت أتساءل عن أولئك النسوة المحبوسات في القمرة الكبيرة . فلم يحدث الا مرة واحدة أن ظهرت احداهن على سطح المركب ، وكانت صغيرة الحجم نحيلة العود مجللة بالسواد ، وكان ذلك في فجر يومنا الاول على ظهر المركب ، لتقوم بأداء الصلاة الى جوار زوجها . أما ما الذي حدا بها لكي تفعل شيئا مستهجنا من هذا القبيل فلم أعرفه أبدا ، وقد سمح لها بأداء صلاة قصيرة ، قبل أن تؤمر بالعودة ثانية الى مقرها . ولكن الزوج نبه بأن عليه أن يشدد قبضته على نسائه ، كما كان نجدي ينظر الى تلك الحادثة على أنها غير لائقة على الاطلاق . وقد سمعته عدة مرات يتحدث مع « السيد » عن الجراءة المزعجة لنساء هذه الايام ، كما يدل على ذلك هذا الحادث وأمثاله . فقد كان لنجدي آراؤه الثابتة عن مكانة المرأة ، وكثيرا ما كان يفصح عن تلك الآراء ، فكان يمتدح ذلك النظام الذي يبقي النساء في عزلة تامة ، وينظر الى طرق الحياة الأوروبية بكثير من الازدراء .

وكننت أتساءل أيضا كيف يمكن للنساء أن يكبحن غريزة حب الاستطلاع عندما كان شجار أو أي شيء آخر مثير للاهتمام يحدث على سطح المركب ، فلم يكن باستطاعتهم أن يرين شيئا من داخل السجن الذي كن فيه . وقد اكتشفت أنهن كن يبعثن بتلك الفتاة الشريرة وبفتيات صغيرات

أخريات الى سطح المركب ، ليرين ويسمعن ثم يمدن بالأخبار اليهن • وبهذه الطريقة كن يعرفن معظم ما يجري على ظهر المركب •

كان ابحارنا في الليل ممتازا باتجاه رأس عسير ، وكان نور القمر يسطع على الشراع المنتفخ بالهواء ، كما كانت الأصوات الصادرة عن المركب ، فيما عدا شخير البدو ، لطيفة الوقع على الأذن • وكان جميع الركاب يتمددون على سطح المركب ، بعضهم ملفوف ببعض الخيش المتوفر بين البضاعة ، والبعض الآخر لا يلبسون سوى الأسمال البالية ويفطون أجسامهم بالوشم الأزرق ، وآخرون يتلحفون بالبطانيات • وكان لدى بعض التجار فراش مزخرف كان خدمهم يفرشونه لهم كل مساء على ستة أقدام من المؤخرة ، وكان الفراش زاهي الألوان يمد على سجاد ثمين وتعلوه الوسائد الجميلة • وكنت أستلقي على ميمنة السدة المائلة في الخلف على سجادة تركية أعطانيها نجدي ، وكنت قائما وسعيدا ، مع أن النوم كان يجافيني في بعض الأحيان • ولكني ، في غبش الفجر ، عندما كان المؤذنون كأنهم يتبارون في رفع أصواتهم ، وعندما تكون الفرش والسجاجيد مبللة بالندى ، وليس هناك أي أمل بفطور يزيد عن الخبز الفطير ، وعندما كان البدو والمولدون يفتسلون بماء البحر والأطفال يزعمقون - في مثل ذلك الوقت ، كنت أتساءل لماذا أتيت أصلا وماذا كنت أفعل هناك •

ومرت الأيام ، واحدهما يعقب الآخر ، وأنا مسحور بالرحلة حتى أنني نسيت المشاكل البسيطة التي كانت تحدث من آن الى آخر ، ونسيت آثار الحمى التي لازمتني منذ كنا على ساحل حضرموت ، كما نسيت العرج الذي كان يجعل من مشيتي وحركتي عملية مؤلمة • وسار المركب يتهدى باتجاه الجنوب ، في ذلك الجو من الضجة والازعاج اللذين سببهما أولئك البدو الذين حملناهم معنا لا يصلهم الى افريقيا • وكان هبوب الرياح الموسمية جيدا ، وسيرنا مطردا ، وان لم يكن دائما ممتعا •

الفصل الخامس

اسماعيل ينقذ طفلاً

اسماعيل ينقذ طفلا

في صباح اليوم الخامس لمفادرتنا ميناء شحر ، كان المركب يسير قريبا جدا من قاعدة اللسان الجبلي الصخري الممتد الى البحر عند « راس حيفون » . وكان نجدي يقود المركب بخط مستقيم متجنباً المنحنى ، وكنا قريبين جدا من البر ، فقد كانت الاحوال الجوية مؤاتية جدا . فالنسيم كان معتدلا ومنعشا ، يهب من الشمال الشرقي ، كما كان البحر هادئا . في هذا المكان يدفع التيار المراكب باتجاه البر ، ولذلك فهو ليس بالمكان الذي يستهان به ، الا أن نجدي كان يعرف ما يفعل . فالطرف الشرقي من اللسان لم يكن خطرا ، وقد كنا نتجنب المنحنى ، لا لنكسب الوقت ، فهذا لم تكن له أهمية بالنسبة لنجدي ، ولكن لكي تتمكن من الاتجاه الى المرسى في مدينة حيفون ، حالما يصل المركب الى نقطة مقابلة للطرف الجنوبي من اللسان . لقد كان المكان جميلا ، وصخوره الصفراء الهائلة تقف شاهقة فوق المركب الذي كان ينساب بهدوء ورشاقة على أمواج البحر الزرقاء . وكان من الواضح اننا ، ان لم نكن قريبين جدا من ذلك الطرف الجنوبي ، فان علينا أن نكافح ونشقى لكي نصل الى المرسى المختبئ خلفه .

أما على ظهر المركب ، فقد كان كل شيء يسير كالمعتاد ، الا أن هدوءا غير عادي كان يخيم عليه ، ولم تكن هناك مشادات كبيرة كما كان الحال طوال الرحلة ، فقد كان الصومالي المولد ، والد الفتاة الشريرة السليطة اللسان والولد الشقي عبد الله ، نائما ، وهذا كان بعد ذاته كافيا لتخفيف الضجة على ظهر المركب الى النصف . وكانت مجموعة الماليزيين المولدين - اذا صح أنهم كذلك - مستلقين في ظل الشراع المزيني بكل ارتياح واطمئنان ، على الرغم من الضجة التي كانت تصدر عن سبعة واربعين من البدو الذين كانوا يجلسون حولهم وهم منسجمون في الغناء ، وكل منهم يضع احدى يديه على أذنه وهو يغني ، وان كنت اتمنى لو كان كل منهم يضع كلتا يديه على كلتا أذنيه كما كنت افعل أنا ، ويحشو كلتا أذنيه أيضا بقطع من القطن . ولم ينقطع خليل النجار عن الطرق والعمل في مركبه الجديد ، وكان من حين لآخر يقوم بتحريك أحد البدو النيام عن موضعه ليتمكن من الوصول الى لوح جديد من الخشب . أما جاسم ، طبائخنا الصغير ، فقد كان يقوم بغسل لحم الماشية والارز بالماء المستقى من البحر ، فيما يقوم مساعداه ، عبد الوهاب ومشاري ، بجرش القمح لاعداد الخبز

الفطير • وكان عدد من البحارة ، ومعهم عبد الله شقيق النوخدة ، يقعون كالقروء على جلة كبيرة من التمر العراقي ، الذي كان قد أصبح كتلة لزجة متماسكة كأنها قد وطأتها أقدام الجمال قبل سنوات عديدة • وكان عبد الله وبقية البحارة هؤلاء يختارون أقوى حبات التمر ، ويخرجون النواة من كل منها بأسنانهم ، ثم يعيدون صفها بشيء من الترتيب والنظام في صناديق صغيرة من الكرتون كتب عليها : « تمر نظيفة طازجة ، من إنتاج العراق » • وكانت هذه التمور تقايس ببضائع أخرى في حيفون مع الصوماليين ، الذين يقبلون أكلها ، دون سواهم •

وعلى المؤخرة كان الركاب الصوريون يجلسون في حلقة بينما « سعيد » يقوم بفحص البضائع الممنوعة التي كان ، على ما يبدو ، يجهزها للانزال الى البر ، فقد كان هذا مهربا ، وسرعان ما ينهمك في العمل • أما « ماجد » الضخم اللثيم ، فقد كان يرتدي قميصا بنيا طويلا ، ويتفحص تلك الخردوات باهتمام ، ويقترح ، بصوت عال ، افضل الطرق لتهريبها ، بينما كان عبد الله يرتل القرآن لنفسه بصوت خفيض • وكان نجدي - الذي لم يكن خلال الرحلة قد ترك موضوعا الا ناقشه : من انتشار الاسلام في اليابان ، الى العصر الذهبي للملوم في الجزيرة العربية ، الى قوانين التملك في حضرموت ، الى افضل الطرق للقيام برحلة بحرية على مركب شرابي من « ماندلاي » الى « كوتش » (١) في شهر يونيو (حزيران) - كان نجدي هذا صامتا الآن ، وهو ينفث الدخان من نارجيلته بهدوء • وحتى اسماعيل ، ذلك المخفي التنظيم والموسيقي ، عازف القيثارة الشهير ، كان قد نحى موسيقاه جانبا ، وأخذ الآن يتفحص محتويات صندوقه ، الذي كان يتحلق حوله عدد من الحضارمة المولدين ، هو يحاول أن يبيعهم بعض المعاطف اليابانية الرخيصة ، وهم يتفحصونها بدقة ولكنهم لا يشترون شيئا منها • أما يوسف الشيرازي ، الذي كانت عيناه تؤلمانه منذ مدة طويلة ، فقد كان يحميهما بشكل جزئي باحدى طيات كوفيته البيضاء ، بينما انهمك في عمل غامض لم استطع فهم طبيعته • وقد كنت أرقبه باهتمام ، وأنا مدرك الى حد ما لكل ما يدور حولي ، بينما كان الاطفال يتراكمون على جانبي المركب وهم يلعبون مرحين ، وفي مقدمتهم ابن « عودة » الصغير •

وفجأة سمعت صوت ارتطام جسم بالماء ، تبعته صرخة فزع صادرة عن طفل • فاندفع بعض البدو الى جانب المركب ، وأخذوا يصرخون قائلين :

(١) ماندلاي : مدينة في داخل بورما ، تقع على نهر سيتانج ، شمال العاصمة رانجون •
اما كوتش : فهو خليج وشبه جزيرة يقعان على الساحل الغربي للهند (المترجم) •

« طفل سقط في الماء » وهم يشيرون الى البحر . هببت واقفا في الحال ، ونظرت ، فرأيت الطفل يستغيث ، وجلبابه الابيض طاف على سطح الماء حوله ، وهو يبتعد عنا ، أو ، على الأصح ، ونحن نبتعد عنه . وعلى الفور ، وقبل أن استجمع أفكارى ، قفز اثنان ، أحدهما يرتدي اللون الابيض ، والآخر اللون البني ، من المؤخرة الى السطح ، ثم ألقيا بنفسيهما من جانب المركب الى البحر ، في محاولة لانقاذ الطفل . وقد فعلا ذلك بسرعة البرق حتى أنني لم أتمكن من التعرف عليهما في البداية . ولكنني ، بعد لحظات ، تبينت أن أحدهما كان اسماعيل الموسيقي ، وهو الذي قفز أولا ، ثم عبدالله ، ذلك الانسان الذي يتسم بالغموض .

لقد كان عملا جريئا حقا . فقد كنا نسير بسرعة خمس عقد ، وكان البحر زاخرا بسمك القرش ، كما كان الولد قد سقط بسرعة من جهة المؤخرة . وكنا نسير تحت الصخور الشاهقة ، وبمحاذاة الشاطئ تماما بحيث كنا في خطر ، وكانت الريح ، التي كان الشراع الكبير ممتلئا بها ، تهب من خلفنا . ولم يكن المركب معدا لمثل هذه الحالات الطارئة ، فلم تكن هناك أحزمة أو عوامات للنجاة أو أية معدات أخرى يمكن استعمالها للانقاذ . وكان قارب النجاة الوحيد ، لحسن الحظ ، واقفا على ركائزه ، ولكنه كان موثقا اليها باحكام شديد . كما كان المركب في وضع سيء ، فقد كنا قريبين من الصخور الشاهقة حتى أننا كنا نسمع صوت الامواج ونراها وهي تتكسر على ذلك الشاطئ الصخري الشديد الوعورة . فاذا جعلنا الريح تهب على الجزء الامامي من الشراع فقط ، فان في ذلك خطر الاندفاع نحو الصخور . أما اذا أوقفنا المركب فجأة وتركناه يهتز بفعل الريح ، التي تهب على الجزء الامامي السفلي من الشراع من الناحية اليسرى ، بعد أن يكون قد فقد سرعته ، فان في ذلك خطرا ماثلا ، اذ من المؤكد أن التيار سيدفعه بسهولة نحو الشاطئ .

وقفت أتساءل عما سيفعله نجدي ، فقد كان عليه أن يستعيد ثلاثة أشخاص بدلا من شخص واحد ، ولم أكن أرى أن باستطاعته القيام بأية حركة لا تعرض المركب للخطر الشديد . ولكنه أثبت ، في مثل هذه الظروف ، أنه بحار ماهر شديد اليقظة ، وكان دائما أسرع مني في معرفة ما يجب عمله . فدون أن تبدو عليه أية علامات للاضطراب ، ودون أن يتحرك من سدته ، أصدر أمرا قصيرا حازما حالت سرعة اصداره دون أن أفهمه . الا أن البحارة أدركوه في الحال ، فقد كانوا دائما بحارة أكفيا ، ولكنهم في الحالات الطارئة كانوا يعملون كالجن . وتنفيذا لأمر نجدي ، أنزلوا العارضة الرئيسية الى منتصف الصاري ، وأدار قائد الدفة دفتها

دورة كبيرة بسرعة فائقة ، فأصبح المركب يقف عرضيا بمواجهة الريح ، بحيث تهب على الجزء الامامي من الشراع ، وتكون مؤخرة المركب باتجاه البحر ، وبهذا تساعد حركته الى الخلف بالابتعاد عن الصخور ، بدلا من الاقتراب منها . وقد تمت تلك العملية بذكاء ورشاقة ، الا أن موقف المركب ظل حرجا ، فقد كان بيننا وبين الدمار الكامل ما لا يزيد عن خمسين ياردة . وكان الامر يتوقف على أي من القوتين سيكون لها التأثير الاكبر على المركب : حركته الخلفية التي لم تكن ذات شأن ، بعد أن أصبح نصف الشراع عديم الفائدة ، أم التيار . فقد كانت حركته الخلفية تبعده عن الصخور ، بينما التيار يدفعه اليها ، ولم يكن بوسع نجدي أن يساعد أيا من القوتين المتصارعتين ، بل لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى أن ينتظر البحارين اللذين قفزا الى البحر ، ويعيدهما الى ظهر المركب بطريقة أو بأخرى . الا أنه لم يكن يخامره هو أو بحارته أي شك في النتيجة النهائية . فقد اندفع البحارة الى مؤخرة المركب وبدأوا بفك وثاق قارب النجاة . وكما كان الامر على سائر المراكب العربية الاخرى ، لم يكن على ظهر مركبنا أي شيء جاهزا للاستعمال الفوري ، فقد كانت سياسة العرب أن يواجهوا الحالات الطارئة عند بروزها ، لا أن يعدوا لها مسبقا . وقد كنت ميالا للسخرية منهم ، الا أنني تعلمت درسا قيما من هذه الحالة الطارئة . فقد كان هؤلاء البحارة الاشواص يعملون في مواجهتها بكفاءة لا تقل عما يتمتع به أي بحارة آخرين في أي مكان آخر في العالم . لقد قاموا بفك ذلك القارب وانزاله الى الماء بسرعة لا تقل عن سرعة البحارة العاملين على أية سفينة بخارية جديدة في انزال مركب للنجاة جاهز للاستعمال مسبقا . وكانوا يعملون جميعا ، ويهزجون جميعا ، ويغنون جميعا !! نعم ، يغنون ، حتى في مواجهة هذه الورطة ، والمركب لا يبعد عن الكارثة أكثر من خمس دقائق ، والطفل يفرق ، والبحاران يكافحان للبقاء على قيد الحياة في بحار تعج بسمك القرش . لقد كان من الواضح أيضا أن أحدا لم يضطرب ، أو يصرخ ، فيما عدا الركاب من البدو . وكان البحارة يعملون بشكل رائع بقيادة نجدي ومساعدة حمد بن سالم . وفي هذه الاثناء ، كان اسماعيل وعبد الله قد ابتعدا كثيرا عن المركب ، حتى لم نعد نستطيع أن نرى سوى نقطتين صغيرتين على سطح ذلك البحر الازرق الشاسع ، ولكن كان بإمكاننا أن نرى أن اسماعيل ممسك بالطفل ، وأن عبد الله كان يساعد في حمله وتعويمه .

وما أن وصل القارب الى الماء ، حتى انطلق بعبد الله شقيق نجدي وهو ممسك بذراع الدفة ، وبالعجوز يوسف الشيرازي وبعریف البحارة وهما يجدفان . وكان هذان يضربان المجذافين بقوة وعزيمة ، ولكن بغير

ذعر أو اضطراب • وكان القارب صغيرا لا يزيد طوله عن ستة عشر قدما ، وبدا لنا كأنه نقطة في ذلك المحيط الشاسع • ولكن البحر كان هادئا وخاليا من الأمواج تقريبا • وكان الخطر الكبير يأتي من سمك القرش بالاضافة الى الصخور • وكان من الواضح تماما أن التيار كان يدفع المركب ببطء في اتجاه الصخور الشاهقة ، التي بدت الآن وكأنها أصبحت فوق الصواري مباشرة ، فعندما كان المركب يهتز ، لم نكن نرى السماء ، بل كنا نشاهد تلك الصخور المخيفة فوق رؤوسنا •

ثم شاهدنا القارب يصل الى الثلاثة الذين كانوا يصارعون البحر ، فينتشل بحارته الطفل أولا ثم الاثنين الآخرين : اسماعيل ، وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، ويرفعونهم الى داخل القارب • بينما كان نجدي يقف قرب ركائز القارب على ميسرة مؤخرة المركب وهو يرقب كل شيء • ويقدر فرص النجاة بالنسبة لمركبه ، ويشتم الصبي البدوي والبدو جميعا ، بل وجميع الركاب الآخرين ، ومن آن لآخر يلتفت الى قائد الدفة ويأمره بادارتها قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال • ها هو القارب يبدأ الآن بالعودة الى المركب ببطء شديد ، على الرغم من أن بحارته كانوا يبذلون كل جهدهم (فقد كانت المجاديف قصيرة ، غير فعالة) • وربما كان يبدو لنا أنه يسير ببطء ، نظرا للخطر الداهم الذي كان ينتظر المركب • ولكي يزيد الطين بلة ، لم يعد البدو يستطيعون ضبط اعصابهم ، فبدأوا يتدفعون على مؤخرة المركب ، وكلهم شوق لمعرفة ما يجري في الناحية الاخرى • ومع أنه لم يبق الان سوى أن يصل القارب ، فيرفع هو وركابه الى ظهر المركب بسلام ، ثم يتخلص المركب من قبضة الريح مرة أخرى وينطلق ، الا أن البدو - مثلهم في ذلك مثل أي ركاب آخرين في أي مكان اخر في العالم يجدون انفسهم في مثل هذه الظروف ، وقد كانوا حتى الآن لا حول لهم ولا قوة ، ولا يستطيعون تقديم أية مساعدة - بدأوا الآن يهللون ويتراكضون ويندفعون ويصيحون بأعلى أصواتهم •

الا أن نجدي تصدى لهم وهو يصيح فيهم قائلا بالعربية (أوهذا ما افترض أنه قاله فعلا) « أبعادوا عن مؤخرة المركب ، يا حثالة البشر ! » •

ولكن البدو ، كعادتهم ، لم يتوقفوا عن الصعود الى المؤخرة ، وكان أولئك الذين في المقدمة يدفعهم أولئك الواقفون خلفهم • وعندها تقدم كل من نجدي وحمد بن سالم ، وكل منهما يرفع عصا طويلة في يده ، يتبعهما ويسندهما ماجد الصوري ، وسعيد المهرب ، من الخلف • ولم يضع نجدي لحظة من الوقت ، بل بدأ في الحال يشق طريقه بالعصا في وسط البدو ،

وأخذ يدفعهم من فوق المؤخرة لكي يفسح مكانا لقارب النجاة ويتمكن من رفعه مع ركابه الى ظهر المركب بسلام ، ولكي يستطيع العناية بالطفل ، اذا لزم الامر ، في الحال ، ودون تعريض حياته لخطر آخر ، الا أن جماهير البدو كانت ما تزال تندفع من الخلف ، كما أخذت صخور رأس حيفون تتردد الصرخات الصادرة عن الركاب الهائجين صيحة صيحة ، وأصبح المنظر على سطح المركب أشبه ما يكون بمستشفى للمجانين . وفي اثناء ذلك كله كان القارب يواصل تقدمه نحونا ، ومركبنا يواصل انحرافه نحو الشاطئ ، كما لم يتوقف البدو عن التدفق على مؤخرة المركب من أي طريق ، فقد كان بعضهم يحاول صعود المؤخرة عن طريق مقدمة القارب الطويل ، أو بالقفز فوق الآخرين أو بالقفز من المركب الجديد الذي كان النجار يقوم بصنعه . ولم استطع أن أفهم ما الذي كانوا يأملون أن يروه ، أو يفعلوه ، أو يجنوه من فعلتهم هذه . ولكن محاولاتهم جميعها باءت بالفشل ، فلم يتوقف نجدي ، الذي لم يكن رجل كلام في الحالات الطارئة ، عن الضرب بعصاه يميناً وشمالاً ، وخلفه كان يقف نائبه الكفاء حمد بن سالم يفعل مثله ، ولا يملان من ذلك أبداً ، الى أن اقتنع البدو المنفعلون أخيراً الا فائدة ترجى من اعتلاء المؤخرة ، وان فكرة اعتلائها لم تكن فكرة صائبة أبداً .

وفي اثناء ذلك كله كان البحارة ، الذين كانوا يهتمون بأمر الشراع في مقدمة المركب ، يحاولون جاهدين الوصول الى المؤخرة مرة ثانية ، الا أن ذلك الحشد الهائل من البشر الهائجين والمتدفقين باتجاه المؤخرة كان يحول بينهم وبينها . وعندما لاحظ عبد الله بن سالم ، عريف البحارة الثاني ، أن الامور يمكن أن تبلغ مرحلة اليأس ، بدأ يتسلق حبال الشراع مستخدماً يديه وقدميه حتى يصل الى رأس الصاري ، ومن هناك ينتقل الى العارضة ويجري على طولها ، ثم يقذف بنفسه الى مؤخرة المركب بواسطة حبل يؤدي اليها ، وبذلك يصل الى بغيته من فوق رؤوس البدو الهائجين . وقد كان هذا عملاً بهلوانياً جباراً ، حتى بالنسبة للقروء . الا أنني سرعان ما لاحظت أن بقية البحارة قد حذوا حذوه وتبعوه واحداً بعد الآخر . وعلى الرغم من صعوبة تأدية مثل هذه الحركة ، بحيث أنها تفوق معظم الحركات العادية التي يقوم بها البهلوانات المحترفون ، الا أن جميع البحارة قاموا بها بسرعة وسهولة تدعوان للاعجاب والدهشة الشديدين . وهكذا كانوا يصلون ، واحداً بعد الآخر ، ويكونون سداً منيعاً وراء ظهر نجدي . وفي لحظة ، تغير الموقف كلياً ، وأصبح من الممكن السيطرة عليه ، وشرع البدو يتراجعون أمام البحارة ، عائدين الى قواعدهم على السطح . لقد كان الموقف غريباً جداً ، كما تتابعت الاحداث بسرعة مذهلة ، حتى انها بدت جميعها لي في وقت حدوثها كأنها حلم ذو مشاهد عجيبة ، دائمة التغير

والتشكل . وكنت أنا انظر الى ذلك المشهد بعيني كأنني أسمع عقلي يقول : « هذا خيال ! هذا لا يحدث فعلا ! هذا لا يمكن أن يحدث أبدا ! » فقد كان اندفاع البدو بهذا الشكل عملا لا معنى له ، وكان انقاذ الطفل عملا لا معنى له ، كما كانت شجاعة اسماعيل الموسيقي لا تدل على ذكاء واضح بأي شكل من الاشكال ، كما أنها كانت ، بالنسبة لي على الاقل ، غير متوقعة على الاطلاق . وربما كان سبب ذلك أن كرهني لموسيقي الرجل قد انعكس كرها للرجل نفسه . ولكنني ، بعد هذا العمل البطولي ، بدأت أحاول الصبر على موسيقاه ، كما بدأت أشعر نحوه بحب عظيم ، فقد كان ، رغم كل شيء ، رجلا طيبا .

وما ان وصل القارب الى جانب المركب ، حتى هدأت الضجة هدوما كاملا ، وصمتت الاصوات فجأة كما بدأت . فرفع القارب الى سطح المركب بدون هياج أو اضطراب سوى صوت البحارة وهم يهزجون ، وأنزل الطفل منه ، وأدير المركب باتجاه هبوب الريح ، فعاود سيره في الطريق السليم ، بعد أن كان قد انحرف حتى أصبح على بعد ثلاثين ياردة فقط من مكان تكسر الامواج على الشاطئ ، تحت تلك الصخور الشاهقة . وقد ترك اسماعيل الموسيقي وعبد الله الرجل الغامض ليعنى كل منهما بنفسه ، فلم يلتفت اليهما أحد : لا نجدي ، ولا حمد ، ولا أي من البدو الآخرين . أما الطفل فقد صفعه نجدي ، وقال له انه اذا سقط مرة أخرى فلن ينقذه أحد . ولم يكن يبدو عليه تأثير كبير مما جرى له ، سوى ما أصابه من البلب ، وسوى شعوره بشيء من الخوف . فانطلق يجري وهو يبتسم ، بينما عاد نجدي — الذي كان عنيفا عندما يثور ، قاسيا دائما — عاد الى مقعده ، وعيناه تلمعان ، وأنفه الأقرنى مرفوع عاليا يستنشق الهواء ، دون أن ينظر الى الصخور ، أو يتكلم مع اسماعيل أو عبد الله ، كما أنه ترك أمر تسيير المركب ثانية الى حمد بن سالم . فقد انتهت الحالة الطارئة . ولكن هجوم البدو على المؤخرة كان عملا غير لائق ، وكان نجدي يكره الاعمال غير اللائقة .

وهكذا عاودنا الابحار بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك . وفي المساء ، عندما حان وقت القاء تحية المساء بعد الصلاة الرابعة ، تقدم « عودة » زعيم البدو الى نجدي ، وقال له بايجاز : « نشكرك يا نجدي على انقاذ الطفل » . فرد نجدي على التحية بوقار وهدوء ، ولم يشر أحد ، لا عندئذ ، ولا بعد ذلك ، الى مسألة تدفق البدو على المؤخرة وطردهم من هناك بالعصى ، كما لم يزعج أحد الشكر لعبد الله أو لاسماعيل . فما ان عاد

هذان الى المركب حتى استأنف اسماعيل عمله وكان شيئاً لم يكن ، سوى أنه قام بعصر قميصه المبتل بالماء من الاسفل * أما عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، فقد ازداد غموضاً ، ووسامة ، ونحولا أكثر من أي وقت مضى ، ولم يقم بأي عمل سوى تبديل قميصه البني والعودة الى تلاوة القرآن * ولكني ، بعد ما حصل ، أصبحت انظر الى هذين الرجلين نظرة مختلفة عن ذي قبل * فقد أصبحت أميل الى اسماعيل وعبد الله ، بل وسامحت اسماعيل على موسيقاه الفظيعة ، كما سامحت عبد الله على غموضه وعلى أية أعمال شائنة يمكن أن ترتبط بذلك الغموض *

عندما وصلنا الى الطرف الجنوبي من الرأس ، غيرنا اتجاهنا وقصدنا حيفون ، وهو أول ميناء سنتوقف فيه في قارة افريقيا * ولم تمض سوى ساعات قلائل حتى كنا قد رسونا هناك * لقد كانت الرحلة حتى الآن ممتعة للغاية ، وان كانت صعبة في بعض الاحيان ، كما كانت الظروف الملاحية مؤاتية جداً * وقد انطبعت في ذاكرتي صور لا تمحى عن السفر على ظهر مركب كبير ، كصورة القمر المنعكسة على الشراع ، وصوت الامواج الخفيفة وهي تلامس المقدمة المنخفضة ثم ترتد بهدوء ، وصورة قائد الدفة المتعب والنعاس يداعب جفنيه ، وخلفه صورة نجدي ذي العينين البراقنتين أبداً ، نجدي المتيقظ طوال الوقت ، نجدي ذلك الاعصار الصغير الهادئ ، نجدي ربان السفن وقائد الرجال ، بالاضافة الى صورة النور الخافت المنبعث من صندوق البوصلة وهو يسقط على أجسام التجار وهم نيام ، بينما يتقلب سعيد المهرب في نومه ويهمهم ، كأنه يحلم بجارية جميلة في « عصب » النائية (١) أو في الحدود الشمالية لبلوخستان *

وهكذا وصلنا الى حيفون ، التي كان الايطاليون يطلقون عليها اسم « دانتي » * ومهما كان اسم المكان ، فهو مكان كريحه ، ليس سوى مصنع للملح تحيط به الرمال ، مع أنه كان في الماضي سوقاً مشهورة ، يرجع تردد التجار الشرقيين عليها الى عدة قرون ماضية * ويقع ميناء حيفون على خليج محمى ، يتكون من أقصى الطرف الجنوبي من ذلك اللسان الصخري المسمى « رأس حيفون » * وكان الميناء في وقت من الاوقات يدعى « أوبون » ، وتحت هذا الاسم يشير اليه ذلك المؤلف المجهول للدليل البحري المسمى : « المراحل

(١) عصب : ميناء صغير على ساحل اريتيريا الشرقى ، الى الشمال من باب المندب مباشرة * (المترجم) *

الملاحية للبحر الاحمر » (١) (الذى يفترض أنه كتب حوالى عام ٦٠ بعد الميلاد ، بعد مدة قصيرة من اكتشاف « هيبا لوس » لما يعرفه العرب — من قبل من الرياح الموسمية) ويتحدث عنه وعن أهميته التجارية حديثا سنورد طرفا منه بعد قليل . الا أن هناك شكاً كبيراً فى مدى معرفة مؤلف هذا الكتاب أو جامعته لبعض الأماكن التى يصفها على الساحل الأفريقى ، لان تقديراته للمسافات مربكة جداً ، ووصفه لتلك الأماكن غامض لدرجة كبيرة ، حتى أن المرء يشك فيما إذا كان قد زار تلك الأماكن فعلاً . ففى الفقرة الثالثة عشرة من كتابه الموجز جداً (فهو دليل يغطى البحر الاحمر بأكمله ، كما يغطى خلجان عدن ، وعمان وكوتش — فى غرب الهند — وبحر العرب ، والساحل الشرقى لأفريقيا ، والساحل الغربى للهند ، وهو يصف كل هذه الأماكن فى ست وستين فقرة فقط ، ليست بينها فقرة واحدة طويلة) ، فى تلك الفقرة يقول كاتب ذلك الدليل :

« وبعد أن تقطع مسافة طولها أربعمائة «ستاديوم» (٢) فى البحر، بمحاذاة رأس يدفعك التيار نحوه أيضاً ، تجد ميناء تجارياً يدعى « أوبون » تورد اليه البضائع التى ورد ذكرها سابقاً . ومن أهم منتوجاته القرقة ، والرقائق الممتازون الذين أصبحوا يؤخذون الى مصر بأعداد متزيدة . وكذلك كميات كبيرة من أصداغ السلاحف التى لا تفوقها فى الجودة أية أصداغ أخرى » .

ويتابع مؤلف الكتاب كلامه قائلاً :

« وتبدأ الرحلة من مصر الى جميع هذه المراكز التجارية النائية حوالى شهر يوليو (تموز) من كل عام . وفى العادة ، تحمل المراكب بالبضائع من الأماكن الواقعة على هذا البحر مثل « أرياك وباريجازا » ، بينما تجلب لها منتوجات وحاصلات البلدان الأخرى كالحنطة والأرز والزبدة المصفاة ، وزيت السمسم والأقمشة القطنية والأحزمة والمسل المستخرج من قصب يدعى « سكارى » . وبعض الناس يقومون برحلات خاصة الى هذه الأسواق ، بينما البعض الآخر يتقايضون البضائع فيها وهم مبحرون بحذاء الساحل الى أماكن أخرى » .

(١) العبارات التى ستذكر فيما بعد والمقتبسة عن هذا الكتاب مأخوذة من ترجمة ولغردسكوف وطبع لونغمانز عام ١٩١٢ (المؤلف)

(٢) الستاديوم (Stadium) وحدة أفريقية قديمة للطول تعادل حوالى (٦٠٧) أقدام انكليزية (المترجم)

ومما يثير الانتباه أن هذه البضائع المذكورة فى عام (٦٠) بعد الميلاد هى بالضبط البضائع التى كنا نحملها على مركبنا الى ميناء « دانتى » أو « أوبون » أو « حيفون » فى عام ١٩٣٩ بعد الميلاد . ومع أن « حيفون » فى هذه الايام لم تعد مثل « أوبون » ، المركز التجارى المزدهر فى يوم من الايام ، ومع أنه أصبح من الصعب الآن بيع جميع هذه البضائع ، الا أن تجار مركبنا ، أحفاد السندباد القديم ، كانوا يبذلون جهدهم لبيع ما لديهم من البضائع . وكانت هناك فروق أخرى بيننا وبين أولئك التجار البحريين الذين يصفهم الدليل المذكور أعلاه . فقد كانت أحزمتنا (واعتقد أن كاتب ذلك الكتاب القديم يعنى بها قطع القماش الطويلة التى يحب الصوماليون أن يلفوها حول خصورهم ، لا أحزمة أو مشدات النساء) من صنع اليابان . كما لم يكن « العسل المستخرج من القصب المسمى سكارى » الا سكرًا جاويا عاديا آتيا من جزر الهند الشرقية الهولندية ، ومحملا من ميناء عدن . وكان معظم السمن الذى نحملة محفوظا فى صفائح كاز فارغة . كما أننا لم نكن نقوم « برحلة خاصة الى تلك المدن التجارية » لأنها لم تعد تجارية تعج بالاسواق كما كانت فى السابق ، بل كنا كالأخريين الذين يتقايضون بضائعهم وهم مسافرون الى أماكن أخرى . ولم نر شيئا من الترفة أو أصداف السلاحف ، بل كان كل ما أخذناه من حيفون هو سمك القرش الميت منذ زمن طويل . أما « الرقيق الممتاز » ، فكل ما استطعت أن أعرفه عنهم أنهم لا يمكن أن يكونوا من نفس القبيلة التى ينتمى اليها الصوماليون الحاليون . فنادرا ما يكون الصومالى عبدا ، واذا حدث أن أصبح عبدا ، فلن يكون من النوع الممتاز أبدا .

أعتقد أن اقامتنا فى ميناء حيفون كانت مثالا لما تقوم به معظم المراكب الشراعية فى هذه الايام . وقد صادفت بضع مفاجآت ، ولكن لم تكن أى منها مفاجأة سارة جدا . فعندما كنت أفكر بهذه الرحلة التجارية قبل أن تبدأ ، تصورت أننا سنمر بعدد من الموانئ اللطيفة الواقعة على الانهار داخل أفريقيا ، أو على خليجان رومانسية جميلة ، وأننا سنمكث فى كل منها الى أن يتقايض تجار المركب بضائعهم . ولكن يبدو أنى كنت أحلم بهذه الاشياء ، دون أن أعلم شيئا عن الساحل الصومالى . وهانحن نصل الان الى أولى المحطات ، فنجد المكان لا يزيد عن كونه نصف دائرة من الرمل الاغبر ، ونجد الشاطئ وقد غطاه روث الاغنام وأحشاء السمك ، بينما يقف فى وسط المنظر كله مصنع حديث جدا للملح ، تخرج منه السدلام المملوءة ، واحدا بعد الآخر ، على حزام الى طويل جدا ، الى أن تصل الى مرسى مقابل للشاطئ . ونجد على يمين هذا المصنع أكواخا سكنية للايطاليين ، وبيتا لسكنى المعتمد يرفرف عليه العلم الايطالى . كما نرى على يساره قرية صومالية حقيرة ممتدة على الشاطئ الحار ، يبدو عليها الفقر والقذارة ولا تستحق الوصف ، بل تعطيك

فكرة واضحة عن عبث المحاولة للحصول على أسباب العيش الكريم في مثل هذا المكان .

وعندما وصلنا الى الخليج رسا مركبنا مع اثنين من المراكب الكويتية، وآخرين من المراكب الفارسية ، بينما كانت الريح الآتية من البر تهب علينا فتحمل جميع الروائح القذرة المنبعثة من السطح الرئيسي للمركب الى المؤخرة ، حيث أعيش ، فتجعل الحياة على ظهر المركب جحيما لا يطاق . وقد أقمنا هناك أسبوعين لم يحدث خلالها الا الشيء القليل ، وخلال الايام القليلة الاولى لم يحدث شيء على الاطلاق . وكان أول من استقبلنا فريق مكون من اثنين من الايطاليين ، وممرض صومالي ، وعدد من الجنود . وبما أن الايطاليين كانوا قد تعلموا من خبرتهم الطويلة أهمية احصاء المسافرين ، فقد بدأ الموظفان الايطاليان في الحال باعداد أشمل قائمة ممكنة لركاب المركب . وقد حاولا أن يتما تلك القائمة يوما بعد يوم ، ولكن دون جدوى . بل ان العملية كانت مهزلة بالفعل . فقد كان التاجر الصوري ، وسائر الركاب الغامضين الآخرين ، قد اختفوا من على جوانب المركب ، ونحن في طريقنا الى المرسى . ولم يستطع ذانك الموظفان الانتهاء من القائمة بعد أربعة أيام كاملة . بل انها لم تكمل قط . أما الممرض الصومالي ، الذي كانت مظاهر الكآبة واضحة على محياه ، فقد مر على جميع الركاب واحدا واحدا ، وهو يخدش ذراع كل منهم بأداة من الفولاذ الحاد ، ثم يضع عليها نوعا من اللقاح المضاد لمرض الجدري . ولم أكن ألوم الايطاليين كثيرا لعدم ترحيبهم ، كما ينبغي ، بالمراكب العربية التي تتردد على الميناء ، ولكنهم ، أولا وآخرا ، هم المسؤولون عن المكان ، بعد أن استولوا عليه واحتلوه منذ فترة قصيرة ، بينما التجارة العربية معه قديمة جدا . كما أن العرب يجلبون معهم البضائع ويبيعونها لأصحاب المتاجر العربية لبيعها هؤلاء بدورهم الى الصوماليين . فهم لا ينافسون الايطاليين في تجارتهم ، بل ولا يستطيعون ذلك حتى لو أرادوا ، وهم لا يريدون ذلك بالفعل . وقد لاحظت هناك ، وفي كل مكان آخر ، أننا كنا نتاجر مع العرب فقط ، تماما كما لاحظت فيما بعد أن أصحاب المراكب الهندية الآتية من كوتش وبمباي لم يكونوا يتعاملون الا مع أبناء جلدتهم ، ولم يكونوا يجلبون البضائع الا لهم .

ومرت الأيام ، والمركب يهتز بنا ، في خليج حيفون وسط عالم من القذارة والسخام المتطاير من المواقد ، بينما كان البدو يصيدون السمك ، ويتصارعون ويتصايحون . وفيما عدا ذلك ، لم يحدث شيء يذكر . وفيما عدا طاقم المركب ، لم يسمح لأحد بالنزول ، وبدأت أتساءل ما الذي أتى بنا الى هنا . وبما أنني كنت أوروبيا ، فقد كنت مشكوكا في أمري . أما سبب الشك فلم أستطع أن أعرف عنه الشيء الكثير .

ولكن يبدو أن الايطاليين كانوا يرتابون بأني عميل بريطاني ، أو أنني أسعى الى القيام بعمل تخريبي من نوع ما ، فربما كنت ذاهبا لاثارة الفتن في الحبشة ، أو لاشاعة الفوضى والتدمير بين الصوماليين ، الذين لا يكفون عن التدمير بطبيعتهم . وقد كنت ميالا للسخرية من هذا الشك ، الا أن نجدي ، كان منزعجا جدا . فواقع الامر بالنسبة له ، أنني اذا كنت موضع شك ، فالمركب وربانه موضع شك أيضا ، وهذا أمر يضر بالتجارة ضررا بالغا . ولكن من المعروف ان للايطاليين أنفسهم - أو كان لهم على الاقل - بعض العملاء في العراق واليمن وأماكن أخرى ، عملاء لم يكن أحد منهم يشجع الناس على قبول هذا العالم الرائع كما هو والعيش فيه بسلام ، وربما كان استخدامهم هم للخونة ، مروجي الآراء الهدامة ، هو الذي كان يجعلهم يشكون في أمري . وقد أضاف نجدي الى ذلك قوله انهم بطبيعتهم دائمو الشك . فقد كانوا يرفضون أن يصدقوا مثلا أن لورنس قد مات فعلا . وكانوا يشكون في جميع البريطانيين وحتى في معظم العرب . أما فكرة حسباني لورنس عن طريق الخطأ ، فانها فكرة - رغم اعتزازي بها - لم تنطل على أحد ، حتى على البدو الذين كانوا معنا . فقد كان لورنس رجلا قصير القامة ، صغير الجسم ، شديد البياض ، بينما كنت ابلغ من الطول ستة أقدام ، ومن الوزن مائة وستين رطلا انجليزيا ، حتى بعد مضي شهرين على ابحاري مع العرب . وكان لورنس قد لقي حتفه فعلا ، كما يعرف العالم بأسره ، ولم يكن هناك أي غموض في طريقة موته .

ومهما يكن من أمر ، فهذا هو ما حدث ، ووجدت نفسي سجيناً على ظهر المركب ، بعد أن قام الممرض الصومالي بتطعيمي ضد الجدري . ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا سوى أن أنتظر على ظهر المركب . وكانت مراكب أخرى من نوع « البوم » تأتي ، ومراكب من نوع السمبوك تقف راسية وكأنها مهجورة . ولم تكن هذه الطريقة المربية في التجارة البحرية تدل على الاهتمام الشديد . فقد كنا نقف هناك يوما بعد يوم ، دون أن يحدث شيء ، أو بكلام آخر ، دون أن يحدث شيء بالنسبة لتجارة المركب . أما سعيد وماجد وبقية المهريين ، - الذين ظهروا ثانية على المركب بعد أن انتهى احصاء الركاب ، (وبعد أن اختفوا خلال تلك المدة في مراكب أخرى تم تفتيشها واحصاء ركابها دون أن يلاحظ ذلك أحد) - فقد بدأوا عملياتهم بدون تأخير ، كما حذا حذوهم حمد بن سالم ، وعبد الله النجدي ، وسائر البحارة الآخرين تقريبا ، وبدأت البضائع المتنوعة من الخردوات والاقمشة الزاهية الألوان والزجاجات الصغيرة من العطور تأخذ طريقها الى ذلك الشاطئ المغطى بروث الحيوانات . وفي معظم الاحيان ، كان الصوماليون هم الذين يأتون إلينا ليأخذوا البضاعة . وكانوا يأتون ليلا في قوارب

صغيرة مصنوعة من جذوع الاشجار ، أو ينسلون بجانب المركب في قوارب صيدهم ، ويتناولون رزمة من القماش من المركب ، سرعان ما يخفونها تحت صيدهم من السمك ، ويتابعون سيرهم وكان شيئاً لم يكن . لقد كانوا في غاية الذكاء والمكر . وكان من بين الاشخاص الذين يتاجرون معنا بشكل منتظم اولئك الرحالة ذوو الشعور المسبلة على جانبي الوجه ، أحفاد السندباد ، الذين كانوا يبحرون على المراكب العمانية القادمة من صور ، والذين لم يكن معهم مال يشترون به البضاعة ، فيأخذونها نسيئة . وكان هؤلاء يشترون كميات كبيرة من البضائع لم آكن متأكدا ماذا يفعلون بها كلها ، وان كنت أعتقد أنهم كانوا في كثير من الاحيان يبيعونها ثانية في الموانئ الصغيرة الواقعة على ساحل أفريقيا ما بين حيفون وموقاديشو .

وسرعان ما أصبحت أجد متعة وتسلية في كل ما يحدث على ظهر « ذبح النخيل » ، فقد كانت المناظر تتغير وتبعد ذهني عن الوضع السيء جدا الذي كنا فيه . فلم أعر اهتماما كبيرا لقضية منعي من النزول الى البر ، فحتى في مكان سيء مثل حيفون ، لم يكن يمر يوم على ظهر المركب شبيه بسابقه . بل اني ، بعد مرور بضعة أيام ، أصبحت أرى شيئاً من الجمال في حيفون نفسها ، فقد كانت التلال الكلسية المحيطة بالميناء تبدو جميلة جدا في المساء عند مغيب الشمس ، وفي الفجر عند بدء طلوعها .

كنت لا أزال أشكو من العرج الشديد بحيث لم يكن بإمكانني السير على قدمي الا بضع خطوات ولكنني كنت سعيدا على ظهر المركب . فقد اعتدت على تناول أصناف الطعام نفسها كل يوم . واذا كان الماء سيئا ، فلا بد أنني قد اكتسبت بمرور الوقت مناعة ضد ما يمكن أن يصيبني منه . واذا كان مقدرا لي أن يصيبني البدو بالعدوى من مرض معين ، فقد كانت هذه مجازفة لا بد أن أقوم بها . وقد بدأت بالفعل أعراض المراحل الاولى من نوع خفيف من الجدام تظهر على بعضهم .

كنت أعجب دائما من اذعان البدو وتقبلهم بصمت واستسلام لكل ما يحدث لهم ، سواء أكان متوقعا أو مخططا له ، أم لم يكن . فقد قيل لهم مثلا عندما اعتلوا ظهر المركب في ميناء شحر بأن الرحلة كلها لن تستغرق أكثر من عشرة أيام ، ولكن ما قد مضت ثلاثة أسابيع ولما تغادر ميناء حيفون . ولم يكن يبدو أنهم يكثرثون لذلك ، بل اني أشك فيما اذا كانوا يشعرون فعلا بمرور الايام ، لأن رحمة الله كانت بالنسبة لهم واسعة . فلم يكونوا يستبقون المشاكل أبدا . كما أنني أتساءل كيف كانوا يدبرون أمر طعامهم . ولكنني لاحظت أن بإمكانهم العيش على القليل القليل منه، وكان السمك وفيرا .

وقد كان باستطاعتهم أن يحصلوا على قطعة من الخبز مما يصنع في المركب ، ولكن معظمهم كانوا يفضلون أن يصنعوا خبزهم بأنفسهم ، وكانوا يخبزونه على نار الحطب ، ويبقى كثير من الرماد عالقا به .

كانت أيامنا تبدأ قبل الفجر بكثير ، فقد كان المؤذنون يبدأون أذانهم قبل مدة من ظهور أي أثر للضياء في الأفق الشرقي . وكان ذلك الشيخ الذي رافقنا من ميناء شحر ، والذي كان قد عزل بحارنا « سلطان » من مهنة الأذان الرتيبة ، كان يصر على الأذان عدة مرات اضافية خلال النهار ، وكان توقيته مخالفا للواقع ، حتى بالنسبة للعرب . صحيح أنه ليس لدى العربي أفكار محددة جدا عن الوقت ، إلا أن أوقات الدعوة للصلاة كانت محددة بشكل معقول : فكان هناك الأذان الاول عند الفجر ، عندما تبدو أول ملامح الضياء في السماء . وكان الأذان الثاني عند الظهر أو بعد منتصف النهار بقليل ، والثالث عند العصر ، أي عندما يخف وهج الشمس ، ويتحول لونها من الحمرة الى البياض ، وتطول ظلال الاشياء . وكان الأذان الرابع عند مغيب الشمس تماما . أما الخامس ، أو أذان العشاء ، فقد كان في أي وقت ما بين مغيب الشمس والفجر (١) ، ولكنهم كانوا يؤذنون لصلاة العشاء بعد ساعتين تقريبا من أذان المغرب ، وذلك حرصا على راحة الركاب والبحارة . لقد كان شيخنا الشحري هذا مخلوقا حقيرا ليس فيه شيء من صفات رجل الدين ، وكان يستمتع استمتاعا كبيرا بأدائه الأذان ، حتى أنه كان يؤذن للمظهر ثلاث مرات أو أربعا في اليوم نفسه ، وينام بين كل أذان وآخر ، ثم يصحو دون أي ادراك للوقت ، بل ربما لم يكن يدرك أننا ما زلنا في نفس اليوم . وقد أزعجنا بأذانه هذا ازهاجا كبيرا ، حتى أن نجدى - الذي لم يكن يحب أن يضطر لاتخاذ اجراءات حازمة ضد أي انسان أو أي شيء - اضطر في نهاية الأمر أن يعلق جرس المركب على عمود مواجه لمقعد قائد الدفة ، وأن يطلب من هذا أن يقرع الجرس كلما حان الوقت الصحيح للأذان . وكان هذا الجرس حريا أن يكون معلقا في عنق إحدى الأبقار ، لا على متن أحد المراكب ، وكان قد اشترى من أحد أسواق الخردة في مدينة بومباي في الهند ، كغيره من الآلات والمعدات الملاحية التي كانت تلزم للمراكب العربية . وقد أدى هذا النظام الجديد وظيفته بشكل سليم بضعة أيام ، إلا أن مديري الدفة بدأوا ينسون قرع الجرس ، وسرعان ما عاد كل شيء الى سابق عهده ، وبعد مدة قصيرة اختفى الجرس في جوف المركب مرة ثانية .

(١) هذا الكلام غير صحيح طبعا ، فهناك وقت محدد تماما لأذان العشاء ، وهو ما يشير اليه المؤلف في القسم الثاني من هذه الجملة (المترجم) .

وهكذا كانت الأيام تمر على البدو في هذا المرسى الجار ، وهم يؤدون الصلاة ، ويطبخون ، ويتناولون طعامهم ، ويتأمنون ، ويصيدون السمك ، وينظفونه ، ويتفرجون على ما يجري على ظهور المراكب الأخرى ، ويتشاجرون ، ويتصايحون ، وينظفون وزراتهم وقمصانهم من القمل العالق بها . أما ركاب الدرجة الأولى ، على المؤخرة ، فقد كانوا منهمكين كل الانهماك في عمليات التهريب .

في صباح أحد الأيام وقفت أرقب ما يجري على سطح المركب . وكان المنظر عاديا شبيها بما يمكن أن أشهده كل صباح . فعلى الجزء الأيسر من السطح - على رأس السلوقية ، الذي كان في الواقع مكانا يعمل عليه البحارة عند رفع المرساة أو انزالها ، وعند تغيير اتجاه المركب - كان جاسم الطباخ وأحد المسافرين يقومان بدبح وسلخ عنزة صومالية كبيرة ، كانت مربوطة هناك بحبل طوال الليلة السابقة . وعلى الناحية الأخرى من رأس السلوقية ، كان ثلاثة من البحارة ينظفون السمك الذي كن قد اصطادوه ، في الليلة الفائتة ، حسن ، مدير الدفة ، ومحمد أميري ، النائمان الآن - بعد تعب الليلة السابقة - وهما يشخران ، قرب الموقد ، بينما كان البدو لا ينقطعون عن الحركة من حولهما . ولم تكن عملية تنظيف السمك هذه عملية صحية أبدا . فلم يكن الوقت يهدر في تقشير السمك أو غسله ، بل كان يشق بضربة قوية من الفأس ، وتنزع عظام العمود الفقري بسكين صدئة ، ثم يملح اللحم بملح خشن قدر ممزوج بكل ما يمكن أن يتطاير من السطح في ذلك الوقت ، ثم يدوسه البحارة بأقدامهم . وكان السطح قدرا للغاية وملطخا بالدماء ، والملح خشنا وغير نظيف . وقد جعلني هذا المنظر أزهد في السمك وأعف عن أكله منذ تلك اللحظة . (وواقع الأمر أن أية زيارة أقوم بها للجزء الأمامي من المركب ، كانت كفيلة باقناعي بالامتناع عن أكل أي طعام يصنع على ظهره امتناعا تاما) . وبعد أن يشق السمك ويملح كان يعلق على الحبال ليجف في الشمس .

وفي أثناء ذلك ، كانت عملية تقطيع العنزة قد أتت إلى نهايتها ، وكان جاسم وزميله البدوي يكومان العنزة المذبوحة في القدر الضخم . وكان يراقبهما غلام بدوي ذو شعر طويل ، وملامح لطيفة ناعمة ، ولولا استقامة جسمه النحيل ، لحسبه المرء فتاة . وكان يلبس سوارا فضيا في معصم يده اليمنى ، كما كان خنجر يتدلى من طيات وزرته . لقد كان غلاما لطيفا ، وكان هو وعودة ، ذلك الزعيم العجوز أهدأ راكبين على ظهر المركب . وقد كنت أتساءل ما الذي أتى بذلك الغلام إلى مثل هذه الرحلة الطويلة المتجهة إلى زنجبار . وقد سألته مرة ، ولكنه لم يكن يعرف الجواب . بل لم يكن

يعلم حتى وجهة سفر المركب ، فقد كان فتى خجولا وكتوما جدا • وقد
تصورت أن مجاعة يمكن أن تكون قد حلت بقبيلته ، بحيث لم يعد هناك من
الطعام ما يكفي للصغار ، وربما سمع الكبار يتحدثون عن فرص أفضل
متوافرة في أفريقيا ، فأتى • فقد كان من أقصى داخل حضرموت ، بحذاء
الصحراء الكبرى • وعندما سأله عما اذا كان سيعود الى وطنه ، أجاب أن
ذلك مؤكد بمشيئة الله • فقد كان يأمل أن يقضي ثلاث سنوات أو أربعا
فقط في أفريقيا • وقد كنت أتساءل أين سيسمح له بالنزول الى البر ،
وكيف تمكن من دفع أجرة سفره • فقد كانت حتى الروبيات القليلة ثروة
بالنسبة لانسان مثله • وقد أخبرني بأنه هو وبعض الفتيان الآخرين من
قبيلته قد حملوا بعض البخور على جمالهم من حدود الصحراء الى المكلا ،
حيث تمكنوا من بيع الجمال وما عليها من الحمولة ، وبذلك حصلوا على
بعض المال اللازم للسفر •

وهناك ، بالقرب من الموقد الذي تسيطر عليه الفوضى والدخان ، كان
جاسم ، - والحزن والسواد باديان على محياه اكثر من أي وقت مضى -
يقعي على فتحة السطح الامامية ، ويحرك لحم العنزة التي في داخل القدر
بقطعة من الحطب • وكان غطاء الفتحة نفسه يبدو منظرا مخيفا ، وهو
مغطى بقطع من أحشاء العنزة ، وحراشف السمك ، وتحيط به أدوات الطبخ ،
والحطب ، وبذور التمر ، وكسرات الخبز • فقد كان عبد الله النجدي
وزمرته ، بغض النظر عن كل ما يجري حولهم ، يواصلون تعبئة العلب
الصغيرة « بأجود أنواع التمور البصرية » ! ولعمري ، اذا كانت هذه هي
أجود أنواع التمور الآتية من البصرة ، فلا بد أن تمور البصرة سيئة
لللغاية ، ولا أبغي شيئا منها • ولكن الواقع أن هذه العبارة المكتوبة على كل
صندوق كانت مجرد افتراء على الحقيقة • فقد كانت هذه التمور قديمة
جدا ، وكان العرب يرغبون في بيعها الى الصوماليين ، الذين لم يكونوا
يميزون النث من السمين • ولذلك كانت توضع في تلك الصناديق التي
كتبت عليها تلك العبارة للمساعدة على بيعها والتخلص منها • وقد كان
لدينا ستون جلة كبيرة من هذه التمور ، شحنت من مخازن أحد تجار عدن
حيث كانت مخزونة سنوات عديدة تنتظر السوق المناسبة • وقد كانت هذه
هي الفرصة الوحيدة لبيع تلك التمور ، فاذا لم نتمكن من بيعها للصوماليين،
فليس هناك مصير آخر لها سوى قاع البحر ، لأننا لن نتمكن من بيعها
لغيرهم •

تحت مؤخرة المركب الجديد على سطح « فتح الخير » ، كانت فتاة
صغيرة مستفرقة في النوم • وكانت هذه مخلوقا صغيرا بدينا ، ترتدي

ثوبا ملونا طويلا ، وعلى رأسها غطاء أسود ، كما كانت يداها المكتنزتان ووجهها المستدير مزينة بخطوط كثيرة سوداء أو بلون الحناء ، ومن أذنيها تتدلى حللى فضية ، تكاد تبلغ العشر فى كل أذن ، تسمع لها جلجلة أثناء المشى . أمثال هذه الفتاة لم يكن يظهرن على السطح الا خلال النهار . أما فى الليل فلم يكن يسمح لأي أنثى سوى القطة بالتجول خارج حدود القمرة الكبيرة . وعلى الألواح الخشنة فى قاع ذلك المركب ، كان يستلقى عدد من البدو وقد وضعوا بعض طيات زنانيرهم الطويلة فوق رؤوسهم لحمايتها من الشمس . فلم يكن البدو يلبسون شيئا ، لا كوفية ولا عمامة ، على رؤوسهم . وكان غيرهم يقعون حيث يجدون متسعا على السطح الرئيسى ، ويعبدون طعامهم على نار صغيرة أو يقلون السمك ، أو يسلقون الارز ، أو يخبزون الخبز . بينما كان آخرون يتناولون طعامهم ، وآخرون يعدون القهوة فى أوان نحاسية ذات ميازيب طويلة ، مصممة بشكل يجعلها تستخلص أكبر كمية من الحرارة من أقل كمية من الفحم المشتعل . وكانت جماعة أخرى من البدو تشرب القهوة . ويبدو أنه كلما كانت القهوة سيئة ، أصبحت طريقة تقديمها رسمية ومعقدة . فقد كان بعض البدو يدورون بفناجين القهوة الرديئة وفى كل منها كمية صغيرة جدا ، وكانهم يقدمون ترياق الآلهة ، فهم ينحنون ويتكئون بالفناجين الخزفية على ميزاب القدر وكانهم رؤساء الندل فى فندق ريتز الفخم بلندن . وكان بعضهم يلبون نداء الطبيعة فى صناديق صغيرة مصفوفة على جانبى المركب ، بينما كان آخر ينظف قدرا ، دون اهتمام كبير ، وولدان صغيران يتشاجران دون أن يفصل بينهما أحد ، فلم يكن أحدهما يؤذى الآخر ، كما لم يكونا يؤذيان أحدا . وفى أماكن أخرى على السطح كان البدو يدهنون أجسامهم بالزيت ، أو يطلون أحدهم شعر الآخر بالزبد . وعلى المؤخرة ، كان تاجر صورى يلف عددا من الوزرات الجديدة حول وسطه ، واثنيتين أخريين حول فخذه قبل أن ينزل الى الشاطئ ، فقد كانت أسعار الوزرات المعدنية جيدة فى هذا المكان ، ويمكن بيعها للتجار العرب المقيمين هناك . وبالقرب منه كان طفل حصرمى ، يطل شئ من الخبث من عينيه ، يلتهم طبقا من الارز كالذئب وكأنه يخاف أن ينتزعه أحد منه . وكانت هناك مشادة قائمة بالقرب من صهاريج الماء .

أما يوسف الشيرازى فقد كان متربعا على صندوق بجوارى ، منهمكا فى عمل ما ، حتى أنه لم يرفع رأسه ليستفهم عن سبب الضجة القائمة . فأخذت أرقب ما يصنع ، ووجدت أنه ما زال منهمكا فى نفس العمل الغامض الذى لاحظت أنه كان يقوم به ، ونحن نبحر مقابل رأس حيفون . فقد كان يصنع دواء ، كان يبدو لى كأنه شراب من اعداد السحرة . فقد كان معه عدد من الصرر الصغيرة ، فى داخلها بذور وأشياء أخرى ، كما كانت بعض

الاعشاب مربوطة فى أطراف كوفيات قديمة • وكان يلقي قطعاً معوجة من الحشائش ، وأجزاء مختلفة من أوراق الشجر ، وبعض البذور القديمة المجففة ، وبعض قطع من لحاء الشجر ، و قطعاً كانت تبدو لى كأنها الخيوط - كان يلقي كل هذه الاشياء فى اناء ، ثم يأخذ بدقها وطحنها ومزجها معاً بكل همة ونشاط • وعندما سألته عن فائدة ذلك الخليط العجيب وطريقة استخدامه لم يجب سوى أنه دواء • وأشار الى عينيه ، اللتين كانتا تسيلان ، وأضاف قائلاً انه سيكون دواء شافياً باذن الله ، وأن ما يصنعه ليس مرهما بل سائلاً للشرب • وكان يمزج المواد فى قعر اناء عراقي ، ويحركها بطرف خنجر من خناجر البدو • وقد كنت أتمنى لو أمكننى تقديم المساعدة بالنسبة لعينيه ، ولكن لم يكن ذلك بمقدوري • فقد كان مرضهما قديماً ، يعود هذه الى أيام الفوص ، بحسب قوله • فقد كان غواصاً كويتياً على اللؤلؤ سنوات طويلة ، وهو يشكر الله الآن لخلاصه من تلك الحياة ، فقد كانت حياة صعبة ، وكانت تؤذي العينين والرئتين ، بالإضافة الى المعدة طبعاً • كان يقول ذلك وهو لا يتوقف عن مزج المواد وتحريكها بشكل منتظم • لقد كان أعجب دواء رأيته فى حياتي •

وقد علمت فيما بعد أن الدواء كان وصفة لزيادة ادرار الحليب من أئداء البدويات حديثات الولادة • وكان يوسف يريد الحليب البشرى ليفسل عينيه به ، فهو يعتقد أنه سيكون مفيداً لهما • وكان هذا الدواء من أسرار الحرير التي تعلمها يوسف وهو فى الكويت ، وسيستخدم ليزيد من كمية الحليب فى ثديي إحدى الأمهات البدويات الموجودات فى القمرة الكبيرة ، وهي امرأة ناضجة وافقت على التعاون مع يوسف ومساعدته فى شفاء عينيه •

وكان يرسو خلفنا أربعة عشر سمبوكا ، معظمها من ساحل المهرة ومن الموانئ الصغيرة بالقرب من صور ، ليس عليها أي نشاط سوى رقص البحارة وغنائهم وهم يجلبون ماء الشرب اليها • وكان الماء هذا رديئاً ، مجلوباً من بئر مأوها آسن • وربما كان الرقص والغناء والضجة التي يقيمونها ضرورية لطرد الجن من داخل ذلك الماء •

مرت الأيام ونحن راسون فى ميناء حيفون ، وازدادت قذارة السطح الذي لم يكن ينظف قط ، حتى أنه أصبح كالمستنقع ، وصرت أخشى من مجرد الوصول اليه • وكانت الشمس تسطع ، والبدو يتصايحون ، والسمك يزداد نتناً ، الا أننا لم نقم بأي عمل تجاري بالنسبة لحمولتنا • وقد بدأت أعتقد أننا قد وصلنا الى هنا خطأ • فإذا كان الأمر كذلك ، فقد كنت أتمنى

أن يصحح ذلك الخطأ ونرحل ، فلم يكن ميناء حيفون بالميناء المثالي لرسونا ، وبذائي محبوبا على المركب مع جيش من البدو لم يكن بالأمر السار على الأزدق .

وفي أثناء وجودنا في ميناء حيفون ، أتيت لي فرص عديدة لفحص وزيارة البغلة الفارسية الجميلة التي كانت راسية بجوارنا ، لأن أمر منعي من مغادرة المركب لم يكن ينطبق على زياراتي للمراكب الأخرى الراسية في الميناء . وقد كانت هذه هي نفس البغلة التي أبهرت معنا من عدن ومن المكلا . وكان اسمها « أمل الرحمة » (وهو اسم كان يتغير أحيانا ، كما كنا نغير اسم مركبنا أيضا) ، وكان ربانها ، سليمان رضوان بن سعيد ، رجلا فارسيا منفيا عن بلده الى الكويت ، وكان عدد بحارتها ثلاثة وثلاثين ، وحمولتها ثلاثة آلاف جلة من التمر ، أي حوالي مائتي طن ، وكانت مركبا جميلا . وقد دهشت لعدم وجود أي مسافرين على ظهرها ، على الرغم من كونها أكبر ، وأوسع أسطحة من مركبنا . وقد فسر نجدي ذلك بأن المسافرين كانوا يفضلون البوم على البغلة ، لأن البغلة كانت في طريقها الى الانقراض ، فقد كانت أقل احتمالا للبحر من البوم ، كما كانت مؤخرتها ، رغم جمالها وزخرفتها ، غير مأمونة في بحر هائج . ولكن ربما كان أحد الأسباب أيضا ما علمته من البعض ، من أن سليمان بن سعيد كان رجلا سيء السمعة . وكان هذا رجلا صغير القامة ، ذا عينيْن شديديتي البريق ، أحدهما قريبة من الأخرى ، في وجه جاف قاس كالجلد ، تحيط بذقنه لحية تساعد على اظهاره بمظهر شيطاني . ومع أنه كان فارسيا ، إلا أنه كان يرتدي الملابس الكويتية دائما ، من الدشداشة الطويلة البيضاء ، الى الكوفية والعقال . بينما كان غيره من الفرس يعتمرون عمام كبيرة يثبتونها حول رؤوسهم ، ويلفونها بطريقة هندسية جميلة مميزة عن غيرهم . إلا أن سليمان على ما يبدو ، لم يعد فخورا بقوميته بسبب نفيه عن بلاده .

وعلى هذه البغلة ، كان مع النوخدة ، اثنان من أبنائه ، يبلغ عمر أحدهما الثامنة وثنانيهما الثانية عشرة ، وكانا طفلين مرحين ، يهملان ويطلبان كلما رأياني لكي أقوم بتصويرهما . وقد فهمت أنهما كانا يتدربان ، أما على ماذا يتدربان وماذا يتعلمان ، فهذا أمر متروك لهما ، ولكن كان من الواضح أنهما قد تعلمتا كثيرا من اللعب والعبث .

كانت البغلة « أمل الرحمة » قد وصلت الى حيفون قبلنا بأسبوع ، وأقام سليمان وليمة في اليوم الثاني لوصولنا ، كنت أحد المدعوين اليها .

وكان الطعام يتألف من المواد العادية : العنزة المعروفة والأرز ، وقد قدم على المؤخرة ، تحت مظلة تقي من الشمس . وكان الطعام على الأقل أفضل من السمك الذي كنا نأكله ، كما أثارت البغلة انتباهي الى حد كبير . فقد كانت أكبر البغلات الباقية ، وأجملها من جهات عدة . فقد كانت دائما تثيرني ، كلما جلست على ذلك المقعد القائم خلف الدفة ، في ذلك المكان المرتفع من المؤخرة التي ترتفع من السطح بانحدار شديد ، وكلما نظرت من هناك الى تلك الخطوط الانسيابية الجميلة لأسطحها العتيقة ، من الألواح البالية على مؤخرتها الى قرننها الموج في مقدمتها المنخفضة . ومع أنني شأهت هذه البغلة عدة مرات فيما بعد ، كما أنني اعتليت ظهرها مرات لا تحصى ، فقد كنت أغادرها دائما وأنا أتمنى لو استطعت البقاء . فقد كان منظرها جميلا من الخارج ، كما كانت جميلة من الداخل . وكانت جنبات مؤخرتها ذات النوافذ تتحلى بجمال خاص . وكان الجزء البضاوي من هيكلها المصنوع من خشب الساج القديم مزخرفا بنماذج معقدة ، محفورة عليه ، كما كانت مقدمتها المعقوفة تسبح في الماء برشاقة وخفة وكأنها صدر أوزة جميلة . وكان حجمها كبيرا بالنسبة للمراكب العربية . وكان هيكلها المصنوع من خشب الساج ، المطلي بالزيت ، يطفو على سطح الماء برشاقة وقوة وجمال ، وكان كل ما فيها يدل على قوة احتمالها للبحر ، على الرغم مما قاله نجدي عن ضعف مؤخرتها . فقد كان من الغريب أن تعيش كل هذه المدة ، اذا كان ما قاله نجدي عن ضعف مؤخرتها صحيحا ، فقد كانت تعود الى عهد تجارة الرقيق ، ولا يقل عمرها عن خمسين عاما . وككل المراكب العربية الأخرى ، كان كل خط من خطوطها ينساب ، ويتصل بشكل منسجم تماما مع بقية أجزاء جسمها الجميل ، هذا على الرغم من أنها كانت قد بنيت على شواطئ صور ، على أيدي نجارين لا يعلمون شيئا حتى عن أبسط أنواع الرسوم الهندسية . فقد بنيت اعتمادا على النظر وحده ، فخرجت جميلة رائعة ، مع أنها لم تكن الا مجموعة من قطع الساج غير المتوائمة ، مثبت بعضها ببعض بمسامير من الحديد الضعيف ، ومع أنك كنت تستطيع أن ترى بعض الألواح السيئة التركيب وقد انفتلت ونتاجت هنا وهناك ، والصدأ يقطر من كل جزء من اجزائها ، وقطع القطن تبرز من جنباتها . وكانت الممرات الجانبية محفوفة بأفاريز مشبكة كأنها نوافذ غرف الحريم ، كما كانت النوافذ الخمس على جانبي المؤخرة مزودة بقضبان من الحديد ، وكان المصراع الخشبي لحدى النوافذ يتأرجح فتبدو عليه النقوش الجميلة من النجوم والأهلة .

فاذا ما تركنا شكلها الخارجي ووطئنا سطحها ، فإننا نعود خمسة قرون الى الوراء ، فقد كان سطحها كبقية جسمها ، من فنون القرون

الوسطى . وقد كان هذا السطح شبيها بسطح مركبنا في كل دقائقه ، بما فيه ذلك النجار الذي يقوم بصنع مركبه الصغير . فقد كان فيها رأس سلوقية منخفض ، كما كان الحال على مركبنا . كما كانت فيها نفس الدعامات الضخمة التي تربط بها الحبال والكابلات ، والموقد نفسه مع طباخه الملطخ بالسخام ، وصهاريج الماء الخشبية نفسها ، واحد منها على كل جانب . وكذلك كان الجذع الضخم لذلك الصاري المائل الذي ينتصب من الجزء الامامي من الفتحة الرئيسية الطويلة (المؤدية الى جوف المركب) ، الا أن صواري البغلة كانت أعلى من صوارينا . أما سطحها الرئيسي فقد كان مصنوعا من ألواح خشبية بالية لا تقوى على مقاومة الماء ومنعه من التسرب الى الداخل ، كما كانت جوانبها الثقيلة قد زيد ارتفاعها بإضافة ألواح خفيفة بارتفاع قديمين ، تمتد من الامام الى الخلف . وكان على السطح الرئيسي مسامير ذات حلقات ، قادرة على حمل مرسة سفينة بخارية كبيرة ، ورحوية ضخمة على المؤخرة تبدو كأنها مأخوذة من سفينة نلسون البحرية « النصر » (١) . وقد كانت أكثر تعقيدا وزخرفة من مركبنا ، حتى تبدو كأنها من صنع عصر أكثر ازدهارا ، فقد كان عليها من الزخارف والحفر كل ما يتسع هيكلها له ، وكان هذا واضحا تماما حول المؤخرة . وكان الطرف الداخلي للمؤخرة منخفضا حتى أنه لم يكن بالامكان المشي تحته بانتصاب . الا أن سطح تلك المؤخرة كان مرتفعا ، وكان سطح الجزء الخلفي من القمرة الرئيسية الواسعة يزيد ارتفاعه عن سبعة أقدام (وكانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها هذا الاتساع والارتفاع على المؤخرة في أي مركب عربي) . أما الطرف الداخلي للمؤخرة ، الذي كان يشرف على السطح الرئيسي ، فقد كانت نماذج لطيفة متداخلة محفورة عليه ، ومزينة بآيات من القرآن الكريم . أما سدة الضباط في المؤخرة فلم تكن كما هو الحال على مركبنا ، بناء ساذجا خشنا من الخشب غير المصقول ، بل كانت قطعة جميلة صقيلة حسنة البناء من الخشب الجيد ، يحيط بها حاجز من خشب الساج المحفور ذو ارتفاع يسمح للمرء بالقفز من فوقه ، ولكنه يمنع النائم من التدحرج والسقوط في البحر في حالة هياجه وارتفاع أمواجه ، أو السقوط الى داخل المركب . ولم يكن هذا الاحتياط متوفرا على مركبنا . أما مؤخرة البغلة فقد كانت تختلف تماما عن مؤخرة مركبنا ، مع أنها شبيهة بها من حيث الاشياء الاساسية : الرحوية الصغيرة ، وصفوف الصناديق التي لا غنى عنها ، والصاري المزيني المحلق فوقنا ، وصندوق

(١) نلسون هو القائد البحري الانكليزي الشهير (١٧٥٨ - ١٨٠٥) الذي استطاع الانتصار على نابليون بوناپرت في معركة الطرف الاغر الشهيرة (١٨٠٥) وهي المعركة التي قتل فيها نلسون نفسه أيضا . أما السفينة « النصر » فقد كانت سفينة ثيادته (المترجم) .

البوصلة ، والدفة ، وكروسي مدير الدفة • ولكنها كانت تختلف بأنها كانت توحى بالقدم وجلاله ، وجاذبيته الشديدة ، التي يصعب على الانسان أن يسبر غورها • كما كانت كأنها تشدو بأغنية الرحلات الرومانسية التي لا حصر لها • لقد كان باستطاعتي أن أسمع تلك الاغنية تنبعث من كل لوح بال من ألواح سطحها العتيقة ، وكانت تلك الاغنية تثير مشاعري دائما •

لقد كانت تلك المؤخرة وتلك البغلة بأكملها تلف ذراعيها حول أي بحار يعتلي سطحها فاذا به يهيم بها حبا ، على الرغم من انفلات الحشوة من بين الألواح العتيقة المثقبة ، وعلى الرغم من أن ربيع ماء البحر كان يتسرب الى داخلها ، وأن رائحة زيت السمك العفنة كانت تنبعث منها باستمرار • وعندما كنت أقف على مؤخرة هذه البغلة ، كان ذهني يسرح ويعود بي الى أيام القراصنة والرقيق وجميع الاشياء القديمة العهد ، وكنت أرى ثانية جميع تلك المراكب المدهشة التي كنت أراها قبل أن أنخرط في عالم الملاحة ، عندما كان البحر كله جمالا خلابا ، والمراكب كلها أفلاكا تقوم بمغامرات عظيمة • لكم كانت الحقيقة مختلفة عن هذه التصورات ا ومع ذلك فقد كان من السهل علي ، وأنا أقف على ظهر مركب شراعي عربي قديم ، يرسو في هذا المكان الخائق ، على بعد مئات الاميال من أي مكان مأهول على ذلك الساحل المهجور - أقول ، كان من السهل علي أن أحلم ثانية بالبحر الرومانسي الذي لم يوجد أبدا ، وأنا أعلم تماما ما هو البحر الموجود فعلا • ولكن هل كان حلمي كله خيالا ؟ ألم تكن القراصنة والرقيق ، والمال والذهب ، والفنم والمرح ، والنساء والخمر كلها موجودة ؟ الغريب في الأمر ، أنها كلها كانت موجودة فعلا : القراصنة والرقيق (السواحليون من زنجبار الى موزامبيق) والراقصات الفاتنات والحريم المرافقات للمراكب، والرقيق من العذارى الجميلات لتجار صور وعمان ومن كان يستطيع شراءهن من الناس الآخرين ، والأغاني الشبيهة بأغاني اسماعيل وأمثاله • وبدلا من خمر « الروم » ، كان هنالك العرق المصنوع من تمور نهر دجلة ، الا أنني لم أر سليمان يذوق شيئا منه قط ، فقد كان مسلما متمسكا بتعاليم دينه • بلى ، بلى ! لا شك أن القراصنة والعبيد كانوا يخطرون على ظهر مركب كهذا • لا ، بل ها هم يسيرون على ظهره الآن ! فهناك على السطح الرئيسي ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام ، كان العبيد المعتقون منذ فترة وجيزة فقط ، يهزجون ويرقصون بمرح وسرور ، وعلى المؤخرة كان يقف سليمان سعيد ، الذي كان على وشك أن يصبح نوعا من القرصان ، فقد كان يخطط لسرقة شحنة من البضائع من خليج حيفون ، واعتقد أنه كان يريد من تجدي أن يساعده في ذلك •

الفصل السادس

أبناء السندباد

ابناء السندباد

كانت أمور كثيرة غامضة تحدث على سطح البغلة ، فقد وجدناها نصف فارغة عندما وصلنا الميناء ، وعجبت أين أفرغت حمولتها ، لأن من المؤكد أنها لم تبع في حيفون ، بل لا بد أنهم قد تخلصوا منها في مكان آخر في الصومال . وفي الليالي المظلمة من تلك المدة التي قضيناها راسين في الميناء ، كنت أرى بعض الزوارق الصومالية الصغيرة وهي تنسل بصمت على سطح الماء ، الى أن تصل الى حيث تقف بغلة سليمان الكبيرة ، حيث تفرغ حمولتها الثقيلة ثم تعود فارغة . ترى ما الذي كانت تلك القوارب تنقله الى البغلة خلسة ؟ فلم يكن أي منها يأتي إلينا ، كما لم يكن بحارتها يهزجون كالعادة ، بل كانت تنسل خلسة وفي صمت تام ، ومن غير أية مصابيح . وقد بدأت ، بعد خمس ليال من المراقبة ، اتساءل عما كان يجري ، وعما كانوا ينقلونه خلسة الى البغلة ؟ وفكرت في الامر مليا ، وخطرت لي أشياء كثيرة ، من الجلود الى العاج . فقد كانت التجارة القديمة بجلود النمر والاسود قد نظمت في هذه الانحاء ، ووضعت تحت اشراف الحكومة ورقابتها . علاوة على ذلك ، فلا بد أن كميات الجلود التي تملا تلك القوارب مرات عديدة كانت تأتي من عدة آلاف من تلك الحيوانات بعد قتلها ، لذلك فقد كان هذا الاستنتاج غير مقبول . فاذا لم تكن تلك الشحنات من الجلود ، فماذا ، اذا ، تكون ؟ لعلها كانت تتألف من العاج ، فقد كان العاج سلعة تستحق التهريب ، رغم خطورة ذلك . ولم أكن استبعد شيئا ، فقد كان العربي أو الفارسي ، الذي يجوب تلك الارحاء من افريقيا على ظهر مركبه الشراعي ، مستعدا لأن يتاجر بأي شيء ، سواء أكانت التجارة مشروعة أم غير مشروعة ، ما دام فيها بعض الربح من الروبيات التي كان بحاجة ماسة اليها .

وتتابعت الليالي ، والقوارب تجيء وتروح والعملية مستمرة لا تتوقف . وقال لي يوسف ، عندما استفسرت منه ، ان بحارتها كانوا من الصيادين . أما سائر البحارة الآخرين على مركبنا ، فقد كانوا يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئا . وكان سليمان نفسه كثيرا ما يأتي الى مركبنا في الصباح الباكر ، ويصحب نجدي معه الى الشاطئ .

وفي احدى الليالي ، توقفت القوارب عن المجيء الى البغلة ، التي

كانت عندئذ قد أصبحت غاطسة في الماء ، بفعل حملتها الثقيلة ، وكان البحارة يطوون شراعها الرئيسي استعدادا للاقلاع في صباح اليوم التالي والابحار ، بحسب قول يوسف ، الى زنجبار مباشرة . ولكن يظهر أن شيئا لم يكن في الحسبان قد حصل في ذلك الصباح ، فبدلا من أن تقلع البغلة ، رأيت قارباً مملوئاً برجال الشرطة الايطاليين يأتي اليها ، ويصعد هؤلاء الى ظهرها ويعتقلون ربانها سليمان بن سعيد .

وحتى بعد أن جرى هذا ، لم أستطع أن أفهم شيئا مما يجري من البحارة المتكتمين . الا أنني لاحظت أنهم كانوا منزعجين مما يحدث ، فقد أخذوا يتراكمون هنا وهناك ، ولم تمض خمس دقائق حتى كانت الخردوات وسائر البضائع الفردية الاخرى جميعها قد اختفت عن العيان ، بعد أن كانت - بعد عملية التفتيش الاولى السريعة - قد تركت مكشوفة في الصناديق أو ملفوفة في حزم منثورة على جميع أنحاء المؤخرة . كما سارع يوسف الشيرازي الى الاختفاء في القمرة الكبيرة ، وكلني استغراب مما يمكن أن يفعله هناك . ولكني سمعت أصوات تدافع وصراخ كثير ، وفهمت فيما بعد بأنه كان يرتب جلوس النساء على حصرهن بشكل دقيق بحيث يخفيهن الفتحة الصغيرة في ارضية القمرة ، التي تؤدي الى قاع المركب مباشرة . أما ما الذي كانوا يخبئونه هناك ، فلم أستطع معرفته ، وان كان بإمكانني أن أخمن ، فلعل جزءاً منه على الاقل يتكون من رزم من أوراق النقد الايطالية (الليرات) .

الا أن كل هذا الجهد الذي بذله بحارتنا لم يكن ضرورياً ، لأن الايطاليين لم يقتربوا منا أو يضايقونا . فقد رأيناهم يبتعدون هنا في قاربهم ، ومعهم سليمان جالسا بين اثنين من الصوماليين الضخام الجثة ، والحسرة يادية على وجهه بوضوح . وما أن انصرف الايطاليون ، حتى هرع نجدي الى الشاطئ مصطحباً معه جميع أعوانه ومساعديه كالمعلم حمد بن سالم ، والمهربين الصوريين سعيد وماجد ، وذلك السيد (الشريف) الحضرمي ، ورجلا آخر ذا لحية حمراء كان بارزا بين ركاب الدرجة الاولى ، وأحد الركاب الآخرين المسمى « أبو علي » ، الذي كان عادة كثير الصخب في مثل هذه المناسبات . وانطلق هؤلاء جميعا في القارب الطويل ، وبحارتنا يهزجون ، بينما كنا نرى حارسا صوماليا يقف على ظهر البغلة . ولكن ، على الرغم من اعتقال صاحبنا سليمان بتهمة خطيرة في ذلك الصباح ، فإن حمداً وسعيداً وماجداً وسائر الآخرين لم يتوقف أي منهم عن التهريب . فعندما اندفعوا جميعا الى القارب الطويل ، كان كل منهم يخفي تحت ملابسه ، عددا من الزرات ، وأحزمة النقود ، والعمائم ، ملفوفة على

خصورهم وأفخاذهم وركبهم ، كما كانت جيوبهم محشوة كالعادة بالزجاجات الصغيرة من العطر المخلوط .

ولكن ما هي المشكلة ، ولماذا اعتقل سليمان ؟ وماذا كان يفعل ؟ لقد كنت مصمما على اكتشاف السر . لذلك تناولت منظاري المكبر ، ووجهته الى البغلة طيلة النهار ، فقد فشلت في الوصول الى شيء عن طريق بحارتنا . وكان كل ما حصلت عليه منهم : بعض الابتسامات ، وهز الكتفين ، وعبارات بهيجة تدل على ايمانهم العميق برحمة الله الواسعة - كان هذا كل شيء ، اذ لم تكن هناك فائدة من توجيه الاسئلة اليهم . ولذلك فقد تابعت مراقبتي للبغلة الساعات الطوال ، ولكن ما أن انقضى النهار حتى كنت قد اكتشفت السر . فقد عرفت أن الايطاليين قد اكتشفوا على ظهر البغلة شحنة كاملة من الملح المسروق من الشاطئ ، تحت سمعهم وبصرهم ، تبلغ حوالى مائتى طن . وقد أصبت بخيبة أمل عندما علمت بطبيعة الشحنة غير الرومانسية ، ولكن عوض عن ذلك اعجابي بالجرأة التي تحلت بها تلك العملية - فلم تكن سرقة مائتى طن كاملة بالشيء اليسير ! وقد كان شعوري الاول ينطوي على الاسف لأن سليمان فشل في الاقلاع بتلك الشحنة ، لأن سرقة كل تلك الكمية الضخمة من الملح كانت تدل على الاستهتار بالسلطات . ولكن يبدو أن حرص سليمان الشديد على مغادرة الميناء بسرعة هو الذي أدى به الى ذلك المصير . فقد طلع بقاربه الى الشاطئ ليتأكد من أن آخر شحنة من الملح قد حملت ، فاذا بأحد موظفي الجمارك موجود بالصدفة على الشاطئ يتنسم شيئا من الهواء الطلق (أو لعله يبحث عن احدى الفتيات الصوماليات الجميلات) ، فيرى النوخة ويقتفي أثره ، ويقود ذلك الى اكتشاف السرقة بكل سهولة . فقد ألقى القبض على الصوماليين وهم يقومون بالجرم المشهود ، كما ألقى القبض على سليمان معهم . ولم يجده الصراخ والاحتجاج شيئا . ومما زاد الطين بلة أنهم أمسكوا به وهو يحمل كمية من الليرات الايطالية ، التي كان سيدفعها ثمنا للملح المهرب . ولم تكن هذه الليرات مشتراة من أحد البنوك الايطالية بموجب الانظمة المعمول بها ، بل كانت مشتراة من السوق السوداء في عدن ، ولذلك فهي أموال مهربة . وقد كان من الواضح أن ضررا كبيرا سينزل بسليمان ، فقد كان الايطاليون يتشددون بالنسبة للعملة المهربة أكثر من تشددهم بالنسبة لسرقة الملح . لقد كان الوضع بالغ السوء .

ولم تطل حيرتنا بالنسبة لمصير سليمان المحزن ، وكنت اتصور مصيرا اسوأ . فقد صودرت النقود الايطالية التي كانت معه ، كما أعيد الملح الى الشاطئ . (وقد استغرق ذلك ثلاثة أيام من الجهد والعرق . استخدم

فيها أربعة قوارب أو خمسة ، وكان على سليمان أن يدفع غرامة قدرها ألف روبية بالتمام والكمال . لقد كان العقاب صارما ، فمبلغ ألف روبية يعد ثروة كبيرة في المشرق . وكان سليمان قد اقترض الليرات الإيطالية من مركبنا ، وإن كنت لا أعرف من الذي أقرضه إياها . وقد تبخرت هذه النقود ، كما كان على سليمان أن يدفع ألف روبية لم يكن معه شيء منها . وفي هذه الحالة الطارئة وصل مبعوث من الشاطئ إلى مركبنا . وقد سرنني جدا أن أرى الاستجابة الفورية لجميع من كانوا على ظهر المركب . فقد هبوا جميعا ، نجدي نفسه ، وحمد بن سالم ، وعبدالله أخو نجدي ، وسعيد وماجد والركاب الآخرون ، وقائدو الدفة ، وعريف البحارة ، وخلييل النجار ، وحتى جاسم الطباخ - هبوا جميعا لنجدة سليمان ، فأنبرى كل منهم بفتح صندوقه المصفوف على المؤخرة ، والبحث في أبعد زواياه ومخابئه ، حتى أتوا بكل ما كان معهم من الروبيات . ولم يكن مع بعضهم أكثر من روبيتين ، ومع آخرين أكثر من أربع روبيات أو خمس . وقدم حمد بن سالم أربعمئة روبية ، ولكن بعض هذه كان ملكا للمركب . ولم تمض عشرون دقيقة حتى كانت ستمائة روبية قد تجمعت ، بعد أن ألقى بها أصحابها بلا اكتراث ، على كوفية منشورة قرب الرحوية . وعندما استنجدوا بي ، بصفتي واحدا من الملاحين على المركب ، دفعت المبلغ المتبقي بحيث يصبح المجموع ألف روبية كاملة . وسرعان ما انطلق الرسول عائدا بالمبلغ وهو مفتبط ، ولكنه قلق على سليمان الذي يجب عليه أن يخرج من السجن . فقد كان سجنا سيئا ، بحسب قوله ، وباستطاعتي أن أصدق ذلك ، رغم أنني لم أراه قط . وقد أطلق سراح سليمان تلك الليلة وأقلع صباح اليوم التالي . لقد غادر حيفون أكثر تماسة مما مضى ، ولكنني أشك في أنه قد استفاد من الدرس ، فلم أكن أعلم شيئا عن الخطوة التالية التي سيقوم بها ليموض خسارته ، ولكنه لا بد من أن يفعل شيئا . وقد سمعنا بعد ذلك بمدة طويلة أنه كان يدبر أمرا ما هناك في الجنوب ، في قنال مدغشقر .

كان اليوم الذي أقلعت فيه بغلة سليمان يوما هادئا ، يهب فيه النسيم العليل من البر . ولم ترفع البغلة علما أو يهتف بحارتها فرحا وسرورا ، بل قام هؤلاء بتحريكها إلى الوضع المناسب للاقلاع ، ورفعوا قمة الشراع المثلث ، وأفلتوها من المرساة ، فاستدارت على عقبها وانطلقت راحلة . لقد كانت صورة رائعة من الرشاقة والجمال ، وهي تدور بمؤخرتها المحفورة ذات الممرات إلى شاطئ حيفون الرملي . وعلى الرغم من أنها غادرت الميناء بدون الحمولة التي أتت من أجلها ، وأن ربانها أثبت فشله الذريع في السرقة تحت سمع المذبولين وبصرهم ، فقد كان منظر البغلة رومانسيا يدل على روح المغامرة ، والريح تملأ شراعاها الضخم في صبيحة ذلك اليوم . لقد

أمضى بحارتها وقتا طويلا حتى تمكنوا من نشر ذلك الشراع الضخم ، الذي أخذ يرفرف ، وقد انعكست عليه أشعة الشمس الذهبية ، ونسيم الصباح يهب ناعما رقيقا ، كما انساب جسمها الجميل على سطح الماء ببطء ، وكأنها غير راغبة في مغادرة المكان الذي شهد ذلك الحادث المخجل .

أما علاقة نجدي بذلك الحادث ، فلم يكن بإمكانه الوصول اليها ، سواء بالاستفسار منه شخصيا أو بسؤال أي من العرب الآخرين بطريقة مباشرة . ولكن لا بد من وجود علاقة من نوع ما . فقد رأيتته يضيف من عنده عددا من قطع السجاد العجمي الى تلك الكومة التي استطاع سليمان أن يرشو بها المسؤولين لكي يطلقوا سراحه ، ولا يمكن أن يفعل نجدي ذلك دون أن يكون له مصلحة مباشرة في ذلك . فقد كان نجدي ، مثله في ذلك مثل جميع الآخرين الذين يجوبون البحار على ظهور المراكب العربية ، متحفزا دائما للاستفادة من أية فرصة ، الا أنه كان من الدهاء والذكاء بحيث يبقى يديه بعيدتين عن أية أعمال قذرة . وقد بدا يترأى لي أن ذلك النوع من التجارة ، الذي كنا نقوم به من غير اهتمام كبير ، ربما لم يكن المصدر الاساسي لدخلنا ، الا أنني لم أعرف ذلك المصدر ، في تلك المرحلة من الرحلة . ولكن كان لدينا بعض الاوباش للقيام بأية أعمال قذرة — مثل سعيد المهرب السوري ، وماجد السليط اللسان ، وعبد الله الغامض أبدا ، الذي ، حتى في ذلك الوقت ، كان متواريا على الشاطئ ، يقوم بعمل ما ، دون أن تراه عين أحد من الأوروبيين . فما الذي كان ذلك الرجل يفعله ؟ لم أعد اكثرث لذلك ، فمهما كان نوع ذلك العمل الذي يقوم به ، فقد أصبحت أنظر للرجل بشيء من الرضى والاعجاب . فقد دلت مبادرته السريعة لمساعدة اسماعيل في انقاذ الطفل البدوي الغريق أنه يتحلى بقدر كبير من الشجاعة . أما ما يفعله في بلاد الصومال ، فهذا أمر يخصه هو ، ولا شأن لي به .

ربما كنت مخطئا في اتخاذ مثل هذا الموقف . ولكنني أصبحت أحب العرب ، وخاصة تلك المجموعة من الشياطين الذين كانوا على ظهر المؤخرة ، والذين كان كل منهم سندبادا قديما في نظري . فلم يكن السندباد نفسه ، على ما كان يتحلى به من صفة المبالغة ، قادرا على القيام بمثل هذه المغامرات التي كانت عادية بالنسبة لهؤلاء . كما لم يكن السندباد نفسه ، ذلك المغامر العربي القديم ، لينجول من الاشتراك في رحلة كرحلتنا . وكثيرا ما كنت أحاول أن اتخيل ذلك الشيطان العربي القديم واحدا من هؤلاء التجار المغامرين الذين يصاحبوننا ، فلا بد أنه كان من نفس هذا النوع من الرجال . فقد كانت نواة السندباد موجودة في كل من هؤلاء المغامرين

الآتين من خليج عمان أو الخليج العربي ، بل وحتى في البحارة انفسهم ، وكل منهم يحمل صندوق بضاعته ، ولديه الاستعداد للقيام بأية مغامرة تأتي بالربح . بل يبدو ان السندباد القديم نفسه كان تاجرا اكثر منه ملاحا ، ولكن المهنتين متلازمتان في الجزيرة العربية . فقد كان كبير مهربينا ، سعيد الصوري ، سندبادا بحق ، هذا اذا كان هناك سندباد أصلا . وكذلك كان نجدي ، وحمد بن سالم ، وعبد الله الانسان الغامض ، وعبدالله شقيق نجدي وأبو علي الحضرمي ، وسليمان سعيد الفارسي وغيرهم .

مددت بصرى نحو سعيد ، ذلك العجوز الماكر الذابل ، وهو يعد نفسه للنزول الى الشاطئ ، وعدت بالفكر الى السندباد القديم ، وتخيلت كم من المرات كان يفعل نفس ما يفعله سعيد وهو يزمع النزول الى الشاطئ . فقد كان سعيد ذاهبا باحدى مهام التهريب وكان أمرا ممتعا حقا أن يرقبه المرء ، ويرى كيف يجهز نفسه لذلك . وكان أول ما فعله أن لف ست أحزمة للنقود حول خصره ، ثم غطى هذه الأحزمة بثلاث وزرات من النوع الجيد ، أضاف اليها بعد ذلك وزرتين من النوع الرديء . ثم القى على ظهره العاري قماش ثلاث عمائم مزركشة من ذات الشراشيب . وعندما انتهى من ذلك ، لف مزيدا من الوزرات والعمائم حول فخذه ، أربعا حول كل فخذ ، أضاف اليها اثنتين حول ركبتيه . ثم ارتدى جلبابا جديدا فوق ذلك كله ، وأتبعه بجلباب آخر قديم ملأ جيوبه بزجاجات المطر . وبعد ذلك لف عمامة جديدة على رأسه بكل عناية ، ثم وضع فوقها عمامته القديمة ، بعد أن لف رزمة من الحشيش في احدى زواياها . فأصبح مظهره ، بعد أن ارتدى ذلك كله ، مظهر رجل بدين ، مع أنه في الواقع رجل نحيف جدا . وفي الختام حشا في جيوبه بعض السباحات التي صنعت حباتها من الكهرمان الالماني الصناعي ، ونادى غلامه محمدا ، وأخذ يجهزه بنفس الطريقة . وكان محمد هذا يبتسم بسرور خلال العملية ، وهو يلبس أربع وزرات وثمانى عمائم وقميصين وثلاثة أحزمة للنقود . وربما كانت ابتسامته ترجع الى سروره بارتداء كل تلك الملابس الجميلة في مثل هذه الفرصة الفريدة ، فلم يكن سيده سعيد يكسوه كساء جيدا ، الا عندما تكون هناك عملية قذرة من هذا النوع على الشاطئ . وكان محمد يدرك دوره ادراكا تاما ، فلم يكذ يرتدى تلك الملابس حتى سارع بالنزول الى القارب الطويل الذي كان طافيا قرب المركب ، وجلس فى المقدمة بعيدا عن التجار الذين كانوا يجلسون في الخلف . فلم يكن يناسبه أن ينزل الى البر معهم . ولذلك فقد كان أول من يقفز الى الشاطئ ، ويجري الى حيث رتب له أن يتخلص من عبئه ، وبعد ساعة أو اثنتين يعود الى المركب ليمضى سحابة يومه يلعب ويسبح مع ابن عودة وبقية الاطفال . لقد كان محمد صبيا ذكيا ، وكان أفضل المهربين على ظهر المركب .

وفي أثناء ذلك ، كان حمد بن سالم ، وعبد الله النجدي ، وأبو علي ، وعدد آخر من الصوريين الغربيين الهيئة من سمبوك مجاور - كانوا جميعا يعدون أنفسهم للنزول للبر بنفس الطريقة . وعندما نزل هؤلاء جميعا الى القارب الطويل ، كان بحوزتهم ما قيمته عدة مئات من الروبيات من البضائع المختلفة . أما البحارة فلم يكن لديهم كثير من البضائع ، ولذلك فقد كانوا يحتفظون بها لبيعها في أسواق افضل في الجنوب . وربما كان الشخصان الوحيدان اللذان لم يشتركا في عملية التهريب ، كما لاحظت ، هما النجار والطباخ ، فقد كان كل منهما دائم الانهماك في عمله ، بحيث لم تكن الفرصة تتاح لهما للقيام بأي عمل آخر .

لقد كن هذا كله عملا غير مشروع وينبغي أن يشجب شجبا كاملا ، ولكنه كان يثير اهتمامي . فقد كان العرب يتصرفون أثناء قيامهم بعملهم هنا كأنهم يؤدون لعبة مسلية . فكانوا يغادرون المركب وهم ينفون البضائع المهربة تحت ملابسهم كأنهم تلاميذ ، فرحون ، لا يحملون هماً . وكان هذا النوع من العمل يملأ حياتهم كلها . وكان سعيد ، زعيم المهربين وغداً ، شديد انضمامي بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى ، ولكنه لم يكن يتظاهر بأنه انسان آخر ، يتحلى بصفات أخرى . كما كان مثلاً أعلى للانسان انسيء دون أية تحفظات ، حتى أنني كنت أعجب به ، ولز من أجل صراحته وعدم محاولته اخفاء سوءه ونذالته . وكنت دائماً أراقبه وأنا شديد التلهف على معرفته ما يدبر من أمور . لقد كن رجلاً واقعياً جداً ، وسيئاً جداً ، ولم يكن سوءه تظاهراً ، بل حقيقة واقعة ، وان كان يقوم بعمليات التهريب كأنها لعبة مسلية . أما ازدراؤه الواضح لعالمنا المحكوم بالقوانين والانظمة وعدم اكتراثه به ، فاني أعترف أنني لا أستطيع أن ألومه على ذلك ، فنحن الاوروبيين ، لم نحاول أن نيسر الحياة بالنسبة للعرب ، بل ان كئيراً مما نقوم به ليس له معنى بالنسبة لهم . فقد كانوا مثلاً يأتون الى هذا الساحل الافريقي ليقوموا ببعض العمليات التجارية ، وكانوا يقومون بها فعلاً سواء رضي الاوروبيون بذلك أم لم يرضوا ، ولم يكن بإمكان الايطاليين أو سواهم وضع حد لهذه التجارة . كما كانت لهم فلسفتهم الخاصة في الحياة ، وما دام ما يتومون به يتمشى مع فلسفتهم ومعاييرهم الخاصة ، فليس باستطاعتي أن أعيب عليهم ذلك .

كان سعيد مهرباً ، وبموجب المعايير الاوروبية ، رجلاً شريراً . اما ماجد فقد كان ، بموجب أية مقاييس ، أكثر سوءاً منه . ومع ذلك فتسرد وجدت نفسي أزداد كل يوم ميلاً نحو هذا المجرم العجوز الدائم المرح . فاذا كان الانسان سيئاً أو شريراً ، فلا أقل من أن يكون صريحاً ومعتزفاً بذلك .

أما عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، فلا بد أنه كان خطرا على المجتمع أينما حل . فقد كانت أكثر نشاطاته براءة قيامه بجمع بعض التبرعات لاحدى الطوائف الدينية ، وكان هذا النشاطا مكروها من الايطاليين والبريطانيين على السواء ، لأنه كان عبئا على الثروة الافريقية ولا يخدم هدفا مفيدا . وقد كان من الواضح أن عبد الله كان عميلا من نوع ما ، ومع ذلك فقد كنت أستلطفه أيضا مع أنني قلما تحدثت معه ، فلم يكن مستعدا أن يشاركك في أية أفكار لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم (١) .

بإمكانني طبعا المضي في تعداد « المجرمين » الآخرين . لنأخذ « نجدي » نفسه مثلا . فلو أمكن اثبات المخالفات والآثام المختلفة التي يقوم بها ، لكان عليه أن يقضي سنوات طويلة في أحد السجون الإيطالية ، ومع ذلك فكلي رجاء ألا يضطر لدخول أي منها . فقد كان نجدي مهربا أيضا من النوع المغامر ، الذي يعتلي ظهر مركبه ، ويتجول من ميناء الى آخر سعيا وراء الرزق ، ولا يتورع عن القيام بأي عمل لا يخالف معتقداته الدينية ، بل كان مستعدا للقيام بأي عمل تجاري يمكن أن يدر عليه ربحا ، وما العيب في ذلك ؟ ألم تتطور تجارتنا البحرية وتنمو بنفس الطريقة تقريبا ؟ ألم تكن هذه الصفات ، التي يتحلى بها نجدي وأمثاله ، هي الصفات الحميدة التي نسبناها على روادنا الأوائل ؟ لقد قام مغامرونا بالتجوال في جميع أنحاء المعمورة على ظهور مراكبهم الصغيرة ، ففتحوا لنا الطرق البحرية ، وأرسوا لنا أسس الامبراطوريات . الا أن « نجدي » المسكين لم يكن يحاول الا أن يضع الاسس التي تؤمن له سبل العيش الكريم ، كما لم يكن لدى أي من زملائه العرب الآخرين أي اهتمام بإنشاء الامبراطوريات . لذلك فان ذلك النظام المعقد وغير العملي ، من الأنظمة الصارمة المتزمتة ، التي نهضت بواسطتها الى السيطرة على هذا العالم ، ذلك النظام كان نكتة ثقيلة بالنسبة لنجدي وسعيد وأمثالهما .

إذا كان العرب ينظرون بازدراء الى عالمنا المحكوم بالانظمة والقوانين ، فلست أجد في نفسي القدرة على لومهم . فهم ، بموجب مفاهيمهم ومقاييسهم وفلسفتهم في الحياة ، لا يرتكبون جرما ، وهم ، لذلك مستعدون لتحمل مسؤوليات أعمالهم بأنفسهم ولا يلجأون لقنصل يقوم بمساعدتهم ، لأنه ليس لهم أية قناصل في أفريقيا بأسرها . وما هم الا بحارة مغامرون متجولون ، يبذلون جهدهم لكي يحصلوا على قوتهم ،

(١) الجملة في الاصل هي : « أية أفكار لم يعبر عنها النبي في القرآن الكريم » ، وقد قمنا بتغييرها لما فيها من مساس بالعقيدة الاسلامية (المترجم) .

ويجدون في ذلك مشقة كبيرة . وهم يحتقرون كل ما يمت الى الايطاليين
بصلة ، لأن هؤلاء ينشرون الدعايات الطيبة عن أنفسهم بين العرب في
بلادهم ، فاذا ما أتى العرب الى الصومال ، ساموهم سوء العذاب . ولذلك ،
يقول العرب بأن أولئك ، الذين لا يسمحون بالتجارة مع مستعمراتهم ،
ينبغي أن ينسحبوا من ميادين الدعاية بكل هدوء .

وكثيرا ما كنت أتحدث مع سندبادنا سعيد ، خلال تلك الليالي
الطويلة التي كنت فيها محجوزا على ظهر المركب ، فقد كان سعيد قد ولى
شظية من الصخر في مكان ما على الشاطئ فالتفت قدمه ، وكنت أعالجها
له ، وكان ممتنا لذلك . وبهذه الطريقة توطدت الصداقة بيننا ، وبدأ
يحدثني عن حياته . وقد مر وقت طويل قبل أن أجعله يبدأ الكلام ، ولكنه
كان يصمت بعد فترة قصيرة ، فلم يكن سعيد من النوع الذي يميل للحديث ،
ربما خوفا من كشف بعض أسرار المهنة . بل كان كتوما ، قليل الكلام ، مثل
سائر العرب الآخرين . وفي إحدى الليالي حدثني عن شبابه ، عندما كان
يسافر الى افريقيا مع فيصل ، والده ، الذي كان يتاجر بالرقيق . وكان
الأسف يبدو على سعيد لأن تلك الايام قد ولت الى غير رجعة ، لأنه كان
يعتقد بأن تجارة الرقيق عمل عادي كغيره من انواع التجارة ، ولا يفهم لماذا
أتى البريطانيون ووضعوا حدا لها . وكان كثيرا ما يتنهد حسرة على مضي
تلك الايام التي كانت فيها تلك التجارة المربحة مزدهرة . فقد كان أبوه
يتاجر بالرقيق ما بين ساحل افريقيا الشرقي وخليج عمان ، وعادة كان
ينزل شحنته في ميناء صور (١) . وكانت تجارته مزدهرة ، وربحه وفيرا ،
كما كان له عدة زوجات وعدد كبير من الابناء (وكان سعيد الابن الرابع من
الزوجة السابعة) . أما سعيد فقد بدأ التجارة وهو في سن مبكرة جدا ،
فلم يكن يحب أن يبقى في بيته عندما كان يرى البغلات الكبيرة تقلع من
الامينام . وعندما كان في السادسة من عمره (هذا ما قاله سعيد ، وان كانت
الازمنة والسنوات بالنسبة له شيئا غير واضح تماما) رافق والده في إحدى
رحلاته الى مكان يدعى باجامويو ، يقع على ساحل افريقيا الشرقي ، مقابل
جزيرة زنجبار . وقد قادتهم تلك الرحلة الى الكونغو .

وفي رحلات أخرى ، كانوا يذهبون الى الحبشة ، من ميناء عصب ،
ومن مكان آخر بالقرب من جيبوتي ، ولكن هذه الرحلات كانت مقصورة على

(١) ينبغي عدم قبول هذا الكلام على علته ، كان تجارة الرقيق كانت ظاهرة عامة عند
العرب ، وهي الفكرة التي روج لها كثيرون من كتاب الغرب المغرضون . وهذا لا يعني
ان العرب لم يتاجروا بالرقيق أبدا ، ولكن اظهراهم على شكل التجار الرئيسيين للرقيق
فيه كثير من التجنى (المترجم) .

الى أنواع أخرى من التجارة ، الى أن أصبحوا يتاجرون بالرقائق من الفتيات.
البلوشيات من بلوخستان ، ويأتون بؤن الى عمان ، الا أن القدر كان لهم
بالمرصاد . فقد بدأ الأسطول البريطاني يمنعهم من مزاولة تجارة الرقيق ،
وكان عليهم أن يتحولوا الى تجارة أخرى . ثم توفي الأب ، وبدأ سعيد في
التجوال ، فأخذ يسافر الى أماكن مختلفة ، يبيع ويشترى ، وكان يفعل
ذلك دائما وهو يعتلي ظهور المراكب الشراعية التي يحمل بضاعته عليها
أيضا . وكان يهرب البضائع ، ويتاجر بالبضائع المنوعة ويتاجر بالأسلحة ،
ولكنه لم يكن يسرق قط . وقال أنه كان موفقا في عمله خلال الحرب
العالمية الاولى ، من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨ ، فقد كان يعمل بتجارة
الاسلحة في مسقط في ذلك الوقت ، وكانت تجارة رابحة . فقد كان
ينقل الأسلحة عبر الخليج العربي وبيعها للبدو الذين كانوا يشترونها لحساب
الأتراك ، ليتمكن هؤلاء من استعمالها في حربهم ضد العرب الذين كان
لورنس يقردهم (١) . وعندما تهربت على التورل ان ذلك العمل لم يكن عملا
وطنيا ، فقد كان الحرب يحاربون من أجل استقلالهم ووحدهم ، لم يفهم
سعيد قصدي ، فقد كان الربح هو هدفه الاول والاخير ولم يكن ينجل من
أن يقول ذلك . فلر لم يقم هو بتجارة الاسلحة ، لقام بها غيره ، لأنها
كانت تجارة مربحة ، وكانت اثمان الاسلحة تأتي من الكفرة ويحق لكل
مؤمن أن يأخذها منهم دون أن يشعر بأية غضاظة . وفيما بعد ، كان ينقل
الاسلحة الى أفغانستان ، وكانت أرباح هذه التجارة أفضل من سابقتها .
وكان من الواضح أن سعيدا يحب تجارة الاسلحة ، لا لأنها وفيرة الربح
فحسب ، بل لأنها لأن فيها بعض المخاطرة . فقد كان سعيد يستمتع بالقيام
بمهمة منقنة للتزريب أو الاتجار بالاسلحة ، ومن المؤكد أن عنده الاستعداد
والقدرة على القيام بأي من العمليين . وقد سألته عن حال تجارة الاسلحة
الآن ، وعما اذا لم يعد هناك من يرغب في شرائها ، فأجاب : « ها أنت
تراني هنا ، وليس معي أية أسلحة » . وقد استخلصت من ذلك أن تجارة
السلاح كاسدة في هذه الايام .

كان المهرب العجوز يحني شعر لحيته ليكسبها اللون الاحمر ، وهو

(١) ان القول بان لورنس كان يقود العرب غير صحيح ، فقد كان واحدا من رجال
المخابرات البريطانية الذين ساعدوا على اقناع العرب بالثورة على الأتراك مقابل
نيلهم استقلالهم بعد الحرب ، وهو ما لم يحصل طبعاً . أما الثورة العربية فقد كانت
بقيادة العرب أنفسهم وبخاصة فيصل بن الحسين وأخيه عبدالله (المترجم) .

يجلس القرفصاء على سدة البحارة في ذلك اليوم الرومانسي ، وبين الفينة والاخرى ينادي محمدا ليحضر له بعض جمرات الفحم لنارجيلته . وكانت بغلة سليمان واقفة خلفنا ، تتمايل وهي مربوطة الى مراسيها (فقد جرى هذا الحديث قبل أن تضبط البغلة متلبسة بسرقة الملح) ، وكنت أجيل البصر بين هيكلها المظلم وبين وجه سعيد العجوز الجالس بقربي ، وأتخيل كم من المغامرات المثيرة لا يزال حدوثها ممكنا في هذا العالم الذي يبدو عليه الهدوء والرتابة . فهناك ، تحت سماء افريقيا ، وفي ذلك المرسى المنعزل الهادئ ، كان هذا المهرب يحدثني عن الرقيق وتجارته التي ما زالت مستمرة - فقد قال أن بعض أقاربه ما زالوا يمارسونها في مكان ما من عمان - ، ووجدت نفسي أميل اليه وأستلطفه ، وبموجب قوله ، فإن كثيرا من الدعاية البريطانية المعادية للرق مبالغ فيها ، فلم تكن الاوضاع العامة على ظهر ناقلات الرقيق ، كالبغلة الفارسية التي كانت تقف خلفنا ، أسوأ مما هي على ظهر مركبنا المكتظ بالمسافرين . فمن الخطأ النظر الى هذه المراكب ، وما يجري فيها من وجهة النظر الاوروبية فقط . وقد كانت حالة وأوضاع الافريقيين ، الذين كانوا يحملون الى الجزيرة العربية ، دائما أفضل منها في بلادهم . وسألني اذا لم أكن قد لاحظت ذلك على ظهر اليوم نفسه . نعم ، فإن نصف رجالها تقريبا هم من أحفاد أولئك الرقيق الافريقيين ، كما أن الدم الافريقي يجري في عروق ما لا يقل عن ثلث سكان عمان ، وكان هؤلاء يعيشون عيشة طيبة مريحة .

عندما مضى علينا عشرة أيام في ميناء حيفون ، أعلن أننا سنغادرها في الغد ، ولكن عشرين يوما مرت ونحن نسمع نفس الاعلان من آن لآخر حتى أنني لم أعد أكرث به . وكنا قد ملأنا المركب بماء الشرب ، ولست أدري لماذا لم نملأه بماء البحر ، فقد كان ماء حيفون مالحا لدرجة أنني لم أتمكن من شربه . وبعنا أحد القوارب الى بعض الصيادين الصوماليين بمبلغ مائة روبية ، كما حاولنا بيع التمور الفاسدة المحملة من عدن ، ولكن النجاح لم يحالفنا ، لأن طبيب الميناء الايطالي رفض السماح بانزالها من المركب . وقايضنا بعض ما معنا من الارز والسكر بشيء من السمك المجفف من النوع الجيد . وكان هذا هو كل ما فعلناه في حيفون بشأن التجارة الرسمية العادية . وفيما عدا ذلك ، وفيما عدا بعض الحشيش والخردوات والاشياء الاخرى التي هربها أحفاد السندباد من التجار ، لم نخلف شيئا وراءنا في حيفون .

لم نخلف شيئا سوى جثة فتاة قضت نجبها في القمرة الكبيرة . وكانت هذه فتاة صغيرة لا يزيد عمرها عن الخامسة عشرة ، الا أنها كانت ،

بالمقاييس العربية ، امرأة مكتملة النضج ، وكانت مسافرة الى زنجبار لكي تتزوج . ففي صباح أحد الايام أتاني يوسف الشيرازي بهدوء حيث كنت جالسا على المؤخرة أرقب مركبا صغيرا قادما من الباطنة ، وقال لي باللغة العربية : « تعال أيها النصراني وانظر ، فقد ماتت إحدى النساء » . وقد قال ذلك بهدوء وبصوت خافت جدا ، حتى أنني لم أفهم في الحال فحوى رسالته . وبدأت أسأله : « ماذا تقول ؟ امرأة ميتة ؟ كيف ، ومم ؟ » ولكن يوسف لم يكن يستطيع الاجابة عن جميع تلك الاسئلة ، وكل ما كان يعرفه هو أن امرأة شابة قد ماتت ، وأنها موجودة في القمرة الكبيرة الآن . فهل أذهب معه ؟ لقد كان ايمان العربي بمقدرتي الطبية الفائقة - لأنني كنت أستطيع فقط أن أضمد بعض الجراح والالتهابات بضماد نظيف فيكتب لها الشفاء - وما رافقها من ثقة أمر يدعو للرتاء . فما نحن نواجه بحالة وفاة ، ومع ذلك فهم يعتقدون أن بإمكانني أن أفعل شيئا بشأنها .

وكان نجدي على البر ، وكذلك حمد بن سالم وعبد الله النجدي وسعيد وماجد وذلك « السيد » القادم من المكلا . وقد سألت يوسف اذا كان واثقا من أن الفتاة قد ماتت فعلا ، فأجاب بالإيجاب ، بطريقة لا تدع مجالا للشك . اذا ، لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا . لقد كنت ارتعد خوفا ، عندما أسمع بحدوث وفاة أو مرض خطير على ظهر المركب ، وكنت أخشى من الأوبئة والأمراض المعدية الخطيرة ، لأنه لو حدث شيء من ذلك ، لأصبح الوضع بالنسبة لنا جميعا خطيرا جدا . ولكن يوسف قال ان الفتاة لم تكن مريضة . بل ماتت فجأة وبدون سبب ظاهر . كيف حدث ذلك ؟ هل قتلها أحد ؟ الا أن يوسف لم يستطع الاجابة لأنه لم يكن يعلم ، وكل ما تعلمه أنها تناولت شيئا من الخبز مع كأس من الشاي المحلى ، ثم سقطت على ظهرها وفاضت روحها ، دون أن تتفوه بكلمة واحدة . ومع أنه كان هناك عند حدوث ذلك ، الا أنه لم يلاحظه ، فقد كان منهمكا في عمل ما ، ولم يكن يعير النساء أي اهتمام ، الا أن إحدى النساء الأكبر سنا رأت الفتاة تسقط على ظهرها ، وعندها لاحظوا انها قد فارقت الحياة .

وقد طلبت منه أن يرسل قاربا في الحال لاستدعاء الطبيب ومعه نجدي ، فلم أكن مستعدا للنزول الى القمرة قبل أن يصل نجدي ، لاني لا أستطيع القيام بشيء ، اذا كانت الفتاة قد فارقت الحياة فعلا . وحتى لو كانت مريضة مرضا شديدا ، لم يكن باستطاعتي القيام بشيء ، ولكني كنت مستعدا للمحاولة . ولم يكن أحد غيرها مريضا ، بموجب ما قاله يوسف ، فقد كان جميع النساء في تلك القمرة في صحة جيدة حتى ذلك الوقت .

وصل نجدي بعد ساعة تقريبا ومعه ممرض صومالي ، ونزلنا جميعا الى القمرة . ومع اننا لم نخبر أحدا ، الا أن خبر الوفاة شاع بين ركاب المركب ، وللمرة الاولى كان كل شيء ساكنا تماما على ظهر المركب .

كان المنظر في القمرة الكبيرة لا ينسى ، فلم أكن قد ذهبت الى هناك منذ صعود النساء الى ظهر المركب ، كما لم يكن أي رجل قد اقترب من المكان ، باستثناء يوسف . وقد مضى على حجز أولئك النسوة هناك حوالي شهر . وقد لاحظت أن المكان كان قد نظم بعض الشيء ، فنقلت المواد المخزونة ومعدات المركب الى اقصى جنبات الغرفة ، كما كان الجدار الواقى، القائم بعرض الجزء الامامي من الغرفة ، قد أحكم تثبيته . وكانت الغرفة شديدة الظلام عندما دخلناها ، حتى اننا لم نتمكن من رؤية شيء ، على الرغم من أن الباب كان مفتوحا ، فقد كان هذا صغيرا جدا لا يسمح لكثير من النور بالدخول . ومن خلال الكوة الصغيرة المفتوحة على ميمنة المركب كان ينفذ الى الغرفة شعاع من ضوء الشمس ، سرعان ما يتلاشى بين أكوام المحاللات والحبال وصفائح السمن الفارغة المكدسة في ذلك الركن . وبعد لحظات تمكنت من الرؤية ، فرأيت مجموعة النساء التي كانت تتألف من اثنتي عشرة امرأة أو تزيد ، وهن مجللات بالسواد ومكومات على الحصر أو البسط البدوية ، ولم يكن يبدو منهن الا عيونهن ، تلك العيون التي كانت ترقب حركاتنا ، والتي كنت أشعر بوقمها علي . وفي تلك الظلمة الداكنة ، لم استطع في بادئ الامر أن أرى الموضع الذي كانت الفتاة المتوفاة فيه ، ثم تبينت انها كانت ممددة على الارض في وسط الغرفة ، وكان وجهها مكشوبا ، ما دامت قد فارقت الحياة الآن . وكما كانت دهشتي ، عندما نظرت الى ذلك الوجه ، فوجدته وجها جميلا ، فقد كان شيئا مروعا أن أقع على وجه بهذا الجمال في مكان لم أكن أتوقع أن أجد فيه شيئا جميلا . وعلى الرغم من أنني كنت قد أمضيت مع العرب مدة طويلة ، الا أن هذه كانت المرة الاولى التي أرى فيها وجه فتاة صغيرة السن في سن الزواج ، ولم أكن أتصور أن من الممكن أن يكن بمثل هذا الجمال .

كان المركب يهتز وهو مربوط بحباله الى المرسى ، وكان النور الذهبي الداخل من الكوة الجانبية ، يهتز أيضا ، فينتشر عبر تلك الظلمة الكثيفة ، فيصل الى وجه الفتاة . يا للفتاة المسكينة ! حتى في حياتها لم يكن مكانها في ذلك المكان الرهيب في أسفل المركب ، بين ذلك الجمهور من النسوة اللواتي كن يكبرنها سنا ، واللواتي كن يتجمعن الآن بعيدا عنها ، وكلهن شك وريبة ، كأنهن قطيع من الحيوان ، ينظرون إلينا ويراقبنا نحن لا هي . كان ينبغي ألا تكون هذه الفتاة هناك في الاصل ، في ذلك السجن



ساحل أفريقيا الشرقية بين عليه الأماكن التي مر بها اليوم الكويتي .

الرهيب المتنقل ، لكي تنقل الى حريم أحد الرجال في زنجبار ، وتزف الى رجل لم تره في حياتها قط ، في جزيرة نائية عن أهلها وبلدها . لقد كانت بشرتها كالعاج ، وتقاطيع وجهها صغيرة لطيفة ، ومنظر وجهها الجانبي لطيفا ، وجميلا جدا . كما كان فمها الصغير حازما حسن التكوين ، وشعرها الاسود غزيرا جميلا . وكانت عيناها مغمضتين كأنها في نوم عميق . وكان ثوبها مصنوعا من الحرير الاسود المطرز بنحوظ من الذهب ، لا بد أنه كان ثوب زفافها ، وكانت يداها متشابكتين فوق ثديين صغيرين حسنى التكوين . وعندما كان الضوء يتحرك مبتعدا عنها ويتركها في ظلام دامس ، لم أكن أستطيع أن أرفع عيني عن ذلك الوجه الميت . أما النساء الأخريات ، فما زلن متجمعات هناك ، دون أن ينبسن ببنت شفة . وبعد قليل تحركت احداهن ، وكانت ترتدي البرقع الذي تظهر منه عيناها ، بدلا من الحجاب الكامل الذي ترتديه حريم المدينة ، واقتربت من الممرض الصومالي ، وحدقت فيه ، ثم حدقت في ، وسألنا قائلة : « ما سبب موتها ؟ » .

وقد خيل الي أن السبب هو مجرد وجودها هناك ، فمثل هذا الجمال لا يستطيع أن يعيش في ذلك الجو المعتم الكثيب المخيف . ومع ذلك فقد قالوا أنها كانت دائما فتاة سعيدة مرحة . وأنها كانت معتادة على تحمل الصعاب . فقد كانت من مكان ما في داخل الجزيرة العربية ، بجوار الربع الخالي . ولذلك لم تجد تلك القمرة سيئة جدا كما وجدت أنا ، ولكن لا بد أنها كانت تفتقد الهواء الطلق . أما أنها كانت ذاهبة بعيدا عن أهلها وذويها لكي تتزوج من رجل لم تره قط ، فلم يكن بالأمر الذي يقلقها ، فقد كان هذا قدر المرأة في الجزيرة العربية . لقد كانت رائحة المكان النتنة تصيب المرء بالدوار : من أبخرة السمن الرديء وسائر المواد الغامضة المخزونة في المركب ، الى رائحة المركب نفسه المنبعثة من المام الآسن في قاعه ، ومن زيت السمك الى الرائحة الكريهة المنبعثة من البشر المكдسين بعضهم الى جانب بعض . وقد جاهدت لكي أتمالك نفسي وأبقى هناك تلك المسدة القصيرة ، على الرغم من أن الفتحة العلوية والكوتين الجانبيتين كانت كلها مفتوحة ، والمركب واقفا في مرساه . ولكن هذه الفتاة المسكينة قد أمضت ها هنا شهرا كاملا ، فلا عجب ان كانت قد ماتت ، فلم يكن بإمكانها أن تبقى على قيد الحياة في مكان كهذا .

لم يستطع الممرض الصومالي تحديد سبب للوفاة سوى السكتة القلبية . ولكن نجدي بادره قائلا : « جميع القلوب تسكت عند الوفاة . أليس لديك سبب آخر غير هذا ؟ » الا أن الصومالي لم يعرف سببا اخر ، كما لم أعرف أنا أيضا .

لقد بدا نجدي واجما وخائفا بعض الشيء في حضرة الموت ، كما ألقى نظرة من الاحتقار والاشمئزاز على أولئك النسوة الواقفات هناك . وقد اكتشفت فيما بعد أنه كان يشك في ان احدى تلك النساء قد دسست السم للفتاة فقتلتها ، فقد كان بينهن امرأة من نفس الحريم مرسله من زنجبار لتصحب هذه الفتاة الجميلة ، ومن المحتمل ألا ترغب امرأة تقدم بها السن في رؤية كل هذا الجمال يدخل حريم سيدها . لقد كان كل ذلك غريبا وغير معقول بالنسبة لي ، كمعظم الامور الاخرى التي كانت تحدث على ظهر ذلك المركب . أما نجدي فقد شعر بشيء من الارتياح لأن سبب الوفاة لم يكن الجذري أو مرضا خطيرا آخر ، فلم يكن في حالة وفاة ناتجة عن سكتة قلبية ما يقلق ، ولم يكن من واجبه أن يبحث عن سبب آخر لتلك الوفاة .

وقد تم دفن الفتاة عصر ذلك اليوم . بعد أن أنزلوها الى الشاطئ على مؤخرة المركب الطويل . ولم يكن نجدي موجودا ، فتولى المهمة حمد بن سالم ، الذي ، حتى في ذلك الموكب الجنائزي ، لم يتوقف عن عمليات التهريب . ولم يكن حمد الوحيد الذي استغل الفرصة فلف عددا من أحزمة النقود والوزرات الاضافية حول خاصرته وركبتيه قبل أن ينزل الى القارب، بل حذا حذوه سعيد وماجد والآخرين الذين كانوا على ظهر المركب عندئذ ، بل وحتى الصبي محمد ، الذي لم يكن يبتسم الآن ، كان يرتدي جلبابا وعمامة جديدين ويجلس في مقدمة القارب ، وكان جثمان الفتاة الصغير مغطى بحجاب أسود وملفوفاً بحصير من سعف النخيل . وكان يتمدد هناك في وسط قارب يعج بالحياة ، فقد كان المركب مزدحما بالركاب البسود ينشدون نشيدا جنائزيا هادئا ، والبحارة يجذفون . وهكذا انطلق القارب ، ولم أستطع الذهاب الى الجنازة ، فقد كانت جنازة تخص المسلمين ولم يكن لي مكان بينهم . ولكنني حزنت على الفتاة حزنا عميقا ، وبقيت فترة من الزمن أفكر فيها ، وفي اليوم التالي كان قد نسي أمرها ، على ما يبدو . وعند توقفنا في الميناء التالي سمعت نجدي ينكر تماما أن وفاة قد حدثت على ظهر المركب .

وبعد بضعة أيام غادرنا ميناء حيفون . وعند خروجنا من الميناء ، مررنا بسفينة بخارية ألمانية تحمل شحنة من الملح ، كما أقلت معنا أربعة مراكب عربية أخرى . وكانت الريح خفيفة ، ومررنا بمركب « بسوم » قادم الى الميناء مزدحم بالركاب بشكل يفوق أى مركب آخر رأيته فى حياتي، حتى بين المراكب العربية . وكان مركبا صغيرا هرما ، يبدو هيكله المصنوع من الساج كأنه لم يعرف الزيت منذ مدة طويلة جدا ، كما كان شراعه ممزقا ،

وصاريه مشقوقا فى مكانين مختلفين ، وحباله مزدانة بأشرطة من القماش بلون علم ايرلندا • ولكنه كان يبحر بثقة وقوة عندما رأيناه تحت شمس الصباح وشراعه ممتلىء بالرياح الخفيفة ، وعلم ساحل عمان الاحمر والابيض يرفرف على ساريته الخلفية • وقد كانت أسطحته مزدحمة بالركاب ازدحاما كبيرا ، حتى بدا لى كأن الشراع الذى كان ينزل شيئا فشيئا ربما قضى على مائة من الركاب خنقا ، وحتى أن البحارة كانوا يقومون بأعمالهم وهم يقفزون من فوق أكتاف المسافرين • ولم يكن طول ذلك المركب يزيد عن ستين قدما ، فقد كان مركبا صغيرا جدا ، ومع ذلك فقد كان على متنه ما لا يقل عن مائتى راكب ، تسمعون بالمائة منهم رجال ضخام الجسم ، ذوو لحى طويلة • وكان بعضهم يتدلون من فوق الافارين على الجانبين ، ويتدافعون ، وكلهم يرتدون القمصان البنية الطويلة والعمائم الملفوفة على الرأس لفا غير محكم • وعندما مر المركب بنا ، تبادل نجدى التحية مع ربانه ، وكان رجلا عجوزا ذا لحية طويلة بيضاء ، قال أنه غادر صور قبل واحد وعشرين يوما ، ولم تصادفه طوال الرحلة الا الرياح الخفيفة •

لقد كان منظر ذلك البوم الصغير منظرا غير عادى ، فقد كان مكتظا جدا حتى أن أربعة رجال كانوا يجلسون على سدة النوخة التى لم تكن تتسع

البحارة نيام





دعاء الشكر

الا له ، بينما كان ستة آخرون يجلسون على الافريز الخلفى . وكان بعض الرجال يجلسون على عارضة الشراع المزينى ، وغيرهم على أقصى طرف المقدمة . وكان عدد منهم يتعلق بكل قسم من الافريز على الجانبين، كما كانت الاسطحة مكتظة جدا حتى أنه كان من المستحيل أن يتمكن أحد من النوم عليها . وكانت تتدلى من الناحية الخارجية من الافريز الجانبية صرر ورزم ، فيها أمتعة الركاب ، تدل على الفقر المدقع . أما فى المقدمة فكان عدد من البحارة يقرعون الطبول الهندية . ولم أكن أتصور كيف يمكن أن تسمح سلطات أى ميناء بسفر مثل هذا المركب ، وعليه كل هؤلاء المسافرين . وقد سألت نجدى عن السبب الذى يدفع كل هؤلاء العرب على مفادرة بلادهم معا على متن مركب يمثل هذه التعاسة ، فأجاب بأن هناك خلافا بين الشارقة ودبى الامارتين المتجاورتين على الساحل المتصالح ، وان الخلاف سياسى يمكن أن يؤدى الى حرب أهلية . وقد أراد منى أن أستنتج أن هؤلاء القوم الآتين من دبى ، هاربون خوفا من الحرب . الا أن حمداً بن سالم قال أن هناك مجاعة فى دبى وما حولها ، وأن الساحل المتصالح بأسره يشكو من الفقر المدقع الذى يدفع المرء للهجرة منه بكل سرور ،حتى على ظهر مركب صغير لا يزيد طوله عن ستين قدما ، ويحمل ما يزيد عن مائتين من البشر . أما يوسف الشيرازى،

فكان يعتقد أن الرحلة من دبي الى زنجبار ما هي الا نزهة قصيرة ، ولذلك فقد أتى جميع أولئك الركاب ليستمتعوا بها .

تابعنا سيرنا ببطء بمحاذاة ساحل الصومال الذى لم يكن سوى خط متصل من الرمل لا حياة فيه ، وكان الابرار سهلا ، والاحوال الجوية مؤاتية جدا ، حتى أن السفرة كانت تشبه السير على الاقدام فى شارع ممهد . ولم تكن هناك أية حاجة لفنون الملاحة ، فقد كنا نبحر بيسر وسهولة أمام الرياح الشمالية الشرقية ، بحيث تكون أفريقيا دائما على يدينا اليمنى . وفى البداية كانت الريح هادئة ، الا أنها ازدادت نشاطا فيما بعد ، بحيث أصبح بإمكاننا أن نقطع تسع عقد بحرية فى اليوم . ولم تكن هناك وسيلة لقياس السرعة ، فلم يكن على ظهر المركب أبسط جهاز لذلك النوع من القياس ، ولكنى استطعت أن آخذ فكرة جيدة عن ذلك بملاحظة المرات التى كنا نتعامد فيها مع نقاط مختلفة على الساحل (١) . وكنا فى خلال النهار ، نبحر قريبين جدا من الساحل ، الذى كان رتبيا ليس فيه ما يدعو لاثارة الانتباه . أما فى الليل فقد كنا نبتعد عنه قليلا ، فقد كان من الواضح أن نجدى كان يخشى أن يبتعد المركب، بحيث يصبح البر بعيدا عن مرمى البصر .

طفل نائم



عندما كانت الريح تشتد قليلا ، كان البدو يصابون بدوار البحر ، وتتأزم الامور على المركب . فكانوا يشمون الليمون ويحشون آذانهم وأنوفهم بقطع من الورق ، ولكن دون جدوى . وكانوا فى مرضهم مزعجين عنيفين ، يملأون المركب بأصواتهم وصراخهم ، بينما كان البحارة يسخرون منهم طوال الوقت . وقد بدأت الريح تشتد فى اليوم الثانى لاقلاعنا ، حتى أصبحت شديدة فعلا لدرجة أنه لم يعد بإمكاننا ابقاء الشراع الكبير منشورا . فقد بدأت نقاط الاتصال بين أجزاء الشراع تتقطع ، وأصبح من الواضح أن مركب البوم لا يستطيع تحمل الريح القوية . ولم تكن الريح قوية بالمعنى الصحيح ، فلم تكن تزيد عن ريح موسمية مؤاتية ومناسبة جدا لتسيير أي مركب من مراكب الحبوب التي ركبتها ، أو لتسيير أي مركب شراعي أوروبي حسن الصيانة . الا أن البوم بدأ يظهر نقاط ضعفه . فقد بدأ الصاري يتحرك من مكانه قليلا ، ويهتز اهتزازا عنيفا بفعل الريح ، كما أخذت حبال الشراع المزيني ترتخي ، ونقاط الاتصال في الشراع الرئيسي تتشقق تشققا كبيرا ، حتى أن نجدي أمر ، عصر ذلك اليوم ، بانزاله وطيّه . وكانت الطريقة الوحيدة لتصغير مساحة ذلك الشراع هي أن يبدل ، وذلك بانزال الشراع الكبير ، وقص جزء من كل طرف من طرفي العارضة الطويلة ، وتركيب شراع رئيسي أصغر على العارضة القصيرة . وهذا ما فعله البحارة الآن ، وكان عملا يتطلب جهدا جبارا واستغرقهم ذلك حوالي ساعتين . وفي خلال المدة التي كان فيها الشراع غير منشور ، كان المركب يرتفع وينخفض ويتمايل ويهتز ، ولكن بشكل معتدل . ومع أنه كان بدون شراع منشور يدفعه الريح ، فقد سرنى أن ألاحظ أنه كان يتابع سيره ببطء ، وأنه كان من الممكن السيطرة عليه وقيادته . وعندما نشر الشراع الذي كان أصغر من السابق بعدة وصلات من القماش ، وأكثر انخفاضا منه ، انشق هو الآخر عند عدد من نقاط الوصل ، وكان عليهم أن ينزلوه ثانية ويقوموا باصلاحه . وكانوا يفعلون ذلك بأن يجلسوا عليه جميعا ويخيطوه بأبرهم البدائية المعكوفة .

وقد أصبح هذا العمل عملا يوميا ، كلما اشتدت الريح ، ومع ذلك لم يكن يخطر على بال نجدي أبدا أن بإمكانه أن يصنع شرعا أفضل . وعندما تجرأت واقترحت القيام ببعض التعديلات البسيطة ، التي يمكن أن توفر عليهم كثيرا من ذلك الجهد ، وتساعدهم على قطع المسافات بسرعة أكبر ، أجاب بأن الله كريم ، وأن الريح ستخف ، وأن الشراع مناسب . الا أن

(١) أى عندما يكون الخط الواصل من نقطة معينة على الساحل عموديا مع الخط الوهمي الواصل بين مقدمة المركب ومؤخرته (المترجم) .

حمداً بن سالم اعترف بأنهم يحبون أن تكون أشرعتهم هكذا مخاطبة خياطة ضعيفة ، لأنها بهذا الشكل تتشقق دائماً عند نقاط الوصل عندما تشتد الرياح . ليس هذا فحسب ، بل لو كان الشراع أقوى مما هو عليه ، لحمل معه الصاري كله عند أول هبة قوية من الريح ، وقد كان من الأفضل طبعاً أن نخسر شراعاً ضعيفاً من أن نخسر صاريّاً جيداً . وقد وجدت شيئاً من المنطق في كلامه ، إلا أن الإصلاح المستمر ، غير الفعال ، لنقاط الوصل الضعيفة ، والرفع المتواصل للمعارضة الثقيلة جداً كانا يتطلبان مجهودات لا داعي لها . ولكن هذه الفكرة لم تخطر إلا على بالي أنا . أما بالنسبة للبحارة العرب ، فلم يكن هناك ، من حيث المبدأ ، حاجة للقيام بأي عمل ، إلا عندما يصبح ذلك العمل ضرورياً جداً ، لحكمة لا يعلمها إلا الله .

وكنّا ، في هذه المرحلة من الرحلة ، كثيراً ما نرى مراكب أخرى وقد انهمك بحارتها مثلنا في إصلاح أشرعتهم ، بل اننا رأينا في إحدى المرات جلبوتا من صور وقد فقد صاريه كلية . ومرة أخرى شاهدنا مركباً عليه مصباح مشتعل ، وكان هذا منظراً غير عادي بالمرة . بل أن الواقع أن ثلاثة مصابيح اعصارية كانت مضاعة على سطحه الرئيسي ، لمساعدة بحارته على إصلاح الشراع الممزق .

كان المركب أحياناً يهتز اهتزازاً شديداً أثناء سيره ، ولكنه كان أيضاً يتابع إبحاره بشكل جيد ، ولا يسمح لكثير من الماء بالدخول إلى جوفه . ولقد أدهشني أن العرب لم يكونوا يهتمون بربط أي شيء بأحكام ، أو بالحسب للطوارئ . فقد كانوا يتركون الأحداث حتى تبدأ قبل أن يفعلوا شيئاً إزاءها . ومثال ذلك ، أنهم لم يفكروا بربط تلك الصفوف الطويلة من الصناديق ، ومن أمتعة الركاب ، التي كانت مكدسة على مؤخرة المركب طوال الرحلة ، مع أنه كان من الواضح تماماً أن حركة المركب لا بد أن تحرك بعضها عن مكانها . وقد حصلت على بعض الحبال ، وربطت صندوق أمتعتي ربطاً محكماً ، حتى لا يؤذي أحداً إذا تحرك من مكانه ، ومع أن العرب رأوني أقوم بذلك ، إلا أنهم لم يفعلوا شيئاً لتثبيت الصناديق الأخرى . وربما كان نجدي يعتقد أنه لا مجال لتلك الصناديق بأن تتحرك من مكانها ، مع ذلك الحشد الهائل من البشر المكдسين فيما بينها . ولكنها تحركت بالفعل . ففي منتصف الليل ، دفعت موجة كبيرة المركب من وسطه ، فاهتز اهتزازاً شديداً ، وإذا بجميع الصناديق على الجانب الأيمن من المؤخرة تنجرف إلى الجانب الآخر . وفي الحال قامت القيامة ، وأصبحت تسمع الصراخ والويل والزعيق والنحيب . فقد كانت الصناديق تتدحرج فتحدث جلجلة عالية والصفائح تتدحرج محدثة قعقعات أعلى ، وأخذ ركاب الدرجة الأولى يلقون بأنفسهم على السطح الرئيسي ، كما أخذ البدو

يصيحون ويعولون • وكان من الممكن أن يقع حادث أليم ، ولكن الله سلم ، ولم يصب أحد بسوء • "وسرعان ما قام البحارة الحفاة ، وهم يهزجون ، بإعادة الصناديق الى أماكنها السابقة وربطها معا • ولكنهم لم ينجزوا عملهم ، فلم يربطوا الا تلك الصناديق التي كانت قد تحركت من مكانها ، أما الباقي فقد تركوها على ما كانت عليه •

وما كاد البحارة ينتهون من هذا العمل ويخلدوا الى الراحة ، حتى اهتز المركب من جديد هزة قوية ، واذا بالمركب الجديد ، الذي لم يكن قد أسند جيدا او ثبت بطريقة أو بأخرى ، يسقط على اثني عشر من البدو ، الذين كانوا نائمين تحته • وهنا كان صراخ وزعيق حقيقيان ، فقد حط المركب الجديد على أحد البدو بكل ثقله ، وبشكل منعه من الحركة ، مما جعل ذلك البدوي يزار بأعلى صوته • وقد تمكن البحارة من اراحة المركب في الوقت المناسب ، ومن اخراج ذلك البدوي من تحته • وقد تبين أنه لم يصب حتى برضوض ، وعندما فتشت عنه في الصباح لم أعث له على أثر • وحتى لو عثرت عليه فلم يكن يقبل أي علاج طبي ، فقد كان البدو يحتقرون ذلك احتقارا شديدا (١) •

وحرالى هذا الوقت بدأ نجدي يشكو من ألم في ظهره • فقد كان يشعر بالألم شديد جدا في مؤخر عنقه ، وتحت لوح الكتفين ، ولم يكن ذلك بمستغرب ، فقد كان دائما ينام تحت الندى ، وكان يصر على ازالة المظلة الواقية من الشمس قبل المساء بساعات • وكان يقول أن عليه التخلص من تلك المظلة ليلا ، لأنها كانت تعجب عنه رؤية الشراع ، وتحسسه للرياح واتجاهاتها • وعندما طلب مني أن أخلصه من الألم ، حاولت ذلك باستعمال بعض المراهم ، فارتاح بعض الشيء • الا أنه نام تحت الندى مرة ثانية ، فعاوده الألم بشكل أسوأ من ذي قبل • وعندها صب جام غضبه على جميع أدوية النصارى ، واستدعى مسلما صالحا من صور من السطح الرئيسي ، كان يعيش قريبا من بداية المؤخرة • وقد أدى هذا عمله بأسلوب عظيم ، وأخذت أرقب ما يقوم به بكل اهتمام • فقام أولا بخلع ملابس نجدي كلها ، ما عدا وزرة هندية على جزئه الاسفل ، وبطحه على السطح ، ثم صب السمن الحار على ظهره ، وبعد ذلك بدأ عمله الجدي بالفعل • فقد أخذ

(١) على الرغم من ان الكاتب يكرر قوله الذى يشير الى تغلف البدو تغلفا شديدا يتمثل فى روح التواكل وانعدام الضبط والتخطيط ، الا أنه ، مع ذلك ، لا ينسى أن يشيد ، فى اكثر من مناسبة ، بروح المغامرة ، والشجاعة ، والبساطة ، والشهامة التى يتحلون بها (المترجم) •

يدق ظهر نجدي ويلكمه ويضربه ويعصره ويقرصه ويجلبه إلى أن كاد حتى
 نجدي القوي ، الصلب العود ، يصيح مستغيثا . وكان يقبض على ما يملأ
 يديه من لحم نجدي القليل ، ويجذبه حتى يكاد يخلعه عن العظم ، فيجفل
 نجدي جفلا شديدا ، ثم يدلك ذلك اللحم بالسمن الحار ، بينما نجدي
 يتلوى من الألم . كما كان يدق على العمود الفقري ، ويسدد له اللكمة بعد
 الاخرى ، حتى أن نجدي كان مرغما على رفع جسمه قليلا ، معتمدا على
 يديه المسكتين بسطح المركب بقوة . يالله ! كيف كان ذلك العمانى
 يعمل ! لقد واصل تدليكه العنيف لظهر نجدي مدة ساعتين كاملتين ، قام
 نجدي بعدهما وهو يقول أنه شفي تماما ، وارتدى جلبابه وعاد ، وهو لا
 يكاد يقوى على المشي ، الى مقعده . الا أنني تجرأت على القول أن العلاج
 كان قاسيا وعنيفا لدرجة أنست نجدي ما كان يحس به من ألم ، وان عليه
 الآن أن يشفى من العلاج علاوة على المرض . ولكنه سخر من قولي ،
 وأجاب بأن الطب العربي كان أفضل من الطب الاوروبى . وربما كان
 مصيبا في هذه الحالة . فقد كان استعمال السمن الحار ، والتدليك الكامل
 للأجزاء المصابة طريقتين ممتازتين للعلاج ، الا أن نجدي عاد يشكو من
 الألم نفسه بعد مرور يومين على ذلك .

أثناء رسونا فى حيفون ، كنا قد أركبنا بعض المسافرين الغامضين ،
 وجميعهم من صور ، وكان هؤلاء يبرزون من مخابىء مختلفة بعد أن أصبح
 المركب فى عرض البحر . وكان أحد هؤلاء رجلا ضريرا مع ابنه الصغير ،
 وبصحبتهما خادم أعور . وكان هذا لا يرى جيدا بعينه السليمة ، كما كان
 عليه أن يجر الضرير ويهديه سواء السبيل . وكان هؤلاء من مسقط ،
 ووجهتهم زنجبار ، لكى يزوروا بعض أقاربهم هناك . كما ركب معنا رجل
 من صور يتكلم الانكليزية ، ويقول أن عنده عملا تجاريا يقوم به فى
 موقاديشو . وقد أخذ مكانه بين ركاب الدرجة الاولى ، وكان يأكل من طعام
 المركب . وسرعان ما اكتشفت أن تجارته لم تكن أيضا سوى التهريب ،
 وكان يحمل بضاعته معه ملفوفة فى رزم ، كما كان يشترك فى المشاورات
 والمداولات اليومية التى كان حمد بن سالم وسعيد يقودانها . وكان هؤلاء
 كثيرا ما يعدون مبالغ ضخمة من الليرات الايطالية الورقية ، ويربطونها فى
 زوايا الوزرات والعمائم ، ويخبئونها . وقد كانوا دائما يفعلون ذلك على
 مرأى ومسمع من الجميع ، فلم يكونوا يخشون أن يقوم أحد بسرقتها .

لقد كرهت الراكب العمانى الجديد كرها شديدا ، وظل واحدا من
 العرب الذين لم أستطع أن أستسيغهم . وكان يتكلم بصوت حاد كأنه ينتحب ،
 كما كان يعرف من اللغة الانجليزية ما يكفى لان يجعله مصدرا للازعاج



فتاة بدوية



رجل الدين

الكبير (فلم يكن يعرف من تلك اللغة ما يساعده على الفهم أو التفسير
السليمين ، ولذلك فقد كان يفهم كل ما يسمعه فهما خاطئا ، ولكنه يعتقد
فى الوقت نفسه أنه يتقن اللغة اتقاناً تاماً ، وأنه لا يحتاج الى تعلم المزيد
منها) ، وكان دائماً ينادينى بعبارة « صديقى العزيز جدا » . ولكنى لم
أكن صديقه أبداً ، وان كنت مرغماً على تحمله . وقد فهمت منه أن والده
أحد تجار مدينة صور ، وأنه يملك بختين يسافر بهما الى الهند للتجارة ،
احدهما يقودها هو - أى صاحبنا المدعو محمداً - والاخرى يقودها شقيقه .
أما فى هذه السنة ، فقد أخرج والده أحد المركبين من الخدمة الفعلية
لقدمه ، ولذلك فقد بعث بمحمد الى الساحل الأفريقي ليستكشف مجالات
العمل والرزق هناك . هذه هى قصة حياتى كما رواها هو . أما نجدى ،
الذى لم يكن يحبه أيضاً ، فقد كانت عنده رواية أخرى فقد أخبرنى أن
محمداً كان نوحدة سيئاً ، ولذلك فقد طرده أبوه من بيته ، وأنه يقوم برحلة
خاصة يهرب فيها بعض البضائع لحسابه الخاص . ولست أدري أى الروايتين
أصدق ، الا أن شعورى الشخصى يدفعنى لتصديق الرواية الثانية . وينبغى
القول هنا أن محمداً العمانى هذا لم يكن مكسباً كبيراً لمركبنا ، وكانت
محاولتى فهم ما يقول باللغة الانكليزية أكثر صعوبة ، وأقل فائدة ، من

متابعتي لما يقوله أى انسان اخر باللغة العربية ، على الرغم من أنى لم أكن قد تعلمت الكثير من تلك اللغة الصعبة .

وفى أحد أيام الجمعة كنا نبحر قبالة مكان يدعى عبيه . ولما كان يوم الجمعة يوم العطلة عند المسلمين ، فلم يكن أحد يقوم بعمل غير ضروري ، أو يبحث عن عمل ضروري ، وتمكن البحارة جميعا من النظر مليا الى معالم البلدة . وكان كل ما استطعنا رؤيته عبارة عن محطة لاسلكى ، وبيت المقيم (الحاكم) والعلم يرفرف عليه ، وما عدا ذلك كان رملا فى رمل . وتبعد عبيه هذه عن حيفون حوالى ٣٥٠ ميلا ، وعن موقاديشو حوالى ٢٦٠ ميلا . وبما أننا لم يمض علينا فى البحر سوى يومين منذ مغادرتنا حيفون ، فقد كان سيرنا مرضيا جدا . ومقابل هذه البلدة ، وفى أثناء ابحارنا على امتداد هذا الساحل ، كنا نصيد كميات كبيرة من السمك المختلف الانواع كالبينيت، والبكورة ، وذلك السمك ذى الرؤوس الشبيهة برؤوس الثيران ، الذى كان البحارة يدعونه بالدلفين . كما أننا شاهدنا كثيرا من السمك الطائر الذى كان كثير منه يتطاير فوق جانبى المركب ، فيمسك به البدو فى الحال، ولا يتركون مجالا حتى لقطة المركب أن تمسك به . وكانت تلك القطعة الصغيرة البائسة من نتاج قط عمانى وقطة سائبة فى بربرة ، وكانت تعيش عيشة بائسة على ظهر المركب . فقد كانت مهمتها الرئيسية أن تبقى الجرذان والحشرات داخل القمرة الكبيرة ، ولكن ذلك المكان كان قابضا للنفس ، حتى أن القطعة نفسها كانت تعافه وتحترقه .

وكنا نصيد السمك بأسلوب بسيط ، هو أن نجر عددا من الشصوص خلفنا ، ولم تكن هذه تفل عن سبعة ، بعضها مربوط بالقارب ، وبعضها بركائزه ، وغيرها بجانبى المؤخرة ، أو بأى شئ آخر فى المؤخرة يمكن أن تربط به . وكنا فى البداية نستعمل السمك الطائر الصغير طعما ، نفرز فيه شصوصا كبيرة ، الا أننا بعد أن بدأنا نصيد السمك الكبير ، بدأ البحارة يستخدمون قطعما من الجلد الابيض يقطعونه من بطون السمك ، ويبدو أن هذا اللحم كان طعما مفضلا . فقد كنا ، فى بعض الايام ، نصيد عشرين أو ثلاثين سمكة كبيرة ، هذا اذا كانت الظروف الجوية مؤاتية ، والمركب يسير بالسرعة المطلوبة . وكنا أحيانا نشوى سمكة على فحم الحطب ، وكان طعمها رائعا اذا قيس بما كنا نتناوله من الطعام اليومى .

مررنا ببعض المراكز الايطالية الاخرى مثل أمليت (أو ايتالا) وورشينخ ، وكان منظرهما من البحر بائسا . فلم يكن يميزهما عن الرمل

المحيط بهما سوى علم ايطالى يرفرف على أحد الاكواخ ، الا أن فى ورشنيخ منزلا عربيا أو منزليين • ولم نتوقف فى هذه المحطات ، فقد قال نجدى أن ذلك مضيعة للوقت ، ويبدو أنه كان على حق •

وطوال هذه المدة كانت الاوساخ والقاذورات تتراكم على سطح المركب بشكل متواصل ، حتى أصبح ذلك المكان موباة حقيقية ، وكنت أعجب كيف يمكن أن يبقى انسان على قيد الحياة فى مثل هذا المحيط • وقد كنت أأزم مكانى المحدد على السدة الخلفية ، خلف التجار وسائر ركاب الدرجة الاولى ، وكنت أحمد الله أن الريح تهب من خلفنا ، وتبعد عني الروائح التنتنة المنبعثة من السطح الرئيسى • وفى خلال هذه الرحلة ، وجدت أن صعوبات الحياة كانت تزداد بدلا من أن تتناقص ، الا أن هؤلاء العرب كانوا مجموعة طيبة محبة الى النفس ، فيما عدا عددا قليلا منهم • أما أولئك الذين لم أكن أحبهم فلم يكونوا عربا — وكان من بينهم ذلك الصومالى المولد كثير المشاكسة ، وذلك الانسان المزعج الذى نصفه مالىزى ونصفه الآخر حضرمى ، صاحب الجراموفون المخيف ، وتلك البنت الحقيبة ذات الوجه اللثيم ، واللسان السليط ، التى ما فتئت تجرى هنا وهناك وتزعج الاولاد الصغار طيلة النهار •

وعلى الرغم من أن طاقة العرب على تحمل القذارة كانت تفوق طاقتي بوجه عام ، ومع أنهم كانوا يخلقون فى البحر متاعب لم أحلم بها من قبل ، الا أنهم كانوا رجالا بمعنى الكلمة • ففى وسط كل تلك الضجة وتلك القاذورات والاساخ ، كان البدوي الملتحي المهيّب القادم من الصحراء يحافظ على الآداب الصغيرة التى كانت تحكم حياته ، كالقضاء التحية ، والاحترام المتبادل ، واتباع الاصول المرعية أثناء تناول الطعام على الحصير ، والمحافظة على التقاليد المعروفة أثناء تقديم تلك القهوة المخيفة • وعلى الرغم من أن الازعاجات ظلت مستمرة من ضيق أماكن الإقامة ، الى اكتظاظ المركب ، الى الطعام البائس ، الى التعرض الدائم لعناصر الطبيعة القاسية كالشمس المحرقة طوال النهار ، والندى الكثيف طوال الليل — على الرغم من ذلك كله فقد كانت متعتي فى مرافقة الرحلة تفوق ذلك كله ، ولم تكن تلك الرحلة فى أي وقت من الاوقات رتيبة مملة • بل أني كنت أحيانا أتمنى أن تصبح كذلك ، على الاقل لأحصل على شيء من الهدوء والراحة • ولكن ذلك لم يحصل •

وعندما أخذنا نقترب من موقاديشو ، أخذ الركاب ، الذين كانوا ينوون النزول الى البر هناك ، يأخذون زينتهم ويرتدون الملابس النظيفة •

فقد بدأ سعيد وماجد وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، والآخرين يخرجون الكحل والحناء ، ويصبغون به لحاهم وراحات أيديهم وأخمص أقدامهم ، وكان أمهرهم في ذلك السيد (الشريف) الآتي من المكلا ، ومساعدته القوي أبا علي . وقد قام واحد من مديري الدقة بحلاقة شعر رأس نجدي بالموسى ، لأنه ، بوصفه النوخدة ، لم يكن يحلق شعره بنفسه ، كما قام آخر بحلاقة شعر حمد بن سالم . وقد كان سعيد المهرب مسرفا فى استعمال الحناء ، وفي تكحيل عينيه ، وعندما كان يرتدي ملابس الكاملة استعدادا للنزول الى البر ، كان يبدو كأنه نسخة خيالية مخيفة من أحد أفراد جوقه المنشدين الصفار ، مضافا اليه لحية طويلة . ولا شك أنه كان يشعر بالارتياح والرضا عن نفسه . وكان البحارة جميعا يحلقون شعور رؤوسهم ولحاهم بالموسى ، ولا يتركون الا شواربهم ، على عادة الكويتيين والایرانیین .

وعند غروب شمس اليوم الخامس ، لاحت لنا أنوار موقاديشو . ولم تكن الرؤية جيدة ، وتابعتنا سيرنا مع هبوب الريح القوية الى حد ما . وبعد مدة طويلة من حلول الظلام ، اتجهنا نحو المدينة ، التي كانت أنوارها كثيرة ومتألثة . وقد بدت لنا موقاديشو من البحر خلال الليل مكانا مثيرا للاهتمام .

الفصل السابع

مشاكل في مقادير

مشاكل فى مقاديشو

موقاديشو ، رغم كثرة الاسماء المختلفة الاخرى التي تطلق عليه ، لا يعدو أن يكون ميناء متواضعا ، على الساحل الشمالى الشرقى من قسارة أفريقيا ، المواجه للمحيط الهندي . وليس في الميناء سوى حاجز واحد واق من الامواج ، يكون حوضا للصنادل التي تستعمل لتحميل البضائع وتفريغها ، ومرسى للمراكب المحلية أيضا .

وصلنا الميناء مساء السبت ، وكانت الريح تعصف بقوة وعنف طوال الليل . ولما كان دخول الحوض المحمي من الريح صعبا في الظلام ، فقد اضطر نجدي للتوقف خارج الحاجز الحجري ، تاركا المركب يتأرجح ارتفاعا وانخفاضاً في الهواء الطلق قريبا من ذلك الحاجز ، مع احتمال الاصطدام به في أي وقت . ولم أستطع أن ألوم نجدي لعدم دخوله الى ذلك الميناء الضيق المكتظ بالمراكب في ظلام الليل ، فقد كانت الرؤية صعبة جدا ، وكان من الممكن أن يصطدم المركب بالصخور بكل سهولة . وانلك فقد كانت فرصة الدخول الى ذلك الحوض بسلام ضئيلة جدا ، ولم أستغرب ألا يخطر ببال نجدي أن يقوم بتلك المحاولة .

وقد أخذت شدة الريح تزداد خلال الليل ، كما أخذ البحر بالارتفاع حتى أصبح الموج يتخطى الحاجز الحجري ، وأصبح موقفنا ، ونحن في البحر المكشوف ، موقفا لا نحسد عليه . وفي البداية كنا نقف هناك معتمدين على مرساتين ، ثم على ثلاث ، ولكن ما أن طلع الصبح حتى كنا نقف على خمس . وقد علمت أن المراكب العربية كانت تزود في العادة بعدد كبير من المراسي ، لأن معظم الموانئ التي كانت ترسو فيها كانت سيئة . أما بالنسبة لي ، فقد كانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها مركبا يقف على خمس مراس . ولكن العدد وحده لم يكن ليضمن سلامة المركب ، نظرا الى أن الجبال ، التي كانت تلك المراسي مربوطة بها ، لم تكن من الطول بحيث تسمح للمركب بشيء من حرية الحركة الضرورية ، ولذلك فقد كنت أرقب الوضع ، وكلني خوف من أن يفلت المركب من مراسيه . ولم أكن أشعر بذلك الخوف وحدي ، بل كان يشاركني فيه نجدي وحمد بن سالم ، اللذان لم يغمض لهما جفن طوال تلك الليلة . وفي الصباح ، قبل طلوع الشمس ، عندما لاحظت أن المركب قد انجرف قليلا ، وأصبح قريبا جدا من الصخور ،

بحيث أصبحت تشكل خطرا عليه ، حشوت أثمن ما أملك في جيوبي ، وأعددت نفسي للقفز من على ظهر المركب والنجاة بنفسى سباحة اذا اقتضى الأمر .
فقد كانت تلك الصخور ، القابعة تحت مؤخرة المركب ، مدببة قبيحة المنظر كأنها فاعرة أفواهاها لابتلاعنا ، ولم يكن بيننا وبينها أكثر من دقيقة من الزمن لو ارتنخت حبال المراسى قليلا ، ولم تكن تلك الحبال سوى ألياف جوز الهند المجدولة ، والمصنوعة على ظهر المركب نفسه ، ولذلك فلم تكن من المتانة والقوة بحيث تستطيع تحمل ذلك الضغط الهائل كله .

ومع ذلك ، فقد صمدت تلك الحبال ، وتمكنا من قضاء تلك الليلة يسلام . وعندما بزغ الفجر ، كان البحر لا يزال يواصل الارتفاع ، على الرغم من أن الريح بدأت تهدأ قليلا . ومع أن المركب ظل طوال النهار يتأرجح بشكل عنيف ، الا أننا لم نكن في خطر حقيقي . وعند عصر ذلك النهار ، استطعنا أن نرفع مرساتين ونظل مربوطين بثلاث فقط . وكانت هذه المراسى تدلى الى البحر من عدة أماكن على جانبي مقدمة المركب ، وعلى الرغم من كثرتها فلم تكن تتشابك ويعلق بعضها ببعض ، لأن الحبال التي كانت تربط بها كانت قصيرة ومشدودة ، كما أن الريح كانت دائمة الهبوب بقوة بحيث تتغلب على قوة المد . وفي العادة كانت هناك ثلاث مراس جاهزة للاستعمال على مقدمة مركبنا « فتح الخير » ، واثنتان احتياطيان في مكان ما على السطح ، يسهل الوصول اليهما رغم كونهما ، في أغلب الاحيان ، ملقأتين تحت حطب الوقود وتحت البحارة النيام ، كما كانت هناك مرساة كبيرة في المؤخرة . ولما كان المركب يقف ، وقد أنزلت أشرعته ، ومدت عارضته الكبيرة على طول المركب ، فلم يكن فيه شيء يقف في وجه الريح ، سوى مؤخرته العالية ، خاصة وأن صواريه كانت عارية ، ولا يمسكها عدد كاف من الحبال الثابتة .

ومع طلوع النهار ، وعلى الرغم من رداة الطقس ، خرج الينا قارب صغير يخص أحد المراكب العمانية الراسية في الميناء، وكان ربان المركب على متن القارب . وحالما وصل الينا أخبرنا بأن السلطات الايطالية لا تسمح للمراكب العرب بالنزول الى البر . وقد كانت هذه الأخبار ضربة لنا .
فها نحن نجد مركبنا ، وعليه أكثر من مائة من الركاب المسافرين الى هذا المكان ، يصل المدينة بعد طول السفر والعناء ، فنفاجأ بأن الركاب غير قادرين على مفادرة المركب . الا أن « نجدي » ، الذي لم يكن يؤمن بالحلول الوسطى للمشاكل التي تواجهه ، احتفظ بذلك الخبر لنفسه ، ولم يعلم الركاب ، الذين كانوا يجهزون أنفسهم لمفادرة المركب ، على الرغم من ان كثيرين منهم كانوا يشكون ثانية من دوار البحر ، بسبب العنف الذي كان

يهتز به المركب ، وهو راس في ذلك المكان - فقد كان الوضع هنا أسوأ مما كان عليه ونحن نمخر عباب اليم • نزل نجدي الى البر بصحبة الربان العماني ، متحديا جميع قوانين الميناء ، على ما اعتقد ، وقد لاحظت فيما بعد أن عبد الله الغامض قد اختفى أيضا ، مع أنني لم أراه يغادر المركب ، كما لاحظت اختفاء عدد آخر من العمانيين بمن فيهم ماجد ، وسعيد المهرب ، بالإضافة الى ذلك الرجل الضريير القادم من حيفون • أما الفتى الصغير محمد ، فقد اختفى أيضا ، كما كان يفعل في جميع المناسبات المشابهة ، والغريب في الامر أنني لم أتمكن من رؤية أي من هؤلاء يغادر المركب ، رغم يقظتي وحرصتي الشديد على اكتشاف طريقة اختفائهم •

لم يكن هناك داع للعجلة ، فان أحدا من ضباط المرفأ لم يأت إلينا • فبقينا هناك على ظهر المركب ، نهتز ونتأرجح طيلة النهار ، حتى أصبحت الحياة جحيما لا يطاق • فقد كانت الامواج تصطدم بجنبات المركب ، فينتشر رذاذها المتطاير على المركب ، ويغطي السطح الرئيسي كله • كما كانت الرياح الموسمية تهب علينا قوية وباردة ، في ذلك المكان المكشوف ، على الرغم من أنه يقع على خط الاستواء مباشرة • وعلاوة على ذلك ، كان ماء الشرب ، الذي جلبناه معنا من عدن ، قد نفذ كله • كما لم يبق لدينا الا النزر اليسير من الطعام ، حتى أننا اضطررنا لأكل السمك الذي كنا قد اصطدناه في اليوم السابق ، مع أنه كان قد بدأ بالانتفاخ والفساد • وقد زاد الطين بلة أن ذلك الرجل الصومالي المولد ، الذي رافقنا من ميناء شحر ، لم ينقطع عن الصراخ والشجار طوال النهار ، وهو يقوم بتجميع أمتعته استعدادا للنزول الى البر • وكنا عندما نرسو في أي مكان ، نترك الدفة تتأرجح بحرية تامة ، كما فعلنا هنا أيضا ، فكانت الريح تضربها بشدة ، فتصطفيق ذات اليمين وذات الشمال بعنف كبير ، حتى خشيت أن أراها تنفصل عن المركب كليا • ولم يكن الانزعاج باديا على أحد غيري ، الا أن جاسما ، ذلك الطاهي المسكين ، أمضى يوما في غاية التعاسة ، وهو يحاول طبخ الطعام على موقده ، فقد كانت الريح تعصف بالوقود المؤلف من الخشب والعوسج فتذروه وتقذف بالدخان الى خارج الموقد ، فيغمر جاسما كما يغمر المركب بأكمله •

ولما كان المركب واقفا ، ومقدمته بعكس اتجاه الريح ، التي كانت تهب بقوة وعنف ، فقد كانت أشياء مختلفة تتطاير علينا من كل حدب وصوب : غبار وقاذورات وشظايا متنوعة وغيرها • لقد كان ذلك النهار فظيما بالفعل • وقد بدأت أتساءل ، حتى قبل أن ينقضي ذلك النهار ، عما اذا كان بإمكانني أن أتحمل أكثر مما تحملت • ومع ذلك كله ، فقد كان

البدو ، والركاب الآخرون القادمون من حضرموت ، ينتهزون الفرصة التي لا يقاسون فيها من دوار البحر ، فيرفعون عقيرتهم بالتهليل والتكبير ويشكرون الله على وصولهم بالسلامة ، هذا مع العلم أنهم ما زالوا في خطر ، كما أنهم لم يغادروا المركب بعد .

وقبل حلول الظلام ، عاد نجدي على متن زورق آلي ، كان قد استأجره لكي يقطر المركب ويسحبه الى داخل الحوض . وقد كان من المفروض أن تكون هذه العملية عملية بسيطة ، الا أنها انقلبت الى مهزلة . ففي ذلك الوقت الذي وصل فيه نجدي مع الزورق ، لم يكن على ظهر المركب الا أخوه عبد الله ليتولى القيادة ، فقد كان حمد بن سالم قد اختفى (واعتقد أنه كان قد ذهب مع بضاعته في قارب صيد صومالي) ، كما أن نجدي لم يغادر الزورق . ومع أننا كنا ننتظر الزورق طوال النهار ، الا ان العرب ، كماداتهم ، لم يعدوا الاشياء اللازمة لذلك ، حتى أن الحبل اللازم للقطر لم يكن جاهزا . ولذلك بقي الزورق يهتز بعنف ويدق جانب المركب بشدة بانتظار الحبل المطلوب ، بينما كان نجدي يصيح بأعلى صوته ، والركاب يزعمون ، والبحارة وعريفهم يركضون هنا وهناك وهم يهزجون . أما حسن ، مدير الدفة الذي أرسل ليربط سلاسل الدفة ، فقد أعجبه منظر الزورق وهو يخبط جانب المركب حتى أنه نسي ما ذهب من أجله ، ولم يكن هناك من يجبره على أن يفعل ذلك ، ولذلك فقد بدأنا السير وراء الزورق وليس هناك الا سلسلة واحدة مربوطة بالدفة ، مما اضطرنا الى التوقف الى أن تربط السلسلة الاخرى . أما خليفة ، مدير الدفة الآخر ، فكان ، كلما سمع أمرا يصدر بصوت عال ، يهمهم قائلا « ان شاء الله » ، حتى شعرت أنني على وشك أن أكيل له الشتائم ، لتلك الاتكالية والاعتماد الكامل على العناية الإلهية . وكان يصر على الجلوس على الكرسي المقابل لعجلة القيادة ، على الرغم من أنه ، وهو في ذلك الوضع ، لم يكن يستطع الرؤية الجيدة من فوق رؤوس الركاب المحتشدين على المؤخرة وعلى السطح الرئيسي بأكمله . وعندما اقترحت عليه أن يقف لكي يتمكن من الرؤية بوضوح ، اعتبر ذلك اهانة بالغة .

وعندما كان نجدي يصيح من مكانه في الزورق : « الى اليمين ، الى اليمين » وهو يلوح بذراعيه بعنف ، كان أخوه عبد الله يكرر الامر صائحا « الى اليمين ، الى اليمين » ، وهو يقف على السدة في نهاية المؤخرة . الا أن خليفة كان يتمتم قائلا « ان شاء الله » ثم يدير العجلة بسرعة وعنف في الاتجاه المعاكس ، مما يجعل المركب يميل وينحرف انحرافا مخيفا ، فيتجه نحو الماء الضحل ، بينما يحاول الزورق ، وكأنه يلهث ويزفر ، أن يظل

متشبثا بنا • أما الركاب فلم يكونوا ينقطعون عن الكلام ، الذي كان يبدو كأنه طنين النحل المتصل ، كما كان الاولاد يترაკضون في كل مكان ، بينما أفلتت احدى عنتزي الصومالي ، وبدأت تقضم الحبال في الحال • وفي خضم تلك الفوضى العارمة أفلتت حبل غليظ يستعمل لدفع أكبر المراسي حجما ، ويتصل بالرحوية القائمة على المؤخرة ، فأصاب أحد البحارة ، المسمى سلطانا ، في رأسه ، وشج جمجمته ، فتدفق الدم منها حتى وصل الى مجرى الماء على سطح المركب • وعندما أتوا به الي ، عجبت كيف كان لا يزال في وعيه التام ، فقد كانت الضربة كفيلة بكسر جمجمة رجل آخر أصغر منه حجما ، وأطرى منه عودا ، وقد أثرت الضربة حتى في سلطان نفسه فأحزنه وتركته هادئا مهموما • وقد قمت بتنظيف الجرح ، وأوقفت النزيف ، وربطت الرأس بسرعة وبشكل مؤقت ، وأنا أمل الا تكون الاصابة خطيرة حقا ، وعاد الرجل الى عمله ، وكأن شيئا لم يكن • وقد كان من نتيجة انفلات ذلك الحبل أن أخذت الرحوية بالدوران السريع ، فانفلتت منها القضبان الحديدية ، وتبعثرت بقوة وسرعة قاتلتين في جميع الاتجاهات • ولم أستطع أن أتصور كيف تمكن الركاب ، الذين كانوا يحتشدون حول الرحوية ، من تفادي الاصطدام بتلك القضبان • أما من ناحيتي ، فقد بلغ بي الامر اني لم أعد اهتم حتى لو أصيب أحد بتلك القضبان فعلا •

وأخيرا رفعت المراسي ، وتابع الزورق سيره ، وهو يجرننا بعيدا عن الصخور • بينما أخذ نجدي يصيح ثانية ، فيردد عبد الله صياحه ، كما واصل الركاب زعيقهم ، والسيد صلاته ، والماعز ثغاءها • أما القطة ، التي كانت مندهلة حزينة ، فقد ابتعدت عن طريق الاقدام الحافية المتراكضة هنا وهناك ، واختبأت خلف علبة من علب الدهن •

لم تكن المسافة بعيدة بين المكان المكشوف ، المحفوف بالمخاطر ، الذي كنا نرسو فيه ، وبين باطن الحوض الآمن ، الواقع خلف الحاجز الحجري • وكان العرب ، على متن المراكب الاثني عشر أو الاربعة عشر القابعة في الحوض ، يرقبوننا باهتمام كبير ، سرعان ما انقلب الى فزع ، عندما رأوا مركبنا يتجه اليهم مباشرة ، دون أن يتمكن الزورق الصغير من توجيهنا الوجهة الصحيحة • فقد كانت الريح ما تزال تهب بقوة وكان « فتح الخير » مركبا كبيرا ، كما كان الزورق الذي يقطرنا صغيرا جدا ، والطريقة التي تدار بها العملية لا تدل على شيء من الخبرة • ولم يطل الامر كثيرا ، فسرعان ما تولى الزورق عن الصراع ، وتركنا في مواجهة تلك الصفوف من المراكب الراسية • ولكي يحاول بحارتنا ايقاف المركب ، قذف

عريفهم بثلاث من مراسيه دفعة واحدة ، الا أن اثنتين منها لم تكونا ، لسوء حظنا ، متصلتين بحبالهما . أما الزورق ، فقد تركنا وانطلق لا يلوى على شيء ، آخذا نجدي معه . وهكذا أصبح المركب بلا قيادة ، في أثناء النكبة التي حلت بنا في الحال ، بسبب تلك العملية غير الموفقة . وما حدث هو أن المرساة الوحيدة التي كانت ما تزال متصلة بحبالها ، لم تستطع أن توقف تقدم المركب فتابع هذا سيره ، بلا توجيه أو قيادة ، في اتجاه ذلك الصف من المراكب الراسية . وكان أول ما اصطدم به جلبوتا بحرانيا صغيرا ، من النوع الذي كان يستخدم في السابق للغوص على اللؤلؤ ، فأصابه بضربة مؤلمة في وسطه ، سمع لها دوي هائل ، وجعلت أخشاب الجلبوت تصر وتئن من هول الصدمة ، وحطمت جزءا من جانبه الأيسر . ولم يكتف مركبنا بذلك ، بل ثنى بصدمة أخرى لسمبوك عماني من صور ، كان محملا بالابقار المحجوزة في حظائر صغيرة فوق البضاعة . وقد أصيبت تلك الابقار بالفزع ، وحاولت أن تنطلق من عقالها ، كما اشتبكت عارضتنا المزيينية بحبال الصاري الرئيسي في السمبوك ، فانجرف الجزء البارز من عارضتنا وسقط على إحدى الابقار . وكان صياح الركاب يشق عنان السماء ، وهم يتراكمون هنا وهناك ، كما كان العريف وبحارته يعملون بشكل جنوني ، لكي ينزلوا القارب الطويل من جانب المركب الى الماء - وهو ما كان ينبغي أن يفعلوه قبل عدة ساعات - لتحمل عليه الحبال اللازمة لربط المركب بالشاطئ ، بينما كان جميع من على الشاطئ يرقبون ما يحدث باهتمام بالغ . ولكن مركبنا لم ينته من مهمته بعد ، فقد تابع هجومه على المراكب المحتشدة في الميناء ، حتى انتهى أخيرا الى الاصطدام جانبيا بمركب من الباطنة محمل بالسمك والمسافرين .

لقد كانت عملية سيئة للغاية . وعندما عاد نجدي أخيرا الى المركب ، كان في حالة مخيفة من الغضب والهياج . ويبدو أنه لم يكن مهتما بالدمار ، الذي سببه المركب ، بقدر اهتمامه بأن مثل هذا الحادث ، الذي يدل على جهل بأساليب الملاحة ، يضر بسمعته ضررا بالغا .

والواقع انه لم ينجم شيء خطير عن تلك العملية السيئة ، فيما عدا الخراب الذي أصاب المركب البحراني ، وخسارة جزء من العارضة المزيينية ، وانشجاج رأس البحار « سلطان » . فقد تمكن بحارتنا ، المتمردون على الفوص من انتشارال المرساتين ، اللتين كانتا قد أفلتتا من حبالهما وسقطتا في البحر ، من غير صعوبة تذكر . وما كاد الليل ينتصف ، حتى كان المركب قد رسا وربطت حباله بالشاطئ ، وكانت الابقار على المركب الآخر تنام نوما عميقا ، وأصبح كل شيء هادئا مرة أخرى ، الا من مؤتمر كان نجدي

يهقده مع العمانيين (الصوريين) والفرس في نفس الموضع الذي كان مخصصا لنومي . وقد امتد هذا المؤتمر حتى الهزيع الاخير من الليل . ولم أكن عندئذ مهتما بمعرفة موضوع البحث ، فقد كنت أشعر بالاعياء الشديد ، بعد أحداث ذلك النهار الطويل ، والليله التي سبقتة . ولكن لم يكن من الصعب علي أن أخمن ما كان البحث يدور حوله ، فلا بد أنه كان يتعلق بمشكلة انزال الركاب ، وبالقيد المفروضة على البحارة ، وبسوء تصرف موظفي الميناء من الايطاليين . وقد تمكنت ، وأنا أنصت الى الاحاديث التي كانت تدور ، من سماع اشارات عديدة الى الروبيات والليرات الايطالية ، وعبارات لا تسر عن الايطاليين . أما الطريقة التي كان أولئك الرجال المثلثون المعمون يتآمرون للتغلب بها على قيود المرفأ ، فلم أعلم عنها شيئا ، ولكنني عرفت فيما بعد بأنها كانت طريقة ناجعة .

وكان نجدي هو الذي يترأس الاجتماع ، كما كان سيتراس اجتماعات أخرى مشابهة خلال مكوثنا في الميناء . فقد كانت له خبرة سابقة بهذا المكان ، نظرا الى أنه كان قد أبحر على متن مركبنا هذا نفسه الى موقاديشو في العام السابق ، وهو في طريق عودته الى الوطن ، حاملا شحنة من البضاعة ، ومن المسافرين القادمين من الجنوب .

وفي الصباح ، بعد أن كان جزء كبير من البضاعة ، التي كانت محملة على المركب في أماكن غير ظاهرة للعيان ، قد وصل الى أيدي الصوماليين وغيرهم من البحارة المحليين ، وصل عدد من موظفي الميناء ، ولكنهم لم يهتموا حتى باعتلاء ظهر المركب ، بل صاحوا من بعيد بأن سلطات الميناء لن تسمح لأحد بالنزول ، ثم غادرونا وقفلوا عائدين . وقد وقع هذا الخبر على أسماع ركابنا وقع الصاعقة . فكيف لا يسمح لهم بالنزول بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، التي امتدت بضعة أيام طوال ، وبعد أن دفع كل منهم ما يستحق عليه من أجرة السفر ؟ أما البدو الذين كانت هذه رحلتهم الأولى ، فقد أصيبوا بالذهول . وأما الحضارمة الذين كانوا قد سافروا من قبل ، فقد استشاطوا غضبا . بل أن بعضهم أخذوا يتدفقون نحو مؤخرة المركب ، ويصيحون في وجه نجدي ، إلا أن هذا لم يبال بهم وأجابهم بأن الامر لم يكن من صنع يده ، بل ان الايطاليين هم المسؤولون عن المشكلة ، ثم ما لبث أن غادر المركب ، ولكن لم يطل الامر بهم حتى هداوا جميعا ، وأخذوا يتمتمون بأن الله رؤوف رحيم ، وأنه لا بد أن يفسر الايطاليون رأيهم ويتراجعوا عن منعهم من النزول ، فيسمحون لبعضهم على الأقل بمغادرة المركب . وعلى الرغم من أن الامر كان بالغ الخطورة والاهمية بالنسبة لهم جميعا ، حتى أن بعض البدو كانوا قد ارتدوا ملابس جديدة اشتروها

لهذه المناسبة خاصة من تلك الدريهمات القليلة التي استطاعوا توفيرها من كدهم وعرق جبينهم في حضرموت ، الا أن تسليم معظمهم وقبولهم بالأمر الواقع السيء كان أمرا يدعو للاعجاب الشديد . وقد كان هناك بعض الشواذ طبعا ، وكان هؤلاء مشاكسين بطبعهم ، وكان من هؤلاء ذلك الصومالي المولد الذي لم يكف عن الصراخ والعويل قط ، وعدد آخر من الحضارمة الذين كانوا يزمجرون قائلين بأن الايطاليين كانوا دائما يرحبون بتشغيلهم في انشاء الطريق المؤدي الى عصب وفي مشاريع مختلفة أخرى . أما بالنسبة للباقيين ، فقد كانوا يأملون اما أن تسوى أمورهم وينزلوا الى موقاديشو ، أو أن يتمكنوا بمشيئة الله من الوصول الى أماكن أخرى مثل لامو ومومباسا وزنجبار . وكان طعام بعضهم قد بدأ ينفد ، خاصة أنه لم يكن هناك مجال للصيد ، والمركب في داخل الميناء . وفي خلال النهار ، وصل « بوم » صغير من « الباطنة » ، وهو اليوم الذي كان معنا في ميناء « حيفون » ، وكان على ظهره مائتان من الركاب ، انضموا بالطبع الى قائمة غير المرغوب فيهم من ركاب المراكب الأخرى .

من الممكن القول ، دفاعا عن الايطاليين ، أنهم يجدون صعوبة كبيرة في دخول الجزيرة العربية ، فهم لا يجدون تشجيعا من أحد ، فيما عدا بعض أجزاء اليمن . علاوة على ذلك ، يجب الاعتراف بأن الناظر الى أكثر من نصف المسافرين على مركبنا يحكم في الحال بأنهم غير مرغوب فيهم في أي مكان . فالإيطاليون الذين ينفقون الاموال في افريقيا الشرقية الواقعة تحت سيطرتهم في محاولة يائسة لاسترداد بعضها ، وينفقون اموالا أكثر في الحبشة ، مستعمراتهم الجديدة ، ينظرون شزرا الى أولئك المغامرين القادمين من الجزيرة العربية ، الذين لا هم لهم الا الحصول على بعض المال واخراجه من تلك البلاد ، بدلا من المساهمة في تنمية الثروة القومية . ولذلك يجب الا يلام الايطاليون اذا لم يعتبروا العربى العادى أفضل أنواع المهاجرين . فعلى الرغم مما كان عملاء الدعاية الايطاليون يقولونه في أماكن أخرى ، كان واضحا تماما في موقاديشو أنهم كانوا ينظرون الى العرب نظرتهم الى مجموعة قذرة ، لثيمة ، مفككة ، من الناس ، تتصف بالجشع والتعصب والمشاكسة ، وعدم الانضباط وقلة المهارة في العمل . لقد كان العرب ، باختصار ذلك النوع من المهاجرين غير المرغوب فيهم من أى وجه من الوجوه . بل كان الايطاليون يتهمون العرب بأن لهم علاقة بكل تجارة محرمة ، وبأنهم غير قادرين على انتاج شيء على الاطلاق سوى المؤامرات والتهريب . كما كانوا يخشون أن يقوم العرب بزرع بذور الشقاق بين الصوماليين والاحباش من جهة ، والايطاليين من جهة أخرى . وباختصار ، لم يكن الايطاليون يرحبون بالعرب ، سواء كانوا مهاجرين أم تجارا أم أصحاب سفن تجارية ،

ولم يكونوا يستخدمون بعضهم الا للقيام بالاعمال الوضيعة كشق الطرق وما شابه ذلك من المشاريع .

أما العرب فقد كانوا بدورهم يكرهون الايطاليين ، اذ لم يكن بإمكانهم أن يحترموا ذلك الاوروبي الذي كان يتصف بجميع صفاتهم السيئة ، ولكنه لا يتحلى بأى من فضائلهم . والواقع أن الموظفين الصغار ، الذين كان العرب يحتكون بهم ، كانوا فى معظم الحالات لا يقلون صخباً وسرعة غضب وجشعاً، بل وقلة أمانة ، عن أى عماني مهرب ، أو كويتي حصيف . كما أن بعضهم كان عرضة للرشوة ، ولذلك لم يكن العرب يحترمون أياً منهم . كما كان الصوماليون يكرهونهم ، ولم يكن أحد يستطيع أن يسامحهم لما فعلوه فى الحبشه . لقد كان العرب يحترمون الانجليز ، لانهم كانوا يستطيعون القيام ببعض الاعمال التى لايمكنهم هم القيام بها ، ويحترمون الالمان لكفاءتهم ودقتهم فى العمل ، ولكنهم كانوا يسخرون من الايطاليين الذين يحتكون معهم فى بلاد الصومال .

ان الناظر الى مقاديشيو الآن يرى فيها الطابع الايطالى غالباً على الطابع العربى ، على الرغم من أنها كانت مستوطنة عربية عدة قرون ، ومازال فيها حى عربى وجالية عربية كبيرة جداً . كما يستطيع المرء أن يرى نسخاً من صور السنيور موسولينى ، حامى حمى الاسلام - كما يدعى الايطاليون ، وان كان هذا الكلام لا ينطلى على أحد من المسلمين - تزين الاعمدة والابنية فى كل مكان . كما أن من المفارقات التى يشاهدها الزائر فى وسط المدينة ذلك المسجد الضخم ، البديع الهندسة ، والذى تلفت زخارفه الرائعة الانظار ، وهو يشرف على حانة تقع فى 'الزاوية المقابلة' ، كما يشرف على دار ضخمة للسينما .

لقد حسبت فى بادئ الامر أن كل ما سأتمكن من مشاهدته فى مقاديشو لن يزيد عما أراه وأنا على ظهر المركب القابع هناك ، بين المراكب الاخرى المحتشدة فى الميناء ، فقد كان الحظر الذى فرض على الركاب ينطبق علىّ أيضاً ، مما اضطرني للبقاء حيث أنا . ولكنى لم أبال كثيراً، فقد كان الوضع أكثر متعة مما كان الحال عليه فى ميناء حيقون . وفى كل صباح كان القارب الحكومى يزورنا ، وفى بعض الاحيان يصعد بعض الموظفين الى ظهر المركب ليقوموا ببعض مهام التفتيش ، وان كانوا دائماً يؤدون هذا العمل وهم يشعرون بالقرف والاشمئزاز ، ولم أكن ألومهم على ذلك ، فقد كانت الاحوال على ظهر المركب تدعو للثناء فعلاً . وفى صباح أحد الايام، قام أولئك الموظفون بصف جميع الركاب الذين استطاعوا جمعهم ، ودققوا

فى هوياتهم وأعدادهم تدقيقا كاملا • وقد لاحظت عندئذ أن العمانيين ، وعددا آخر ، قد اختفوا ، وأن أعدادنا قد تناقصت بشكل ملحوظ • وللمرة الأولى تمكنت من مشاهدة احصاء دقيق لأولئك الذين كانوا يقصدون موقاديشو ، وكانوا يتألفون من ثلاثة وسبعين رجلا وخمس نساء وطفلين رضيعين • ولم يكن هؤلاء بالطبع هم جميع الركاب الذين نحملهم معنا ، بل كان هناك ثلاثون آخرون يقصدون ممباسا وزنجبار ، بالإضافة الى العمانيين القادمين من صور ، وبقية « التجار » •

وقد قام طبيب الميناء بفحص جميع الركاب بعناية تامة ، فكشف فحصه عن بعض الحالات المرضية السيئة ، التى لم أكن أعرفها من قبل • فقد كان أحد الاولاد الصغار مصابا بكساح الأطفال ، كما كانت فتاة صغيرة أخرى من الاسرة نفسها تفقد بصرها تدريجيا • وعندما رأيت هاتين الحاليتين ، تمنيت من صميم قلبى لو خفف هؤلاء العرب من اعتمادهم على رحمة الله وحدها ، وأظهروا استعدادا أكبر للاستفادة من نعمة العلم الحديث ، وأمنت بأنهم لو فعلوا ذلك لاستطاعوا تجنب كثير من البؤس والمصائب ، التى تحل بهم فى الجزيرة العربية • ولقد كانت أسباب هذين المرضين واضحة تماما ، فقد كان نقص التغذية الحاد سبب حالة الصبى ، أما الفتاة فقد كان نوع من الامراض الزهرية السبب فى اصابتها بالعمى • وقد أنزل الطفلان كلاهما الى الشاطئ ، وأرجو أن يكون الطبيب قد تمكن من مساعدتهما •

وأخيرا سمح لبعض الركاب بمغادرة المركب والنزول الى البر ، ولكن هذا اقتصر على أولئك الذين استطاعوا أن يثبتوا بأنهم كانوا مقيمين فى الصومال الايطالى من قبل • وقد شعرت بالارتياح الشديد عندما علمت أن الصومالى والد الفتاة المزعجة كان واحدا منهم ، وقد رأيت يغادر المركب وهو يصيح ويصرخ كعادته تتبعه أسرته وعنزته ، وعلى كتفه جميع امتعته • وكانت تلك البنت الشنيعة ترتدى ثوبا طويلا يصل الى قدميها ، يتألف من اللونين الاحمر والاصفر ، كما كان وجهها ويدها وقدماهما مصبوغة باللونين الاحمر والاسود ، وشعرها مطليا بكمية من الدهن • أما ذراعاها ، فقد كان على كل منهما ست أساور من الفضة عند الرسغ ، واثنان آخريان فوق المرفق • بينما كانت تطوق عنقها بعدد من الآيات القرآنية محفوظة فى علب فضية صغيرة • كما كان على كل كاحل من كاحليها خلخال ثقيل من الفضة • ولم تكف الناس شرها حتى وهى تغادر المركب ، بل قامت برفس ابن عودة البدوى فى طريقها ، بينما كان والدها يصرخ من الزورق ، طالبا منها النزول بسرعة • أما الأم التى كانت ملفعة

بالسواد من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وكانت قد ظهرت على سطح المركب لأول مرة ، فقد ساهمت هي الاخرى ببعض الصياح ، وعبارات السباب . واما ابنتهما الصغير عبد الله، الذي لم يخل على الركاب بالازعاج وقلب حياتهم الى جحيم طوال الرحلة ، فقد كان يجلس في القارب وهو يرتدى وزرة جديدة وطاقية نظيفة ، ويبتسم ملء شديقه . لقد كانوا يؤلفون أسرة فظيعة أتمنى الا أراها مرة أخرى . وبمغادرتهم للمركب خفت الضجة الى النصف على الاقل ، وبدا المركب لأول مرة وقد لفه الهدوم والسكينة .

لقد اختفى عدد من الركاب ، وان كان نجدي حريصا الا يسمح لأحد ممن كانت اسماءهم مسجلة في القائمة التي أعدها الايطاليون في « حيفون » بمغادرة المركب . ولكنه كان يسمح للصوريين (العمانيين) والحضارمة كبار السن بالذهاب والعودة كما يشاؤون . وقد شرح لى يوسف سبب ذلك . ويتلخص في أن هؤلاء الرجال كانوا كثيري التجوال والسفر ، ولا نية لهم بالبقاء في موقاديشو - أو في أي مكان آخر بعيدا عن موطنهم في الجزيرة العربية ، ولذلك من الممكن الوثوق بتصرفهم ، والاعتماد عليهم بالعودة الى المركب قبل ابحاره ، وبألا يتخلفوا عنه فيوقعوه في مأزق لا داعي لها . أما الآخرون من البدو ، والحضارمة ، والركاب القادمين من « شحر » فقد كانوا مهاجرين لا هم لهم سوى النزول والبقاء هناك . فاذا نزلوا الى الشاطئ قد لا يعودون منه . وبما أن السلطات تقوم باحصائهم قبل سفر المركب ، فلم يكن نجدي يجازف بالسماح لهم بالنزول . وهكذا كانوا يبقون على ظهر المركب ، يطبخون ويصلون ويتحدثون كماداتهم ، وهم ينظرون الى تلك الارض الموعودة على مقربة منهم ، ويتحسرون لعدم تمكنهم من النزول اليها .

وكان يبدو لي أن العمانيين القادمين من صور كان يسمح لهم بالنزول الى البر في موقاديشو بشيء من التساهل أكثر من غيرهم ، ربما لأن من الممكن الوثوق بمغادرتهم المدينة - فقد كانت زنجبار هي قبلة معظمهم ، حيث كانوا يجعلون من المدينة مركزهم الرئيسي - ، وربما أيضا لأنه لم يكن من السهل التمييز بين العماني المسافر والعماني البحار ، فقد كانوا جميعا يرتدون ملابس متشابهة ، ويربون لحى متشابهة . كما كان يسمح للبحارة بالنزول الى المدينة نهارا ، والذهاب الى الاسواق أو المساجد طالما أنهم يعودون الى مراكبهم قبل حلول الظلام . لقد كان بإمكان الايطاليين ورجال الشرطة الصوماليين أن يميزوا بين ركابنا وبحارتنا بسهولة ، لأن منظر الكويتي وملابسه تختلف عن غيره من العرب . ومع أنه كان من

الممكن أن يبدو الكريتي كاليوغسلافي أو الاسباني أو اليوناني ، اذا ما ارتدى الملابس الاوروبية ، الا أن العمانيين كانوا مميزين ولا يمكن أن يبدووا كأي قوم آخرين . فقد كانوا جميعا يرتدون القفاطين الخارجية ، البنية اللون ، المتشابهة بكل دقائقها ، حتى في التطريز القليل حول العنق ، وكانوا جميعهم يطلقون لحاهم المحناة ويحتنون أطافر أيديهم وأرجلهم ، ويثبت كل منهم حماته الضخمة على رأسه بعقال فاتح اللون ، يتدلى من أحد أطرافه سواك الاسنان المعروف . كما كانت وجوههم مختلفة عن غيرهم ومميزة جدا .

أما مراكبهم فقد كانت مثلهم ذات مزايا خاصة بها . فقد كانوا يحبون تزيين تلك المراكب باللونين الازرق والابيض ، مما يذكرني بالفنلنديين وملاحى الاقطار الاسكندنافية الاخرى ، كما كانوا يفضلون السمبوك ذا المؤخرة الكبيرة المربعة الشكل ، والبغلة ذات الاشكال الزخرفية المحفورة فى الخشب . وفى خلال وجودنا فى مقاديشو ، مر بها أكثر من خمسمائة أو ستمائة من أهالي صور ومن العمانيين الآخرين . وكانت بعض المراكب ، اثني أتوا على ظهرها ، صغيرة وبالية لدرجة لا تكاد تصدق ، مع أن أسوأها كانت آتية من الموانئ الصغيرة ، الواقعة على ساحل المهرة ، وساحل عمان المتصالح ، لا من ميناء صور نفسه . وقد أخبرني نجدي بأن تلك المراكب كانت فى الأصل تستعمل للغوص على اللؤلؤ فى الخليج العربي ، ولما كانت صناعة اللؤلؤ فى كساد ، بسبب منافسة اللؤلؤ الياباني الصناعي الرخيص الثمن ، فقد اضطرت تلك المراكب الى التحول من صيد اللؤلؤ الى السفر الى أفريقيا ، أو الى مكان آخر يستطيع الركاب أن يجدوا عملا فيه . وقد لاحظت فى ميناء موقاديشو مراكب قادمة من سيحوت والمكلا وصور والكويت ومسقط وحيفون ومصوع والبحرين وايران . ولم يكن طول بعضها يزيد عن ثلاثين قدما ، ومع ذلك فقد كانت تقوم برحلات طويلة . وكانت اغرب المراكب تلك الآتية من شاطئ المهرة ، ذات المؤخرات المستقيمة ، التي لا ترتفع بانحناءة من الوسط ، والصواري العالية التي تقف عمودية بدون أي ميل ، والأشرعة المفردة الضخمة . وكانت هذه المراكب دائما مزدحمة بالركاب الى حد يجعل الحياة على ظهرها جحيما لا يطاق . فعلى الرغم من أنني وجدت الحياة على ظهر « فتح الخير » صعبة جدا ، خاصة عندما كان معنا ركاب كثيرون ، الا أنني أشك بإمكانية تحملي رحلة بحرية طويلة على ظهر أحد تلك المراكب الصغيرة ، الناصة بالبضائع والناس . وقد كان البحارة على متن السمايك والبغلات الصورية في معظمهم من السود ، أحفاد العبيد ، بل أن بعضهم كانوا لا يزالون عبيدا بالفعل . وكان هؤلاء يرقصون ويهزجون ويصفقون بأيديهم الخشنة طوال

النهار • وكثيرا ما كنا نقيم الولائم على ظهر مركبنا ، الا انى لم أحضر وليمة واحدة تقام على ظهر مركب صوري • وعندما كنت أنا ونجدي نقوم بزيارتهم فى مراكبهم ، كانوا يقدمون القهوة العربية التى كانت دائما سيئة جدا ، بالاضافة الى نوع من الحلوى الشديدة الحلاوة ، التى كان افضل أنواعها يأتى من مسقط وزنجبار • لقد كنت أتمنى لو بقيت تلك الحلوى ، فى موطنها الأصلي ، اذ انها لم ترق لى قط ، على الرغم مما كان نجدي يكيله لها من المديح ، ومن قوله أن لها قوة منشطة لا تجارى •

ومرت الايام علينا فى موقاديشو لطيفة خفيفة الظل ، وكنت سعيدا على الأقل لأنى لم أكن فى حيفون ، ولان ذلك الصومالى المشاكس ، كثير الصراخ ، كان قد انصرف ، وانصرف معه صراخه وازعاجه ، كما أصبح بإمكانى الآن أن أمشى دون صعوبة كبيرة أو ألم شديد ، وان لم يكن لذلك فائدة ، ما دمت محروما من مغادرة المركب • فقد كان الموظفون الايطاليون الصفار يترددون على دون انقطاع ويواصلون استجوابى ، لأنهم كانوا ، على ما يبدو ، يرتابون فى أمرى ، وفيما أتيت اليه ، ويحسبون أن غرضي من تلك السفرة واحد من تلك الاغراض السيئة التى لم تخطر لي على بال • وكان هذا يقلق « نجدي » بالطبع ، فقد كانت أسئلتهم هي هي دائما ، كما لم يكن يبدو عليهم الاقتناع بأي من اجاباتي المتشابهة • فقد كانوا يسألونني مثلا عن سبب سفري الى الصومال ، على متن مركب عربي ، رغم توافر السفن البخارية الحديثة ، وعندما كنت أجيب بأني كنت مسافرا مع العرب ، لاني أحب أن أقوم بمثل تلك الرحلات ، وأنه لم يكن يهمني المكان الذي تسافر اليه تلك المراكب ، كانوا يعربون بصراحة عن عدم تصديقهم • وفي أحد الايام كان أحد الموظفين الايطاليين شديدي التزمتم يحقق معي ، عندما اهتدى بالصدفة الى مفكرة قديمة لى يرجع عهدها الى أيام رحلتى على متن « الشيخ منصور » الى جيزان ، فتمسك بها وكأنه وجد كنزا ثميننا • وكان فى تلك المفكرة بعض الرسوم التخطيطية ، أحدها رسم للساحل الذي تقع عليه مدينة جيزان ، والآخر مخطط للترتيبات الصحية الموجودة على ظهر سمبوك من تلك السمايك ، التي يسافر عليها الحجاج • وقد قام الموظف الايطالي بقطع تلك الرسوم من المفكرة ، وأخذها معه الى الشاطئ ، ولم أدر ماذا كان يتوقع أن يكتشف فيها ، ولكنه على كل حال لم يعدها التي قط • لقد كانت تلك الايام غير مناسبة لسفر الاوروبيين وتجولهم في انحاء المعمورة ، وكان العرب يلاحظون تلك الحركات والتصرفات التي كانت تصدر عن الايطاليين ، ويسخرون منها • وقد سمح لي فيما بعد أن أنزل وأتجول في المدينة نهارا ، الا أن « نجدي » كان يقسم أغلظ الايمان بأن سبعة من الشرطة السرية كانوا في أثري بشكل دائم •



وقد أشعرنى ذلك بأهميتي ، الا أنني كنت أشك في ذلك ، كما أنه لم يكن بإمكانهم أن يلاحظوا شيئاً غريباً في تصرفاتي . لقد أعجبتني موقاديشو ، فقد كانت مدينة نظيفة ، منظمة ، جميلة ، ومزدهرة .

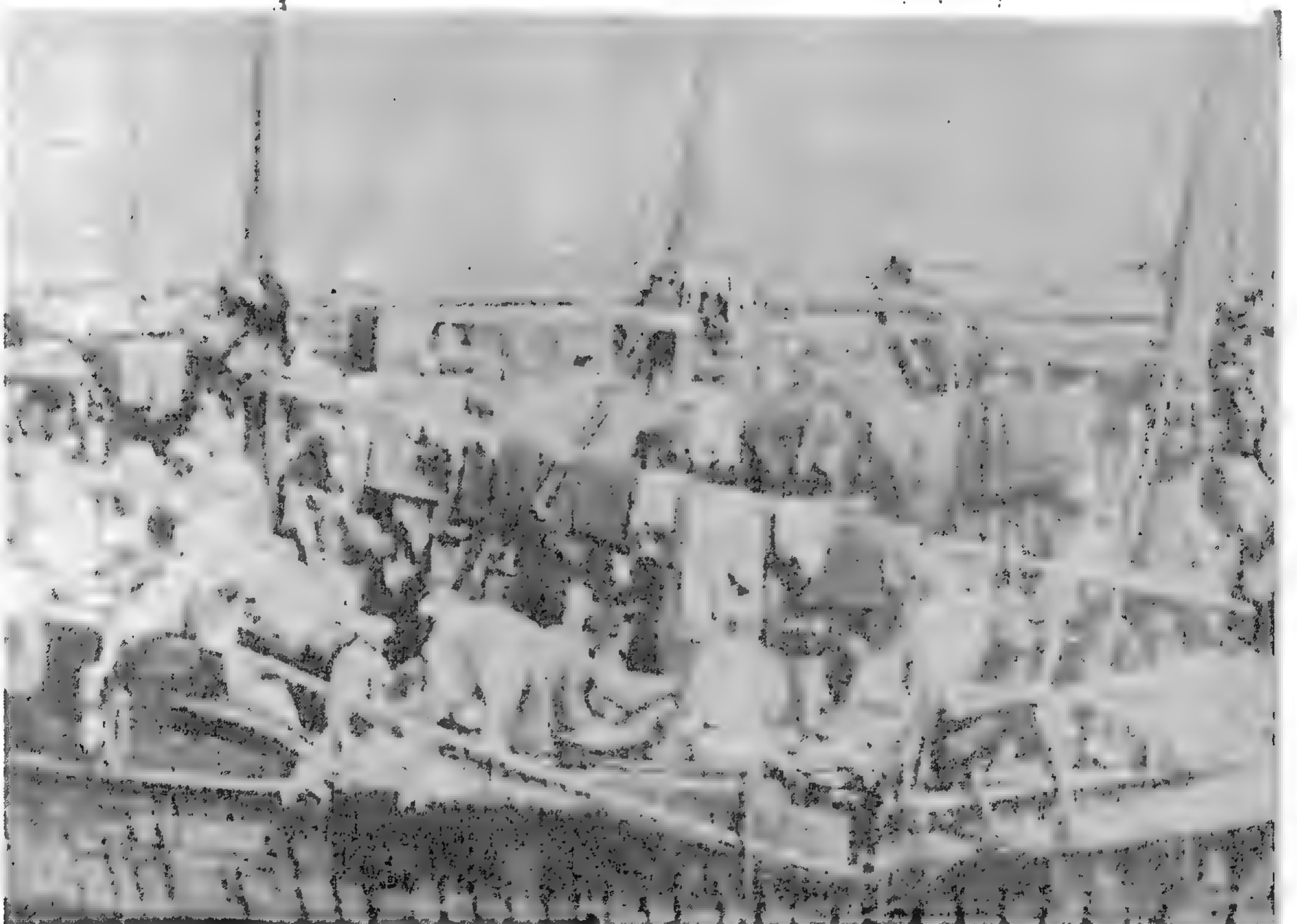
وفي إحدى جولاته التفتيشية الأخرى على ظهر المركب ، اكتشف الموظف نفسه صرة من البضائع اليابانية في صندوق اسماعيل الموسيقي ، فأخذها معه وهو مزهو بانتصاره العظيم . ولو كان يدري حقيقة الأمر ، لما تولاه ذلك الشعور بالنصر . فقد كانت تلك الصرة حصى ما اتفق الجميع على التضحية به لكي يعثر عليه ذلك الموظف الغبي ، فيشعر بأنه أنجز شيئاً هاماً ، لأنه لو لم يجد شيئاً على الإطلاق فسيظل في ريبة من أمرنا . ولم تكن تلك البضاعة التي اكتشفها الا جزءاً يسيراً جداً من البضائع الحقيقية ، التي كان بعضها قد أنزل الى البر خلسة وجرى التصرف بها من قبل ، بينما أخفي الجزء الآخر تحت قاعدة القمرة الكبيرة ، في ذلك المكان الرهيب من المركب الذي لم يكن أحد من الأوروبيين يجرؤ على النزول اليه . وعندما حمل الموظف تلك الرزمة من البضاعة لنقلها الى البر ، أخذ اسماعيل يحتج بصوت عال جداً ، بل انه بالغ في ذلك لدرجة اني حسبته جاداً في تصرفه ، وتابع التمثيلية الهزلية بأن نزل الى الشاطئ ، وذهب الى مكتب الجمر ليطلب برد الرزمة على أساس انها كانت مرسلة الى ممباسا ، لا الى موقاديشو . ولا شك أنه قد أصيب بالدهشة فيما بعد ، عندما ردت اليه البضاعة قبل اقلاع المركب بساعات قلائل .

وهكذا لبثنا في ميناء موقاديشو يوماً بعد يوم ، رغم أنني لم أدر لبقائنا سبباً سوى بصيص من الأمل بالتخلص من عدد آخر من الركاب ، ربما يصل الى المائة . وكان سعيد وماجد وبقية الزمرة قد ظهروا ثانية ، كعادتهم ، بعد أن سمح للمركب بدخول الميناء ، وتم تدقيق أوراق الركاب واحصائهم ، وبدأوا في الحال يمارسون عمليات التهريب . وكانت الظروف هنا مؤاتية جداً لمثل هذا العمل ، فقد كان المركب يقف بحذاء الرصيف تحيط به المراكب من كل جانب ، كما كان هناك اتصال مع الشاطئ ، بواسطة القارب الطويل طوال النهار . وعلى الرغم من أنه كان عليهم أن يمشوا من بوابة ، يقوم عدد من الحراس الايطاليين والصوماليين بحراستها . حراسة يقظة ، لأنها كانت الطريق الوحيد من الرصيف الى المدينة ، الا أن جماعتنا كانوا كلما نزلوا الى البر يخفون تحت ملابسهم أعداداً كبيرة من الزرات ، وأحزمة النقود ، والعطور ، والسجائر العدنية ، والعمائم الجديدة ، وأنواعاً أخرى من البضائع .

→ المهربان ماجد وسعيد

وكما كان الحال في حيفون ، فقد كان من الممتع أن يرقبهم المرء وهم يعدون أنفسهم للنزول الى البر . فقد كانت قطعة من قماش الشراع معلقة بعرض الجزء الخلفي من المؤخرة ، وكان الهدف الظاهر منها منع الاقذار المتطايرة من السطح الرئيسي من الوصول الى المؤخرة ، أما الغرض الحقيقي منها فقد كان التغطية على تلك المؤنمرات التي كانت تنعقد ليلا ، الا أن جماعة المهريين كانت تستفيد منها أيضا كستار ممتاز يخفي استعدادهم للنزول الى البر . وقد كان سعيد هنا أكثر دقة في استعداداته مما كان يفعل في حيفون . فكان دائما يرتدي ثلاثة أثواب ، وثمانى وزرات على الاقل ، ويربط مزيدا من الوزرات حول ركبته . وبغض النظر عن المكان الذي كان يتخلص فيه من تلك البضاعة على البر ، فقد كان دائما يحتفظ بثوب قديم وعمامة عتيقة يعود الى المركب وهو يرتديهما . وكان أحيانا يقوم بست رحلات كل يوم ، يستخدم فيها القارب الطويل المحمل بما هب ودب من البضائع والخردوات ، وكان مساعده محمد يجلس دائما في المقدمة، ولم يحدث مرة واحدة أن عبر كلاهما البوابة معا ، بل كان كل منهما يذهب الى السوق بمفرده ، وسرعان ما يعود وهو يرتدي الثوب الموهل والعمامة القديمة . ولم استطع أن أفهم بسهولة كيف يواصل هذان القيام بتلك

الركاب فى موقاديشو



الرحلات دون أن يثيرا الشك في أمرهما • الا أن يوسف الذي كان يقوم بأعمال مشابهة ، أفهمني بأن القضية كلها كانت تتوقف على دفع الرشوة المناسبة •

ولكن لم تكن هذه هي القصة بأكملها ، فقد كان سعيد يقع أحيانا في أيدي واحد من حراس البوابة يشك في أمره ، فيطلب منه خلع ملابسه ، ويصادر جميع البضائع التي يحملها ، ويضربه أيضا • وفي مثل هذه الحالات كان سعيد يعود الى المركب فوراً ، وهو قلق ولكنه غير تائب ، بل ولم يكن ذلك يمنعه من أن يحمل نفسه بالبضائع في الحال مرة أخرى • وكان يقول ان الايطاليين لم يكونوا قادرين على تمييز عماني من آخر ، وكان هذا صحيحا ، أما الصوماليون فقد كانت « أمورهم مدبرة » ، ولذلك لم يكونوا يشكون به وبزمرته • وكان أمره ينكشف أحيانا مرتين في اليوم الواحد ، ولم يكن يبالي بذلك ، ما دام قد استطاع تهريب الشحنات الاربع الاخرى ، التي كانت تدر عليه ربحا كافيا •

لقد كانت جميع تلك البضائع تذهب الى السوق المحلية • فقد أخبرني يوسف أن كل تاجر هناك تقريبا كان مستعدا لعقد أية صفقة ، وأن كل بائع متجول في السوق كان مستعدا لشراء جميع البضائع المهربة التي يمكنه الحصول عليها • فقد كانت الرسوم الجمركية عالية جدا والصوماليون في فقر مدقع ، كما كانت القيود التي كان الايطاليون مرغمين على فرضها على التجارة ، بأمر من حكومتهم ، تجعل من انتجارة الشرعية العادية أمرا مستحيلا •

كانت عمليات التهريب تتم على نطاق واسع في موقاديشو ، ولم تكن تقتصر على الخردوات ، فقد لاحظت أن بعض السجادات العجمية التي كانت تنزل الى الشاطئ لم تكن تعود منه • وكان جميع من على ظهر المركب يقومون بنوع من التهريب ، باستثناء الطباخ والنجار والركاب البدو ، الذين لم يكن لديهم المال الكافي للقيام بمثل هذا العمل ، وكذلك كان الحال على ظهر المراكب الاخرى • ولكن الامور زادت عن حدها ، وأخذ التجار ، الذين كانوا مرغمين على المتاجرة بالبضائع المشتراة بالطريقة الشرعية ، يحتججون على عمليات التهريب ، مما حدا بالايطاليين بعد أسبوع أو اسبوعين أن يصروا على تفتيش كل عربي يدخل من البوابة ، ولكن هذا لم يكن اجراء كافيا لمنع عمليات التهريب ، فقد كانت هناك طرق ووسائل أخرى للقيام بها • ولم تمض علينا خمسة أيام في موقاديشو حتى أتاني محمد العماني ، وأخبرني انه قد انتهى من تهريب بضاعته كلها ، الا أنه كان

يتذمر ويشكو من أنهم قبضوا عليه مرتين متلبسا بالجرم المشهود ، وكان واضحا من كلامه أنه كان يشعر بالظلم الشديد حتى لو لم يقبض عليه سوى مرة واحدة .

أما الناحية الاقتصادية التي كانت عمليات التهريب تتم على أساسها ، فقد كانت - حسبما استطعت أن أعلم - كما يلي : بعد أن يقضي واحد من أولئك الرحالة المغامرين ، مثل صاحبنا سعيد ، سنة أو سنتين عاطلا عن العمل لا يفعل شيئا سوى التمتع بنسائه في بلده الأصلي ، « صور » ، يحزم أمره ويتجه الى عدن أو مسقط ، وغالبا ما تكون أولاهما . وهناك يشتري سلعا بمبلغ ثلاثمائة او اربعمائة روبية ، يحصل عليها نسيئة في الغالب . وكان من الطبيعي أن يفعل سندبادنا هذا العمل بالنسيئة . ونظرا لعدم توفر النظام المصرفي ، فهو يعتبر النسيئة طريقة لكسب الرزق باستعمال أموال الآخرين . وكان يوزع ذلك المبلغ بعناية كبيرة على تلك السلع التي يعرف أنها تعجب الصوماليين والسواحليين ، كالوزرات ذات الالوان الزاهية ، والعمائم وغيرها من أغذية الرأس ، والأحزمة وما شابهها . وكان يفضل تلك الخردوات لان لها سوقا دائما ، ولأن من السهل حملها وتهريبها . ثم يركب أحد المراكب العربية ، على أن يدفع الاجرة فيما بعد ، ان كان ذلك ممكنا ، وان كان كثير من الربابنة الكويتيين يرفضون أخذ هذا النوع من الركاب ، لانهم كانوا ينافسون تجارة المركب من ناحية ، كما أنهم كانوا كثيرا ما يقصرون عن دفع أجرة السفر من ناحية أخرى ، ولذلك فلم يكونوا من النوع المرغوب فيه . وعندما يجد سندبادنا مركبا يقبل ربانه أن يأخذه معه ، يتجه الى أفريقيا ، قانما بالامكنة التي يتوقف المركب فيها ، وقائما بعمله التجاري ، حيثما وكلما أمكنه ذلك . فقد كانت بضائعه معه وكان يأكل مما يقدمه المركب من الطعام ، وكان يعرف طريقه جيدا . فقد كان قد سافر الى تلك الاماكن من قبل ، ولم يكن اسمه يدون في قائمة الركاب أو في أي ورقة رسمية من أوراق المركب ، ولم يكن يحمل جواز سفر ، كما لم يكن يرغب في أن يتعرف عليه أحد ، أو في اثبات وجوده في أي سجل ، كل ذلك لكي يجعل من عمله التجاري عملية سهلة . وفي كل ميناء يرسو فيه المركب ، كان يعتبر واحدا من البحارة ، فلم يكن الاوروبيون يميزون عمانيا عن الآخر ، كما لم يكن هو يخشى أن يشي به أحد من جماعته . وبما أنه كان يمر بجميع الموانئ مرورا ، ولا ينزل رسميا الى البر في أي منها ، بل ولم يكن له أي وجود رسمي على الاطلاق ، فلم يكن يطلب منه أن يقدم أمتعته للتفتيش او ان يثبت وجوده في أي مركز رسمي . الا أنه كان يقوم ببيع بضائعه عن طريق التهريب بشكل منظم دقيق في كل من تلك الموانئ . فهو يعرف جميع التجار ويعرف لمن يبيع سلعه ، بل انه كان يبيع بعضها بالعمولة ، ويقوم



رفع العارضة

أحيانا بنقل البريد والرسائل خلصة ، فهو دائما مستعد للمقيام بأي حمل تجارى ، وهو أهل لذلك تماما . وكانت رحلته تستغرق حوالى ثمانية أشهر أو تسعة كل سنة ، يحصل خلالها من البضاعة التي كلفته أربعمئة روبية ، على ربح صاف يقدر بألف روبية . وهذا عمل جيد ، الا أن عليه أن يتحمل بعض الخسائر أحيانا . فاذا كان يشتري بالدين ، فإن عليه أن يبيع بالدين أيضا . وعندما كانت الاموال النقدية تتوافر لديه ، كان ينفقها بـكـرم وسخاء ، وكثيرا ما كان يبدها بغير حساب . ولذلك فإن من المشكوك فيه أن يكون ربحه الصافى وفيرا على الرغم من نسبته العالية . فلو كان يوفق في تجارته كما ينبغي ، لأمكنه بعد بضع سفرات من هذا النوع أن يتقاعد ويبقى على البر ، الا أن أحفاد السندباد هؤلاء لا يفعلون ذلك أبدا ، أو على الأقل لا اعتقد أن أمثال « سعيد » يفعلون ذلك . وقد كان على أي من هؤلاء أن يسلف الآخرين ، ولا بد أنه كان يخسر بعض المال بسبب ذلك أيضا ، ولذلك فاني أشك في أنه كان يربح الكثير ، فقد لاحظت أن كثيرا من وقت هؤلاء كان يضيع في محاولة جمع الديون المستحقة لهم من رحلات سابقة . وكان من الواضح أن التهريب ، مثله في ذلك مثل باقي الاعمال التجارية العربية ، كان يعتمد على أساس الدين .

حتى نجدني نفسه كان له قسط وافر من عمليات التهريب ، وكان يهرب أحجبة النساء المصنوعة في الهند . وبما أنه نوحدة كويتي ، فلم يكن ينزل الى مستوى التهريب الفعلي ، بأن يقوم بحمل السلع الى الشاطئ بنفسه ، فقد كان العمانيون الصوريون يقومون بهذا العمل نيابة عنه . ولعل هذا هو سبب كثرة السوريين بين ركاب الدرجة الاولى على ظهر « فتح الخير » ، وان لم تكن أسماؤهم تظهر على قوائم الركاب التي يحصيها الايطاليون . ففي كل صباح ، بعد أن تؤدي صلاة الفجر ، ويتناول الجميع طعام الفطور من الخبز ، كان يعقد اجتماع في المؤخرة يحضره دائما الصوريون أنفسهم ، ويهدف الى نفس الغرض دائما . فقد كانوا يتحادثون ويدخنون ، ويتصايحون قليلا ، ثم يغادرون المركب محملين بنفس الأنواع من البضائع . وفي كل صباح تقريبا ، لا بد من أن يكون هناك خلاف على أمر ، يكون في العادة متعلقا بما حصلوا عليه من بينهم البضائع في اليوم السابق . ولم يكن جميع هؤلاء العمانيين بحارة ، بل كان كثير منهم يساعدون في أي عمل يطلب منهم ، وهم يسافرون على متن المراكب الصغيرة كالجلبوت والسنبوك والبغلة ، ويرتقون مما يستطيعون الحصول عليه في رحلاتهم السنوية هذه الى افريقيا . ولم يكن معهم من المال ما يساعدهم على شراء البضائع وبيعها لحسابهم الخاص ، ولذلك كانوا مستعدين للعمل مع الكوريتيين على أساس العمولة . الا أن يوسف الشيرازي العجوز كان يكرههم ويقول دائما انهم ليسوا أهلا للثقة ، ولذلك فقد كان يقوم بانزال بضاعته الى البر وتسويقها بنفسه ، كما كان يفعل بقية البحارة ، الا عددا قليلا يظلون على مؤخرة المركب ويعنون بالأشربة . لقد كان هؤلاء العمانيون مجموعة قذرة ، يرتدون عمائم قذرة جدا ، وجلابيب بنية اللون ، كانت تبدو كأنها لم تغسل منذ أنشئت مدينة صور ، كما أن كثيرا منهم كانت عيونهم ملتهبة ، وكان العمى الجزئي منتشرا بينهم .

وبين هؤلاء المهربين السوريين كان ماجد ، ذو الوجه الذي تبدو عليه آثار الجذري ، شخصا بارزا وان لم يكن محترما ، وكان هو المهرب الرئيسي لنجدي . وكان هذا قد اشترى رزمة كبيرة من أحجبة النساء الملوثة من أحد أسواق بومباي (في الهند) في رحلة سابقة . وقد كانت أشكالها غريبة والوانها السائدة هي الاحمر والاسود . ومع أنها لم تكن جذابة في نظري ، ومع أنني لم استطع أن أفهم كيف يمكن أن يقوم أحد بارتدائها ، الا أنها كانت ، على ما يبدو ، تعجب النساء الصوماليات ، وتباع بأسعار جيدة في السوق . وكان نجدي يحمل معه مئات منها . وكانت الطريقة التي يتبعها ماجد لتهريب هذه الاحجبة هي أن يدس أكبر عدد منها في داخل حاشية جلبابه العريضة ، وأن يلف ثلاثا أو أربعاً منها داخل عمامته ، وأن يحشو جيوب سترته الراسعة بدستة أو اثنتين منها ، وأن

يربط عشرين او ثلاثين أخرى في حزام ذي ثلاث طبقات أعاره اياه نجدي • وبعد أن يحمل نفسه بكل هذه البضاعة ، كان ماجد ينزل الى البر كل صباح ، وينزل خارجا من البوابة • ولم يحدث أن قبض عليه مرة واحدة ، فقد كان يخرج من البوابة كطلقة المسدس ، وسرعان ما تراه قد وصل الشارع ، يسير فيه وهو واثق من نفسه ، مزهوا بها ، وينطلق كالسهم الى حيث يريد • ولست ادري كيف كان يستطيع أن يسير حافي القدمين على أسفلت الشارع ، في ذلك الحر الصادر عن شمس المنطقة الاستوائية ، ولكنه كان يفعل ذلك وكأنه شيء طبيعي • ولم أعرف المكان الذي كان ماجد يذهب اليه عندما يصل السوق ، كما أنني لم أكن ابالي ، فلم يكن الامر يعنيني ، ولكنه لم يكن يتأخر في التخلص من أحماله والعودة الى المركب • بل انه كان في بعض الايام يهرب دفعتين من البضائع ، الا انه في العادة كان يكتفي بدفعة واحدة ، وربما كان هذا سبب عدم الارتياح فيه أو القبض عليه • ولا شك أنه كان رجلا يستوقف النظر ، حتى بين زملائه من العمانيين ، بوجهه الناحل ، وشكله الوسيم الرائع ، على الرغم من آثار الجدري على وجهه • وقد كان من السهل أن يتذكره المرء ، اذا حدث أن جذب الانتباه ولو مرة واحدة • الا أنه كان يبدو بالنسبة للايطاليين كأي نوحدة عماني آخر ، ولذلك كانوا يسمحون له بالمرور في كل مرة • ولكنني واثق أنهم كانوا يستطيعون تمييزه بعد أن يعبر البوابة أول مرة ، الا أنه كان يعرف جيدا كيف يتصرف ، وقد استطعت أن أسمع نجدي يقول في اليوم الثالث لوصولنا الى موقاديشو أنه لم ير انسانا يستطيع أن يصرف له البضاعة بمثل تلك الكفاءة •

الا أن « نجدي » بدأ ، في اليوم الثامن ، يتساعل متى سيتسلم الدفعة الاولى من ثمن الأحجية • فقد كان ماجد يتجاهل هذا الجانب من العملية حتى الآن ، وكل ما كان يفعله هو أن ينزل البضاعة الى السوق ، ويعود دون أن يأتي معه بأية نقود • وقد كان لديه دائما تفسير مقنع لعودته خالي الوفاض • ولكن بمضي الوقت لم تعد تلك التفسيرات قادرة على اخفاء حقيقة الامر ، وهي أن ماجدا لن يأتي بأية نقود على الاطلاق •

وكانت جميع الاحجية قد أنزلت الى السوق الآن ، وأصبح من الواضح أن بضعة ألوف من الليرات قد طارت في الهواء • وعندها بدأت المشاكل • وذهب عبد الله ، شقيق نجدي ، الى السوق ليحقق في الامر ، وعندما عاد أخبر أخاه بأن التاجر الذي كان يشتري البضاعة من ماجد قد دفع ثمنها جميعا ، الا أن ماجدا انكر ذلك بشدة وعنف ، واعتبره اهانة كبيرة له • ولكن مشادة كبيرة جدا استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل • وما كان

يؤلم نجدي انه أئتمن ماجدا على بضاعته وماله ، وما دام هذا مسلما فلم يكن ينتظر منه أن يخون الامانة قط . ولكن ماجدا ، على اسلامه - لم يعد شيئا من النقود - وحوالي منتصف الليل ، عندما بلغت المشادة والصراخ أوجهما ، أمر ماجد بمغادرة المركب في الحال ، ففعل ، وهو لا ينقطع عن الصراخ . الا أنه عاد في الصباح ، بكل وقاحة ، ليأخذ أمتعته ، التي كانت تتألف من صندوق معدني صغير ، قديم ، محطم ، وقطعة من بطانية ملفوفة بحصيرة سواحلية . وقد غادر المركب ثانية ، وهو يحمل متاعه ، ويواصل الصياح والادعاء بالبراءة التامة أمام الجمع المحتشد من المراكب الاخرى ، واستقل قارباً تابعاً لاحدى البغلات القريبة التي استطاع أن يلجأ اليها .

ولم يذهب ماجد وحده ، بل غادر المركب معه بقية المهربين العمانيين وهم ، سعيد وزمرته ، والصبي محمد ، وحملوا معهم كل ما يملكون . وقد طردوا جميعاً لأنهم تظاهروا بالفقر ، وامتنعوا عن دفع أجور سفرهم ، بعد أن مضى عليهم شهران وهم يأكلون من طعام المركب ، وبعد أن سافروا معنا مسافة ألفي ميل . وقد جن جنون نجدي من موقفهم هذا ، وأمر بتنظيف المركب من العمانيين جميعاً . ويجب أن أعترف بأنه ، اذا كان نجدي قد خسر بالفعل أجور سفر هؤلاء جميعاً ، فلا بد أن يكون هناك خطأ في الاسلوب الذي يتبعه نجدي في ممارسة أعماله التجارية ، او على الاقل في التعامل مع العمانيين من أهل صور . فقد كان مع سعيد مبلغ كبير من الليرات الايطالية ، رآه الجميع وهو يعبدها ، كما كان معه عندما غادر المركب كثير من البضائع . أما لماذا لم يصادر نجدي بعض ما يملكه سعيد مثلاً ، أو لماذا لم يشبعه ضرباً الى أن يدفع ما عليه من المال ، فهذا ما لم استطع فهمه . وكل ما أعلمه أن هذا النوع من الاجراء المباشر لم يكن أسلوب نجدي في التصرف .

وعندما فاتحت يوسف الشيرازي في الامر ، قال انه يكفي أن يفقد العربي سمعته الطيبة ، وأن تصبح أمانته موضع الشك ، وأضاف أن جميع من على الشاطئ سيعلمون بأن سعيداً وماجداً قد خانا الامانة ، وأن سمعتهما ستصبح سيئة جداً ، الا انه اعترف أن تلك السمعة لم تكن حسنة في يوم من الايام . وقد خيل الي أن الاثنين قد تمكنا من التملص من الدفع بسهولة كبيرة ، ودون أن يصابا بأي ضرر ، بعد عملية نصب واحتيال واضحة كل الوضوح ، وأنه ما كان ينبغي أن يسمح لهما بذلك . وقد اكتشفت فيما بعد أن محمداً الذي كان دائماً يدعوني بصديقه العزيز جداً ، كان من نفس النوع ايضاً . فقد كان أيضاً ينزل بضائع الكويتيين التي

البر ، ولكنه لا يعود بالمال ، الا أنهم واصلوا الوثوق به مؤقتا ، وبقي في موقاديشو ليجمع المال بعد أن وعد بدفع المبلغ المستحق عليه اما في مومباسا أو في زنجبار . وقد التقينا به مرة أخرى بالفعل ، الا أنا لم نر أثرا المنقود .

لقد كانت تجارة خاسرة في نظري . فاذا أخذنا بالاعتبار الخسائر التي منينا بها في ميناء حيفون ، وعدم تمكننا من التخلص من التمور الفاسدة ، واضطرارنا لمبادلة الارز العدني بسمك حيفون ، واضاعة الوقت في محاولتنا التخلص من الركاب ، ثم الخسارة التي أصابتنا على أيدي المهربين الهمانيين ، لا أستطيع أن أفهم كيف كانت الرحلة مربحة جدا ، كما سمعت . صحيح أن بقاء البدو وغيرهم من الركاب على ظهر المركب لم يكن يملأنا شيئا غير الازعاج ، كما أن من الممكن ، على الرغم من خسارة نجدي لثمن الاحجية النسائية ، أن بقية أعمال التهريب كانت مرضية .

لقد افنتدت ماجدا العجوز ، الذي كان شخصية رائعة مميزة ، على الرشم من كونه نصابا كبيرا ، وقد سمعت منه كثيرا من القصص والحكايات الممتعة عن بلده صور . ولر كانت معرفتي باللغة العربية أفضل مما كانت عليه ، لعرفت منه الكثير عن تلك المدينة ، ولكني ، بمعرفتي السطحية بتلك اللغة ، لم أعرف الا بعض الامور عنه شخصيا . فقد كان هو ايضا نوخدة في يوم من الايام ، الا ان سمعته السيئة بالنسبة لمعاملاته التجارية أفقدته المركب تلو الآخر ، الى أن توقف الجميع عن تسليمه مراكبهم ، فاضطر أن يصبح سندبادا متجولا من مكان الى آخر على طول الشاطئ يحاول تحصيل قوته بذكائه ودهائه ، لا بعرق جبينه . فلم يكن يملك شيئا من المال ، ولن يملك منه شيئا أبدا ، الا أنه كان يعرف طريقه على طول الساحل الشرقي لافريقيا ، والساحل الغربي للهند ، كما كان باستطاعته أن يعمل مرشدا على نهر الروفيجي ، وفي جزيرة كومورو ، وعلى ساحل مدغشقر وفي خليج كرتش . وكان معه آلتان لقياس الارتفاع ، كلاهما ملتويتان لا يوثق بهما ، وليس في أي منهما مكان مخصص للعين ، كما كان معه خريطة للمحيط الهندي يرجع تاريخها الى عام ١٧٤٦ . وقد حاولت مرارا أن احصل على هذه الخريطة الاثرية منه ، ولكنني لم اوفق في ذلك رغم أنني عرضت عليه ثلاث خرائط جديدة بدلا منها . وقد كانت خريطته القديمة مزينة بالخط العربي ، ومبينا عليها العلامات الفارقة ، والمسافات والمعلومات الاخرى التي كانت لها أهمية بالنسبة للبحار العربي . وكان ماجد يتكلم السواحلية والفارسية والهندوستانية وعدة لهجات هندية أخرى ، وشيئا من الصومالية بالاضافة الى لغته العربية ، كما كان بإمكانه أن يسب

ويشتم باللغة الانكليزية بشكل جيد ، الا أنه لم يكن يعرف معنى ما يقول .
لقد افتقدت ماجدا العجوز ، فقد كان صديقا جيدا . وكنت أعطني بقدميه
المتقرحتين ، وأعطيه الحبوب الطبية لعلاج الامساك المزمن الذي كان يقاسي
منه . وقد تناسى طبعا ان يعيد لي اللعبة الكبيرة التي كنت أحفظ فيها
تلك الحبوب ، كما احتفظ بمحتوياتها ، ولكن لعله اعتبر ذلك هدية مني .
وكان كثيرا ما يعادثنني باطناب في مواضيع دينية لم أكن أفهم منها حرفا
واحدا ، ولم يكن مطلوبا مني على كل حال الا أن أهمس بكلمة « طيب »
كلما توقف لالتقاط أنفاسه ، وقلما كان يفعل ذلك ، وكلما سمع تلك الكلمة
كان يبتسم ويأخذ نفسا طويلا ثم يتابع الحديث . فقد كنا منسجمين تمام
الانسجام ، وعندما غادرنا الى غير رجعة ، شعرت بخسارة كبيرة للمركب ،
ولكن لعلني كنت الوحيد الذي خامرني ذلك الشعور .

ولم تكن مشاكل نجدي في موقاديشو قد انتهت بعد . فقد كان بعض
الركاب لا يزالون يعتبرونه مسؤولا عن جلبهم الى موقاديشو ، وعدم تمكنه
من انزالهم الى البر . وقد حدث مرتين أن قابلته وفود غاضبة من
الحضارمة المولدين ، محتجين على الوضع الذي هم فيه . الا أن هذا الامر
لم يكن يزعجه كثيرا ، فلم يكن بإمكانه أن يفعل شيئا ، ولم يكن هو السبب
في ذلك الوضع . ولو علم أنه سيواجه صعوبة في انزال الركاب الى البر ،
لما قبل أن يسافروا معه أصلا . وعلاوة على ذلك فلم تكن المشكلة حادة
جدا ، فكما كان يقول ، بإمكان هؤلاء الركاب أن ينزلوا في كينيا أو زنجبار .
فما الفرق بين أي من هذين البلدين وبين موقاديشو بالنسبة لهم ؟

ثم حدث شيء لم يسبق له مثيل ! فقد تمردت النساء ! وكانت عدة
اسابيع قد مضت وأولئك النساء التعيسات مسجونات في القمرة الكبيرة .
فقد كنا في شهر فبراير ، وكان النساء هناك منذ شهر ديسمبر ، وقد تعجبت
لماذا لم يتمردن من قبل . ولم يكن أي منا يشاهد واحدة منهن قط ، وكانت
الايام تمر دون أن يفكر بهن أحد ، الا اذا توفيت احداهن مثلا . وكان
يوسف هو الوحيد الذي كان ينزل الى ذلك المكان الجهنمي المظلم ، ويخرج
منه محملا ببعض ما هو مخزون فيه ، وكنت ألاحظ أحيانا شيئا من القلق
في عينيه . أما بالنسبة للنساء ، فقد كانت أجور سفرهن مدفوعة ، وها هن
قابعات هناك . فلم يكن الايطاليون يرغبون في نزولهن الى موقاديشو أو الى
أي مكان آخر ، ولم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئا لئلا نرى الانتظار وسوى أن
نأخذهن معنا الى كينيا . وقد كان من المفروض أن تستسلم النسوة لمصيرهن،
ولا شك أن معظمهن كن مستسلمات فعلا ، ومع ذلك فقد قمن بتمرد في أحد
الايام ، وكان هذا أمرا لم يسمع به من قبل .

وقد اخترن الوقت المناسب للقيام بثورتهم • ففى ذلك اليوم كنا نقيم وليمة على ظهر المركب بمناسبة عيد الاضحى المبارك ، وكان طعامنا يتألف من خروفين كاملين ، كما أن جزءا من مؤخرة المركب كان قد جرى تنظيفه • وعندما انتهت الوليمة ، جلس نجدى على بعض الوسائد المصقوفة حول المقعد الطويل ، وعليه سيماء الهيبة والوقار ، وأنفه الاقنى شامخ فى الهواء ، جلس يتجاذب أطراف الحديث الجاد بهدوء مع عدد من الربابنة الفرس والعمانيين القادمين من مراكب أخرى ، وعدد من أقارب أصحاب المراكب الذين كانوا مدعوين للوليمة • ولاول مرة كان اسماعيل يعزف لحنا هادئا على قيثارته دون أن يغنى ، كما كانت النارجيلة تنتقل من فم الى آخر ، وكان الجميع يشعرون بالهناء والسعادة ، بعد أن امتلأت بطونهم بالأرز واللحم • بينما كان البدو وبقية الركاب نائمين على السطح الرئيسى وعلى الصناديق • لقد كان نجدى فى أوج تألقه وانبساطه •

وفجأة ، ودون سابق انذار ، فتح باب القمرة الكبيرة الضخم بعنف محدثا دويا هائلا ، وانطلقت النسوة منه الى الخارج • يامصيبة المصائب ! ماهذا الذى نراه !! لقد كان نجدى يواجه أعتى الصعوبات والمشاكل دون أن يطرف له جفن • الا أنه أمام هذا الجلل أرتج عليه ، وفزع لحظة حتى كادت قسبة النارجيلة تسقط من يده ، ولكنه سرعان ماتمالك نفسه ، وجلس هادئا يحدق فيما يجرى أمامه • أما الآخرون فقد أصيبوا بصدمة ، واختل توازنهم لحظات ، ثم أخذوا ينظرون الى الحادث بوقار وبرود • وقد خرجت من الباب أولا تلك المرأة البدوية الضخمة ، التى كانت قد زودت يوسف بالحليب اللازم ليغمس فيه عينيه المريضتين ، ثم تبعها بقية النسوة ، وكانوا كلهن من العجائز المتقدمات بالسن • وفى الحال بدأت البدوية تصيح بأعلى صوتها ، ولم تتوقف قط ، بل تابعت الصراخ دون أن تلتقط انفاسها ، ولم تفه بكلمة لطيفة واحدة • فقد كانت تسأل أسئلة بصوت عال جدا ، ولاتنتظر لتسمع الاجابة • وكانت تجدف وتشتتم وتلعن وتزعق الى أن امتلأ الميناء كله بالناس ، وجميعهم ينظرون الى نجدى ، الذى لا بد أنه كان يشعر بالحرج والانزعاج ، على الرغم من أنه حافظ على صمته التام ، وظل ينظر الى المشهد بوقاره وهيئته المعتادة • ولايمكننى أن أعيد هنا ما كانت المرأة تقوله ، ولكن خلاصة كلامها كانت واضحة • فقد كانت قد حجزت مكانا لها على ظهر المركب للسفر الى موقاديشو • وهامى فى موقاديشو • فما الذى ، بحق السماء ، كان يبقيها على ظهر المركب ؟ من غير نجدى ؟ وكان هذا ، وكثير كثير غيره هو الذى كانت تصيح به ، يتخلله طبعاً الكثير من السباب الفاحش • وقد كانت بقية النسوة يقفن حول البدوية ، ويبدين موافقتهن ، على الرغم من صعوبة النفاذ الى وجوههن من خلال تلك الاحجية السمكية ، لرؤية

مشاعرهن الحقيقية • لقد كن جميعا من البدو اللواتي يرتدين البرقع الذى يلبس فى الصحراء ، وكانت عيونهن تقدح شررا ، وبين الفينة والفينة كان ثلاث أو اربع منهن يشتركن مع الاولى فى ذلك الموشح الفظيع •

وبعد ربع ساعة من هذه الثورة العارمة ، اضطرت المرأة القائدة الى التوقف قليلا لالتقاط أنفاسها المبهورة ، وعندها تمتع نجدي قائلا : — طيب — وقد فهمت من ذلك ، أو افترضت أنه يعنى ، موافقته على كل ماقالته المرأة • الا أن هذا لم يهدئ من سورة غضبها ، بل أخذت تكيل له الشتائم بقوة وعنف أكثر من السابق ، حتى أنه بدا لى كأن واحدة أو اثنتين من تلك النسوة ربما لجأت الى العنف • ولكنى كنت مخطئا فى ذلك • فقد أسأت فهم النساء العربيات ، كما أسأت تقدير الرجال العرب ، فلم يظهر هناك أى أثر للعنف على الإطلاق • بل انه عندما وصلت الامور الى الحد الذى تقوم عنده أية امرأة عادية من نساء البلدان الباردة بقذف كل ما يقع تحت يدها ، توقف كل شى فجأة • فقد قالت النساء مايردن قوله ، وكان هذا ، على ما يبدو ، كل مايردن أن يفعلن • فقد كن بحاجة الى الطعام ، وكن يردن معرفة التاريخ الذى سيقطع فيه المركب ، كما كن يرغبن فى معرفة المكان الذى يمكن انزالهن فيه • وقد أجاب نجدي بصوت هادئ عميق أن الطعام سيوفر لهن فى الحال ، وأنه سيقطع فى صباح اليوم التالي وأنهن سينزلن الى البر فى ميناء لامو وهى المحطة التالية ، فان لم يتيسر ذلك ، فان من المؤكد أنه يمكن انزالهن فى مومباسا • وقد أضاف الى ذلك قائلا انه يتعهد بأن يوصلهن الى هناك فى مدة لاتزيد عن أسبوعين •

لقد اهتز نجدي اهتزازا شديدا لهذا الحادث الذى لم يحدث مثله من قبل ، حتى أنه اقلع بالفعل فى صباح اليوم التالي ، مع أنه لم يكن ينوى أن يفعل ذلك من قبل • ولكن الظرف لم يكن ظرفا عاديا •

الفصل الثامن

زيارة ميناء لامو

زيارة ميناء لامو

لقد سبق رحيلنا من موقاديشو حادث سبب لنا كثيرا من الفزع . فبعد أن كان موظفو الميناء الايطاليون قد سمحوا لنا بالرحيل ، شوهدوا وهم يعودون الى المركب فجأة بعد فترة قصيرة جدا من استرجاعنا العمـلات الايطالية ، وعودة الركاب غير المسجلين من مركب فارسي يرسو بجوارنا . وكان هذا أمرا خطيرا ، لان النتيجة ستكون وبالا علينا ، لو امسكوا بنا ونحن نحاول تهريب العملة الايطالية الى خارج المستعمرة . ولذلك فقد كان نجدى يرقب الحراس الصوماليين والموظفين الايطاليين ، وهم يصعدون الى المركب ثانية ، وقلبه مملوء بالفزع ، الا أنه لم يبد شيئا من ذلك ، بل حياهم بهدوء ووقار تامين . ولا بد أنه قد شعر بمنتهى الراحة ، عندما اكتشف أنهم كانوا قادمين فقط للبحث عن عربي من برافا ، يبدو أنه سمح له خطأ بمغادرة البلاد . وقد عثروا على خالتهم ، وساقوا الرجل معهم الى الشاطئ ، الا أن وقتا طويلا مضى على ذلك ، قبل أن يجرؤ نجدى على استعادة الليرات الايطالية من جرة السمن ، التي كانت قد القيت فيها على عجل ، وخزنت بالطريقة المناسبة تحت القمرة الكبيرة . أما ركابنا المهربون ، فقد كانوا في مرح وحبور ، لأننا لم نكن قد أبحرنا بعد ، وكان بإمكانهم دائما أن يتظاهروا بأنهم زوار من مراكب أخرى . وما داموا جميعهم قد دخلوا البلاد بطريقة غير شرعية ، ودون أي سجل يدل على ذلك ، فقد كان من العبث أن يضيع الموظفون وقتهم ليسمحوا لهم رسميا بمغادرة البلاد . وقد كان العرب دائما يعمدون الى تخفيف العبء الملقى على كاهل موظفي الموانئ الاوروبيين ، بابعاد مثل هذه المشاكل المزعجة عنهم . ويجب أن اعترف بأن هذا النظام كان يعمل بشكل ممتاز ، فلم يكن لدى أي من ركابنا المهربين أية وثيقة تدل على هويته ، وما فتئوا يجوبون المحيط الهندي طولا وعرضا ، وهم على هذه الحال منذ سنوات طويلة ، وقد خيل الي بأن من العار أن يعترض أحد سبيلهم أو يوقف تجوالهم الآن .

غادرنا الميناء قبل طلوع النهار ، والقمر الكامل في آخر مراحل المغيب ، خلف أبراج كتدرائية موقاديشو . وعندما طلع النهار ، ونحن في عرض البحر كانت السماء مغطاة بالغيوم ، وكان البحر عاليا ، رغم أن الريح لم تكن قوية . وقد أصيب الركاب من البدو بدوار البحر مرة ثانية ، وكانت التعاسة بادية على وجوههم ، الا أنهم كانوا ، على ما يبدو ، قد نسوا خيبة

أملهم لعدم السماح لهم بالنزول في موقاديشو ، وأصبحوا الآن يتطلعون شوقا للنزول الى البر في المحطة التالية التي سيقف فيها المركب ، بغض النظر عن ماهية تلك المحطة .

وقد خرجنا من الميناء مع سمبوك صغير لا يستحق الوصف لما كان عليه من وضاعة وفقر حال لدرجة لا يمكن تصورها . فقد كان يبدو أنه لم يزيث منذ أن بني ، بل وربما لم يسحب الى الشاطئ مرة واحدة لتنظيفه من الاقدار العالقة به . أما اجزاؤه الخلفية فقد كانت مجموعة مضطربة بئسة من خشب الزان الملتوي ، والمثبت بعضه ببعض بشكل سيء للغاية . وأما أسفله ، فقد كان مغطى بالطحالب والحشائش المترعرة عليه . وكانت صواريه متشقة ، ومدعمة بالحديد في عدة أماكن منها ، كما كانت حباله الرئيسية ، المصنوعة من القش المجدول ، تتألف من قطعة واحدة طويلة رثة . أما الشراع ، الذي كان المركب ينشره ، فقد كان قديما وباليا ورثا لدرجة جعلتني أشعر بأن مجرد نشره يمكن أن يؤدي به كلفة بتمزيقه اربا اربا . كما كانت البكرات القليلة المتوافرة عليه قديمة ومحطمة ، وجوانبه العالية تبدو وكأنها يمكن أن تتهدم وتسقط الى الداخل في أية لحظة . وكان طوله حوالي ستين قدما ، بسطح واحد متصل فيما عدا سدة صغيرة مثبتة على الجزء الخلفي من المؤخرة فوق عجلة القيادة . كما كانت الرائحة النتنة ، المتبعثة من زيت السمك ، ومن السمك المتعفن المكس في مخزنها ، رائحة كريهة للغاية . أما البحارة فكانوا مجموعة من الرجال القذرين ، الذين يرتدون الوزرات الملوخة بالزيت . بينما كان الركاب يتكلمون باسمالهم البالية على السطح ، حول قاعدة الشراع المزيني ، وكان عدد هؤلاء حوالي عشرين شخصا ، كما كان على السمبوك بعض النسوة أيضا ، وكانت الترتيبات المعدة لهؤلاء بدائية للغاية . فلم يكن على ذلك المركب أية قمرة في المؤخرة ، أو أي مكان مقفل يمكن فصله عن بقية أجزاء المركب . ولذلك فقد كان النسوة يعشن في ملجأ مؤقت ، ان أمكن اعطاؤه هذا الوصف ، مبني حول صندوق المرحاض الخاص بهن ، وكان هذا يبرز الى خارج المركب من جهة الجانب الايسر ، ولكنه كان مغطى بقطعة من الخيش القديم . أما سور ذلك الملجأ الذي كان النسوة يعشن في داخله ، فقد كان مصنوعا من العصير ، تساعد هنا وهناك قطع من القماش المشمع الممزقة ، وكان هذا كفيلا بإبقاء النسوة بعيدا عن الانظار . ولم تكن مساحة تلك الخيمة بكاملها تزيد عن عشرة أقدام مربعة من ذلك السطح غير المستوي . الا أن يوسف قال لي أن خمس نساء على الاقل كن مكدسات في تلك المساحة الصغيرة ، وأنهن ما زلن في ذلك المكان منذ ركب المركب في ميناء صور ، وأنهن متجهات الى زنجبار . أما مكان الطبخ ومعداته ، فلم تكن تزيد عن صندوق رملي مكسر مع بضعة حجارة ، أي أنها كانت أكثر

بدائية من موقد « الشيخ منصور » • واما القارب الطويل على ظهر المركب فلم تكن قوته وتماسكه تعادلان ما تتمتع به آلة الاكورديون الموسيقية من القوة والمتانة •

لقد عجبت لا لمقدرة ذلك المركب على الابحار من صور الى موقاديشو فحسب ، بل أيضا للسماح له بالابحار على الاطلاق • الا أنني رأيت فيما بعد مراكب أسوأ حالا بكثير (وكنت أعجب كيف تستطيع السفر) ، لأنه مهما كانت ظروف الملاحة ، التي كان العرب يبحرون فيها خلال رحلاتهم الصيفية الى أفريقيا ، مؤاتية بل ومثالية ، ومهما بلغ صفاء البحر وهدوءه في الايام العادية ، الا أن من الممكن أن تفرق بعض المراكب أحيانا في تلك المياه • فعندما كنا راسين في ميناء موقاديشو ، كان هبوب الريح يشتد في بعض الايام ، ويرتفع البحر خارج الميناء بشكل اعتقد أنه يمكن أن يولد المتاعب لمراكب بالية كذلك السمبوك العماني • ولكني ، احقا للحق ، يجب أن أضيف هنا أن معظم المراكب التي كنت أراها قادمة من ميناء صور العماني كانت بحالة جيدة ، بل ان بعضها كان رائعا •

تابعنا ابحارنا على امتداد الساحل ، ومررنا قريبا من موانئ « ماركا » و « برافا » ، ولكننا لم نتوقف في أي منهما ، فقد كان نجدي قانعا بما استطاع أن يناله من الايطاليين ، وكان يعتبر أن خروجه من موقاديشو ، بكمية من العملة الايطالية - لم أعلم كميتها ولكن لا بد أنها كانت كمية كبيرة - ، وبعدد من الركاب المهريين ، كان كافيا ، ولذلك فلم يكن من الحكمة أن يزور موانئ ايطالية أخرى ، خاصة أنه لم يكن هناك مجال للتجار معها • وهكذا تابعنا سيرنا بهدوء وأمان باتجاه الجنوب الغربي ، وعلى يميننا تمتد صحراء الصومال المتفرة ، بينما كانت الرياح الموسمية تهب بلطف • وقد عبرنا ميناء « ماركا » قبل الظهر ، كما شاهدنا أنوار « برافا » بعد الغروب بقليل ، وكان القمر بدرا ينير طريقنا والرياح أشد قليلا من ذي قبل •

كانت الامسية جميلة ، والمركب ينخيم عليه الهدوء التام ، والقمر المنير يرسل أشعته الفضية من خلفنا ، فيرسم ظلالا جميلة للصواري والحبال على الشراع ، كما كان اهتزاز المركب ايقاعيا هادئا • وعلى مؤخرة المركب ، كان الاطفال والتجار في سبات عميق ، بينما كان البحارة يتكلمون في القارب الطويل ، وقد خطرأ رؤوسهم ، ولكنهم متحفزون للعمل في أية لحظة • أما في نهاية المؤخرة تماما ، حيث كانت تقوم دكة الضباط ، فقد كان نجدي يجلس في مكانه المعتاد ، وقد لك رأسه بكوفيته ، وجسمه

بعباءته ، وهو يدخن النارجيلة ، ويشترك فى حديث جدى هامس مع «السيد» القادم من المكلا ، ومع التاجر ابي علي ، بينما كان عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، يستمع . وكان عبد الله هذا هو العماني الوحيد الذي ظل على ظهر المركب ، من بين جميع أولئك الركاب الاوائل الذين رافقونا منذ بداية الرحلة ، ولم أدر سببا لذلك . فربما لم يسمع بهجرة الركاب العمانيين من على ظهر المركب فى ميناء موقاديشو الا فى وقت متأخر جدا لم يتح له الذهاب معهم ، بل ربما كان لديه سبب غامض جعله لا يكثرث لذهابهم . أما ذلك « السيد » المكلاوى فقد كان قد نزل الى البر فى موقاديشو مرتديا ملابس العمانيين ، وذلك فى اليوم العاشر على رسونا هناك ، ولم يعد الى المركب الا بعد أن كانت السلطات قد سمحت لنا بالابحار ومغادرة الميناء .

وصلتني بعض كلمات نجدى ، وأنا متكئ على سجادتى أحلم أحلاما لطيفة ، وأراقب حركة المركب . لقد كان موضوع حديثه نفس الموضوع القديم ، وينحصر معظمه فى أوضاع اليابان ، وفى عيوب الاوروبيين . وحسبما فهمت من كلامه ، كان نجدى يعتقد بأن عالمنا قد بلغ حدا كبيرا من السوء والفساد ، وكان أمله يتركز فى انتشار الاسلام فى اليابان . لقد كانت آراء نجدى مزعجة وغير مطمئنة ، الا أنه كان من الممتع أن يستمع الانسان الى الطريقة التى يعرض فيها آراءه تلك ، الا أنه كان من المؤسف أن يكون نجدى يتحدث لغة عربية ممتازة بالمقارنة بالبحارة ، حتى أنى كنت أجد صعوبة كبيرة فى متابعة كلامه وفهمه ، وكثيرا ما كان أسبوع كامل يمر على قبل أن أفهم احدى النقاط التى كان يثيرها . لقد كان الالمام الجيد باللغة العربية يتطلب دراسة جدية لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات كاملة، بينما كانت الفرصة التى أتيت لى لاتعلم ما أستطيع تعلمه من اللغة العربية لا تزيد عن ثلاثة أشهر . وقد تابع نجدى حديثه الهادئ ، بينما كان الآخرون يرددون كلمة « طيب » بشكل متواصل ، وحوله الصارى الرئيسى يصر ، والشرع ممتلىء بالهواء ، وفوقنا القمر يرسل أشعته على الكون كله . وكنت وأنا أستمع الى نجدى ، وأنظر الى ما حولى ، أتساءل عما اذا كنا نحن الاوروبيين ، رغم تبجحنا بما وصلنا اليه من التقدم والتطور ، ورغم احتقارنا لمثل هذا المركب المتواضع ، قد سبقنا كثيرا أمثال نجدى ، من البحارة العرب الواضحي الرؤية ، الذين كانوا يجوبون البحار الشرقية . وقد ظلت هذه الفكرة تؤرقنى ، بينما تابعت الاستماع الى نجدى وهو يواصل حديثه الهادئ المطمئن ، وحفيف المياه حول المركب يبعث فى النفس الراحة والسكينة .

وفى اليوم الثانى على ابحارنا زادت قوة الريح بعض الشيء ، وفى

هذا اليوم مررنا بجثة رجل عائمة على سطح الماء ، ووجهها الى أسفل ، وهى ملفوفة بحصير من سعف النخل ، تحيط بها الاسماك . وقد شاهدتها بعد وجبة الافطار ، أي عند القيلولة . فبينما كنت انظر الى البحر من أحد جوانب المركب الذى كان يحيط به الزبد ، اذا بها تبرز أمامى . لم ألفت انتباه أحد الى ذلك سوى يوسف ، الذى أفاد بأنها لا بد أن تكون جثة أحد الركاب المتوفين ، ألقى بها من أحد مراكب « الباطنة » المكتظة بالركاب ، لتجد مثواها الاخير فى البحر . وأضاف بأن ذلك أمر عادى مألوف لا يثير الاهتمام ، لان كثيرا من الركاب كانوا يلقون حتفهم . فالبوم الصغير مثلا، الذى رأيناه فى ميناء حيفون فى موقاديشو ، لا بد أن يموت عشرة من ركابه على الاقل قبل أن يصل الى زنجبار . وكانت معظم تلك الوفيات طبيعية . أما اذا انتشر الجدرى على ظهر أحد المراكب ، فانه يقضى على عدد أكبر بكثير . الا أن هذا المرض لم يعد شائعا هذه الأيام ، مع أنه كان كثير الانتشار فى الماضى . وكان قد انتشر قبل عدة سنوات فى مدينة الكويت فقضى على الالوف من سكانها .

وكان هذا آخر عهدنا بتلك الجثة ، التى كانت تطفو وتغطس بين الاسماك المحيطة بها فى البحر ، دون أن يلحظها أحد من ركابنا .

وقد أخبرنى يوسف أيضا ، بغير مبالاة ، أن « بوما » صغيرا آخر ، من أقدم المراكب العاملة ، يحمل على متنه ستين راكبا ، كان فى أحد الايام العاصفة قد جنح الى الشاطئ ، فى نقطة تقع شمال مدينة « ورشيخ » ، وذلك أثناء وجودنا فى موقاديشو ، فلم ينبج الا عدد قليل من ركابه . ولم يكن يبدو على يوسف كثير من التأثير ، وهو يروى هذا الخبر الهام والخطير ، فقد كانت هذه عادة العرب عند اعلانهم مثل هذه الانباء . وعندما سألت يوسف : « أليس تحطم مركب مكتظ بالركاب أمرا خطيرا ؟ » أجاب بالنفى اذا كان الامر يتعلق بأحد مراكب « الباطنة » ، فلم تكن تلك المراكب صالحة للابحار أصلا ، ولذلك فلم يكن أحد يهتم كثيرا بما يحصل لمركب صغير ، فاذا أراد الله جل جلاله أن يغرق أحدها فلا بد أنه يفعل ذلك لحكمة لا يعلمها الا هو ، ولذلك فقد كانت مثل هذه الامور متوقعة الحدوث . ويجب أن أضيف هنا بأن ذلك لم يدهشنى .

كانت الرحلة من موقاديشو الى « لامو » خالية من الاحداث المثيرة . ولم اكن متأكدا من أننا ذاهبون الى لامو ، الى أن بلغنا قبالة ذلك الميناء فى مساء اليوم الثالث ، وكانت الظروف مؤاتية ، فدخلنا اليه . فلم يكن نجدى قد ذكر أننا ذاهبون الى ذلك الميناء بالتأكيد ، الى أن أصبحنا هناك ،

على الرغم من أنى رأيته فى اليوم السابق يتفحص خريطة لما كان يعتقد أنه ميناء «لامو» . الا أن الواقع أن تلك الخريطة كانت لميناء آخر هو «دارنفورد»، وعندما بينت له ذلك لم يبد عليه الارتياح ، بل علق على كلامى قائلاً ان الخرائط جميعا لا فائدة منها على كل حال ، وأنه يعرف طريقه جيداً . وكنت قد لاحظت أن طبيعة الشاطئ الإفريقى قد تغيرت بعض الشيء جنوب ميناء «كيسيمايو» ، فقد طرأ عليها بعض التحسن ، بحيث أصبحنا نرى بعض الأشجار على طول الشاطئ للمرة الأولى منذ عدة أسابيع .

هدأت الريح فى صباح ذلك اليوم ، ولكن ذلك لحسن الحظ لم يستمر طويلاً ، لأنه عندما كانت الريح تهدأ ، كانت حرارة الجو ترتفع كثيراً ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من السطح الرئيسى ومن البئر الواقع خلف المبنى الرئيسى ، والذي كان ينزح منه ماء البحر الآسن - كانت تلك الروائح تظل معلقة فى جو المركب بدلاً من أن تبددها الريح ، فتجعل الحياة جحيماً لا يطاق . فعلى الرغم من قضائى عدة شهور على سطح المركب ، فانى لم أستطع قط أن أعود على رائحة الماء الآسن . لقد أمضيت وقتاً طويلاً شاقاً فى البحر . فقد عملت على ظهر مراكب صيد الحيتان ، وفى مراكب نقل الحبوب التى كان ماء البحر يتسرب اليها باستمرار ، الا أن رائحة الحيتان النتنة ، ورائحة الحبوب المتعفنة بسبب ماء البحر ، كانت عطراً لطيفاً بالمقارنة برائحة ماء البحر الآسن ورائحة البدو المسافرين على ظهر أحد المراكب العربية .

وعند العصر ، هبت ريح شمالية شرقية خفيفة ، أخذت تزداد شدة . وعندها تمكنا من تغيير اتجاهنا والتقدم نحو شاطئ لامو الرملى ، وكان إبحارنا فى المساء ، فى ظروف ملاحية ممتازة . ولكن دخولنا الى ذلك الممر المائى ، الذى يوصل بسهولة ويسر الى بلدة لامو اللطيفة ، كان مثيراً للسخرة ومماثلاً لما حصل لنا عندما قطرنا القارب الى داخل ميناء موقاديشو . فقد كان عبد الله ، أخو نجدى ، يتولى قيادة الدفة ، وهو يسترق «نفساً» من نارجيلته ، كلما وافته الفرصة المناسبة ، دون أن يقف على قدميه ، لكى يتمكن من الرؤية الجيدة . وصادف أن كان المؤذنون يتبارون أكثر من أى وقت مضى ، فى دعوة الناس لصلاة المغرب . وسرعان ما امتلأت مؤخرة المركب بالمصلين ، فلم يعد بإمكان قائد الدفة أن يرى شيئاً على الاطلاق ، كلما قام المصلون من سجودهم منتصبين ، وهم يتمتمون بصلواتهم ، ويعتمرون عماثمهم ، ولم يكن بإمكان البحارة أن يسمعوا الأوامر بأى حال من الأحوال . وهكذا دخلنا الميناء من الجانب الصعب ، وكان احتمال تعرضنا للخطر كبيراً ، فقد كان الاهتمام فى وقت الصلاة ينصب

على الاتجاه الصحيح للقبلة أكثر مما يتركز على الملاحاة السليمة • ولكن نجدى كان يعرف الميناء معرفة جيدة • وهكذا تمكنا من الرسو قبالة لامو فى ماء يبلغ عمقه ثلاث قامات ، فى الوقت الذى كان فيه القمر يبرز ناشرا أشعته الفضية على تلك الارض المنخفضة •

لقد كانت قيادة نجدى للمركب الى داخل ميناء لامو من أكثر أحداث الرحلة كلها امتاما ودلالة على الخبرة والقدرة ، فقد كانت مزيجا من الصلاة ، والوضوء ، والاوامر الى قائد الدفة ، وابتهاج الركاب ، وقيام البحارة بواجباتهم المعروفة استعدادا للوصول •

كان المدخل الى ميناء لامو مبينا بوضوح عن طريق العلامات الخاصة بذلك • وكان هذا المدخل عبارة عن ذراع بحرى يمتد بين لامو وبين جزر « ماندا » ، كما كان الميناء نفسه مملوءا بالاماكن الضحلة ، ولذلك فان المركب الذى لا تحسن ادارته سرعان ما يجد نفسه مرتطما بالارض • أما نجدى ، فلم يكن يعير العلامات الخاصة أى اهتمام ، لانه كان يعرف طريقه ، وكان يعتمد على النظر وعلى خبرته السابقة • وقد لاحظت أن جميع الربابنة العرب كانوا يفعلون ذلك حتى فى أسوأ الظروف والاماكن مثل نهر الروفيجي (وهذه أفضل طريقة للملاحاة فى مثل هذا النهر) • وكان أحد العوامل التي عتقت الموقف أننا وصلنا الى أصعب أجزاء ذلك المدخل المتعرج فى الوقت الذى كانت الشمس تميل فيه الى الغروب ، ولم يكن بالامكان تأخير الصلاة مهما كانت الظروف ، فبدأ المؤذنون يؤذنون للصلاة فى الحال ، وأحدث هذا ضجة كبيرة ، الا أن ذلك لم يكن الا البداية فقط • فقد بدأ الجميع فى الحال يستعدون للصلاة بالوضوء الذى بدونه لا يمكن لمؤمن أن يؤدي الصلاة فأضاف هذا ضجة الى ضجة • وزاد الطين بلة أن حمدا بن سالم تقدم الى مكانه المعروف فى المقدمة ، ووقف موليا وجهه شطر المسجد الحرام يؤم المصلين ، ويرتل القرآن بصوته الموسيقي الجميل ، وقد طرح جميع امور الدنيا وراء ظهره • وكان يقف خلفه ذلك الشيخ الضريع ، وسط صف طويل لا يقل عدد أفرادہ عن خمسة عشر شخصا يضم بعض البحارة ، وقواد الدفة ، والبدو والماليزيين • ووراء هذا كان صف آخر يملأ جميع الفراغ الموجود بين صناديق الامتعة • بينما كان آخرون يقفون على الصناديق ، وفي القوارب وعلى خزانات الماء وفي كل مكان آخر • ولأننا كنا على وشك الوصول بسلام الى ميناء فى كينيا — بحسب ظنهم — فقد كانت صلاة الركاب اطول ، وأعلى صوتا ، وأشمل من المعتاد ، وانضم اليها عدد كبير من أولئك الركاب الذين كانوا فى العادة يؤدون صلاتهم على انفراد • وبما أن من الضروري أن يكون أمام كل من المصلين مسافة

للكوع والسجود بحيث تمس جبهته الارض ، فقد احتلت الصلاة مساحة كبيرة من سطح المركب .

ما كاد المركب يدور ويضبط اتجاهه للدخول الى المدخل المؤدي للميناء ، حتى أصدر نجدي أمرا سريعا جدا لأخيه ، ثم أدار ظهره قبل أن يرى أن الأمر قد تم تنفيذه ، فقد كان عليه أن ينزل من فوق سدته الى سدة صغيرة على الجانب الايمن من المؤخرة ، حيث يوجد وعاء مملوء بماء الاغتسال ، وذلك لكي يتوضأ استعدادا للصلاة . وعندما فعل ذلك ، لم يعد بالطبع يستطيع أن يرى الى أين يتجه المركب . ولكن لم يبد عليه الانزعاج لهذا الأمر ، فقد كان يعرف أن أخاه عبد الله كان قد زار ميناء لامو سابقا ، وأن كانت تلك هي الزيارة الوحيدة ، ولذلك فهو يعرف طريقه أيضا . (وكان عبد الله قد أخبرني مرة أنه لا ينسى شيئا يراه ولو مرة واحدة فقط ، وكان هذا أمرا مطمئنا ، وأن لم استطع دائما أن أشاركه الرأي) . وبين الفينة والاخرى كان نجدي ، وهو يغسل وجهه بماء البحر ، يرفع رأسه الاسود ، الذي أزيح عنه الغطاء بشكل جزئي (فلم يكن نجدي يكشف رأسه كله قط) ، ويصيح بأمر جديد لا يسمعه ، بالطبع ، أحد . فيضطر لاصداره مرة أخرى بصوت أعلى ، وعندما يجد أن أحدا لم يسمعه هذه المرة أيضا ، كان يصعد من مكان وضوئه ويصيح بالأمر مرة أخرى بأعلى صوته ، وأخيرا كان عبد الله يستجيب قائلا « ان شاء الله » كالعادة ، ويطيع الأمر بقليل من الاكتراث ، وعندها كان المركب ، الذي كان مطواعة جدا لدفته ، ينحرف بالشكل المطلوب في اللحظة الاخيرة .

وبينما كانت كلمات « آمين » تصدر بنغمة قوية من المصلين ردا على دعوات حمد في صلاته ، كانت مستنقعات شجر المانجروف تظهر قريبة جدا من المركب ، منذرة بالخطر من الناحية اليسرى ، فيما كانت حفرة فسي الرمل ترى على الجانب المحمي من الريح ، وسمبوكان عمانيان من ميناء صور يبحران أمامنا وتصدر عن ركابهما نفس التراتيل القرآنية التي كانت تسمع على مركبنا . لقد كان المنظر بدائيا جميلا ، وكان ميناء لامو من النوع الذي كنت أحلم به عندما سمعت لأول مرة عن هذه الرحلة الى سواحل أفريقيا . ثم بدأ الظلام يخيم بسرعة ، كما هو الحال عادة في مثل هذه المناطق الاستوائية ، ولكن ليس قبل أن تبرز قرية « شيلا » الرومانسية ، بمساجدها الخربة وأبنيتها المتهدمة ، على يسارنا ، ونتمكن من رؤية ذلك الميناء الذي كان ، في يوم من الايام الغابرة ، مرقا هاما ، الا أن الدهر أخنى عليه بكلكله ، فتركه خرابا يبابا . ومع ذلك فقد كان منظر القرية رومانسيا ، وهي تبدو لنا في بقايا النور المنبعث من الشمس الغاربة ،

والمراكب العربية الكبيرة تمر بعذائها ، وأسطحها مكتظة بالأجساد البشرية المكتسية بالجلاليب الداكنة اللون ، وهي ترتل الآيات القرآنية أثناء صلاة المغرب • لقد كان المنظر رومانسيا في نظر أي انسان ، رغم أننا كدنا عدة مرات نلمس بعض الزوايا الخطرة في الممر ، ورغم أنني لم أعجب بقيادة عبد الله للمركب ، أو موقفه من المهمة التي كانت موكلة اليه • فقد كان المنظر التالي هو المنظر المألوف خلال تأدية عبد الله لمهمته هذه :

نجدي يصيح بأعلى صوته : الى اليسار ! قليلا الى اليسار !

ولكن عبد الله لا يحير جوابا •

ويسمع حمد وهو يؤم المصلين يردد : أشهد ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ثم يقرأ الفاتحة ، فنسمع جميع المصلين يرددون : آمين •

نجدي يصيح ثانية : الى اليسار ! الى اليسار !

ومرة ثانية لا يسمع جواب من عبد الله ، الذي ينحني ليلتقط نفسا سريعا من النارجيلة التي تركها يوسف هناك ، والجمرات لا تزال مشتعلة عليها • وأخيرا يرفع عبد الله بصره ، فيدرك أن أخاه الواقف في القارب المعتمد على دعائمه ، يصيح بأمر موجه اليه فيجيب • « انشاء الله » ويدير الدفة يمينا أو يسارا ، في الاتجاه الصحيح عادة ، وفي الاتجاه الخطأ في أحيان قليلة •

وهكذا كان المركب ينحرف ، والصلاة مستمرة ، والظلمة تدلهم ، فتغطي مستنقعات المانجروف ، ذات اللون الاخضر الداكن في جزيرة « ماندا » على ميمنة المركب ، بينما تظهر أضواء « لامو » من خلف جزيرة أخرى تعترض الطريق في ذلك الممر المائي • وهنا أصبحت الملاحاة صعبة ، وقيادة المركب عملية دقيقة ، فقد كان عليه أن يقوم ببعض الانحرافات والدورات الصعبة • ورغم أن « نجدي » كان مشغولا بصلاته التي يجب أن يؤديها في الوقت القصير الممتد ما بين مغيب الشمس واختفاء ضوء النهار ، خاصة أنه لم يكن هناك شفق في هذا المكان - فقد ألقى نظرة عامة سريعة على المركب ليحدد موقفه ، وما لبث أن صاح بأخيه ، أمرا اياه أن يقف على قدميه بدلا من الجلوس أمام عجلة القيادة • ومع أن ذلك لم يعجب عبد الله ، إلا أنه اطاع الامر • وبما أننا أصبحنا على بعد ميل تقريبا من مكان رسونا ، فقد كان على البحارة أن يرخوا حبل الشراع ، وينزلوا العارضة قليلا الى وسط المركب ، ولم يتوان هؤلاء عن تنفيذ الامر ، وهم يهرولون ويهزجون كمعادتهم دائما •

وعندها تحول المركب الى فوضى عارمة من الاقدام المتراكمة ، والاجساد التي تؤدي الصلاة ، والركاب من البدو الذين كانوا يهربون من طريق البحارة بهلع شديد ، لأنهم ان لم يفعلوا ذلك ، وجدوا انفسهم مطروحين أرضا ، والاقدام تدوس بطونهم ورؤوسهم . وعندما بدأوا يرخون حبل الشراع الرئيسي ، ارتخى أكثر من اللازم ، بل وانفلت ، وكان عليهم أن يعيدوا تثبيته مرة ثانية . وعلى الرغم من أن الريح كانت مؤاتية ، وسير المركب جيدا ، بحيث أصبحنا على بعد ميل واحد تقريبا من المرسى ، فان أحدا لم يكن قد اهتم بالتأكد من أن الحبال الاخرى كانت طرقها سالكة ، أو أن الانشوطات قد فكت من لفات الحبال حول عمود الصاري ، حيث يوجد الجزءان الرئيسيان اللذان يستعملان لرفع العارضة وخفضها . أما عريف البحارة ، الذي لم يكن قد انتهى من صلاته بعد ، فلم يكن قد تفقد المراسي . ولكن كان أمام المركب مسافة كافية . فأصدر نجدي أمره بانزال الشراع كالعادة ، بحيث يصل الى المرسى والصواري عارية من أشرعتها . وفي الحال اندفع البحارة الى أطراف الحبال ، غير مباليين بالبدو والاطفال والماعز ، وحتى بجاسم الطباخ ، وكان هؤلاء يفرون من أمامهم بسرعة البرق . وبينما كان الجميع يهزجون أو يصيحون ، كان يوسف الشيرازي ، وصقر بن حمود ، وسلطان المؤذن ، ومعهم آخرون يصارعون الانشوطات ، ولفات الحبال على الصاري . وفي آخر لحظة ، وقبل أن يصبح الرقـت متأخرا وخطرا ، أفلتت الحبال ببطم ، فبدأت العارضة تنزل وهي تصر صريحا عاليا ، بينما غطى الشراع الهابط المركب بأكمله ، بما في ذلك البدو وهم لا يزالون يؤدون صلاتهم ، وتابع المركب سيره بهدوء باتجاه المكان المحدد لرسوه .

وعندها سمع صوت نجدي وهو يصيح : « أنزلوا المراسي » . وفي الحال ألقى بأحدى المراسي التي كانت ، لحسن الحظ ، مربوطة بحبل . ثم بدأ البدو المذمورون يبرزون من تحت الشراع بالعشرات ، بينما أخذ المصلون على المؤخرة يختمون صلواتهم ، والبحارة يلفون الشراع والجميع يلقون تحية المساء ، بعضهم على بعض وهكذا هدأت تلك الضجة ، التي كانت قد انطلقت ، بسرعة كبيرة . أما عبد الله ، فبعد أن انتهى عمله على عجلة القيادة ، استأنف تدخينه للنارجيلة ، وأخذ ينفث دخانها بهدوء ومتعة واضحة ، بينما طلب نجدي ، الذي كان يجلس القرفصاء خلفه ، انزال القارب الطويل ، كما طلب تزويده بنارجيلة جديدة . وهكذا ارخى الليل سدوله على المركب الذي أصبح كل شيء فيه هادئا الآن . لقد وصلنا الى المرسى .

مكثنا في « لامو » أسبوعا هادئا ، زارنا خلاله تاجر هندي ، أتى ليتشرح

على المركب الذي صنعه النجار ، بغية شرائه • فطلب نجدي ألف شلن ثمنا له ، وان كان مستعدا لبيعه بسبعمائة ، الا أن الهندي وجد فيه عيوباً كثيرة وعرض شراءه بستمائة ، ثم ذهب ولم يعد • وبعد ذلك ببضعة أيام ، أبحرنا نحن أيضا •

« لامو » بلدة جميلة ، تبدو من الميناء مجموعة من البيوت البيضاء الجميلة ، لكل منها شرفات رحبة مقوسة تعلوها سطوح حمراء ، تقوم بين الأشجار على سفح تلة ترتفع ارتفاعاً تدريجياً من البحر • وعلى كل جانب من جوانب البلدة تقوم أكواخ السواحليين ، كما تقوم أكوام من خشب المانجروف المختلطة بأشجار النخيل • وعلى طول الشاطئ تنعكس على سطح الماء الهادئ أشكال القوارب الصغيرة من « لامو » و « باجون » ، وهي قوارب مسطحة سريعة قوية ، بالإضافة الى عدد من المراكب العمانية والباطنية والبومات والسمايك والبغلات الصغيرة التي كانت قد وصلت لتوها من البحر •

أما في الداخل ، فان منظر البلدة وما يحيط بها أجمل من منظرها كما يرى من البحر • فطرقها الضيقة تمر بالحياة والحركة ، كما هو الحال في البلدان العربية الأخرى ، والمكان بمجمله مكان ساحر فعلاً • وعلى الرغم من أن « لامو » هي ميناء كينيا الشمالي الشرقي ، وهي مستعمرة بريطانية على ساحل أفريقيا الشرقي ، الا أن البلدة عربية خالصة • فالمباني والخلفية ، واللغة في الغالب ، والعادات كلها ، عربية ، ونصف الاكتشاك في السوق يديرها العرب الحضارمة • أما شوارع البلدة ، فهي أضيق ما رأيت في حياتي ، حتى أنها تكاد لا تسمح لحمار محمل بالماء بالعبور • كما أن البيوت العربية الشامخة ، ذات السطوح المستوية ، يميل أحدها نحو الآخر ، ونوافذها العليا مشرعة ، كأنها ترحب بالزائرين • وكثير منها يحتوي على أبواب محفورة ومداخل مزخرفة بشكل جميل •

وهنا وهناك في بلدة « لامو » ، لا يزال بوسع المرء أن يعثر على بعض كنوز الماضي الغابر ، على صورة قطعة أثرية من الفخار الصيني أو الفارسي ، أو قطعة هندية من الخشب المحفور الرائع أو قطعة سلاح فولاذي من صنع دمشق • فما زالت لامو غير مطروقة كثيراً ، ولم تفسدها يد المدنية • وكنت أرى في بعض الأحيان إحدى نساء الحريم ، تمر بسرعة في أحد الأزقة ، وهي ملفعة بالسواد ووجهها مغطى بالحجاب ، ولكن السواد والحجاب لم يكونا من السماكة بحيث تحجبان كل ما تتمتع به من رشاقة وجمال • فقد كان جمال بعض أولئك النسوة أخاذاً ، وكان كثير منهن

يضعن في آذانهن وعلى ثيابهن أقراطا من الدولارات الامريكية الذهبية القديمة . فقد كان باستطاعة المرء ، عندما كنا هناك ، أن يشتري الدولارات الامريكية من على شاطئ « لامو » . وكان الذهب الامريكي قد وصل الى هناك قبل نصف قرن مضى ، عندما كانت التجارة الامريكية في السفن الشراعية هامة في ذلك الجزء من الساحل ، كما كانت الولايات المتحدة الامريكية من أوائل الدول التي عينت قنصلا لها لدى سلطان زنجبار .

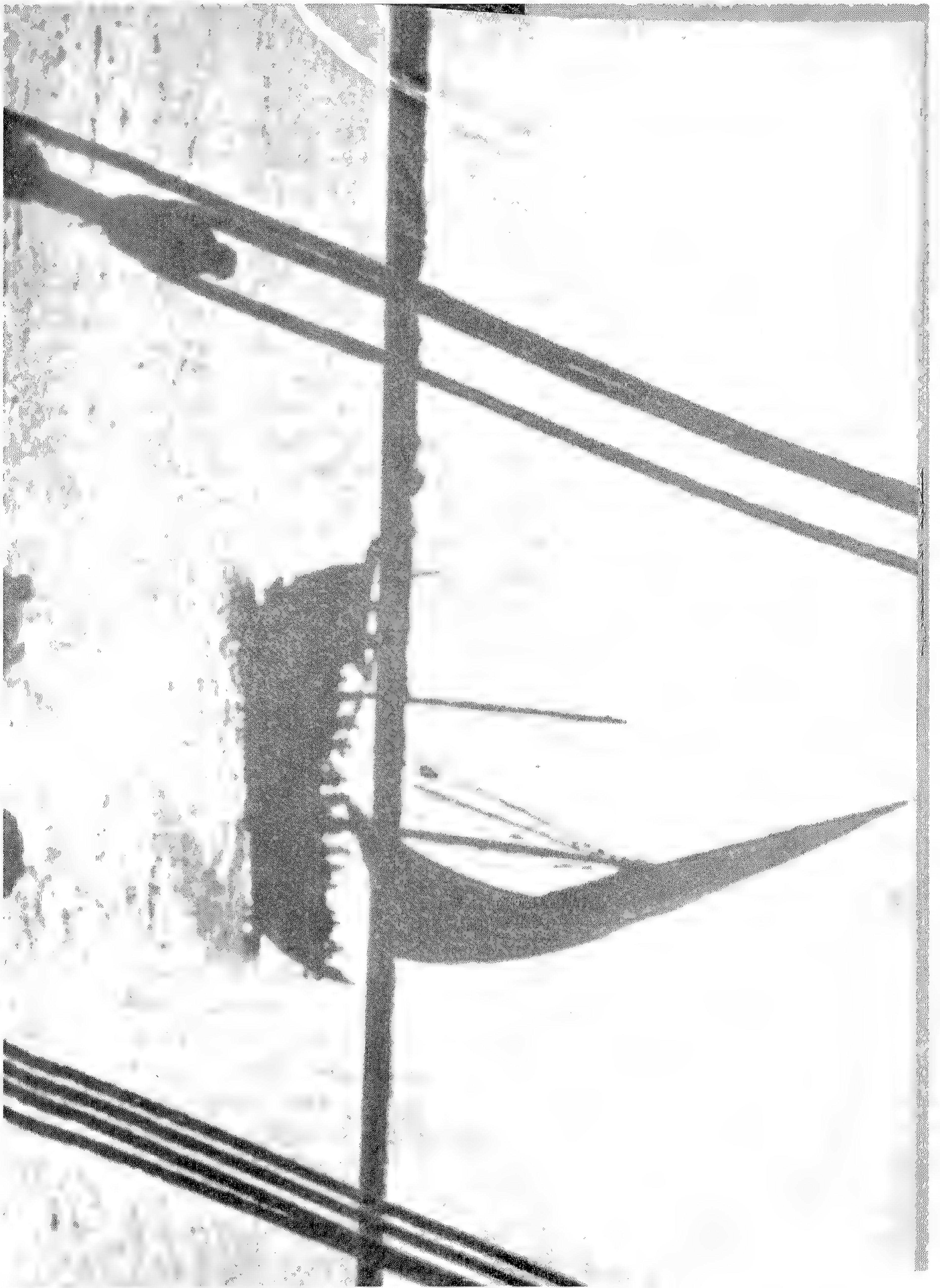
وقد زرت أيضا رصيف بناء السفن خارج البلدة ، حيث كان السواحليون يعيدون بناء أحد المراكب العربية . وكانوا يفعلون ذلك بطريقة بسيطة ، هي أن يقوموا أولا بنزع الاضلاع الخشبية من الداخل ، واستبدالها باضلاع جديدة . وبعد ذلك ينزعون الألواح الخارجية ويستبدلونها بالألواح الجديدة . وبهذه الطريقة يصنعون مركبا جديدا بنفس شكل المركب القديم . لقد كان الجو حارا على الرمال الذهبية القريبة من البحر ، وكان النجارون يعملون تحت مظلة من سعف النخيل ، وعلى مقربة منهم كانت تنتصب هياكل مراكب عربية من جميع الأنواع ، معظمها من نوع قوارب لامو التي تتميز بسطحها المنخفض، وخطوطها الانسيابية الجميلة، ومقدمتها المدببة المستقيمة ، ومؤخرتها الاوروبية المستقيمة ، وجميع هذه المراكب يقوم العرب ببنائها ، بينما يتجر فيها السواحليون ، الذين يحملون معظم البضائع من الساحل الافريقي الشرقي برمته ، من « جوبا » حتى مدغشقر جنوبا ، ومعظم هؤلاء من مدينة لامو التي تعتبر أهم ميناء وطني للمراكب العربية على طول ساحل افريقيا الشرقي ، ربما باستثناء زنجبار . وهناك رواية متداولة في لامو تقول أن الشكل الاوروبي للمراكب التابعة لها - فشكل الهيكل يبدو انجليزيا أكثر منه عربيا ، رغم بقاء الشراع المثلث المعروف - يرجع الى بعد نظر أحد السلاطين المحليين ، الذي كان يحكم البلاد قبل خمسين عاما . فقد كان قد طلب من قبطان أحد الطرادات الحربية الانجليزية الزائرة أن يدل نجاريه على طريقة لتحسين المستوى المحلي لصناعة السفن . وفي ذلك الوقت كانت لامو مشهورة بمراكبها القديمة من نوع « المطيبي » ذات الاشرعة الغربية التي تشبه الحصير . وقد كانت تلك المراكب جميلة، ولكنها كانت قليلة الفائدة، ولم تكن عربية بالتأكيد . وقد اختفت هذه المراكب الآن ، وكان آخرها عبارة عن هيكل متآكل ملقى على الشاطئ ، يقف بقربه مركب كويتي جميل ، لا بد أنه بنى على ظهر أحد البومات ، كما كان مركب هندي من خليج « كوتش » بالهند يقف هناك أيضا متكئا على جانبه .

وقفت أرقب القوارب الخفيفة الرشيقة ذات الذراعين الممتدين على

الجانبين ، وهى تقترب منا بسرعة حاملة أنواع السمك المختلفة ، كما رأيت أحد القوارب المحلية يعتليه عدد كبير من رجال « الباجون » ، وهم يحملون أوركسترا كاملة من الآلات الموسيقية ، ويعزفون موسيقى وحشية عنيفة . لقد أحببت لامو حبا جما وتمنيت لو أتيت لى فرصة البقاء فيها مدة أطول لكى أعرف المزيد عنها وعما يحيط بها ، كجزر « البايخاله » ، وجزيرتى « باتا » و « ماندا » القريبتين بما تضمنانه من آثار رائعة ، وشعب « الباجون » الغامض ، وسوق الرقيق الذى كان مزدهرا فيها عدة قرون . فالى هذا المكان ، الى لامو ، أتى الصينيون والعرب والهنود والماليزيون والبرتغاليون والبريطانيون ، وأضاف كل منهم شيئا الى تاريخ المدينة ، قبل أن يختفوا ويذهب كل فى حال سبيله . أما الآن فقد أصبحت لامو بلدة صغيرة هادئة ، تعيش مرة ثانية على تجارة الاخشاب والماشية ، وينجم عليها شىء من الكآبة ، بعد أن انقطع السواح عن زيارتها ، وأصبحت أمجادها فى خبر كان . أما قرية « سيلا » فقد أصبحت أطلالا ، واضمحلت تجارة لامو ، رغم تحسنها فترة قصيرة ، عندما كان الايطاليون يشحنون معداتهم العسكرية عن طريقها ، ليستعملوها فى حربهم مع بلاد الحبشة . ولكن هذا توقف تاما الآن ، ولم يعد الايطاليون أو الاحباش يشترون الا الاشياء الضرورية فقط .

تعيش لامو الآن على جوز الهند ، وعلى النقل البحرى ، وعلى الأبقار التى تبيعها لمباسا وبلدان أخرى على الساحل الممتد جنوبا ، بالإضافة الى أغصان أشجار المانجروف التى تقطع من الاراضى المنخفضة ، وتباع للعرب ، لان بلاد هؤلاء خالية من الاشجار ، ولذلك فان أى نوع من الخشب مطلوب هناك . وكان أرخص أنواع الخشب وأقواه وأصلحه للاستعمالات المختلفة هو خشب المانجروف . فطريقة الحصول عليه سهلة ، ولا تزيد عن قطعه من الاماكن التى يتوافر فيها فى المستنقعات ، التى تكثر على طول الساحل الشرقى لافريقيا ، والتى يترعرع فيها هذا النوع من الشجر . ويبدو أن هناك شيئا فى التربة التى تجرفها المياه من داخل البلاد الى الشاطئ ، يزود خشب هذه الاشجار بالحديد . وقد أثبت الاستخدام الطويل لهذا الخشب فى البيوت العربية أنه ذو قيمة كبيرة ، وكانت مقاسات حجر البيوت العربية تتحدد على شواطئ «لامو» . ففىما عدا عدن والبحرين ، كان البيت العربى يبنى عادة من بعض الصخور المرجانية المثبتة معا بالطين والجير ، ويسقف بأعمدة المانجروف (الشندل) ، يفرش عليها الحصير ، ثم تغطى جميعا بالتراب . وقد أثبت هذا الخشب أنه مناسب للبلاد الحارة الجافة ، بالإضافة الى رخص ثمنه .

وعلى طول ساحل «لامو» ترتفع أكوام خشب المانجروف هذا ، ذى اللون



الاحمر ، الناتج عن الصمغ وحرارة الشمس • وكانت مراكب صغيرة جميلة تأتي بالاعمدة من داخل البلاد ، وتفرغ حمولتها على الشاطئ ، فيقوم الحرس السواحليون بتصنيفها ، وعدّها ، ودمغها ، بمطربة الحكومة • وكانت أصوات المطارق التى يستخدمها حرس الاحراش الحكومى شيئاً مألوفاً طوال النهار ، كما كانت أكوام « الشندل » ترتفع الى أن تصبح أحياناً أعلى من أكواخ السكان من السواحليين •

وخلف الخط الساحلى ، وفى تلك الازقة الضيقة التى تمتد موازية للساحل ، يجد المرء الحوانيت الرومانسية ، حيث يتاجر أصحابها من الرجال السمر اللون بالحلويات التركية والنراجيل وأباريق القهوة القادمة من سوريا ، أو يتعاملون بالسجاد الايرانى والنحاس الهندى • وهنا يمكنك أن تجد صانعى النعال (الصنادل) الذين يصنعون أحذية قوية جداً بأثمان زهيدة للغاية ، كما تجد الحاكّة يصنعون القلنسوات الحضرمية ، وصانعى الحصير ، وناسجى الاقمشة ، بالإضافة الى صانعى الحبال ، وبائعى الشراب والفاكهة • وهنا أيضاً تقوم الفنادق الوطنية ، التى تبدو دائماً جميلة تمور بالحياة والحركة ونوافذها مشرعة للريح ، بينما يجلس نزلاؤها على الدكات الخشبية أمامها ، وهم يدخنون الطباق من النراجيل المقرقرة أبداً ، أو يتناولون أكواب القهوة التقليدية التى تدور عليهم من أن لآخر •

وهناك ترى أيضاً بحارة المراكب العربية والفارسية الكبيرة وهم يتمشون منتصبين ، حفاة الاقدام ، وعيونهم شاخصة الى أعلى ، تبحث عن الفتيات اللواتى تمتلئ المدينة بهن ، فقد كانت «لامو» مكاناً معروفاً فى جميع البلدان الواقعة على شواطئ الجزيرة العربية بأنه مصدر للنساء الجميلات • وقد رأيت « زيدا » ، عبدنا المعتق ، وكذلك جميع عرفاء البحارة وقائدى الدفة والبحارة ، وهم يسىرون فى الطرقات وعيونهم الجريئة تبحث عن الحرير فى الطوابق العليا من الابنية • وحتى جاسم الطباخ، الصغير الجسم، كان يبحث عنهن فى مؤخرة البيوت ، بعد أن فارقت الكأبة •

أما البدو فقد كانوا يحدقون بهذا المكان فى دهشة وذهول ، وهم يتمنون لو يسمح لهم بالنزول فى هذه الجنة على الارض • الا أنهم ، بعد أن جرى عددهم وهم على ظهر المركب ، سمح لهم بالنزول للتريض فقط ، لا للإقامة • وكان عددهم الرسمى فى هذا الوقت مائة وأربعة ، الا أن هذا الرقم الرسمى لم يكن يشمل الجميع بأى حال من الاحوال • وقد تمكنت

→ مدخل لامو

لأول مرة أن أرى ما يمكن أن يسمى بقائمة الركاب ، وقد لاحظت أن عدد النساء اللواتي يقمن في القمرة الكبيرة كان يبلغ ثمانى ، كما ظهر في القائمة أن أربعة وعشرين راكبا قد نزلوا في الموانئ الإيطالية ، وأن اثنين عشر آخرين قد انضموا إلينا . أما عدد البحارة فقد بلغ سبعة وعشرين . وبهذا يكون عدد جميع من على ظهر المركب ، عند وصولنا إلى لامو ، قد بلغ مائة وواحدا وثلاثين شخصا . إلا أن الواقع أن العدد كان يربو على مائة وخمسين . وكان نجدى ورفاقه من العرب يكرهون هذا الإحصاء الرسمي ، حتى أنه لو كان ينوى فعلا أن يقوم بإحصاء دقيق فلا بد أن يكون هذا خاطئا ، ولكنه لم يحاول قط ، وكلما زاد الخطأ كان سروره أعظم . فقد كان نجدى يعتبر جميع هذه الاشكال من الرقابة الحكومية تدخلا صارخا ، لا داعى له ، فى حرية البحارة وفى مشيئة الله . ألا يخضع كل ما فى هذا الكون لارادته ؟ لماذا اذا ، نجهز قوائم الناس على نماذج سخيفة ، ولماذا نحاول أن نسيطر على ما لا يمكن السيطرة عليه ؟ لقد كان كره نجدى لعالم محكوم بالانظمة والقوانين كرها عميقا وشديدا ومستمرا .

وبعد أن تم التدقيق على الركاب ، سمح لهم بالنزول إلى الشاطئ . وقد شعرت براحة كبيرة عندما رأيت السطح وقد خلا منهم أخيرا ، ولو بشكل مؤقت . وللمرة الأولى فى تاريخ الرحلة ، أمر نجدى بشطف المؤخرة وتنظيفها ، إلا أنه ترك السطح الرئيسى على حاله ، فلم تكن هناك فائدة من تنظيفه ما دام البدو سيعودون إليه بعد ساعات قليلة . وبما أنه لم يسمح للبدو بالنزول إلى البر منذ كنا فى ميناء حيفون ، بعد أن منعوا من النزول فى موقاديشو ، لذلك كانوا يتجولون فى طرقات البلدة وكأنهم فى حلم جميل يودون ألا يفيقوا منه أبدا . وكان الموسم ، موسم المانجو وكان كل كشك مليئا بهذه الفاكهة الحلوة المغرية ، وكان العرب يحبونها حبا غير عادى . فقد كان نجدى دائما مستعدا لالتهام عشرين أو ثلاثين حبة منها فى أى وقت ، كما كان يأكل كل ما يجلب منها إلى ظهر المركب ، بغض النظر عما يكون قد جلبها إلى هناك . وفى واقع الامر أن لامو كانت مدينة ممتازة ، فقد كان السمك والخضار واللحم والفاكهة متوافرة فيها بأثمان زهيدة .

كان التهريب المهنة الرئيسية لبجارتنا وللقلة الباقية من السندباديين المغامرين على ظهر المركب إلا أن الكميات التى كانوا يهربونها لم تكن كبيرة . وكما كان الحال فى الصومال الإيطالية ، فقد كانت أهم البضائع المهربة تتألف من الخردوات والزجاجات الصغيرة من العطر الرخيص إلا أن هذا المكان كان مناسباً جدا لتهريب بعض لفافات التبغ - السجاير - ، المشتراه بأسعار زهيدة من عدن ، ففى عدن ، على ما يبدو ، عدد من المصانع التى تصنع سجائر رخيصة

تحمل أسماء تشبه أسماء السجائر المعروفة عالميا ، ويمكن شراؤها من عدن ببضع روبيات لكل ألف منها ، بينما تفرض سلطات شرق إفريقيا عليها رسوما جمركية عالية . ولذلك فقد كانت هذه البضاعة مثالية لأغراض التهريب ، وكان معظم جماعتنا يحتفظون بكميات كبيرة منها . إلا أن العيب الوحيد في هذه التجارة يكمن في حجم وشكل الصناديق التي تصف فيها تلك السجائر ، فقد كان من الصعوبة بمكان أن تحاول تفادى الحراس وأنت تحمل صناديق بمثل هذه الاحجام الضخمة . ولذلك كان من الممتع أن يراقب المرء الحيل والاساليب التي كان يستخدمها العرب لتهريب هذه السلعة ، وإن لم تكن تلك الاساليب فعالة دائما . وكان السلاح الرئيسى المستخدم هو الوقاحة الصارخة . فعندما كان يسمح لهم أن ينزلوا من المركب بعض التمر الذى كانوا يأخذونه من الجبل ويوضونه بعناية بالغة في صناديق صغيرة ، وأن يحملوه للبيع في السوق - وكان يسمح بعدد قليل من تلك الصناديق الصغيرة لكل منهم - كانوا يحملونها في سلال كبيرة تكون فيها دائما أشياء أخرى . وكان الحراس السواحليون ، المتمرسون بحيل العرب يفحصون تلك السلال فيكتشفون البضائع الأخرى المنوى تهريبها . ولكن بما أنهم لم يكتفوا غلاظ القلوب ، فلم يكونوا يصادرون تلك السلع ، بل يأمرؤن حاملها بإعادتها الى القارب الطويل وعدم انزالها معهم الى الشاطئ . ولكن من هنا كان من السهل على العرب أن يوصلوها الى الشاطئ بطريقة أو بأخرى ، فقد كانوا يروحون ويجيئون بشكل متواصل ، وهم يحملون معهم دائما سلالا صغيرة مملوءة بالسمنك أو اللحم أو الفاكهة أو الخضار ، وبين السلال الآتية واللال الذاهبة ، كانت تلك السلع المهربة تنزل الى الشاطئ .

كان بحارتنا ينزلون الى الشاطئ من السلع كمية يكفى ثمن بيعها لقضاء حاجاتهم في السوق وفي أماكن المتعة الأخرى . وكنت أحيانا أجلس في ظل شرفة الحاكم ، على الشاطئ ، أراقبهم ، وكان منظرهم وتصرفاتهم دائما ممتعة ومفيدة لى . ففي أحد الايام رأيت زيدا ، وقد قبض عليه متلبسا بالجرم المشهود ، وهو يقوم ببيع ألفى سيجارة ، واقتادته الشرطة بعد أن دافع عن نفسه دفاعا عنيفا . وقد كان العرب ، كمعظم الناس في كل مكان ، يعتبرون القبض على الانسان ، لقيامه بمخالفة ما ، اعتداء صارخا على حرياتهم ، ولذلك فقد انزعج الجميع لما حصل لزيد . إلا أن هذا لم يعامل بالشدة التي كان ينتظرها . فبعد أن أمضى ليلة في السجن ، اقتيد الى المحكمة المحلية وهو في هلع شديد . ألا ان القاضى اكتفى بتلك الليلة التي قضاه في السجن ، بالإضافة الى مصادرة السجائر وتغريمه مبلغا صغيرا من المال ، واعتبر ذلك عقوبة كافية . وعندما أطلق سراحه وعاد الى المركب ، هلل له الجميع واستقبلوه استقبالا حافلا .

إذا كان القصد من القاء القبض على زيد أن يكون عبرة للآخرين ، فقد فشل فشلا ذريعا ، لأن الجميع عادوا فى نفس ذلك اليوم الى ممارسة عمليات التهريب بنشاط وهمة أكبر مما مضى ، بل انى رأيت عبد الله ، أخا نجدى ، وهو يسوق ملء قبضته من حبات المسابح فى السوق فى ذلك اليوم .

ومرت الايام ، وظل البدو يتجولون مبهورين فى شوارع لامو الظليلة ، وهم يرتدون ملابسهم الصفراء والحمراء وشعورهم مطلية بالدهن . ولكن خمسة أيام من التجوال جعلت تلك الملابس تبدو أقل بهاء من قبل ، كما جعلت الدهن على شعورهم ذا رائحة كريهة . وفى أحد الايام قابلت على الشاطئ « السيد » سعيد الحضرمي وهو يرتدي ملابس السواحليين ، وأقرضته شلنين طلبهما منى . وقد عجبت لذلك ، فلم يكن « السيد » عادة بحاجة الى أن يطلب المال من النصارى ، الا أن لامو كانت مملوءة بأمثاله ممن يدعون الانتساب الى النبی (صلعم) ، وكان الحصول على المال صعبا . وسبب ذلك أن الشباب العرب ، فى مومباسا ومدن أخرى على طول الساحل ، أصبحوا ينظرون بكثير من الحذر والشك الى ادعاء أمثال « السيد » بقربهم من النبوة وربما الألوهية أيضا ، وبكثير من الازدراء الى التبلد وقلة الطموح التى كانت ترافق تلك الادعاءات . ونتيجة لذلك فقد حصلت هجرة كبيرة من تلك الاماكن الى لامو التى كانت أكثر تأخرا وأقل اتصالا بالافكار المتطورة . وكان هذا وضعاً يؤسف له بالنسبة « للسيد » سعيد ، لأنه وجد أن موارده قد شحت كثيرا . وبالطبع لم أر الشلنين ثانية ، كما أنى لم أر « السيد » ، ولا أعتقد أنى افترقته بعد ذلك . فقد اختفى هو وعدد من تجارنا الحضارمة فى « لامو » حيث لم يكن يسمح لأحد بالبقاء ، الا اذا أثبت أن لديه اذنا بالاقامة فى محمية « كينيا » ، ولم يكن باستطاعة أحد من ركابنا تقريبا أن يثبت أنه مقيم فى أى مكان فى العالم ، لانهم لم يكن لديهم أية وثيقة رسمية تثبت أنهم ولدوا على هذه الارض على الاطلاق .

كان نجدى يبدو قلقا ونحن فى لامو . فقد كان من الواضح أن الركود الاقتصادى العالمى جعل التجارة صعبة وغير مربحة ، وجعل الامل ضئيلا فى تحقيق ربح وفير من هذه الرحلة . لقد كان نجدى دائما يبدو رجلا متعبا ونحن فى الموانئ ، وقد خطر لي بأن النوخذة العربى يحمل من الهموم أضعاف ما يحمل ربان السفينة التجارية العادية . فلم تكن مهمته تنحصر فى الابحار فى المركب وقيادته فى البحر ، بل كانت تتعدى ذلك الى أمور كثيرة أخرى . فهو المسؤول عن نفقات الرحلة ، وعن جميع من عليها من البحارة والركاب ، وعن أوراقها أيضا . وهو الذى يبيع ويشترى الشحنة التى يحملها المركب مباشرة دون الاعتماد على الوسطاء ، وهو الذى يجد



ريح قوية تسير المركب

الركاب ، وعليه ان يتحملهم أيضا ، كما أن عليه أن يحكم بينهم في حالات الخلاف والمشاكل ، كما أن عليه أن يتخلص منهم ، ولم يكن ذلك دائما أمرا سهلا . وعليه أن يكون رجل أعمال قدير محنك ، وأن يكون خبيرا في الأخشاب ، وفي السكر ، وفي الارز ، وفي السمن ، وفي الروائح العطرية ، والسماك المقدد ، كما أن عليه أن يستطيع تقدير قيمة المراكب صغيرها وكبيرها ، وأن يكون ملما الماما تاما بصناعة السفن ، وبطريقة صنع الاشرعة والحبال . وعليه أيضا أن يعرف أفضل الاماكن لبيع السلع المختلفة المتنوعة ، من قطع الخشب المجلوبة من ملابار الى أعمدة المانجروف (الشندل) المجلوبة من دلتا الروفيجي ، الى السمسسم وجوز الهند والماعز المشتري من بربرة ، الى الملابس القطنية والملح وخلافها . وأخيرا فان عليه أن يعرف الوسيط الجيد من السيء ، حتى في ميناء صور ، وأن يميز بين العربي الموسر من المعسر . ولهذا كله ، فانه كثيرا ما يخطيء ، فالمسؤوليات التي يحملها على كاهله ثقيلة جدا ، وتتخلص في أن عليه أن يبحر في مركبه الكبير في تلك البحار الشرقية ، ويعنى به وبتجارته وبركابه جميعا ، وأن يعود به سالما الى موطنه القابع على رأس الخليج العربي . لقد كان نجدى رجلا جديرا

بتحمل مسؤولية الرجال ، واذا كان أحيانا يبدو فظا فى نظرنا وبحسب مفاهيمنا ومقاييسنا ، فانه ، فى نظرى ، لا لوم عليه ولا تشريب •

لقد كان المركب جنة عدن وهو خال من الركاب ، الا أنها جنة لم يكن مقدرا لها أن تدوم ، ففى اليوم السابع بعث نجدى من يستدعى ركابه من البدو ، لأن السلطات كانت تسمح للمراكب الكبيرة بالبقاء فى الميناء سبعة أيام دون أن تدفع الرسوم المعتادة • فاذا جاء اليوم الثامن وهى ما زالت هناك ، فان عليها أن تدفع تلك الرسوم ، ولذلك كانت تلك المراكب تعلق عادة فى اليوم الثامن ، وهذا ما كان فى نية نجدى أن يفعله • أما من هم أولئك المبعوثون الغامضون الذين أرسلوا ليجمعوا ركابنا من البدو ، أو ما هى الطرق الملتوية التى كانت تستخدم لجمعهم ، فليس لدى أية فكرة عن ذلك • الا أنه لم تكن هناك مشكلة فى تلك البلاد الشرقية ، تبلغ حدا من التعقيد أو الغموض ، يجعلها تستعصى على الحل الفورى على يد نجدى ، اذا رغب فى ذلك • أما ركابنا فقد كانوا دائما يستغلون حرية الحركة التى كانوا يتمتعون بها ، لعدم مقدرة الاوروبيين على تمييز واحد من الآخر • ولذلك فكثيرا ما كنا نستبدل أكثر من عشرين راكبا فى الميناء ، بحيث نقلع

فى ميناء ممباسا



وعلى ظهر المركب نفس عدد الركاب الذين أتينا بهم ، وان لم يكونوا دائما نفس الاشخاص • ولو كان نجدى بعثنى الى السوق للبحث عن الركاب ، لعدت بعد مدة طويلة ومعى ما لا يزيد عن اثنين منهم • أما الآن فقد رأيت حمدا بن سالم يلوح بيده فقط ، وما كاد يفعل ذلك حتى أخذوا يعودون الى المركب أفواجا أفواجا •

الا أنهم هذه المرة لم يعودوا جميعهم ، كما اكتشف مفتش الهجرة العربى لسوء حفظنا • وكان هذا المفتش عربيا قد تحول من الاسلام الى النصرانية ، ولذلك فهو يعتبر كافرا فى نظر نجدى • وقد لاحظ هذا المفتش أن عدد النسوة قد نقص ثلاثا ، وعندها تبين لنجدى أن ثلاثا من النساء اللواتى كن فى القمرة الكبيرة قد هربن من المركب ، وكان وقع هذا صاعقا عليه • ولكن يجب أن أعترف بأنه ، اذا كان نجدى قد لامهن على ذلك ، فان أحدا غيره لم يشاركه هذا الشعور • ولكن الامر كان خطيرا ، فقد كان علينا أن نغادر الميناء ، وعلى المركب نفس عدد الركاب الذين أتوا معنا • ولو كان المفتش مستعدا للتفاهم لهان الامر • فقد كان بإمكاننا مثلا أن نغطى ثلاثة من الاولاد بملابس النساء وأحجبتهم ، ونبعث بهم الى القمرة الكبيرة • فيتم احصاؤهم أولا كثلاثة أولاد ، ثم يعدون كثلاث نساء عند التفتيش على القمرة الكبيرة • وكان هذا ممكنا • الا أن هذا المفتش بالذات كان لسوء الحظ ، ذا ضمير حى ، وأصر على أن يجرى البحث عن النساء ، وتتم اعادتهن الى المركب فى الحال • وقد أجاب نجدى بأنهن على الشاطئ، ولا شك أن ذلك صحيح ، الا أنه كان من المحتمل أيضا أن يكن فى طريقهن الى ممباسا •

الا أن هذه المشكلة لم تكن عقبة كؤودا ، فقد نشئ النواخذة العرب على التصرف بسرعة وحكمة فى مثل هذه الظروف • وبالفعل سرعان ما أرسل نجدى أخاه عبد الله الى البر ، ومعه تعليمات بأن يعود معه بأية ثلاث نساء سواحليات ، ممن لا يفخرن بسجل أخلاقى نظيف ، يبدین استعدادا للاستفادة من فرصة السفر الى ممباسا ، لتجربة حظهن فى حياة اللهو هناك • ولم تمض نصف ساعة حتى كان عبد الله قد عاد ومعه ثلاث من هؤلاء ، وهن متلفعات بالسواد يطلقن الضحكات العالية ، فأرسلن فى الحال الى القمرة الكبيرة • وهكذا اكتملت قائمة ركابنا وأصبح بإمكاننا أن نقلع • وقد فعلنا ذلك وأصبحنا فى عرض البحر قبل فجر اليوم التالى • أما الفتيات السواحليات الثلاث فقد كن متعودات على حياة أكثر حرية وانطلاقا من أخواتهن العربيات ، ولذلك فقد قلبن الحياة الى جحيم ، قبل أن نبحر مسافة تزيد عن خمسة أميال • فقد كن يقلن أنهن أتین كضيفات ، فلا ينبغى

حبسهن فى زنزانة ، وكن يرسلن الصياح بدون توقف طوال الرحلة على ساحل كينيا • الا أن نجدى أغلق عليهن الباب العلوى ، ووضع عليه القفل ، ولم يعرفن أى اهتمام ، ولكن النساء العربيات غضبن لوضع هؤلاء النسوة معهن فى نفس القمرة ، وكانت هناك ضجة وهياج مستمران فى تلك الحجرة •

ولم يدم الامر كله أكثر من يوم واحد ، فقد كانت الريح مؤاتية ، والمسافة بين لامو و ممباسا قصيرة • وما كان النساء يفعلنه لم يزعج أحدا ، ما دمن باقيات فى تلك القمرة فى أسفل المركب ، لا يسببن أية مشاكل خطيرة للمركب ومن عليه من الركاب •

الفصل التاسع

قصة ممبasa

قصة ممباسا

كنا نبحر ببطء ، والرياح هادئة ، وساحل كينيا ذو اللون الاخضر الداكن يبدو جميلا تحت ضوء الشمس على يميننا ، بينما كان الركاب يجفون امتعتهم على أسوار المركب . وفي المؤخرة كان نجدي منهمكا في خطبة طويلة يلقيها على من تبقى من خاصة المسافرين ، بعد أن أوحشه غياب عدد من أفضل المستمعين اليه ، وذلك برحيل العمانيين كالسيد سعيد وأبي علي وبقية «الصوريين» . لحاء الله من رجل ! كنت أنظر اليه حينئذ ، ربما للمرة الخمسمائة خلال تلك الرحلة ، وهو يلوح في الهواء بعضا نارجيلته ، ويؤكد كلامه بين الحين والآخر بعدة اشارات دينية ، وإيمان مغلظة ، ليشهد الله أن كلامه صحيح لا يتطرق اليه الشك . وكان يتحلق حوله حوالى أربعين من البدو ، وكلهم آذان مصغية لما يقول ، وكنت أنظر الى هؤلاء المتشردين الذين ابتلانا الله بهم ، ربما للمرة الخمسمائة أيضا ، وأتمنى من كل قلبي أن تكون هذه هي المرة الاخيرة التي أراهم فيها ، فقد كانت مراقبتي لهم ممتعة لبعض الوقت ، الا أنني شعرت بأني قد تعبت منهم ، بعد أن عرفت عنهم ما فيه الكفاية . وكان حديث نجدي متواصلا لا ينقطع ، وموضوعه نفس الموضوع المألوف عن انحطاط العالم الغربي وأفول نجمه ، وقرب بزوغ الشمس من الشرق . وفي مثل هذه المناسبات كان نجدي يتحدث عنا ، نحن الاوروبيين ، وكأننا قد فقدنا كل أهمية ، بينما نحن لا نزال نسيطر على العالم بأسره . ولكنه كان دائما ينظر الى المستقبل البعيد ، ولا يكثر الى الاحداث اليومية ولا ينزعج منها ، ولذلك فقد كان يومنا ، بموجب وجهة نظره هذه ، قد قارب النهاية ، كما كان مجد العرب يوشك أن يشرق على العالم من جديد .

ولم يكن موقفي طبيعيا ، وأنا أجلس هناك ، كواحد من الاوروبيين المحسودين ، أستمع الى نجدي يشير اليينا بهذه الطريقة ، والجميع من حوله يهتمون بين حين وآخر بكلمة « طيب » ، ويوافقونه على ما يقول . الا أنهم لم يكونوا يعيرونني أي اهتمام ، بعد أن أصبحوا ، بمرور الزمن ، وبحكم الزمالة ، ينظرون الي كواحد منهم .

وعندما استمر سكون الرياح ، لم يعد بإمكاننا متابعة الابرار ، فاضطررنا للتوقف بعض الوقت . ولكن هذا لم يكن يقلق « نجدي » أبدا ما دما سنصل الى ممباسا في الوقت المناسب . ولم يكن نجدي من أولئك

الناس الذين يجزعون اذا أصبحت الظروف معاكسة ، فقد كان بإمكانه دائما أن يمضي الوقت بالحديث ، أو أن لا يفعل شيئا قط ، بل يجلس هناك على سدة النوخدة ، ويتحنى على نفسه ، فيصبح كأنه كتلة من البياض ، وينتظر الى أن تتغير الظروف . فقد كان سكون الريح يتم بإرادة الله الذي سيحرك الهواء ، اذا شاء ، عندما يشاء ، كما سكنها في البدء . وعلى هذا فليس لأحد أن يعترض على إرادة الله ، أو ينزعج منها ، لأن احدا لا يستطيع أن يغير من الامر شيئا . الا أنه كان باستطاعة نجدي أن يتمتع الآخريين بحديثه ، لأن ذلك من فعل الانسان . ولذلك فقد واصل نجدي حديثه بدون انقطاع ، بينما كان المركب واقفا دون حراك في ذلك البحر المنبسط ، والروائح الكريهة تنبعث من الماء الآسن في داخل المراكب ، وروائح سمك « حيفون » المتعفن تتصاعد الى عنان السماء . أما البحارة ، الذين كانوا في غاية الارهاق والهزال ، بعد أن أمضوا الاسابيع السبعة الماضية على ظهر المركب المكتظ بالركاب ، فقد كانوا يقومون باصلاح الطبول وبشد قطع جديدة من جلود الماعز على الدفوف ، وذلك لأن الوصول الى ممباسا كان يعني نهاية جزء هام من أجزاء الرحلة ، وكان من العرف المتداول أن ندخل الى مرسانا في ميناء ممباسا على قرع الطبول . ولذلك فقد أخذوا يعدون كل طبل ورق على سطح المركب لهذه المناسبة ، بحيث تكون جميعها جاهزة تماما للعمل عندما يحين الوقت . وكنت أتطلع شوقا الى تلك المناسبة ، فلم يحدث منذ ابحاري على ظهر المركب أن دخلنا أحد الموانئ على قرع الطبول والدفوف .

وفي اليوم الثاني ، عندما صاح نجدي فجأة : ها هي ممباسا ، كدت لا أصدق في بادئ الامر ، لاني لم أر ميناء عظيما ، بل لم ألحظ أن أي تغير قد طرأ على ذلك الشاطئ الطويل ، فقد بدا كل شيء على ما هو عليه سوى بضعة بيوت صغيرة ، وخزان للماء . والواقع أن ممباسا تظهر فجأة للمسافر القادم من الشمال ، كما أن مينائها يكاد يكون مخفيا عن الانظار ، رغم أنه ميناء كبير جيد . علاوة على ذلك ، فلم يكن قد مضى وقت طويل على مغادرتنا ميناء « لامو » ، الا أن الموانئ الواقعة جنوب بنادير ، على طول هذا الساحل ، كلها جيدة ومتقاربة . نعم ! لقد كانت ممباسا بعينها ! فقد ظهرت مصائد الاسماك والمزارع ، وهي تمتد على طول الشاطئ ، بأعداد أكبر مما كنا نراه خلال تلك الرحلة القصيرة ، كما كانت مظاهر الازدهار والنعمة بادية على المكان . وها نحن الآن نقترّب من مدخل الميناء ، وقد قام نجدي بدورة واسعة لكي يتجنب الشعب المرجانية الموجودة في الطرف الشمالي من المدخل . وهنا استدعاني نجدي وأخبرني أن المكان سيء وخطر ، وأراني كيف يقود العرب مراكبهم في مثل هذه الظروف . وقد أعلمني أن الطرف الشمالي من المدخل خطر بسبب التيارات والدوامات

الموجودة فيه ، ولذلك فان على النوخذة الداخل الى الميناء أن يعرف ما هو مقبل عليه ، على الرغم مما يبدو من بساطة المكان . كما كان هناك حطام مركب قابع في وسط المدخل ، الا أنه كان مشارا اليه بطافية (عوامة) . وعندما استدرنا وبدأنا الدخول ، شاهدنا بقايا حطام آخر عند الطرف الجنوبي . كان الطقس جميلا ، والنسيم لطيفا ، وقد شاهدت عريف البحارة محمدا ، يشق طريقه فوق أجساد الركاب ، مطالبا بقرع الطبول . وسرعان ما تناول كل من البحارة طبلا ، وأخذ يقرعه ويهزج وهو يهرول للتجمع على سطح المقدمة .

ولما كان الركاب قد تعودوا الآن ، أكثر من ذي قبل ، على الوصول الى أماكن لا يسمح لهم بالنزول فيها ، فقد كانوا يراقبون دخولنا الى ممباسا بهدوء أكبر مما أبدوه قبلا عند توقفنا في موقاديشو أو لامو . ومع ذلك فقد كان بعضهم يتراكمضون هنا وهناك بانفعال ، بحيث يعترضون أحيانا طريق البحارة . وها نحن الان ندخل الميناء مارين بالمستشفى من ناحية ، وبمرتفع من الارض تغطيه أشجار جوز الهند من الناحية الاخرى . بينما كانت القلعة البرتغالية المسماة « قلعة عيسى » ترتفع عالية وتشرف على الميناء كله . وكنا متجهين صوب الميناء القديم الواقع في الطرف الشمالي من المدينة .

تقوم مدينة ممباسا على جزيرة واقعة في وسط خليج عميق ، وتبعد حوالي ستمائة ميل عن موقاديشو باتجاه جنوبي غربي . ويشكل كل من الذراعين الشمالي والجنوبي للخليج ميناء ممتازا . أما الذراع الجنوبي ، الذي يسمى « كلنديني » ، فهو مخصص الآن للسفن البخارية الكبيرة ، وأما الذراع الجنوبي ، فما زال كما كان عليه دائما ، وفيه تحتشد المراكب المحلية كالقوارب الصغيرة القادمة من مدينة « لامو » في الشمال ، والمراكب السواحلية الآتية من زنجبار ودار السلام ، ومراكب الفرس والعرب القادمة من الخليج العربي ، والمراكب الصومالية التي ترفع العلم الايطالي ، وتسافر من حيفون وجنوب الجزيرة العربية ، على طول الشاطئ الافريقي ، الى هذا المكان ، والمراكب الهندية التي تنقل الآجر والأواني الفخارية من ساحل ملابار ومن منجالور ومن خليج كوتش . والواقع أن « كلنديني » ميناء حديث ، فيه أرصفة ، وروافع كبيرة ، وقوارب للقطر كما تحكمه أنظمة وقوانين ، شأنه في ذلك شأن الموانئ الحديثة الاخرى ، ولهذا السبب فهو ميناء جيد . ولكن الميناء القديم هو الذي جذب انتباهي وأعجبني . انه ذلك المكان الرومانسي الجميل الذي دخلناه عشية يوم الاحد ، وكل شيء هادئ من حولنا ، سوى قرع الطبول وأهازيج البحارة القديمة . وما أن

رأنا بحارة المراكب الكويتية الاخرى الراسية في الميناء ، حتى رفعوا
أعلامهم ، وأخذوا يحيوننا ويهتفون لنا ، ونحن نتجه الى مرسانا • لقد كان
استقبالا جميلا ، ووصولا موفقا ، وقد وجدت في ذلك متعة كبيرة •
فقد تضافرت أشياء كثيرة لكي تجعل من ذلك المكان مكانا جميلا ممتعا •
فهناك الاشجار الخضراء ، والمنازل العربية والهندية المطلية بالالوان
الزاهية ، والقلعة القديمة التي توحى بالعزم والقوة ، والمراكب الجميلة
المحتشدة في المرسى ، وأمواج البحر الازرق الصافي ، وهي تتكسر بلطف
على شاطئ نادي السباحة ، والقوارب الغاصة بالبحارة الفقراء ، التي كانت
تنتقل بسرعة عبر الميناء ، على أنغام أهازيج البحارة ، وأصوات المجاذيف
وهي تخط الماء بشكل موسيقي منتظم • لقد كانت كل هذه أشياء تثير
المشاعر وتضفي جمالا خاصا على هذا المكان • وقد ألقينا مرسة واحدة
وتوقفنا مقابل نادي السباحة ، وكان ذلك في وقت العصر من ذلك اليوم
الجميل •

وهنا وجدنا أنفسنا بين ثلاثة مراكب وصلت مؤخرا ، أحدها « بوم »
فارسي يحمل شحنة من الآجر جلبها من منجاليور بالهند ، والآخران عربيان
من مراكب الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، وكنا نرفع أعلامنا على
السارية الكائنة في المؤخرة ، على عادة المراكب الكبيرة للاعلان عن
وصولها • وبناء على تجاربنا السابقة في حيفون وموقاديشو ، لم أكن
اعتقد بأنه سيتم تفتيش المركب وتدقيق حمولته وركابه في ذلك المساء •
الا أنه لم تمض عشرون دقيقة على رسونا ، حتى كان طبيب الميناء - وكان
ايرلنديا مرحا - قد اعتلى ظهر المركب • وقد قام بفحص الجميع فحسنا
دقيقا ، واهتم بشكل خاص بالكشف عن آثار التطعيم والتحصين الحديثة ،
لأنهم هناك يخشون أن تكون المراكب الكبيرة وسيلة لنقل مرض الجدري ،
ولذلك فهم يراقبونها بعناية فائقة ، خاصة أنه ليس هناك نواخذة عربي
أو فارسي أو هندي أو صومالي يعترف بظهور أي مرض خطير بين
ركاب مركبه أو بحارته • وقد سمعت « نجدي » ينكر حدوث أية أمراض
أو وفيات على ظهر مركبه ، مع أنه يندر أن يوجد مركب عربي يقوم بنقل
الركاب من عمان أو حضرموت دون أن يخسر عددا منهم • وفي العادة
لا يكون هذا أمرا ذا بال ، اذا لم يكن أحد من هؤلاء قد مات من مرض معد ،
الا أن المشكلة ، من وجهة نظر طبيب الميناء ، أنه اذا حدث أن انتشر أي
مرض معد ، فإن العرب يفعلون المستحيل لكي يخفوا كل أثر له ، لأنهم ،
بسبب اتكالياتهم المعروفة ، يعتقدون أن جميع الامراض ليست الا تعبيرا عن
ارادة الله ، ولذلك فانهم ينظرون الى عملية « الحجر الصحي » نظرتهم الى
واحدة من تلك العقبات التي يفرضها عليهم الاوروبيون دون مبرر ، ولهذا
السبب فان عليهم أن يتجنبونها بأي ثمن •

وسرعان ما انتهى الطبيب من فحصه للمركب ، وسمح له بالرسو على اعتبار أنه لم يكن عليه أي مرض سار . وأخذت انظر حولي مرة ثانية ، وامتع البصر بجمال ذلك الميناء في ذلك المساء الاستوائي . بينما أتى لزيارتنا عدد من النواخذة الكويتيين ، وكان من بينهم غانم بن عثمان ، قبطان البوم الكبير المسمى « الباز » الذي كنا نرسو معه سويا في حيفون . كما كان هناك بدر بن عبد الوهاب قائد البغلة المسماة « بدري » ، وهي مركب جميل كان يرسو قريبا من الرصيف الحجري بين عدد من المراكب العمانية القادمة من صور ، بالإضافة الى كويتي آخر لم أكن قد قابلته من قبل . وكان بدر شابا في مقتبل العمر ، طويل القامة ، مهيب الطلعة في ثوبه الابيض الطويل وعباءته الداكنة . وكان ثوبه الابيض وكوفيته البيضاء مصبوغين باللون الازرق ، على عادة النواخذة الكويتيين عندما يقومون برحلاتهم البحرية . وكان غانم بن عثمان يرتدى ملابس مشابهة لبدر . وقد تباحث نجدى مع هؤلاء ، واستفسر منهم عن الاحوال السائدة في الميناء ، وعن الفرص المتاحة لتصريف البضاعة ، وعن أمور أخرى مشابهة . وقد علم منهم أنه لا توجد صعوبة في انزال الركاب ، فقد كان غانم قد تخلص من مائة وخمسين منهم . الا أن السوق لم تكن مناسبة لبيع المنتوجات العربية ، التي يمكن أن تجد لها سوقا أفضل في زنجبار ، بحسب رأي بدر . وقد برر بدر ذلك بأن العمانيين كانوا دائما يبيعون بضائعهم بأسعار أقل من أسعار غيرهم . فما تكاد تسنح فرصة لغيرهم لكي يبيع شيئا من سلعه ، حتى يكون العماني قد عرض سلعته بسعر أرخص . لقد كان الموقف صعبا ، فقد مضى عليه في ممباسا شهر كامل لم يستطع خلاله أن يتخلص من بضاعته كلها بعد . ولذلك فقد كان ينوى السفر الى « تانجا » في الجنوب ، والى بعض الموانئ الصغيرة الأخرى لكي يشتري شحنة من السمسم والمواد الأخرى ليعود بها الى الوطن ، وسيمر بممباسا في طريق العودة لتحميل بعض الركاب . وقد ختم بدر كلامه قائلا أنه قد يئس من امكانية بيع بضاعته في ممباسا ، وأنه لذلك سيبحر الى زنجبار في صباح اليوم التالي .

كنت شغوفا بهذه الندوات التي كانت تعقد على مؤخرة مركبنا « فتح الخير » في الليالي الاولى لوصولنا الى كل ميناء نتوقف فيه ، حين كان نجدى يجلس صامتا وقورا ينفث دخان نارجيلته ، بينما يقف يوسف على خدمته ، يوسف المسكين الذي لم يكن يعرف طعما للراحة طالما كان نجدى على ظهر المركب . وحول نجدى يتحلق النواخذة الآخرون ، وكلهم صامتون وقورون ، الا عندما يثار موضوع أثير الى قلوبهم أو له علاقة بحيوبهم ، فعندها لا يبقى للصمت مكان ، ويشترك الجميع في حديث نشط . وكثيرا ما كان عدد هؤلاء يصل الى ستة عشر ، يصطفون حول

سدة النوخدة ، بينما يستلقى على السطح تحت أقدامهم عدد غفير من الركاب ، وقائدى الدفة ، وعرفاء البحارة القادمون من مراكب اخرى ، للاشتراك فى هذه الجلسات . ولم يكن يسمع أثناء فترات الصمت المتكررة ، سوى صرير ألواح المركب وهو واقف فى مرساه ، وأصوات الطبول التى يقرعها البحارة الحضارمة على مسافة بعيدة منا ، وقرقرة الماء فى النراجيل ، والاصوات الناتجة عن حركة المجاديف فى الماء ، عندما يمر أحد القوارب قريبا منا . لقد كانت الاثواب التى يرتديها العرب ، والكوفيات وأردية الرأس الاخرى الملفوفة باحكام ، والعباءات الموشاة بالذهب ، والعقل الصوفية السوداء التى تثبت الكوفيات على الرؤوس - لقد كانت كل هذه الملابس تضى على العرب جوا من الجدية والهيبة يتوافق معها . كما كانت وجوههم تتميز بالقوة ، وكان ذلك واضحا تماما عند النظر اليها فى الضوء الخافت المنبعث من جمرات النار التى يوقد بها طباق النراجيل . لقد كنت مغرما بجو السرية والتآمر الذى كان يبدو دائما مغنيا على هذه الندوات ، مع أنه لم يكن فيها عادة ما هو سرى أو متصل بالمؤامرات من قريب أو بعيد . الا أن مجرد النظر الى هؤلاء القوم فى صمتهم الوقور الجاد ، وهم متلفعون بعباءاتهم ، كان دائما يوحى بنوع من النذير والوعيد . ولكننى أعلم حق العلم بأن هذا الانطباع كان خاطئا تماما، لاننى كنت أنا نفسى عندما أجلس بينهم وأنا أرتدى ملابسهم، كما ينبغى لى أن أفعل ، أشعر كأنى واحد من مجموعة من المتآمرين ، بل والاغرب من ذلك أنى كنت أشعر بكثير من الوقار وبمزيد من الهيبة أيضا . وكنت أعزو ذلك الى شكل الثوب والى العباءة الفضفاضة والكوفية الجميلة الواسعة ، وهى الملابس التى كثيرا ما يرتديها الانسان كلما أراد أن يخلق جوا من الهيبة والوقار . وكنت أشعر بأنى عدت انسانا عاديا جدا عندما أنزل الى البر وأرتدى الملابس الاوروبية المناسبة للمناطق الاستوائية .

ولم تتمخض تلك الجلسة ، كمثيلاتها من الجلسات ، الا عن الاشاعات المعتادة . ولذلك فقد استلقيت على سجادتى تحت سماء تتلألأ بالنجوم ، وأخذت أدير فى ذهنى ما سمعته فى ذلك المساء من الاقوال المختلفة بل والمتناقضة فى كثير من الاحيان . فبعض الروايات تقول أن الاحوال جيدة فى ممباسا وأننا سنمكث هناك عشرة أيام ، بينما تقول رواية أخرى بأن الاحوال سيئة فى ممباسا وأن علينا أن نغادرها الى زنجبار فى اليوم التالى بحمولة من الثيران (وهى ، على كل حال ، أفضل من حمولة البدو) . ورواية ثالثة تقول بأننا ، بعد أن نفرغ حمولتنا ، يحسن أن نعود الى لامو لنحمل أعمدة المانجروف (الشندل) ونأخذها الى البحرين ، ورواية أخرى تقول أن علينا أن نذهب الى دلتا نهر الروفيجي لنحصل على

شحنة من خشب المانجروف ننقلها الى الكويت ، وغير هذه تنصحننا بأن نبحر جنوبا الى « مكدانى » وننقل الذرة منها الى زنجبار . وفى خلال الاحاديث التى دارت فى تلك الامسية ، اقترح البعض علينا أن نتوقف على الشاطئ ، وننظف مركبنا فى ممباسا أو زنجبار أو روفيجى أو لامو أو جزر سيشل . ولم تكن كل هذه سوى بعض الاشاعات والتكهنات التى دارت بين المتحدثين فى تلك الجلسة . أما أى من هذه الامور سيتحقق فيما بعد فلم يكن ذلك يهمنى فى كثير أو قليل ، فقد كنت قد تعلمت أن أقبل مايجرى على علاته ، والا أطمح الى التنبؤ بأى شىء على الاطلاق . ولماذا أفعل ذلك ، وأنا الذى كنت مقتنعا بأن طريقة الحياة هذه لم تكن سيئة بأى حال من الأحوال !

فى صباح اليوم التالى استيقظت على صوت قرع الطبول العمانية ، وشاهدت مركبا مهريا صغيرا جدا يدلف الى مرساه قريبا منا . وكان هذا مركبا غريبا بشعا ذا مقدمة مستقيمة ، لا تختلف فى الشكل عن المؤخرة ، وهو من النوع الذى يسميه العرب « البدن » ، وكان قادما من ساحل المهرة فى جنوب شبه الجزيرة العربية . ويتميز بأنه يبدو خشنا سىء البناء ، وأن خطوطه مستقيمة ، خلافا لما هو معهود فى المراكب العربية . أما مقدمته ومؤخرته وعارضته فجميعها تنتصب عامودية تماما . هذا اذا ساعدتها أخشابها البدائية غير المستقيمة على ذلك . وأما طريقة قيادة هذا المركب فهى أكثر بدائية منها فى المراكب العربية الاخرى ، وتعتمد على ذراع الدفه ومجموعة من الحبال منظمة بطريقة ثقيله غير فعالة ومتصلة بعمود خفيف ، علاوة على ذلك فان حوافه منخفضة جدا ، بحيث يبدو المركب بوجه عام أقما منظرا من جميع المراكب العربية الاخرى . وليس فى تصميم هذا المركب أى ميل من الوسط نحو الطرفين ، كما أن خطوطه بشعة ، وفيه عادة صار واحد ينتصب بعد الوسط بقليل باتجاه المقدمة وهو أعلى من الصوارى فى المراكب العربية الاخرى . وعلى الرغم من كل ما ذكرت من العيوب ، فانه يبدو أن المركب صالح للملاحة تماما .

ومع أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد ، فقد كان النهار حارا ، وكل شىء ساكنا سكونا تاما . وسرعان ما امتلأ سطح المؤخرة بالمصلين يؤمهم حمد بن سالم لتأدية صلاة الصبح وكان هؤلاء يتألفون من البحارة والركاب من البدو ذوى الوجنات المليئة بالندوب ، والبلوشيين من لامو بسراويلهم الزرقاء الضخمة ، وصغار التجار الذين كانوا قد ارتدوا أفضل ملابسهم استعدادا للنزول الى اليابسة . أما نجدى ، فقد أدى صلاته كالآخرين ، ثم استولى على جرامفون الراكب المالىزى ، وأخذ يستمع الى

شئ من الاغاني الفظيعة ، فقد كان نجدى فى حالة نفسية جيدة • ثم ما لبث سائر الركاب أن أخذوا يدورون هنا وهناك ، وهم يرتدون الملابس المناسبة للشاطئ يجمعون أمتعتهم ، التى كانت تبدو لى الان أقل مما كانت عليه عندما صعدوا بها الى المركب فى بداية سفرتهم •

ومر بالقرب منا قارب طويل ، تابع لاحدى البغلات العمانية ، غاص بالزئوج الاشداء الذين كانوا يقرعون الطبول ، بينما كان قائدهم يرتدى عمامة حمراء ويجلس على المؤخرة • وما أن اصبح المركب على محاذاتنا حتى هب الرجل واقفا على قدميه ولوح لنا بيده محييا ، على عادة جميع الملاحين العرب الذين لم يكونوا يجدون أن من اللياقة أن يحييوا وهم جلوس أو متكئون على جنوبهم • وكان القارب موسقا الى حافتيه بأكياس الملح • وقد لاحظت ايضا أن ثلاثة نواخذة عمانيين (من صور) ، بعمائمهم الزهرية ، الموشاة بالالوان الذهبية والحمراء ، والمثبتة بمقل عمانية فاتحة اللون ، كانوا يجلسون على سدة النوخة حتى فى تلك الساعة المبكرة جدا ، بينما كان عبد الله ، أخو نجدى ، مقرصا يمسس الدخان من النارجيلة ، كأنه « يشرب » الطباق ، محدثا قرقرة هائلة • وما لبث يوسف أن أتى بوجبة الفطور ، التى كانت تتألف كالعادة من بضع ارغفة من الخبز الفطير ، نستعين على ابتلاعها بأكواب الشاي الشديدة الحلاوة • الا أننا فى هذا الصباح كنا نقف فى الميناء ، ولذلك فقد جرى الاحتفال بوصولنا بتقديم خبز طازج بدلا من الخبز القديم الجاف، المتبقى من اليوم السابق ، الذى كان يقدم لنا عادة • وعلاوة على ذلك فقد كان بعض السمسمرشوشا على هذا الخبز لاضافة نكهة لطيفة اليه • وقد كان هذا الخبز المعد بهذه الطريقة ، والذى قدم لنا حارا ، يعتبر وجبة كافية ، على الرغم من بساطتها • وقد شاركنا العمانيون فى الطعام ، كما كان من واجب ضيوف العرب أن يفعلوا دائما • وبينما كنا نتناول طعام الفطور ، كان المركب المهرى الصغير يمر بحذائنا ، وفجأة ودون سبب أعرفه ، هب جميع بحارته يصفقون بأيديهم بشكل موسيقى ، ويصدرون ضجة وجلبة عظيمنتين • وقد اختار ربان المركب أن يرسو بحذائنا مباشرة ، فرأيت أن على ظهره أكثر من ستين راكبا مع أن طوله لم يكن يزيد عن أربعين قدما ، كما أن الرائحة الفظيعة ، التى كانت تصدر عنهم وعن السمك المقدد الموجود فى مركبهم ، أخذت تهب علينا وتكاد تكتم أنفاسنا • ياللفظاعة ! حتى نجدى نفسه لم يطق تلك الرائحة النتنة ، فنادى عريف البحارة وطلب منه ان ينزل القارب الطويل ، ويقطر مركب المهرة ويسحبه بعيدا عنا • لقد كانت رائحة السمك المتعفن فى ذلك المركب كريهة للغاية وشديدة جدا ، بحيث أصبحت الرائحة الصادرة عن الماء الاسن المتجمع فى باطن مركبنا تبدو كأنها عبير ماء الورد •

كنا ، خلال الليل ، قد أفدنا من المد العالي ، وانتقلنا الى موقعنا في صف المراكب ، ورسونا على بعد ثلاثين قدما تقريبا من بغلة بدر المسماة « بدري » ، بينما كان مركبان عمانيان ومركب فارسي ترسو بيننا وبين الشاطئ ، ومركبان صغيران من خليج كوتش الهندي ، وبضعة مراكب من لامو تقف جميعها في بركة من الماء المسود من القطران ، حيث تنزل حمولتها من أعمدة المانجروف ومن الحطب على الشاطئ . وكانت حولنا مراكب وقوارب من كل نوع ، من البومات الكويتية والقوارب اللاموية ، والمراكب الهندية ، التي تنزل حمولتها من الاواني الفخارية الهشة ، والمراكب السواحلية التي تغطي مخازنها بسقف سميك من الاغصان وأوراق الاشجار ، والبغلات والسمايك العمانية . ومن الواجهة البحرية كانت تنبعث الرائحة التي تبعث على الغثيان ، والمتصاعدة من لب جوز الهند ، فتملأ جو الميناء ، بأكمله ، وتختلط بمئات الروائح الكريهة الاخرى التي تتنافس للسيطرة على الجو ، الا أن الرائحة الفائزة في هذا الصراع كانت دائما رائحة السمك المتعفن . وعلى سارية فوق قلعة عيسى ، كان علم سلطان زنجبار الاحمر يرفرف في الهواء . وهذه القلعة ، مثلها في ذلك مثل قلعة لامو ، تستخدم الان سجنا ، الا انها لا تزال قائمة هناك ، جميلة قوية كما كانت دائما ، كما لا تزال بعض مدافعها البرونزية القديمة مصوبة الى البحر . وعلى الجانب الاخر من الميناء كانت تصطف أشجار جوز الهند الباسقة أمام خلفية من السماء الازرق الجميل ، فتغطي ذلك الارتفاع الذي يحاذي الشاطئ ، وتعطيه لونه الاخضر اللطيف . وخارج الميناء ، في عرض البحر ، كنا نرى احدى ناقلات النفط وهي تمخر عباب الماء على مسافة بعيدة ، متجهة الى مكان آخر ، وحدى السفن البخارية التجارية وهي تسير ببطء باتجاه « كلندي » . وها هم ركاب مركبنا الآن يتجمعون ويتدافعون أكثر من أي وقت مضى . ومع أن الساعة لم تكن قد بلغت السابعة بعد ، الا أنه كان باستطاعتنا أن نرى ضباط المهاجرة وهم قادمون الينا في قارب ، مما جعل جوا من الاضطراب والاهتياج يسود المركب .

لقد كان فحص أوراق المسافرين شكليا تقريبا ، لان جميع الركاب قدموا للضابط أوراقا من نوع ما ، ولكني لا استطيع أن أقول شيئا عن ماهية تلك الاوراق ، أو أن أيا منها كانت تخص الشخص الذي كان يبرزها . وكان ضابط المهاجرة شرطيا شابا يرتدي ملابس بيضاء نظيفة جدا ، وقد جلس على سدة النوخدة على سطح المؤخرة يحف به كتبه السواحليون ، وأخذ يفحص قائمة الركاب بعناية ويضع اشارة مقابل كل منها . وقد سمح لركابنا من العرب بالنزول الى البر دون صعوبة تذكر . ويبدو أنه لم يكن بإمكان الضابط أن يفعل شيئا غير ذلك ، كما أخبرني هو في وقت لاحق .

فقد كان هؤلاء العرب عادة مواطنين صالحين قلما يولدون المشاكل ، وبامكانهم أن يرفعوا شؤونهم ويتدبروا أمورهم بأنفسهم دون أن يصبحوا عالة على السلطات ، وكان هذا ، بإيجاز ، هو كل ما يهم الضابط ، ولذلك كان يسمح لهم جميعا بالنزول الى المدينة • وكان هؤلاء العرب يرتادون ممباسا وزنجبار منذ أقدم الازمان • وعلى الرغم من أن فرص العمل قد تناقصت تناقصا كبيرا في الآونة الاخيرة ، الا أنه لم يكن من الحكمة ردهم على أعقابهم • وكان من المعروف أن بعض هؤلاء قد استنفذوا آخر مواردهم في سبيل الوصول الى هذا الميناء الكيني ، وربما لم يكن ينبغي لهم أن يأتوا في المقام الاول ، الا أنه كان بإمكانهم ، اذا ساءت الامور الى حد كبير ، أن يتدبروا أمورهم ويعودوا من حيث أتوا • ولم يحدث أن تقدم واحد منهم الى السلطات طالبا تسفيره الى بلده ، فلم يكن القدوم الى ممباسا يكلفهم أكثر من بضع روبيات ، وكانت بضع روبيات أخرى تكفي لاعادتهم الى أوطانهم • واذا صدف أن كان أحدهم مفلسا تماما ، فقد كان بإمكانه عادة أن يعود على نفقة أحد رجال القبيلة أو على نفقة إحدى قبائل جنوب الجزيرة العربية ، أو فرع من فروعها ، على أن يسدد المبلغ فيما بعد •

وهكذا كان الحال في كل فصل من السنة تهب فيه الرياح الشمالية الشرقية ! عشرات من المراكب تصل الميناء ، خاصة بالمسافرين ، كما هو الحال الآن • وكانوا جميعا ينزلون الى البر ، بينهم المكفوفون والمتسولون والموسيقيون والباعة المتجولون ، والجمالون ، والنساء والاطفال من كل جنس ولون • أما الآن فقد سمح لجميع ركابنا بمغادرة المركب ، وقد كانت فرحة الجميع عارمة صاخبة • لقد كان المنظر غريبا : بدوي يصعد الى مؤخرة المركب ليدقق الكتب السواحليون اسمه على قائمة الركاب وينصرف ليأتي غيره ، وهلم جرا • وكان كل منهم يقف مدة قصيرة على مقربة من ذلك الشرطي الاسكتلندي ، بينما يقوم أحد الكتب السواحليين المتسامحين بتدقيق اسمه ، وكان كثيرون منهم يصابون بالدهشة والذهول لأنه سيسمح لهم بالنزول الى البر بعد طول الصبر والانتظار ، ولذلك كانوا يترددون في الانصراف ظنا منهم أن مقابلة قصيرة جدا كهذه لا يمكن أن تكون خاتمة رحلة طويلة مضيئة ، خاصة عندما يتذكرون ما حدث لهم بعد مقابلات مماثلة في حيفون وموقاديشو عندما كانوا يضطرون للبقاء أسابيع طويلة على ظهر المركب لا يغادرونه أبدا • ولكنهم كانوا هذه المرة يتحققون من أن الامر جدي وحقيقي ، وأن بإمكانهم النزول الى البر بالفعل • فكانوا يندفعون لتجميع أمتعتهم ، وارتداء أفضل ملابسهم ، ان كان لديهم غير ما على أبدانهم ، من الوزرات النظيفة والقمصان القطنية ، ولدهن جدائل شعورهم السوداء الطويلة بالسمن ، وذلك بأقصى سرعة ممكنة • وكانت القوارب تأتي من الشاطئ لتنقلهم الى هناك ، فيتدافع ركابنا الى جوانب

الركب ليزحفوا عليها نزولا الى القوارب . ولكنهم لم يكن يسمح لهم بأن يفعلوا ذلك قبل أن يقوم حمد بن سالم ، المسؤول عن حسابات المركب ، بالتدقيق على حساب كل واحد منهم ، للتأكد من أنه ليس لدينا للمركب بشيء ، والا فانه لا يسمح له بمغادرة المركب . وكان الحضارمة القادمون من شحر قد سددوا أجور سفرهم مقدما . الا أن بعض الركاب القادمين من موقاديشو ، وبعض المتشردين الذين قدموا معنا من لامو ، لم يكونوا قد سددوا حساباتهم ، وكان على بعض الركاب أن يدفعوا ثمن ما تناولوه من طعام المركب بعد أن نفذت مؤنهم . وكان حمد يرقب الجميع بعينين كعيني النسر ، فقد كان يتقن هذا النوع من العمل اتقاناً تاماً . فلم يكن يتأثر بأية محاولات أو مشاحنات أو وعود ، فما كانت كلها تعني شيئاً بالنسبة له . ولم يكن مستعداً أن يفهم الا شيئاً واحداً ألا وهو أنه غير مستعد للسماح لأحد بمغادرة المركب ما لم يسدد حسابه كاملاً ، وكان هذا بالنسبة له قراراً نهائياً لا عودة عنه . وقد وجدت متعة وأنا أرقب احد الركاب القادمين من موقاديشو وهو يحاول أن يقنع حمداً بأن يسمح له بالنزول ، بأن يغريه بالثروة الطائلة التي سيحصل عليها منه حالما تطأ قدماه البر . ولكن حمداً لم يسمح له بالنزول رغم الحجج وطرق الاقناع المختلفة التي لجأ اليها ، ورغم ان احتجاجاته واستغاثاته قد ملأت الميناء بأكمله ، فلم يكن ذلك يفيد في شيء ، بل كان عليه أن يستدعي من المدينة من يكفله أو يدفع ديونه قبل أن يسمح له بالذهاب . وبما أن البحارة كانوا يحصلون على مكافآتهم عن الرحلة على نظام الحصص ، فقد كان من صميم مصلحتهم الا يسمحوا لأحد بمغادرة المركب قبل أن يسدد ما عليه من أجور سفر و ثمن طعام الخ ، فقد كانوا قد خسروا ما فيه الكفاية بسبب العمانيين الذين سافروا معنا من صور .

لم أستطع التعرف على بعض ركابنا وهم يغادرون المركب الى القوارب ، فقد كانت هيئاتهم قد تغيرت تغيراً كلياً . فها هو ذلك العجوز الفظيع ، ذو العين الواحدة والوجه القبيح جدا ، ذلك الرجل البخیل ، المعروق ، الداوي ، الذي لا يطاق ، والذي لم يغير ثوبه منذ ذلك المساء الذي اعتلى فيه مركبنا في ميناء شحر حتى هذا الصباح ، والذي كان يسمى نفسه « شيخنا » ، ويتبارى مع الآخرين في الأذان للصلاة - ها هو الان يتقدم من سور المركب ، وهو في منتهى الاناقة ، يضع على رأسه كوفية بيضاء جديدة ، ويرتدي ثوبا طويلا فضفاضاً من الحرير الياباني ، فوقه عباءة سوداء مصنوعة من وبر الجمال ، وموشاة الاطراف والاكمام بخيوط مذهب ، تتدلى منها شرابتان ثقيلتان موشاتان بخيوط مذهب ايضا . لقد بدا هذا الصعلوك بملابسه الجديدة رجلاً محترماً الى حد ما ، وأصبح البدو والركاب الآخرون ينظرون اليه بشيء من الاجلال والاحترام ، على الرغم من أنه كان

قد أصبح موضعاً لسخرية الجميع وهو على ظهر المركب . وها هو أيضاً ذلك الزمار الكفيف ، الذي كان قد تشاجر مع الولدين المرافقين له ، يرتدي وزرة جديدة مخططة باللونين الأخضر والابيض ، ومزمارة في حزامه جاهز للاستعمال عند الحاجة ، وكان الصبيان المرافقان له يرتديان قميصين نظيفين أيضاً . كما كان كثير من البدو قد ارتدوا الزرات ذات الالوان الصفراء والحمراء الفاقعة ، بل ان بعض الحضارمة كانوا يرتدون المعاطف أيضاً ، وكانت هذه مصنوعة من القطن الخشن ، ومخاطة في اليابان ، ومسبوكة في بلدان الجزيرة العربية . فليس هناك سوق واحد على شواطئ الجزيرة العربية لا يعرض للبيع مثل هذه الملابس التعيسة ، بأسعار تبدأ من اربع آتات فصاعداً (١) . وكان معظم الحضارمة يبدون أنيقين وهم يرتدون الزرات النظيفة التي تصل الى ركبهم والقمصان النظيفة ، ويتمنطقون بأحزمة النقود والزنانير الملونة ، ويلفون قطعاً رفيعة من الصوف الاسود حول سيقانهم ، ويعتصرون العمائم الكبيرة الزاهية الالوان على رؤوسهم . لقد كانت أحزمتهم خالية من المال تقريباً ، وبطونهم خاوية أيضاً ، ولم تكن لديهم أية فكرة عما سيحصل لهم في ذلك المكان الغريب . الا أنهم ، برغم ذلك كله ، كانوا يغادرون المركب دون خوف من المجهول ، بل أنهم كانوا يتحلون بروح الرواد الاوائل ، وقد عقدوا العزم على شق طريقهم في الحياة هناك بطريقة أو بأخرى .

وقد استفسرت من ضابط المهاجرة عما يحل هؤلاء في ممباسا ، فأجاب أن كثيرين منهم يصبحون من صغار البوابين ، مع أنهم بدأوا يفقدون هذا النوع من العمل في الآونة الاخيرة . فقد أخذ رجال الادغال، الآتون من داخل أفريقيا ، ينافسونهم ويثبتون أنهم أفضل منهم من حيث القوة والقدرة والبعد عن الخش والخداع . علاوة على ذلك ، فقد كان هؤلاء يحتفظون بأموالهم وينفقونها في داخل البلاد ، بينما لم يكن العرب يفعلون ذلك في أغلب الحالات . فقد كان هم العربي الاول أن يجمع ما يكفيه من المال ليعود الى وطنه ، ومع أنه كان يأتي مستعداً للقيام بأي عمل ، الا أنه نادراً ما كان مستعداً للاستقرار ولشق طريقه في هذه البلاد . فقد كان ينظر اليها فقط على أنها مورد للثروة ومكان للإقامة المؤقتة ، ولا قيمة لها الا بما تقدمه له من المال الذي يمكنه من العودة الى الجزيرة العربية ، والعيش هناك عيشة راضية . وكان كثيرون جداً من العرب يفعلون هذا ، فيأتون الى كينيا ،

(١) الاربع آتات تعادل ربع الروبية أى أقل من ٦ بنسات انجليزية (قديمة) أو حوالى عشر سنتات أمريكية (المؤلف) . هذه الاسعار قديمة جداً ، كما أن قيمة الروبية قد انخفضت كثيراً بالنسبة للعملة الأخرى . كذلك تغيرت قيمة العملات الأخرى أيضاً (المترجم) .

ويعملون بجد ونشاط مدة سنة أو اثنتين ، بل وربما خمس سنوات - فقد كانوا يتحلون بالصبر - الا أنهم كانوا دائما يعودون الى الجزيرة العربية حالما يتيسر لهم المال الكافي . بل أن بعضهم كانوا يعودون الى أوطانهم كل موسم ، فقد كانت السفرة رخيصة ، لا تكلف من ممباسا الى المكلا ذهابا وايابا في أي مركب عربي أكثر من خمس عشرة روبية ، أي ما يعادل أكثر من الجنيه الاسترليني بقليل . كما كانت الحياة بالنسبة للعرب رخيصة جدا في ممباسا ، وأيسر منها في حضرموت . فلم يكن العربي المتجول بحاجة الى سقف يظله ، كما كان يحمل فراشه على ظهره أينما ذهب . وهو يستطيع العيش على الكفاف ، فلم يكن يتكلف أكثر من آنتين أو ثلاث آنات في اليوم ، أي أقل من خمسة سنتات أمريكية . وهذه كلفة حياته في المدن ، أما عندما يكون في الريف بين عشيرته ، فان تكاليف الحياة تصبح قليلة لا تذكر . فقد كان عادة يعود ببضع هدايا من افريقيا يوزعها بحكمة وتعقل ، وينفق دريممات قليلة في المقهى ، كان يكون كريما مع النادل الذي يعد له نارجيلته ، ويحتفظ بسمعة طيبة بالمداومة على ارتياد المسجد - وكان ذلك كفيلا بأن يجعله موضع ترحيب من الجميع الى فترة غير محدودة . وعندما تنفذ نقوده كلها ، يعاود الكرة الى افريقيا ، أو يولي وجهه شطر جاوا ، أو الهند ، أو سنغافورة . فكما كانت هناك جالية عربية حضرية كبيرة في ممباسا ، كانت هناك جاليات مماثلة في جاوا ، وفي كل المدن الساحلية . وقد لاحظت أن كثيرا من المغامرين الشبان على ظهر المركب يحملون صحفا صادرة في مكان ما في جزر الهند الشرقية الهولندية ، نصفها مطبوع باللغة العربية والنصف الآخر باللغة الهولندية .

وقد علمت أيضا أن العرب كانوا فيما مضى يحتكرون مهنة تحميل البضائع وتفريغها في ممباسا ، وبخاصة في الميناء القديم . الا أن هذا العمل قد انتقل الى الافريقيين الآن ، وأصبح على العرب أن يقنعوا بحمل الاثقال الأقل أجرا ، وبمهنة السقاية ، وذلك بأن يحملوا وينقلوا الماء العذب في صفائح وقرب جلدية الى بيوت العرب القاطنين هناك ، كما أن بإمكان العربي أيضا أن يعمل كحارس ليلي ، يقضي وقته نائما على دكة خشبية أمام إحدى البنايات أو الحوانيت ، أو يعمل بائعا للقهوة التي يحملها في إبريق نحاسي تتقد تحته نار صغيرة من الفحم ، ويتجول بها في الطرقات وهو يطرق الفناجين الفخارية بعضها ببعض للاعلان عن بضاعته . أو يعمل كبائع متجول للسلال والخمارات والاقمشة القطنية التي يتجول بها في الاسواق ، أو يستطيع أن يعمل كصاحب حانوت صغير ، مع أن هذه مهنة يحسد عليها كل من يصل اليها . وقد خيل الي بأن معظم هؤلاء العرب من سكان السواحل يرغبون في أن يصبحوا من أصحاب المتاجر . ولم يكن مهما أن

تكون الدكان كبيرة أو صغيرة ، أو أن تكتظ فيها البضائع أو تقل ، فقد كان صاحبها يقنع تماما ما دام لديه مساحة كافية يعرض فيها بضاعته ، ويجلس على مقربة منها يدخل نارجيلته بهدوء ولذة • وقد لاحظت أن هذه الدكاكين الصغيرة كانت هي السائدة في كل الاسواق العربية ، على الرغم من أن قيمة جميع البضائع الموجودة في نصف دسنة منها لا تزيد عن خمسة دولارات ، فقد كان يكفي أن تحتوى الدكان ، بالمقاييس العربية ، على عدد قليل من حبات المانجو والبرتقال والليمون وجوز الهند ، وقليل من الارز ، والفلفل ، والقمح ، وبعض حزمات من الطباق العربى الرخيص ، ومجموعة صغيرة من خردوات اليابان الزاهية الالوان - كانت هذه الاشياء تكفى لفتح محل تجارى •

لقد رأيت بعض ركابنا على البر ، أثناء توقف مركبنا فى ممباسا ، وكان بعضهم يعملون كبائعين متجولين فى السوق ، وهم يحملون رزما صغيرة من الوزرات ، والقمصان ، والشالات ، والعمائم التى كانوا يعرضونها على كل من يمر بهم • وعلى الرغم من أنى لم ألاحظ أنهم كانوا يبيعون الكثير من سلعهم ، فقد كانت القناعة بادية على وجوههم • وكان بعضهم ينوع بضاعته باضافة بعض السلع الاخرى اليها ، كالمسابع الاسلامية المعروفة ذات الحبات الثلاث والثلاثين ، المصنوعة من الكهرمان الصناعى الرخيص ، وكزجاجات العطر المهرب الصغيرة جدا ، وورق اللعب المجلوب من عدن ، أو بعض مستحضرات الفسيل والاستحمام ذات الروائح القوية جدا • وقد رأيت غير هؤلاء ، وقد أصبحوا يعملون بالفعل كبائعين فى بعض الدكاكين الصغيرة التى ربما كانت تخص بعض أقاربهم • فهناك حركة سفر نشطة جدا بين صغار الباعة تمتد من موانئ الساحل الافريقى الى جنوب الجزيرة العربية وبالعكس • فكثيرا ما يعود أحدهم الى الوطن لمدة عام أو عامين ، بينما يأتى بعض أقاربه ليحلوا محله فى دكانه ويواصلوا التجارة • وأخيرا فقد لاحظت أن آخرين كانوا قد بدأوا يحاولون الدخول فى منافسة باعة القهوة المتجولين، رغم ازدحام تلك المهنة بأكثر مما تحتاج من الرجال • وخلاصة القول أن الجميع تقريبا لم يكونوا يضيعون الوقت هباء ، بل كانوا يبدأون عملهم ونشاطهم فى نفس اليوم الذى يغادرون فيه المركب ، وتطأ أقدامهم اليابسة •

أما المتسولون الذين نزلوا من المركب فلم يضيعوا هم الآخرون وقتهم هباء ، فلم تكن الفرصة متاحة لهم على ظهر المركب لممارسة نشاطهم ، كما أنهم لم يسمح لهم بذلك أيضا فى موقاديشو • الا أنى ما كدت أنزل الى البر عصر اليوم الاول ، حتى رأيت ذلك الضير سىء الخلق ، وهو يقف فى السوق بالقرب من دار للسينما ويعزف أعلى الالحن على مزماره ، بينما كان أحد

الصبيين يتسول ، والآخر يجمع بعض أعواد الحطب ليوقد نارا . وعندما مررت بالرجل ، أخذ يدعو لى بصوت متهدج طالبا الاحسان ، ولكنى لم أعطه شيئا ، فقد كان واحدا من أسوأ الرجال الذين حملناهم على المركب من الجزيرة العربية .

أما الركاب الآخرون الذين لم يكونوا متسولين ، فلم تكن أحوالهم حسنة كهؤلاء ، فقد أصبحت فرص العمل كبوابين نادرة ، وأصبح الأفريقيون هم المفضلون لهذا العمل . ولكن أولئك الذين سبق لهم أن كانوا فى شرقى أفريقيا لم يجدوا صعوبة تذكر فى تدبير أمورهم واستقرار أحوالهم ، فقد كان لكثير منهم أقارب أو رجال من نفس قبيلتهم تمكنوا من تأمين العمل لهم . أما البدو الذين لم يكونوا قد غادروا حضرموت من قبل ، فلم يجدوا الامر سهلا ، لانهم لم يكن لهم أقارب ولا أصدقاء على تلك المسافة البعيدة عن الوطن . وقد رأيت عددا منهم أثناء رسو المركب فى الميناء . وكانوا متميزين حتى فى ذلك الخليج الدولى من البشر فى ممباسا ، فقد كانت وجوههم البدوية واضحة لا مجال للخطأ فيها ، وكذلك كانت أجسامهم الهزيلة التوية المغطاة بالوشم والتى ليس عليها سوى تلك الوزرات السوداء القصيرة ، وكذلك جدائل شعرهم السوداء غير المرتبة المدهونة بالسمن . وكانوا يتجولون هنا وهناك كالاطفال الذين فقدوا أبويهم ، يحملقون بدهشة فى المناظر الغريبة كأنهم غير قادرين على فهمها ، ويسيرون وهم حفاة منتصبو القامة ، وكلهم حنين وشوق لمنظر جمل أو زوينة من الرمل تهب من اتجاه الصحراء . ولم يكونوا يجلسون فى المقاهى لضيق ذات اليد ، كما لم يكرنوا يتسكعون فى السوق ، فلم تكن أطايبه من نصيبهم . بل كانوا يتواجدون فى الارض العراء أو فى حقل قريب من القلعة البرتغالية على مقربة من الميناء ، وهم مرتبكون حائرون وعيونهم متجهة الى ناحية الشمال . لقد قدموا من مسافة بعيدة ، وأبحروا على هذا المركب الكبير عدة أيام ، ولكن ما هو المصير الذى ينتظرهم الآن ؟ عسى أن يكون مصيرا جيدا . فقد أعجبتنى كثير من الخصال الطيبة المتأصلة فى طبيعتهم البسيطة .

وفى أحد الايام ، كنت أسير فى شارع فرعى عائدا الى المركب ، واذا بصوت صبيانى ينطلق فجأة ويحينى تحية الاسلام : « السلام عليك أيها النصرانى ! » فخفضت بصرى دهشة ، واذا بى أرى طفلا صغيرا عرفت فيه ابن البدوى « عودة » . وكان هذا جالسا على الرصيف الحار ، وهو يرتدى وزرة صغيرة ، ويبتسم بعينيه الكبيرتين الصافيتين ، فبدا لى مخلوقا صغيرا جدا ، لا يجوز بحال من الاحوال أن يكون وحده هنا فى أفريقيا ، بعيدا عن أرض الوطن ! الا أن الصغير كان يبدو سعيدا رغم التعب البادى عليه ،

ورغم الجوع الذى ربما يكون يشعر به * وكان يلعب بعصا يطرق بها الاسفلت. بعنف المرة تلو المرة ، لا لسبب ظاهر سوى أنه ربما كان يتمتع بالصوت العالى الناتج عن ذلك ، وهو يفعل ذلك وعيناه تجعلان النظر فى عجائب ممباسا من حوله ، وربما كانت احدى تلك العجائب أنه لم تتح له من قبل أن يضرب الرصيف بالعصا كما يفعل الآن * توقفت عن السير ، وسألته عن أحواله ، ولكنى لم أفهم من كل ما قاله بلغته العربية الصبائية سوى أنه كان ينتظر والده * وفى تلك اللحظة ظهر والده وهو يقترب منا بصمت وهدوء * وكان هذا أيضا يبدو متعبا ومرتبكا كأن المدينة كانت أكثر مما يطيق ، وضجيجها وخفاياها مدعاة لبلبلة ذهنه البسيط الصافى * وكان يسير حافى القدمين ، عارى الرأس تنسدل جدائل شعره السوداء الطويلة على كتفيه ، وقد طليت بالسمن ، ولا يرتدى سوى وزرة سوداء ، ويضع على احدى كتفيه عباءة من الخام المصبوغ باللون الاسود * وكان يبدو مهيبا ، متزنا ، محافظا على زمام نفسه ، رغم ارتباك وحيرته ، فلم يكن محاربو الصحراء ممن تطفئ عليهم زحمة المدينة وشوارعها وضجيجها وحشودها *

وقد علمت من عودة أنه لم يستطع الحصول على عمل ، ولا يعرف أين يبحث عنه ، وأنه هو وطفله ينمان فى أحد البساتين ، وأنه سعيد بذلك فقد كان البستان لطيفا ، فيه خضرة وفيه كثير من الاشجار * وكان واثقا من أن الامور ستتحسن ، فقد قدم هو وطفله من مسافة بعيدة جدا ، ولن تتغلى عنهما رحمة الله الواسعة * ولم يطلب منى شيئا ، كما لم يجار أى منهما بالشكوى ، فقد وصلا ، بمعونة الله ، الى افريقيا ، حيث أرادا الوصول ، وكان هذا كافيا بالنسبة لهما * ولم أكتشف أنهما كانا جائعين الا عندما أعطيت الصغير بضع دريهمات كهدية وداع ، فخاطبني وكأنه رجل مكتمل الرجولة ، قائلا انه يشكرنى على الهدية ، وان باستطاعته الآن أن يشتري شيئا من الطعام * الا أن جملا كان يمر فى تلك اللحظة ، وهو يبدو كأنه تائه وفى غير مكانه كصاحبى البدويين ، فهب الطفل واقفا ، وصفق بيديه فرحا لرؤية الجمل ، فسقطت النقود منه وضاعت فى المجارى *

لقد كان عودة وابنه يتحليان بالشجاعة والانفة ، فقد كانا وحيدين. جائعين فى ذلك الشارع الممتد فى ممباسا ، ولكنهما كانا مكتفيين ذاتيا ، وغير هيايين من شئ * كما كان ايمانهما برحمة الله ، التى لا تعرف الحدود، ايمانا عميقا لا تهزه الرياح ، ونظرتهم الى المستقبل جلية مشرقة متفائلة * وعندما اضطررت الى مغادرة المكان ، أخذ كلاهما يلوحان لى بأيديهما ، ويتمنيان لى التوفيق من الله * وعندما التفت لانظر اليهما للمرة الاخيرة ، كان عودة وابنه يسيران فى الشارع خلف الجمل ، وهما متشابكا الايدى ..

لقد أحببت الاثنين كليهما ، فقد كانا نعم الرفيقين • واني أتمنى لهما حظا سعيدا ، وأرجو أن يكون الحظ قد تبسم لهما في مكان ما من كينيا • لقد كانت هذه آخر مرة تقع عيني عليهما •

كان من المقرر أن يقام احتفال راقص كبير على ظهر المركب في الليلة التالية لنزول الركاب الى ممباسا ، الا أن أحدا لم يعثر لاسماعيل الموسيقى على أثر ، كما كان البحارة قد نزلوا الى البر سعيا وراء الفتيات المحليات ، على الرغم من قلة ما نال كل منهم من نقود المركب • ولذلك فقد أجلت الحفلة الى وقت لاحق ، وأقيمت بعد عدة ليال • لقد كان الرقص جميلا بشكل خاص ، رغم أني كنت أشعر أني قد شاهدت كل ما يستحق المشاهدة من هذه الحفلات من قبل • كانت أسطح المركب خالية من الناس والامتعة للمرة الاولى منذ أن اعتليت ظهر المركب ، وكان كل من القارب الطويل ، و « عفرة » المركب الجديد الذي يصنعه النجار ، معلقا على جانب المركب ، وكانت الأسطح قد كنست ونظفت ، بل كانت مفروكة فركا جيدا ، لدرجة أنها كانت تلمع من النظافة غير العادية • وكان شراع قد مد من العارضة الرئيسية ونشر كالمظلة فوق السطح الرئيسي ، كما كانت كل سجادة متوفرة في المركب قد مدت ، بل واستعير غيرها من المراكب المجاورة ، بحيث غطيت بها كل أسطحة المركب • وكان المركب بأكمله قد خصص لهذا الاحتفال ، فكان الضيوف يتسلقون السلم الى سطح المؤخرة حيث يستقبلهم نجدي وحمد بن سالم فيخلعون نعالهم ثم ينزلون الدرج من المؤخرة الى السطح الرئيسي ، ويجلسون على السجاد تحت المظلة ، ويتكئون على الوسائد التي كانت مصفوفة على طول الباب المقفل المؤدى الى باطن المركب • لقد كان منظرا لطيفا مهيبا • وكان البحارة يجلسون على الجانبين في صفين طويلين ، وهم يرتدون أفضل ملابسهم وأنظفها ، وقد شذبوا شواربهم بعناية ، ونظموا لحاهم بشكل لطيف ، كما فعل حمد بن سالم الذي رتب شعر لحيته السوداء بطريقة هندسية منتظمة • وكان هؤلاء البحارة يجلسون بهدوء على حافتي المركب بينما كان نجدي وضيوفه يجلسون في الوسط ، حيث كان غطاء باطن المركب موطئا ومريحا • وكان اسماعيل يعزف على قيثارته ألحانا شجية ، للمرة الاولى منذ أن عرفته ، ويبدو أن بعض أغانيه كانت تتألف من حوار عاطفي بين فتاة وحبيبها ، فكان الحاضرون يطربون لذلك ويضربون بأيديهم على أرجلهم وهم يقهقهون ويصيحون اعجابا •

وكان عازف كمان قد أنحضر من بغلة عمانية كان قبطانها ، ذو اللحية السوداء ، يجلس صامتا قرب نجدي طيلة الامسية ، كما كان هناك عدد من الدفوف ، ومثلث معدني واحد ، وتسعة طبول على الاقل ، كان اثنان منها

طبلين هنديين كبيرين ، مشدودا عليهما جلد ماعز جديد ، كانوا يسخنونه بين الفينة والفينة على نار جاسم الدائمة الانتقاد . أما الطبول الاخرى فكانت أسطوانية صغيرة مصنوعة من فخار البصرة ، ومغطاة من أحد جوانبها بقطع من أحشاء الماعز . وكانت هذه الطبول أيضا بحاجة الى تسخين من آن لآخر . وكانت تقرع باليد ، مرة بالاصابع ومرة بالابهام ، ويتناوب البحارة على قرعها واحدا بعد الآخر . لقد كان الايقاع ، الذى كانوا يستطيعون المحافظة عليه بالدقوف والطبول ، ممتازا ، وفى بعض الاحيان مؤثرا جدا ، فقد كان من الواضح أن لديهم جميعا احساسا طبيعيا بالنغم والايقاع السليمين . وكان سطح المركب الرئيسى مضاء بالنور الخافت ، المنبث من مصباحين ، لم أر أحدا يستخدمهما فى أى وقت مضى ، كما كان وهج النار يصدر من موقد جاسم فينعكس على خشب الصاري التنظيف اللامع . وقد تضافرت هذه مع ألوان السجاد الفاقعة ، وعبارات الرجال المهيبة ، والصاري الضخم الثقيل بلونه الداكن اللامع ، والظلة المظلمة التى كانت مصنوعة من الشراع الممتد فوق رؤوسنا - لقد تضافرت هذه جميعا لتضفى على المكان جوا رومانسيا خلايا . لقد كان البحارة فى أفضل حالاتهم ، وكان غناؤهم كما كانت أهازيجهم رائعة . وكان يجلس فى الوسط حوالى عشرين ضيفا بمن فيهم النواخذة القادمون من المراكب الاخرى ، وعمانى واحد ، وفارسى واحد أو اثنان ، وعدد من العرب القاطنين فى المدينة .

وكان البحار عبد اللطيف (١) يقود الغناء الجماعى ، فقد كانت هذه وظيفته ، وكان دائما يفعل ذلك عند رفع العارضة ، ونشر الشراع ، وعند قيادة القوارب . وكان يتلقى اكراميات من أجل ذلك ، كما كان يشترط عليه أن يقوم بذلك عندما يتفق معه نواخذة المركب فى بداية الرحلة ، مثلما كان اسماعيل يتلقى الاكراميات لعزفه الموسيقى ، ويوسف المعجوز للخدمات الاضافية التى يقدمها . لقد كان غناء عبد اللطيف جيدا ومقبولا ، الا أنى كنت أفضل عليه الصوت الاجش الذى كان يصدر عن العبد زيد ورفاقه . وكان اسماعيل أسوأ المغنين جميعا ، وقد اضطررت عندما امتد السهر حتى وقت متأخر من الليل ، أن أغتنم فرصة كان الآخرون فيها غافلين عنا ، وأنفحه قليلا من المال لكى يكف عن الغناء .

الا أن مثل هذه الاحتفالات كانت تمتد عادة حتى الصباح . وعند منتصف الليل شاء سوء حظى أن يعتلى المركب أحد كتاب المهاجرة السواحليين ،

(١) هو عبد اللطيف الرشود ، وكان يعمل مغنيا (نهاما) على مركب نجدى بصفة مستمرة ، ويكون برفقته ، فى العادة ، نهام آخر هو راشد المراغى . (المترجم عن أحمد البشر الرومى) .

وهو فى حالة سكر شديد ، فيولد ازعاجا وضجة عظيمين ، وسرعان ما يمنح اسماعيل مبلغا كبيرا من المال لكى يستأنف الغناء . وكان هذا السواحلى رجلا له أهمية بالنسبة لأولئك العرب ، ولكنه كان ، لسوء الحظ ، ثملا جدا حتى أنه لم يتمكن من الوقوف على قدميه . وكان يصر على الغناء ، وكان غناءه سيئا جدا ورقصه أسوأ ، الا أنه كان يواصل محاولة الوقوف والرقص فيتعثر ويسقط بين الموسيقيين . وكان هذا هو السكير الوحيد الذى رأته على ظهر مركبنا ، أو على ظهر أى مركب آخر فى ذلك الجزء من العالم . لقد كان بعض العرب يشربون قليلا ، ولكنهم لا يبالغون فى ذلك ، كما كانوا يفعلون ذلك فى الخفاء ، وبكل هدوء ، ولم يكن أحدهم يجرؤ أن يصل الى حالة من السكر الشديد ، بل كانوا يتجنبونها بكل ما ملكت أيديهم ، لأن المسلم اذا ضبط ثملا ، فقد هيبته ودينه الى الابد . الا أن هذا السواحلى كان ثملا لدرجة مخيفة وغير آبه بمن يراه على تلك الحالة . ومع ذلك فلم يعترضه أو يحاول ابعاده أحد ، وكان أحدا لم يلاحظ أنه كان ثملا . وهكذا استمرت الحفلة واستمر الرقص بمرح وبهجة ، دون الالتفات الى حركاته . الا أن حسابه جاء فى اليوم التالى ، فلم يكن المسلمون الاتقياء يتسامحون فى امر السكر ، خاصة وأن الانسان الثمل ينسى تأدية الصلاة (المفروضة على كل مسلم) .

لقد كان الاحتفال أفضل ما رأيت على الإطلاق ، وقد رقص نجدي مع عدد من النواخذة الكويتيين ، الا أنه لم يرقص مع النواخذة العماني . وكان الرقص يتألف كالمادة من جر القدمين الى الامام ، ثم الى الخلف ، على السجادة الممدودة على الطرف الايسر من السطح ، وذلك بكل جدية ووقار ، ولكن من غير رشاقة ملحوظة ، وكانت الخطوات تتوافق مع الايقاع الصادر عن الطبول . وبعد أن يستمر هذا مدة عشرين دقيقة تقريبا يبدأ الايقاع بالتسارع ، كما تبدأ خطوات الراقصين بالاسراع ، الى أن يقف الراقصون أمام الموسيقيين ، يأخذون بهز اجسادهم بعنف على وقع الانغام العنيفة الصادرة عن القيثارة ، والاصوات العالية الناتجة عن قرع الطبول قرعا عنيفا متواصلا . وكان هذا الجزء من الرقص دائما مثيرا جدا للبحارة ، حتى أن عددا منهم كانوا لا يتماثلون انفسهم فيهبون واقفين ، ويهرعون للمشاركة فى الرقص . وقد يقف عدد كبير منهم ، ربما بلغ الدسته ، هناك أمام الموسيقيين وهم يهزون اجسادهم بعنف والبهجة العظيمة باادية على وجوههم . وعندما يجد اسماعيل أنهم قد نالوا ما يريدون ، يضرب أوتار قيثارته ضربة الخاتمة ، فتقرع الطبول القرعة الاخيرة ، وتتوقف الموسيقى فجأة ، فيقفز الراقصون قفزات عالية فى الهواء ، ويستديرون وهم يصيحون صيحات الفرح ، ويضحكون ، ثم يعودون الى مجالسهم . لقد كان هذا دائما

مصدر بهجة ومنتعة عظيمتين لهم ، ولم يكونوا يملون منه أبدا . ولكنني للاسف لم استطع ان اتابع النغم والايقاع ، كما لم استطع فهم معنى لهذا الرقص . فلم يكن بامكان أذننى غير المدربتين أن تحكما متى يكون الوقت مناسباً للاستدارة ، أو للقفز ، أو للقيام بأية حركة أخرى . كما لم استطع أن أتبين نظاما خاصا لتلك الحركات ، وسرعان ما تخلّيت عن المحاولة كلية .

لم تقم الحفلة للتعبير عن الفرح بايصال الركاب الى بغيتهم ، أو للترفيه عن أصدقاء المركب من سكان المدينة فحسب ، بل كانت ايضا مناسبة لعرض مهارة صاحبنا اسماعيل في العزف الموسيقي . فقد كان من الواضح انه كان موسيقيا ومطربا مشهورا في أوساط سكان البلدان المطلة على الخليج العربي . ولا بد أنه كان نصرا كبيرا لنجدي أن يتمكن من اقناع شخص من هذا النوع بمرافقته في سفرته الى افريقيا ، كما لا بد أن يكون القبطان العماني ، وكذلك غانم بن عثمان ، اللذان لم يكن نجدي يميل اليهما كثيرا — لا بد أن يكونا مستائين جدا ، ويحترقان بنار العسد والغيرة . والواقع أنني لا أعلم ما اذا كان كلامي هذا صحيحا ، الا ان ذلك كله كان يضيف أهمية خاصة واعتبارا خاصا لنجدي في نظر أقرانه ، وكان هذا يعني كل شيء بالنسبة له .

واستمر الحفل حتى الهزيع الاخير من الليل ، بل استمر الليل كله ، ولم يتعب البحارة أو يملوا من الرقص والفناء . أما الكاتب السواحلي فقد غلبه النعاس فنام حوالى الساعة الثالثة صباحا ، وسرعان ما أنزل الى أحد القوارب ، وأبعد الى الشاطئ ، وهو يصدر شخيرا عاليا . وأما حميد بن سالم ، الذي لم يكن يرقص أبدا ، والذي لم يكن مغرما بموسيقى اسماعيل وغنائه ، كما كان الحال بالنسبة لي ، فقد انسل بعد منتصف الليل بقليل ، الى إحدى السجادات التي كانت ممدودة على أقصى طرف من أطراف المؤخرة ، وحاول أن ينال فسطا من النوم . وحاول يوسف الشيرازي ، الذي لم يكن يشارك في الرقص أيضا ، أن يفعل مثله ، ولكن « نجدي » كان يناديه بصوت عال بين كل لحظة وأخرى ، فيحرمه من النوم ، حتى أنه كان الأجدر به الا يحاول ذلك اصلا . ولكن « يوسف » كان يحب النوم حبا جما ، وكان ينظر الى كل دقيقة لا يقضيها نائما كأنها دقيقة ضائعة سدى . ومع أنه لم يكن يستطيع أن ينام أكثر من ثلاث دقائق في المرة الواحدة ، الا أنه كان دائما يستفيد من تلك الفرص . ومن آن لآخر ، كانت تدور على الحاضرين اكواب الشراب المتعددة الالوان (التي لم يكن أي منها يغري بالشرب ، فلم تكن سوى ماء ملون باللونين الاحمر والازرق بشكل خاص) ، أو تدور اكواب الشاي الشديد الحلاوة ، أو القهوة المرة

(السادة) ، أو التمر ، أو التين المجفف ، أو ذلك النوع الرهيب الاصفر اللون الذي كانوا يسمونه « حلوى » ، والذي يصيب الانسان بالغثيان ، ويلتصق بالاصابع واللسان ، ويشبه طعمه طعم المعجون المصنوع من دبس السكر والسكر الرديء مضافا اليهما نكهة العسل المبهر . وكان باستطاعة نجدي أن يأكل كمية هائلة منه ، كما كان الآخرون يלתهمونه التهاما بلذة كبيرة ، ولذلك فقد كنت دائما اقدم لهم نصيبي منه . بالاضافة الى هذه الاكلات الشهية ، كانت تقدم لنا أشياء مختلفة تماما ، كالفاكهة الايطالية المملبة التي تباع في موقاديشو بأسعار زهيدة ، والبسكويت البلجيكي المصنوع خصيصا ليباع في افريقيا .

وأخيرا مللت وتمعت ، وراودني النعاس ، فانتحيت جانبا ، وتمددت على سجادتي المفروشة على سدة النوخدة في المؤخرة . وكان ذلك حوالي الساعة الخامسة صباحا . الا أن الباقيين تابعوا سهرهم وغناءهم يقودهم عبد اللطيف وزيد . وقد غلبني النعاس فنمت على أنغام الموسيقى ، ودقات الطبول ، وضحكات الساهرين ، واذكر انهم كانوا عندئذ يغنون اغنية بحرية فارسية جميلة . وبعد ساعة او اثنتين أيقظني أذان سلطان داعيا المسلمين لصلاة الصبح . وقد لاحظت أن البحارة كانوا في نشاط الاولاد الصغار ، رغم انهم كانوا قد امضوا الليل بطوله في الرقص والغناء . وفي الصباح الباكر جاء السواحلي واعتذر عن سكره في الليل ، ولكنهم لم يصفحوا عنه ، كما لم ينس أحد القصة طيلة اقامتي على المركب .

لا شك أن ممباسا كانت بلدة لطيفة ، استمتع بها جميع البحارة كما استمتعت بها شخصيا ، بل اني لم أمل من الميناء القديم ومن المدينة القديمة ، وكان كل شيء مسليا وممتعا . فقد كانت هناك اكوام لب جوز الهند أمام مركز الجمرك والرائحة الثقيلة المنبعثة منها ، وغناء البحارة على مراكبهم في الميناء ، والمراكب المتنوعة الجميلة الراسية في الميناء ، وشكل الميناء الجميل مع قلعة عيسى ، والبيوت العربية التي تبدو في مؤخرة الصورة ، والماء ذو اللون الاحمر القاني حول الاخشاب التي كانت تجلبها المراكب الصغيرة من « لامو » ، وذلك اللسان الذي يمتد عبر الخليج ، تحف به أشجار جوز الهند الخضراء ، وتلك الاشرعة المثلثة البيضاء التي كانت تبدو لي دائما جميلة ، تذكرني بمراكب القراصنة ، ومقدمة مراكب البوم الرشيقة ومؤخرات البغلات الفخمة ، والشوارع المزدحمة بالناس من كل حذب وصوب ، من هنود وبلوش وسواحليين وعرب وبنجابيين و (أطباء اسنان) يابانيين وغيرهم من الشرقيين — لقد كانت جميع هذه الاشياء جميلة ومسلية ، وجعلت من ممباسا مكانا ممتعا حقا . لقد كان هذا هو نوع الميناء الذي أحبه .

وقد كان يهمني أيضا أن أعرف مدى نشاط التجارة في المراكب الشراعية . وفي ممبasa لم يبد لي أن هناك انحسارا في هذه التجارة . ففي خلال وجودنا هناك ، كان ما لا يقل عن ثلاثين مركبا كبيرا راسيا في الميناء . وكان معظمها مراكب من صور ، أو من بلدان أخرى على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية . وتدل الإحصائيات أن (٢١٤) مركبا أجنبيا دخلت ممبasa عام ١٩٣٧ ، وأن هذا العدد ارتفع إلى (٢٤١) في العام التالي ، ومن المتوقع أن يزيد عن ذلك في عام ١٩٣٩ . وهذه المراكب تبدأ بالوفود مع هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وتكون أولها عادة مراكب صغيرة من صور ومراكب « البدن » القادمة من ساحل المهرة ، والتي تهرع إلى زنجبار ، وهي تحمل السمك المجفف ، والعرب الذين يهيمنون حبا بفاكهة المانجو . ثم تتبعها المراكب الكويتية والفارسية ، وهي تحمل بضائع متنوعة كما تحمل ركابا من حضرموت . وتعقب ذلك المراكب الهندية التي تأتي من خليج كوتش وساحل ملابار ، ثم بعض المراكب الصومالية المختلفة التي تأتي من حيفون وهي ترفع العلم الإيطالي . ويجلب العرب معهم الركاب والملح بكميات كبيرة من عدن حيث يباع بأسعار زهيدة . أما العمانيون ، من صور ، فيجلبون السمك المجفف الذي يباع في أسواق السواحليين . ويجلب العرب السجاد أيضا بكميات محدودة ، لأن هذه سلعة غالية الثمن ، وإذا كان السجاد عجميا أصليا فإن من الصعب الحصول عليه ومن الصعب بيعه . كما يجلبون المواقد والسمن والمنتجات العربية الأخرى . أما الهنود فيجلبون الآجر والوانى الفخارية . ولا يقوم هؤلاء برحلات يتاجرون فيها على حسابهم ، بل ينقلون البضائع التي يكون المستوردون الهنود الموجودون في شرق إفريقيا قد تعاقدوا على شرائها من تجارا آخرين في الهند .

وبالمقارنة بين ما يتكلفه المركب الأوروبي عندما يزور الموانئ المختلفة في العالم ، وبين ما يتكلفه المركب العربي ، نجد أن الأخير لا يكلف إلا النزر اليسير ، وهذا هو السبب الرئيسي لاستمرار التجارة على هذه المراكب . فلم يكلفنا بقاؤنا في ممبasa مثلا أكثر من أربع دولارات ، أي أقل من جنيه استرليني واحد . فالعرب لا يطلبون أية تسهيلات في الموانئ ، فما دام هنالك خليج يرسون فيه ، ورصيفا يفرغون عليه البضائع ، فانهم لا يطلبون شيئا آخر . فهم يوقفون مراكبهم على مراسيها الخاصة ، ولا يوقفون على الأرصفة قط ، كما أنهم يفرغون بضائعهم بقواربهم الخاصة . وإذا ما احتاج المركب إلى تنظيف أو إصلاح ، فانهم يسحبونه إلى الشاطئ الرملي ، ويقومون بما يلزم بانفسهم . ولذلك ، فلو كان المرشدون ، وأصحاب مراكب القطر ، وموظفو الأرصفة ، وعمال الميناء ، والحمالون ، يعتمدون

على العرب ، لما توا جوعا ، لان العرب لا يضطرون لاستخدامهم . والواقع أن العرب يقولون بصراحة انهم لا يحتاجون أية رقابة أوروبية على الاطلاق ، ويعترضون على دفع أية رسوم تطلب منهم ، مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه ، لو لم تكن ممباسا في أيد أوروبية ، لكان عليهم أن يدفعوا أضعاف تلك الرسوم لابتناء جلدتهم . الا أن لدى العربي كرها متأصلا لدفع أية رسوم أو عوائد حكومية ، لان لديه اعتقادا عميقا متوارثا بأن جميع الرسوم والعوائد ما هي الا نوع من الابتزاز ، ولذلك فإن الرسوم بالنسبة له لا مبرر لها ، وصيانة الموانئ لا داعي لها ، لانه يستطيع أن يستدل على الطريق التي يسلكها الى حيث يقصد الذهاب ، كما يعرف الموانئ العميقة التي تستطيع أن تحمل مركبه . ولذلك فإن اعمال الموانئ ، والسدود الحجرية التي تمنع أمواج البحر ، وجميع أنواع التحسينات اللازمة للميناء لا تعني شيئا بالنسبة له ، وهو لهذا يعترض على دفع نصيبه من تكاليفها . وهو يقول انه كان دائما باستطاعته أن يبحر في هذه المياه ، فلماذا يدفع المال ليجعل من تلك الموانئ أماكن أكثر صلاحية وأمنا بالنسبة للاروبيين ، الذين يعملون كل ما في طاقتهم لكي يبعدوه عنها ؟

وقد لفتت نظري بشكل خاص احدى المواد المذكورة في انظمة الميناء ، والتي تنص على أنه ، بموجب قانون المراكب المحلية « لا يجوز لأي مواطن محلي أن يستخدم بحارا الا بعد أن يقابل ضابط الميناء ليتأكد هذا بأنه سيعمل بحارا حرا (أي ليس عبدا) » . كما انه لا يجوز أن يسافر أحد ، او يستخدم بحارا بدون رقابة السلطات ، كما أن قوائم البحارة وقوائم المسافرين على المراكب يجب أن تكون كاملة ودقيقة فهي تعتبر وثائق مهمة جدا . وقد فهمت أن جميع هذه الشروط لا تزال سارية المفعول ، وان القصد منها هو منع العرب من استخدام بعض السواحليين كبجارة اضافيين ، يسافرون معهم الى الجزيرة العربية بكل سرور ، ولكنهم يباعون هناك عبيدا . وقد تساءلت عما اذا كانت مثل هذه الشروط ما زالت ضرورية ، ولكن السلطات هناك كانت تؤمن بضرورتها . فقد أخبرني نجدي ، ان العمانيين (الصوريين) - الذي يلقي عليهم اللوم لكل خطأ يرتكب - ما زالوا يتاجرون بالعبيد ، اذا أمكنهم ذلك ، فما زالت للرقيق أسواق رائجة في عمان . ولذلك فهم لا يتورعون عن المتاجرة ببعض الافريقيين الاشداء ، اذا أمكنهم الحصول عليهم ، فلم تكن هناك صعوبة في بيعهم عبيدا . وعندما كنت في « لامو » سمعت عن حالة ، أكدوها لي ، من حالات تجارة الرقيق . فقد كان أحد السمايك ، التابعة لاحدى بلدان عمان ، يشق طريقه من احد المسارات الخلفية لينطلق الى عرض البحر ، واذا به يقابل قاربا صغيرا جدا فيه افريقيان ، فيعترض طريقه ويغرقه عن عمد ، ويسوق الافريقيين الى

الجزيرة العربية حيث يبيعهما عبيدا . وقد حدث هذا منذ مدة قصيرة فقط ولذلك فقد كان الافريقيون ما يزالون حذرين من المراكب العربية ، مع أنى من خلال خبرتي مع المراكب الكويتية ، لم ألاحظ أن أحدا حاول مرة واحدة أن يتعامل بهذه التجارة . وقد اعلمني نجدي أن من الصعب التخلص من رجل وبيعه رقيقا في الكويت ، فقد كان يكفي أن يذهب احدهم الى دار المعتمد البريطاني هناك ليصبح انسانا حرا . ولكنه طبعا لن يلاقي أية صعوبة في بيع عدد من الفتيات الفاتنات في الكويت لو أمكنه العثور عليهن . ولكن من أين يحصل على شحنة من هذا النوع ؟ فقد مضى عليه سنوات طوال وهو يحاول عبثا . وبموجب كلام نجدي ، فإن الكويتي لم يكن أبدا من تجار الرقيق ، فقد كان المتخصصون فيها هم المسقطيون ، والصوماليون ، وسكان الباطنة وساحل عمان المتصالح . ولعل ذلك صحيح ، فالكويتيون حديثو عهد بالتجارة مع شرقي افريقيا ، ولكن لو اتيحت لهم الفرصة ، لا أعتقد انهم كانوا سيختلفون عن العمانيين (السوريين) أو عن سواهم .

وكنت مرة في مكتب الشحن القائم على المرتفع المحاذي لرصيف التحميل ، فعثرت فيه على مجلد غريب يحتوي على معلومات كثيرة تعطينا فكرة عن كثير مما يجري على ظهر المراكب العربية والسواحلية والهندية . وكان هذا المجلد سجلا للحوادث . ومع أن مادته ، كأمثاله من السجلات ، لم تكن ممتعة للقارئ ، فقد جلست أقرأ بعض ما ورد فيه في صباح ذلك اليوم ، وأنا جالس في غرفة الجمر ك داخل مكتب الشحن ، انظر من خلال النوافذ المفتوحة الى الميناء القديم في الخارج ، حيث تتزاحم المراكب العمانية والكويتية والهندية والحضرية والفارسية وحيث ترى قوارب «لامو» آتية رائحة . ومن آن لآخر ، كنت أرى قاربا باجونيا محليا يندفع باتجاه احد المراكب مصحوبا بأنغام الموسيقى ودوي الطبول ، وبحارته يحملون الماء من البر الى مركب عماني راس بالقرب من مركبنا « فتح الخير » . بينما كنت أرى المركب القديم « بدري » ، وقد قطره أحد القوارب الى عرض البحر في الصباح الباكر ، يقف ساكنا على البعد بحيث ترى صورته في الماء الهادئ . فعلى الرغم من أن النسيم كان يهب معتدلا داخل الميناء ، لم يكن يبدو أن هناك أية نسمة ريح على الاطلاق في عرض البحر .

كان العمانيون على مركبهم يثيرون صخبا عاليا وهم يقرعون الطبول ويضربون المثلثات ، ثم يتوقفون جميعهم كل بضع دقائق ليصفقوا بأيديهم الضخمة ، فتصدر عنهم ضجة عظيمة تسمع في جميع أرجاء الميناء . وعلى الشاطئ كان بحارة جلبوت مسقطى يسحبون مركبهم في أثناء المد العالي ،

لكى يقف على الرمل عندما ينحسر الماء ، (فيقومون بتنظيفه وصيانتة فى وقت لاحق) • وكان هؤلاء يرقصون ويهزجون أيضا ، وكانت أصواتهم البعيدة تصلنى لطيفة مقبولة من خلال النوافذ العالية • وعلى رصيف التحميل والتنزيل ، كان عدد من الحمالين الافريقيين يجاهدون لحمل أكياس الملح ونقلها من مكانها • لقد كانوا مجموعة من الرجال الاشداء ، ذوى العضلات المفتولة ، والاجساد الرياضية الجميلة ، ولكنهم كانوا يقطرون عرقا بحيث يخيل للرائى أنهم قد خرجوا لتوهم من البحر • وكانوا كغيرهم يغنون ذلك الغناء الذى يخرج عميقا من الحناجر ، والذى كنت أسمعه من كل ناحية ، فيدلنى على أن هناك من يتعب ويشقى ليعيش ، لانه كان دائما مصاحبا للعمل الشاق • وفى الخارج كانت الشمس ترسل أشعتها الحارقة ، والسماء تزهو بصفائها الكامل الذى لا تعكره سحابة واحدة • بينما كان عدد من الركاب العرب يتأكدون من أمتعتهم فى الجو البارد داخل مكتب الجمارك • وبين الفينة والاخرى كان تاجر هندى يوقف هذه الاجراءات لفترة وجيزة ، لكى يحصل على توقيع أحد الموظفين على احدى الاوراق • لقد كان مكتب الجمارك ، ومكتب الشحن يداران ادارة حسنة ، وكان الهنود المسؤولون عنهما موظفين أكفيا مؤدبين ، يقدمون المساعدة حيث تلزم • وقد شاهدت صاحبنا الكاتب الصومالى ، الذى كان قد اعتلى مركبنا وهو فى حالة السكر الشديد ، ونخص علينا حفلتنا ، الا أنه حالما رآنى انفلت خارجا ، وهو يشعر بالحرج الشديد ، ولم أره بعد ذلك قط •

لنعد الآن الى سجل الحوادث • لقد كان هذا سجلا لجنوح المراكب أو انفلات صواربها أو أنواع أخرى من الخسائر ، وكلها مكتوبة بخط دقيق واضح كأنها حسابات تسجل فى الدفاتر الرسمية التى يحتفظ بها أحد التجار • الا أن تلك الروايات لم تكن تعطى القارئ الصورة الحقيقية للاحداث التى تذكرها فى ذلك السجل • ولذلك فقد كان من الصعب عليّ ، حتى وأنا جالس هناك ، وأمامى ذلك المنظر من المراكب المختلفة فى الخارج ، أن أتصور ، دون جهد كبير ، تلك الصراعات والاحزان والمآسى التى تذكرها رواية ذلك المجلد بطريقة باردة جامدة لا حياة فيها • وقد لفت نظرى التشابه الغريب بين كثير من تلك الحوادث ، فقد كان شيئا لا يصدق أن أقرأ عشرات المرات كيف كانت الريح القوية « تهب فجأة » ، أو كيف كانت الصخور « تبرز فجأة » فى أسفل المركب فتسبب تحطيمه وغرقه • الا أن بعض الروايات المقتضبة عن تحطم المراكب كانت ممتعة الى حد ما • تأمل مثلا قصة المركب اللاموى (١) المسمى « أمانة الله » ، والذى تذكر

(١) نسبة الى « لامو » ، الميناء المذكور سابقا على ساحل افريقيا الشرقى • انظر الخريطة ، ملحق رقم ٥ (المترجم) •

الرواية أنه كان مسافرا من ممباسا الى دار السلام . فبحسب شهادة التوخذة المأخوذة بعد أداء القسم ، « فجأة هبت عاصفة مدمرة على مركبنا وقذفت به الى الصخور » ، فتحطم وفقد ولم يعثر له على أثر . وكان يحمل شحنة تتألف من (٢٥٠) زكينة من الذرة ، وستة صناديق من الشمسيات . ويبدو أن كلا من بحارة المركب قد سبج الى الشاطئ وهو يحمل شمسية ، لانهم استطاعوا انقاذ عشر منها . وهناك أيضا حادثة المركب اللاموى « البنفسج » ، الذى كان يقوده التوخذة مبارك بن خميس ، والذى لقي نهاية مماثلة . فقد كان قد غادر لامو وعليه سبعة بحارة وراكب واحد ، قاصدا زنجبار فى الجنوب . وكانت عليه شحنة تتألف من (١٢٥) كيسا من الفول و (١٨) كيسا من « المونج » - الذى لا أعرف ما هو - وكان هذا المركب الصغير يسير بأمان الله ، على محاذاة الشاطئ قريبا من بلدة « كليفي » ، عندما « انجرف فجأة ، فاصطدم بالشعب المرجانية ، وانكسرت دفته ، كما انخلع لوحان من قاعه ، فأخذت المياه تتسرب الى داخله بسرعة » . وهكذا غرق المركب وضاع كلية مع حمولته ، حتى أنهم لم يستطيعوا انقاذ كيس واحد من البضاعة .

وتستمر الروايات على هذه الوتيرة ، وكلها تشير الى تغير مفاجئ فى الطقس فى موسم معروف بهدوئه، الى أن تصبح مملة ثقيلة على السمع . صحيح أن من الممكن أن المنطقة المجاورة للاندي وكليفي ، وحتى خارج ممباسا نفسها، يمكن أن تتولد فيها فى بعض المواسم تغيرات مناخية من الطقس السيئ ، الا أن من الممكن عادة أن يرى البحارة تلك التغيرات وهى قادمة اليهم من بعيد وأن يستعدوا لها . ولذلك فانه يخيل الى أن معظم تلك الحوادث كانت تنجم عن هبات قوية مفاجئة من الريح لا تستمر طويلا ، ولكنها فى أحيان كثيرة تستطيع أن تفرق المركب بالنظر الى الثقل غير الطبيعى للاشعة ، والى قرب المراكب الشديد من السواحل الخطرة ، بالاضافة الى ضعف المراقبة ، والاتكالية الزائدة عن الحد . وليس معنى هذا أن تلك المراكب كانت دائما تفرق بسبب تلك الهبات المفاجئة من الريح القوية . فالمركب اللاموى المدعو « أمير البحر مثلا ، كان يدخل ميناء ممباسا بكل هدوء ودون أية مشاكل ، واذا به فجأة يصطدم بحطام مركب قديم ، موجود فى منتصف الممر المؤدى الى الميناء تماما ، وكانت فى ذلك نهايته » . ولكن الحطام موجود هناك فى نفس المكان منذ مدة طويلة ، ومن المؤكد أن التوخذة كان يعرف كيف يتلافى الاصطدام به ، ولكن هذا هو ما حدث . ثم خذ مثلا آخر عن الحادث المؤسف الذى وقع للمركب الزنجبارى « فتح الخير » . فقد كان يمر فى البحر قادما من زنجبار فى طريقه الى « بمبا » فى حالة من الطقس السيئ ، « وفجأة هوى الصارى كله دفعة واحدة » . وهذا بالطبع يعتبر مصيبة اذا

حدث على أى مركب من أى نوع • الا أن النوخة تدارك الموقف وتمكن من الوصول الى معبسا بسلام •

ويذكر ذلك السجل أيضا حالات بعض المراكب التى اختفت ، ولم يعثر لها على أثر ، كما أنها لم تتوقف فى أى مكان ، وكل ما يعرف عنها أنها أبحرت من مكان معين ثم اختفت من الوجود كلية • وكان من الواضح أن حوادث الضياع والتحطم كثيرة بالنسبة للمراكب السواحلية الصغيرة ، ولكنى لم أعث فى السجل الا نادرا على حوادث وقعت للمراكب العربية الكبيرة • أما الهنود فكان لهم نصيبهم من الخسائر • فهناك مثلا قصة المركب الهندى المسمى « كالياناباسا » ، الذى كانت حمولته تبلغ (١٧٨) طنا ، وكان يقوده القبطان موسى أحمد • فقد انطلق هذا من ميناء « باسنى » فى الهند بحمولة تتألف من (٢٧٠٠) حصيرة هندية ، قاصدا زنجبار • وبعد شهر من اقلاعه ظهر خرق فى أحد جوانبه ، وبدأ الماء يتسرب الى داخله • وهذا ما يقوله القبطان موسى فى شهادته الرسمية ، حسبما وردت فى السجل : « لم نتمكن من الوصول الى مكان تسرب الماء بسبب الحمولة ، بينما أخذ المركب يفرق بسرعة ولذلك فقد اضطررنا لهجره ، والتجديف فى قارب النجاة مدة ثلاثة أيام ، وصلنا بعدها سالمين الى مالندى • وقد جلبت معى خريطة الهند بدلا من خريطة افريقيا التى فقدت منى » •

لقد أعجبتني صورة القبطان موسى ، وهو على ظهر مركبه الآخذ بالفرق يبحث عن خريطة افريقيا ، فلا يجدها ، فيأخذ معه خريطة الهند بدلا منها ، ربما على أساس أن أية خريطة أفضل من لا شيء • ولكنه كان على مسافة بعيدة من الهند ، طالما كان قد مضى عليه حوالى شهر منذ اقلاعه • وهو يضيف فى شهادته ، فيقول انه صحب معه الى قارب النجاة قدرين من الماء العذب ، وبوصلة وستة أرطال من الحنطة بالاضافة الى المجاذيف • وقد فعل خيرا بأخذه المجاذيف معه • وقد أكد هذا الكلام أحد البحارة ، المدعو « عثمان باكو » ، وأضاف أنهم لم يحتاجوا لأكثر من ربع ساعة لانزال القارب الى الماء ، وأن ماء البحر كان قد بلغ سطح المركب عندما بدأوا بمغادرته • ولكنه يعترف بأنه لم يكن فى قارب النجاة أية مؤن أو مياه صالحة للشرب • واستطيع أن يؤكد ، من خبرتي الطويلة ، أن هذه القوارب لا تكون جاهزة أبدا ، لان المسلم المؤمن بالقضاء والقدر ، سواء كان عربيا أم هنديا ، لا يفكر أبدا بشيء من هذا القبيل • وتضيف الرواية بأن البحارة لم يكونوا قد شاهدوا البر ، ولكنهم كانوا يعلمون بأنهم اذا وصلوا السير باتجاه الغرب فانهم ، عاجلا أم آجلا ، سيصلون ساحل افريقيا بكل تأكيد • وكانت روايتهم عادية جدا لا يبدو فيها التأثير

الشديد ، مع أنهم قضوا ثلاثة أيام بلياليها في قارب مفتوح ، معرض لحرارة الشمس الشديدة في النهار ولرطوبة الجو في الليل . ولكنهم كانوا متعودين على ذلك ، فلم ينزعجوا انزعاجا شديدا . استمع اليهم يصفون تلك الرحلة المخيفة في قارب النجاة فيقولون بكل بساطة : « وقد يمينا وجهنا صوب الغرب ، ووصلنا البر في اليوم الثالث » . ويضيف عثمان قائلا انهم لم يكونوا يحملون شيئا من المال . وفي نهاية شهادته يمكنك أن ترى بصمة ابهامه ، كما ترى بصمة ابهام القبطان موسى على شهادته أيضا .

ثم هناك أيضا قصة المركب الهندي المسمى « دين جانجاپيرباسا » الذي كان يقوده القبطان محمد حاجي جا محمد . فقد كانت حمولته (١٣٥) طنا ، وكان على ظهره عشرة من الملاحين . وتبدأ الرواية هكذا . يقول القبطان : « في اليوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٣٩ ، أقلعنا أنا وعشرة من البحارة الاقوياء من ميناء منجالور قاصدين ممباسا ، ونحن نحمل (٦٠٠٠ ر) آجرة مستوية ، وصفيحتين من الفلفل المخلل ، لنوصلها الى شركة ممباسا للمواد الثقيلة المحدودة . وكان الطقس حسنا حتى اليوم الثاني والعشرين ، عندما اشتد هبوب الريح ، وارتفعت أمواج البحر وأصبح الطقس عاصفا . » ، مما اضطرهم لانزال الشراع وترك المركب ينجرف مع الريح . وكانت هذه هي الطريقة العادية التي تتبعها المراكب الهندية والعربية في حالة مقابلتها للطقس السيء . « واستمر المركب بالانجراف والاهتزاز بعنف ، بحيث بدأت أمواج البحر تغطي سطحه » . وقد آمن القبطان بأن المركب على وشك الفرق ، ولذلك اضطر أن يلقي في البحر بـ (١٢٠٠٠) آجرة ، وهكذا أنقذ الموقف ، واستطاع المركب أن ينجو من العاصفة . وعندما هدا الجو تابع المركب سيره باتجاه ممباسا التي وصلها في الثامن من فبراير مع بقية الحمولة .

لقد كان سجل الحوادث هذا كتابا ممتعا . وقد لاحظت أنه على الرغم من كثرة الحوادث ، كان فقدان الرجال قليلا . وقد فسر كاتب الشحن ذلك بقوله ان جميع الملاحين سباحون ماهرون ، وقد خيل الي أنه لا مناص لهم من أن يكونوا كذلك . وعندما رفعت عيني عن الكتاب ، نظرت ثانية الى الخارج ، وتأملت المنظر المليء بالحركة والحياة في ذلك الميناء القديم ، حيث كانت القوارب تمر من بين المراكب العربية والهندية ، وبحارتها يجدفون وهم يصدحون بالغناء ، وحيث كانت أصوات قرع الطبول والغناء والاهازيج والموسيقى تختلط بأصوات دق الارض بالاقدام والتصفيق بالايدي القوية . وأخذت أتساءل كم من هذه المراكب العظيمة مرت بعواصف مدمرة ، كتلك المذكورة في السجل ، فاضطر قباطنتها لانزال

الاشرعة وتركها تنجرف مع الريح على غير هدى ، وهي في طريقها من شواطئ الجزيرة العربية ، وكم من اولئك الملاحين الذين يكدحون ويهزجون بلا انقطاع قد اضطر الى التجديف في مركب النجاة ثلاثة ايام متجها الى الغرب ، وليس معه الا خريطة للهند يحاول الاهتداء بها دون جدوى .

وكان كاتب الشحن ينظر الى الخارج ايضا ، وكان شابا هنديا لطيفا ، فبادرني قائلا : « انها حياة غريبة ، أليس كذلك ؟ » .

لقد كانت الاحتفالات على ظهر المركب مسلية ، كما كانت هذه الروايات عن المراكب المنكوبة . الا اننا كنا قد تخلصنا من ركابنا ، دون أن نتمكن من بيع شيء من الملح . وبعد انقضاء خمسة ايام أعلن نجدي اننا مبحرون الى زنجبار في الغد . ولكننا لم نفعل ذلك بالطبع ، بل أقمنا بعد ثلاثة ايام أخرى .

الفصل العاشر

السفر إلى زنجبار

السفر الى زنجبار

وبعد ممباسا تأتي زنجبار . هذا هو الطريق الذي كانت تسلكه معظم المراكب العربية في رحلاتها الى افريقيا ، وكان هذا طريقنا ايضا . وهكذا انسللنا من ممباسا بهدوء في فجر أحد الايام ، ومخزن المركب موسوق بالملح ، ومعنا ثلاثون راكبا جديدا ، قاصدين زنجبار . ومع أن عددنا جميعا كان يصل الى ستين رجلا ، الا أن المركب كان يبدو مهجورا تقريبا ، ولذلك كانت الحياة على ظهره نعمة من نعم السماء . وكان ركابنا الجدد يتألفون من العرب الحضارمة المسافرين الى الجنوب في مهام تجارية ، بالإضافة الى بعض سكان ممباسا الذين كانوا يقومون برحلة للمتعة ، ومجموعة صغيرة من التجار العمانيين الذين كانوا يبدو كأنهم خبراء في تجارة الحشيش . وكان هؤلاء العمانيون يتجمعون حول سدة النوخدة في المؤخرة ، يستمعون الى حديث نجدي ، الذي أصبحت أشك أنه لم يأخذهم على مركبه الا لكي يكونوا من المستمعين لأحاديثه . فقد كانوا يتعلقون حوله وينصتوا له بكل احترام واهجاب ، ولا يتوانون عن ابداء ذلك الاعجاب بترديدهم كلمة « طيب » بين الفينة والفينة .

وما أن حل المساء حتى كنا نعبّر الممر الواقع بين جزيرة بمبا - التي يسميها العرب الجزيرة الخضراء - وبين البر ، في أحوال جوية ممتازة ، ونسيم مؤات للابحار . وكنا نبحر في وسط الممر تقريبا ، فلم تكن ننوي التوقف في الجزيرة ، ولذلك فقد ظللنا بعيدين عنها . وفيما كنا نتابع سيرنا ، ونقترب تدريجيا من زنجبار التي ما فتئت بغيتنا طوال هذه المدة الطويلة ، دب النشاط والحماس فجأة على ظهر المركب ، وأصبح البحارة يتسابقون للقيام بواجباتهم ، وقد التمتعت عيونهم وزادت سرعتهم وأشدت غناؤهم أكثر من أي وقت مضى . أما وقد غادر المركب أولئك الركاب الذين كانوا رفاقنا من المكلا وشعر ، فقد كان هناك متسع للرقص على سطح المركب ثانية . ولم يضع البحارة الفرصة ، فرقصوا وغنوا كما يحلو لهم ، كأنهم يحاولون التعويض عن الوقت الضائع . فكلما كانوا ينتهون من أداء جزء صغير من أعمالهم ، كانوا يستأنفون الرقص والتصفيق وخبط الأرض بأقدامهم القاسية بموجب ايقاع معروف . وقد لاحظت لدى البحارة شعورا بالتشوق وجوا من الحماس لم أعهدهما لديمهم من قبل . وكان من الواضح أن « زنجبار » ، هذا المكان الذي يعتبر ملاذا للمسافرين الى ساحل افريقيا

الشرقي ، كان يعني الشيء الكثير بالنسبة لهم ، لا مجرد نقطة النهاية بالنسبة لرحلتهم البحرية . فهم يعتبرون هذا المكان نقطة العودة الى الوطن ، حتى لو كانوا سيواصلون رحلتهم الى دلتا نهر الروفيجي لتحميل البضائع من هناك . ولكنني فهمت أن الامل في التمتع بفتيات زنجبار كان اهم بالنسبة لهم من فكرة العودة السريعة الى الوطن . فقد أخبروني بأن هؤلاء الفتيات هن أفضل ما يمكن العثور عليه في موانئ المحيط الهندي قاطبة ، وكان يتوافر في زنجبار عدد كاف منهن ممن عندهن الاستعداد لاشباع شهوات أولئك العرب الأشداء ، المكتملي الرجولة ، الذين يقذف بهم البحر من آن لآخر .

ان الطريق من ممباسا الى زنجبار قصير وسهل نسبيا ، ففي صباح اليوم الثاني كنا قبالة الطرف الشمالي من جزيرة زنجبار . وكان الفجر رائعا ، فريدا من نوعه ، لا يعرفه الا من يجد نفسه في وسط المحيط الهندي ، كما كان المركب ، وهو يمخر الماء برشاقة وقوة ، في أفضل حالاته . وكان لترتيل المصلين وهم يؤدون صلاة الصبح وقع موسيقي جميل في أذني ، كما كان ترديد المصلين لكلمة « آمين » بشيرا بقدم الصباح الجميل . ولاول مرة ، كان المركب ينساب بهدوء كامل ، من غير أي اهتزاز على الاطلاق سوى الاهتزاز الناتج عن حركة سيره العادية ، فقد كان الهواء يهب من خلفنا ، ولم تكن هناك أية أمواج قادرة على هزه وتمكير انسيابه . وكانت الاسماك الطائرة تتطاير مبتعدة عن هيكل المركب وهو يمخر عباب الماء ، كما كنا نشاهد شواطئ جزيرة « تومباتو » المغطاة بالغابات ونحن نمر قبالتها . وكانت الطبول تدفأ على مقربة من نار الموقد استمداا للوصول ، فقد كان من الواجب أن ندخل زنجبار ونحن نرقص ونقرع الطبول بحماس وقوة أكبر من أي وقت مضى ، بل وأفضل مما فعلنا عندما وصلنا الى ممباسا مؤخرا .

كان النهار رائعا ، وحتى طعام الافطار ، الذي كان يتألف كالمادة من الخبز الفطير ، كان مذاقه في ذلك الصباح الجميل أشهى من أي وقت مضى . وعلى سطح المركب ، وبعد أن انتهى البعارة والركاب من تأدية صلاتهم ، ساد الهدوء والسكينة كما لم يحصل خلال الرحلة كلها من قبل . وكانت بعض قوارب السواحليين ذات الاذرع المزدوجة تمر بنا بسرعة وهي تحمل الصيادين ، كما كنا ، كلما تابعنا السير ، نكتشف أجزاء جميلة جديدة من الشاطئ الطويل . لقد كانت زنجبار أرضا مستوية جميلة مغطاة بالاشجار ، تحيط بها شواطئ رملية ذهبية اللون .

وبينما كنا نقرب من الجزيرة في ذلك الصباح المشرق الجميل ،

عدت بذاكرتي الى الورداء وبدأت اتصور تلك السفن العظيمة التي مرت من الطريق ذاته ، وذلك التاريخ البحري الذي تم صنعه في تلك المياه .
فقد مر العرب من هنا ، والفرس والهنود والصينيون وحتى الماليزيون ، قبل أن تعيدهم المنافسة العربية العنيفة الى مياهم ، كما مر من هنا فاسكودا جاما البرتغالي ، وبعده سائر المغامرين الاوروبيين الآخرين . وكنا خلال الليل قد مررنا بذلك الحاجز المرجاني القريب من ساحل جزيرة بمبا ، حيث اضطر فاسكودا جاما أن يهجر سفينته المسماة « سان رفايل » ، اثناء رحلته المشهورة الى الهند في أواخر القرن الخامس عشر . فقد احتكت تلك السفينة بالشعب المرجانية المقابلة لجزيرة بمبا ، وتركت هناك لعدم توافر العدد الكافي من الملاحين اللازمين للبحار والعودة بها الى الوطن . ويبدو أنها لم تكن قد أصيبت بأضرار كبيرة يتعذر اصلاحها ، الا أن فاسكودا جاما كان في تلك المرحلة من رحلته قد فقد عددا كبيرا من رجاله ، ولذلك لم يكن باستطاعته أن يعود بسفنه الثلاث الى الوطن . فما كان منه الا أن أحرق « سان رفايل » ، ونقل بحارتها الى السفينتين الاخريين الباقيتين .

ولم يكن نجدي معجبا بفاسكودا جاما أو برحلته ، وكان له فيها رأي مخنف عن رأي الاوروبيين فهو ، كغيره من القباطنة العرب الذين كان لديهم المام واسع وان لم يكن دقيقا بتاريخ المحيط الهندي ، يعتقد أنه كان من الافضل للمالم بأسره لو أن ذلك الملاح البرتغالي لم يحرق مركبا واحدا فقط ، بل أحرق مراكبه جميعا على ذلك الحاجز المرجاني قبالة جزيرة بمبا ، وأحرق نفسه معها أيضا . فلم يكن نجدي يرى في رحلة فاسكودا جاما ما يلفت النظر على الاطلاق ، بل ويرى فيها كثيرا مما يؤسف له . فهو يرى أن الرجل لم يكن قبطانا بل ولا بحارا عاديا . أما الرحلة ، فان نجدي ينظر اليها كضربة من ضربات الحظ ، التي أحسن استغلالها ، وبولغ في الدعاية لها مبالغة كبيرة . كما يعتقد بأن تلك الرحلة الى الهند لم تكن لتنجح أبدا ، لو لم يستخدم فيها الأدلاء العرب ، الذين أرغموا على ارشاد الرجل تحت تهديد السلاح . وكان نجدي والبحارة الآخرون يتحدثون عن رحلة فاسكودا جاما ، وكأنها حدثت منذ مدة قصيرة فقط . ولم يكن الرجل الذي يكرمونه هو دا جاما أو أي برتغالي آخر ، بل ذلك النوخذة العربي المشهور ابن ماجد ، الذي يقولون أنه ارشد البرتغالي في رحلته من مالندي في شرق افريقيا الى كاليكوت على ساحل الهند الغربي . وكانوا سيمجدون ابن ماجد أكثر مما يفعلون حاليا ، لو أنه جعل مركب داجاما ينغرز في الرمال الضحلة على شواطئ جزر لكاديف (١) . وهم ما زالوا لا يفهمون

(١) انظر الخريطة في الملحق رقم ٥ (المترجم) .

لماذا لم يفعل ابن ماجد ذلك فعلا ، فقد كان باستطاعته أن يقضي على تلك المراكب بكل سهولة . أما ابن ماجد فقد كان ، بحسب رواية نجدي ، هربيا من مكان ما على ساحل الخليج العربي ، ربما كان ساحل الاحساء . وكان ملاحا مشهورا ، الا أن الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي أنه ساعد فاسكودا حاما في رحلته من ساحل افريقيا الى كاليكوت في الهند . ولكنه ، بحسب قول نجدي ، كان مرغما على ذلك ، فقد صدف أن كان في مدينة مالندي عندما وصلها البرتغاليون ، الذين أخذوا يزعمون شيخها وسكانها ازعاجا مستمرا ، ولم يكونوا ليغادروها لو لم يعرض عليهم حاكمها مرشدا ممتازا ، يدلهم على طريق الهند . ولم يكن ذلك المرشد الا ابن ماجد نفسه .

وقد خطر لي أن « نجدي » نفسه قد يجد صعوبة في قيادة مركب من مالندي الى كاليكوت حتى في هذه الايام ، لان خط السير يمتد عبر مئات الاميال في عرض البحر بعيدا عن الشواطىء . ولم يكن نجدي يعرف الطريق عبر المحيطات ، بل كان خبيرا بطرق السير بمحاذاة الشواطىء . ولكني عندما سألته ان كان يستطيع القيام بتلك الرحلة ، أجاب بالاجاب بدون تردد ، ولكنه أضاف انه سيضطر لاستئجار « معلم » هندي ليقيس له مواقع الشمس وحركتها . وكان نجدي يأسف لجهل النواخذة العرب في هذه الايام بالمعلومات الملاحية الضرورية ، ولا يستطيع مقارنتهم بالملاحين العرب القدماء . فلم يعد باستطاعة أحد من نواخذة الخليج العربي ، من أمثال نجدي ، أن يبحر بمركبه في رحلة الى الصين أو الملايو أو سنغافورة . بل لم يعد باستطاعته ، دون أن يستأجر دليلا هنديا ، أن يقوم بنقل حمولة من الحجاج من كاليكوت الى جدة ، كما كان عليه ، عند القيام برحلاته الافريقية ، أن يظل قريبا من الشاطئ طوال الوقت .

ولكن الحال لم تكن دائما على هذا الشكل ، ونجدي يعرف ذلك معرفة تامة . ففي أيام أمجاد الملاحة العربية . كانت مراكب العرب تجوب البحار الشرقية جميعها . ولكن الوضع قد تغير الآن ، وربما لم يتمكن أي منها من الدوران حول الطرف الجنوبي من جزيرة سيلان منذ أكثر من نصف قرن من الزمن . فقد ضاعت أساليب السفر القديمة ، والأدوات الملاحية القديمة ، والمعلومات الرياضية القديمة التي برع فيها العرب الى حد كبير ، ولم يعوض عنها بشيء سوى بعض البوصلات التالفة ، المشتراة من إحدى أكرام الخردة في بومباي ، وبعض الخرائط البحرية القديمة العهد ، التي تحتوي على كثير من المعلومات الخاطئة . ومع ذلك فما زال العرب يسافرون بمراكبهم ، رغم أنهم فقدوا كثيرا من معلوماتهم وكثيرا من أمجادهم . ولكن

رحلاتهم أصبحت قاصرة في الغالب على التجارة الساحلية والتهريب . ويعزو نجدي تخلص الملاحة العربية وتقليصها الى تراخي العرب وضعفهم ، والى تلك المنافسة التجارية القاسية ، غير المتكافئة ، التي يستخدمها الاوروبيون ضدهم .

وكان هذا كله موضع الحديث الممتع الذي كان يدور مع نجدي في صباح ذلك اليوم الجميل ، ومركبنا ينساب بلطف بمحاذاة جزيرة زنجبار . وقد كان بإمكانني أن اطيل الحديث معه ، وأن استمع اليه بصبر أكثر ، لو لم يكن دائما يصر على انه على صواب ، وان ما يقوله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه . فهو يعتقد اعتقادا جازما بأن الاوروبيين شعب مقضى عليه بالاضمحلال ، وأنهم من الغباء بحيث لا يستحقون أن يكثر بهم الانسان ، وأنهم لم يعودوا حتى من « أهل الكتاب » ، لان من الواضح أنهم لم يعودوا يتبعون ما جاء في ذلك الكتاب ، وان الميزة الوحيدة التي انفردوا بها كانت تقتصر على تفوقهم المالي والعسكري ، وهو التفوق الذي سمح به الله تعالى ، لحكمة لا يعلمها الا هو . فربما كانت هذه هي طريقته في تلقين العرب المتراخين المتخاذلين درسا لا ينسونه ، وفي تزويد الاوروبيين بوسيلة يقضون بها على أنفسهم . ولكن الله واسع العلم ، عظيم الحكمة ، ولا بد أنه قد قرر أن أيام الاوروبيين قد أصبحت معدودة ، وأن أمجاد العرب الاولى ستعود عما قريب . وعندما كان نجدي يصل الى مثل هذه الخاتمة ، كنت تستطيع أن تسمع الجميع ، بمن فيهم العمانيون وحمد ابن سالم ، يرددون كلمة « طيب » ، تأييدا لما يسمعون . أما انا فقد كنت ألزم الصمت .

وكان نجدي يحب أن يردد القول بأن العرب ينظرون الى رأس الرجاء الصالح كنوع من الحماية الالهية للعرب في مياههم الشرقية . فهناك هذا الرأس في الجنوب بعواصفه الهوجاء ، وهناك البحر الاحمر بشعابه المرجانية ومخاطره الاخرى من جهة الشمال ، وهناك مجاهل افريقيا الشاسعة المخيفة ، وهناك الصحراء ومخاطر طرق القوافل عبر الجزيرة العربية الى الخليج العربي شرقا - جميع هذه الاشياء ، في نظر نجدي ، هي الحصون التي خلقها الله في وجه الكفرة . وعندما سقطت هذه الحصون ، كان ذلك نوعا من العقاب الالهى للعرب على لينهم وتخاذلهم ، أولئك العرب الذين كانوا أسيادا غير منازعين على مياه المحيط الهندي من القرن السادس الى القرن السادس عشر ، فجمعوا الثروات الطائلة التي مع الاسف ، جعلت حياتهم هينة لينية ، فزالت عن الرجال صلابتهم وخشونتهم ، وكانت في ذلك نهايتهم التي نشهدا هذه الايام . لقد مدوا سيطرتهم على مساحات شاسعة ، وامتدت

مستوطناتهم من زنجبار الى الفلبين ، ومن جاوا الى كانتون ، ومن ساحل
ملابار الى السودان ، ومن سيام الى مندلاي ، ومن موزمبيق الى ملكا . أما
الآن فان الكفرة والنصارى يقيمون امبراطوريات اوسع بمراحل ، ولكنهم
هم أيضا ستزول دولتهم عما قريب ، وتعود الى العرب تلك الحصون التي
كانت تحميهم دائما ، وتعود المراكب الشراعية وحدها سيدة البحار الشرقية ،
وبمشيئة الله ، فان موعد عقاب الكفرة قد أصبح قريبا .

هذا ما كان نجدى يتحدث به يوما بعد يوم . فقد كانت فلسفته كلها
وحججه جميعها ، كما كانت آماله وأحلامه جميعها ، وأراؤه بأسرها تستند
على القدريّة وعلى الايمان برحمة الله الواسعة ، (وفي رأيه ان الله لم يكن
يتكلم أو يفهم الا اللغة العربية) . وقد كنت أغبط نجدى على آرائه
ونظرياته فقد كانت تمنحه نعمة الرضى والقناعة ، لأنى شخصيا لم تكن لدى
أية آراء أرضى عنها رضاء كاملا مثله .

وفى هذه الاثناء كان الصباح قد انتصف ، وكان البحارة يقومون على
سطح المركب بأعمال كثيرة جدا تزيد عما سبق أن رأيت أحدا يقوم بها على
ظهر أي مركب عربي . فقد كان خليل النجار وزمرته يقومون بدهن المركب
الجديد « عفرة » بزيت السمك (١) ، فكانت تصدر منه رائحة فظيعة . ولم
يكن هذا المركب قد بيع فى لامو أو ممباسا ، الا أن نجدى كان يأمل أن يبيعه
فى زنجبار بسعر جيد . لقد كان المركب جديدا جميلا الشكل ، قاعدته
ملساء ، وله رونق وبهاء . وكان من المؤسف أن يطلى بزيت السمك بدلا من
أن يدهن بالطلاء المادي . وكان الثمن المطلوب ما زال ألف شلن وهو يشمل
المركب كاملا مع الصاري والشرع ومرساة واحدة .

وكان حسن ، قائد الدفة ، ينظف الدفة النحاسية للمرة الاولى منذ أن
غادرنا موقاديشو كما كان عريف البحارة وبحارته يفركون سطح المؤخرة
بأيديهم المجردة وهم راكعون على ركبهم . فلم يكن فى المركب مكنسة أو

(١) زيت السمك (أو الصل) هو دهن السمك ، ويستخرج من نوع من السمك هو العوم
(السردين) . وكانت سيحوت ، وبقية أجزاء ساحل المهرة هي المصادر الرئيسية له ،
وذلك لكثرة هذا السمك هناك . وكان ما يصاد منه يوضع بكميات كبيرة على أرض
صخرية مسطحة ، وتحفر فى المكان الواطئ قريبا منها حفرة كبيرة . ثم يوضع على
السمك غطاء ثم صخور وأثقال . وبعد أيام ، وبفضل حرارة الشمس الشديدة ، يسيل
من السمك هذا الدهن الى الحفرة ويجمع من هناك ، ويباع الى سفن الخليج معبأ فى
صفائح أو براميل . ويستخدم لدهن المراكب ، وخزانات المياه أيضا . (المترجم
عن احمد البشر الرومى) .

فرشاة واحدة • أما حمد بن سالم ، الذي لم يكن قد غمض له جفن طوال الليل ، وعبدالله ، شقيق نجدي ، الذي لم يكن مستيقظا خلال الليل ، فقد كانا نائمين في ظل الشراع الصغير ، بينما كان اسماعيل الموسيقي يعزف بعض الاغان على قيثارته ، أسفل المؤخرة ، وجاسم الطباخ يطبخ بعض السمك المجلوب من حيفون ، وعلى سطح موقده كانت الطبول ملقاة ، لتجف في حرارة الشمس ، قبل أن تسخن على النار في وقت لاحق •

كان قتال زنجبار مكانا جميلا • وكنا في هذه الاثناء قد اقتربنا من المدينة نفسها فوجدنا أنفسنا بين اسطول مهيب من المراكب العربية والسواحلية الصغيرة والكبيرة المتجهة الى الميناء • ومن حولنا كانت آخر القوارب المزدوجة الاذرع تمر عائدة وهي محملة بالصيد السمين • كما أدركنا بغلة هندية كبيرة تسير بتثاقل وتهتز اهتزازا كبيرا ، ، ربما لانها كانت خفيفة الوزن جدا • وقد لاحظت أن رسوما معقدة كانت محفورة على مؤخرتها الضخمة فجعلتها تبدو جميلة أخاذة • وكنا قريبين جدا منها حتى أنه كان باستطاعتنا أن نرى من خلال نوافذها ما في قمرتها الكبيرة من جرار السمن المعلقة على الجدران ومن الاشياء الغريبة الاخرى الموجودة في السلال • وكان يرفرف على مؤخرتها علم حريري ذو خطوط حمراء وبيضاء كبيرة جدا • وقد أخبرني نجدي أن هذه البغلة من صنع ميناء « بورباندار » في الهند ، واتفق معي على أنها مركب جيد ، الا أنه قال ان المراكب العربية افضل منها ، رغم علمه الأكيد كبحار خبير ، أن هذا الكلام غير صحيح ، ولكنه لم يكن يطيق أن يرى أحد عيبا في أي شيء عربي • صحيح أن مركبنا كان أفضل من تلك البغلة الهندية من حيث انسيابه وسرعته ، فقد استطعنا أن نسبقها بكل سهولة رغم خفتها هي وثقل حمولتنا نحن • ولكنني كنت واثقا من أن البغلة الهندية أقوى بكثير ، ولو خيرت أن أكون في أحدهما في حالة حدوث اصطدام مثلا ، لفضلت البغلة الهندية بدون تردد •

وقبل انتصاف النهار لاحت لنا مدينة زنجبار، ونحن نبحر في الممر الواقع بين الشعاب المرجانية على مقربة من بيت لفنجستون (١) ، وطبولنا تقرر ، وبحارتنا متجمعون على مقدمة المركب يصدحون بالغناء ، وعلم الكويت الاحمر يرفرف خفاقا على ساريته في المؤخرة • فقد كنا في ذلك اليوم نرفع علما

(١) لفنجستون David Livingstone (١٨١٣ - ١٨٧٣) هو المبشر والمكتشف الاسكتلندي المعروف برحلاته في افريقيا التي قطعها من الغرب الى الشرق ، مكتشفا شلالات فكتوريا ومكتشفا حوض بحيرة ملاوي ، ومنايع نهر الكونغو • وقد كرس حياته للقضاء على تجارة الرقيق في افريقيا • (المترجم) •

خاصا ، علما مصنوعا من الحرير الاحمر ، وقد طرزت عليه بالحروف العربية البيضاء كلمة « كويت » ، وتحت ذلك مباشرة ذلك النص القرآني المعروف الذي يجب أن يزين كل علم عربي محترم : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وكان نجدى يشعر بالفخر والاعتزاز ويبدو ذلك واضحا عليه كلما رفعنا ذلك العلم . وواقع الحال أننا لم نفعل ذلك خلال رحلتنا الطويلة الا مرتين : مرة ونحن ندخل زنجبار اليوم ، ومرة أخرى عند عودتنا سالمين الى ميناء الكويت . ولم أر مركبا كويتيا آخر يرفع علما بمثل هذا الجمال ، كما أن علمنا العادي الذي كنا ننشره في الاماكن الاخرى ، لم يكن سوى قطعة من الكتان الاحمر ، طولها حوالي اثني عشر قدما ، وعرضها ثلاثة أقدام ، مكتوب عليها كلمة « كويت » بحروف عربية بسيطة .

كان المنظر أخذا ، ومركبنا ينساب بهدوء وسرعة أمام النسيم ، الذي أخذ ينشط الان ، متجها الى الشاطئ الجميل المحفوف بأشجار جوز الهند . وكان المركب يبدو متجها الى الشاطئ مباشرة ، الا أنه بعد قليل أخذ ينحرف انحرافا واسعا لكي يتجه نحو مرساه . وكان هناك في الميناء اسطول عظيم من المراكب المختلفة التي رفع كثير منها أعلامه تحية للمراكب الفارسية والعمانية والهندية والكويتية التي كانت تدخل الميناء سوية . وكان البحر أزرق صافيا ، بينما كانت ابنية زنجبار تلمع في ذلك الحر الشديد ، فتكون خلفية جميلة كأنها صف من المراكب قد نشرت أشعتها جميعا . وسرعان ما أخذنا نصبح مسارنا ونتجه في آخر جزء من رحلتنا هذه الى مكان رسونا . ولكني لاحظت أن الميناء كان مزدحما بالمراكب ازدهاما كبيرا لدرجة أنني لم أكن اتصور كيف سنتدبر أمرنا ونجد مكانا نرسو فيه في ذلك الزحام الشديد .

وباقترابنا من المرسى بدأت معالم المدينة تتضح . بدأت تلك الابنية التي كانت تلمع وتتراقص في الحر الشديد والسديم الناتج عنه ، تتخذ شكلها الطبيعي الواقعي ، وبدأ للعيان قصر السلطان الابيض الضخم على حقيقته ، فكان أصغر واقبح مما تصورنا . كما توقفت البيوت الاخرى عن اللمعان والتراقص في النور الساطع ، الذي كانت الشمس ترسله من اشعتها الحارقة ، فظهرت لنا تلك البيوت ذات الاسطح المغطاة بالقرميد الاحمر ، وهي تمتد في صفوف منتظمة على امتداد الشاطئ . كما كنا نرى على القرب مراكب كبيرة وصغيرة من جميع الاصناف ، وهي واقفة على الشاطئ الرمل لتجفف وتنظف وتصلح . وكان باستطاعتنا ، عندما يهدأ غمام ملاحينا قليلا ، أن نسمع أغاني بحارة تلك المراكب وهم يقومون باصلاحها ، كما كان بإمكاننا أن نسمع الضجة العامة الصادرة عن المراكب الاخرى الراسية في الميناء والناتجة عن قرع الصوريين لطبولهم ، ودق العمانيين اسطح المراكب بأقدامهم الصلبة العارية ،

وترديد السواحليين لاغانهم وأهازيجهم، وعزف أهل «لامو» على كماناتهم وضرب الباطنيين على مثلثاتهم* وما زلنا نتابع سيرنا باتجاه المرسى المزدحم بالراكب، الذي لم أكن أرى فيه فجوة واحدة نستطيع ولوجها* فقد كانت المراكب مصطفة أمامنا كأنها اسطول حربي مستعد للقائنا وقتالنا، بل كأنها سد منيع مؤلف من ألواح الخشب المطلية بالزيت، اللامعة تحت أشعة الشمس، وكلها ترفع الاعلام الحمراء، ويشع من بعضها النور المنعكس على أدواتها النحاسية* وقد كانت دفتنا النحاسية النظيفة تتلألأ أيضا بينما كان نجدي وحمد بن سالم يرتديان أفضل ملابسهما* فقد كان نجدي يرتدي عقاله المفضل، الذي فيه ثنية على شكل نصف دائرة من الامام - وربما كان هذا احدث زى فى الكويت -، وكان الركاب يقفون هنا وهناك، وهم يرتدون أفضل ملابسهم أيضا، يتفرجون جميعهم على المنظر الجميل* وكان عدد من العمانيين بأثوابهم الداكنة الطويلة وعمائمهم المطرزة، يقفون على سطح المؤخرة وهم يحدقون في شيء ما باهتمام شديد* وقد لاحظت أن اثنين منهم كانا يخبئان رزما صغيرة داخل عباءتيهما*

وفى هذه الاثناء لم ينقطع بحارتنا عن الهزج والغناء، وكانوا يقرعون الطبول بشكل لم أر مثله من قبل قط، يقوذهم فى ذلك عريفهم بنشوة عارمة كانت ظاهرة على قسماات وجهة الاسود بوضوح تام* وقد واصلوا غناءهم دون انقطاع أبدا، كما واصلوا قرع الطبول والدقوف* وكانوا يحدثون ضجة هائلة جدا، حتى أنه لم يكن بإمكانهم ان يسمعوا أية أوامر تصدر اليهم* وعلى الرغم من انهم كانوا يهزجون ويرقصون على اقصى مقدمة المركب، الا أن الاصوات والضجة التي كانوا يحدثونها كانت تمنع حتى قائد الدفة، القريب جدا من نجدي، من سماع أوامره، حتى عندما كان حمد بن سالم يرددها بصوت عال جدا* وكنا قد انزلنا الشراع الصغير من قبل، وان كانت العارضة مازالت قائمة، اما الشراع الرئيسي فقد كان لا يزال مربوطا بأعلى الصاري وكانت الريح الصاعدة قليلا تنفخ فيه فتملأه بالهواء* وكنا نسير بسرعة تقدر بثمانى عقد وهانحن قد اصبحنا مقابل المرسى تماما، ومقدمة مركبنا تشق عباب اليم*

وهنا يصيح نجدي، وهو يقف على القارب القريب من مؤخرة المركب: «قليل الى اليسار» فيردد حمد بن سالم أمره بصوت عال، وهو يقف على مقربة من الدفة: «قليل الى اليسار» بينما يتابع البحارة غناءهم وهم يرددون هذه الالهزوجة:

ها نحن قد وصلنا
ورحلتنا تأتى الى نهايتها
حمدا لله
الغفور الرحيم

على قرع الطبول ، وتشجيع عريفهم ، محمد ، وتحميسه لهم • ويتابعون
غناءهم قائلين :

نجدى أوصلنا الى هنا
نجدى نؤخذة جيد
حمدا لله
الففور الرحيم

ويستمرون على هذا الحال ، دون ان يلقوا نظرة واحدة على ما يجري على
ظهر المركب ، أو يهتموا بالخطر الناجم عن قربهم من المراكب الاخرى ، بل
يتابعون غناءهم وهم يرددون :

من الذي ساعد نجدى على ذلك ؟
حمد ، المعلم الطيب •
حمدا لله
الففور الرحيم (١)

وفجأة يصيح نجدى قائلا : « انزلوا الشراع الرئيسي » • ولكني لا أرى
أي استجابة من البحارة الذين كانوا يواصلون غناءهم ، ولا يستطيعون سماع
أى شيء آخر • ويردد حمد بن سالم أمر رئيسه ، وهو يصرخ بأعلى صوته •
ثم يكرر ذلك ، وهو يندفع الى مقدمة المؤخرة ، الا أن البحارة يواصلون
غناءهم فهم لا يسمعون ولا يستجيبون ولا يطيعون •

وكان المركب يندفع نحو ذلك الصف المتراص من المراكب الراسية ،
وكانه عازم على شق طريق له بينها ، لاني لم أكن أرى طريقا جاهزا مفتوحا
لدخوله • وكان هناك حوالى خمسين مركبا عربيا تتأرجح على مراسيها في
الميناء، وكان هبوب الريح قد نشط بعض الشيء، وأخذت المسافة القصيرة التي
تفصل بيننا وبين تلك المراكب تتقلص بسرعة مخيفة ، حتى أصبح بإمكاننا
أن نرى وجوه بعض البحارة الاعاجم ، الواقفين على أقرب مركب إلينا ، وقد
ارتسمت عليها بعض علامات الاهتمام ، الا أنني كنت مندهشا لانه لم يبد عليهم

(١) أغنية الوصول بالسلامة تدعى « العرضة » • لقد كانت لكل مناسبة أغنيتها الخاصة ،
وهذا ما لم يستطع المؤلف ان يدركه ، بل ولا ينبغي ان نتوقع منه ان يفعل ذلك •
ولذلك فقد جعلنا ملحقا خاصا بأغاني البحر المختلفة ومناسباتها وكلماتها باللهجة
الكريتية مع شرحها بالعربية الفصحى وذلك في الملحق رقم (٤) ، في ختام هذا الكتاب •
(المترجم)

أي خوف على حياتهم ، في الوقت الذي كان فيه مركبنا يبدو كأنه سيصطدم بهم في أقل من عشر ثوان . ولكنني كنت احسب تلك الحسابات كلها دون أن أخذ بعين الاعتبار أن معنا ربانا قديرا متمرسا يمثل هذه الظروف الصعبة ، كنجدى .

وكان حمد بن سالم لا يزال يزعق بأعلى صوته طالبا انزال الشراع الرئيسي ، وهو يندفع بأقصى سرعة نحو الحبال ليفلتها . وكالعادة ، لم يكن أى شيء جاهزا للاستعمال . فقد كان ذاك الجزء من الحبال ، اللذان ترفع العارضة بهما ، لا يزالان ملفوفين حول الصاري ، ومثبتين بنصف أنشودة ، وكان فكهما يحتاج الى أربعة رجال أشداء . وأخيرا تنبه عريف البحارة الى أن الشراع يجب انزاله ، فهب واقفا ، واندفع مع نصف بحارته للقيام بذلك العمل ، بينما ظل الباقيون يغنون ويقرعون الطبول . وقد خيل الى كأن فك تلك الحبال قد استغرق بضع دقائق ، بينما لم يحتج الامر في الواقع لأكثر من ثوان معدودات ، بدأت بعدها البكرات العليا تصدر صريرها المعتاد ، والعارضة تنحدر بسرعة وهي تصدر صوتا كأنه الرعد ، بينما انتشر الشراع القطنى على جانب المركب غير المعرض للريح ، وغطى البحارة الراقصين الهازجين جميعا . وتابعت العارضة نزولها ، وهي تصر وكأنها غير راغبة في ذلك ، كما واصل المركب اندفاعه الى الامام ، ومن مكان ما تحت الشراع ، ظلت الطبول تقرر والاهازيج تسمع ، وكان شيئا لم يكن .

وفي هذه الاثناء ، أصبحنا في الطرف الخارجى لمكان رسو المراكب ، بين العوامات التي كانت تدل على مرسى المراكب الوطنية . وكان يخيل الى أننا لا بد أن نصطدم بعنف بثلاثة مراكب على الاقل ، وندفعها بقوة لتصطدم بدورها بالصف الاخر من المراكب الراسية خلفها . وربما كانت توقعاتى هذه صحيحة ، لو لم يكن معنا نجدى ، الذى كان يعرف تماما ما هو مقدم عليه . فقد رفع هذا يده لكى يوقف قرع الطبول ، فقد آن الاوان لايقاف الغناء ، لان الحاجة تدعو للاستفادة من كل رجل على ظهر المركب الآن ، ثم بدأ باصدار عدد من الاوامر القصيرة السريعة ، بينما واصل المركب اندفاعه الشديد . وقد لاحظت أن نجدى قد وجد لرسو مركبه مكانا ، ولكنه كان مكانا صغيرا جدا ، حتى أنى لم أتصور أن مركبنا يمكن أن يندس فيه ، يقع بين مركب هندي كبير ومركبين عمانيين راسيين ومؤخرة أحدهما مربوطة بمؤخرة الآخر . وقد أصبح من الواضح أنه متجه الى تلك الفجوة ، بينما كان يشير بيده الى أخيه الواقف أمام الدفة ليحركها قليلا ذات اليمين أو ذات اليسار . وفي هذه الاثناء كان البحارة قد جمعوا الشراع وأفلتوه من مربطه بسرعة فائقة ، وكانوا ، بأمر من حمد بن سالم وعريفهم ، يقفون والحبال

جاهزة فى أيديهم • ولم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يمسكون بالحبال ، ما دمتنا لن نقف بجانب رصيف نربط مركبنا به • وسرعان ما بدأ « فتح الخير » يدس أنفه الطويل ، المطفى بالزيت ، فى تلك الفجوة الظاهرة بين المراكب الأخرى بسرعة كبيرة تنذر بالويل والثبور • وفجأة سمعت نجدى يصدر أمرا لم أفهمه • وفى الحال ألقى نصف بحارتنا أنفسهم فى الماء ، دون أن يخلعوا ملابسهم ، وأخذوا يسبحون بعيدا عن المركب ، قبل أن يسحقهم سحقا ، وكان كل منهم يسحب معه طرف حبل فيه أنشودة ، حتى وصلوا الى المركب الهندى من ناحية ، والمركبين العمانيين من الناحية الأخرى ، فاعتلوا ظهورها وربطوا الحبال بها • بينما كان بقية البحارة على « فتح الخير » يشدون الأطراف الأخرى للحبال ويوثقونها بقوة ، لكى يوقفوا اندفاع المركب •

لقد كان مركبنا مندفعاً بسرعة كبيرة ، فقد كان مركبا كبيرا حمولته تبلغ مائة وخمسين طنا ، ما زال أكثر من مائة منها على ظهره • ولذلك فقد تسبب إيقافه السريع المفاجئ فى تحرك المركب الهندى والمركبين العمانيين الآخرين حركة عنيفة كادت أن تقطع حبال مراسيها - ولكنها لم تفعل ، بل احتكت تلك المراكب بالمراكب الأخرى المجاورة ، وكان الاحتكاك لطيفا لم يسفر عن أى أذى • لقد قام نجدى بعملية كبج جماع مركبه بشكل رائع ، وبسرعة فائقة ، وتمكن من ادخال المركب فى تلك الفتحة الضيقة بسرعة تفوق التصور ، حتى أنى كنت عاجزا عن متابعتها ، فقد تمت تقريبا فى نفس اللحظة التى بدأت فيها أفهم القصد من تلك العملية الرائعة •

فى البدم لم يكن باستطاعتى أن أتخيل كيف سيعثر نجدى على مكان يرسى فيه المركب ، وحتى لو وجد ذلك المكان ، كيف سيقوم بإيقافه وارسائه فى ذلك المرسى المزدحم ! ولكن ها هوذا المركب واقف فى مكان مناسب أمين ، بعد أن وصل الى هناك دون أن يسبب حتى خدشا واحدا للمراكب الأخرى • ولم يكن ذلك ممكنا بالطبع لولا ذلك الاستخدام البارع لطريقة الكبج من الجانبين ، ولولا خبرة البحارة ومهارتهم الملاحية • وقد قيض لى أن أشهد ، فى وقت لاحق ، كثيرا من مظاهر الخبرة الملاحية المشابهة لهذه فى ميناء زنجبار ، حيث كانت المراكب المحلية محشورة فى مساحة ضيقة محصورة لا تكاد تتسع لها ، وبالطبع لا تسمح لها بكثير من حرية الحركة •

ولكن يبدو أن العرب لم يكونوا يكثرثون لذلك ، بل أنهم ربما كانوا يفضلون أن ترسو مراكبهم متلاصقة ، لكى يتمكنوا من استغلال الفوضى الناجمة عن وصولهم ، فى تفادى أكثر القوانين الأوروبية ازعاجا لهم • فلم يكن بإمكان أى تفتيش ، مهما كان دقيقا ، أن يطلع على كل ما يجرى ،

عندما يندفع مركب الى مرساه بهذا الشكل ، ويضطر للرسو متلاصقا مع عدد من المراكب الاخرى • فقد كان وقوف مركب محلى ، خارج الحدود المخصصة لرسو هذه المراكب ، يعتبر مخالفة كبرى ، كما أنه سرعان ما يأتيه قارب حكومى بخارى يحمل موظفين يأمرونه بأن ينتقل من مكانه الخاطيء •

وقفت أرقب كيف يستفيد ملاحو المراكب الوطنية وركابها من هذا الوضع المفروض عليهم • ففى اللحظة التى كان مركبنا يندفع فيها الى مكانه بين المراكب الاخرى ، رأيت الراكبين العمانيين ، وهما ينزلان الى الماء من جانب المركب البعيد عن المدينة • فقد ألقى أحدهما بنفسه فى الماء ، وسبح حتى وصل الى قارب صغير ، يقف خلف سمبوك ، فاعتلاه ، وقاده بسرعة فائقة حتى وصل الينا ، فقفز الاخر داخله ، وسرعان ما انفلت القارب براكبيه مبتعدا عنا • وعلى الرغم من أنى تابعت مراقبته بكل يقظة ، الا أنى لم أستطع أن أحدد أين ذهب ، وكيف اختفى فى ذلك الجمع العاشد من المراكب • وباختفاء هذين الراكبين ، اختفت معهما أيضا الرزمتان الصغيرتان الغامضتان •

وفى الوقت نفسه ، اختفى عدد من الركاب الآخرين ، وكان الامر سهلا للغاية • ولم يبق على ظهر المركب ، فى ظنى ، الا أولئك الذين كانوا يحملون أوراقا رسمية ، وكانوا مسجلين فى قائمة الركاب الرسمية • لقد كان أمرا مضحكا حقا هذا التظاهر بالاذعان للقوانين والانظمة الاوروبية • فقد كان العمانيان يبدوان سعيدين كتلاميذ المدارس ، وهما يبتعدان عنا فى قاربهما الصغير ، وكان الامر كله بالنسبة لهما لا يعدو أن يكون نكتة كبيرة • ومع أنى كنت مهتما جدا بمعرفة ماذا كان هذان يحملان فى الرزمتين الصغيرتين ، الا أنى لم أستطع أن أعرف شيئا عن ذلك • فقد سألت عبد الله ، دون أن أتوقع أن يعلمنى شيئا ، بل ودون أن أستطيع الوثوق بجوابه حتى لو أجاب ، الا أن هذا لم يزد عن الابتسام • ولكنى تجرأت واستفسرت عما اذا لم يكن ما يحملانه حشيشا ، بعد أن سمعت أن ذلك أحد الاحتمالات • ولكن عبد الله أجاب بابتسامة للمرة الثانية ، دون أن يحير جوابا • ولكنه ، بعد برهة قصيرة ، علق على كلامي قائلا ، ان الرجلين العمانيين كانا من أراذل القوم ، وأضاف الى كلامه ابتسامة أخرى •

وفى أثناء وجودنا على البر ، فى زنجبار ، كنت أتحدث مع أحد الاطباء • وكان هذا يبدى استغرابه لان مرضاه لم يعودوا يطلبون الافيون ، من ذلك الوقت الذى كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تبدأ بالهبوب ، والعرب والهنود يبدأون بالقدوم ، حتى موعد مغادرتهم للمدينة • وكان

يعتقد أن الهنود ربما كانوا يجلبون معهم شيئاً منه • وقد وافقته على كلامه ،
بالطبع ، وحسدته على نعمة الجهل •

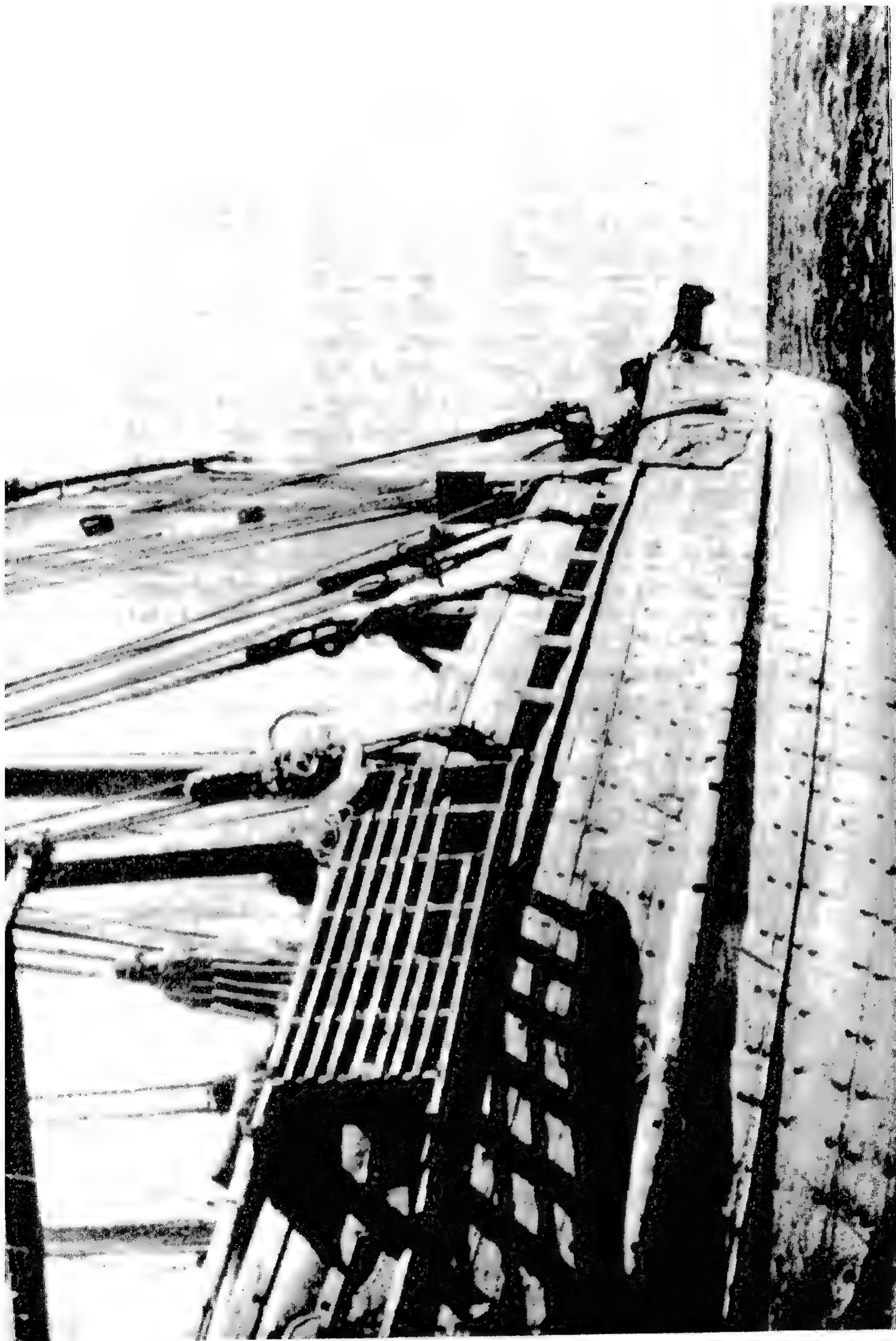
لقد كان وصولنا الى زنجبار نهاية مرحلة مهمة من الرحلة ، فقد كان
علينا أن نفرغ البضائع والركاب هنا ، رغم أنه كان علينا أن نواصل الابحار
جنوباً الى « سمبا أورنجا » ، الواقعة على دلتا نهر الروفيجي ، في تنجانيقا ،
لكي نحصل على الشحنة التي سنعود بها الى الوطن • وقد تمكنا فعلاً من بيع
الملح وبقية البضائع ، التي كنا نحملها ، فيما عدا التمر الفاسد ، الذي أصبح
الآن متخمراً بشكل مريع • لقد جعلت رائحته ، مضافاً اليها الرائحة المخيفة
المنبعثة من السمك المكس في المراكب العمانية التي تحيط بنا وتملأ الميناء -
لقد جعلت تلك الروائح النتنة من المرسى مكاناً لا يطاق • فقد كان أكثر من
نصف المراكب الراسية هناك مراكب عمانية ، جميعها موسقة بالسمك المنتن •
ولكننا ، لحسن الحظ ، كنا نرسو على الطرف الخارجى من ذلك الاسطول ،
وكانت الريح تهب من جهتنا باتجاه البر ، فقد كان مرسانا قريباً من مدخل
خليج « فوجونى » ، حيث كانت المراكب الصغيرة تسحب وتوقف على رمل
الشاطئ لتنظيفها •

عندما وصلنا الى زنجبار ، وجدنا مركب عبد الله القطامي مرفوعاً
على الشاطئ لتنظيفه واصلاحه ، وكان عبد الله نفسه أول من زارنا على
المركب ، وكان يبدو سعيداً مبتهجا بنتائج سفرته • وقد عرفنا أنه ما زال في
زنجبار منذ شهر كامل ، وأنه كان قد أبحر لمدة اسبوعين من شحر الى ممباسا
مباشرة ، حيث لم يجد أية صعوبة في التخلص من ركابه المائة والخمسين ،
الذين لم يمت أي منهم ، ومن بيع معظم حمولته ، وبعد أن مكث حوالي
عشرة أيام ، أبحر من هناك الى زنجبار ، بينما كنا نحن نتصيب عرقاً
في موقاديشو ولامو • وهنا تمكن عبد الله من بيع بقية حمولته ، وهو ينتظر
الآن حتى تهدأ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ويعين وقت عودته الى
لامو ، لكي يشحن كمية من أعمدة المانجروف للعودة بها الى أرض الوطن •
وكنا حينئذ في أواخر شهر فبراير (شباط) ، ولذلك كان لديه متسع من
الوقت ، قبل أن يبدأ بالرحيل •

كان عبد الله القطامي يبدو راضياً عن نفسه ، إلا أن بعض بحارته ،
الذين كانوا قد أحضروه في قارب الى مركبنا ، تحدثوا مع بحارتنا ، ولم
يكونوا راضين عن الرحلة • فقد كانوا يحبون « زنجبار » ، إلا أنهم لم
يكونوا سعداء بقضاء شهرين كاملين فيها • فقد كانت ، بحسب قولهم ، مكاناً
غالياً يعج بالانواع المختلفة من الملاهي • فإذا كانوا سينفقون جميع ما كسبوا

من المال فى هذه المدينة ، فلن يبقى معهم شيء يعودون به الى أهلهم • وكانوا يتدمرون ويتساعلون لماذا لم يذهب النوخذة الى مكان آخر ؟ ولماذا لم يكن من الممكن ، كما كان العمانيون وكثير من الفرس يفعلون ، أن يحصلوا على حمولة محلية من أحد الموانئ الواقعة جنوب هذا المكان ، ، فيكسبون بذلك بعض المال ، بدلا من ايقاف المركب هناك على الشاطئ فلم يكن هدف المركب من القيام برحلته الا كسب بعض المال ، وليس ذلك ممكنا ما دام المركب واقفا على شاطئ زنجبار • لقد كان بإمكانهم فعلا أن يذهبوا جنوبا الى دلتا الروفيجي ، حيث يمكنهم الحصول على شحنة من الاخشاب لبيعها في زنجبار ، ثم يذهبون شمالا الى « لامو » للحصول على شحنة ثانية • لقد كان بإمكانهم ايضا أن يسافروا الى مكداني لجلب شحنة من القمح ، كما قيل أن « سليمان سعيد » قد فعل ببخلته الكبيرة • بل لقد كان بإمكان المركب أن يحصل على شحنة من زنجبار نفسها ، أو أن يحصل على شحنة ينقلها من مكان آخر الى زنجبار ، لو أن النوخذة تحرك قليلا وحاول الحصول على شيء • لقد كان للبجارة مصلحة مباشرة في أن تتم الرحلة على أحسن وجه ، ما دام لكل منهم حصته من الارباح ، ولذلك فلم يكونوا راغبين في البقاء في زنجبار • أما اذا كان عبد الله القطامي راغبا في البقاء فيها وفي انفاق جميع ماله ، فهذا شأنه هو ، وبإمكان العبد سعود أن يقود المركب بدلا منه ، فقد قاده فعلا من عدن الى المكلا وشحر ، تماما كما فعل حمد بن سالم ، كما أنه سيكون له بومه الخاص في السنة التالية • وكان سعود رجلا فاضلا لا يحب الملاهي والترف ، ولا يرغب في بقاء مركبه يتعفن في الشمس لمدة شهرين كاملين على شواطئ زنجبار •

كنت أستمع الى كل هذا باهتمام بالغ ، لأنني في ذلك الوقت فقط ، بدأت بالفعل أسمع شيئا من آراء البجارة ووجهة نظرهم فيما يجري من أمور • وقد فاتحت عبد الله القطامي في الموضوع في وقت لاحق ، وسألته لماذا لم يحاول ، بدلا من الانتظار ، أن يحصل على مزيد من المال بنقل بعض الشحنات المحلية ، فقد كانت جميع المراكب الاخرى تقريبا تفعل ذلك ، وقد علل موقفه بأن أنحى باللائمة على العمانيين القادمين من صور ، لانهم كانوا يقبلون أسعارا زهيدة جدا لنقل البضائع ، بحيث لا يستطيع هو أن ينافسهم • فلم يكن باستطاعته مثلا أن يفعل ، كما يفعل العمانيون ، ويقبل نصف شلن فقط أجرة لنقل كل زكينة من القمح من لندي أو مكداني الى زنجبار • وقد استمعت اليه وهو يشرح موقفه ، لكنني لم اقتنع بكلامه • فلو فعل شيئا من ذلك لما خسر شيئا على الاقل ، على العكس كان بإمكانه أن يكسب مالا يكفي لتغطية النفقات ، وهذا افضل من لا شيء • فقد كان على البجارة أن يدفعوا ثمن الطعام الذي كانوا يتناولونه ، وهم لا يفعلون شيئا في زنجبار • بل انه كان بإمكانه مثلا أن يشتري شحنة من القمح من



دلنا الروفيجي ، لو أراد ذلك ، كما كان باستطاعته أن يستدين ثمن تلك الشحنة من بعض تجار زنجبار ، ان لم يكن معه من المال ما يكفي لشرائها .

وللمرة الاولى لم يترك نجدي الامر غامضا ، بل افصح عن نواياه بكل جلاء . فلم يكن ينوي ان يترك « فتح الخير » عاطلا عن العمل ، ولا أن يسحبه الى رمل الشاطئ لتنظيفه ، بل سيبحر به الى الجنوب حالما تفرغ شحنته . واذا كان هناك متسع من الوقت ، يمكنه أن يقوم برحلتين واحدة لجلب حمولة تباع في زنجبار ، والاخرى لجلب الحمولة التي ستؤخذ الى أرض الوطن . الا أن « نجدي » لن يكون على ظهر المركب خلال هذه الرحلة ، بل سينوب عنه حمد بن سالم ، فقد كانت منطقة الروفيجي ، بحسب رواية نجدي ، الذي لم يذهب الى هناك قط ، مكانا مخيفا ، بل ربما أسوأ مكان يمكن أن يصل اليه مركب عربي . فلم يكن سوى مستنقع كبير ، قابض للنفس ، مغطى بالالواح والطمى ، ومحاط بأشجار المانجروف والادغال الاستوائية ، التي كان لسع البعوض فيها مثل عض الكلاب . كما أن السماء تمطر هناك بدون انقطاع ، والمكان موبوء بالحميات ، والنهر يزخر بالتماسيح والوحوش الاخرى التي تستطيع أن تقلب القوارب بمن فيها ، والادغال تفص بالافاعي والقرود التي لا تنقطع عن الشرقة . وكان نجدي متاكدا من أني لا أنوي الذهاب الى مكان كهذا ، حيث يمكن أن يبقى المركب ثلاثة أو أربعة اسابيع ، لأن على بحارته أن يبحثوا عن الحمولة ويعثروا عليها بأنفسهم . واقترح عليّ ، بدلا من ذلك ، أن أبقى معه في بيت يملكه في زنجبار ، وأضاف أن بإمكاننا فيما بعد أن نذهب الى دار السلام وباجامويو ، بل ويمكن أن نصل الى بمبا . ويجب أن اعترف بأن الفكرة قد راققت لي ، وأن عرضه ، بأن أبقى معه ستة اسابيع في زنجبار والموانئ المجاورة ، كان عرضا مغريا . ومع ذلك ، فقد قررت أن أبقى على ظهر المركب وامسافر معه اينما يذهب ، سواء كان نجدي معنا أم لم يكن . ويبدو أنه كان لنجدي مآرب آخر من محاولته تثبيت همتي ، وقد عذمت على اكتشاف ذلك أيضا . كما أنه لم يكن من المحتمل أن أقوم بمثل تلك الرحلة في وقت آخر ، وأردت أن أكتشف وأتعلم كل ما أستطيع ، فلم يكن هناك ما أتعلمه عن البحر وعن المراكب ، وأنا أمضي الوقت مع نجدي في مدينة زنجبار .

لقد كان من المستحيل أن يتنبأ المرء حتى متى يمكن أن تحدث أشياء ممتعة على ظهر « فتح الخير » ، ولذلك فإن عليه أن يظل هناك على ظهر المركب طوال الوقت ، وينسجم كلية في حياة المركب . فليس هناك من

→ جانب اليوم

فائدة ترجى من وقوف الانسان متفرجا ، كما أنه لا فائدة ترجى من البقاء في زنجبار أو الذهاب الى باجايومو أو الى أي مكان آخر ، فذلك كفىيل بأن يجعلني أقطع الصلة بتلاحق الاحداث التي تدور على ظهر المركب . وقد وجدت أنني ، بعد أن قضيت قرابة ثلاثة أشهر في المركب ، قد بدأت لأول مرة باكتشاف ما يجري على ظهره بالفعل . وسبب ذلك أن للعرب ، رغم أنهم لا يعتمدون السرية ، دراية ممتازة باخفاء أعمالهم وأفكارهم عن الآخرين . ولذلك فقد كان طريقي لمعرفة ما يجري فعلا أن أراقب بكل يقظة ما يدور هناك كل يوم ، وأن أقرر بنفسي ما الذي يجري فعلا . فهناك أمور كانت واضحة تماما ، كالحقائق المنظورة المتعلقة بالرياح والطقس والاماكن التي يزورها المركب . الا أن الامور الأكثر متعة وأهمية ، كحياة البحارة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، والنظام التجاري المتبع على ظهر المركب ، ونظام الرحلة الاقتصادي ، والنواحي الانسانية ، وبعض النشاطات الخاصة للمركب والبحارة - جميع هذه الامور كانت تحتاج الى بحث وتحرر طويلين ، والى صبر وأناة كبيرين والى طرق مختلفة لمعرفةا ، فبعضها تنتزعه انتزاعا في حينه ، والبعض الآخر تحاول الحصول عليه من بعض الاصدقاء ، ولو بصعوبة فائقة ، والبعض الآخر تكتشفه بطريقة ما رغم كل المحاولات التي تبذل لاختفائه . ولا أعتقد أن أحدا كان يعتمد اخفاء شيء عني أبدا ، بل كل ما في الامر أن هذا هو النمط الذي كان سائدا في حياة العرب .

وكان مما يساعدني في بحثي وعملي أن التقط صورا للبحارة ، لانهم كانوا جميعا يجدون متعة فائقة في التفرج على صورهم ، هذا اذا كانت حسنة . فقد كان المستوى المطلوب محرجا لي ، لاني لم أكن أجري أية تحسينات على المسودات ، كما أنه لم يكن من السهل أن يصنع المرء صورا مرضية لبعض تلك الوجوه الشديدة السواد رغم وسامتها . ولذلك فكثيرا ما كان البحارة الذين أصورهم يصرحون بأنهم لا يستطيعون التعرف على أنفسهم بتاتا عندما كنت أعطيهم صورهم ، بل كانوا يعيبون علي عدم خبرتي بالتصوير ويبالغون في ذلك كثيرا . لقد كانت لدى كل منهم فكرته الخاصة عن الهيئة التي يجب أن يبدو عليها في الصورة . ولذلك اذا لم تكن الصورة تطابق فكرته فالخطأ خطئي ، وهو ذنب لا يفتقر . ولم يكن يفيد في شيء أن أبين لهم أن عدسة آلة التصوير لا تستطيع أن تراهم الا على حقيقتهم ، لا على الصورة التي يتخيلونها لانفسهم ، فقد كان بعضهم يقف منتصبا جامدا كالمصا عندما أطلب منه أن التقط صورة له .

ويجب أن أعترف بأنني كنت أحيانا أجد مواقفهم هذه ، والحافهم في أن تكون صورهم جميلة ، مصدر ازعاج لا يمكن تحمله ، ولكنني كنت أنسى

ذلك وأعاود محاولاتي مرات عديدة ، عندما كنت أرى سعادة الاطفال على وجوههم ، وهم يشترون الاطارات الرخيصة لصورهم من سوق زنجبار ، أو عندما كنت أراهم وهم يقضون الرقت الطويل يملون رسائل لذويهم على أحد الكتبة العموميين لبيعوا بتلك الصور داخلها . وكانت هذه الصور تتداولها أيدي جميع الكويتيين الموجودين في ميناء زنجبار - وكان عددهم لا يقل في المرة الواحدة عن مائتين ، بمعدل ثلاثين على كل مركب من سبعة مراكب تلتقي في وقت واحد - ويبدى هؤلاء اعجابهم بها ، وسرعان ما أصبحت أجد بحارة آخرين من مراكب أخرى يحيونني في الشارع ، ويصعدون الى مركبنا لكي أقوم بتصويرهم . ولكنني كنت عادة أرفض هذا الشرف العظيم .

لقد قر رأيي على البقاء في المركب والسفر فيه الى حيث يسافر ، بل اني كنت في الواقع أنتظر زيارة الروفيجي بشيء من الشوق ، فهو مكان يصعب الوصول اليه عادة . وهو أيضا المكان الذي ما زالت ترقد فيه السفينة الألمانية الحربية المسماة كوينجزبرج (Königsberg) وكنت أرغب في مشاهدتها هناك . أما في الوقت الحاضر ، فقد وجدت زنجبار مدينة لطيفة ، وكان مينائها ممتعا دائما باسطوله الكبير من المراكب المختلفة . أما المدينة فقد كانت جميلة جذابة ، وأما داخل البلاد فقد كان أكثر جمالا . ولا تزال زنجبار مركز الحياة العربية في شرق افريقيا ، مع أن نفوذ العرب أخذ بالانحسار ، وما زال سلطان زنجبار العربي ، سليل السيد سعيد المشهور في عمان ، هو الحاكم الاسمي لها وللجزيرة المجاورة « بمبا » ، ومراكبه البخارية البيضاء تقف رشيقة في الميناء ، بينما تقوم فرقته الموسيقية ، وهي ترتدي الزي الرسمي ، بالعزف في الساحة الممتدة أمام النادي الانجليزي كل يوم ، وعلى شاطئ البحر مرة في الاسبوع ، كما أن قصره الابيض الجديد القائم على الشارع المحاذي للشاطئ ذو منظر خلاب . ويمكن أن يراه المرء كل يوم تقريبا ، وهو خارج من القصر في سيارة رولز رويس كبيرة ، يرفرف على مقدمتها العلم الاحمر ، ويجلس فيها رجل ملتحي لطيف كبير السن يرتدي العمامة ، ليقوم بنزهة قصيرة . وعلى مقربة من قصره يقوم « بيت العجائب » العظيم ، الذي كان سلطان سابق قد أنشأه ، ثم اضطر للتخلي عنه لفداحة نفقاته ، وهو يستخدم الان كمكاتب حكومية ، بينما يستخدم بيت الحريم المجاورة له مدرسة للبنات .

ومنذ مدة ليست بالبعيدة ، كانت زنجبار المركز الرئيسي لتجارة الرقيق العربية ، وهنا كان يقوم واحد من آخر أسواق الرقيق العمومية في العالم . أما الان فان كتدرائية كبيرة تقوم في مكان ذلك السوق . وفي

هذه الايام يبدو أن الهنود يسيطرون على جميع انواع وأحجام التجارة في زنجبار ، بالإضافة الى معظم مزارع جوز الهند و القرنفل ، بينما يقوم الافريقيون بأعمال البوابين والحمالين في الميناء ، والبريطانيون بأعباء الحكم . الا أن العرب ما زالوا يملأون الميناء بمراكبهم ، عند هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في كل عام ، والعمانيون بقمصانهم الداكنة وقاماتهم المنتصبة ما زالوا يملأون شوارع السوق ، وهم يحملون السلاح ، فقلما تجد عمانيا في الخارج دون أن يكون على الاقل يضع في وسطه خنجرا معقوفا مزيئا بالفضة ، ومغمدا في جراب مفضض أيضا . أما الكويتيون فلا يحملون السلاح أبدا ، لان البدو فقط هم الذين يحملون السلاح في الكويت ، وهؤلاء ينظر اليهم الكويتيون شذرا . ويعتبر سوق زنجبار سوقا عامرا حتى في نظر الكويتيين ، الذين لا يرون في كل افريقيا سوقا يعادل سوق بلدهم العظيم .

لقد وجدت مدينة زنجبار مكانا لطيفا ، اذا ابتعد المرء عن رائحة السمك المتعفن قرب الميناء . ففي السوق تستطيع أن تجد الفاكهة الاستوائية على أنواعها ، علاوة على السمك واللحوم والخضار . وهناك أيضا « الحلوى » والبطيخ ، والمانجو والكمك الشديد الحلاوة ، وبقية المأكول اللطيفة التي يحبها العرب ، وجميعها تتوافر بكثرة ، كما أن شهرة صانعي الحلوى لا تضاهيها الا شهرة زملائهم في مسقط . في السوق أيضا دكاكين للسلاح تستطيع أن تشتري منها خنجرا عمانيا مثلا ، الا أنني لم أجد فيها واحدا من الصنف الممتاز .

وقد فهمت من بحارتنا ان زنجبار كانت أفضل مكان على طول الساحل بأكمله بالنسبة لتوافر الفتيات من جميع الاشكال والاصناف ، ولذلك كانوا يجدون في ليالي زنجبار متعة دائمة ، وقلما كانوا يتواجدون على المركب مساء ، ليؤدوا الرقصات المعتادة التي لم نر منها شيئا طوال اقامتنا في الميناء . وحتى نجدي ، قلما كنا نراه على ظهر المركب ، فقد كان يغيب عنه أياما كاملة . والواقع أن الجميع كانوا يقضون أوقاتهم على الشاطئ ويتمتعون بما تقدم المدينة لهم ، ما عدا حمدا بن سالم الذي لم يكن ينزل الى البر الا لقضاء حاجة ، ويوسف الشيرازي ، الذي كان يذهب الى المدينة خلال النهار ليشتري ما يلزم للمركب من حوائج . ولكنه كان ينزل أيضا لغرضين آخرين : أولهما ، بيع آخر ما لديه من السلع الخاصة ، وثانيهما ، شراء بعض الهدايا لزوجته وأولاده في الكويت . وكثيرا ما كان الجميع

اصلاح الشراع ←



ينيبون عن المركب ولا يبقى عليه في المساء سواي أنا وحمد بن سالم
ويوسف العجوز ، وحتى أنا لم أكن أتواجد هناك كثيرا . فقد كنت أحب
الميناء ، إلا أنني كنت أحب المدينة أيضا . وكان يوسف يبيع السلال الحضرية
لأصحاب الحوانيت بسعر تسع بنسات للسلة الواحدة ، بينما يقومون هم
بإعادة بيعها بسعر شلنين لكل منها . وكان لدى يوسف عدة أكياس ملأى
بالسلال والمراوح المصنوعة في المكلا ، وكان يبيع بعضها في كل ميناء توقفنا
فيه طوال الرحلة ، وقد تمكن من بيع آخرها في زنجبار . أما اسماعيل ،
فقد كان الطلب على موسيقاه كبيرا ، ولذلك كان مشغولا باستمرار في
إقامة الحفلات الموسيقية ، والعزف في النوادي الليلية العربية ، وكان هذا
مدعاة سرور غامر لكلينا : له لأن ذلك كان يدر عليه ربحا وفيرا ، ولي لأن
في غيابه هدوء المركب وراحة لي .

لم يكن في زنجبار شيء يعجز البحار عن القيام به . فقد كانت
بالنسبة للعرب وللآسيويين الآخرين ، مدينة مفتوحة على مصراعيها ، فيها
الحياة الليلية والحياة النهارية مفتوحة لمن شاء أن يغرف منها . وكان بحارتنا
عادة يعملون طوال النهار ، فيما عدا فترة القيلولة عقب وجبة الفداء ، التي
كانوا يقضونها على ظهر المركب ، ولم يكونوا ينزلون إلى البر إلا بعد
العصر . وكان نظام حياتهم هناك منتظما . فهم يبدأون ببيع بعض السلع
التي بحوزتهم ، والتي كان يبدو لي أنها لن تنضب أبدا ، ثم ينفقون ثمن
ما باعوه على الفتيات . وكانوا يعودون إلى المركب في أي وقت ، ما بين
منتصف الليل وصلاة الصبح . وكان هذا يتكرر ليلة بعد أخرى ، وكان
هؤلاء البحارة لن يشبعوا من المتعة أبدا . وقد أسر لي يوسف الشيرازي مرة
أنه غير راض أبدا عما يجري في زنجبار ، فهو يعتقد أن الفتيات يتمتعن
بحرية زائدة ، وأنه يرفض أن يتخذ لنفسه زوجة من ذلك المكان ، لأن الفتاة
تكون ، حتى في سن الثانية عشرة ، قد أصبحت تهوى التنويع في الملذات
الدرجة أنها لا تصلح أبدا زوجة لأي رجل ، وبخاصة إذا كان بحارا .

وعندما كانت جيوب البحارة تفرغ من النقود ، لم يكن هذا يعني
بالضرورة أنهم سيحرمون من التمتع بالنساء ، لأن هؤلاء ، كما فهمت ،
مولعات جدا برجال البحر الأشداء . ولم يكن على البحار ، إذا فرغ منه
المال ، إلا أن يتمشى قليلا حتى يصل إلى المزارع ، أو آبار الماء الواقعة
خارج المدينة ، ويفضل أن يتم ذلك في وقت القيلولة عندما يكون الرجال
نياما . ففي مثل هذه المناسبات ، لا بد أن يجد البحار فتاة تبحث عن
المغامرة . ولا بد أيضا أن تشعر نساء زنجبار بالحزن الشديد عندما ترحل
تلك المراكب عن مينائهن . إلا أن بعض البحارة كانوا يتخلفون في المدينة .

وقد لاحظت أن البريق قد خبا من عيون أولئك العرب الذين كانوا قد أمضوا مدة طويلة هناك ، فقد أصبح عودهم طريا ، وأعتادوا على الحياة الناعمة .
وقد علق يوسف الشيرازي على ذلك قائلا : ان العربي الذي يمضي خمس سنوات في زنجبار ، لا فائدة من عودته الى الجزيرة العربية ، فلن يصلح للحياة هناك ، وعليه أن يمضي بقية حياته في هذه المدينة .

وكان يوسف يقول ان القصة نفسها تتكرر كلما كان العربي يبتعد عن وطنه . فهو يبدأ أولا بالمتاجرة ، ثم يستقر حيث هو ، ثم يسير في طريقه الى الدمار بسبب انغماسه في الحياة الهائنة والملذات المختلفة من خمر ونساء ، ويتابع سيره في الطريق الوردى ، فينسى كلام الله ، ويهمل فريضة الصلاة ، ويتوقف عن الصيام ، ويطلق العنان لشهواته يحاول اشباعها كلما أحس بأي منها ، وهكذا يندفع الى الهاوية ، وقلما يحاول العودة الى الطريق السليم . ويتابع يوسف كلامه قائلا ان العربي كان ، الى ما قبل نصف قرن من الزمان ، سيد زنجبار والساحل الافريقي كله ، أما الآن فقد أصبح يعتمد على الهنود في ادارة أعماله ومزارعه ، وحتى في خياطة ملابسه ، فأصبحت الثروة تؤول اليهم ، بينما أصبح البريطانيون هم الذين يصدرون له الاوامر كيف يدير مركبه وأين يرسيه ، وأصبحت سلطات الجمرات تجبره على تسجيل مركبه ، وتجبر النوخدة على الحصول على شهادة تثبت كفاءته ، وأصبح الاجنبى يسيطر على كل حركة من حركات مركبه التي يجب أن تتمشى مع القانون .

والواقع أن الرقابة على المراكب العربية كانت شاملة وفعالة ، ولو شكليا ، في زنجبار . فقد كان القانون المحلى ينص على أن المراكب الشراعية يجب أن تفحص فحصا دقيقا ، وأن تكون بحوزة كل منها أوراق التسجيل الرسمية السارية المفعول . كما يجب أن تكون قوائم البحارة كاملة ودقيقة . وأن يكون البحارة قد تطوعوا للعمل بمحض اختيارهم ، وألا يزيد عددهم عن العدد المفعول اللازم لادارة المركب (وذلك لمنع تجارة الرقيق) . وكان عدد الركاب ، الذين يسمح للمركب بتحميلهم ، محددا بعشرة ركاب للملاطنان العشرة الاولى من الحمولة المسجلة للمركب ، وسبعة لكل من الاطنان العشرة التالية . وبموجب هذا تكون حمولة مركبنا فتح الخير من الركاب محددة بأربعة وتسعين ، لان حمولته المسجلة كانت مائة وثلاثين طنا ، وكان هذا ، في رأيي عددا معقولا جدا . كما كان القانون ينص أيضا على أن تكون المراكب فى حالة صالحة للابحار ، وأن تدقق السلطات قوائم البحارة عند وصولهم وعند مغادرتهم للميناء ، والا يتم التعاقد مع أى بحار جديد دون رقابة ، وأن يكون مع جميع الركاب وثائق رسمية تثبت هوياتهم،

وأن يسجل كل منهم فى قائمة الركاب • كما كان على جميع المراكب أن تقلع وتغادر الميناء حالما يسمح لها بذلك ، وألا يظل لها أى اتصال بالشاطئ ، ولم يكن يسمح لأى مركب بالاقلاع ليلا الا باذن خاص • لقد كان كل هذا منصوحا عليه بكل وضوح فى القانون المحلى • كما كان على كل مركب أن يحمل المصابيح الخاصة بالملاحة ، بما فى ذلك القناديل الدالة على أن المركب واقف على مرساته • وكان من الواجب على كل مركب أيضا أن يرفع علم بلده عند الوصول وعند المغادرة ، وألا يلقي بচারته بأية قاذورات فى الميناء ، كما كان على النوخذة ، ان لم يكن حاصلا على اجازة من قبل ، أن يجتاز امتحانا أمام ضابط الميناء ، لكى يحصل على شهادة الكفاءة ، التى لم تكن تمنح الا اذا اقتنع الضابط ، أو من يقوم مقامه ، بكفاءة المتقدم للامتحان واثرائه ، وخبرته ، ومقدرته ، وحسن سيره وسلوكه • ولم تكن هذه الشهادة أبدية ، بل كانت معرضة للإلغاء أو التوقيف لأية أسباب معقولة •

وليس هذا هو كل ما ينص عليه القانون المحلى ، بل هناك الكثير غيره ، بحيث يبدو أن حياة البحارة العرب كانت محددة ومقيدة بالانظمة والقوانين الى حد بعيد • ولكن الواقع أن هذه الانظمة لم تكن تحاول أن تقيد نشاط البحار العربى ، بقدر محاولتها منع سوء الاستعمال الفاضح • فلم يكن أحد يزعم تلك المراكب ، ما دام كل منها راسيا فى المكان المخصص له ، وما دامت عمليات التهريب لا تتم على نطاق واسع جدا • أما ما يتعلق بشهادات الكفاءة ، فعلى الرغم من أنها كانت خطوة على الطريق الصحيح ، ومن أن العرب كانوا يفخرون بها عندما يحصلون عليها ، فيضعونها فى اطارات ، ويحفظونها بعناية فى صناديقهم ، الا أن اجتياز الامتحان اللازم للحصول عليها لم يكن أمرا شاقا جدا ، فمن الناحية النظرية ، لم يكن يطلب من النوخذة العربية أكثر من معرفة جيدة باصول الملاحة فيما يتعلق بمراكبهم من ناحية ، وبطرق تفادى الاصطدام بالسفن البخارية الكبيرة من ناحية أخرى ، وخبرة تامة بفنون الملاحة ، وبصعوبات الابحار بمحاذاة الشاطئ الأفريقى ، بالإضافة الى مقدرة أولية على التصرف فى مواجهة الحوادث البحرية • وعندما كانت السلطات تكتشف (ولم يكن هذا يتكرر كثيرا) أن أحد نواخذة المراكب العربية الكبيرة لا يحمل الشهادة المطلوبة ، كان يؤتى به الى ضابط الميناء ليتقدم للامتحان اللازم • ولم يكن الامتحان نفسه صعبا أبدا • فقد ذكر لى ضابط الميناء أنفسهم أنهم مقتنعون بأن الرجل ، الذى يستطيع أن يقود مركبه من الجزيرة العربية الى زنجبار ، يستطيع أيضا أن يعود به الى وطنه بأمان ، وأن المراكب العربية الكبيرة نادرا ما تتعرض للحوادث ، وما يتعرض لها هى تلك المراكب الصغيرة التى يبنها السواحليون بشكل غير متقن ، أو تلك المراكب العربية القديمة التى

يشترىها بعض الناس من الجزيرة العربية ويقودها البحارة المحليون ، فهذه هى التى كانت تحتل الصدارة فى قائمة الحوادث البحرية •

و ذات يوم كنت فى مكتب ضابط الميناء ، وكان هذا شاي اسكتلنديا لطيفا ، عمل فيما مضى ضابطا على احدى السفن البخارية ، واذا بأحد النواخذة العرب يدخل علينا ، طالبا فحصه بقصد منحه الاجازة اللازمة • وكان هذا عبد الرزاق العماني الاحول العينين ، الذى كنت أعرفه حقا المعرفة ، فقد كنا قد اجتمعنا مرارا من قبل ، وكانت بغلته الصغيرة الجميلة ، التى تبلغ حمولتها حوالى سبعين طنا ، راسية بجوار مركبنا مباشرة • وكان يقودها بالفعل ، شأنها فى ذلك شأن معظم المراكب العمانية ، خمسة أو ستة من البحارة الاشداء الخبراء ، بينما كان عبد الرزاق قائدهم بالاسم فقط • وكان هذا شابا صغيرا مغرورا لا يزيد عمره عن التاسعة عشرة ، بينما يزيد طول قامته عن ستة أقدام مع هزال شديد • وقد فهمت من نجدي أن والد هذا الشاب كان يملك البغلة ، كما يملك عدة بغلات أخرى مثلها ، وأن هذا هو السبب الذى جعل عبد الرزاق يصبح نواخذة لها •

وقد تم فحص عبد الرزاق بصورة شكلية وبسرعة كبيرة • بدأ ضابط الميناء الذى كان يبدو عليه الملل ، بسؤال عبد الرزاق ، عن طريق ترجمان ، ان كان يعرف قواعد الملاحة فى الطرق البحرية المعتادة • وعلى الرغم من أنى كنت متأكدا من أن عبد الرزاق لا يعرف تلك القواعد ولن يتعلمها أبدا ، إلا أن جوابه كان بالإيجاب • وما دام الامر كذلك ، فما هى المصاييح التى ينبغى أن تكون على المركب فى أثناء إبحاره ؟ وكان جواب عبد الرزاق أن المركب يجب ألا يحمل أى مصباح على الإطلاق ، ويرر ذلك بقوله أن فى ذلك مضية للزيت وللمال ، ومضايقة للبحارة ، واقلقا لراحة مساعديه . أثناء نومهم ، واغرام للسماك « أبو سيف » بمهاجمة المركب • وقد خيل الى أن الاجابة كانت خاطئة تماما ، حتى على الصورة التى نقلها الترجمان • ولكن حدث فى تلك اللحظة أن دخل الى المكتب القبطان الهندى ل أحد مراكب السلطان البخارية ، وكان هذا فى العادة هو الذى يقوم بفحص النواخذة • فقد كان يعرف العربية معرفة جيدة ، كما كانت له دراية واسعة بالنواخذة العرب • وسرعان ما طلب الضابط من القبطان أن يواصل فحص عبد الرزاق ، وأن يقنعه ببطلان حججه فيما يتعلق بانارة المركب أثناء سيره ليلا • فدخل الاثنان الى غرفة مجاورة ، بعد أن أخذ الهندى معه بعض نماذج المراكب الصغيرة ، لمساعدته على شرح بعض قوانين البحار ، بالاضافة الى احدى خرائط زنجبار • ولم يمض وقت طويل حتى عاد الاثنان ، وأعلن الهندى أن عبد الرزاق قد نجح فى الامتحان • وقد لمحت نظرة من الشك ترتسم على وجه ضابط الميناء ثم تختفى بسرعة ، الا أنه لم ينبس ببنت شفة ، وحصل

عبد الرزاق على شهادته • وعندها خطر لى خاطر • فاذا كانت شهادات النواخذة تمنح بمثل هذه الطريقة ، لم لا أتقدم أنا للفحص أيضا ، فقد حان الوقت لاحصل على شهادة ؟ وهكذا فعلت ، ونجحت فعلا ، وحصلت على شهادة رسمية من حكومة السلطان تخولنى حق قيادة مركب عربى كبير ، وقد دفعت خمسة عشر شلنا فقط رسما للحصول على تلك الشهادة •

واحتفالا بالمناسبة فقد قررت أن أصحب نجدى الى السينما ، لأنه كان في الماضي قد أعرب عن رغبته في مشاهدة أحد الافلام، وكانت في زنجبار دار جيدة للسينما • فذهبت للبحث عنه فى مكتب وكيل المراكب الشراعية الذى كان جزءا من حانوت للحلوى قائم فى وسط السوق • وكان لهذا الحانوت شرفة مخصصة لنواخذة المراكب الكبيرة المعروفة ، وفى الداخل غرفة خاصة منعزلة يمارس فيها الوكيل أعماله • وكان هذا رجلا من الاسياد تبدو عليه سيماء التقى والورع ، الا أنه لم يكن يتورع عن القيام بأى عمل • وفى الطابق العليا كانت هناك حجر سريّة عديدة ، وجدت نجدى فى واحدة منها تقع فى الطابق الثالث • وكان يجلس هناك مع عبد الله القطامى ، وكلاهما يرسلان نظرات الحب والهيام الى غرفة أخرى مملوءة بالفتيات المحجوزات خلف قضبان من الحديد ، تقع فى الناحية الاخرى من الفناء ، بينما كان يقوم عليهما ، ويحاول تسليتهما ، رجل سواحلى يجلس على الارض ويمزف على الكمان • ومع أن الوقت كان متاخرا ، الا أن طعام الغداء كان يمد على الحصير ، وقد طلبا منى أن أشاركهما فيه • فاستمتعا بوجبة شهية تتألف من الدجاج المشوى ، والسّمك والارز ، ومرق الفلفل الحار (الدقوس) ، واللبن والفاكهة من الموز والاناناس • وقد انتهينا من الاتهام الطعام بسرعة مذهلة، على الرغم من أن نجدى قضى على ثلاث دجاجات كاملة بالاضافة الى ثمانى سمكات • ثم غسلنا أيدينا بالماء الذى أحضره أحد الخدم ، واستلقينا لناخذ قسطنا من النوم والراحة • وعندما استيقظت بعد ساعة تقريبا ، كان عدد من العمانيين يجلسون القرفصاء من حولنا • فتناولنا بعض الحلوى الطازجة المصنوعة فى الحانوت القائم تحتنا ، وشربنا شيئا من الشاي • الا أنى اضطررت بعد ذلك للجلوس مدة لا تقل عن ساعتين. استمع الى حديث أولئك العمانيين ، اقترح نجدى بعدها أن نشغل الحاكي (الجراموفون) ، القائم فى احدى زوايا الغرفة ، ونستمع الى شيء من الفناء • وقد وجدت أنى لن أستطيع أن أطيق ذلك ، رغم تطمينى بأنى سأشنف أذننى بفناء أعظم مطربة فى مصر ، فودعتهم وانطلقت أتمشى على الشاطيء •

وبعد المغرب بقليل ، قابلت نجدى ، وذهبنا سويا الى السينما ، التى كانت مؤسسة هندية لا تبعد كثيرا عن السوق • وقد ركبنا عربة يدويه.

تأخذت تدرج بنا من غير اتزان فى الشوارع الضيقة ، يجرها زنجى سرعان
ما أخذ يلهث من التعب ، ويدفعها آخر من الخلف . وكان نجدى فى حالة
نفسية سيئة ، لأن الامور ، كما قال ، كانت سيئة فى زنجبار . وقد أضاف
بأنه ، اذابقى الوضع على ما هو عليه ، فسرعان ما سيأتى اليوم الذى يجد
فيه نفسه ، وهو يجر عربة من النوع الذى كنا نركبه . فلم يكن هناك سعر
مناسب للملح الذى كنا نحمله على مركبنا ، ولم يكن المال وفيرا لدى تجار
المدينة . ولم يكن العمانيون مستعدين لدفع أجور الخدمات التى قدمها لهم ،
كما أنه لم يتمكن من بيع المركب الصغير الذى كان النجار قد فرغ من
بنائه . وقد زاد من تشاؤم نجدى أن محصول القرنفل ، الذى يعتمد عليه
ازدهار الجزيرة اعتمادا كبيرا ، لم يكن وفيرا هذا العام ، ولذلك فقد قل
المال فى ايدى التجار والناس عموما . أما لب جزر الهند ، وهو المحصول
الرئيسى الآخر ، فقد كان فى حالة غير صالحة للاستعمال . وكان نجدى
مرتبكا لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن تتغير الامور بهذا الشكل وبهذه
السرقة . فبالامس القريب ، منذ سنة خلت فقط، كان كل شىء على مايرام ،
وكان محصول القرنفل ممتازا ، والاسعار جيدة ، وكانت الاموال وفيرة
عند العرب والتجارة مزدهرة ازدهارا كبيرا . وقد كان نجدى ، كمعظم
العرب الذين عرفتهم ، يجد صعوبة كبيرة فى التكيف مع التغيرات المفاجئة
او حتى مع أية تغيرات من أى نوع . فكان يتساءل كيف يمكن ان تكون
الامور بهذا السوء الآن ، اذا كانت جيدة فى العام الفائت ، دون أن يجد
جوابا على ذلك . وكان تعليله لذلك هو أن الخطأ خطأ انسان ما ، فان لم
يكن كذلك ، فهو سوء حظه العائر اذا . وفي كلتا الحالتين ، فان ذلك
أمر يدعو للرتاء . ولكن هذا لا يغير شيئا من الواقع المؤلم . كان نجدى
يقول ذلك ، بينما كانت العربة تنحرف بعنف شديد وسرعة كبيرة حول
احدى الزوايا ، فتصطدم بأحد أصحاب الحوانيت وهو جالس على درج
حانوته . واخيرا وجد نجدى الجواب . لقد كان الذنب ذنب الاوروبيين
وحدهم . فقد كانت مساوىء العالم كله من فعلهم ، بسبب تلك الحياة
غير الطبيعية وغير المتزنة التى يحيونها ، فقد خلقوا الفوضى فى العالم
كله بسبب ابتعادهم عن المثل العليا والمبادئ السامية ، وبسبب جشعهم
وحسدكم القاتل لجميع شعوب الارض ، ولبعضهم بعضا أيضا . وعليهم ،
اذا ارادوا اصلاح ما خربوه ، أن يعودوا الى الله ، وان يحافظوا على
نسائهم . هذان هما المبدعان الرئيسيان ، والضرورتان الماستان ، فى رأى
نجدى : الايمان بالله والسيطرة على النساء . وهو يعتقد أن الاوروبيين
جميعا لم يفقدوا اتزانهم الا باهمالهم هذين المبدأين ، وبعملهم هذا فهم
يجرون بقية العالم الى الدمار .

ولم أكن أعير اهتماما كبيرا لما كان نجدى يحدثنى به ، فقد كان هذا

دأبه دائما ، بينما كنت أرقب الطريق التي كنا نسلکها باهتمام أكبر ، فقد كان سوق زنجبار مكانا مسليا بحق ، يغلب عليه الطابع العالى . فكنت أرى اليونانى ، والهندي القادم من جوا ، والهندي والبنجابى والسنجى والكردى والسواحلى والبلوشى والافريقين من جميع الاشكال والاجناس يتدافعون فى الشوارع ، أو يقفون على جانبى الطريق ليفسحوا مجالا لمرور العربى — ولم يكف نجدي عن الكلام ، ولم أعترض على كلامه اطلاقا فلم يكن لذلك فائدة ترجى ، فقد كان دائما متأكدا من انه على صواب، وفى مثل هذا الموقف ، لم أكن اعرف كيف اجيبه . وهكذا تابعنا سيرنا ، وكانت العربى تندفع أحيانا بأقصى سرعتها ، بينما تبطئ أحيانا أخرى حتى تعادل سرعة المشى العادية عندما تواجهها طريق صاعدة . وكنا نرى هنا مجموعة من الفتيات العمانيات الصغيرات ، وهن يرتدين الملابس الأوروبية ، ويضعن اشرطة حمراء فى شعورهن ، وهناك نشاهد هندوسيا يسير بقامته المهيبة ، تسير خلفه زوجته الشابية ، وهى تحافظ على مسافة لاتقل عن ست خطوات بينها وبينه .

لم أكن موفقا باصطحاب نجدي الى السينما وهو فى ذلك المزاج السيئ ، كما أن الفيلم لم يكن موفقا ايضا . فقد كان الفيلم امريكيا ، من النوع العادى الذى تنتجه هوليوود ، فكان اخراجه جيدا من الناحية الفنية الا أن فكرته لم تكن موفقة . وفى العادة ، لم اكن أعير ذلك اهتماما كبيرا، بل ربما وجدت فى مثل هذا الفيلم مايدعو للملل ، الا أنى عندما نظرت اليه من وجهة نظر نجدي ، أصبح له معنى خاص مخيف تقريبا . وقبل أن أخرج من دار السينما تلك ، بدأت أتساءل تساؤلا جديا عما اذا لم تكن أراء كثير من اصدقائى العرب أقرب الى الصواب من آرائى . فقد كانت قصة الفيلم تدور حول محاولة احدى السكرتيرات ، العاملات فى نيويورك ، أن تتخلص من رتابة حياتها وعملها ، بقضاء اجازة فى أحد مخيمات الشباب، الذى بدا فى الفيلم مكانا مزعجا ، مبتذلا ، مجنونا ، نظمتة جماعة من النساء المصابات بالشبق ، الشاعرات بالحرمان الجنسى ، بالتعاون مع عدد من الرجال التافهين .

ان كان المقصود من هذا الفيلم أن يكون نقدا لمثل هذه المخيمات ، فقد كان قاسيا جدا عليها ، ولكنى لا أعتقد أنه كان يهدف الى ذلك ، بل غالب الظن أنه لم يكن الا مجرد فلم مبنى على احدى المسرحيات التى عرضت على مسارح برودواى مدة طويلة ، بحيث لفتت نظر رجال صناعة الافلام فى هوليوود . وأنا متأكد أنه لم يقصد منه أى شئ آخر ، كأن يكون وثيقة.

اجتماعية أو ما أشبه ذلك ، بل كان المقصود منه الربح المادى ليس الا . الا أن نجدى كان يجد فيه أكثر من ذلك بكثير، فقد كان يصر على اعتباره اداة صارخة للجنس الاوروبى الابيض بأسره . فقد كان يعتبره سخيلا لدرجة لاتصدق ، ولو كان الامر بيده ، لغطى بطة القصة بالحجاب ، وحبسها بين أربعة جدران في القسم المخصص للحريم . علاوة على ذلك ، فلم تكن تلك البطة تتعلى بأية مقاييس جمالية متعارف عليها بين العرب ، فلم تكن لها اثناء بارزة ، أو مؤخرة تستحق الذكر ، فهي أشبه بالعصا الضعيفة ، علاوة على أن مشيتها كانت تدعو للرائاء . ثم أنها كانت تتمتع بقم واسع رخو ، وكان هذا ، فى نظر نجدى ، أكبر عيوبها . لانه لايعتقد أن امرأة ذات قم كبير يمكن أن تكون امرأة طيبة . ولم يكن باستطاعة نجدى أن يفهم لماذا تصور المغامرات العاطفية لفتاة عادية جدا بالطريقة التى صورت فيها ، وتحول الى فيلم سينمائى ، خاصة وأن نجدى لم يكن ينظر اليه على أساس أنه مجموعة من الصور ، بل على أنه يمثل جزءا من الحياة الاوروبية . فكان جنون الفيلم ، ونكاته الفارغة ، وسخافته وتفاهاته تحدث في نجدى الصدمة تلو الاخرى ، فتثير فيه القرف والتقزز ، حتى أنه لم يعد يستطيع المتابعة ، فهب واقفا بعد أن شاهد المنظر العاطفى الرابع ، وغادر المكان . وقد سررت لذلك ، فلم تكن الامسية موفقة أبدا .

وعندما أصبحنا فى الخارج كان نجدى مايفتا يلحف على فى السؤال عن معنى كل مايجرى فى الفيلم . فلم يكن باستطاعته أن يفهم مطلقا سلوك أولئك الناس الذين كانوا يملأون ذلك المخيم الأمريكى الترويحى ، وعندما وصفتهم له على أنهم بالنسبة للأمريكيين أشبه ما يكونون بالبدو بالنسبة للعرب المتحضرين ، لم يفهم ما أقصد ، رغم أن نظرته الى البدو لم تكن نظرة احترام . فقد كان مستوى تفكيرهم ، فى نظره ، منخفضا جدا ، حتى أنه يتوجب على الحكومة أن تحجزهم فى أماكن خاصة بهم كمستشفيات المجانين ، والا فكيف يمكن أن يتصرف أناس عقلاء على هذا النحو ؟ ففى أول فرصة كانت بطة الفيلم بين ذراعى البطل . ولم يكن ما يمنع هذا بالنسبة للرجل على الاقل ، فى نظر نجدى ، الذى لم يكن يمانع فى شىء من المتعة النظيفة . ولكن ألم يكن باستطاعة الرجل الأمريكى أن يعترف المرأة غير البكر عندما كان يجتمع بها ؟ والا ماذا دهم أولئك الرجال ؟ وكيف يرضى أحدهم بالزواج من فتاة من ذلك الصنف الذى يمكن أن يحصل عليه فى كل وقت وعندما يشاء ؟ أما رأي نجدى فى البطة ، فهو أنها كانت فى السابق فتاة عليها مسحة من الجمال ، وأنها ، لو تعهدا اهلها بالعناية والغذاء اللازمين ، لكانت قد زادت جمالا واصبحت مقبولة جدا ، على الرغم من أن فمها الواسع كان سيظل أحد معاييبها ، وانه كان من واجب اهلها ان يزوجوها وهى شابة صغيرة .

لقد كانت قصة الفيلم سخيفة حقا اذا قيست بأى مقياس ، الا انها كانت ، بالنسبة لنجدى ، تعنى اكثر من ذلك بكثير . فقد كان ينظر اليها كأنها مرآة لا يستطيع أن يرى خلالها الا مجتمعا متفسخا متحلا تمام الانحلال فلم يكن يعتبرها مجرد قصة ، او فيلما يقصد منه امتاع الناس ساعة أو ساعتين ، وجمع مبلغ من المال من شباك التذاكر . وحتى لو كانت مجرد قصة فهي ، فى نظره ، تعكس المجتمع الذى انتجها ، والذى من الواضح انه يدفع المال ليجلس افراده فى المقاعد ويتفرجون عليها . والدليل على ذلك أنهم يتقبلونها بدون كلمة احتجاج واحدة ، اليس كذلك ؟

ولقد استمعت الى نجدى يقول كل ذلك ، واقتنعت أخيرا بأن لديه وجهة نظر وجيهة فعلا . لقد كانت سهرتنا فى السينما فاشلة تماما ، ولم ينسها نجدى قط ، بل كثيرا ما كان يشير الى ذلك الفيلم ، حتى بعد انقضاء شهور على تلك الامسية ، كصورة للحياة السخيفة التى يحياها الناس فى الغرب . ولم يكن يميز بين الاوروبيين والامريكيين ، فجميعهم كانوا فى نظره سواء .

ودعت نجدى عند بوابة المنزل ، الذى كان يقيم فيه ، وعدت أدراجى الى المركب . فوجدت المرمى هادئا ، وأنوار النجوم تنعكس على صفحة الماء المظلمة ، فلم تكن الليلة مقمرة . وفى مكان ما على الشاطئ على مسافة بعيدة عني ، كانت تتناهى الى أصوات السواحليين وهم يرددون اغانيهم المعروفة ، وفى احدى اللحظات تمكنت من سماع أصوات الغناء وهى تنبعث من حناجر بحارة قارب فارسي كان يقترب من مركبه . وعندما اختفت تلك الاصوات ، سمعت صوت ضحك مجلجل قادم من أحد البيوت القائمة على الشاطئ . وعندما صعدت على ظهر المركب ، كان كل شيء هادئا تماما ، والسكينة تخيم على الكون ، بينما وقف يوسف الشيرازى كأنه الشبح فى ذلك الليل المظلم يستقبلنى على رأس الممر الخشبي . وأخذت أنظر الى المراكب الراسية حولنا ، والتى يلفها السكرن والهدوء ، والى صواري المركب المائلة وهى تكاد لا تبين للعين فى الظلام الدامس ، لولا شيء من النور آت من النجوم ، فخامرني شعور غامر بالرضى والسعادة لوجودى هناك ، كواحد من اولئك المغامرين جوابي الآفاق ، أعيش حياة فيها المتعة ، وفيها المغامرة وفيها شيء من الجمال ، حياة رجال لا مكان للنساء فيها ، حياة لا يستطيع المرء أن يجدها فى أى مكان آخر فى هذه الايام .

وأخذت أتأمل وأحدث نفسي قائلا : ألا يجوز ان يكون هؤلاء البحارة القادمون من بلاد العرب يدركون من معانى الحياة أكثر مما ندرك ، على الرغم من تبجحنا وادعائنا بأننا متفوقون عليهم حضاريا ؟ ليس من شك فى

أنهم يعرفون أكثر منا بكثير نعمة القناعة وتقبل كل يوم بما فيه من خير وشر .
ومحاولة التمتع بما يقدمه ذلك اليوم لنا . الا يكفي أنهم لم يكونوا قلقين .
غير مستقرين ، يريدون دائما أن يكونوا في غير المكان الذي هم فيه ، وان
يتوفر لديهم عمل غير ذلك الذي يقومون به ؟ لقد كانوا يرضون بما قسم
الله لهم ، ولا يرغبون في أن يصبحوا أكثر غنى مما هم عليه ، أو أن
يمتلكوا الاملاك والاراضي الشاسعة . ولم يكونوا بحاجة الى فتح المذيع في كل
حين لكي لا يعملوا الفكر في شيء - كما نفعل نحن - ، أو أن يتقبلوا
الافكار التي تقدم لهم جاهزة عن طريق الصحف الصباحية ، أو ان يصارعوا
ويزاحموا ويشاركوا في ذلك الكفاح الشاق القاسي ، الذي لامعنى له ،
الذي تقدمه الحياة في المدن الكبيرة . كلا !! لم يكونوا مرغمين على شيء من
ذلك قط . فقد كانوا يعيشون حياتهم البسيطة وهم قانعون بذلك تماما
وماهم الآن على الشاطئ ، يتمتعون بالفتيات ! ومع ذلك فلم يتغير رأيي
فيهم بسبب ذلك قط . فربما كانت هناك أمور كثيرة أسوأ من الانغماس
في الشهوات البسيطة .

ولقد بدالى كأن بعض هؤلاء البحارة كانوا من أولئك الناس الذين
شاركوا في الفيلم الذي شاهدناه تلك الليلة .

الفصل الحادي عشر

في جزيرة كوالي

فى جزيرة كوالى

مكثنا أسبوعين فى زنجبار ، على الرغم من أن البضاعة جميعها كانت قد أفرغت خلال اليرمين الاولين . وبعد مضى الاسبوع الاول ، كان يعلن يوميا بأن رحيلنا سيكون فى الغد ، ولكن أحدا لم يكن يبدى أدنى اهتمام لتلك الاعلانات ، التى لم يكن ينظر اليها حتى كتمنيات يرجى تحقيقها . فان كلمة « غدا » كانت بالنسبة لهم تعنى أى وقت فى المستقبل غير المحدد ، كما لو قالوا « فى الاسبوع القادم » أو فى الشهر القادم مثلا . لقد اكتشفت أن السبب الحقيقى للتأخير كان يكمن فى صعوبة تحصيل ثمن البضاعة ، فقد كان من السهل بيع تلك البضاعة ، الا أن تحصيل ثمنها كان شيئا آخر . وقد كان من الضرورى أن نحصل على بعض الشلنات الفضية ، لندفع ثمن الاعمدة الخشبية ، التى سنشتريها من دلتا نهر روفيجى ، ولم يكن هناك فائدة من مفادرة زنجبار قبل أن يتوفر لدينا صندوق من تلك الشلنات على ظهر الباخرة ، ذلك لان أهل روفيجى لم يكونوا يبيعون شيئا بالدفع المؤجل . وبالفعل فانا حالما توافرت لدينا الشلنات المطلوبة ، أبحرنا بدون تأخير .

وفى أثناء ذلك وصل يوم كبير جدا قادما من الكويت ، عن طريق الموانئ المعتادة ، وألقى مراسيه قريبا منا . وقد أطلق عليه بحارتنا اسم « الداو » (١) وكانت هذه المرة الاولى التى اسمع فيها العرب يستعملون كلمة « داو » . ومع أنه كان باستطاعة هذا المركب أن يحمل أربعة الاف جلة من التمر فى عنبره الكبير ، فقد كان مركبا رشيقا . وقد قيل لى أنه كان قد بنى فى الاصل ليحمل خمسة الاف جلة ، ولكنهم اقتطعوا جزءا منه لان حجمه الاصلى كان كبيرا جدا . وقد كان على ظهره خمسة وأربعون بحارا ، كما كان على سطحه الرئيسى مركب جديد اخر طوله أربعون قدما ، مبنى فى مكان ما على الساحل . وقد كان النوخذة هو القبطان المشهور عبد الوهاب القطامى ، الرجل العربى ذو المظهر الصارم ، والصوت الهادئ والعينين الزرقاوين . وقد كان المركب فى كامل هيئته ، يتدلى سلم الصعود والهبوط من طرف مؤخرته . كما كانت سارية العلم تحمل فى أعلاها نموذجا

(١) كان هذا اليوم ملكا لحمد الصقر الذى ينتمى الى أسرة الصقر المعروفة بالكويت والتى منها عبد العزيز حمد الصقر رئيس غرفة التجارة والصناعة حاليا . (المترجم)

ممتازا لطائرة مائية من طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني . وكان هذا نوعا من الزينة بين الكويتيين ، الذين أخبروني بأن مرفأهم أصبح يستخدم مؤخرا مهبطا للطائرات الانجليزية . وقد كان في المركب أيضا نموذج صغير لطائرة مزدوجة الاجنحة ، يستعمل كجهاز يدل على اتجاه الريح ، ومثبت على سارية متحركة في مؤخرة المركب ، حيث يستطيع قائد الدفة أن يراه ، وقد كان بحارتنا قخورين بهذا المركب الكبير ، الذي لاحظت أن بحارته كانوا دائما يختالون أثناء سيرهم في السوق بطريقة خاصة بهم . وقد كان المركب محملا بالملح والارز وبضائع أخرى . كما أعلن عبد الوهاب عن نيته في الرسو على شاطئ زنجبار عندما يقلع مركبنا منه ، ثم السفر الى لامو لجلب البضائع من هناك . وقد كان باستطاعة مركبه أن يحمل أكثر من ألف عمود من الخشب .

وأخيرا غادرنا زنجبار في يوم جمعة ، مع أننا لم نكن نبحر في أيام الجمعة ، لان ذلك اليوم يوم مقدس عند المسلمين ، وفيه يرقب البحارة في أداء صلاة الجماعة في مساجد المدينة ، اذا كان المركب راسيا في المرفأ . ولكن لم يكن يوم الجمعة يوم راحة ، فقد كان كل من على المركب يقوم بالعمل الضروري المطلوب منه ، دون أن يتأثر النظام العادي فيه . الا أنه كان يوما للزيارة ، يقوم فيه البحارة بزيارة المراكب الاخرى القادمة من الكويت والموجودة في الميناء ، لاحتساء القهوة وتدخين النارجيلة . ولكن عندما كنا نقلع في يوم جمعة ، كان ذلك دائما يتم في وقت متأخر من النهار ، لان اليوم بالنسبة للعرب ينتهي عند مغيب الشمس ، وهذا يعني تبشير يوم السبت ، حين يكون السفر مناسباً . وقد كنا جاهزين للسفر قبل تلك الساعة المباركة بوقت طويل . فقد كانت عارضة الشراع الرئيسي مرفوعة الى أعلى الصاري ، والشراع جاهزا لينشر نشرا كاملا ، كما كان المركب « عفرة » ، والقارب الطويل ، مربوطين بحبال في مؤخرة المركب لتسحبهما خلفنا ، مادنا كنا نتوقع أن يكون الطقس هادئا أثناء رحلتنا القصيرة الى دلتا الروفيجي ، التي لا تبعد أكثر من مائة ميل الى الجنوب من زنجبار . وقد قررنا أن نأخذ « عفرة » معنا ما دمنا لم نستطع بيعه ، وذلك لاستعماله في نقل الأعمدة الخشبية من الغابة الى المركب .

وبعد أن رفعنا المراسي، مكثنا عصر ذلك اليوم بحذاء مركب عبد الوهاب من الناحية البعيدة عن الاسطول . أما حمد بن سالم ، فقد كان على اليابسة يجمع ما تبقى له من الشلنات ، بينما كان معظم البحارة ، العائدين من صلاة الظهر في مسجد الميناء ، نائمين على ظهر المركب حيثما وجدوا الظل المناسب . وقد كانت فترة الرسو هذه هادئة ، ولم يكن أحد يغني ، لانه لم يكن هناك عمل يتطلب أن يقوم به أحد . كما كانت الحركة في الميناء

حادثة ، وقلما رأينا شيئاً ينتقل من خليج « فونجونى » الصغير أو اليه ،
أو من الشاطئ أو اليه . أما القوارب القليلة ، التى كانت تنتقل الى
المراسى القريبة من الشاطئ ، فقد كانت تحمل البحارة الضباط ومساعدتهم
وهم عائدون الى مراكزهم .

لقد كان مركبنا خفيفا ومرتفعاً فى الماء ، لانه لم يبق على ظهره
الا التمر السيء المتعفن ، الذى أتينا به من عدن ، والذي جعلنا منه صابورة
المركب فى طريقنا الى الدلتا . ونظراً لخفة المركب ، فقد استغنيا عن
جزئين من الشراع الرئيسى ، كما كان أصغر أشرعتنا مطويا ، وذلك
احتراساً من انقلاب المركب لخفة وزنه . وقد ساعدنا بحارة عبد الوهاب على
رفع العارضة الرئيسية الى أعلى الشراع ، وكان ذلك بعد صلاة العصر ،
كما بقي ستون رجلاً منهم يرقصون على سطح مركبنا حتى ضجت الألواح
الخشبية بالشكوى . انه ليبدو زائراً غير قابل للتصديق أن يجد ستون رجلاً
قوياء مشقة فى رفع عارضة واحدة لمركب لايزن أكثر من مائة وخمسين
طنا . ولكن هذا هو الواقع ، وهو بلا شك دليل على عدم كفاءة المعدات .
وقد استغرق ذلك منهم حوالى نصف ساعة ، الا أنهم قضوا حوالى ثلث هذا
الوقت فى الرقص والغناء . وقد توقفوا مرتين ، مرة عندما كانت العارضة
مرفوعة الى ثلثى المسافة ، ومرة أخرى قبل وصولها الى أعلى الصاري
بقليل . يا لأولئك الرجال كيف يرقصون ويغنون ! فلم يكن البحارة الكويتيون
يعملون باعتدال قط ، وكان سطح المركب يعج بجميع الرجال العاملين الذين
يتصببون عرقاً .

لقد كان رفع العارضة يقترب دائماً بطقوس منتظمة تؤدي بدقة متناهية .
فحالما يصدر الامر لرفع العارضة ، كان البحارة يبدأون بالغناء ، وكان
هناك قائد معين لهذه الاغنية . وعلى مركبنا كان البحار عبد اللطيف هو
ذلك القائد ، الذى كان يقود البحارة بصوته العالي النبرات . أما الباقون
فكانوا ، قبل أن يبدأوا برفع العارضة ، يرددون على غنائه بصوت جماعي
عميق أجش ، يبدو أنه خاص بالكويتيين . ولست أدري كيف كان
بإستطاعتهم أن يصدروا ذلك الصوت المدوي المخيف الى حد ما من حناجرهم ،
فقد كان ذلك الصوت يبدو وكأنه يخرج من أعماق أعماقهم . ولم يكن
أحد من البحارة الآخرين يصدر مثل هذا الصوت ، لا من سكان صور ولا
فارس ولا جنوب الجزيرة العربية ولا عمان ولا سواحل البحر الاحمر .
فقد كان صوتنا عميقاً ، قويا مثيراً ، يستطيع الكويتى أن يستمر فيه الى
ما لا نهاية . ولا أعلم منشأ هذه العادة ، ولكنى أعتقد أنها عادة قديمة جداً
منشؤها المحاولات البدائية لاختافة الجن وإبعادهم . أما البحارة الذين
سألتهم ، فلم يعرف أحد منهم لماذا يصدرون هذا الصوت ، فقد كان هذا

أسلوبهم وكانوا يحبون أن يفعلوا ذلك ، وأن يفعلوه باستمرار . فلم يكن
يخطر ببالهم أن يرفعوا العارضة ، أو يبحروا بالقوارب ، أو يرسوا مركبا
للفطس على اللؤلؤ دون أن يفعلوا ذلك .

وعندما كان جميع البحارة ينتهون من ترديد أشعار عبد اللطيف ،
التي كان موضوعها دائما الله ، والمركب ، والرياح ، والبحر ، بأعلى ما
لديهم من الأصوات المزمجرة ، كان قائدهم يطلق صيحة أعلى من السابق ،
ويسرع في نفسته ، وعندما كان الجميع يندفعون الى الحبال ، فيتوقف
الهدير ، ويبدأ البحارة بالفناء ، وهم يشدون الحبال من جانبي الصاري .
وكانوا يفعلون ذلك وكأنهم رياضيون مشتركون في سباق شد الحبل ، فكأنهم
لم يكونوا يعملون فقط ، بل يحاربون الحبال النازلة ، والعارضة الصاعدة .
فقد كانوا يهاجمون تلك الحبال الصماء وكأنها مخلوقات حية يبنون
اخضاعها ، وكان العرق يتصبب منهم ، والفناء يتزايد ، والحبل الاصفر
الغليظ المشدود يبدو صلبا كالفلواذ ، وهو ينزل على أيدي أولئك الرجال
ذوي العضلات المفتولة . وكانت البكرات تصيح احتجاجا ، كما كانت
الحلقات المرتخية تن ، أما العارضة فكانت تهز وترتجف وهي في طريقها
الى أعلى .

وهكذا ارتفعت العارضة أخيرا الى أعلى الصاري . وكانت أشعة
الشمس المتوهجة تنصب علينا ، ولم يكن هناك ظل نحتمي فيه ، وكان البحر
نفسه يكاد يغلي من قسوة أشعة الشمس ، كما كان العرق يسيل أنهارا .
لقد كان عملا شاقا بالفعل ، وكان من الصعب على البحارة أن تستقر
أجسامهم ، وهم يخططون مرة بعد أخرى بأقدامهم الجافة الضخمة على سطح
المركب الخشبي ، وهم يرفعون العارضة ويفنون ، وكلما ارتفعت قليلا
تسارع غناؤهم وهم ينشدون :

يا الله أعنا واملا شراعنا بالرياح !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
امنح القوة لسواعدنا ولنا جميعا !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
انفخ الرياح بقوة على جميع هذه البحار !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
يسر لنا سفرنا !

يا الله ساعد سفينتنا الطيبة على السفر ! (١)

(١) تسمى أغنية رفع الشراع هذه « الخطفة » أنظر كلماتها باللهجة الكويتية في الملحق
رقم (٤) . (المترجم) .

هكذا كانوا يغنون جميعا ، لقد كان الجهد المبذول في الغناء كافيا وحده لارهاق أي رجل عادي قوي البنية في ذلك المناخ القاسي . فقد كانت العضلات متوترة . والعرق يسيل على سطح مركب دون أن يهتم به أحد ، وكانت الشمس تتوهج حتى يصبح رمل الشاطئ الأبيض مؤذيا للعيون ، والوهج المنعكس من على الأبنية البيضاء لا يمكن مواجهته . لقد كانوا يغنون بتلك القوة الهائلة المنبعثة من رجولتهم الجامحة ، وكانوا يغنون بعنف وقوة تنبعث من حناجرهم كافية بعد ذاتها لرفع تلك العارضة لو كانت معداتها أفضل مما كانت عليه . ولكن البكرات كانت غير مزيّنة ، ولا تعمل بكفاءة عالية ، كما كانت حبال الشراع لزجة ومتآكلة من كثرة الاحتكاك ، وكانت الحلقات ثقيلة والعارضة ضخمة ، كما كانت زاوية ميل الصاري تجعل العمل أكثر مشقة ، الا أنهم ، على الرغم من كل ذلك ، كانوا يتابعون عملهم ويغنون . فان العربي لا يشكو قط من عدم الكفاءة ، اذا أمكن تعويضها بالقوة المجردة .

ومع أنهم كانوا يعملون بجهد كبير ، الا أنه لم يبد عليهم أي اجهاد في التنفس ، فقد كانوا جميعا في حالة جسدية ممتازة ، نحيلين على غير ضعف ، بالرغم من وجبات اللحم التي تناولوها في زنجبار . وقد خلعوا دشاديشهم الطويلة ، ووقفوا عراة الصدور الا من وزراتهم . كما كانوا حاسري الرؤوس بعد أن كانت الكوفيات قد انزلت عن رؤوسهم . وكانوا يطرقون الارض بأقدامهم العارية دون توقف ، بينما كان يوسف الشيرازي وجاسم الطباخ يعملان بسرعة وجهد كبيرين للف الحبال المتدلية حول العارضة المخصصة لذلك . وكانت عضلاتهم تهتز على تلك الظهور السمراء اهتزاز سنابل القمح الناضج في حقل نظيف ، عندما تهب عليها رياح متقلبة الاتجاه . وكانت العارضة ترتفع رويدا رويدا الى أعلى بينما كان الغناء يزداد عنفا .

وصلت العارضة الآن الى منتصف الطريق . وعندما رأى محمد ، عريف الملاحين ، ذلك توقف انجميع عن العمل دفعة واحدة ، بينما كان يوسف وجاسم يمسكان بطرف الحبل بقوة ويلفانه حول العارضة بالتناوب . وهنا بدأ البحارة يرقصون ، وكان ثلاثة أو أربعة منهم يرقصون على الباب المؤدي الى داخل المركب ، بينما كان محمد والآخرين يرقصون حولهم ، ولم يكفوا عن الغناء رغم اختلاف الجرس ، فقد كانوا يدقون الارض بأقدامهم ، ويصفقون بأيديهم المقروحة تصفيقا يتمشى مع الأغنية ، فتصدر عن تصفيقهم أصوات كأنها قرع الطبول . وكانوا يغنون « الله سيدي ، الله سيدي » ، ويدقون ويدقون بأقدامهم الحافية حتى اهتزت السفينة

بأكمله • وقد دام غناؤهم ورقصهم بضع لحظات بانسجام كامل ، محافظين على الايقاع أحيانا بكامل أجسامهم ، وأحيانا أخرى بأيديهم وأقدامهم فقط • ومن آن لآخر ، كان أحدهم يندفع الى وسط الحلبة ، ويؤدي رقصة خاصة مصحوبة بالصراخ والعويل • لقد كان محمد قائدا جيدا •

وبعد أن انتعش البحارة من الرقص ، هبوا مرة ثانية للامساك بالحبال ، وهم يطلقون تلك الاصوات العميقة الصادرة من حلوهم ، وتبعهم عبد اللطيف بالغناء • لقد كانوا يعملون في السابق بعنف شديد ، ولكنهم أصبحوا يعملون الآن وكأن بهم مسا من الجنون • فقد قفز حسين قائد الدفة ، وعبد الله بن سليم وإبراهيم بن سليمان ، وناصر الفواص ، على الحبال من الجهة الامامية للصاري ، وتسلقوها وتمسكوا بها عند البكرة ، وأخذوا يشدون ذلك الحبل الاصفر المتوتر ليرغموا البكرة على الهبوط والعارضة على الصعود • وقد كانت كل عضلة في أجسادهم تهتز وتتوتر ، وازدادت سرعة غناء عبد اللطيف ، وكان يتخلل ذلك صيحات الحرب الصادرة من سعود والبحارة الآخرين الذين قدموا من المركب الكبير • وكانوا ينشدون الاغنية التالية :

اصعدي عاليا أيتها العارضة !
لا تظني أن باستطاعتك أن تستريحي !
انتشر أيها الشراع الكبير ،
وضم الى صدرك
الرياح التي يبعث بها الله ،
لأننا متجهون الى الوطن (١)

هكذا كان عبد اللطيف يغني ، وقسمات وجهه تتلوى ، بينما كان ظهره العريض مشدودا للعمل ، فقد كان يقوم بقسط من شد الحبال علاوة على قيامه بقيادة الغناء • وقد أخذ الغناء يتسارع بينما كانت البكرة تنزل الى أسفل • وقفز بحارة آخرون يتسلقون الحبال كالقروذ ، ويد أحدهم فوق يد الآخر ، بينما الحبل يمر من بين أصابع أقدامهم • لقد صعد يوسف العجوز مرة أخرى ، ثم محمد ، ثم خليفة قائد الدفة ، ثم سلطان المؤذن ، وتابعوا تسلقهم وأجبروا الحبال على النزول ، ثم تساقطوا ،

(١) يقول العارفون من الكوييتيين بان الاغانى التى تنشأ فى هذه المناسبة هى ذاتها المذكورة فى الصفحتين السابقتين ، مع شئ من الزيادة او النقصان فى بعض الاحيان • اما هذه الاغنية التى يذكرها المؤلف فغالب الظن أنها من نسج خياله • (المترجم)

وأجسادهم تقطر عرقا وهم يصيحون ، بين الجمهور الموجود على سطح المركب بالقرب من الصاري ، وما زالوا يدقون الأرض بأقدامهم ويصيحون ويغنون ويهزجون • لقد كانت هناك مجموعات منهم عند البكرة العليا حول الصاري ، كما اصطف عدد منهم في صفين متراصين على كل جانب من جوانب السطح الرئيسي ، الممتد من مؤخرة المركب الى عارضة التثبيت في المقدمة • وهكذا تابعوا رقصهم ، ثم عودتهم الى العمل ، الى أن وصلت العارضة الى مكانها في الاعلى • والان حان وقت تثبيت الحبال • ولكنهم كانوا يغنون ويصيحون بصوت هادر جدا ، لدرجة انهم لم يسمعوا الاوامر بالتوقف ، وكادوا أن يقتلعوا العارضة كلها من جذورها • ولكن لحسن الحظ ، أنهم سمعوا الاوامر في الوقت المناسب ، وانتهت المهمة •

لقد قاموا بعملهم بشكل جيد كما اعتقد ، وكان هذا العمل يثيرني دائما ، وأحيانا كنت أشاركهم فيه • الا أن السرعة التي كانوا يؤدونه بها كانت أكثر مما أطيق ، فلم أكن أستطيع العمل معهم أكثر من ربع ساعة ، كما لم أتمكن أبدا من اتقان غنائهم بصوت أجش ، أو من التصفيق العالي جدا بالأيدي • كما أن الدق على سطح المركب بأقدامي العارية كان يؤلمني • ومع أنني كنت حافي القدمين على ظهر ذلك المركب لمدة أشهر ، مما جعل أرض قدمي قاسية جدا ، تمكنني من السير على الحجارة الصوانية ، الا أنه لم يكن بإمكانني أن أقفز وأدق بهما على سطح ذلك المركب غير المستوي •

وما ان ارتفعت العارضة ، حتى انبرى كل من البحارة لتنفيذ أوامر أخرى ، كاعداد أجهزة الرفع من البكرات والحبال والسلاسل المختلفة ، وتنظيف وصيانة المعدات الاخرى • وقد انثنى البحارة للقيام بهذه المهمات الجديدة وكأنهم محاربون انتهوا لتوهم من صد هجوم كبير ، ولكنهم سمعوا أن هناك فجوة فتحتها العدو في الأسوار في مكان ما • ولم يتوقفوا عن الفناء قط ، وان كان نوع غنائهم قد اختلف ، فقد أصبح أكثر هدوءا وهم يتراكضون ويتجمعون في مجموعات حسنة التدريب • وعندما انتهوا من العمل كله ، عب كل منهم جرعة سريعة من الماء الفاتر من خزان جاسم •

عندما انتهى رفع العارضة غادرنا رجال عبد الوهاب ، وعادوا الى مركبهم • وقبل غروب الشمس بقليل وصل حمد بن سالم الى المركب حاملا كيسا من الشلنات • وعند مغيب الشمس أقيمت الصلاة ثم أفلت الشراع الرئيسي من عقاله بكل هدوء ، وفك الحبل الذي كان يصلنا بالمركب الكبير ، وبدأنا الاقلاع • لقد كانت أمسية جميلة ، تهب فيها ريح شمالية هادئة مؤاتية للبحار • وقد غادرنا زنجبار مع « بوم » فارسي ، وسمبوك صغير ،

وجدبوتين من صور بعمان . وعندما غادرنا نقطة الانطلاق ، كان الشفق خلفنا واستمر النسيم العليل . وقبل منتصف الليل ، كنا نسير بمحاذاة الأضواء المنبعثة من مدينة « دار السلام » .

وفي الصباح وجدنا أنفسنا مقابل « رأس كمبيجي » ، وقد زاد هدوء النسيم الذي كان نشطا خلال الليل . وكانت السحب الكثيفة المحملة بالمطر تغطي ساحل تنجانيقا . ولم يمض وقت طويل حتى مرت بنا بعض الزخات الغزيرة ، ساد بعدها هدوء قصير ، ثم نشطت الرياح الشمالية ثانية وتابعتنا ابهارنا . ومضى الصباح بطوله ومركبنا يخوض عباب اليم بهدوء على طول ساحل تنجانيقا ، مقتربا تدريجيا من مصبات نهر روفيجي . وقد كنا نبحر بمحاذاة الشاطئ ، ولكن المياه كانت ضحلة جدا في بعض الأماكن ، مع أن مركبنا لا يحتاج لكي يعوم الى أكثر من خمسة أقدام من الماء . لقد كانت هذه المياه أخطر من جميع المياه الأخرى التي أبحرنا فيها . فقد كانت مملوءة بالشعاب المرجانية ، والجزر المنخفضة . وكان قاع البحر الرملي يرتفع أحيانا حتى يكاد يلامس غاطسنا . لكن لم يكن كل هذا يشغل بالنا ، فقد كان معنا مبارك العماني المرشد لهذه النواحي ، الذي كان نجدي قد استخدمه بتوصية من ذلك الوكيل الغامض في سوق زنجبار . أما حمد بن سالم ، وعبد الله أخو التوخذة ، والبحارة الآخرون ، فلم يسبق لأحد منهم أن وصل روفيجي من قبل ، لأن المراكب الكويتية كانت حديثة العهد في ذلك الإقليم ، وكان الدخول الى الدلتا يتطلب معرفة دقيقة بالظروف المحلية . فلم تكن الفنون الملاحية الأخرى تفيد في إيصال المركب الى هناك . وقد علمت أن الملاحه في نهر روفيجي نفسه ستكون أسوأ .

في تلك الاثناء كان بحارتنا مشغولين برفع أكياس التمر العدنسي السيء من المخزن ، وانقائها على سطح المركب ، حتى أنني خشيت أن ينقلب بنا . وقد كانوا يلقيون في البحر بالأكياس المتعفنة ، التي كانت تنطلق منها رائحة كريهة للغاية . أما ما لم يكن متعفنا بالنمل ، فقد حفظوه وخزنوه مرة ثانية ، وهكذا بقي حوالى ستين كيسا . ولكن حتى الأكياس الباقية التي وصف تمرها بأنه جيد ، فقد كانت تحوى بالفعل تمرا رديئا جدا . وقد ذقت ثمرة بناء على اقتراح من حمد ، فكان طعمها شبيها بطعم الدبس المتخمر مضافا اليه نكهة زيت السيارات ، وقد عجبت لماذا احتفظوا بذلك التمر وهو على تلك الحالة .

وعندما وصلنا الى الطرف الشمالي من دلتا روفيجي تقريبا ، مررنا بحذاء لسان من ساحل يمتد من جزيرة منخفضة . وفجأة ، وبأمر من مبارك

العماني ، توقف المركب داخل ذلك اللسان ، وأنزل الشراع ، وألقينا المراسي . وقد رأيت أن بغلتين كبيرتين كانتا راسيتين على القسم الداخلي من اللسان بقصد التنظيف . وبسؤال حمد ، أفاد بأن هذه هي جزيرة كوالي ، وأن علينا أن نرسو لنقوم بتنظيف المركب .

لم أكن أعلم من قبل أننا سنزور جزيرة كوالي . وفي واقع الامر لم أكن قد سمعت حتى باسم تلك الجزيرة حتى تلك اللحظة ، فلم يكن أحد قد ذكرها من قبل ، كما لم تكن موجودة على خريطتنا الصغيرة . لذلك لا بد من الإشارة الى أن كوالي جزيرة منخفضة قريبة من ساحل تنجانيقا ، تقع على الجانب الشمالي من دلتا نهر روفيجي . ومع أنني لم أكن قد سمعت بها من قبل ، الا أنها مكان مطروق بالنسبة للعرب المتجهين جنوبا . وكان الألمان قد استفادوا منها عندما كانت تنجانيقا تسمى « مستعمرة شرق افريقيا الألمانية » قبل عام ١٩١٤ ، كما أن بناية الجمرك التي أقاموها من الحجر لا تزال قائمة حتى الآن . والجزيرة مرفأ تمر به المراكب المتجهة الى سلالي وكيلوه ولندي ، ويقوم موظف جمارك سواحيلي بالصعود الى المراكب المتجهة الى الداخل ، ويجمع الرسوم القليلة المستحقة ، وينتبه الى أن المراكب لا تقوم بتهريب كثير من البضائع . وقد زارنا هذا الرجل المدعو السيد تموثي أنطون قادما في قارب من الساحل ، ولكن ، حتى قبل أن نراه ، كان بجارتنا قد بدأوا الاستعدادات لكدج المركب الى رمل الشاطئ ، وكنت مهتما بأن أشهد هذه العملية . فقد شاهدت بعض المراكب الكبيرة وهي تكدج الى الشاطئ من قبل في موانئ عدن وممباسا وزنجبار ، ولكن كانت هذه هي المرة الاولى التي يقف فيها مركبنا على رمل الشاطئ وأنا على متنه . لقد كان « بومنا » مركبا عميقا كبير الارتفاع ، بحيث لم يكن بإمكانه أن يقف على رمل الشاطئ بدون سند ، كما هو الحال مثلا بالنسبة للمراكب التي تمخر نهر التيمز ، بل كان علينا أن نسند به بدعائم ، مثله في ذلك مثل جميع المراكب العربية . ومع ذلك فقد كان من الخطر أن نترك الصاري الرئيسي قائما ، لأنه من الممكن أن يتسبب في انقلاب المركب اذا هبت عليه أقل نسمة من الهواء .

لقد كان من عادة العرب أن ينظفوا قعر مراكبهم ، وأن يقوموا بأية اصلاحات ضرورية ، برفع تلك المراكب الى رمال أحد الشواطئ التي يكون المد والجزر فيها كبيرين . فكانوا يدخلون بها بعد أن ينزعوا الصاري الرئيسي ويفرغوها من البضاعة كلها ، وذلك في أثناء المد العالي ، ويسحبونها ومؤخرتها باتجاه الشاطئ الى أبعد ما يمكن أن تصل . وعندما يأتي الجزر ترسو على الرمل ، ويسندونها بدعائم خشبية قوية يصل عددها الى ثمان

أو عشر من كل جانب • وكلما أتى المد عثوم المركب مرة أخرى ، وكثيرا ما يخلع بعض تلك الدعامات • ولذلك فان العناية بالمركب الواقف على رمل الشاطئ مهمة هامة وأحيانا مزعجة أيضا • أما تثبيت المركب فى مكانه فيتم عن طريق مراسى تربط بها المقدمة والمؤخرة ، وكلما أتى مد عثومها ، فإذا جاء الجزر أنزلها الى الأرض ثانية •

يبقى المركب على رمل الشاطئ عادة مدة يومين أو ثلاثة فقط ، الا إذا كانت هناك اصلاحات ضرورية • أما مركبنا فقد كان جديدا نسبيا ولم تكن فيه ألواح تالفة ، لذلك لم يكن بحاجة الى أية اصلاحات • وفى اليوم الاول ، كشط الطلاء الدهنى القديم ، وفى اليوم الثانى ، طلى بطلاء جديد (١) وتطلب ذلك الكثير من الجهد وصاحبه الكثير من الغناء • وفى اليوم الثالث عثوم المركب ثانية وجهزت معداته ، وبهذا يكون العمل قد اكتمل • ولا يشارك فى هذا العمل الا أهل المركب ، كما أن المركب يحمل طلاءه معه • وقد كان طلائنا مؤلفا من دهن الجمل المحفوظ فى صفائح نפט قديمة ، ومن الجير الحى •

لقد كان أول ما ينبغى على بحارتنا القيام به هو انزال الصارى الرئيسى • فقد كان صارى مركبنا يعلو ثمانية وسبعين قدما عن السطح ، كما يبلغ محيطه على السطح ستة أقدام تقريبا ، وهو مصنوع من خشب الساج القوي الثقيل جدا • وكنت أعجب كيف سيتمكن العرب من القيام بانزال مثل هذا العمود الثقيل ، ولكنهم كانوا قد توصلوا الى طريقة ربما تعود الى آلاف السنين ، تجعل من ذلك الامر عملية سهلة • وفى البداية تخلصوا من العارضتين الطويلتين الرئيسيتين والمزيتية ، ومن الاعمدة الاخرى الملقاة على السطح بالقائها من على ظهر المركب الى البحر حيث تربط معا وتعود الى الشاطئ مقطورة الى « عفرة » ، والى القارب الطويل • وعلى الشاطئ تثبت ببعض الشجيرات ، وتبقى هناك الى أن يحين وقت السفر • أما المهمة الثانية ، فقد كانت انزال حبال الصارى والاو تاد من المركب • وكما فى جميع المراكب العربية ، فقد كان الصارى الرئيسى فى مركبنا يثبت فى الجزء الامامى من الفتحة الرئيسية ، التى تشبه المذود ، التى تشكل ما يشبه الفراش الذى يرقد فيه الصارئ • وعندما يكون الصارى مرفوعا ، يتكىء

(١) دهن المركب من الخارج كان يتم « بالشونة » وهو دهان يتألف من الودك (أى دهن الية الخروف المذابة) مضافا اليه شيء من النورة التى تعطى الدهان اللون الابيض • وكان هذا الدهان يستخدم لطلاء قاطس المركب الملاصق للماء وذلك لحماية الألواح والمسامير من امتصاص الماء • (المترجم عن أحمد البشر الرومى) •

على الطرف الامامي من الفتحة ، وعندما ينزل ، يرقد في المذود . وهو يرفع وينزل بسهولة بواسطة الحبال الخاصة به . ولكي ينزل ، لم يكن الامر يحتاج الى أكثر من رمي الحبال فى المكان الذى يستقر فيه جذع الصارى ، على العمود القوى ، فى الجزء الامامى من الفتحة . ثم يرفع الصارى عموديا، ويمال قليلا باتجاه المؤخرة بالحبال الرئيسية ، ثم ينزل الى الخلف بعناية ، ويثبت هناك بمعداته . فلم تكن هناك حبال وملاسل قائمة تحتاج الى انزال، بل كانت تتألف من روافع تتلاءم تماما مع هذه العملية . وكان الصارى يمتد الى الخلف ، على طول مذود الفتحة الرئيسية ، ويرمي بثقله على دعامة تمتد على بداية ارتفاع المؤخرة ، بينما يبرز رأس الصارى من فوق المؤخرة . أما عارضتنا المزينة ، فلم ننزلها ، لأنها كانت تتألف من عمود خفيف مثبت فى سطح المركب فقط ، ولذلك كان بإمكاننا أن نرسي المركب على رمل الشاطئ دون أن ننزعها . أما اذا احتاج الامر الى نزعها ، كما كان يحدث دائما فى الكويت، فقد كانت ترفع كلها بواسطة بكرة بسيطة، موجودة فى أعلى الصاري الرئيسى ، بينما يكون هذا الصارى الرئيسى مثبتا بواسطة بكراته الخاصة فى أثناء انزاله لمدة كافية يستعمل خلالها كبرج يستند عليه الصارى المزينى وهو ينزع من مكانه .

لقد كان أسلوب العمل بسيطا ولكنه واف بالغرض ، ولم يستغرق فك الاجزاء المذكورة أكثر من ثلاث ساعات ، كان بعدها المركب جاهزا للوقوف على رمل الشاطئ . أما البغلات ، فلأنها كانت أقل عرضا وأعمق من البوم ، فقد كان على بحارتها ألا يكتفوا بتنزع صارييها الاثنين فحسب ، بل كان عليهم أن يخرجوهما من على ظهر المركب كلية ، قبل أن يجرؤوا على ايقافه على الشاطئ . وقد حدث ان انقلبت بغلة أحمد رضوان الكبيرة ، المسماة « أمل الرحمة » على شاطئ المعلا ، بسبب اهمال هذا الامر ، واضطرت الى البقاء هناك حتى عثومها مد الربيع . أما البغلان اللتان كانتا راسيتين على شاطئ كوالي ، فقد كانتا منزوعتي الاشرعة جميعا ، وكانت احدهما المسماة « بدري » ، تخص بدرا بن عبد الوهاب . أما الاخرى فكانت تخص عبد الرزاق العماني ، الذي كان قد حصل على اجازة قيادة المراكب العربية من زنجبار مؤخرا . وقد قدر لنا أن نرى هذا الرجل الأحول كثيرا فى ذلك المكان وفي الدلتا ، لأنه كان متجها الى روفييجي ، كما كان بدر متجها اليها أيضا .

وبعد أن انتهينا من تعويم اعمدة المركب ، ومن انزال الصاري الرئيسى ، ووضعنا على طول المركب ، أصبحنا جاهزين لكدج المركب الى الشاطئ عندما يصل المد . وكنا قد نزعنا عجلة القيادة وربطناها الى

جانب المركب ، كما كن صندوق البوصلة مخزونا في القمرة الكبيرة ،
ولذلك فقد بدا ظهر المركب في حالة فوضى . لقد كان ارساء المركب عملا
بسيطا ولكنه مجهد جدا ، يتطلب كدجه عند ارتفاع المد وتركه على الارض
وقت الجزر . وقد استغرق ذلك العمل الليل بكامله ، لأن الساحل المنخفض
كان يمتد عدة أميال وكان علينا أن نكدج المركب مسافة بعيدة . فقد كان
القارب الطويل يدفع الكدجات الى الامام أكثر من اللزوم مرة بعد أخرى ،
الى أن أمكن في النهاية تثبيته في بعض الاشجار القائمة على المرقع المطلوب
وقد أمضى البحارة الليل بطوله وهم يرقصون ويغنون ويهزجون ، وكلما
كانوا يجرون حبال الكدجات كانوا يؤدون نفس الطقوس . كان سطح
المركب المواجه للمرفأ خاليا ، فكانوا يرقصون على طوله بتشكيل بيضاوى :
نصفهم دائما يشدون الحبل ، والنصف الآخر منهم يعودون رقصا الى
المقدمة ليأخذوا دورهم . لقد كانوا في حركة دائبة يدورون ويدورون ،
وكل منهم يشد جزاء من طرف الحبل ، ثم يرقص ويصفق وهو عائد الى
المقدمة ثانية ، استعدادا لتحمل جزئه من العبء ثانية . وقد بدا لى أن
هذا الرقص ، الذي كانوا يواظبون عليه ساعات طويلة تحت
ظروف مثل هذه ، كان ينعشهم ، فلم يكونوا يحلمون قط بأن يقرموا بأي
عمل شاق بدونه . (١)

وقد عجبت لتلك القوة الرئوية التي كانت تمكنهم من الاستمرار في
هذا العمل ، بالإضافة الى قوة سواعدهم التي دفعت بالمركب بسرعة معقولة
الى مرساه . وقد تم العمل كله بمرح وروح عالية ، على الرغم من أنهم
كانوا يتصببون عرقا حتى أثناء الليل . لقد كان القمر بدرا وكان العمل
يستمر بلا توقف ، لأنه كان علينا أن ندخل مع ذلك المد العالي ، وعندما
اقتربنا أكثر من الشاطئ وجدنا انه ستكون أمامنا مهمة صعبة ، هي أن
ندخل المركب بين البغلتين المذكورتين لضيق المكان . ولكن ما ان وصلنا
الى هناك ، حتى وجدت أن المكان مناسب جدا لها . لقد أدار حمد العملية
يشكل ممتاز ، وأوصل المركب الى مكانه المقرر بسلام .

ولكن النهار أخذ يبرز على جزيرة كوالي قبل أن يتمكن البحارة من
تثبيت آخر الدعائم الساندة له . وقبل أن تثبت المراسى الامامية والخلفية

(١) تسمى هذه العملية (اى عملية جر المركب الى الشاطئ بالطريقة التي ذكرها المؤلف)
« الدوارى » وتستعمل اذا كان حبل المرساة يزيد طوله عن الكيلومتر الواحد . وكانوا
ينشدون في أثناء هذه العملية أغنية خاصة وضعنا نصها باللهجة الكويتية في الملحق
رقم ٤ بادناه . (المترجم)

تثبيتا جيدا • وعند فحص قاع المركب ، تبين أنه في حالة ممتازة ، الا أن
الطلاء الذهني كان بحالة سيئة وبحاجة الى تبديل • لقد كان المركب قد
نظف وطللي في « بربرة » قبل أربعة أشهر فقط ، ولكن ، على الرغم من أن
الطريقة العربية في الطلاء بالجير والدهن كانت فعالة ، الا أن الطلاء لم
يكن يدوم طويلا •

ومع أن البحارة سهروا طوال الليل ، الا أنهم بدأوا في الحال
بكشط قاع المركب وهم يغنون أغنياتهم المعهودة عند قيامهم بمثل هذا العمل •

« قليلا قليلا في كل مرة
الله المعين ، الله المعين
قليلا قليلا في كل مرة
وعما قريب سننجز كل شيء (١) »

وقد استمروا في غناء نفس المقطوعة ساعات طويلة متواصلة ، الا أنهم
كانوا أحيانا يدخلون بعض العبارات التي تناسب العمل الذي يقومون به ، أو
التي تشير الى بعض الاحداث أو الاشخاص العاملين على ظهر المركب ،
معنى طريقة الاناسيد البحرية الانكليزية القديمة • وقد استمر كشط القاع
الى أن انتهى ، بينما كان آخرون يقومون بنفس العمل في القارب «عفرة» ،
وفي القارب الطويل ، اللذين كانا قائمين ومسنودين أيضا على مقربة من
المركب • وما ان انتهت عملية الكشط ، حتى كان المد العالي قد أتى ثانية ،
وعندها تمكنا من تناول بعض الارز والسّمك ، وبعد ذلك تمدد جميع
البحارة في ظل الاشجار القائمة في القرية السواحلية واستغرقوا في
النوم •

كانت كوالي مكانا مريحا وكنت مسرورا بأني بقيت على ظهر المركب •
وكنت أمتع بالسباحة في الصباح الباكر عند ذلك اللسان الطويل الذي
كان يمتد بعيدا باتجاه تنجانيقا ، كما كنت أمتع بالتمشي في غابات كوالي
مع عبد الله و خليل ، نجار مركبنا ، وسعيد نجار البغلة التي تخص «بدرى» •
وسعيد هذا كان مشغولا طوال النهار باصلاح دفة البغلة ، في ظل شراع
منشور على شجرة من أشجار الشاطئ ، وكان خليل يساعده في عمله •

(١) الوائع ان الاغنية التي ينشدها البحارة وهم يقومون بهذا العمل هي نفس الاغنية
المشار اليها في الحاشية السابقة ، الا أن اللحن يختلف عند القيام بهذا النوع من
العمل • (المترجم)

وكنـت أحب أن اراقبهما ، فقد كانا عاملين ممتازين وصديقين حميمين ، وكثيرا ما قاما ببنام المراكب الكبيرة معا في الكويت • وكنا عادة نتمشى ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب ، في القرية السواحلية ، أو على سطح الجزيرة • وكان النجاران يعرفان الكثير عن النباتات ، ويتمتعان بتفحص الاشجار والشجيرات ، كما كانا يتفحصان ، بعين الخبير ، الفتيات السواحليات اللاتي كنا نصادفهن عند الآبار أو في الحقول والبساتين • ولكن الفتيات لم يكن جميلات وقلما كنا نتأخر هناك •

وقد بدا لنا أن كوالي تتألف بشكل رئيسي من صخور مرجانية غير مستوية محاطة بأشجار المانغروف • وكانت أرضها واطئة وتربتها خفيفة ، ولكن المياه كانت متوافرة فيها بكثرة كما كان فيها بعض الاغنام والماشية • أما المساكن فكانت عبارة عن أكواخ من الطين ذات مقوف بسيطة مصنوعة من أغصان الاشجار • وكان أهل القرية يمتلكون بعض المراكب الصغيرة ، بينما كانت أغلبية السكان السواحليين ، الذين يقارب عددهم المئتين ، تعيش على صيد السمك ، فقد كان السمك وفيرا في المياه المحيطة بكوالي ، وكانوا يجففون سمك القرش الكبير ، و « الأطوم » الحيوان البحري الشدي ، الذي كان محبوبا لدى سكان المناطق الداخلية ويباع بسعر مرتفع ، كما كان هناك متجر هندي واحد في القرية •

وبينما كنت أسير على الشاطئ في أحد الايام ، شاهدت عدة قوارب مائلة على جنوبها ، في بقعة منبسطة خلف بعض أشجار المانغروف القديمة المملوءة بالمعد • وكان أحد تلك المراكب جلبوتا مسقطيا يبلغ طوله حوالي خمسين قدما ، والآخر قاربا هنديا صغيرا ، ولا بد أن الاثنين قد قطعوا مسافة طويلة قبل أن يريحا عظامهما هناك • وكنت أتمنى لو كنت أعرف تاريخ ذينك القاربين قبل أن يؤتى بهما ، بعد أن أصبحا غير صالحين للسفر البحري ، ليقضيا آخر أيام الشيخوخة على شاطئ كوالي • وقد عرفت أنهما كانا مسجلين في دار السلام ، وبدا لي أنهما قد وجدا المكان المناسب ليدفنا فيه ، في تلك البقعة الهادئة من الساحل الأبيض ، التي تحف بهما الاشجار من كل جانب ، دون أن يكون هناك أحد يرتل لهما أناشيد الموتى ، سوى صوت الريح أثناء مرورها في الغابة • وقبلالة تلك البقعة ، كنت أرى بوضوح شاطئ افريقيا الرئيسي ، وبعض مراكب الصيد ، وهي تعوم على المياه الزرقاء ، وفوق رأسي كانت طائفة تحلق على ارتفاع شاهق ، أمكنني أن أعرف أنها تابعة للخطوط الجوية الملكية البريطانية. رغم ارتفاعها ، ولا بد أنها كانت تنقل البريد من داربن(١) الى

(١) Durban ، ميناء هام في إقليم ناتال بدولة جنوب افريقيا (المترجم) •

لندن • أما الرجل السواحلي الذي كان معي فلم يلتفت الى الطائرة ، لأن نقل البريد عن طريق الجو أصبح هناك من الامور المألوفة ، وكان جل اهتمامه يتركز على المراكب •

خارج مبنى الجمرک ، شاهدت جزءا من دقة يوم كبير كانت متأكلة الى حد ما • وقد أخبرني السيد أنطون بأن البحر كان قد قذف مؤخرا بذلك الجزء من حطام أحد المراكب ، ولكنه لم يكن يعرف المركب الذي تحطم ، لأن الحوادث من هذا النوع كانت كثيرة ومألوفة • فقبل بضعة أيام فقط ، كانت عاصفة قد حطمت مركبا سواحليا بالقرب من الجزيرة ، وأغرقت أربعة من رجاله ، وكانت حمولتها من جوز الهند مكدسة على الشاطئ بالقرب من مركبنا •

لقد كان أكثر ما أحبته في كوالي هو مرج القرية الاخضر ، الذي كان عبارة عن مساحة خضراء جميلة ، قريبة من الموقع الذي كانت تقف عليه المراكب في الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة • وكان مركز الجمرک يقوم على أحد طرفي المرج ، بينما يوصل طريق من وسطه الى الجزيرة • وعلى جذع احدى الاشجار الكبيرة ، التي كانت تلقي ظلالها على طرف المرج القريب منا ، كانت قد حفرت عبارة « ملعب كرة قدم ١٩٣٣ » • ولكنني علمت من أنطون بأن أحدا لم يعد يلعب كرة القدم في هذه الايام ، بعد أن نتجت عن المباريات السابقة مشاجرات واصابات كثيرة جدا ، ولذلك فقد قرر أهل القرية التخلي عن اللعبة كلية • وتحت الكتابة هذه ، كان شيء آخر محفورا على الشجرة ، ولكن كان من الصعب علي أن أفك رموزه ، وكل ما استطعت أن أفهمه منه هي الحروف : H. M. S. وهي الحروف التي تعني « سفينة تابعة للاسطول البريطاني » ، وكان هناك أيضا تاريخ غير واضح ، يمكن أن يكون ١٨٨٩ أو حتى ١٨٣٩ • وقد حفر تحت هذا رسم لمرساة سفينة • وربما كان هذا اشارة قديمة الى احدى السفن التي كانت تهرب الرقيق ، لأن كثيرا من المهربين كانوا يمرون من هذا الاتجاه وهم آتون من كلوا ، وبحسب ما أخبرني الاهالي المحليون ، وأيد العرب قولهم ، فان مراكب مهربي الرقيق كانت ، عندما تطاردها السلطات في قوارب صغيرة ، تبهر الى داخل جزر مافيا المرجانية وتختبئ في مصبات نهر روفيجي ، ثم كانت تمر ما بين كوالي والبر الاصلي ، ثم تندفع في ذلك الممر ليلا الى أن تصل الى مياه المحيط ، ومن هناك تتابع سيرها بعيدا عن الشاطئ الى شبه الجزيرة العربية •

هناك بالفعل سجلات مكتوبة تدل على حدوث مصادمات عنيفة بين

قوارب مسلحة تابعة للأسطول البريطاني وتجار الرقيق العرب قريبا من شواطئ جزيرة كوالي . ولا بد أن عددا من الرقيق ، الذين كانت تنقذهم البحرية البريطانية ، قد استنشقوا أول نسيم للحرية على هذا الشاطئ ، الذي كنا نقف عليه . فقد كان العرب يعرفون الروفيجي معرفة جيدة ، ويبدو أنهم كانوا يجدون فيه مخبأ ممتازا ، لا لأن الملاحة على ذلك الساحل الرديء المملوء بالشعب المرجانية كانت صعبة فحسب ، بل لأن المكان كان ، بالإضافة الى ذلك ، سيئا جدا من الناحية الصحية . وعلى الرغم من أن كوالي هادئة الآن ، فقد مرت بأيام عصيبة لا يرجع سببها كلها الى تهريب الرقيق . فقد كانت مركزا للطراد الألماني « كوينجزبرج » عندما هاجم زنجبار في سبتمبر ١٩١٤ ، ثم هرب ينشد المخبأ في روفيجي . وقد كانت الروفيجي مخبأ ممتازا لذلك الطراد ، بل لعله كان ممتازا أكثر مما ينبغي لأن الطراد لا يزال راقدا هناك .

كنت أحب الجلوس في ظل شجرة قديمة قائمة على المرج الاخضر ، أراقب بحارتنا وبحارة بغلة بدري ، وهم يصلحون أشراعتهم . وكانت أشراعتنا قد نشرت على المرج وثبتت وبدئ باصلاحها ، وكان المرج مكانا ممتازا لاصلاح تلك الاشرعة . لقد كانت الحياة جميلة ، وكنت سعيدا لأنني لم أتخلف في زنجبار . وقد كان بإمكانني أن أجلس هناك ساعات طويلة ، أتحدث الى صديقي العزيز أنطون ، وبصحبتي قردي « يميد » ، الذي اشتريته من أحد السكان السواحليين بشلن واحد . لقد كانت البقعة جميلة ، وكانت تقف ، في الخلفية على الشاطئ ، المراكب الكبيرة ، وخاصة بغلة بدري الجميلة المنظر ، التي كانت تشبه إحدى السفن البحرية الاسبانية ، بجزئها الخلفى المحفور والمزركش الذي كان يبدو عاليا فوق الاشجار ، وبمقدمتها المنخفضة اللطيفة التي كانت متجهة الى البحر . وقد كانت خطوطها انسيابية جميلة ، الا حيث كانت تحدودب وحيث يبدو عمود المقدمة غير متناسق . وقد كانت انسيابية مقدمتها من أجمل ما رأيت في حياتي ، وكان كل خط من خطوطها يمتد بانسياب نحو تلك المقدمة المنخفضة المدببة ، وقد كنت ، كبحار ، أستمتع استمتاعا كبيرا ، ولا أمل من النظر الى القسم الخارجى من مقدمتها ، التي ترتفع من غاطسها القصير نسبيا ، في خط طويل هادئ ، الى أن يصبح رأسا مدببا منقوشا شامخا أمام المركب ، يسر الناظرين .

لقد كان مركبنا أقل جمالا من بغلة البدري ، بل انه كان يبدو بسيطا ، وربما بشعا أيضا بالمقارنة بها . فقد كانت مقدمة « البوم » مستقيمة ، وكذلك كان عمود مؤخرتها ، كما كانت أطرافه حلادة ، وكان

عمود المقدمة بارزا أكثر من اللزوم ، ودفته ضخمة ، كما كان يفتقر الى أعمال الحفر والزخرفة . ومن الواضح أن « اليوم » كان من المنتجات المتأخرة زمنيا ، والأكثر فائدة من حيث الاستعمال ، وهكذا كان العرب أنفسهم ينظرون اليه . كما أن البغلات أغلى ثمنًا . لقد كان عمر بغلة البدري يزيد عن نصف قرن ، ومع ذلك فلم يكن يشينها أنها كانت منقورة قليلا ، وأن الصدا كان يعلو بعض أجزائها ، كما لم يكن يعيبها أن ألواح سطحها العتيق كانت متآكلة وقديمة ، أو أن دفتها قد نخرها السوس ، وأنها كانت تحتاج الى اصلاح قبل أن تتابع سيرها . لقد كانت سفينة قديمة ، جيدة ، حسنة المنظر ، وعندما أتى اليوم الذي كان عليها أن ترحل فيه ، لاحظت أنها كانت تمخر الماء بجلال وبرشاقة طيور البحر . لقد كانت سفينة بالفعل ، سفينة حقيقية تتمتع بالجمال واللياقة الكاملة للبحار ، وهي في أوجها ، كأفضل السفن . أما بغلة البدري فلم يكن أحد يستطيع القول بأنها كانت في حالة ممتازة الآن ، فقد مضت أيامها ، كما تمضي أيام أي مركب خشبي بعد نصف قرن من الزمان . لقد كانت البغلة خلال حياتها الطويلة تقوم بأعمال تجارية شاقة ، تجلب الاخشاب من ملابار ، وتحمل التمور الثقيلة من اليمن ، ويصل بها المطاف الى افريقيا ، وان كانت لم تتردد على هذه القارة كثيرا ، فقد كانت معظم تجارتها تمتد ما بين الكويت والبصرة وساحل ملابار ، وكان هذا أقصى ما يعرفه العربي .

وبينما كنت أمتع النظر بمراى تلك السفينة العتيقة الجميلة ، واستمع الى أناشيد بحارتها وهم يطلون أجزاءها السفلية ، تمنيت لو استطعت أن أمتلك سفينة كهذه فأنقذ هذا الطراز من الانقراض الكامل في خضم عالمنا الرتيب الممل . فها هنا تقف واحدة من آخر بغلات الكويت ذات المؤخرة المحفورة ، ولم يكن يشبهها الا بغلة واحدة فقط ، اذا استثنينا تلك البغلة التي كان يملكها سليمان سميد الفارسي ، التي لم تكن شيئا بالنسبة لها . فقد بنيت هذه في مدينة صور ، ويمتلكها فارسي ، ومسجلة في الكويت لتسهيل عملها . وقد خطر لي أن أحدا ما ينبغي أن يمتلك احدى هذه السفن القديمة ، ويتأكد من انها ستمعيش وتبقى في هذا العالم ، تحيطها العناية اللائقة بها . ولكن من هو الذي سيفعل ذلك ؟ ولم لا أكون أنا ذلك الشخص ؟ فقد كنت مؤهلا تماما للقيام بتلك المهمة . وكلما فكرت في الامر ازداد تعلقى بالفكرة ، فالعرب لن يحتفظوا ببغلة لأسباب تاريخية محضة ، فلم تكن العاطفة تجاه السفن تعني شيئا بالنسبة لهم ، فقد كانوا يستبدلون هذا النوع من السفن بالبومات الكبيرة ، وكان هذا يعني زوال عهد المؤخرة المحفورة . ان الابقاء على البغلة مهم من الناحية التاريخية ، ليس لأن جسم البغلة كان ينحدر تاريخيا من أفضل واسرع

المراكب العربية فحسب ، بل لأن مؤخرتها المزخرفة زخرفة فنية جميلة كانت على ما اعتقد من بقايا السفن البرتغالية .

استلقيت تحت الشجرة ، وأخذت أنظر الى بغلة البدرى القديمة ، والى مركب عبد الرزاق الاصغر حجما ، الذي كان يعوم في تلك اللحظة . وكنت اسمع الدوي الهائل الصادر عن ضرب الطبول ، يتخلل ذلك بـسن الفينة والفينة دفقة من التصفيق الحاد . ومن ظاهر الامور ، كان يبدو لي أن الضجة كانت أكثر من العمل . ثم عدت بتفكيري الى البغلة . فخطر لي أنه من الصعب الاحتفاظ بوحدة منها ، لأن من المستحيل ابقاؤها فى البحار الشرقية ، فهناك سيكون مصيرها التحطم ، كما لم يكن هناك معنى للاحتفاظ بها هناك ، عندما يكون الناس المهتمون بأمورها يسكنون في الطرف الآخر من العالم ، ولذلك كان لا بد من أن تنقل اما الى انجلترا أو الى الولايات المتحدة . وقد فكرت في هذا الامر ، وفي امكانية القيام برحلة كهذه ، فقد كان من الممكن الابحار بأحد المراكب الجيدة في مثل هذه الرحلة . فمن الممكن أن يأخذه الانسان الى البحر الاحمر في شهر ديسمبر ، عندما تكون الرياح الجنوبية مؤاتية ، وربما حالفه الحظ فوصل الى منتصف الطريق قبل أن تواجهه الرياح الشمالية القوية المندفعة بين بيريم وسويري (عند باب المندب) ، ومن بيريم ستكون رحلة شاقة جدا الى سويري تمتد خمسمائة الى ستمائة ميل . فالبحر الاحمر طويل الا أن من الممكن الوصول اليه . ثم تصل الى السويس فيقطرها قارب طويل ، وتعبر الى البحر الابيض المتوسط فتقطعه الى مضيق جبل طارق ، الذي يمكن أن يكون العبور فيه صعبا بالنسبة للسفن المتجهة غربا . وعندها تكون المتاعب قد انتهت ، لأن الرياح الشمالية التي تهب بمحاذاة ساحل البرتغال تدفع بالمركب الى الرياح التجارية التي لا يلاقي البحار صعوبة في الانطلاق أمامها باتجاه جزر الهند الغربية ، كما فعل كولومبس من قبل .

لقد خيل الي وأنا متمد على المرج الاخضر في جزيرة كوالي ، بأن تلك الرحلة لم تكن لتواجه مخاطر كبيرة . فحتى بغلة البدرى لم تكن أسوأ حالا من سفينة « نينا » التي استخدمها كولومبوس . وما دام كولومبوس قد تمكن من القيام بتلك الرحلة فيمكن للعرب ، كما يمكنني أن أقوم بها أيضا ، فلم تكن رحلة مستحيلة . صحيح أن عبور البحر الابيض المتوسط يمكن أن يكون صعبا ، وأن الشراع المثلث الشكل ليس الشراع الأمثل للاستفادة من الرياح ، وأن عملا شاقا بالنسبة لاتجاهات الرياح تتطلبه مثل تلك الرحلة . ومع ذلك فقد خيل الى أنها جديرة بالتجربة ، ولكن ليس فى سفينة البدرى ، التى لم تكن لسوء الحظ فى حالة تسمح لها بالقيام

بمثل هذه المهمة ، بل ربما تستعمل لذلك البغلة الكويتية الاخرى ، التى ما زالت على قيد الحياة ، والتى ربما تكون أكثر صلاحية • ولذلك فقد قررت أن أتابع التفكير فى المسألة ، وفى البحث عن البغلة الاخرى •

لقد كان هذا الموضوع من المواضيع السارة ، التى يتسلى بها الانسان، وهو مستلق تحت شجرة افريقية ، يستمع الى أصوات الامواج وصيحات البحارة • وسواء أكان بإمكانى أن أنقذ البغلة من الاندثار أم لا ، فقد كان من الجميل أن يفكر بها الانسان • فقد كانت احدى الصعوبات التى توقعتها هى كيفية الاحتفاظ بالبحارة العرب ، لأنه اذا كان مقدرا لى أن أبحر على سفينة عربية فى رحلة عبر المحيط الاطلسى ، فلا بد من أن يكون لدى مجموعة من البحارة العرب ، مع أن من المحتمل أن يقوم البحارة العرب ، على الرغم من كونهم رجالا أوفياء ، بامتلاك الاراضى والاستقرار فيما لو نزلوا الى البر وشاهدوا الفتيات فى ضاحية بروكلين ، أو حتى فى فلوريدا فى جنوب الولايات المتحدة •

سرحت بنظري الى بحارتنا وهم يصلحون الشراع فى الشمس، وتساءلت عما يمكن أن يكون تفكيرهم بالنسبة لمثل هذه الرحلة • فقد كانوا كالصبيان المرحين ، وكان اصلاح الشراع من احدى تلك المهام التى لم يكونوا يغنون خلال تأديتها ، بل كانوا يسمحون لأنفسهم بالجلوس ، أثناء القيام بها • فقد كانوا يجلسون على الشراع المثبت بالارض بواسطة الاوتاد ، فيصلحونه ويجعلون له اطارا ، بينما كان حمد بن سالم وعبد الله النجدى يشرفان عليهم • ولم يكونوا يفكرون كثيرا بجزيرة كوالى ، على الرغم من جمالها ، بل كانت تعنى بالنسبة لهم مزيدا من العمل ، الذى سيتبعه عمل أكثر ، لأن جمع أعمدة المانفروف من دلتا نهر روفيجى الكثيبة لم يكن عملا سهلا • وعندما ذكرت لعبد الله أن المكان كان لطيفا أجاب قائلا : وما هو الشيء اللطيف فى كوالى ؟ فلم يكن فيها سوق ، كما قال ، كما لم يكن فيها فتيات أو حتى فاكهة • ولكنى أحببت كوالى لهذا كله ، وأكثر ما أعجبني فيها ذلك المرج الاخضر المظلل فى القرية •

قمنا بطلاء قاع المركب فى اليوم الثالث ، وبدأنا بالجانب المواجه للشمس حالما أصبح جافا • وقد سخنا الدهن على نار الحطب على الساحل ومزجناه بالجير تحت اشراف ذلك الملاح الخبير • وكان البحارة يدهنون المركب بأيديهم العارية ، وكانوا يعملون فى الارض الموحلة ، بينما شئ من المزيج يدخل عيونهم • وما أن انتهوا من العمل ، حتى كانوا جميعا ملطخين بالجير والدهن والطين والعرق ، ومع ذلك فلم ينقطعوا عن الغناء • وعندما

انتهى طلاء القاع ، حملوا المراسى مسافة طويلة الى الامام فوق الارض
المسطحة ، لكي يعوموا المركب عندما يأتى المد العالى . وعند العصر كنا قد
عومنا المركب ، وكان العمل سهلا ، ثم كدجنا المركب فى داخل الخليج .

وفى صباح اليوم التالى ركبت الصوارى ، والاجزاء الاخرى مرة
ثانية ، وأبحرنا باتجاه ذلك المكان الغامض المدعو « سمبا أورانجا » فى دلتا
نهر روفيجى .

الفصل الثاني عشر

دلتا التقاسمة

دلتا التعاسة

نهر روفيجي أحد أنهار أفريقيا القوية ، ينبع من مرتفعات تنجانيقا ويجرى شرقا باتجاه المحيط الهندي ، وما زال ، منذ سنين لا تحصى ، يجرف معه التربة من التلال ، ويلقيها فوق مئات الاميال من الشاطئ . أما البحر المقابل له فيمتلئ بالركام الرملى ، وبالجزر المغمورة ، وبالصخور المرجانية التى يستحيل رؤيتها بسبب الطين الذى يجرفه النهر معه . أما مداخل الدلتا ، فتتألف من شبكة من الممرات المعقدة الكثيرة الامطار ، كأن الطبيعة قد خلقتها لتجعل مرور المراكب فى الدلتا صعبا للغاية . فالعوائق المختلفة ، من رمال وصخور ومياه ضحلة ، ومجموعات أخرى من العوائق التى لا يمكن التنبؤ بها ، والتيارات المتقلبة باستمرار ، كلها تتضافر لتكون مجموعة من الصعاب الملاحية التى يمكن أن تسبب كابوسا لأى بحار .

وعلى امتداد مساحة الدلتا الشاسعة ، تغطى المياه ثلاثة أرباعها فقط ، بينما يغطى الوحل الربع الباقي . أما تربة الجزر والشواطئ ، فانهما تتألف من ثلاثة أرباع من الوحل والربع الآخر فقط من الماء . وتزخر المنطقة بالابخرة العفنة ، والمستنقعات الحارة ، والغابات النتنة ، وبأوبئة من جميع الانواع . أما مجرى النهر ، فانه لا يستقر على حال ، بل يتغير من يوم الى آخر بسرعة محيرة ، ومن غير سبب واضح . كما أن قوى المد والجزر والتيار النهري تتغير بسرعة ، وبشكل لا سبيل للطاقة البشرية أن تتكهن به . حتى أن اتجاه جريان الماء فى أى من الروافد المختلفة للدلتا لا يمكن التنبؤ به . وعلى اتساع تلك الدلتا ، أو تلك المتاهة التعيسة المخيفة الموحلة ، تكون روافد نهر روفيجي ، باستمرار ، تشعبات جديدة ، تصل ما بين المجارى المرسومة على الخريطة ، وتغير اتجاهاتها ، حتى أن البحار الذى يعرف الدلتا فى سنة ما ، يمكن أن يعود فى السنة التالية فلا يتعرف على شئ من معالمها . لقد كانت قادرة على تحدى أية محاولات للسيطرة عليها . فمن المحتمل مثلا أن تتحول دوامة الى جزيرة بين عشية وضحاها ، كما يمكن أن ترى ضفة رملية اليوم ، وتجدها وقد جرفت تماما فى صباح اليوم التالى . فكان النهر بأسره مسكون بروح شريرة ماكسة مدمرة ، فالتغيير مستمر ، ولا مجال للهدوء مطلقا ، والنهر خداع باستمرار ، ولا يمكن أن يؤمن جانبه أبدا ، كما أن الدلتا جميعها يخيم عليها جو قاتم ، ثقيل قابض للصدر لدرجة لا يمكن احتمالها . وكانت الامطار تهطل يوميا تقريبا ، بزخات غزيرة تطرق الارض كأنها السياط ، وتخلف وراءها سحبا

من البخار ، فتجمل الجو أشبه ما يكون بحمام تركى • أما عندما لا يسقط المطر ، فان الشمس ترسل شواظا من نار ، فترتفع الابخرة الكريهة من مستنقعات الغابة محملة بالاوْبئة • كما أن الجو بوجه عام سيء ومزعج بشكل مستمر • أما مستنقعات شجر المانجروف ، وجميع الاشجار النامية فيها ، فانها ذات لون قاتم مشبع بالرطوبة • أما الضفاف فانها موحلة ، اذا سار فيها المرء غطس حتى ما فوق الركبتين • كما أن المكان بأسره موبوء بأنواع من البعوض لا يمكن أن يوجد ما هو أشرس أو أكثر جرأة أو أخطر منها في العالم كله •

خلاصة القول أن المكان السيء بشكل يفوق التصور ، ولا أتصور وجود مكان في العالم بأسره يفوق في السوء دلتا نهر الروفيجي ، فاذا كان ذلك المكان موجودا بالفعل ، فاني أضرع الى الله ألا أعيش لأراه ، فانا لم أت بعد على ذكر جميع مساوئ هذا المكان • فهناك التمساح القاتل ، وفرس البحر الضخمة التي تختبئ في مجرى النهر ، وهي على استعداد لقلب قارب ضعيف والتهام ركابه بسرعة هائلة • أما في الغابة ، فان القروود لا تنقطع ثرثرتها وزعيقها • كما أن الطيور المائية ، كالطائر الرفراف ، ومالك الحزين ، فانها تطير على حافة الماء بألوانها الزاهية • وعلى قمم الاشجار العالية تجثم النسور مترقبة • كما أن في الغابة أنواعا مختلفة من الافاعي، منها الضخمة كأفعى البواء، ومنها الصغيرة السامة • ويزخر وحل المستنقعات السام بالعلق والقراد المتحفز للالتصاق بالاقدام ، بالإضافة الى النباتات المتسلقة التي تعيق السير ، والحيوانات الشوكية التي تمزق الساقين • فهنا لا تعيش الا وحوش الغابة ، كما لا يتوافر أى نوع من الغذاء ، وليس فيها أية بساتين ، لانه لا توجد قطعة من الارض الجافة يمكن أن يبنى عليها كوخ واحد فيما عدا « سلاله » ، والقرى القليلة الاخرى • أما الضفاف ، فانها واطئة لا ترتفع الا قليلا جدا عن الماء في الوقت الذي تفيض الدلتا • وعندما يكون المد عاليا ، فان كثيرا من الجزر تختفى من الوجود • أما التيارات السريعة في النهر ، فانها تضغط على الجبال التي تشد السفينة الى البر بقوة مخيفة ، وتقتلع بعض الاشجار الضخمة من اليابسة وتقذف بها على المراكب • ان الابخار في مكان كهذا نوع من الكابوس ، كما أن الدلتا بأسرها حلم مزعج ، وليس هناك ما يؤكل فيها سوى الطعام الذي يحمل على ظهر المركب •

لقد كان البعوض أسوأ بكثير مما تخيلت ، وكنت قد نبهت مرارا الى عاداته الشريرة ، فقد كان متوحشا لدرجة لا يمكن تصورها أو تصديقها • وكان يهاجم البحارة العرب ، عندما تمر مراكبهم من هناك ، بضراوة النمر

الصغيرة وسرعتها • وقد خيل الى أنها لم تذوق طعم الدم البشرى من قبل ،
ولذلك فان حلاوة طعمه كانت تدفعها الى الجنون • فقد كانت أسرابها تهاجم
وتلسع بلا هوادة ، ثم تعود ثانية للهجوم غير مبالية بالعدد الذى يقتل منها •
فاذا سار المرء فى تلك المستنقعات ، ومسح بيده على ذراعه ، رآها كتلة من
اللونين الاسود والاحمر • أما الاسود فهو بقايا أجساد البعوض التى قتلها ،
وأما الاحمر فهو دمها أيضا ، ولكنه الدم الذى تكون قد امتصته من جسده •
وقد كانت وسيلة الدفاع الوحيد ضدها هى أن يغطى الانسان جسمه من قمة
الرأس الى أخمص القدم ، الا أن ذلك لم يكن ممكنا لأن حرارة الجو كانت
لا تطاق • ولم يكن هناك من وسيلة أخرى لتجنب البعوض ، ولكن لم يكن
بامكان الانسان أن يغطى جسمه كله • أما عندما كانت تهب الريح والمركب
راسية فى منتصف النهر ، فلم يكن البعوض مزعجا الى هذا الحد ، لأنه لم
يكن باستطاعته الطيران بعيدا أثناء هبوب الريح • ولكن ما أن يهدأ الجو ،
حتى يكون البعوض قد غطى المركب ، وكأنه سرب من الجراد قد حط على حقل
يانع • ولم يكن هذا كل شيء • فقد كان النحل يهاجمنا أيضا ، وكان نحلا
ضخما ساما ، تجذبه الرائحة القوية المنبعثة من تمرنا الفاسد • وعندما كانت
أسرابه تهاجمنا ، كنا لا نبالي بالتمر لانه لم يكن بامكاننا الاقتراب منه •
وهكذا فقد كان النهار بطوله مسرحا لهجوم النحل ودويّه وقتاله ولسعه ،
أما الليل فقد كان يأتينا بالبعوض • وقد كان المطر قويا لا ينقطع ، وكان
النهر هائجا ، وكان السواحليون صامتين منقبضين كتيبين ، وانتشرت الحمى
بين طاقم بحارتنا كما هلك بعض البحارة العاملين على سمبوك صوري كان
موجودا هناك •

في هذا المكان المخيف المقبض ، في الدلتا التعيسة لنهر روفيحي السريع ،
قضينا شهرا كاملا • لقد كان بحق أسوأ شهر مر بنا طوال الرحلة •

ولم أكن أدري ما تخبئه لنا الاقدار ، عندما دخلنا مصب نهر سيمبا
أورانجا ، وهو أحد روافد النهر العظيم ، عصر أحد أيام شهر مارس ، بعد
أن كنا قد نظفنا المركب على الشاطئ واصبح خفيفا ومرتفعا كثيرا فى
الماء ، حتى أننا لم نجرؤ على نشر الشراع الرئيسي ، بل اكتفينا برفع
أخف الاشرعة المزيينة على الصاري الرئيسي • فقد كان أي ثقل يزيد عن
ذلك كافيا لقلب المركب لان المخزن كان فارغا • فقد خلفنا وراءنا سيلا من
المطر ، وكان المد عاليا جدا والريح معتدلة • كما كان مبارك مرشدنا يرقب
الوضع بحذر بالغ ، ونحن ندور حول نقطة مغطاة بشجر الكزبرينا •
واصبحنا وعلى يميننا مزرعة لشجر جوز الهند ، وعلى مسافة بعيدة منا كان
أحد روافد النهر يمتد باتجاه الغرب ، ولكن مباركا أبلغنا أن هذا المصب



سلالة ، دلتا الروفيجي

كان اخطر مصبات نهر روفيجي ، وانه لا يمكن الملاحة فيه حتى على يد العرب في مراكبهم الشهيرة . وقد وقفنا قريبين من ضفة سمبا أورانجا المواجهة للجهة اليسرى من المركب ، وكان هذا اسم فرع الدلتا الذي دخلناه . ثم درنا حول منحني قائم الزاوية تقريبا ، واقتربنا من الشاطئ الى درجة أن أغصان الاشجار كانت تمس قمة شراعنا . ثم غيرنا اتجاهنا وشرنا بمحاذاة الضفة الاخرى ، لأن مباركا أبلغنا بأن هذا النهر ، على اتساعه ، كان مملوء بالعوائق الخطرة ، كما كان هناك حطام لبخرة تجارية كبيرة ، نصفها غاطس في الماء ، تعترض الممر من الجهة الجنوبية ، ولم يكن يبدو منها سوى الجسر والصاربان وعمودان ضخمان . وقد اخبرنا مبارك ، وهو يزهر بمعلوماته ، بأن هذا المركب هو بقايا سفينة حربية ألمانية ، أغرقها البريطانيون في الحرب العالمية . وقد ابدى حمد بن سالم اعجابه بما سمع ، كما فعلت أنا أيضا ، لأنه كان بإمكانهم أن يصدقوا ذلك ان شاءوا ، الا ان الواقع كان خلاف ذلك تماما . فقد كان ذلك الحطام حطام ناقلة الفحم البريطانية « نيوبردج » ، التي كانت قد اغرقت هناك اثناء محاولتها اعتراض سبيل الطراد الألماني « كوينجزبرج » ، عندما كان هذا مختبئا في «سلالة» في أوائل عام ١٩١٥ . وكانت « نيوبردج » قد أحضرت من زنجبار ،

وارسلت الى المدخل الذي دلفنا منه * ولكن المكان كان في ذلك الوقت محصنا على يد الالمان ، ولذلك فقد لقيت نيوبردج استقبالا حارا منهم ، فلقي عدد من الرجال حتفهم في ذلك النهر السريع ، كما غرقت « نيوبردج » ، ولا زالت ترقد هناك ، حطاما قبيحا في ذلك المنظر الرمادي وقد شق النهر طريقا جديدا بجانبها *

مررنا بالقرب من « نيوبردج » وحرصنا على الا نلمس مقدمتها الفارقة لأن الاصطدام بها كان كفيلا بتمزيق مركبنا اربا اربا * وبعد ذلك بقليل ، تبعنا منحني آخر من منحنيات النهر متجهين الى الداخل ، وكانت اسراب من طيور مالك الحزين ترقبنا ونحن نمر وهي واقفة في الطين قرب ضفتي النهر ، كما كانت القردة تثرثر في الاشجار * وفي احدى الممرات ، رأينا أسرة كاملة منها تتأرجح بين اشجار الغابة ، وقد سر ذلك قردي « يميذ » ، فانفعل انفعالا كبيرا وأخذ يصيح بصوت عال * تابعنا سيرنا ، ونحن نتلوى وندور حول منحني تلو الآخر * وما أن تغير المد ، حتى وجدنا انفسنا وقد وصلنا الى مكان يبعد ستة أميال عن المصب الذي دخلناه ، أخبرنا مبارك بأن اسمه كان « سلاله » ، وكان كل ما استطعت أن أراه من المكان بعض أشجار جوز الهند ، وبيتا واحدا ، ورصيفا صغيرا للسفن ، وبالقرب من الرصيف كان هناك مركبان سواحليان ، كما كانت بغلة عبد الرزاق الصوري راسية على مسافة منهما * فالتقينا مرساتين في مكان ينحدر فيه ماء النهر الموحد بشدة * وفي الحال اهتدى البعوض الينا ، فتحولت حياتنا الى جحيم ، واستمرت كذلك مدة شهر كامل *

لقد امضينا معظم الوقت ومركبنا راس في أحد اذرع الدلتا ، على بعد عدة أميال الى الداخل من سلاله ، قرب المكان الذي يرقد فيه حطام الطراد « كوينجزبرج » ، وقد انقصم ظهره ، على مسافة قريبة من قرية « كيكاله » (١) *

وقد كان جسم الطراد ، الذي كان عظيما فيما مضى ، غارقا في مصب « كيكونيا » (٢) وهو أحد روافد نهر روفييجي ، قريبا من المكان الذي ينزل فيه البحارة الى البر للذهاب الى قرية كيكاله * وكان يرقد هناك كأنه جثة

(١) ، (٢) انظر خريطة الدلتا صفحة ٣٦١ (المترجم) *
(٣) المقصود هنا أن المركب الغارق الألماني ، ولكنه أغرق عام ١٩١٤ أي في الحرب العالمية الاولى حين لم يكن هتلر قد ظهر في ألمانيا ، كما حصل فيما بعد ، وتسبب في قيام الحرب العالمية الثانية التي قام مؤلف الكتاب برحلته البحرية عشية اندلاعها (المترجم) *

فرس بحر ميثة • وكان بحارتنا يمرون به يوميا في ذهابهم وايابهم وهم ينقلون أعواد المنغروف الى المركب ، ولم يكن يعني شيئا بالنسبة لهم ، سوى أنه واحد من مراكب هتلر البحرية الغارقة كأي حطام آخر في الدلتا (٣) • وقد كان المركب يرقد على احد جانبيه ولا يظهر منه سوى جزء من السطح المحطم وجزء آخر من البدن وبعض الروافع • وقد كان ظهره مكسورا ، وبدنه مقسوما الى جزعين في مكان ما خلف الجسر ، وكأنه قد نسف بقنابل المدافع ، عندما وجد الكشافون البريطانيون بعده الصحيح عنهم • لقد كان منظرا كثيبا مقبضا في وسط الماء المتدفق ، أمام خلفية من المستنقعات والسماء المطيرة ، وكان يرقد في الماء العميق ، في مكان ينحني فيه مجرى النهر انحناء واسعا • وكانت النسور ترقب الجميع من أعالي أشجار « البواب » ، وأسراب مالك الحزين ، ذات الاجنحة البيضاء ، تحلق فوقنا ، كما كان السواحليون يجذفون قواربهم الصغيرة ولا يلقون بالا للحطام ، فقد كان المنظر منظرا مألوفا في نهر روفييجي الآن ، لأن الطراد كان هناك وما زال منذ ربع قرن من الزمان •

وعند منحنى آخر من النهر ، في مصب الرافد « كيومبوني » (٤) ، على بعد ميل أو ميلين تقريبا من قرية « سلاله » ، كان يرقد حطام سفينة أخرى هشمته المدفعية البريطانية عام ١٩١٤ ، وقد كانت هذه هي باخرة الشحن المسماة « صومالي » ، التي كانت تابعة لخطوط الملاحة الألمانية في افريقيا الشرقية ، والتي استعملت فيما بعد كمستودع ملحق بالطراد « كوينجزبرج » • أما الآن فهي ترقد حطاما احمر مهشما على ضفة رملية صفراء ، وصاريها الرئيسي ومدخنتها ملتويان ، بينما يمتد صاريها الامامي على جانبها وكأنه انبوبة متفضنة ، وظهرها مكسور وبدنها مقسوم الى جزعين ، يمكن رؤية الغابة من الشق الذي يفصل بينهما •

من هذه الغابة ، وفي المستنقعات القريبة من الطراد « كوينجزبرج » قطعنا أخشاب حمولتنا ، ولكن ذلك استغرق زمنا طويلا ، وما كان علينا الا أن ننتظر ونصبر •

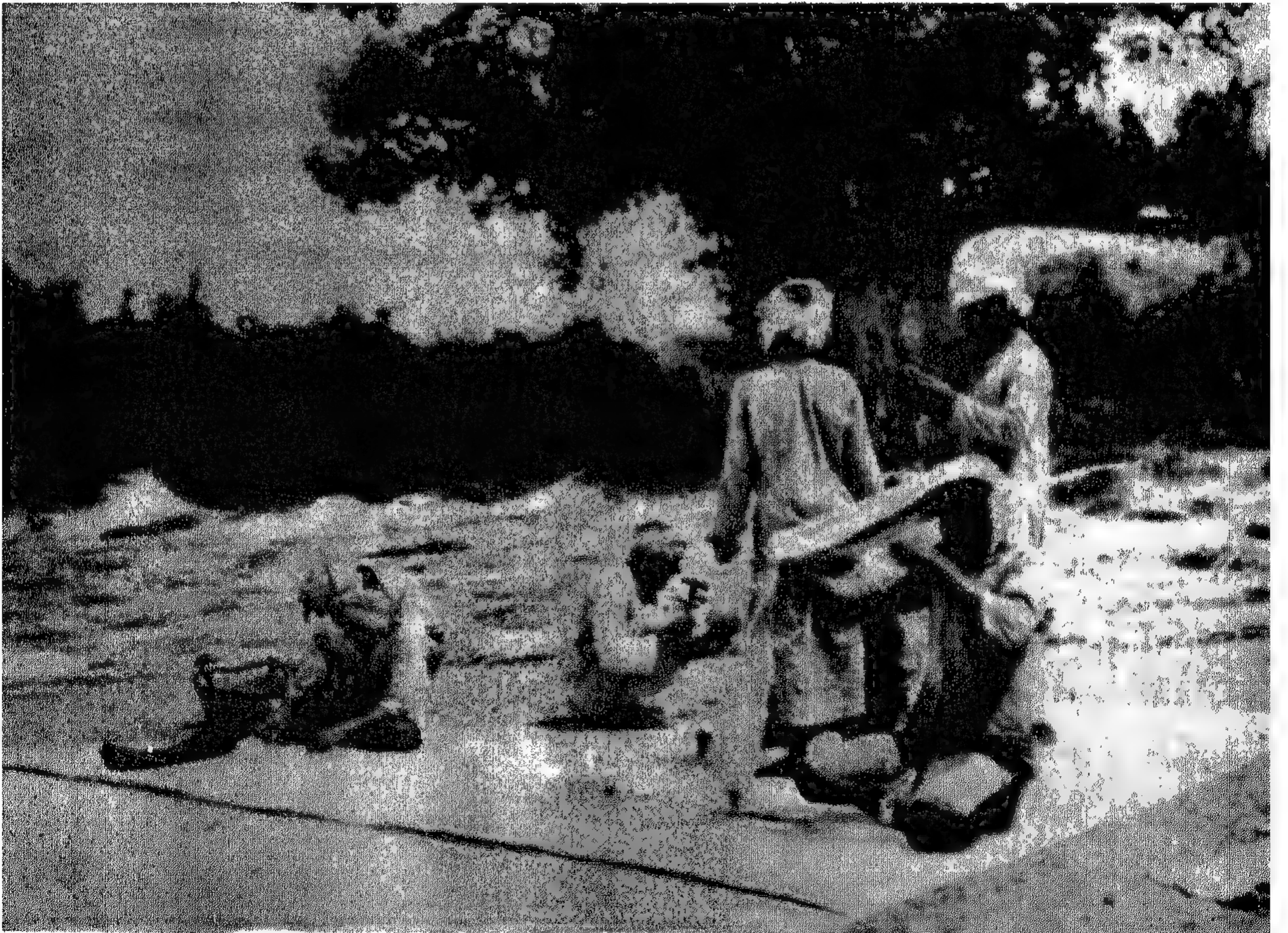
وكانت طريقة تحميل المراكب في روفييجي أن يأتي العرب ، ومعهم أموالهم نقدا ، ويسجلوا مراكبهم واحتياجاتهم في « سلاله » حيث كان يوجد مأمور حراج بريطاني • وكان هذا يبعث بهم الى ذلك الجزء من الدلتا ، الذي كان يعتقد أنه سيزودهم بالأخشاب المطلوبة في اسرع وقت

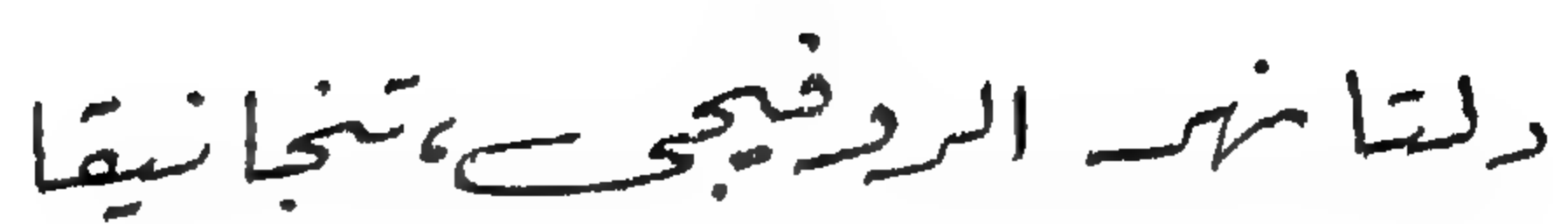
(٤) انظر خريطة الدلتا صفحة ٣٦٦ (المترجم) •

ممکن ، لانه على الرغم من أن المكان جميعه كان مملوء بهذا النوع من الخشب ، الا أن اخشاب الاجزاء القريبة من البحر كان معظمها قد قطع . أما الآن ، فقد كانت المراكب بعيدة عن البحر ، لأنه كان من الافضل أن يؤتى بالجمولة الى أقرب مكان ممكن من ضفتي النهر . لقد استغرق قطع الاشجار وتشذيبها وقتا قصيرا نسبيا ، الا أن نقلها الى مكان التحميل حيث يمكن فحصها وتصنيفها ودمغها ، ومن ثم نقلها الى المركب ، كان يحتاج الى وقت طويل . لذلك كان من الافضل أن تكون المراكب وحدها في أماكن جديدة ، حيث تنمو أشجار المنجروف كثيفة على جانب الماء . (وقد اكتشفت مؤخرا اسبابا أخرى وراء رغبتهم في أن تكون المراكب وحيدة) .

وبعد أن يسجل المركب ويخصص له مكان معين ، كان يبحر مسافة الى أعلى النهر للحصول على العمال ، وكان هذا احيانا أمرا صعبا ، لأن المنطقة لم تكن مأهولة ، فلم يكن فيها ما يغري على العيش ، كما لم يكن السواحليون يحبون الاعمال الدنيئة الشاقة ، ولا يمكن أن يلومهم أحد على

صنع الأشربة في كوالى





ذلك . لقد كان استئجار مجموعة من قاطعي الاشجار يستغرق اسبوعين ، لأن المراكب كانت تأتي في وقت واحد من السنة ، وكان الطلب على العمال كبيرا . فقد كان هناك احد عشر مركبا عندما وصلنا الى هناك ، وكان قاطعو الاشجار المستأجرون يعيشون على ظهر المركب على نفقة صاحبه ، بينما يقومون بقطع الاخشاب نهارا . لقد استغرق قطع الاخشاب وقتا طويلا وان كنا قد حصلنا في وقت قصير على ثمانين سواحليا ، جميعهم أصبحوا يعيشون على ظهر المركب . وكان بعضهم من رجال القبائل ، وبعضهم أطفالا ، والبعض الآخر مساعدين . وكان هناك عدد لا يقوم بأي عمل سوى تناول الطعام ، لانك اذا استخدمت عددا من السواحليين للقيام بالعمل ، فيجب أن تتوقع أن تأتي قبيلة كاملة في أثره طلبا للغذاء . وكانوا ينامون على ظهر المركب ، حيثما يجدون مكانا يستلقون فيه ، ويتناولون الطعام من المركب أيضا . لقد حاول حمد أن يطعمهم من التمر الفاسد ، الا أنهم ابوا أن يتناولوا شيئا منه . ولم يمض وقت طويل حتى اضطررنا الى اقتراض كمية من التمر من المراكب الكويتية الاخرى الراسية في الدلتا . لقد كانت شهية السواحليين هائلة ، وفي كثير من الاحيان كانوا يأكلون الطعام كله ، ولا يتركون شيئا منه لطاقم المركب . ولكن البحارة كانوا يعانون دون شكوى ، لانهم كانوا يعلمون أن عليهم الا يقوموا بعمل يسيء الى السواحليين ، على الرغم من أنه لم يكن هناك داع لجوعهم ، لاننا ، بدون السواحليين ، لم يكن من الممكن ان تغادر ذلك المكان التعيس ، ولذلك فقد كان علينا اطعامهم . لقد كانت حكومة تنجانيقا تشرف على حقوق قطع الاشجار من غابات دلتا روفيجي ، ولكن كان من عاداتها أن تؤجر تلك الحقوق الى شركة خاصة مقابل رسوم معينة . فيقوم العرب بشراء الخشب من الشركة ، بينما يقوم مفتش الحراج الحكومي بمراقبتهم . ولم تكن هناك أية حمولات جاهزة ، بل كان على كل مركب أن يقطع الخشب بنفسه . فلم يكن من الممكن أن يقطع الشجر ويخزن لتأتي المراكب وتحمله . وسبب ذلك أن هذا كان يتطلب جهدا لا داعي له ، علاوة على أنه كان في ذلك العمل خسارة أيضا . فلم تكن ضفتا النهر في أي جزء منه تقوى على حمل ثقل الخشب لمدة طويلة ، بل كان من المستحيل أن تكس الاخشاب اليوم دون أن تنجرف غدا . ولذلك كان السواحليون يقومون بتجميع عشرات الاعمدة في المرة الواحدة ووضعها على ضفة النهر بينما يقوم حراس الغابة بالتفتيش عليها تحت اشراف مأمور الحراج ، ليتأكدوا من انها تصنف تصنيفا سليما ، ثم يدمغونها بخاتم الحكومة ، ولم يكن من الممكن تحميل عمود واحد لا يحمل تلك الدمغة . أما الاثمان فانها تسجل تدريجيا الى أن يمتلئ المركب تماما ، وعندها يدفع ثمن ما تشحنه نقدا . أما العمال ، فتدفع اجورهم على أساس ما يقطعه كل منهم . ويقوم البحارة العرب بنقل الاخشاب من الضفة الى المركب وتحميلها عليه ، كما يمكنهم جمع بعض الحطب

الجاف من الغابات لاستعماله وقودا للنار ، بالاضافة الى الاستقاء من ماء النهر ، وهذا كل ما كان يمكنهم الحصول عليه . لقد اعتاد العرب ، منذ القدم ، المجيء الى دلتا روفيجي للحصول على شحنات من الاخشاب ، وكانت هذه التجارة قديمة . ومع انهم من حيث المبدأ يبدوون ، ولو ظاهريا ، الانصياع للقوانين المؤقتة التي تضعها الحكومات التي يعتبرونها دخيلة معتدية ، فانهم لا يرون مبررا لان يدفعوا مالا لشركة اوروبية مقابل حقهم في أخذ الاخشاب . ففي رأيهم انهم اذا دفعوا للسواحليين الذين تقع الدلتا في بلادهم كان ذلك كافيا . ثم ان القيام برحلة من الخليج العربي على ظهر مركب كبير الى دلتا روفيجي ، وتحمله بخشب المنجروف ، أمر شاق وخطر في بعض الاحيان ، ولم تنظم هذه العملية بشكل أو بآخر الا في السنوات الاخيرة . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أن العرب يواصلون القيام بحملة فعالة ليؤكدوا أن هذا التنظيم لا يعدو أن يكون مظهرا فقط ، الهدف منه تسهيل العمل .

صحيح أننا اشترينا بعض الاخشاب ، وكذلك فعل باقي العرب في الدلتا ، وصحيح أيضا أن حارس الحراج كان موجودا على ظهر مركبنا ، كما كان واحد مع كل مركب آخر في الدلتا ، كما كان مركبنا كثيرا ما يستقبل مأمور الحراج النشيط الذي كان يعمل سابقا في غابة دين بانجلترا وكان ذا عيين زرقاوين براقنتين يدلان على أن من الصعب خداعه . وكان هذا حال جميع المراكب الاخرى في الدلتا ، كما كانت اخشابنا تختتم وتصنف وتدمغ بالفأس الرسمية ، كما كان مراقبو العمال السواحليون مطيعين هادئين دمثين . لقد شحننا مائة وخمسين عمودا خشبيا ، ودفعنا ثمنها . الا أننا كنا قد حملنا مائة وخمسين أخرى لم ندفع ثمنها قبل أن نخادر المكان ، مع أنني لم اكتشف ذلك ، رغم كوني هناك طوال الوقت ، الا بعد أن كنا قد ابهرنا مسافة ألفي ميل بعيدا عن المكان .

ولا شك أن كل مركب عربي في تلك الدلتا ، وربما المراكب الفارسية ايضا ، قد قام بسرقة نصف حمولته ، على الرغم من كل الجهود المبذولة لمنع من ذلك . فقد كان هناك نظام شائع وفعال جدا لقطع وتحميل الاخشاب في غفلة من عيون الموظفين الرسميين ، وان كنت لم اعرف ذلك الا بعد خمسة عشر شهرا . كما أن تلك العملية كان يشترك فيها مشرفو العمال وحرس الاحراج والعمال والنواخذة العرب والبحارة جميعا . لقد كان عملا متقنا ، ولم يكن بإمكان أي أوروبي أن يسبر غور أولئك القوم الذين كانت تبدو عليهم براءة الاطفال . فقد كانوا يتصرفون اثناء القيام بالعملية كلها ، وكأنهم مجموعة من طلبة المدارس يدبرون أمرا ضد مدرسهم ، الذي لا يتمتع

في الواقع بالمهارة التي يظن أنه يتمتع بها . وهل كان بإمكان رجل واحد أن يشرف على تلك المساحة الشاسعة وان يضبط مثل هذه الامور ؟ فقد كان العرب يحملون المراكب في مساحة تقل قليلا عن مائة ميل مربع ، وعلى طول واجهة نهريّة تمتد الى ما يربو على مائة ميل . لقد كان مجرد زيارة كل من تلك المراكب عملا يحتاج الى اسبوع كامل ، ولم يكن في تلك المنطقة بأسرها الا موظف واحد . وقد بدا لي أنه لم يكن في دائرته موظف محلي واحد يستطيع أن يثق به . ولذلك فقد كان دفع مرتبات للحراس ، ليراقبوا المراكب العربية في تلك الاماكن النائية ، هدرا للمال ، لان هؤلاء الحراس كانوا في الواقع لا حول لهم ولا قوة حتى لو افترضنا الامانة فيهم . فلم يكونوا يجرؤون أن يقفوا في وجه جهاز يعمل بفعالية كبيرة كفعالية عملية السرقة هذه ، التي كانت تشبه عمليات ابتزاز الاموال في أمريكا ، وتماثلها من حيث تنظيمها وجرأتها . وبقدر فهمي للعملية ، فاني اعتقد أن مراقبي العمل السواحليين هم قادة المؤامرة ، فقد كان العرب يتسلمون شحناتهم غير الشرعية بمساعدتهم وعن طريقهم . فكانت اكوام كبيرة من الخشب تقطع في أماكن نائية بعيدة عن ضفتي النهر ، لانه كان من المعروف أن مأمور الحراج لا يتوفر لديه الوقت للتجول والتفتيش في المستنقعات المخيفة ، وأنه ربما مات بالحمى لو فعل ذلك (وهو ما كان قد حدث بالفعل لسلفه الذي نقل ميتا من سلالة) . علاوة على ذلك فقد كان هذا المأمور يثق بحراسه ويعاملهم معاملة حسنة . فقد كان مراقبو العمال يخيفون الحراس بالتهديد أو العنف كما يخيفون العمال ، ولم يكونوا يتقاضون أموالا من العرب ثمنا للخشب المسروق فحسب بل كانوا ، على طريقة عصابات الابتزاز الحقيقية ، يستولون على حصة الاسد من نصيب العمال ايضا . وقد كان واحد من هؤلاء المراقبين رجلا قويا صاحب نفوذ بالفعل ، يشبه نفوذ أي فرد من أفراد عصابات الولايات المتحدة ، بل ربما كان أقل تورعا منه عن القيام بأي عمل . وكان هذا الرجل يسيطر على كامل الجزء الشمالي من الدلتا ، ويديره بيد من حديد . فلم يكن من الممكن استئجار أي عامل ، أو توظيف أي حارس ، أو قطع أية شجرة ، دون أمر منه ، وقد استغل سلطته هذه استغلالا كبيرا . وقد اكتشفت أن هذا الرجل هو الذي كان يعنى بأمورنا ، وان مباركا دليل مركبنا كان الواسطة بيننا وبينه .

ومبارك الصوري هذا كان في الواقع رجلا غامضا . فقد كان قصيرا ، بدينا ، في منتصف العمر ، له لحية وخطها الشيب ، وسالفان خشنان على طريقة أهل صور ، وكان من تجار الروفيجي القدماء . وكان دائما حافي القدمين ، مرتديا قميصا طويلا بني اللون مما يرتديه أهل صور فوق ازار أحمر اللون . وكان من عادته أن يحمل خنجرا فضيا ويدهن جفنيه بالكحل .

وكان يتحدث بصوت هادئ منخفض ، يرتفع الى شيء يشبه النحيب عندما كان ينفع . وكان يظهر بمظهر الرجل الشديد التواضع . ثم انه كان يملك مركبا في زنجبار ، كما قيل لي ، وقد كنت أعجب لماذا ، اذا ، يقبل أن يعمل معنا مرشدا ، اذا كان ما قيل لي صحيحا . وجواب هذا السؤال في الواقع هو أنه ، وان كان كفتا كمرشد ، الا أن ذلك لم يكن عمله الاساسي ، فقد كان يعرف أصول اللعبة ، وكان هو الرأس المدبر لها . وكان على ما يبدو لا يهتم بنا فحسب ، بل بكل مركب عربي في ذلك الجزء من الدلتا . وقلما كنا نراه على ظهر الباخرة ، فقد كان يأتي ويذهب بطريقة غامضة ، كما كان صديقا لمعظم السواحليين ، ويتكلم لغتهم بطلاقة ، وهي لغة يسهل على العربي تعلمها .

ولكن كان من سوء حظ مبارك هذا أن مركبه وصل الى النهر بعدنا بقليل ، قادما من زنجبار ، لنقل شحنة ثانية من الاخشاب . ومع أن اسم المركب كان قد غير ، ولم يكن مبارك هو قبطانه ، الا أن مأمور الحراج تعرف عليه كمركب مطلوب للسلطات بتهمة سرقة الاخشاب . اذ سبق لهذا المركب أن جاء في أوائل العام بقيادة مبارك ، وطلب شراء كمية قليلة جدا من الاخشاب ، ولكنه أبحر مثقلا بحمله لدرجة أثارت ريبة مأمور الحراج . ودون أن يعلم مبارك ، كانت الشحنة قد احصيت بعناية بأمر من سلطان زنجبار عندما أفرغت هناك لتباع الى تاجر محلي ، وقد وجد على متنها أكثر من ضعف عدد الاخشاب التي كان مبارك قد طلب شراءها . وها هو مبارك قد عاد ثانية كمرشد لسفينتنا . وفي العادة يعتمد العربي على الشبه الشديد بينه وبين ابناء جنسه — على الاقل بالنسبة لعين الاوروبي غير الخبيرة — ويعتقد أن ذلك يكفي كنوع من التخفي . الا أن مباركا كشف هويته بحماقة واعترف ، دون أن يرتاب في الامر ، بأنه كان ايضا نوحدة للمركب المطلوب ، وقد كان هذا كافيا لاعتقاله . وقد تبين أن أحد مراقبي العمال السواحليين كان متورطا معه بتزويده بالعدد الزائد من الاخشاب ، فسيق الاثنان للمحاكمة في « أوتيتي » في أعالي النهر .

ولكن ذلك لم يعرقل عملنا ، فقد كان عمل مبارك بالنسبة لنا متقنا تمام الاتقان قبل أن يكتشف أمره ، وكان نظام العملية يسير سيرا حسنا ، فقد أخذنا حاجتنا من الاخشاب ، ولكننا لم ندفع الا ثمن نصفها . ومن المحتمل جدا أن جميع اصحاب المراكب الاخرى من العرب في تلك الدلتا قد فعلوا الشيء ذاته .

ويخيل الى أن العرب لا يجوز أن يلاموا لوما شديدا على هذه العملية غير الشريفة . وقد بررها حمد بن سالم على الشكل التالي ، اذ قال : « لو

انصعنا لجميع القوانين لما أتينا • فان من المعروف أنه لا يأتي مركب الى هنا ويعود محملا بالشحنة التي دفع ثمنها رسميا فقط • فاذا لم يتمكن المركب من أخذ الجزء غير الرسمي ، فليس بالمستطاع دفع ثمن الجزء الآخر ، وهكذا فان التجارة تتوقف • ان النظام الحالي يسير سيرا حسنا ، وليس هناك خسارة لأحد • فلماذا التدخل فيها ؟ ان الاوروبيين لا يملكون اشجار المنجروف ، قاله هو الذي جعلها تنمو هناك ، وهي ملك لجميع البشر • وفي افريقيا خشب وفير ، ولكننا في الجزيرة العربية بحاجة ماسة الى الخشب ، والا لما قمنا برحلة طويلة شاقة للحصول عليه •

لقد كانت هذه وجهة نظر حمد ، الذي كان قلما يتكلم ، (وقد أفصح عنها الي بعد مدة طويلة من مغادرتنا الدلتا ، لانه لم يفه بكلمة واحدة طيلة وجود المركب هناك) • وقد أضاف أيضا بأنه ليس هناك من يشجع المراكب العربية على زيارة روفيحي ، فقد كان التأخير طويلا ، كما كان من الصعب الحصول على العمال ، وكان النهر خطرا للغاية • وبالإضافة الى ذلك ، فلم يكن التوخذة مضطرا لدفع الثمن نقدا وفي الحال فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يحمل ذلك النقد معه طوال تلك الرحلة الخطرة المرهقة ، من الطرف الشمالي للدلتا الى « ريما » في الجنوب ، حيث يدفع الثمن لوكيل الشركة • وبالنسبة لهم ، فان وكيل الشركة لم يكن هناك مبرر لوجوده اطلاقا سوى الاستيلاء على نقودهم ، ولذلك فقد كان مدعاة فخر لهم ألا يدفعوا له الا اقل القليل • أما لو كانت التجارة منظمة تنظيما جيدا ، وكانت الاخشاب جاهزة للشحن ، فلم يكن هناك داع لتسلمها من السواحليين • ومع ذلك فقد قال حمد انه لا يعتقد أن مركبنا سيأتي الى روفيحي ثانية • لقد كانت هذه رحلته الاولى وستكون رحلته الاخيرة • أما في المستقبل فانه سيسافر الى « لامو » •

لقد كانت عملية الشحن في الواقع عملية بطيئة وشاقة ومجهددة ، فقد مكثنا عشرة أيام في ذلك الجزء من النهر دون أن نتمكن من تحميل أى شيء على الاطلاق ، بينما كان السواحليون يأتون على ما لدينا من الطعام • وقد قيل لنا أن علينا أن ننتظر الى أن يتمكنوا من تجميع عدد كبير من الاعمدة يكفي لاستدعاء الحراس لدمغها ، وهذا ما فعلوه في النهاية • ولكن في أثناء ذلك كانوا قد جمعوا كمية أخرى في مكان منعزل لا يبعد كثيرا عن حطام الكرينجبرج ، تنقل منه ليلا عندما يحين الوقت • فاذا ما تم دفع ثمن أول جزء من شحنتنا والسماح لنا بتحميلها ، كان بإمكاننا أن ننقل للمركب الكمية الاخرى التي كان عددها يزيد عن المئة ، والتي تمكنا من نقلها في ليلتين • ويبدو أنه لم يكن لدى الشركة ، ولا لدى الحكومة ، أية فكرة عن امكانيات

تلك المراكب العربية ، فعندما طلبنا شراء مائة وخمسين عمودا ، افترض أن هذه هي طاقتنا • ولو كان لدى مأمور الحراج أى شك فى ذلك ، لكان باستطاعته أن يجبر المراكب على تفريغ الشحنة وتدقيقها فى سلالة ، أو فى أى مكان آخر يراه مناسبا ، ولكنه كان مأمور حراج لا مأمور شحن ، كما كان لديه ما يكفيه من العمل •

عندما بدأنا الشحن ، أصبحنا فى شغل شاغل ، فقد كانت الاخشاب تحمل فى القارب (عفرة) وفى القارب الطويل أثناء المد العالي • وكنا قد جهزنا كليهما بشراعين لتسهيل العملية ، وكانا ينقلان شحنتين نهارا وشحنتين ليلا • وقد رثيت لحال البحارة ، فقد كانت الظروف سيئة للغاية ، ففى خلال ذلك الشهر التعيس الذى قضيناه فى روفيجى ، كان هؤلاء البحارة يعيشون حياة شاقة للغاية دون توقف ، ودون أن تجف ملابسهم • وكانوا ينامون بدون غطاء يحميهم من الامطار الغزيرة ، ويعملون طوال النهار ونصف الليل وهم غارقون فى الوحل والماء والعرق ، والبعوض السام يمص دماهم ، وأيديهم مقرحة من شظايا الخشب ، وأقدامهم دامية من النباتات المائية المتشابكة المليئة بالاشواك ، وكانت تلك الجروح تتقيح • كما اقتصر غذاؤهم على قليل من الارز والسمك مرتين فى اليوم ، وأحيانا مرة واحدة فقط • ومع ذلك فقد كانوا يعملون بانتظام ودون انقطاع ، ولا ينشدون الراحة أبدا اذا كان هناك عمل ينبغى القيام به • كما أنهم لم ينفكوا عن الغناء أثناء القيام بأعمالهم ، فيما عدا تلك الليالى التى كانوا ينقلون فيها الاخشاب المسروقة • فقد كانوا ينقلون الاخشاب الى أسفل النهر ، تحت المطر ، وبصمت تام ، ثم يكدسونها بسرعة على ظهر المركب •

وهكذا مرت الايام ، ثقيلة ، هادئة الريح ، شديدة الحرارة أو ممطرة • ولم يكن هناك مجال للتسلية ، أو حتى مكان يتمشى فيه المرء ، كما لم تكن السباحة مأمونة • وكان المركب مغطى بالوحل ، مع أن كل بحار كان يحاول أن يغسل الوحل الملتصق به قبل أن يعود الى المركب • وقد بنى سقف من الاعشاب فوق الجزء الخلفى من مؤخرة المركب فوق السدة التى كان يجلس عليها النوخدة ، ولكن هذا السقف لم يكن يقى من المطر ، كما لم يكن هناك شئ يمكنه ابعاد البعوض عنا ، فقد كان البعوض يهزأ حتى من الكلل (الناموسيات) ، ويستمتع بالدخول اليها • ومن المعروف أن بعوضة واحدة داخل الكلة أسوأ من مائة خارجها ، ولكن لم يكن لدى البحارة كلة واحدة ، فكانوا يتقبلون البعوض على علاته • وكانوا فى البدء يحاولون أن يطردوه بطريقة أو بأخرى ، الا أنهم بعد حين تخلوا عن ذلك الصراع غير المتكافئ ، وتركوا البعوض يلسعهم كما يشاء ، على أساس أنه اذا شبع فانه يغادرهم ،

بينما اذا حاولوا ابعاده عنهم فانه سيعود اليهم ثانية برفقة بعوض آخر أشد جوعا ، وعلى هذا الاساس فان من الافضل الابقاء على بضع بعوضات حسنة التغذية على أن تأتيهم آلاف مؤلفة من البعوض الجائع . ولم يكن باستطاعتي شخصيا أن أضع هذه الفلسفة على المحك ، فقد كان لسع البعوض شديدا قاسيا حتى أن الايدى والاذرع كانت تتورم نتيجة له .

وعلى الشاطئ كان يكثر الذباب وغيره من الهوام بدلا من البعوض . وقد شغلت وقتي في أعمال التطبيب ، وكنت أتمنى لو كانت لدى الخبرة الفعلية بهذا النوع من العمل . فقد تفشت أنواع مختلفة من الامراض لم يكن لي عهد بها من قبل : امراض استوائية، امراض جلدية متقرحة ، أورام متقرحة في الرأس، وأنواع أخرى من الحميات . وقد عانى أولئك الذين كانوا ذواصي لؤلؤ في الخليج العربي معاناة شديدة، لأن كثيرين منهم كانت لديهم امراض جلدية ساكنة استيقظت في هذا المكان . وكان هذا المرض نوعا من البثور الخلقية ، التي كانت آثارها موجودة دائما وظاهرة على أجسادهم ، وخاصة على أرجلهم . وطالما كانت تلك البثور غير متقشرة فانها لم تكن شديدة الازعاج ، ولكنها كانت تنفجر في هذه الدلتا التعيسة بسبب الاشواك والشظايا والنباتات المتسلقة المتشابكة . وكلما كانت احدى هذه البثور تنفتح ، كانت تلتهب ، اما بسبب السائل الحمضي الموجود في لحاء شجر المانجروف ، أو من وحل النهر السام . ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا سوى أن أبقى الجروح نظيفة ، وأوقف النزيف وأمنع الالتهاب . وقد مرت بى أيام عصيبة عندما كانت المواد الطبية تنفذ ، فقد كان الطلب عليها كبيرا ولم يكن لدي منها ما يكفيهم جميعا ، فقد كانت الديدان الصغيرة تنفذ أحيانا الى داخل ركبهم وعضلات أرجلهم ، وكان من الضروري تخليصهم منها بالجراحة .

لقد أثبت أولئك العرب أنهم صبورون على المرض ، وأنهم يحسنون التصرف عندما يبتلون به ، وقد كنت ممتنا مرة أخرى لقدرتهم العظيمة على الشفاء . ولكن ما أن انقضت ثلاثة أسابيع على وجودنا في الدلتا ، حتى بدت عليهم علامات الاعياء الشديد ، فقد أصبحوا ، حتى أقواهم بنية ، كالاشباح ، ناهلي الاجسام ، شاحبى الوجوه . وقد لاحظت أن كثيرين ، ممن لم تكن تزيد أعمارهم عن الثلاثين عاما ، قد وخط الشيب شعرهم . لقد كانت حياة قاسية ، ولكن العجوز يوسف الشيرازى قال ذات يوم ان منطقة الروفيجى ، على رداءتها ، كانت أفضل من الغوص على اللؤلؤ ، وهو يشكر الله أنه لن يعود لذلك العمل ثانية . وقد بدأت أتساءل عن عملية الغوص هذه ، ومدى صعوبتها .

لقد كانت الاوضاع صعبة على بحارتنا ، كما كانت صعبة أيضا على السواحليين الذين غفرت لهم كآبتهم ، عندما رأيت الظروف التي كانوا يعملون فيها . فقد كانوا يغمسون في الطين حتى ركبهم ، ويقومون بقطع أشجار المنغروف بفؤوس صغيرة ، (بالرغم من صلابة ذلك النوع من الخشب) ثم يشذبونها ثم يسحبونها خلال الغابة الى جون أو حوض تكون قواربهم راسية فيه . ولم تكن قواربهم الصغيرة تتسع لأكثر من خمسة أو ستة أعمدة . وعندما كانت تمتلئ ، كان عليهم أن ينقلوا الاخشاب الى مكان التجميع الرئيسي لتصنف وتجمع معا . وكان العمل صعبا ، حتى في الاماكن التي كان يكثر فيها شجر المنجروف ، أما حيث كان يقل فقد كان العمل أشق بكثير . فقد كانوا يقومون في الصباح الباكر ، بعد صلاة الفجر مباشرة ، التي كانوا يرتلون معا بصوت مرتفع ، ويغادرون البوم ، ثم يستقلون قواربهم ، ويجدون بها ضد التيار الى أعلى النهر . وكانوا يفعلون ذلك قريبا من الشاطئ خوفا من التماسيح المتوحشة ، التي كانت تستطيع أن تقلب قواربهم الصغيرة وتغرقها بكل سهولة ، ثم تأخذ أجساد الركاب الى أوكارها لتتغفن هناك وتصبح صالحة للاكل . وكانوا يستفيدون من الاغصان المتدلية فوق رؤوسهم لتساعدهم في هذا العمل . أما عندما كانوا يسيرون مع التيار ، فقد كانوا يتركون قواربهم تنجرف في منتصف النهر ، وكان ذلك عملا سهلا . لقد كانوا يعملون طوال النهار وكان غذاؤهم يقتصر على حفنة من التمر الرديء ، ولم يكن يعيقهم شيء عن العمل ، لا هطول المطر ولا حرارة الشمس ولا أى شيء آخر .

لقد كان منظرهم جميلا على الرغم من نظراتهم الكثيبة . فقد كان على وجنتي كل منهم اثران من الوشم القبلي ، وكانوا جميعا يرتدون ثيابا عربية رثة ، كانت في معظمها تتألف من القمصان المسقطية ، التي كانت تتدلى على ظهورهم وهي مربوطة بالخيط . لقد كانوا مسلمين ورعين ، أو كانوا كذلك على الاقل في أثناء وجود العرب في الميناء . وكانوا يرتلون صلواتهم بقوة وحماس . والواقع أن أولئك الذين كانوا يعملون أقل من غيرهم هم الذين يؤدون قسطا أكبر من الصلاة ، وكانوا أحيانا يزعمون البحارة ويقلقون نومهم حتى منتصف الليل ، وهم يرددون أدعيتهم بصوت عال . ولم يكن من اللائق أن يقوم المسلمون الاصليون بتأنيب الداخلين في الاسلام حديثا على صلاتهم . وهكذا كانوا يصلون ويصلون حتى أنى كنت أحيانا أشعر بأن عليّ أن أوبخهم بنفسى . فلم أكن أجد مسوغا لهذا التدين الزائد ، الا أن يكون تعويضا عن بقية العام عندما لا يكون العرب بينهم . وقد أسر لى بعض السواحليين بأنهم لم يكونوا يصلون كثيرا بعد ذهاب العرب .

إذا كانت الحياة في روفيجي سيئة بالنسبة لبحارتنا وللعمال

السواحليين على السواء ، فلا بد أنها كانت كابوسا بالنسبة لحمد بن سالم . فهو لم يكن قد زار هذه المنطقة من قبل ، وها هو الآن مسؤول عن يوم كبير ثقيل الى حد ما ، ومتوغل مسافة طويلة داخل أحد روافد نهر روفيجي المتقلب . ولم يكن مسؤولا عن قيادة المركب بسلام من زنجبار واليها فحسب ، بل وعن تأمين حمولته في اسرع وقت ممكن أيضا ودفع ثمن نصف تلك الشحنة فقط . وكان مسؤولا أيضا عن ثمانين عاملا سواحليا ، عليه أن يسيطر عليهم ويطعمهم ويجعلهم يقومون بالعمل ، كما كان عليه أن يعنى بالمركب (وقد كان هذا ، في حد ذاته ، عملا كبيرا في ذلك المكان الصعب ذي المياه المتقلبة) ، كما كان عليه أن يعنى بالقوارب وبجميع البحارة أيضا . لقد بدأت احترام حمداً بن سالم خلال ذلك الشهر الذي أمضيته في الروفيجي . لقد كنت أحبه من قبل ، ولكن لم تتوفر لي الفرص لأعرفه جيداً أثناء الرحلة من المعلا الى حضرموت ، لان شخصية نجدي كانت طاغية عليه .

لم يكن حمد بن سالم من نواح عديدة رجلاً عربياً عادياً . فقد كان يبلغ السادسة والثلاثين من عمره ، ومع ذلك لم يكن قد أصبح نوحدة ، بل كان معلماً ، أي نوحدة صغيراً ، في يوم نجدي ولم يكن من المحتمل أن يصبح نوحدة في يوم من الايام . لقد كان ضخيم الجسم بالنسبة لبحارة العرب ، ذا لحية مدببة وجبهة عالية وأنف مستقيم كبير جداً ، وكان والده من نجد التي كان هو قد غادرها ليستقر في الكويت . وكان وجهه القوي مغطى بعدة كبير من التجمعات العميقة ، كما كانت أسنانه سيئة وبارزة جداً تشوه منظر فمه ، وكان يقص شعره الاشيب فيجعله قصيراً جداً ، بل كثيراً ما كان يحلقه بالموسى . وكانت لحيته عادية مدببة ، حسنة التشذيب ، مناسبة له . وكانت اطرافه كبيرة ، وساعدها ويداه قويتين جداً ، وكذلك كان صوته قوياً يمكن أن يحتد أحياناً ، أما صوته ، عندما كان يؤم المصلين بصفته اتقى المسلمين على ظهر المركب ، فقد كان جهورياً وعالياً جداً . ولم يكن إيمانه موضع شك ، فقد كان إيماناً حقيقياً ، لان الرجل كان يتحلى بالمبادئ السامية ، والامانة التامة في كل الامور ، اذا غضضنا النظر عن أخشاب روفيجي التي كان يتسلمها ويهربها ، لان هذه الاعمال كانت في نظره مستقيمة لا غبار عليها . لقد كان متحفظاً وهادئاً جداً ، وهي صفات مناسبة تماماً لمساعد النوحدة في أي مركب يكون تحت قيادة نجدي . علاوة على ذلك فقد كان بحاراً قديراً ومرشداً كفئاً . أما زيارته الى الشاطئ ، فقد كانت تقتصر على العمل فقط ، ولم يكن يهتم بالنساء حتى في زنجبار . وكان قد بدأ حياته في البحر وله من العمر تسعة عشر ربيعاً ، بادئاً مهامه كصبي من صبيان المركب ، ثم مرتقياً الى مسؤول عن اجهزة الملاحة . أما

القفزة من هذه المهمة الى وظيفة مساعد النوخدة ، فقد كانت قفزة كبيرة ، وربما كان سبب ترقيته اليها أنه كان قد تزوج احدى شقيقات نجدي . ومهما يكن من أمر ، فقد كان حمد رجلا صالحا يستحق الترقية التي نالها ، والتي ربما تكون آخر ترقياته .

لعله كان باستطاعة حمد أن يرقى الى مراتب أعلى ، لولا نقص في بعض مقومات شخصيته . فلم تكن لديه خبرة بتلك الطرق والوسائل التي كانت تمكن شخصا مثل نجدي من قيادة الرجال بسهولة . ولذلك فلم يكن باستطاعة أحد أن يقول أن حمدا قد خلق ليقود الآخرين ، كما كان الحال مع نجدي ، الذي كان يسيطر على المركب سيطرة كاملة منذ اللحظة التي كان يظهر فيها رأسه ، وهو يصعد الى ظهر السفينة ، حتى اللحظة التي كان يختفي فيها لباس رأسه وهو يفادرها . أما حمد ، فلم يكن يعمل كخليفة لنجدي ، بل كان يستطيع متابعة العمل في غيابه . لقد كان حمد رجلا قديرا كفئا نشيطا وموثوقا ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يقود الآخرين ، ولذلك فلم يكن محبوبا من البحارة الذين كانوا يفضلون نجدي ، رغم تسرعه وكثرة نقده لهم ، ولعل سبب ذلك كان يرجع الى ذلك الشعور القديم الذي يشعر به البحارة عادة نحو الضباط الذين يرقون من بينهم . فقد كان حمد يعمل كبشار عادي مع بعض هؤلاء الذين على ظهر المركب الآن ، عندما كان يعمل على مراكب أخرى . ولكنني اعتقد بأن الامر أبسط من ذلك ، وان مرده الى أن حمدا لم يكن يتمتع بشخصية قيادية ، فقد كان كل همه أن يجمع من المال ما يكفي لشراء مزرعة صغيرة في البصرة ، على ضفاف شط العرب ، وأن يستقر هناك وينام ، بينما التمر تنمو دون عناية . أما وهو على تلك الحال ، فلم يكن يعرف متى تتحقق أحلامه ، أو ما اذا كانت ستتحقق أبدا . فقد كانت المزارع غالية الثمن ، وجمع المال صعبا ، وكانت الحصنة التي ينالها مما يكسبه المركب « فتح الخير » ، مضافا اليها ما يحصله من أعمال أخرى ، لا تكاد تكفي لاعالة أسرته ، فقد كان لديه زوجة وأربعة أطفال .

لقد ازداد حبي لحمد خلال تلك الليالي الطويلة التي كنا نقضيها في روفيحي ، عندما كان المطر ينهمر على سطح السقيفة المقامة فوق سدة النوخدة ، أو عندما كنا نجلس ونحن متلاصقون خارجها . كان العجوز يوسف الشيرازي يقبع عند الدفة يدخل نارجيلته ، فيما كان الصبي محمد قدرفي يدير علينا أكواب الشاي أو القهوة بين وقت وآخر . وفي مثل هذه الاوقات ، كنت اتجاذب اطراف الحديث مع حمد ، مع أنه لم يكن في النادة يتكلم كثيرا ، وكنا نتحدث في مواضيع مختلفة وخاصة عن المراكب وعن

الكويت • وبعد مدة ، بدأ يحدثني عن الجانب الاقتصادي للرحلة : كم تكلف وكم يمكن للمركب أن يكسب • فقد ذكر لي ان المركب دفع لكل بحار في العام الماضي ما يزيد عن مائة وستين روبية ، أما في هذه السنة ، فانه يشك أن يصل المبلغ الى مائة ، فقد حدثت أمور كثيرة جعلت الحصول على الربح صعبا ، ومن هذه الامور الصعوبات التي واجهتهم في مقاديشو ، وتدني أسعار الشحنات في زنجبار ، وانخفاض اجرة الركاب ، ثم ذلك الوقت الطويل الضائع الذي كان عليهم أن يقضوه على ظهر المركب ، وارتفاع تكاليف خشب روفيجي ، (ولم يذكر بالطبع تلك الاخشاب التي زودهم بها السواحليون) ، واحتمال مواجهة صعوبات في بيع الاخشاب في الخليج العربي • كما أخبرني حمد ان من الافضل ان تنقل المراكب بضائع لحساب التجار ، الا أن هؤلاء يفضلون أن يتحمل النوخدة مخاطر النقل • فلو شحن تاجر بضائعه الخاصة ، فان عليه أن يدفع اجرة المركب ويتحمل مسؤولية تصريف الشحنة • أما اذا حمل المركب بضائعه الخاصة ، فان التجار يحصلون على البضاعة على أية حال ، وغالبا ما يكون ذلك بأسعارهم هم ، لانه لم يكن بإمكان النوخدة أن ينتظر طويلا حتى يبيع شحنته ، أو أن يخزنها الى وقت لا يعلم نهايته • وهكذا فان التجار يحصلون على البضاعة، دون أن يدفعوا اجرة شحنها ، أو يتحملوا مسؤولية المخاطرة التي تتعرض لها الرحلة (١) • وقد كان رأي حمد أن هذا النظام غير عادل ، ولكنه النظام السائد بين العرب ، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لتغييره • وقد كان حمد يسألني عن السفن البخارية الكبيرة ، وكيف تعمل ، فقد كان رأسه مملوفاً بالافكار المختلفة •

لقد كان حمد يعمل بشكل مخيف خلال ذلك الشهر القاسي ، وقد غيرنا مكان المركب ثلاث مرات بحسب تغير المد : مرة نقترّب من حطام الكوينجزبرج ، ومرة أخرى نتجه الى جزء آخر من النهر ، لان اليوم كان يزداد وزنه فيزداد انخفاضه في الماء • لقد كنا نحمل المركب حتى حوافه العليا ، وقبل أن نغادر روفيجي كنا قد غطسنا الى عمق ثلاثة عشر قدما تقريبا • ولو كنا بتلك الحمولة قد فوجئنا بفترة من الجزر في ذلك الرافد البعيد من النهر ، لمكثنا في الدلتا شهرين بدلا من شهر واحد • شهرين ؟ لقد كان مجرد التفكير في ذلك أمرا مرعبا ، مع علمنا بأن عبد الوهاب بن خليفة الكويتي قد مضى عليه هناك أكثر من اربعين يوما في بومه الكبير المسمى « تيسير » • لقد كان تبديل مكان المركب في تلك الانهار السريعة

(١) يبدو أن هناك لبسا فيما فهمه المؤلف من حمد بن سالم ، لأن اجرة الحمولة يدفعها التاجر صاغرا ، وليس لصاحب المركب علاقة بربحه أو خسارته المتعلقة بالبضاعة • (المترجم عن أحمد البشر الرومي) •

مناورة خطيرة ، وكنا كثيرا ما نضطر ، عندما تتضارب تيارات المد ، أن ندير المركب دورة كاملة في ذلك المجرى الضيق ، ونرسيه بربطه من مقدمته ومؤخرته معا . وفي مثل تلك الاوقات ، كان على البحارة أن يبذلوا جهدا شاقا جدا ، حتى بالنسبة لهم ، وهم يحملون الجبال ليربطوها بالاشجار ويعدلوا وضع المركب ثانية . ولم يكن أى نوع من الحذر ليمنع مثل هذه الامور التي لم تكن تحدث ضررا ، لاننا لم نتحرك الا مع المد العالي ، كما أن ضفتي النهر كانتا مكسوتين بالطين . الا أن العمل كان شاقا ومزعجا الى اقصى الدرجات .

وهكذا توالى الايام ، وفي بعضها لم تكن تصلنا أية اخشاب ، بينما كان السواحليون يأتون على زاد المركب . وقد كان حمد يعلم أنه لن يرضي نجدي ، الجالس هناك مستريحا في زنجبار يتناول اللحم الطازج ، أو أن نجدي على الاقل سيعطي الانطباع بأنه لو كان على المركب لجرت الامور بشكل أفضل . الا أنه لم يكن يبدو أن حمدا يحسد نجدي ، لأنه لم يكن يقول شيئا أو يفصح عن مشاعره ، فقد كان يهتم بأمر المركب ويبذل كل طاقته للعناية به وببحارته ، كما كان يؤم المصلين في صلاتهم ، وكان يتغلب على الصعاب عندما تبرز ، ثم يتابع عمله مستعدا لمواجهة غيرها ، ولم يكن يسأل أحدا معروفا أو يعمل معروفا مع أحد . أما عندما كان نجدي يتواجد على ظهر المركب ، فقد كان البحارة يتزلفون اليه صباحا ومساء ، ويقدمون تحياتهم اليه ، ولكن أحدا لم يكن يأتي الى حمد ليفعل ذلك ، وكان هذا هو الفرق بين الاثنين .

وأخيرا ، وبعد أن تم تحميل الشحنة على المركب ، وعدنا بمركبنا المثلث بالحمولة ، وألقينا مراسينا مقابل « سلالة » مرة ثانية ، وسطح المركب الرئيسي أوطأ من مستوى الماء ، قام البحارة المرهقون الناحلون بارخام الجبال وطي الشراع . وقد كان على حمد أن يبحر الى « ديماء » ليدفع ثمن الاخشاب للشركة ، وقد استغرقه ذلك مدة يومين ، لأن « سلالة » تقع في شمال الدلتا ، بينما تقع « ديماء » في جنوبها . وقد عاد في اليوم الرابع ، وهو يبدو أشد هزالا وأكثر تعباً من أي وقت مضى . فقد قطع معظم المسافة في قارب صغير انقلب مرتين ، مرة بسبب فرس النهر ، ومرة أخرى بسبب كتلة من الخشب خشوا أن تكون تمساحا . وقد شقوا طريقهم، اما في النهر ، أو عبر المستنقعات ، أو خلال الغابة . لقد عاد حمد ، الذي كان حافى القدمين ، وقد تشققت قدماه ، ومزقت الاشواك رجليه . وقد أخبرني أنه ورفاقه قد شاهدوا أفاعي كثيرة منها أفعى البواء الضخمة ، التي كانت نائمة بعد تناولها وجبة من الطعام . ثم أنه لم يوجد هناك في « ديماء »

شيء يؤكل أو مكان للراحة ، كما أن حمدا كان قلقا على المركب ، فقد زاد انخفاضه في الماء ، وكان يريد أن يخرج من النهر مع مد الربيع ، وهكذا اضطر الى العودة ثانية بعد أن دفع الشلنات المقررة وتسلم الايصال الرسمي . وكانت طريق العودة أسوأ من الذهاب ، لأن السماء كانت تمطر طوال الرحلة ، وكانت زخات المطر تتناوب مع الحرارة الاستوائية الرطبة ، كما كان البعوض كثيرا وشرسا ، والذباب يهاجم وجوههم فيسومهم سوء العذاب . وقد اضطر الى خوض بعض المستنقعات ، وهو غاطس الى الركبتين في مياه آسنة ، موحلة ، مملوءة بالحشرات والحيوانات السامة . ولم يكن بإمكان أي منهم الوقوف ثابتا على القدمين ، فقد كانت الغابة ، مملوءة بالاشواك والحشرات والافاعي ، كما كانت التماسيح تنتظر على ضفة النهر ، وكان فرس النهر متأهبا لقلب قواربهم . الا أن حمدا تابع سيره ، رغم الوحل والدم والتشقق والجوع وعدم توافر ماء للشرب سوى ماء النهر . وعندما وصل في نهاية الامر الى المركب ، وتجرات على القول انه لم يكن من العدل أن يتجشم العرب كل تلك الصعوبات لا يصلح المال الى الشركة ، أجاب حمد بأن الله كريم ، ولم يتدمر أبدا . الا أنه كان مرهقا بالفعل ، كما أن مد الربيع قد اختفى ، وتكون في النهر تيار دافق ، شديد ، ناتج عن الامطار الساقطة في أعاليه ، فتدافعت نحونا الانقاض ، وملأت مسالك النهر ، بينما كانت كتل الخشب والشجيرات وجذوع الاشجار تندفع هادرة باتجاهنا . لقد كانت سرعة التيار لا تقل عن ست عقد ، وكان المركب المثقل بالحمولة يشد مراسيه بعنف ، وبما أن مبارك لم يكن موجودا ، لأنه كان قد سيق للمحاكمة في أعالي النهر ، فقد كنا بدون مرشد . لقد كان الطقس عاصفا في الخارج ، وكانت زخات المطر مستمرة وقابضة للنفس ، ومرفقة ، في بعض الاحيان ، بسياط من الريح القاسية . لكننا كنا قد حصلنا على شحنتنا ، ودفعنا للشركة ثمنها ، كما كان السواحليون قد غادرونا ، وكان باستطاعتنا أن نبحر . حمدا لله لاننا سنبحر أخيرا !!

وقد دعا حمد جميع البحارة لصلاة شكر خاصة . وفي الصباح كنا قد غادرنا المكان .

كان الوقت نهاية شهر مارس ، عندما غادرنا سلالة أخيرا . وقد لامسنا قاع النهر مرة ، ولكننا عمنا ثانية بسرعة ، لاننا كنا نبحر مع اتجاه النهر وكانت الريح تساعدنا ضد المد الجارف ، وقد مكّن المد المرتفع المركب من العوم ثانية ، عندما التصق بالارض ، ولكننا كنا نسير بحذر شديد ، خاصة أن مبارك مرشدنا كان في سجن « أوتيتي » ، ولم يكن معنا غيره يعرف مسالك النهر معرفة جيدة . وقد كانت تمطر طوال ذلك الصباح ،

ولذلك كانت الشمس مختفية ، وقد أضفى ذلك ، بالإضافة الى صوت النهر الحزين ، جوا من الكآبة على المكان . وبما أن مركبنا كان محملا حتى الافريز بالاخشاب الرطبة الموحلة ، لذلك كان المركب يعوم بتثاقل وسطحه الرئيسي تحت مستوى الماء ، وهو غاطس الى مسافة ثلاثة عشر قدما ، كما أنه لم يكن هناك مأوى للبحارة المنهكين المكدودين ، ولا مجال للحركة لأن كل جزء من المركب كان مملوء بالاخشاب ، حتى الجزء الواقع في المكان المنخفض من المؤخرة . وحتى القمرة الكبيرة كانت محملة أيضا ، وكنا قد نزعنا حاجز تلك القمرة ، وكان المركب بأسره قد حشى بالاخشاب حتى الافريز . وكان سطح الشحنة الخشبية غير مستو ومملوء بالنتوءات ، والشظايا ، والرؤوس المدببة ، التي كانت تؤذي اصابع البحارة وهم يركضون فوقها . لقد كان كل منهم قد عانى معاناة تتفاوت في الشدة من البقاء في دلتا روفيجي ، وكان عبد اللطيف وابراهيم قائدا لدفة مريضين جدا بالحمى ، أما الآخرون فقد كانوا جميعا مصابين برشحات شديدة . وكان جاسم الطباخ قد تحول الى شبح تقريبا ، أما العجزز يوسف الشيرازي المسكين ، فقد اصبح شعره أبيض تماما ، واصبح هزيلا جدا

في جزيرة كوالى



حتى أن جلبابه كان يبدو عليه وكأنه كيس ، وكانت اضلاعه تبرز من فتحات الجلباب عند الرقبة والصدر كأضلاع هيكل عظمي • وكان الجميع في حالة مماثلة ، حتى عبد الله شقيق النوخدة ، الذي كان يقوم بأقل الاعمال على سطح المركب ، فقد بدت عليه امارات التعب والاعياء • أما المسكين حمد بن سالم ، فقد كان يبدو كشبح مخيف •

ظلت السماء تمطر طوال سفرنا في النهر ، وكنا نمر بضفاف من الطين ، وبأشجار كأنها تبكي من غزارة المطر • كما مررنا بأجزاء طينية ، وبالعديد من الروافد والفروع والقنوات والخلجان الصغيرة التي كونها ذلك النهر السريع الجريان ، كما كنا نمر أحيانا بفسحة مكشوفة من الارض كانت مكان النزول الى القرية « كيومبوني » ، ومرة أخرى على مرأى من السفينة ناقلة الفحم « نيوبردج » الغارقة ، ثم بين ضفاف مصب نهر « سمبا أورانجا » ، حيث كان الالمان قد حفروا خنادقهم ونصبوا مدافعهم • وقد سكنت الريح عندما وصلنا الى مصب النهر ، غير أن المد كان قد بدأ ينحسر عندئذ ، فواصلنا السير • وما أن خرجنا من ذلك المصب الكئيب ، حتى صفت السماء ، وتوقف المطر فجأة ، وكأنه ، بعد أن قدم كل ما يستطيعه من الشر ، كان يقول لنا : « الآن يمكنكم أن تنصرفوا - لعنكم الله » • لقد كان المطر كأنه الروح المسيطر على ذلك المكان الحزين ، وقد شكرنا الله عندما تخلصنا منه ، ولم ننظر وراينا قط • فقد كان المطر هناك لا يزال ينهمر وينهمر بدون توقف • أما أمامنا فقد كان بحر واسع مأمون ، وان لم يكن مأمونا تماما ، لأنه كان علينا أن نجتاز ذلك الممر الموصل الى زنجبار ، المملوء بالشعاب المرجانية والعوائق الاخرى ، كما كان علينا أن نتوقف في كوالي ، لتفتش حمولتنا ويسمح لنا بمواصله السفر • الا أننا على الاقل كنا قد غادرنا دلتا الروفيجي البائسة وخلفناها وراينا ، ولأول مرة رأيت البحارة يبتسمون • ولم أكن قد لاحظت ، الا عندما كانوا يبتسمون ، كم كان نادرا أن تبدو آثار السرور على وجوههم ، أما حمد بن سالم فانه لم يبتسم أبدا •

الا أننا لم نكن قد تخلصنا من الخطر بعد ، كما أن مشاكلنا لم تكن قد انتهت ، وكنا غاطسين في الماء أكثر من اللزوم ، وأكثر من أى مركب آخر من المراكب السبعة التي كانت تبحر معنا في ذلك اليوم • فقد كان البحر هناك مملوء بالاماكن الضحلة وبالصخور المرجانية والعوائق الرملية، كما كانت تواجهنا عواصف مفاجئة • لقد كانت تلك الفترة هي الفترة المتقلبة ، التي تقع بين الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية، التي يمكن أن يحدث فيها أي شيء • فلو صدف أن غرزننا ونحن في حالتنا

من الحمل الثقيل ، فان من الممكن أن نصيب المركب اصابة جسيمة ، كما أن أي جزء من الشحنة التي تضطر الى التخلص منها لتعويم المركب ستسبب خسارة لنا ، فقد اشترت جميعها بمال المركب ، أو توافرت بتضحيات البحارة ، ومن المعروف أن اعمدة المنجروف الموجودة في « سمبا اورانجا » ثقيلة جدا ، لا تطفو على وجه الماء ، ولذلك فان مصيرها الفرق ، اذا انزلت من المركب .

لقد كنا عمليا غير بعيدين عن الدلتا بعد ، على الرغم من اننا كنا قد ابتعدنا عن البر . فقد كنا لا نزال في ذلك الممر الضيق الواقع بين ضفتين طينيتين تمتدان الى أبعد من مصب سمبا اورانجا ، عندما بدأت الرياح الخفيفة تهب ثانية من أمامنا ، ولذلك فقد شققنا طريقنا بكل صعوبة ، وكنا نرى أمامنا اشرعة ستة مراكب عربية مثقلة بالحمولة ، كانت قد أقلعت ذلك الصباح ايضا . وكان حمد يقود المركب بحذر وهدوء ، عندما انبرى فجأة عبد الله شقيق النوخدة ، الذي لم يبدر منه في أية مرحلة من مراحل الرحلة ما يدل على طموحه أو على تمتعه بقدرات خاصة ، وقرر استلام قيادة المركب ، وبدأ في الحال يعطي قائد الدفة أوامر تتعارض مع أوامر حمد . وعندما رأى المراكب تسبقنا ، ادعى بأن من الممكن أن نزيد من سرعتنا ونلحق بها ، الا أن حمدا قال ان ذلك غير ممكن لوجود عائق رملي في الطريق . ولكن عبد الله أصر على رأيه وأمر قائد الدفة بأن يجعل المركب يسير بأقصى سرعتة . وبدأ الصراخ يعلو من حمد ، الذي كان يأمر بخفض سرعة المركب ، ومن عبد الله الذي يريد زيادة سرعتة ، الى أن قال حمد : « لا يجوز أن يكون هناك قبطانان للمركب . أنزلوا المراسي » ، وجلس على الارض .

وخلال هذا الجدل القصير ، الذي كان يمكن أن ينتج عنه بعض الخطر على المركب ، كان حمد بن سالم مصيبا تماما ، حتى أن قائد الدفة لم يلق بالا لأوامر عبد الله ، لانه لا شك أن ذلك القبطان الذي لا يستطيع القيام بشيء سوى اللحاق بسفن أخرى قبطان سيء ، كما أن ذلك الضابط الذي ينشد القيادة عندما ينتهي الجزم الخطر من الرحلة ، ضابط سيء ايضا . لقد كان حمد هو المسؤول عن المركب ، وقد أساء اليه عبد الله بأن حاول مخالفة أوامره وتحدى سلطته . لقد كان عبد الله يتمتع بمركز قوي ، لأنه شقيق نجدى ، وكان يعرف تلك الحقيقة ، أما حمد فقد كان مركزه أضعف ، لأنه لم يكن الا صهرا لنجدى ، وكان يعرف تلك الحقيقة أيضا . ولكنه كان يعرف أيضا أن مهمته كانت أن يبحر بالمركب الى دلتا الروفيجي ، ويملاؤه بالاخشاب ، ويميده سالما الى زنجبار ، وكان عليه لذلك أن يتحمل عبد الله

الذى لم يكن اسما الا واحدا من قادة الدفة ، الا أن أحدا لم يكن يعرف بالضبط حقيقة مركزه على ظهر الباخرة ، ولكنهم كانوا جميعا يعلمون أنه شقيق نجدى ، كما كانوا يعلمون بأنه اذا توافر المال فانه قد يشتري مركبا لحسابه بعد أن يعود مركبنا الى الكويت . أما حمد ، فلن يتمكن من امتلاك مركب لحسابه ، مهما طالت مدة خدمته لنجدى وعبد الله ، وتفانيه فى تلك الخدمة ، ومهما بلغ عدد الرحلات القاسية المرهقة التى يقوم بها ، أو عدد الاشهر المؤلمة التى يمكن أن يقضيها وهو يهتم بأمر مراكبهما فى دلتا الروفيجى المخيفة . لقد كانت الطريقة الوحيدة ، التى يمكن أن يمتلك بها حمد مركبا خاصا به ، هى أن يتمكن من جمع المال الكافى لذلك ، الا أن ذلك بدا بعيد الاحتمال . فقد كان رجلا فقيرا يعيل أسرة كبيرة ، بينما كان عبد الله شابا لا يعمل أحدا الا زوجته . وبما أنه الاخ الاصغر لنجدى ، فقد كان سكنه مؤمنا حيث كان يعيش مع نجدى ، وكان كلاهما يعيشان مع أبيهما ، ولم يكن له أبناء فأبناؤه جميعا قد ماتوا صغارا .

وهكذا جلس حمد على الارض ، ثم قام فتوضأ وصلى ، فقد كان الوقت وقت صلاة الظهر ولم يقل شيئا عن الحادث الذى حصل . وعندما طلب منى عبد الله أن أعطى رأى ، أجبته بأنه كان على خطأ ، وأنه ، ما دام نجدى قد عهد لحمد بقيادة المركب ، فلم يكن من شأن عبد الله أن يجعل تلك القيادة مستحيلة . ولكن عبد الله أجاب بأن حمدا كان يسير فى الطريق الخطأ ، فلم يكن هناك مرشد على ظهر المركب ، وانه يعرف الطريق كما يعرفه حمد ، كما أنه يستطيع رؤية المراكب الاخرى . فأجبته قائلا : «ولكن تلك المراكب ليست غاطسة فى الماء بقدر مركبنا ، كما أنها كانت قد ابتعدت الى عرض البحر ، ولذلك كان باستطاعتها أن تطلق العنان لسرعتها ، وتنشر أشرعتها باتجاه الشمال ، بينما لم يكن باستطاعتنا أن نفعل ذلك » . ولم يقتنع عبد الله ، بل احتكم الى واحد أو اثنين من قائدى الدفة ، ولكن أحدا منهم لم يجر جوابا . وعندها جلس عبد الله على الارض أيضا . وفى هذه الاثناء كانت الريح قد اعتدلت ثانية ، وكنا راسين بينما كان الشراع الرئيسى فى أعلى الصارى ، وملفوقا لفا غير محكم على العارضة ، التى كانت مرفوعة على الصارى . ومن وضعنا هذا كان من السهل أن نبهر ثانية . وما أن لاحظ حمد تحسن الريح حتى رفعت المراسى ، وتابعا الرحلة دون أن يتدخل عبد الله مرة أخرى بقيادة المركب ، فابتعدنا عن الشيطان ، وتابعا سيرنا بسرعة أكبر باتجاه الشمال .

وبعد هذه الحادثة ، سرنى أن لاحظ أن البحارة ، الذين لم يحاولوا أن يلقوا التحية على حمد طوال رحلتنا فى دلتا الروفيجى ، بدأوا يصعدون الى حيث يجلس فى المؤخرة ، ويحيونه مساء وصباحا . ويبدو أن هذه

الطريقة كانت وسيلتهم للتعبير عن مشاعرهم تجاه حمد ، الذى آمنوا بأنه كان على حق . ولم أكن قد لاحظت سابقا أنهم يفصحون عن مشاعرهم نحو أى شىء أو أى انسان ، فلم تكن هذه من الفضائل الشائعة بينهم . الا أن تعييتهم الهادئة لحمد صباح مساء كانت مظهرا يبعث على السرور . ولكن اذا كان حمد قد لاحظ ذلك ، فانه لم تبدر منه أية اشارة تدل على سروره ، وان كنت شخصا أعتقد أنه كان سعيدا .

أما من ناحيتى ، فقد أتيت لى فرصة ممتازة لأتعرف على البحارة بشكل أفضل ، ولأن أعجب بحمد بن سالم ، أكثر من ذى قبل ، خلال ذلك الشهر القاسي الذى أمضيناه فى دلتا نهر روفيجي . وقد سعدت لاني بقيت فى المركب ، وشعرت بأنى تعلمت أكثر بكثير بهذه الطريقة ، وتمكنت من معرفة جميع البحارة بمعرفة أوفى . كما أنى أعتقد أن حمدا والبحارة كانوا مسرورين أيضا لمرافقتى لهم الى ذلك المكان المخيف ، بينما كان بإمكانى بكل سهولة أن أبقى مع نجدي فى زنجبار . لقد كنا أصدقاء حميمين قبل رحلة الروفيجي ، أما بعدها ، فقد أصبحنا رفاق عمل على المركب .

بدأنا الآن نتجه ناحية « كوالى » ، وكانت الشمس مشرقة ، فأخرج البحارة ملابسهم الرثة ليحففوها ، بعد أن مضى عليها أكثر من شهر لم تعرف الجفاف خلاله . كما أن قردي « يميدي » ، الذى ظل مختبئا فى مكان مبيت البحارة ، فى مقدمة المركب ، خلال الاسبوعين الماضيين ، صعد الى السطح ثانية ، وأخذ يثرثر بمرح ، ويقفز هنا وهناك ، ويتشبث بأرجل جاسم . وكذلك فعلت الهرة « بس » التى ، رغم تمودها على الحياة الصعبة ، وجدت مجموعة الصعاب فى الدلتا تفوق ما تستطيع قدرتها الخارقة على الصبر تحمله . وكانت تبدو فى غاية الهزال ، فقدمت لها شيئا من الحليب ، الذى لعقته شاكرة ، ثم نظرت حولها باحثة عن البعوض ، الذى كان قد أحال حياتها الى جحيم فى الشهر الماضى ، وعندما لم تر له أثرا بدا لى كأنها تبتسم . مسكينة الهرة « بس » ! فلم يكن فى حياتها كثير من المرح ، ولا بد أنها كانت نادمة لأنها غادرت موطنها فى بربرة ! وقد كانت تخاف كثيرا من « يميدي » ، فلا تقترب من مكانه مطلقا ، فكانت هى تعيش فى المؤخرة ، بينما كان هو يعيش فى المقدمة ، وقلما كانا يجتمعان اذا استطاعت الهرة أن تتجنب ذلك .

وطوال فترة العصر ، كنا ننظر خلفنا الى ذلك المنخفض المقبض الذى يكوّن الدلتا العظيمة لنهر الروفيجي ، وحيث كان المطر مازال ينسكب كأفواه القرب على جميع مصبات النهر . ومرة ثانية لهج البحارة بالشكر لله . أما

فى المساء ، فقد أمطرت ثانية وأخذنا نبحث عن المرسى القريب من كوالى . فى عاصفة ماطرة بعد حلول الظلام . وقد كانت قيادة المركب صعبة ، لأنه لم يكن هناك ماء كاف ، كما كان الظلام حالكا لا نستطيع أن نرى من خلاله شيئا . وقد بدا منظر حمد غريبا وهو يقود المركب فى الظلمة ، بعد أن شمر أطراف جلبابه اتقاء الليل ، ورفع فوق رأسه مظلة من الخيزران يحتوى بها من المطر . أما البحارة ، فقد كانوا يزحفون من مكان الى آخر وهم يقطرون ماء .

لقد أمطرت فى تلك الليلة أكثر من أى وقت أمسيناه فى دلتا الروفيجى . وكان المطر ينهمر وكان الغيوم قد انفجرت ، ولم ينقطع لحظة واحدة ، حتى أنه ملأ القارب الصغير المرفوع على حمالاته ، فأصبح من الثقل بحيث أنه خلع الحمالة الامامية من أوتاد الحديد التى تثبتها وتدلى على جانب المركب . أما القارب عفرة ، والقارب الطويل اللذين كانا مقطورين فى المؤخرة ، فقد امتلأا الى الحافة . أما ما كان أخطر ، فهو ان ماء المطر الذى كان ينهمر بغزارة من السماء ، قد تدفق الى مخزن المركب ، وكاد أن يغرقه عند المرسى القريب من كوالى ، قبل أن يبدأ رحلة العودة الى الجزيرة العربية . ولما كان السطح الرئيسى تحت مستوى الماء ، فلم تكن هناك طريقة للتخلص من ماء المطر ، ومن ماء البحر الذى يمكن أن تدفعه الامواج الى سطح المركب . لقد امتلأ المخزن بالمطر ، لأن المركب كان يدفع بالمطر كله اليه ، ولم يكن هناك من سبيل لاجراج الماء منه الا بالنزح . وقد كان هذا العمل غير فعال أثناء العاصفة ، لأن الماء كان يتدفق بكميات أكبر مما يمكن نزحه ، كما كان النزح عملية مجهدة وشاقة . وكان على المركب، كالعادة ، بثر يقع خلف الصاري الرئيسى ، وقد تجمع معظم المطر فى النهاية فى هذا البثر . وكما كان الحال فى جميع المراكب العربية ، لم تكن هناك محاولات حقيقية لمنع الماء من النفاذ من السطح ، بل أن الواقع أن السطح كان يحتوى على فتحات خاصة ، الغاية منها السماح للماء لكى يسيل الى المخزن . ولذلك فان جميع الماء الذى كان ينسكب على ظهر المركب ، حتى على المكان المخصص لمبيت البحارة ، كان يسيل ويتجمع فى المخزن .

لقد تساءلت ، وأنا أرى المركب فى تلك الحالة القريبة جدا من الخطر فى ذلك الوابل من المطر، عما اذا كان بمقدوره أن يقوم برحلة العودة الى الجزيرة العربية . فقد كان من المحتمل أن تواجهنا أمطار أخرى فى موسم الرياح الشمالية الغربية ، قبل أن نبتعد عن الساحل الافريقى ، كما كان المركب مثقلا بالحمولة ، وقد سألت نفسى عما يمكن أن يحدث لو كان عليه أن يبرأجه احدى العواصف . لقد كان واضحا أنه سيلاقى تدميرا كاملا لو

«واجه بعض الامواج العاتية • لقد كانت حواجزه العليا ، المبنية من الخشب والحصير فقط ، قريبة جدا من مستوى سطح الماء ، كما كانت الحمولة من الاخشاب ثقيلة جدا ، ولم تكن تلك الاخشاب مثبتة باحكام ، فلم يكن من عادة العرب أن يحكموا اثبات أى شيء ، وهكذا كان المركب مملوءا بالاخشاب المكسدة بعضها فوق بعض من غير نظام • وقد بدا لى أننا بحاجة الى رحمة الله للوصول الى الجزيرة العربية • ولكن يظهر أن اتجاه تفكيرى هذا لم يكن يخطر ببال أحد ممن كانوا على ظهر المركب ، أو لعلهم كانوا قد اعتادوا ذلك ، لأنه لم يظهر عليهم ما يدل على القلق • وعندما سألت حمدا ما الذى سيحدث اذا طغى البحر على السفينة ، كان جوابه الوحيد « الله كريم » ، ولكنه بعد مدة أضاف قائلا ، وكأنه كان يقلب الفكرة فى ذهنه ، : « نستطيع عندئذ أن نستخدم القارب الطويل » • ويجب أن اعترف بأنه خطر لى عدة مرات بأن من حماقة أن يبقى الانسان على ظهر مركب وهو يعلم الاخطار التى يواجهها • وتساءلت أيضا كم يمكن أن تطلب شركة للتأمين على حياتى مقابل مثل هذه الاخطار ، وان كان ذلك لا يهم ، فلم اكن قد أمنت على حياتى ، ولم أشأ أن أفعل ذلك ، ولكنى كنت لا أستطيع العوم جيدا ، ولم أشأ أن أفقد الصور التى أحملها • لقد راودنى الشك مرارا فيما اذا كنت قد تصرفت بحكمة ببقائى على المركب لأرى نهاية الرحلة • وكانت المرة الاولى فى المكلا عندما أصبت بالعمى ، والمرة الثانية فى شحر ، عندما هاجمنا جماعة من البدو ، والمرة الثالثة هناك فى كوالى ، وأنا أرقب المركب ينزلق تحت وابل من المطر حتى ليكاد يفرق • ولكن لم يكن باستطاعتى الاستسلام • وما دام البحارة العرب باقين على ظهر المركب ، فلا بد أن أبقى أنا أيضا ، فربما مد الله يد المساعدة لى أيضا ، أو ، كما قال حمد ، اذا ساءت الامور جدا ، كان بإمكاننا أن نستخدم القارب الطويل •

غادرنا جزيرة كوالى فى الصباح ، وقد بدأ الطقس يتحسن ، ولم يكن صديقى أنطون على ظهر المركب ، فقد كانت هناك مراكب عديدة تنتظر التفتيش والاذن بالسفر ، لذلك نزلنا الى البر فى القارب الصغير ، وأكملنا أوراقنا ، وتابعنا سيرنا دون التعرض لرسميات أخرى • ومرة ثانية بدأت السماء تمطر بغزارة ، الا أن المطر لم يكن متواصلا ، واستطعنا أن نصل بسهولة الى مكان يقع تحت الشراع الامامى لكى نستطيع نشره بسرعة • اذا ما بدا خطر يهددنا • وقد مررنا بحطام مركب مقلوب ، يبدو أنه من نوع البدن ، لا بد أنه كان قد غرق فى احدى العواصف • وكانت الريح جنوبية خفيفة ، هدأت بعد الظهر ، فنشرنا الشراع الرئيسى ، وان كان الافق من حولنا ما زال مكفها مظلما ، الا أن بعض الانفراج فى الفيوم كان يرينا الاشرعة الجميلة لرفاقنا من المراكب الاخرى • فقد كنا نستطيع

أن نرى مركب عبد الرزاق الاحول والبغلة « بدرى » القديمة الوقورة ،
بالإضافة الى ثلاث سمايك من صور ومركبين من نوع البدن • وخلال فترة
ما بعد الظهر ، كانت الشمس تبزع لفترات قصيرة • كنا نبحر بهدوء باتجاه
الشمال ، فقد كنا الان قد تخطينا أسوأ المخاطر • وفي المساء شاهدنا الانوار
المنبعثة من رأس كمبيجي وقد سررنا برؤية أول أنوار ملاحية ترحب بنا
ثانية بعد قضاء شهر فى ذلك الجحيم المطر الموحل •

وفى اليوم التالى كنا قد وصلنا الى زنجبار • وبما أن تحميل الشحنة-
الاولى كان قد استغرق زمنا طويلا جدا ، لذلك لم يخطر ببالنا العودة.
الى روفيجى للحصول على الشحنة أخرى • وقد كنا فى شهر ابريل وهو
الشهر الذى تهب فيه الرياح الجنوبية الغربية ، ولذلك كان الوقت مناسباً
لمتابعة رحلة العودة •

وصلنا زنجبار فى ضوء القمر ، ودخلنا الى ممر مرسى المراكب المزدحم •
وأعتقد بأن حمدا قد أدى مهمته بصورة مرضية بقيادة مركبنا الى مربطه.
خلال ذلك الزحام ، مع أن عبد الله كان ينتقده بصوت عال • وقد ألقينا
مراسينا الى جانب مركب سليمان سعيد المسمى « أمل الرحمة » ، والذى
لم نكن قد رأيناه منذ لقائنا فى حيفون • وحالما وصلنا الى الميناء ، وقبل
أن نلقى مراسينا ، كان موسى مساعد النوخة « أمل الرحمة » قد اعتلى
مركبنا ليبلغنا الانباء • ويبدو أن تمردا صغيرا كان قد حدث فى الكويت ،
كما أن اشتباكا كبيرا حدث بين العمانيين من سكان صور والصوماليين فى
«وق زنجبار النريسي • وقد احتشد بحارتنا على مؤخرة المركب لسماع
الاخبار ، فيما اندفع عبد الله الى الشاطئ ليبحث عن نجدى •

الفصل الثالث عشر

في طريق العودة إلى الوطن

فى طريق العودة الى الوطن

يبدو ان الازمة فى الكويت بلغت أوجها فى شهر (آذار) ، اثناء وجودنا فى دلتا الروفيجى نحمل شحنة الاعمدة الخشبية ، عندما كان البحارة يجتمعون حولى كل ليلة ليتفزلوا بجمال مدينتهم ومينائهم ، وبالهدوء والامان اللذين يخيمان عليها . أما الان فقد أصبحوا يتجمعون ليتناقشوا فى آخر أنباء التمرد أو الاضطراب ، أيا كان نوعه ، وسرعان ما أصبح هناك عدد من الروايات يعادل عدد البحارة ، فقد كان لكل منهم رأيه الخاص فيما حدث . أما حمد بن سالم ، فقد كان يرى أن المشكلة الوحيدة التى كانت تواجه الكويت هى قربها الشديد من العراق ، ولكنه لم يكن يشرح ماذا يعنى بذلك الكلام على وجه التحديد . أما يوسف المعجوز ، فقد كان رأيه ان الامور فى الكويت تسير على مايرام ، وان كل ما فى الامر ان العرب بطبيعتهم لا يستطيعون أن يعيشوا حياتهم بهدوء وسلام بعيدا عن الدس والتآمر ، فقد كانوا يميلون بطبيعتهم للكيد الى شخص ما أو شيء ما ، وكانت دسائسهم أحيانا توقعهم فى المآزق ، وهذا ، بحسب رأيه ، هو ما حدث فى الكويت هذه المرة .

وبمرور الوقت ، توصلت بالتدريج الى فهم ما حدث فى ذلك الميناء الكبير للمراكب العربية ، الذى لم تكن الفرصة قد أتتحت لى لزيارته بعد . واتضح لى أن رواية يوسف الشيرازى كانت أقرب الروايات الى الواقع ، مع أن هذا لم يعد لذكر الموضوع مرة ثانية ، بعد أن شرح وجهة نظره فى المرة الاولى . وكانت أفضل مصادرى تتكون من عبد الله ، شقيق نجدى ، وبعض الرجال الاخرين العاملين فى السوق . وكان بعض هؤلاء مطلعين ، بشكل يدعو للدهشة ، على ما يجرى على ضفاف الخليج العربى ، وفى أماكن اخرى من الجزيرة العربية ، وحتى فى أماكن بعيدة جدا عنهم كفلسطين ، بل كانوا أيضا على اتصال بالاحداث السياسية فى جميع أنحاء العالم . وقد فهمت من جميع مصادرى بأن النار تتأجج تحت الرماد فى الكويت منذ مدة طويلة ، وكانت ، مثلها فى ذلك مثل كل بلدة ، وماره ، ومشخة ، وقرية وحتى خيمة البدوى ، تعج بالدسائس والمكائد سواء فى السر أو العلانية ، إلا أن الكلام والاشاعات وحالة عدم الاستقرار التى كانت سائدة فى المدينة لم تكن ، على ما يبدو ، تخلق أحدا الى درجة كبيره ، على الرغم من توافر الاسباب الحقيقية لذلك الشعور .

ويبدو أن عددا من الكويتيين وجدوا ، بتأثير من العراق المستقل

حديثا والسعيد باستقلاله وقوته ، أنهم لا يشاركون في حكم بلدهم الا قليلا وعقدوا العزم على المطالبة بمزيد من المشاركة . واصبحوا يعلنون عن ذلك جهارا . ولم يكن في ذلك ضرر بالطبع ، وبمرور الوقت وافق اميرهم ، سمو الشيخ أحمد بن جابر الصباح ، أن يشكل مجلسا منتخبا للشورى . وقد انتخب المجلس بحسب الاصول ، الا انه اخذ يناكف الشيخ ، مطالباً بمزيد من السيطرة على الادارة الحكومية وعلى الانفاق الحكومي ، وبخاصة الجانب الثاني . ولكن الحاكم لم يعجبه ذلك ، فقد كان راضيا بالامور على ما كانت عليه ، مؤمنا بأن الطريقة التي كانت الكويت تسير عليها معقولة وأمنة . فعارض ما كان أعضاء المجلس يطالبون به ، فعمد المجلس الى الشعب محاولا اثارته ، ولكن رد الفعل لم يكن ايجابيا بوجه الاجمال ، فلم يكن الشعب يهتم بالقضايا الخاسرة . صحيح أن كل فرد من أفراد الشعب كان مغرماً بالدساتير والمؤتمرات ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل عدد من رجال الاعمال ، الذين كان الشعب يشك بأن دوافع حركتهم كانت شخصية محضة ، علاوة على أن افضل رجالات الكويت كانوا على ظهور مراكبهم في البحر . وهكذا نشأت المشاكل ، واستمرت فترة طويلة . وكلما كانت الامور في الكويت تتجه نحو الهدوء على عادة مثيلاتها من المدن المستقرة على الخليج العربي ، كان شخص مجهول يعمل في إحدى محطات الاذاعة الخاصة في بغداد يبدأ بايقاد النار من جديد ، واذا خبت تكلية ، عمل على ايقادها مرة ثانية ، فلم يكن يكل أو يمل ، بل كان يواصل عمله في محاولة تقويض الهدوء والاستقرار في البلاد بكل ما ملكت يده . وقد جلب على الكويت الكثير من الازى ، مع انى لم استطع ان اعرف من هو وما طبيعة صلاته بالموضوع ، كما لم يستطع عرب الكويت ان يعرفوا شيئا من ذلك . وهكذا استمرت الازمة التي كان من الممكن ان تهدأ لولا ذلك التحريض المتواصل ، وأخذ المتآمرون يعملون من مخابثهم في المقاهي ، وديوانيات التجار والغرف الداخلية في بيوت بعض صغار الشيوخ . وفي احد الايام ، هب واحد من مشيرى الفتنة المحليين وتخطى الحد المتعارف عليه . . فقد استطاع بفصاحته ان يشير اهتمام افراد الشعب البسطاء بما كان يدور في البلاد فبدأ هؤلاء يطالبون « بحقوقهم » ، واخذوا يضايقون الحاكم ، ربما لان ذلك اعجبهم ، لا لانهم كانوا يضمرون له عداوة حقيقية — فقد كانوا يحبون شيخهم لانه كان رجلا فاضلا — ولكن الفرصة لا تتاح كل يوم لافراد الشعب لمضايقة الحاكم ، ولذلك فقد كان يحلو لاحدهم ان يقف في السوق مثلا وهو يصيح قائلا : « أيها الشيخ ، لماذا لا تنفق بعض المال على هذا الامر أو ذاك؟ » ولم يكن يهتم بالفعل ما هو هذا الشيء أو ذاك . ولكن الصراخ في وجه السلطة كان يجلب شعورا من السعادة للفرد العادى .

وقد تحمل الشيخ الكثير من المضايقات . فقد كان انسانا مبالا طيب

القلب ، لا ينبغي اكثر من العيش بسلام مع رعيته . الا أن ذلك الانسان المشاغب بالغ في مضايقته بحيث جعل من حياته جحيما لا يطاق مما اضطره في النهاية الى اعتقاله ، والامر بضربه وسوقه عبر « السوق » الى السجن . وفيما كان يعبر السوق ، حاول بعض اصدقائه أن يثيروا شغبا لاطلاق سراحه ، وكان على رأس هؤلاء « يوسف المرزوق » من اصحاب المراكب ، ومحمد القطامي النوخدة الذي كان المجلس الاستشاري قد عينه في وظيفة ثابتة على الشاطئ . فأراد الان أن يظهر امتنانه لهم بهذه الوسيلة . وكان الحرس ، وهم يسوقون السجنين عبر السوق ، يندرون « يوسف المرزوق » والآخرين بعدم التدخل ولكن هؤلاء لم يبالوا بتهديداتهم . واخيرا اضطر الحرس لاطلاق النار ، فأصابوا المرزوق في قدمه وقتلوا القطامي . ولم يكن ذلك عملا متعمدا . فقد اطلقوا النار في الهواء للانذار ، الا ان هذا قفز امام الرصاصة المنطلقة فأصابته في بطنه ، وسقط مصابا بجرح قاتل . وتفرق المتظاهرون كل يحاول النجاء بجلده ، ومرت لحظات لم يكن يرى خلالها الا الغبار المتصاعد من أقدام الرجال ، وهم يجرون بأقصى سرعتهم هربا من الرصاص . وعندما انقشع الغبار كانت كميات هائلة من النعال والعباءات والكوفيات ، تغطي سطح الشارع الممتد داخل السوق المسقوف ، كما كان محمد القطامي ممددا هناك جثة هامة ، بينما لاذ الجميع بالفرار .

هذه هي قصة « الفتنة » التي حصلت في الكويت عام ١٩٣٩ (١) . ولا شك أن الدسائس والمؤامرات لم تقف عند هذا الحد ، بل استمرت مدة من الزمن ، خاصة وان كثيرا من الزعماء كانوا قد هربوا الى العراق . الا أن المواطنين الذين شاركوا في تلك المظاهرة - المعجم ، والحمالين ، وأحفاد العبيد الافريقيين ، والبدو - كل هؤلاء لاذوا بالفرار عند وقوع الحادث ، ولم يعودوا حتى لاستعادة الملابس التي سقطت منهم .

وكان تعليق حمد بن سالم على الحادث أنه كان سعيدا ببعده عنه ، لأن الموضوع برمته لم يكن ، يتناسب مع بحار محترم ، فلم يكن يهم هذا من الذي يتولى الحكم بالكويت ، لأنه سيظل دائما يعمل في البحر ويجمع المال للتجار . أما اذا اختار أحدهم أن يلقي حتفه برصاص الحكم في الكويت ، فهذا من شأنه وحده . الا أن حمدا وصحبه كانوا يشعرون بالأسى لأن يكون محمد القطامي هو الضحية ، فقد كان هذا شقيق عبد الله القطامي الذي كان معروفا لديهم جميعا .

(١) هذه بالطبع ، هي وجهة نظر المؤلف الشخصية عن الموضوع ، وقد توصل اليها بعد أن سمع الروايات المختلفة من الناس ، ولم يرها بنفسه أو يدرس أسباب الفتنة دراسة عميقة . ولذلك فإن على القارئ ألا يأخذ هذا الكلام على علاته ، بل عليه أن يعود الى مصادر أخرى للاطلاع على وجهات نظر مغالفة . (المترجم)

عندما عاد نجدي ، كان حزينا جدا لسماعه تلك الاخبار السيئة ، فقد كان محمد القطامي صديقا حميما له . ولكنه كان أكثر حزنا لما أصاب مبارك العماني الذي كان مرشدنا لدلتا الروفيجي . فقد غرمته المحكمة في « أوتيتي » ألف شلن ، وكان على نجدي أن يساهم في دفع جزء من ذلك المبلغ . الا أن أحدا لم يخبرني بنوع المكائد التي كانت وراء ذلك كله ، ولكن لم يكن من الصعب علي أن أخمن ما حدث . ويبدو لي أن مبارك كان محظوظا بأن ينجو بجلده بعد دفع غرامة فقط . كما أنه استطاع أن يستعيد سمبوكه ، وكان الآن في طريقه من سلالة الى زنجبار وهو يشعر بالحزن الشديد ، ولكن بعد أن اكتسب شيئا من الخبرة ، وان كنت أشك بأن ما حدث له سيمنعه من معاودة الكرة . وعلاوة على اغتمام نجدي ، وعدم رضائه عن طريقة التصرف بالمركب في غيابه ، فقد أحضر من دار السلام بعض الصور الجامدة له ، كان يعرضها علي بكل فخر ، على أنها قطع فنية ينبغي أن أدرسها وأستفيد من خبرة صانعها . أما اذا كان نجدي قد تخلف في زنجبار لكي يجمع بعض الركاب لرحلة العودة الى الوطن ، فقد أضاع وقته سدى ، لأنه لم يحصل الا على ثلاثة مدرسين سواحليين ، تعهد أن يحملهم معه مجانا ، اكراما لخاطر السيد سليمان .

وقد لفت انتباهي ، أكثر من الامور السياسية في مدينة الكويت البعيدة ، وأكثر من المصير الذي حل بمبارك العماني سارق الخشب ، ذلك النزاع الذي نشأ على البر في زنجبار بين بحارة ثلاث بغلات عمانية وخمسة سمايك صومالية ، وهو الذي كان يبشر أحيانا بأنه سيتطور الى اشتباك رائع ، الا أنه لم يصل الى النهاية المتوقعة . ولم يكن الذنب ذنب العمانيين في وصول النزاع الى تلك النتيجة ، فقد كانوا يتحدثون الصوماليين للخروج في سمايكهم الى عرض البحر ، والاشتباك معهم في معركة جماعية خارج الميناء . وقد بدا ، لمدة يومين أو ثلاثة ، أن هذا هو ما سيحدث فعلا ، ولكن الأمر في النهاية لم يزد عن مشاجرة صغيرة جرت خلف سوق السمك . وقد أصبت بخيبة أمل شديد ، فقد كان بودي أن أشهد معركة نظيفة في عرض البحر .

وكان هذا النزاع مع الصوماليين قد بدأ بسبب خلاف بسيط على بعض المال ، الذي كان ، في هذه الحالة ، عبارة عن رزمة من العملة الايطالية الورقية ، التي كان العمانيون قد جمعوها في حيفون ، ولكنهم لم يتمكنوا من تهريبها الى الخارج ، لأن الرقابة كانت شديدة عليهم . فانبرى عدد من الصوماليين ، الذين كانوا في سمبوك قريب منهم ، وتعهدوا بالقيام بمهمة تهريب الاموال ، مقابل مكافأة معينة ، واتفقوا على ذلك .

وقد شرح العمانيون للصوماليين كيف ينبغي أن يؤدوا المهمة . فكان عليهم أن يدسوا رزم الاوراق المالية في قطع مجوفة من عصي الخيزران ، ينفونها جيدا ، ثم يضعونها في جرار ذخارية ، ويملأون الجرار بالسمن ، وبهذا لا يمكن أن يكتشفها أي ضابط من ضباط الجمارك . وسلم العمانيون الاوراق المالية بالفعل الى الصوماليين ، بالاضافة الى قطع الخيزران وجرار السمن ، ثم امتلوا ظهور بغلابهم وغادروا الميناء . وبعد مدة من الزمن ، قابلوا الصوماليين في زنجبار ، وكانت علامات النعمة بادية عليهم ، الا انهم ادعوا بانهم غير قادرين على رد المال ، لأن قطع الخيزران التي وضعت فيها الاوراق المالية قد تحللت داخل جرار السمن ، فتلقت الاوراق جميعها . وقد تظاهروا بالحزن الشديد لهذا الحادث المؤلم .

ولكن العمانيين ، كما كان متوقعا ، لم يقتنعوا بكلام الصوماليين ، وهاجموهم في وسط أسواق زنجبار المكتظة بالناس ، وانهالوا عليهم بالضرب المبرح . وكان من الممكن ان يقضوا عليهم تماما لولا تدخل الشرطة السواحليين الذين كانوا يعملون في الاوقات الرسمية . وكان من واجبهم أن يفعلوا ذلك خوفا من أن يتطور الشجار الى نوع من الشغب الخطير الذي لا يمكن التكهن بنتائجه . وقد قام هؤلاء الرجال الرسميون بقيادة أفراد الفئتين المتنازعتين الى قواربهم الواقفة على الشاطئ ، وطلبوا منهم العودة الى مراكبهم وعدم مغادرتها أو النزول الى البر ثانية لاستئناف القتال ، والا فسيزوج بهم جميعا في غياهب السجون . ولم يكن هذا الانذار ليردع العمانيين ، الذين لم يكن السجن في زنجبار شيئا في نظرهم ، كما أنه لم يقلق الصوماليين . ولكن ما أقلق هؤلاء بالفعل هو علمهم بأن عدد العمانيين الموجودين في زنجبار يفوق عددهم ، وأنهم اذا نزلوا الى البر ثانية ، فربما حدثت مذبحة كانوا هم ضحاياها . فما كان منهم الا أن عادوا الى سمبوكهم الحقيقير ، وسحبوه الى أبعد نقطة في مرسى المراكب الوطنية ، وقبموا هناك بانتظار أن تنضم اليهم باقي السمابك الصومالية الاخرى ، بعد أن تنتهي من تحميل بضاعتها .

وكانت هذه هي المرحلة التي بلغها النزاع عندما وصلنا الميناء عائدين من سلالة . فقد وجدنا الصوماليين يقفون مشدوهين في سمبوكهم في أقصى اطراف الميناء ، بينما تتحلق وتحوم حولهم السمابك والبغلات العمانية ، وبحارتهما يحضونهم على الخروج الى عرض البحر ، ومقابلتهم في معركة فاصلة بعيدا عن الشاطئ ، حيث لا تستطيع الشرطة الزنجبارية التدخل . وقد أخذت أراقب الوضع بضعة أيام باهتمام بالغ ، لأرى ما اذا كان الصوماليون سيقبلون التحدي ، بينما كان جميع من على ظهر المراكب

الراسية هناك يتفرجون ، وقارب الشرطة يقوم بأعمال الدورية ليمنع أي اشتباك يمكن أن يقع داخل الميناء . وأخيرا تجمعت ستة سمايك صومالية ، يعتلي ظهورها بحارتهما المعروفون بصخبهم ، وطيشهم ، ووقاحتهم . وكان عدد بحارتهم كبيرا جدا ، الا أنه كان بينهم عدد من الصبية ، كما كان الامر بالنسبة للعمانيين أيضا . لقد كانوا متكافئين تماما . ولكن الايام كانت تمر والعمانيون يحومون حول مراكب الصوماليين ، ويدخلون بينها ، ويحتكون ببهارتها لعلهم يستجيبون للتحدي ، وكان عدد مراكبهم خمسة مقابل ستة لدى الصوماليين ، أي أن المعركة ، لو قامت ، ستكون متكافئة . ولم يكف العمانيون صباحا وظهرا ومساء عن ملء الميناء بصراخهم ، وهم يطلقون التهديد والوعيد ، ويحضون الصوماليين على الخروج الى عرض البحر ، الا أن هؤلاء لم يحركوا ساكنا . وأخذت الايام تمر ، دون أن تبدر منهم بادرة استجابة للتهديد والوعيد . ومر أسبوع كامل ، والصوماليون قابعون في مراكبهم الراسية . يعلو وجوههم التجهم والكآبة ، ولكنهم لم يتحركوا قيد شعرة . بينما أخذت المراكب العربية والفارسية والهندية تغادر الميناء مرغمة في رحلة العودة الى الوطن ، دون أن يتمكن بحارتهما من مشاهدة الطريقة التي سيجل بها ذلك النزاع ، ويمتعوا انظارهم بما سيتمخض عنه الامر . وأخيرا اضطرت بغلتان من بغلات العمانيين للاقلاع في صباح اليوم العاشر ، لعل العدد الصغير المتبقي من المراكب يفري الصوماليين بالاقلاع أيضا . ولكن الصوماليين كانوا يشكون بأن في الامر خدعة ، وأن المركبين العمانيين ربما كانا يتربصان بهم خارج المرفأ ، في مكان ما من قنال زنجبار الضيق . ولذلك لم يحركوا ساكنا ، وظلوا قابعين في أماكنهم .

وفي تلك الاثناء ، بدأت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تهب بقوة تزداد يوما بعد يوم ، فكانت الرياح القوية تهب أحيانا على الميناء القديم حاملة معها زخات من المطر ، وأصبح من الواضح أن العمانيين والصوماليين على السواء مضطرون للسفر في وقت قريب . أما المركبان العمانيان ، اللذان كانا قد أبحرا من قبل ، فلا بد أن الريح قد دفعتهما بعيدا الآن ، هذا اذا لم يكونا مختبئين على شاطئ جزيرة « بمبا » . وحتى لو حاولا ذلك ، فإن السلطات لم تكن لتسكت عنهما . وأخيرا اغتنم الصوماليون الفرصة ، في احدى الليالي العاصفة الماطرة ، عندما كان العمانيون الباقون منهمكين في تثبيت مراسيهم ، وأنطلقوا من الميناء ناجين بجلودهم ، دون أن ينتبه العمانيون لاقلاعهم . وعندما أصبح الصباح ، أخذ العمانيون يندبون حظهم العاثر . ومع أنهم أقلعوا في الحال في أثر الصوماليين ، الا أنه كان من المشكوك فيه جدا أن يتمكنوا من اللحاق بهم ، والدخول معهم في المعركة التي كانوا ينتظرونها . فلم يكونوا يجرؤون على مطاردتهم وادراكهم في ميناء

ايطالي ، كما لم يكن باستطاعتهم أن يدركوهم قبل ذلك بسبب قوة الريح.
الجنوبية الغربية • لقد كان سوء الحظ حليفهم •

مكثنا في زنجبار هذه المرة اسبوعين لم يحدث شيء هام خلالهما ، فقد بعنا حوالي عشرين عارضة خفيفة ، مما كان في أعلى حمولتنا ، الى أحد الهنود المقيمين بعد أن عرض سعرا مناسباً • كما حاولنا مرة ثانية أن نتخلص من « عفرة » ، ذلك المركب الصغير الذي كان قد اتسخ وتأثر من عمله في دلتا الروفيجي ، مما اضطرنا الى انزاله الى الشاطئ وتنظيفه • ولكن أحدا لم يقبل على شرائه ، ولذلك فقد اضطررنا الى تركه على رمل الشاطئ ، في عهدة وكيل المراكب العربية • أما بحارتنا ، فقد اعطي كل منهم بضع شلنات ، متعوا أنفسهم بها بالطريقة المعروفة • الا أنهم هذه المرة كانوا أحرص من قبل على نقودهم ، بعد أن انتهوا من تهريب بضائهم جميعها ، ولم تعد هناك وسيلة للحصول على مزيد من المال • فلم يكن الكثيرون يذهبون للبحث عن الفتيات الجميلات ، وبدلاً من ذلك ، أخذوا يشترون بعض البضائع المصنعة ، التي كان معظمها من صنع اليابان ، ليأخذوها هدايا لأسرهم في أرض الوطن • وكانت أحبها اليهم : « خشايش » الاطفال ، والالعاب البسيطة ، بالإضافة الى شفرات الحلاقة لأنفسهم ، ومصابيح الجيب الرخيصة ، وولاعات السجاير ، والاطباق والاكواب الصغيرة ، كما لم يكن أحد منهم ينسى شراء المواد المطرة التي تعطي نكهة خاصة للشراب •

وسواء في الروفيجي أم في زنجبار ، فقد كان البحارة ينهمكون في اوقات فراغهم بتمبئة عصير الليمون في زجاجات • وكان الليمون متوافراً بكثرة في كل مكان ، وكانوا يعصرونه على وتد خشبي ، ويحفظون العصير بإضافة قليل من الملح اليه • وقد أصبح لدينا مئات من هذه القوارير من عصير الليمون ، محفوظة في كل مكان يتسع لها على ظهر المركب • وكانت هذه القوارير خاصة بالبحارة ، كما كانت تقاليد المراكب العربية توجب توفير الاماكن اللازمة لها على المركب • وكان السواحليون الفقراء يحضرون لنا القوارب المملوءة بالليمون ، ونحن في دلتا الروفيجي ، واحدا بعد الآخر ، كما كان الليمون موجودا بوفرة كبيرة في زنجبار أيضا • ولم يكن ثمن القارب المملوء بالليمون يزيد عن شلن أو شلنين • كما كان جميع البحارة يشاركون في هذا العمل • أما القوارير ، والسدادات ، وحتى الصناديق اللازمة لصف القوارير ، فقد كانت جميعها قد اشترت وجلبت من عدن • وكانت القوارير تنظف بشكل سريع بماء النهر ، كما كان البحار من آن لآخر يضيف قليلا من الملح على حبة الليمون ويمص عصيرها

على أساس أنها نوع من الفاكهة . وقد حاولت أن أفعل ذلك مرة ، فوجدت طعمها كريها للغاية ، وغير مستساغ ، ولا يشبه طعم الفاكهة أبدا ، الا أن البحارة كانوا يحبونها حبا جما . وكان ثمن القارورة من عصير الليمون يبلغ ثلاث أنات أو أربع في أسواق الكويت ، حيث يمزج العصير بالماء ويستعمل لصنع الشراب . لقد كانت تجارة مربحة .

وخلال زيارتنا الثانية هذه ، كان ميناء زنجبار مزدحما جدا ، لأن المراكب كانت تتجمع فيه استعدادا لرحلة العودة الى الوطن . فكان بينها مراكب الصوماليين العائدين الى حيفون وبربرة واريتريا ، ومراكب العمانيين الذين يحملون البضائع لنقلها الى ساحل المهرة والى ميناء صور ، والفرس الذاهبين الى أي مكان ، والهنود القادمين من مدغشقر وأماكن أخرى ، والذين يمرون بزنجبار ليتزودوا بماء الشرب قبل أن يباشروا رحلة العودة الطويلة الى بومباي ، وجوا وخليج كوتش ، والكويتيين العائدين من الروفيجي الى الخليج العربي وخليج عمان . كما كانت هناك المراكب الحضرية الصغيرة ذات الطرفين المتشابهين ، التي كانت تبدو كأنها لا تصلح حتى للسفر في الانهار الصغيرة ، وهي تستعد للعودة الى سيحوت . لقد أحصيت في أحد الايام اثنين وسبعين مركبا من أنواع مختلفة راسية في الميناء ، دون أن ادخل في الحساب زوارق السواحليين واللامويين الصغيرة . وكان نصف تلك المراكب على الاقل لا يزيد طول الواحد منها عن خمسين قدما ، كما كانت جميعها محملة بشحنات ثقيلة جدا . ومع ذلك فمن المحتمل أن تصل جميعها الى وطنها سالمة .

عندما مرت عشرة أيام على وجودنا في زنجبار ، وأصبح البحارة يتململون بسبب تأخرنا في الاقلاع ، أخذنا شحنة من جوز الهند وضعناها بين الاعمدة الخشبية ، كما حملنا بضعة أكياس من القرنفل ، وعددا قليلا من صناديق الصابون ، وبعض البراميل المملوءة بزيت جوز الهند ، ومائة حلبة من الشعيرية . وبهذه الحمولة ، وفوقها قارب النجاة ، أقلعنا من زنجبار عصر يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من ابريل (نيسان) متجهين ، حسبما فهمت من الاوامر ، الى مسقط مباشرة . وكانت بغلة بدر المسماة « بدري » والراسية بجوارنا في الميناء ، سترافقنا في سفرنا ، وعندما مررنا بها ، كانوا يرفعون شراعها الرئيسي . وقد علقنا فانوسا مقاوما للعواصف على سارية العلم في مؤخرة المركب ليندّل « بدري » على مكاننا ، وانطلقنا بمساعدة ريح جنوبية معتدلة السرعة عبر الممر الانجليزي فسي طريق العودة . وكنا قد أركبنا معنا المدرسين السواحليين الثلاثة ، الذين عانقهم السيد سليمان عناقا حارا عند وداعه لهم ، كما عانق قبطاننا

نجدي الذي بدا عليه التأثير الواضح • وكان عبد الله قد سبقنا في احدى البغلات الى « لامو » ليعود الى الوطن عن طريق موقاديشو ، حيث يصفي بعض الحسابات والديون • لقد كان عددنا جميعا ثلاثين شخصا عندما غادرنا زنجبار ، وكلنا أمل بأن نصل الى الجزيرة العربية بسلام •

وفي الصباح كنا نبحر مقابل الطرف الشمالي من جزيرة « بمبا » ، التي كان بإمكاننا أن نراها على يميننا ، بينما كان ساحل تنجانيقا على يسارنا • وعندما بحثنا عن المركب « بدري » ، لم نعثر له على أثر ، بل أننا لم نره قط طوال رحلتنا الى الجزيرة العربية • وكانت الريح تهب نشطة من الجنوب الغربي ، فكان مركبنا يسير سيرا ممتازا باتجاه الشمال ، على الرغم من حملتنا الثقيلة ، بينما امضى البحارة فترة الصباح وهم منشغلون باعادة ترتيب أكياس جوز الهند التي أتينا بها من زنجبار ، وتحزيمها بالحبال الغليظة ، بتمريرها فوقها ، ثم مدها على طول البضائع المبسوطة على السطح الرئيسي ، وذلك للمحافظة عليها في أماكنها عندما يشدد اهتزاز المركب • كما كانوا يضعون علب الشمع والاشياء الاخرى في الاركان والفجوات التي يمكنهم أن يعثروا عليها بين الاعمدة الخشبية ، في المساحة الكائنة تحت سطح المؤخرة • وقد كانت الشمعية تشكيلة غريبة تمكن نجدي من شرائها بأسعار رخيصة جدا ، بواسطة صديق للسيد سليمان ، وكان يأمل أن يجني ربحا وفيرا من بيعها في مسقط أو في الكويت • ويبدو أنها كانت جزءا زائدا من شحنة جيء بها الى زنجبار لبيعها للسواحليين . خلال شهر رمضان • أما بقية السلع المختلفة التي كانت معنا ، كالصابون المبرقش ، والصابون الرخيص ذي الرائحة العطرية القوية جدا ، وبراميل زيت جوز الهند ، وعصير الليمون ، وأكياس القرنفل ، فقد أكدوا لي أنها ستلاقي سوقا رائجة لها في بلاد العرب • وفي الواقع أننا بدأنا نستعمل محتويات أحد أكياس القرنفل بدون ابطاء ، فمئذ اقلعنا أصبحت القهوة التي نشربها تعطر بالقرنفل بشكل دائم • ومع أنني لم أعجب بهذه القهوة المعطرة ، الا انه كان من الجلي أن العرب يميلون اليها •

وكانت السقيفة التي كنا قد اقمناها فوق سدة النوخدة في المؤخرة ، ما زالت صامدة • فقد كان بناؤها جيدا ، وكانت تساعد على حمايتنا من المطر طالما كانت الرياح الجنوبية الغربية هي التي تدفعنا من الخلف • أما البحارة فقد كانوا يصنعون لانفسهم نوعا من المأوى البسيط ، بأن يمدوا جزءا من الشراع الصغير على اسفل العارضة الصغيرة ، وينامون هناك على الحبال بين القارب الطويل وقارب النجاة • وكانت تلك الحبال مصنوعة من الخيوط القاسية الخشنة • ولم تكن تصلح بحال من الاحوال لأن تكون .

فراشا مريحا • الا أن الرجال كانوا على الرغم من ذلك ، يستغرقون في النوم عليها ، دون أن تصدر منهم أية شكوى • ولكننا عندما كنا نضطر لنشر الشراع الصغير لمساعدتنا في الابعار ، كان البحارة يظلون بدون مأوى يلجأون اليه ، الا أننا لم نلجأ الى ذلك الا بعد أن كان موسم الامطار قد انتهى •

في بداية الرحلة ، كانت الريح تهب بسرعة معتدلة ، وكنا نسير سيرا حسنا بمعدل ثماني عقد في الساعة ، على ما أعتقد • وكان نجدي يقدر سرعتنا بعشر عقد ، وان كنت أشك في ذلك ، ولكن لم تكن هناك وسيلة للتثبت من ذلك • وبعد مضي تسع عشرة ساعة على مغادرتنا زنجبار، كنا نبحر مقابل ممباسا ، ولم يكن هذا سيئا أبدا • الا أنني وجدت صعوبة في قبول تقديرات نجدي المتفائلة بأنه لن يحتاج لأكثر من ستة عشر يوما ليصل الى مسقط • وقد أدهشني أنه لم يحاول قط أن يخطط لرحلة تتجهه الى خليج عمان مباشرة ، كما كنت أفعل لو كنت قائدا للمركب • وبدلا من ذلك ، كان لا يعتمد عن الشاطئ قط في رحلة العودة • وهو ما فعله بالضبط في رحلة القدوم الى افريقيا أيضا • فقد أتينا من الجزيرة العربية وجعلنا افريقيا على يميننا ، وها نحن نعود وافريقيا على يسارنا ، وكان هذا هو الفرق الوحيد من الناحية الملاحية • هذا مع العلم أن المسافة المباشرة من زنجبار الى خليج عمان تبلغ حوالي ٢٢٠٠ ميل ، أما المسافة على محاذاة الشاطئ فانها تزيد بما لا يقل عن ٣٠٠ ميل • ولكن « نجدي » أكد أنه سيبحر قريبا من الشاطئ طوال الرحلة ، فقد كانت هذه هي الطريق الوحيدة لتلك الرحلة ، بحسب قوله ، وكان البحر طريق للسيارات • ولم يفكر أبدا بالابعار مباشرة عبر المحيط ، فقد كان يعرف طريقه جيدا ، ولا يجد داعيا للمغامرة التي لا يعرف نتائجها الا الله • وكان العرب جميعهم يبحرون بمحاذاة الشاطئ ، سواء في طريقهم من الجزيرة العربية الى افريقيا ، أو في طريق العودة • ولم تكن المسألة مسألة ملاحية فنية (فلم يكن باستطاعة نجدي أن يحدد موقع مركبه بأية وسيلة سوى الرؤية بالعين المجردة) ، ولكنه كان يعرف الرياح والتيارات الموجودة بمحاذاة الشاطئ ، وكان ذلك في رأيه أكثر أهمية من توفير بضع مئات من الاميال ، لا تقدم ولا تؤخر •

وكان لا بد لي من الاعتراف بأن في كلامه كثيرا من الصواب • فقد كان نجدي ، باتباعه الطريق القريب من الشاطئ ، يتوخى السلامة • فلم يكن مركبه الكبير ، وعلى ظهره تلك الحمولة الثقيلة ، يقوى على مواجهة الامواج العالية ، لأن بضع موجات عاتية تطغي على المركب اثناء سيره كانت

على الحال ←



كافية لاغراقه . فاذا حصل ذلك وهو قريب من الشاطئ ، أمكن استخدام قارب النجاة والوصول به الى الشاطئ ، ولكن ذلك غير ممكن لو كان المركب في وسط المحيط . وكانت خطة نجدي ، كما شرحها لي ، هي أن يبحر بمحاذاة الشاطئ الى أن يصل الى رأس عسير ، ومن هناك يقطع المحيط مباشرة الى الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، جاعلا جزيرة سوقطرة على يمينه ، كما فعل في رحلة القدوم ، ثم يلتصق بالشاطئ ثانية ، مارا بحضرموت ، وساجل المهرة ، وسواحل عمان الى أن يصل الى رأس الحد . وقد عبرت عن دهشتي لأن يكون قبطان عربي كنجدي ، بعد كل تلك القرون من الملاحة العربية عبر المحيطات ، جاهلا جهلا تاما بالملاحة الفلكية ، مع أنه قضى عمره كله ، وهو يقوم بالرحلات البحرية الطويلة . وقد أجاب بأنه كان قادرا على السفر على طريقته ، لا الى سواحل أفريقيا فحسب ، بل والى سواحل الهند أيضا . ولكنه اعترف بقصوره ، وبشعوره بالاسى لما طرأ على فنون الملاحة العربية من انحطاط ، الا أنه ، كمادته ، عزا ذلك الى التأثير السيئ للاوروبيين ، الذين كانت منافستهم للعرب عنيفة وغير متكافئة ، مما لم يترك لهؤلاء فرصة للخيار سوى القيام بتجارتهم الساحلية .

لقد كنا على وشك الغرق في الليلة الثانية لمغادرتنا زنجبار ، وشعرت بالسعادة لأننا لم نكن بعيدين عن الشاطئ . وكنا في الليلة الاولى قد واجهنا نموذجا بسيطا لما كانت تخبئه لنا الاقدار ، عندما تعرض المركب لبضع هبات قوية من الرياح المصحوب بالمطر ، أثناء مروره بمياه مالندي المضطربة . فقد بدأ المركب يهتز بشيء من العنف ، وبدأت مياه الامواج العالية تصل الى سطح المركب من الناحيتين . ومع أنها لم تكن قوية ، الا أنها جعلت البحارة ينشغلون بنزح الماء من القاع كل ساعة . كما كان الرذاذ يتصاعد أحيانا عندما كان الموج يرتفع ، فيغطي سطح المؤخرة . ولكن قوة الماء كانت ضعيفة ، فقد كان البحر عاليا ومضطربا بعض الشيء ، ولكنه لم يكن خطرا حقيقيا . وفي إحدى المرات ، عندما كان يمر بنا ريح عاصف ، تمكن الموج من انتزاع قارب النجاة من فوق ركائزه ، وكان يهدد بانتزاعه من المركب كلية . ولكن البحارة سرعان ما رفعوه من مكانه ، ووضعوه فوق البضاعة على السطح . وكلما اهتز المركب بشيء من العنف ، كانت الصناديق المصفوفة على سطح المؤخرة تبدأ بالانزلاق من جانب الى آخر فتحدث ضجة كأنها دوي عشرات من المدافع . ولم يكن نجدي يزيد عن أن يقول « الله كريم » وهو يبتسم . ولكن الخوف كان باديا بوضوح على وجوه المدرسين الزنجباريين . كما كان القلق يبدو على وجه حممد ابن سالم . وطالما كان الماء يرتفع فيغطي سطح المركب ، فقد ظل البحارة مشغولين بنزحه من القاع ثلاث ساعات متوالية وهم يعملون بكل طاقتهم .

ولكن الريح سرعان ما خفت حدتها ، وتمكنا من عبور تلك المنطقة من المياه المضطربة . فقد كانت تلك المنطقة ملتقى لعدد من التيارات ، وكان البحر ، كمادته ، سيئا في مثل هذه المناطق . وكان المركب ، تحت تلك الظروف ، يعلو ويهبط بشكل عنيف ، وكان الصاري الرئيسي يتعرض لضغط شديد جدا حتى اننا كنا نضطر ، في أسوأ تلك العواصف ، الى انزال العارضة الرئيسية الى منتصف المسافة ، لتخفيف الضغط عن الصاري وعن الشراع على حد سواء . ولكن المركب صمد صمودا حسنا ، اذا أخذنا الامور كلها بعين الاعتبار . لقد كان المركب قويا ، وكانت نقاط ضعفه ، التي لاحظناها في ذلك الوقت ، كما كانت دائما ، تكمن في حمولته الزائدة عن طاقته ، وفي عدم توفير الاحتياطات الاساسية الاولى له ، سواء كان ذلك على يدي بناته ، أو قبطنه ، أو بحارته . فقد تمكنت الصواري والاشرعة والحبال من تحمل الضغط ، ولم نصب بأي اذى في تلك الليلة الاولى ، فيما عدا ابتلال عدد من الصناديق .

وفي الصباح ، أخذت أتساءل عما حل بالمركب « بدري » في تلك الليلة العاصفة . وعندما لم نستطع أن نعثر له على أثر ، خشيت أن يكون قد غرق . فقد كان موسقا بشكل يفوق مركبنا ، كما أنه كان يحمل الشحنات الثقيلة مدة تزيد عن خمسين عاما قبل أن يبنى « فتح الخير » . لقد كان عيب تلك المراكب في نظري أنها غير قادرة على مواجهة البحار العالية ، وقد خيل الي أنها سرعان ما تتحطم قطعا صغيرة لو واجهت طقسا عاصفا بالفعل ، كتلك الظروف التي تسود مناطق المحيط الواقعة بين خطي العرض أربعين وخمسين ، أو شمال المحيط الاطلسي ، أو تلك العواصف الهائلة التي تسيطر على اقصى البحار الجنوبية ، والتي كان على المراكب الشراعية الاوروبية ، ذات الاشرعة المربعة ، أن تواجهها في جميع رحلاتها . صحيح أن الشراع الوحيد القائم على المركب العربي يقوم بعمله على افضل وجه في الظروف الممتازة ، التي تهب فيها الرياح الموسمية بدون اعاصير ، الا أنه مصدر أكيد للخطر تحت أية ظروف أخرى . وأنه لمركب سيء ذلك الذي لا يجرؤ على اعتلاء موج البحر ، الا اذا توافرت له الظروف الممتازة بشكل مستمر .

في الليلة التالية مباشرة ، ونحن نبحر مقابل شاطئ كيسيمايو ، واجهتنا نفس الظروف السابقة ، من بحر مضطرب ورياح عاصفة مصحوبة بالامطار . وهنا لم تكن العواصف شديدة فعلا بالنسبة لمركب قوى صالح لركوب البحر ، فقد كان بإمكانى مثلا أن أمر من خلال تلك العواصف جميعها في مركبي « جوزيف كونراد » ، وأنا أنشر أعلى الاشرعة على الصاري

الرئيسي . وكانت هبات الريح سيئة هذه المرة ، مصحوبة بالبرق وبضجة عالية . وكان البحر مرتفعا ، وأمواجه يعلوها الزبد الابيض الذى كانت تنعكس عليه الانوار الآتية من ومضات البرق . لقد كانت التجربة هذه المرة أسوأ من سابقتها بكل تأكيد . وحوالى منتصف الليل ، زادت حدة الاعصار ، وفجأة انقلبت الريح وأصبحت تهب من الجهة الشمالية الغربية ، يصحبها مطر غزير مخيف ، وأخذ الرعد يهدر ، والبرق يلمع فيضيء سطح المركب ، والامواج ، رغم انخفاضها ، تتكسر على جنبات المركب ، فترسل رذاذها الى السطح وهو يلمع بنور أخضر . لقد كانت الريح فعلا تهب من الجنوب الغربى ، وأحيانا من الغرب ، وتزداد نشاطا . وكنا فى هذه المرة على الاقل نعرف موقع المركب تماما ، فقد كنا قد شاهدنا أنوار كيسيمايو بعد الغروب بقليل ، أى بعد مغادرتنا لزنجبار بثمان وأربعين ساعة . وكانت الرياح الغربية تحمل معها المطر . الا أن سرعتها قفزت فجأة ، وازدادت ثمانى درجات فى احدى الهبات المفاجئة السيئة جدا ، والتي لم تكن تتكرر كثيرا . وكما هو الحال فى جميع المراكب ذات الشراع المثلث ، يجب أن يكون الشراع فى عين الريح . ولذلك أصبح من الضروري ، عندما تغير اتجاه الريح فجأة ، أن تنزل العارضة ثم ترفع ثانية . وكانت هذه عملية صعبة حتى تحت الظروف المؤاتية ، فما بالك بظروف غير مؤاتية كالتى كنا فيها ! ولا تمام هذا العمل ، كان من الضروري أن يصبح الشراع المربوط اليها طليقا ، وخارج السيطرة عمليا ، لأنه كان من اللازم أن تصبح العارضة متعامدة مع الصارى ، ثم تلف الى الجهة الاخرى ، بينما يقوم الشراع بأكمله بالدوران حول الصارى فى نفس الوقت . وكانت هذه العملية شبيهة بمحاولة طلى مشمع يغطى كومة ضخمة من القش فى أثناء عاصفة ماطرة هوجاء ، ان كان ذلك ممكنا بالفعل ، أو شبيهة بمحاولة طلى جناحى طائرة كبيرة بحيث تتلاقى أطرافها أثناء الطيران ، أو شبيهة بمحاولة قلب خيمة « سيرك » ضخمة جدا فى أثناء اعصار بحيث يصبح باطنها خارجها ، دون أن يكون بها من الحبال ما يمكن السيطرة عليها بها .

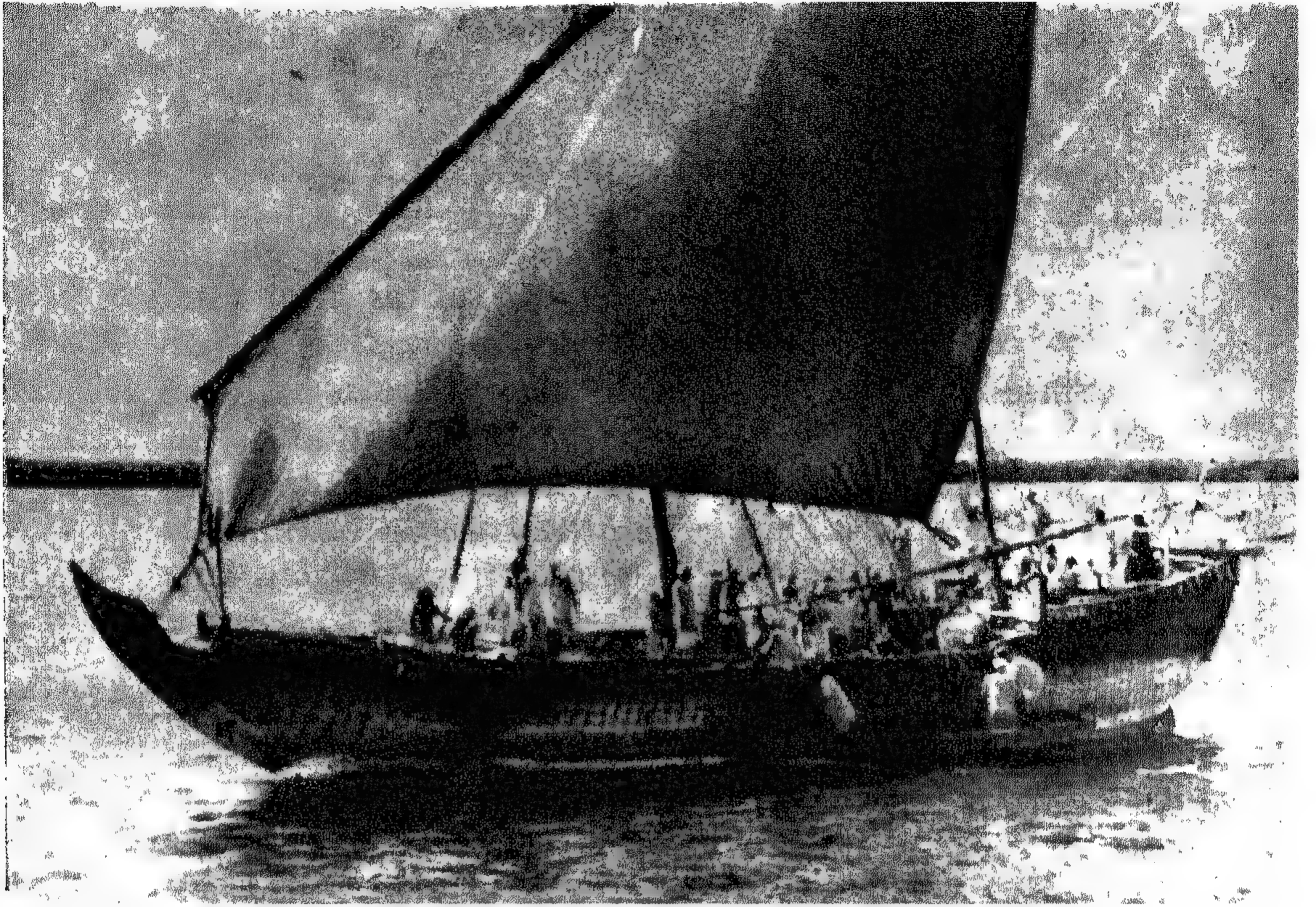
ومما كان يزيد العملية تعقيدا أن المركب كان يرتفع وينخفض بشكل عنيف ، وأنه كان من المحتمل جدا أن يتعرض لخطر الانقلاب والغرق ، وأن الانوار لم تكن متوافرة فيما عدا تلك الومضات الناتجة عن البرق من آن لآخر ، وأن البحارة لم يكفوا لحظة واحدة عن الغناء بصوت عال حتى خلال تلك الازمة التى كنا نمر بها ، بل كانوا يحدثون ضجة كبيرة جدا تمنعهم من سماع الاوامر الصادرة اليهم . وكانت الريح تزار ، والامطار تنهمر بغزارة وعنف ، والامواج تهدر وترتفع حتى تتكسر على سطح المركب . كما انخلعت الصناديق ، التى كانت على سطح المؤخرة من الحبال التى كانت قد ربطت بها بطريقة غير محكمة فى الليلة السابقة ، وأخذت تنزلق من جانب

الى آخر محدثة دويا هائلا . أما القارب الطويل ، وقارب النجاة ، فقد كانا يهتزان بعنف وهما قائمان فوق الحمولة جميعها ، كما كانت حبات جوز الهند المنفلتة من أكياسها تتدحرج من مكان الى آخر ، وأعواد خشب المانجروف تتحرك من أماكنها مع حركة المركب ، بحيث لم يعد فى المركب كله مكان آمن يمكن أن يؤدى فيه الفرد أى عمل على الإطلاق . ثم أن أنوار البوصلة كانت قد انطفأت ، كما كان يحصل فى مثل هذه الظروف عادة على أى مركب ، وانفلت الشراع بعد أن افلقت الجبال الوحيدة التى تمسك به ، ولم يكف الصارى عن الصرير والالنين وهو يتحمل ذلك الضغط الهائل الذى كان يرزح تحته ، كما كان قماش الشراع يصطفق بعنف فيصدر صوتا كهدير الرعد ، أما نجدى فقد كان يزار ويهدر بصوت يحاول أن يجعله مسموعا فى تلك الفوضى العارمة . وخلال هذا كله لم يتوقف البحارة ، وهم يحاولون القيام بمهامهم ، عن الغناء ، الذى كانت تتخلله أحيانا صيحات بحار مسكين أطاح به عمود خشبي تحرك من مكانه ، أو بحار آخر تعثر بأحدى حبات جوز الهند فانزلق وسقط على الأرض . أما القرد يمين ، الذى كان يرافقنى دائما ، فقد انطلق من عقاله ، وأخذ يتسلى الصارى حتى وصل الى قمته ، وهناك تعلق وهو يثرثر كمن فقد عقله .

ومما زاد الطين بلة أن قماش الشراع الكبير بأكمله ، الذى كان يصطفق بعنف بفعل الريح ، قد التف حول الصارى والعارضة كليهما ، وأخذ يصدر أصواتا كأصوات المدافع ، ويتسلاطم ويتمزق اربا ، بحيث أصبح من العسير جدا أن تخفض العارضة وينزل الشراع . وخلال ذلك كان المركب يهتز ويتأرجح كأنه فراشة فى مهب الريح ، بينما كانت الامواج تهاجمه بلا شفقة أو رحمة ، حتى خيل الى أن لا مناص للمركب من أن يستسلم لمصيره المحتوم . الا أن « فتح الخير » كان يقاوم ، وكأنه يعرف أنه فى خطر داهم يهدد حياته وحياة كل من على ظهره . فعندما كان البحر الهائج المزيد يهاجمه من أحد جانبيه ، كان يرفع ذلك الجانب ليواجه الموج ، بحيث يصد الهجوم القاتل ولا يسمح الا لشيء من الرذاذ بالوصول الى السطح ، مع أن الماء كان يصل أحيانا الى منتصف المسافة بين سطح المركب وأعلى الصارى الرئيسى . وكذلك كان المركب ، عندما يغطس حيزومه فى الفراغ الناتج عن احدى الموجات ، وتهاجمه موجة عارمة جديدة يمكن أن تغمره حتى منتصفه ، يرفع رأسه عاليا مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، ويتمكن دائما من تفادى ضغط الامواج الهائل ، كأنه حصان أصيل ، وعدم السماح لها بأن تغمره أو تتغلب عليه ، أو حتى بأن ترسل بجزء من ثقلها الهائل ليغمر السطح . وكان الله فى عوننا ، لو كان المركب سمح لها بذلك .

وواصل المطر فحيحه وهو يصطدم بسطح البحر المائج ، كما واصل الشراع اصطفاقه وهديره ، الا أن ذلك كان سبب نجاتنا ، في الغالب . لأن الشراع ، بعد أن تعب من الخفقان الشديد ، انفلت من العارضة والصارى ، مما جعل بإمكاننا أن ننزل العارضة انزالا كاملا الى أن استقرت على سطح الحمولة ، دون أن نكثر لطي الشراع الذي كان قد تمزق معظمه . أما وقد تم ذلك ، فلم يكن هناك داع لاعداد شراع آخر في الحال ، بل ظللنا على ذلك الحال طوال الليل . الا أن ذلك الاضطراب الهوائى غير العادى ، الذي سبب لنا كل هذا الخطر لم يستمر طويلا ، وسرعان ما انقلبت الرياح ، وأصبحت تهب من الغرب بسرعة أقل بكثير من قبل . وكان هذا مناسبا لنا . فقد كان بإمكاننا أن نهذا قليلا ، ونترك المركب ينجرى بعيدا عن الشاطئ . وفي الساعة الرابعة ، عندما بدأت أول خيوط الفجر تظهر لتضيء السماء المظلمة ، كان نجدي قلقا لئلا نكون قد انجرنا كثيرا بحيث لا يعود بإمكاننا أن نرى اليابسة ، ولذلك فقد أمر برفع أصغر جزء من الشراع الرئيسي ، وهكذا تابعنا سيرنا ، بعد أن خف ضغط الهواء ، وتلاشى الاعصار الذي سبب لنا كل تلك المشاكل . كما أننا كنا قد تخلصنا من المياه المضطربة ، وكانت الامواج تتجه ، حسبما هو متوقع في مثل هذا الموسم ، من الجنوب الغربي ، وان كانت ما زالت عالية بعض الشيء ، مما جعل المركب يواصل اهتزازه وتأرجحه ، ولكن بشكل معقول ، بينما كان البحارة ينشرون بقايا الشراع على السطح الرئيسي لتجفيفه ، والقرد ، الذي كان لا يزال ، تشبثا بأعلى الصاري ، يثرثر بحبور .

وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي نصادف فيها الطقس السيء . ولم نضطر للتوقف وانزال الشراع مرة أخرى . وقد كنت مهتما جدا بمراقبة سلوك المركب في مثل هذه الظروف ، فقد كانت تلك الازمة قريبة جدا مما يمكن أن يسمى طقسا سيئا بالنسبة للملاحة . لقد ظل المركب ثابتا في مكانه تقريبا ، والدفة مرخاة ، والشراع منزلا ، وكانت مؤخرته العالية سدا منيعا في وجه الامواج ، وكان سلوك المركب جيدا في البحر بوجه الاجمال . حتى السطح الرئيسي لم يعد يبتل . وعلى الرغم من عدم وجود الشراع ، لم يكن المركب منطلقا من عقاله ، بل ظل من الممكن السيطرة عليه . ومن الغريب أنه لم ينجرى كثيرا ، بل لم يزد ذلك عن خمسة الى ستة أميال خلال الليل بطوله . وقد كنت أخشى أن يتسبب غياب الشراع في تعثر المركب وانغماره في منخفضات الامواج ، كما يمكن أن يفعل عدد من المراكب ، التي أعرفها من تلك التي تدور حول رأس الرجاء الصالح ، في ظروف مماثلة ، لو كانت محملة مثل مركبنا . الا ان « فتح الخير » ظل رافعا رأسه عاليا ، وكانت وقفته ممتازة في تلك الظروف . وبعد تجربة



سمبولك متجه الى عرض البحر

تلك الليلة ، زاد احترامي لصانعي « فتح الخير » وأمثاله من المراكب .
فعلى الرغم من أنه لم يكن سوى مجموعة من خشب الساج المثبت بالمسامير
الحديدية ، قام بصنعه على شواطئ الكويت نجارون لا يستطيعون قراءة
المخططات ، الا أنني أصبحت واثقا بأن باستطاعة هؤلاء أن يبنوا مراكب
جيدة . وما داموا يستطيعون أن يبنوا مراكب بهذه الجودة ، فلا حاجة بهم
للمخططات أو ما شابهها .

كان نجدي حذرا خلال الليلة التالية . فقد أنزل الشراع الكبير ،
وأبحر اثناء الليل معتمدا فقط على الشراع الصغير الذي كانت حباله
مربوطة بمقدمة المركب . وقد تمكنا ، بمساعدة ذلك الشراع الخفيف ، أن
ننساب بهدوء ، بينما كانت الظلمة قد اختفت وحلت محلها آلاف النجوم
المتلألئة ، ونحن نجلس على سطح المؤخرة نتبادل الاحاديث عن السفن
والعواصف ، تحيط بنا الصناديق الحديدية من كل جانب . وقد جعل نجدي
من صلاة المغرب في ذلك اليوم مناسبة خاصة . فقد استدعى جميع البحارة
الى سطح المؤخرة ليصطفوا معه ، بينما كان حمد بن سالم يؤمهم في الصلاة .
وكان يقف الى جوار نجدي اسماعيل الموسيقي من ناحية ، وابراهيم قائد
الدفة من ناحية أخرى . وقد أقاموا صلوات اضافية في ذلك المساء ، وظل

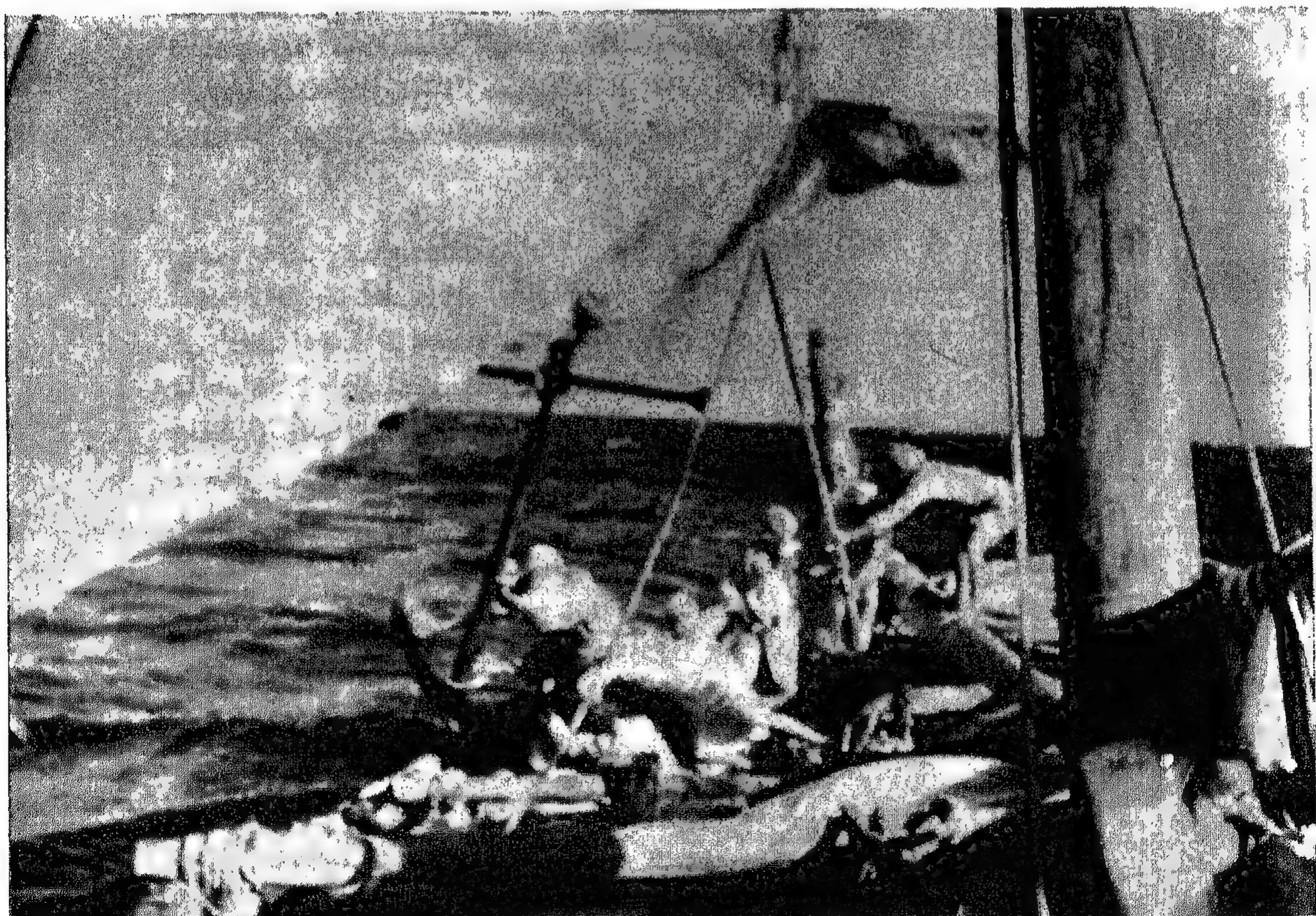
حمد جالسا على السطح وقد ولى وجهه شطر مكة ردحا من الزمن ، بعد أن انتهى الآخرون من صلاتهم • ومنذ ذلك الحين ، أصبحت جميع صلواتنا جماعية ، تؤدي كلها على مؤخرة المركب صباحا ومساء ، مع أن المدرسين السواحليين لم يكونوا يشاركون فيها بانتظام • لقد كانت عادة الصلاة هذه ذات أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، الذين لم يكن يخطر ببال أحدهم أن يتخلف عنها ، أو أن يؤديها دون أن يكون قد توضحا حسب الاصول • الا أنه لم يكن بإمكانهم دائما أن ينبذوا التفكير بالامور الدنيوية خلال صلواتهم المتكررة • فقد كان أحدهم أحيانا يقول نكته ، وحمد بن سالم يرتل إحدى الآيات ترتيلا موسيقيا جميلا ، كما كان عريف البحارة أحيانا يسترق نفسا من نارجيلته عندما يكون الباكون سجودا • ولكن هذه الحالات كانت نادرة ، وكانت الصلاة في الغالب تؤدي بكل جدية ووقار • ولا بد أن من الصعب أن يتحلل الانسان من جميع افكاره الدنيوية كلما نادى المنادي للصلاة ، خمس مرات في اليوم ، سبعة أيام في كل أسبوع •

في تلك الليلة تحدثنا طويلا عن عدد من الامور ، كما كنا نفعل دائما • وكان ذهن نجدي يقفز من موضوع الى آخر بسرعة البرق ، دون أن يعمق في بحث أي منها ، فيما عدا الامور السياسية ، التي لم أكن أنا اهتم بها شخصيا • الا أن الحديث مع نجدي كان في معظم الاحيان ينقلب الى الاستماع الى حديث متصل من جانبه هو ، لا يقطعه الا سحبه للهواء من النارجيلة بصوت دال • وكان حديث نجدي في السياسة أو في أي موضوع آخر سرعان ما ينقلب الى موعظة كخطبة الجمعة • وربما كانت آراؤه سليمة ، ولكن بما أنني لم تكن لدي آراء خاصة ، فلم أكن أجادله فيها • ولكنه كان يبدو جاهلا تماما بمراضيع أخرى • فقد كان ينكر مثلا أن الارض كروية ، كما لم تكن لديه فكرة عن الجغرافيا بعيدا عن البحار التي يعرفها • فلم يكن يعرف شيئا عن المحيط الاطلسي أو عن الأمريكيتين ، ولكنه كان قد سمع بباريس - فقد كان قد رأى في طفولته أناسا قادمين من هناك لشراء اللؤلؤ - كما كان يعرف لندن بالسماع ، ويعرف كثيرا من بلدان اوروبا ، بل كان مما يدعو للدهشة أنه كان يعرف كثيرا عن الامور السياسية في تلك البلدان • ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن النجوم ، او عن الظواهر الطبيعية الاخرى • ففي إحدى الليالي ، كنا نتجاذب اطراف الحديث كالمعتاد ، وانتقل الكلام الى الحديث عن البرق وقوته وخواصه • فقلت جواها على سؤال ألقاه نجدي علي ، ان البرق لم يكون سوى شحنة من الكهرباء المخزونة في الغيوم تنطلق من عقالها • وما كاد يسمع ذلك ، حتى انفجر ضاحكا بصوت مجلجل ، وهو يصيح باستغراب : « كهرباء ! » واستمر في قهقهته • وكان يدعو الكهرباء « تريك » ، كما كان جميع البحارة يدعونها كذلك • لقد كانت « التريكات » تصنع في المانيا أو اليابان وتصدر اليهم • أما

البرق فهو من عند الله . وقد اصبحت تلك نكتة الموسم التي لم يستطع
نجدي أن يحتفظ بها لنفسه ، بل تناقلتها الألسن في كل مركب عربي
يمخر عباب المحيط الهندي ، صدف أن التقينا به . وقد اصبحت عددها كبيرا
جدا ، بعد أن ظللنا نبحر مدة أسبوع مقابل رأس حيفون .

تخلصنا من آخر هبات الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، ونحن
شمالي مدينة « ورشيخ » ، على ساحل افريقيا الشرقي ، وبعد ذلك اصبحت
الرياح خفيفة هادئة . ومع أن نجدي كان يفضل أن تكون الرياح معتدلة
السرعة ، الا أنه لم يكن يحب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، عندما
كانت تبدأ بالهبوب في موسمها المحدد . وكنا نشاهد كل يوم ما بين عشرة
مراكب عربية وعشرين مركبا ، جميعها متجهة الى الشمال ، كما كنا أحيانا
نشاهد بعض المراكب الفارسية والهندية . لقد كنا جزءا من قافلة بحرية
طويلة من المراكب العائدة من زنجبار الى الوطن ، وكثيرا ما كان منظر
المراكب الكبيرة رائعا . وقد أدهشني فعلا أن لاحظ أن « فتح الخير » كان
يدرك ويسبق كل مركب آخر رأيناه ، بما في ذلك المراكب الهندية
والفارسية على حد سواء ، على الرغم من أن بعض المراكب الهندية كانت
تنشر عددا كبيرا من الاشرعة ، كما أنني لم أنظر من قبل الى مركبنا على

رفع المرساة



أنه مركب سريع بوجه خاص . ولعل تنظيمنا له في « كوالي » كان عاملا مساعدا له على السرعة ، أو لعل وزن حمولته كان الوزن المناسب تماما لهذا النوع من الريح . وكنا الآن قد نشرنا جميع ما كان متوافرا لدينا من الاشرعة التي لم يزد عددها عن ثلاثة . أولها الشراع الرئيسي الكبير المنشور على العارضة الرئيسية ، يليه الشراع المزيني ، ثم شراع صغير ثالث منشور على عمود مربوط برأس المقدمة . وفي أحد الايام رفعنا صاري القارب الطويل أمام مجلة القيادة ، بعد أن ثبتناه في المسند الخاص به على السطح ، ونشرنا شراعه الرئيسي . ولكن هذا سبب لنا ازعاجا يفرق الفائدة المتوخاة منه ، فقد أفلت الصاري ، ولم نعد لرفع شراعه ثانية . وقد رأينا عددا من المراكب الفارسية وهي ترفع صاريا ثالثا من هذا النوع ، منشورا عليه شراع القارب الطويل . وقد علمت من حمد أن هذه العملية بقايا عادة قديمة ، ولكنها ليست بذى فائدة تذكر . الا أن رفع الشراع الثالث في المقدمة كان يساعد على توازن الشراع الكبير ، ويسهل القيادة نتيجة لذلك . وكان عدد من المراكب الهندية ، وقلة من المراكب الفارسية ، ترفع اشرعة خفيفة على أعلى الصاري الرئيسي ، ولكني لم أر مركبا كويتيا واحدا يفعل ذلك . فقد كان نجدي يفضل أن يزيد من مساحة الشراع الرئيسي على أن يرفع اشرعة علوية صغيرة ، لأن هذه كانت ، في رأيه تسبب مزيدا من العمل والعناء والازعاج للبحارة ، وتقلق راحة النوخة ، « ولا شيء » غير ذلك . ولذلك فقد كان عدد قليل من الاشرعة الكبيرة في رأيه ، أفضل من عدد كبير من الاشرعة الصغيرة . ولعل هذا كان الشيء المناسب فعلا في المحيط الهندي ، عندما يبحر المركب في الذهاب الى افريقيا تدفعه الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ويعود مدفوعا بأولى هبات الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، قبل أن تشتد وتصبح عاصفة .

وفي هذه المرحلة من الرحلة ، كان نجدي يأخذ الامور ببساطة لم أعهد لها فيه من قبل ، فلم يكن يتابع « سير المركب الا خلال النهار » ، أما في الليل فقد كان يستغرق في النوم بينما يتسلم المعلم حمد القيادة والحراسة . فقد انتهى الطقس السيء ، وتخطينا مناطق الخطر . وما كان علينا الا أن نواصل الابحار باتجاه الشمال الشرقي ونظل على مرأى من الشاطئ ، وبمرور الوقت ، فانا سنصل حتما الى رأس الحد وخليج عمان . ومن هناك ننحرف يسارا ، دون أن نبتعد عن الشاطئ ، ونتابع السير فنصل الى مسقط .

كان الطقس رائعا والرؤية ممتازة ، فلم يكن الجو حارا ولا باردا ، كما كانت الليالي مثالية للنوم الهنيء وقد خلعنا السقيفة التي كانت تظلل

سدة النوخدة في المؤخرة ، ووضعناها في العنبر لبيعها في الكويت فيما بعد ، وبعد ذلك أصبحنا ننام ونحن نفترش الأرض ونلتحف السماء بنجومها الساطعة . أما وقد انقطعت الأمطار عن الهطول ، فقد بدأت أعواد الخشب تجف ويخف وزنها ، فتزداد رشاقة المركب في سيره ، وتزداد سرعته ، ويتحسن توازنه . وللمرة الأولى طوال الرحلة ، رأيت خليلا النجار يأخذ قسطه من الراحة ، بعد أن اضطررنا لترك المركب « عفرة » في زنجبار ، وبعد أن تم اصلاح القارب الطويل ، نتيجة ما أصابه من الضرر من المشقة التي أتيناها في دلتا الروفيجي ، كما لم يكن لدى البحارة من العمل سوى صنع الحبال من خيوط القنب الذي اشتريناه من زنجبار ، والعناية بالاشرعة . فلم يكن بإمكان خليل أن يفعل شيئا لباطن المركب أو لسطحه ، وهو يحمل أعواد الخشب بارتفاع ستة أقدام ، ولم يكن المركب بحاجة الى أية اصلاحات على أي حال ، فقد كان بحالة جيدة جدا . وعندما لاحظت نجدي توافر بقايا من خشب الضلوع والعوارض الصالحة ، بعد أن استخدم خليل ما يلزمه منها لبناء المركب « عفرة » ، خطرت له فكرة بناء قارب صغير يصلح لأبنة حسين ، وكان هذا ابنه البكر ، الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات ، والذي كان الوقت ليبدأ بالتعرف على البحر . وسرعان ما اخلت ميمنة السطح في المؤخرة من الصناديق ، وبدأ خليل ببناء « نرش » جميل صغير يبلغ طوله ستة عشر قدما ، من فضلات الخشب تلك . وسيكون هذا تحت تصرف حسين ابن نجدي وبقية ابنائه ، الذين يبدو أن خدمتهم سيبدأ بها . وذلك خلال فصل الصيف ، فاذا ما حل وقت السفر مرة ثانية ، وضع القارب على ظهر البوم وأخذ الى « لامو » أو زنجبار لبيعه هناك . وسيكون على ظهر البوم أيضا حسين نفسه ، فقد كان نجدي يعتقد ان الوقت قد حان ليبدأ ابنه فنون الملاحة وأمورها الاخرى .

ولم يضع خليل وقته سدى ، بل بدأ بالقيام بالمهمة بشكل نظامي جدي . فقام أولا بوضع متن القارب على فراش مؤلف من عدد من الأجرات ليرتفع قليلا عن سطح المركب ، ثم ثبت عمود المقدمة ثم عمود المؤخرة في ذلك المتن . وكانت خطوته التالية أن أضاف لوحين سفليين الى كل جانب وجعلهما يأخذان الشكل المطلوب بواسطة الاوتاد والمرابط المتصلة بالسطح . ثم بدأ يضيف الاضلاع ، يضع نصفها أولا ويكسوها بالالواح ، ثم يضع النصف الاخر . ولكن كان عليه أولا أن ينشر الالواح من كتلة من الخشب الهندي . ولم لاحظ أنه كان يأخذ أية قياسات أو يضع رسوما لأي شيء ، بل قام ببناء القارب كله اعتمادا على البصر فحسب . وكانت الادوات التي استخدمها تتألف من قدوم ، كان اكثر الادوات استخداما ، ومنشار هندي أو منشارين ، ومثقاب هندي من نوع القوس ، ومطرقة ، ومسحاج بدائي . وكان

خليل يعمل في القارب طوال النهار ، من بعد صلاة الفجر مباشرة ، حتى صلاة المغرب ، يساعده في ذلك بحار واحد ، بينما كان نجدي يراقبه ويعطيه بعض الملاحظات . لقد كان خليل يشتغل خلال تلك الرحلة أكثر من أي انسان آخر على ظهر المركب ، ولكنني فهمت انه لم يكن يعتبر واحدا من البحارة ، بل مساعدا شخصيا لنجدي لبناء القوارب والمراكب . ولم يكن جزاؤه على عمله ينحصر في حصته من ارباح المركب ، بل كان يتقاضى أيضا نسبة معينة من أثمان المراكب التي يصنعها . وكان الوحيد بين البحارة الذي لا يقوم بالحراسة ليلا ، فكان يلف نفسه بسجادة النوم حوالي الساعة التاسعة من كل مساء ، وينام ملء جفنيه الى أن يؤذن سلطان لصلاة الصبح . ولكنه كان يشارك في المهام التي تتطلب تعاون الجميع ، كانزال الشراع ، في تلك الليلة الليلية عندما كنا مقابل « مالندي » ، وكذلك عندما واجهتنا تلك الظروف الصعبة ونحن نبحر بحذاء « كيسيمايو » .

وهكذا تابعنا سيرنا بأمان واطمئنان باتجاه الشمال ، وأخذت سرعة المركب تقل كلما ابتعدنا شمالا ، فقد كان الوقت مبكرا جدا لوصول الرياح الجنوبية الغربية الى حيث كنا قد وصلنا . ولكن لم يكن ذلك بذي بال ، لأن تلك الرياح عندما كانت تصل الى هناك ، كانت تهب بعنف وقسوة مصحوبة بالامطار والاعاصير والرؤية السيئة . وكان هدفنا أن نصل الى الخليج العربي قبل وصول الرياح الموسمية ، وبهذا نتجنب الطقس الرديء . وقد تمكنا من صيد بعض الدلافين ، مما أضاف عنصرا لطيفا جديدا الى وجبة الغداء . أما في المساء ، فقد كنا دائما نتناول الارز ، والذرة الهندية التي تدعى « دال » . ولم تكن هذه الوجبة سيئة ، عندما كان يضاف الى المرق شيء من الفلفل واشياء أخرى لا يسهل التعرف عليها . ولكنني لم أكن أشعر بالجوع أبدا . وكان نجدي قد اشترى كيسا من البصل من زنجبار ، ولذلك كنا أحيانا نضيف البصل الى الدال . وأحيانا كان نجدي يطلب من يوسف أن يجهز لنا حساء البصل ، مضافا اليه الفلفل والدال ، كما كان السمك يشوى على نار الموقد . لقد كانت أمورنا حسنة ، وكانت الحياة على ظهر المركب لطيفة ومريحة وغير مزدحمة ، فلم يكن معنا من الركاب سوى المدرسين الثلاثة . وهكذا تتابعت الايام ، ونحن نتمتع بالشمس المشرقة والعمل الخفيف ، بينما كنت أتسلى بعلاج عدد ضئيل من المرضى ، وأدرس العربية في كتب مختلفة قلما كانت تتفق مع اللغة المستخدمة في الحديث ، وأتجاذب أطراف الحديث مع نجدي وأراقب خليلا وهو منهمك في بناء القارب ، وأتعلم كل ما أستطيع تعلمه ، ونحن ننساب بهدوء واسترخاء مقابل ساحل افريقيا ، ترافقنا عشرات المراكب الشراعية الاخرى ، وهي تشق عباب اليم في طقس مشمس جميل .

لقد كانت حياة ممتعة ، وكان هذا الجزء أجمل مراحل الرحلة . وكان لا يزال معنا عدد ممن أصيبوا بالحمى التي أصابت بعض البحارة في دلتا الروفيجي ، وكان هؤلاء يتلفعون بعباءاتهم ويستلقون على بعض الأكياس في ظل القارب الطويل . وكنت أعطى دواء « الكينين » لهؤلاء ، وفي الحالات السيئة كنت أعطيهم « أتبرين » . وقد شفى جميعهم بمرور الوقت ، وربما كانوا سيتمثلون للشفاء على كل حال سواء تناولوا الدواء أم لم يتناولوه . إلا أنهم كانوا ممتنين لأعطائي إياهم تلك العقاقير . كما كان بيننا أيضا كثيرون ، غالبيتهم من غواصي اللؤلؤ ، يشكون من القروح والدمامل الجلدية الأخرى ، وواحد أو اثنان من التهابات في الرأس . وقد شغلت نفسي بهواية العلاج هذه ، وكم تمنيت خلال هذه الرحلة لو كنت بالفعل أعرف شيئا عن مهنة الطب .

وفي صباح أحد الأيام ، عندما كنا في مكان ما جنوب رأس حيفون ، ونحن نواصل السير ببطء باتجاه الشمال بمساعدة ريح خفيفة جدا ، أدركنا اليوم الصغير الذي يقوده عبد الله القطامي . ولم يكن الجو رائقا في فجر ذلك اليوم ، الذي لم نكن نبعد فيه عن ساحل الصومال أكثر من عشرة أميال ، بينما كان يرافقنا اسطول مؤلف من ثمانى مراكب عربية كلها تمخر البحر بهدوء ، الكبيرة منها ببطء واتزان ، والصغيرة ، كمراكب الحضارمة ذات الطرفين المتشابهين ، وبدن أو اثنين ، تسير سيرا حسنا وهي أقرب الى الشاطئ منا . وما أن انتصف الصباح حتى أصبح عدد مراكبنا عشرة . وتمكن نجدي أيضا من التعرف على مركب القطامي بواسطة شراعه ، مع أنه كان يسبقنا بحوالي ثمانية أميال ، ولم يكن بالامكان رؤية شيء منه سوى قمة شراعه . وكنت أعلم أن نجدي لا يخطيء في التعرف على المراكب العربية ، وبخاصة الكويتية منها . ولكني لا أعلم كيف كان يمكنه أن يميز مركبا من آخر على ذلك البعد السحيق ، فقد كانت الفروق بين المراكب ضئيلة جدا . ولم أكن أستطيع أن أكتشف الفروق بين واحد وآخر ، إلا اذا كان الاثنان يقف أحدهما الى جانب الآخر . أما نجدي وبحارته ، فقد كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك على بعد خمسة أميال . وأعتقد أن السبب في ذلك أنهم كانوا يترعرعون بينها ، ولا يهتمون بشيء آخر غيرها . لقد كان بإمكانى أن أفعل الشيء نفسه للمراكب ذات الاثيرة المربعة ، كما كان يستطيع ذلك القبطان « دي كلوكس » ، أو قبطان أي مركب آخر من المراكب ناقلة القمح ، بل وأي ضابط من ضباطها . وربما كانت المراكب الأجنبية تبدو في عيني نجدي سواء ، ولكنه كان حتما يعرف المراكب العربية . لقد كانت الفروق بين بوم كويتي وآخر طفيفة جدا ، كاختلاف بسيط في شكل الشراع ، أو فرق لا يذكر في زاوية ميل عمود المؤخرة

أو المقدمة ، أو اختلاف طفيف في طريقة ربط الشراع على العارضة ، حتى أنه لم يكن بإمكان أحد أن يكتشفها ، إلا إذا كان بحارا عربيا خبيراً .

ولم يكن نجدى يميز الا ثلاثة أنواع من السفن البخارية التي كان يسميها : « مركب جاز ، ومركب ستريك ، وفست ميل » . أما النوع الاول فقد كان يشمل جميع ناقلات النفط ، أو أية سفينة تقع محركاتها في الجزء الخلفى منها . وأما الثانى ، الذى اشتق اسمه على ما يبدو من سفن ستريك لاين (Strick Line) التى تتاجر مع البصرة ، فقد كانت بالنسبة لنجدى أية سفينة شحن . وأما جميع السفن الاخرى التى تحمل الركاب فقد كانت تنتمى الى الفئة الثالثة . لقد كان نجدى يعرف ناقلات النفط ، لأن الطريق من عبدان الى الخارج يمر بحذاء الكويت ، ولا بد أنه كان يرى تلك السفن طوال حياته . وكان النوع الثالث من السفن يشمل السفن التابعة لشركة الهند البريطانية ، التى كانت تستخدمها للمتاجرة بين بومباى فى الهند وبلدان الخليج العربى .

كانت الريح تهب لطيفة من الشرق ، وبدأنا بالاقتراب بسرعة من بوم القطامى . وقام نجدى بتوجيه المركب فى خط مستقيم باتجاه ذلك البوم ، وذلك بالتأكد التام من ترتيب وتوازن أشرعته جميعاً . لقد كان أستاذاً فى هذا العمل ، الذى كان يعتبر نصف ما ينبغى على قبطان المركب الشراعى أن يتقنه اتقاناً تاماً . ولا أعتقد أنه ، من هذه الناحية ، كان يقل خبرة وفناً عن قباطنة المراكب الشراعية غير العربية التى عرفتھا . بل أنى متأكد أنه كان يعادل فى هذا ما يعرفه القبطان « دي كلوكس » ، وهو يقود احدى مراكبه التى كانت تدور حول رأس الرجاء الصالح مثل « هرزوجين سيسيل » أو « بارما » ، وكان كلاهما ممتازاً فى هذا . أما الآن فقد اعطى أوامره لتنظيم الشراعيين الكبير والصغير بالطريقة المناسبة ، كما رفع شراعاً صغيراً ثالثاً ، وسرعان ما زادت سرعتنا بعد أن نشط الهواء بعض الشيء . وما أن انتصف النهار ، حتى كان بوم القطامى قد أصبح قريباً جداً منا ، ولم يمض الا وقت قصير ، حتى أدركناه وأصبحنا بمحاذاته تماماً . وأخذ نجدى يتحدث مع عبد الله اقطامى من سطح المؤخرة ، بينما كان البحارة يتحدثون مع بعض من رأس السلوقية فى المقدمة . وقد أفاد اقطامى بأنه غادر « لامو » منذ ثمانية أيام فقط ، بينما كان البحارة يعتقدون أنها عشرة ، أما العدد الصحيح فقد كان اربعة عشر يوماً ، وأنهم متجهون ، مثلنا ، الى مسقط لتسليم بعض البضائع ، وأنهم لم يقابلوا الا البحر الهادئ والرياح المؤاتية . كما اخبروني بأنهم لم يروا أثراً للمركب « بدري » ، الذى كنا قلقين عليه ، خوفاً من أن تكون تلك الليالى السيئة ، التى مرت بنا ونحن نبحر قبالة سواحل مالينسدي

وكيسيمايو ، قد قضت عليه . وكان قد مضى علينا حتى ذلك الوقت
سبعة أيام منذ أن غادرنا زنجبار ، مما يدل بالطبع على أننا كنا نسير
بسرعة أكبر من سرعتهم .

وبينما كنا نتجاوز ذلك اليوم الصغير ، نظرت اليه ، فوجدت أنه كان
يبدو بحالة جيدة ، وهو يشق طريقه في تلك المياه الزرقاء ، يدفعه شراعا
الكبيران . بينما كانت عارضته تتمايلان كشجرتين من الحور في مهيب
الريح ، كما كان قماش الشراعين القطني الأبيض يمتلئ بالهواء ويبدو
منظره جميلا . ومن آن لآخر ، عندما كانت مقدمته تغوص في الماء ، كان
الزبد ينبعث من حول تلك المقدمة المنخفضة ، أو يندفع بخفة ويعانق جانبيه
المبتلين ، وكان الاثر الذي يتركه خطا مستقيما غير مضطرب . وقد رأينا
بضعة عشر راكبا عمانيا على سطحه ، وثمانية حبال صيد مثبتة فسي
مؤخرته .

ثم تابعنا سيرنا وسبقنا مركب القطامي ، الا أن نجدي أمر بارخام
الاشرة وتخفيف السرعة ، ثم نزل في القارب ليعود الى مركب القطامي ،
ويقوم بزيارته . وفي المساء ، وكنا لا نزال قريبين جدا من بوم القطامي
بحيث نسير بمرجبتيه ، أرسل نجدي القارب اليها طالبا صوره التي كان فخورا
بها بشكل خاص ، كما طلب أن يعرف تاريخ اليوم ، لأن أحدا على ظهر
المركب الآخر لم يكن لديه فكرة صحيحة عنه . بل انهم لم يكونوا يعرفون
في أي شهر نحن ، ولم تكن لديهم الا فكرة غامضة بأن الشهر قد انتهى وأن
شهرا جديدا قد بدأ منذ مدة قصيرة . وعندما بدأت آخر خيوط النور
تختفي من سماء ذلك اليوم ، بعد أن غربت الشمس ، قام بحارة المركبين
بتأدية صلاة المغرب ، في وقت واحد ، كل منهم على مركبهم ، ثم ما لبث
اسماعيل أن أخذ يشنف أذانهم بالموسيقى . وقبل أن ينتصف الليل بقليل ،
عاد القارب اليها ، حاملا نجدي وعبد الله القطامي ، اللذين أعلننا انهما
سيمحران معا الى أن يصلا مسقط . وقد أمضى القبطانان معظم الليل وهما
يتجاذبان أطراف الحديث ، بينما كان حمد بن سالم يقود « فتح الخير »
وسعود ، العبد المعتقد ، يقود بوم عبد الله .

وعندما أصبح الصباح ، وجدنا أننا قد سبقنا رفيقنا كثيرا ، فأنزلنا
الشراعين الصغيرين ، لكي نعطي المركب الآخر فرصة اللحاق بنا . وأخذ
نجدي يغمز من قناة المركب الآخر ، ولكن عبد الله كان يرد له الصاع
بصاعين ، الا أن المركبين ظلا أحدهما بصحبة الآخر . وكان بإمكاننا أن

نرى مركبا فارسيا كبيرا ثقيلا الحمل أمامنا ، ومركبا هندية من برمباي على يسارنا ، ولم يكن يصعب علينا أن ندرك المركبين ، لو لم يتسبب رفيقنا بإبطاء حركتنا . فقد أمضينا معظم ذلك النهار ونحن نبحر بببطء كبير في المحيط الهندي ، واثرتنا غير مشدودة ، لئلا نبتعد كثيرا عن اليوم المرافق لنا ، وإن كان ذلك لم يكن يعجب حمدا ، الذي كان يهمس في أذني قائلا أننا يجب ألا نبدد تلك الرياح المؤاتية التي كانت العناية الالهية تزودنا بها . وعندما تجرأت وقلت لعبد الله أنني اعتقد أن مركبه يسير بببطء شديد ، أجاب أنه ، على العكس ، كان يبحر بشكل مرض للغاية ، ولكنه اضاف قائلا انه ربما كان يسير أبطأ من المعتاد ، لأنه هو لم يكن على ظهره ، ولم تكن الاشارة موجهة أفضل توجيه . ولكنني لم اقتنع بالجواب من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم ارد أن أسوء الى سعور المسكين ، الذي كان في رأيي من أفضل « المعلمين » الذين انجبتهم الكويت ، ولذلك رددت عليه مذكرا اياه بالايام الاربعة عشر التي أمضاها مسافرا من لامو ، حين كانت الاشارة موجهة توجيهها جيدا ، والظروف الملاحية مؤاتية .

وعندما وجد عبد الله ان حجته ضعيفة ، ابتسم ، واعترف بأن اشارة المركب كانت أصغر مما ينبغي ، ولم يكن لديه من المال ما يكفي لشراء اشارة اكبر منها . ولكنه اقسم بأغلظ الايمان أن الماء لم يكن يتسرب الى باطن مركبه ، الا أنه ، من سوء الحظ ، كان البعارة في تلك اللحظة قد بدأوا ينزحون الماء ، واستمروا في ذلك نصف ساعة ، وكانوا خلال تلك الفترة ، ينزحون قربة تلو أخرى من الماء دون انقطاع . الا أن عبد الله أصر أن ذلك الماء لا بد أن يكون من ماء المطر المتجمع في قاع المركب . ولكن الواقع كان يكذب ذلك ، فلم تكن السماء قد أمطرت مدة اسبوع كامل ، ثم أضاف ان القرب التي كانوا يرفعون بها الماء لم تكن مملوءة عن آخرها . والخلاصة أنه كان يخلق الاعذار لتغطية عيوب مركبه ، ولم أله على ذلك ، بل أنني اعتقد أن النوخنة الجيد هو الذي لا يجد عيبا في مركبه . فلم يكن عبد الله يجد غضاضة في أن يكذب عندما يتحدث عن أداء مركبه ، كما ينبغي لكل بحار جيد أن يفعل ، كما كان غير مستعد للاعتراف بأن فسي مركبه أي عيب من العيوب ، أو الاقرار بأن مركبنا كان أسرع منه . ولكننا ، لكي نثبت له ذلك ، درنا دورتين حول مركبه ، مع أنه كان يقف على سطح المؤخرة ، ويصيح ببشارة مركبه الصغير : هلموا ! تقدموا ! الى الامام ! وبعد أن فعلنا ذلك ، أعدناه بقاربنا الى مركبه البطيء ، وسألناه اذا كان يرغب في ارسال أية رسائل معنا الى مسقط ، ولكنه لم ينقطع عن الابتسام . وهكذا افترقنا اصدقاء . وما أن أتى صباح اليوم التالي حتى كان برمه قد اختفى عن الانتظار خلفنا ، فلم يكن بإمكاننا أن نصعبه طرل الطريق .

مسكين عبد الله القطامي ! فخلال زيارته لنا ، وكانت زيارة لطيفة فعلا ، لم يأت أحد على ذكر أخيه ، الذي قتله الرصاص اثناء حادث الشغب الذي حصل في الكويت . فلم يكن هو يعلم بذلك الخبر ، ولم نقوم نحن بإبلاغه اياه ، لأنه كان شديد التعلق بأخيه ، ولم نحب أن نحمل له تلك الاخبار السيئة . ولا بد أن المسكين سيعرف بالامر ، في الوقت المناسب ، عندما يعود بمركبه من البحر .

الفصل الرابع عشر

مصباح النبي

مصباح النبي

مضى علينا أسبوع ونحن نواصل ابحارنا ما بين رأس حيفون ورأس عسير ، والجو ما بين هادئ ومعتدل الريح . وكنا ، في أحيان قليلة ، نبتعد عن البر ، بحيث لا نستطيع رؤيته ، ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلا ، فقد كان نجدي يسارع الى تحويل مساره ، بحيث يصبح ساحل افريقيا على مرأى منا ، فلم يكن نجدي يحب أن يغيب البر عن بصره . وكانت هذه المرحلة امتع ما مر بي ، من الرقت الذي نجونا فيه من اعاصير الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى أن وصلنا ، جون مطرح ، في خليج عمان بعد خمسة عشر يوما . فقد كان المركب يمتد عباب اليم بهدوء وقوة كأنه راقصة باليه ، لا يعكر هدوءه شيء سوى حركة انسيابه الى الامام . ورغم أن سرعته لم تكن تزيد عن ثلاث عقد أو اربع ، فان ذلك لم يكن يقلق بال أحد . وكان البحر هادئا يزهر بلونه الازرق الرائع . أما الريح فقد كانت تهب علينا برفق من جهة الشرق ، ما بين الجنوب الشرقي والشمال الشرقي ، فتأطت حرارة سطح المركب نهارا ، وتجعل الليالي هنيئة مريحة . لقد كانت الحياة وادعة لطيفة ، فلم يكن هناك صوت يعلو على سطح المركب ، كما لم تكن هناك أصوات أخرى غير تلك الصادرة عن تأدية بعض الاعمال ، كصوت مطرقة النجار ، أو رنين النقود من العملات النمساوية والروبيات الهندية ، عندما كان حمد يقوم باجراء حساباته ، كما كانت تصل الى اسماعنا اصوات الضحكات الخافتة ، التي كانت تصدر عن البحارة البسطاء وهم على مقدمة المركب ، وأصوات صرير سكان المركب وحباله ، واصرير البطيء الخافت الصادر عن الصواري . لقد كنت أياما هائلة فعلا ، كل منها يشبه الآخر ، ولكنها لم تكن مملة . كما كان طعامنا جيدا ، فقد كنا نصيد كثيرا من السمك ، وكانت لا تزال لدينا كمية من البرتقال والموز كنا قد اشتريناها من زنجبار . وفي أحد الايام تمكنا من صيد أحد كلاب البحر وأكلناه . ولكنني لم أكن شخصا أحب لحمه ، كما لاحظت أن يوسف الشيرازي وخليلا النجار - اللذين كانا ينتميان الى طائفة دينية مختلفة عن الآخرين - لم يتناولوا شيئا من لحمه أيضا . وكان رأى خليل أن سمك القرش هو خنزير البحر ، وقد وافقته على رأيه . الا أن نجدي والآخرين كانوا يأكلونه بشهية وممتعة عندما قدم لهم لحمه مفروما مع الارز ، ومغطى بطبقة من السمن الحار .

لقد كانت الاقامة على سطح المركب لطيفة تحت ظروف مؤاتية كالتى

كنا نمر بها ، وعلى الرغم من أنني كنت شديد الشوق لرؤية الكويت ، الا أنني وجدت نفسي غير متشوق لنهاية الرحلة . فلم أكن اعرف متى يمكن أن أقوم برحلة مشابهة أخرى . وكثيرا ما كنت أجيل الفكر في ذلك المشروع ، الذي بدأت ولادته في كوالي ، والذي يهدف الى انقاذ احد المراكب القديمة من نوع البغلة ، والابحار فيه عبر المحيط الاطلسي الى أمريكا ، الا أنني ، بعد تلك الليلة المخيفة التي قضيناها مقابل شاطئ ماليندي ، بدأت أعتقد أن تحقيق هذه الامنية مطلب عسير جدا . فان أي انسان يفكر بالابحار في بغلة عربية ، بمعداتنا الحالية ، وبالطريقة التي كان العرب يديرونها، وعبر المحيط الاطلسي، أو أي مكان اخر بعيدا عن المحيط الهندي الذي كان مكانها الطبيعي - ان أي انسان يفكر بذلك سيحتاج من الله عوننا أكثر مما يحق له أن يطلبه منه . ورغم ذلك ، فقد كنا كثيرا ما نجلس هناك في المساء نتحدث عن الرحلات الطويلة ، وعن امكانية القيام برحلة بحرية عبر المحيط الاطلسي في بغلة عربية ، لأن نجديا وسائر البحارة أصبحوا يبدون اهتماما كبيرا وحماسا شديدا لتحقيق المشروع ، بعد أن كانوا في البداية ينظرون اليه شزرا . وسرعان ما بلغ بهم الحماس حد مطالبتي بتحقيق المشروع ، فعرض نجدي خدماته بأن يكون مرشدا للمركب في المياه العربية ، كما عرض حمد أن يعمل بائعا لشحنة من السجاد العجمي، والادوات والأواني النحاسية العربية ، والسيوف والصناديق الكويتية المنقوشة التي تمهد بأن يقوم بشرائها ، كما التهب البحارة الآخرون حماسا للاشتراك في مغامرة من هذا النوع ، وشوقا لتجربة التمتع بنساء أمريكا .

لقد كان موضوع هذا الحديث مسليا وممتعا في الليالي القمرية ، ونحن على سطح مركب كبير محمل بالاعمدة الخشبية ، يحيط بنا سكون المحيط الهندي من كل جانب . وكان نور القمر يضيء على سطح المركب نوعا من الجمال الرومانسي والنظام اللذين كنا نفتقدهما خلال النهار ، كما كان عريف البحارة وطاقم الحراسة الليلية يبدون ، وهم متعلقون حول الصاري الصغير ، وملتفون بعباءاتهم ، كأنهم لوحة زيتية رائعة . . . وكانوا يجلسون هناك ، يتجاذبون أطراف الحديث عن الكويت ، وعن المراكب ، وعن ليالي زنجبار ، كما كانوا يحدثونني عن العالم الخارجي . وكان قائد الدفة يجلس على الكرسي المقابل للعجلة كأنه بوذا ، بينما كنا نسمع صريرا خفيفا يصدر عن الحبال والبكرات والصواري ، أما قمة الصاري والشرع الكبير (العود) فقد كانت تبدو عالية جدا . ولم يكن هناك غير نور القمر ، اذ لم تكن نحمل أية مصابيح . كما كان الماء الفضي ينشق أمام مقدمة



المركب بصمت وهدوء ، ونحن ننساب بلطف على سطح الماء ، ولا نتحرك خلفنا الا أثرا خفيفا ، على الرغم من عرض تلك المقدمة •

وكما كان الحال على جميع المراكب الشراعية ، كان كل يوم يأتي بجديد • فقد كنا أحيانا نقوم بزيارة مراكب أخرى ، وكان هذا يحدث كلما رأى نجدي أحد المراكب الصديقة يبرز من وراء الأفق • وفي بعض الأحيان ، كانت تقع بعض الحوادث البسيطة ، كما حدث عندما سقط خمسة من بحارتنا في الماء • ولم يكن هذا أمرا غريبا ، فقد كان يحدث كثيرا ، الا أن هذه المرة كانت الوحيدة التي سقط فيها عدد كبير منهم معا • وقد حدث هذا ، عندما تغيرت الريح قليلا ، وأردنا أن نفيد منها برفع الشراع الصغير ليساعد على سرعة المركب • وقد رفع الشراع بالفعل ، وكان البحارة الخمسة يرفعون البكرات ، ويوثقون الحبال ، عندما انفلتت هذه فجأة فسقط الجميع في البحر دفعة واحدة • فقد كانوا يقفون على ظهر الصناديق المصفوفة على سطح المؤخرة ، ولم يكن هناك ما يحميهم من السقوط عندما انفلتت الحبال • فلم يكن هناك درايزين أو سور من أي نوع • وهكذا سقطوا جميعا : سلطان المؤذن ، ومحمد ذو الرأس الاقرع ، ويوسف ذو الجسد النحيل ، وناصر الغواص ، وجاسم الطباخ ، الذي كان قد ترك الارز ينضج على النار وأتى ليساعدهم في عملهم وينال شيئا من الرياضة ، فلم تكن لديهم أية فرصة لتجنب السقوط ، فانجرفوا الى البحر حالما انفلتت الحبال • وكان المركب في ذلك الوقت يسير باتجاه الريح ، وكان حسن ، قائد الدفة ، عندئذ يحاول تهدئة المركب الى أن يقوم البحارة برفع الشراع الصغير وتثبيت حباله • وكان هذا من حسن حظهم ، لان المركب في هذه الحالة لم يكن يترك أثرا عميقا خلفه كما لم تكن سرعته كبيرة بحيث يسبق البحارة الساقطين في البحر بمسافة كبيرة • وقد رأيت الخمسة وهم يتضاحكون ويسبحون كالسمك بمحاذاة المركب •

وحالما حصل ذلك ، صاح نجدي بصوت كأنه زئير الاسد قائلا : « ثبت الدفة » وفي الحال أخذ حسن يدير العجلة بسرعة الى أن أصبحت الاشرعة في وضع مقلوب تقريبا ، وثبت المركب في مكانه ، بينما انجرف كل ما كان غير موثق على سطح المؤخرة وسقط في البحر • ولم تمض نصف دقيقة حتى كان البحارة الخمسة قد صعدوا الى ظهر المركب ثانية ، وهم يضحكون ويقطرون ماء ، دون أن يبدو عليهم أي تأثير بما حصل • بل انهم لم يبالوا حتى بتبديل ملابسهم المبللة ، وانطلقوا في الحال لتأدية اعمالهم • وحالما انتهى هذا الحادث البسيط ، عاد نجدي الى سדתه على سطح المؤخرة ، وطلب أن يحضروا له صورته ، تلك الصورة التي كان قد أخذها له مصور هندي في دار السلام ، والتي لم يكن نجدي يمل من النظر اليها والاعجاب

بها • أما حمد بن سالم ، فقد ظل نائما ، لم تزعجه هذه الحادثة ، بل أن الوحيد ، من جميع من كانوا على ظهر المركب الذي أبدى شيئا من الاهتمام لما حدث ، كان القرد « يميز » •

وكان أحد المراكب ، التي قمنا بزيارتها ، بوما صغيرا لموسى عبد العزيز من دبي على ساحل الامارات المتصالحة • وكان موسى هذا صديقا لنجدي ، وكنا قد قابلناه في موانئ عديدة • وكان مركبه قادما من « ديفا » في جنوب دلتا الروفيجي ، وميمما وجهه شطر المكلا في حضرموت • اما المركب فقد كان صغيرا قديما متواضعا لا تزيد حمولته عن اربعين طنا ، ومع ذلك فقد كان يبدو كأنه مركب عظيم ، وشراعه الابيض الكبير ممتلىء بريح الصباح ، وعارضاته الطويلة مقوسة بشكل جميل • كما كانت خطوطه تنساب انسيابا جميلا ، ولم يكن عاليا في الماء ، وكانت له مقدمة حادة ، وانحراف طولي يساعده على ركوب البحر بقوة وعزم ، هذا اذا تمكن هيكله من الصمود • وعندما اعتلينا المركب ، مدوا لنا سجادة فوق البضاعة الموجودة على سطح المؤخرة ، واستقبلنا موسى بكل ترحاب ، وقدم لنا الحلوى والمرطبات مع القهوة ذات نكهة القرنفل ، والشاي الشديد الحلاوة ، وقطعا من برتقالة زنجبارية غير ناضجة • وقد تحادثنا مدة نصف ساعة تقريبا ، بينما كان المركبان يبحران جنبا الى جنب • وقد لاحظت على المركب بوصلة قديمة جدا محفوظة في صندوق هائل الحجم ، كانت تبدو كأنها قد اشتريت من أحد الرجال الذين كانوا يعملون في شركة الهند الشرقية قبل قرنين من الزمان • وربما كان هذا صحيحا ، فقد اخبرني موسى انها كانت مشتراة في الاصل من دكان للخردوات في بومباي ، ولم يكن يعرف عمرها بالضبط ، وربما كان مائة عام أو يزيد • فقد كان اشتراها مع المركب وكان عمر هذا يزيد عن اربعين عاما • كما أنه سمع أنها كانت مركبة في مركبين كريتيين آخرين على الاقل قبل أن تنتقل الى مركبه • وكثيرا ما كنت لاحظ معدات بحرية قديمة ، جدا ، من هذا النوع ، في المراكب العربية المتواضعة • وقد لاحظت أيضا أن عجلة القيادة في هذا المركب ، وكانت قطعة جميلة من الاثاث محاطة بالنحاس الاصفر ، تحمل اسم احدى مؤسسات صنع السفن البريطانية القديمة جدا • ولم يكن لدى موسى آلة لقياس الابعاد أو أية خرائط ، بل كانت تلك البوصلة القديمة هي كل ما يملك من أدوات الملاحة البحرية ، بالاضافة الى خريطة العالم من توزيع احدى شركات التأمين الاسترالية ، ونسخة قديمة من دليل عربي للبحار الشرقية من تأليف عيسى القطامي(١) وقد لفت الكتاب نظري ، وأخذت

(١) الكتاب هو « دليل المختار في علم البحار » تأليف عيسى القطامي ، وقد صدرت طبعته الثالثة عن مطبعة حكومة الكويت عام ١٩٦٤م - ١٣٨٣هـ • (المترجم)

أقلب صفحاته ، فلم تكن لدينا نسخة منه • ولكن نجدي لم يكن يبالي به ، فقد قال انه لا فائدة منه ، لان جميع المعلومات المتوافرة فيه موجودة بشكل أفضل على الخرائط • الا أنه كان يبدو لي ، من تصفحي السريع للكتاب ، أنه يحتوي على شيء من الوصف الجيد لبعض المعالم البحرية ، ان لم يكن يحتوي على شيء آخر •

لقد أحببت موسى وأحببت مركبه الصغير • فقد كان الرجل بسيطا أنيقا ، وكان يتكلم عن مركبه بعاطفة و إعجاب كبيرين ، كما كان يبدو أن بحارته يكنون له الحب أيضا ، فقد كانوا جميعا يجلسون حولنا مسرورين ونحن على ظهر مركبهم • وكان هذا نظيفا نظافة غير عادية ، كما كانت كل خلجة من خلجات موسى تنطق بالهدوء والصفاء • ولكنني علمت فيما بعد أنه كان واحدا من افضل المهربين في دبي •

بعد انقضاء عشرة أيام على مغادرتنا لزنبار ، وجدنا أنفسنا مقابل رأس عسير وهو اقصى شمال الساحل الافريقي الشرقي • وكانت الرياح خفيفة ، تهب من الجنوب الشرقي ، في ذلك اليوم الذي كان صحوا ، ومن هناك انطلقنا باتجاه الجزيرة العربية • وعند الفسق ، كنا نستطيع أن نرى جزر « عبد الكوري » الصغيرة الجميلة ، الواقعة الى الغرب من سوقطرة • لقد كانت الشمس على وشك المغيب ، وهي ترسل أشعتها الحمراء ، فتجعل من المنظر شيئا رائعا ، لا يمكن رؤيته الا على سطح المياه في المحيط الهندي ، وكانت صخور تلك الجزر جميلة حقا • ثم ارتفع القمر ، وأرسل نوره الهادئ الرائع في تلك الليلة التي واصلنا السير فيها ، تدفعنا ريح خفيفة ، دون أن ننشر غير الشراع الرئيسي • لقد كان هذا الجزء من الرحلة هو الجزء الوحيد الذي كنا فيه ننطلق في عرض البحر بالفعل ، دون أن نكون قريبين من أحد الشواطئ • وقد كنت مهتما بمعرفة الطريقة التي سيستخدمها نجدي لتحديد مساره في اتجاه ساحل الجزيرة العربية ، الذي لا يمكنه أن يخطئه ، على أية حال ، اذا رسم خط سيره واتبعه دون أن يحيد عنه قيد أنملة • وهذا هو ما فعله نجدي • فقد قام أولا بتقدير المسافة بيننا وبين رأس عسير ، وقد استعمل ابهاميه بدلا من المسطرتين المتوازيتين ، ونقل تلك المسافة الى الخريطة • وعندما نظر الى النقطة على الخريطة ، صرح بان المسافة تبلغ حوالي خمسة وثلاثين ميلا ، وعلم ذلك على الخريطة ، مستعملا ابهاميه أيضا • وبعد ذلك نظر جانبا الى البحر ، وصرح ، بعد فحص قصير ، بأن التيار في صالحنا ، (مع أنني لم استطع أن اعرف كيف قرر ذلك) ، وأن سرعتنا أربع عقد ، مع أنني كنت متأكدا أن في ذلك مبالغة كبيرة • ثم أضاف قائلا أننا سنتمكن من رؤية جزر

عبد الكوري أمامنا تماما في خلال ساعتين ونصف من الزمن . وقد حصل ذلك فعلا ، وان كنت شخصيا قد عزوت ذلك الى توفيق الباري عز وجل .

لم يغب البر عن انظارنا الا يوما واحدا ، لأن الساحل حول رأس عسير مرتفع ، كما أن جزر سوقطرة وعبد الكوري مرتفعة أيضا ، وكذلك الساحل الجنوبي للجزيرة العربية . وقد أصبحنا مقابل رأس شرما ، على ساحل حضرموت ، مساء اليوم التالي لمخادرتنا افريقيا ، ولم يغب البر عن انظارنا بعد ذلك الى أن وصلنا بغيتنا .

وقد صاحب وصولنا الى شواطئ الجزيرة العربية خسوف للقمر . وكنت أعلم أن هذه الظاهرة البسيطة ستحصل ، من المفكرة التي كنت أحملها في جيبى ، ولكنني لم أذكر شيئا عن ذلك لأحد ، على أساس أنه شيء عادي بالنسبة للعرب كما هو بالنسبة لنا . ولكن ما حصل كان شيئا مختلفا ، فقد خاف البحارة خوفا كبيرا من هذه الظاهرة ، وظلوا ، طوال مدة الخسوف ، يصلون ويدعون ويدقون الطبول الهندية بحالة من الفزع الخرافي . وقد حدث ذلك في ليلة تمام القمر في شهر مايو عام ١٩٣٩ . فبعد صلاة المغرب بقليل ، وكنا جميعا نجلس حول قاعدة الصاري الصغير نتجاذب أطراف الحديث ، بينما كان نجدي يتقلب على سجاده من ألم في إحدى أسنانه ، بدأنا نشعر بأن شيئا غير طبيعي يحدث . فبدلا من نور القمر الساطع في مثل هذه الليالي ، كان النور على سطح البحر شاحبا ، يميل لونه الى الخضرة . وسرعان ما خيم الصمت على البحارة ، وبدأوا واحدا بعد الآخر يحدقون في السماء ، يرقبون بدهشة وفزع كيف يطغي ظل الأرض على وجه القمر . وما كاد سلطان المؤذن يلحظ ذلك ، حتى هب واقفا ، واندفع الى المكان المرتفع الذي تعود أن يقف عليه وأخذ يؤذن بصوت عال جدا داعيا الجميع الى الصلاة في الحال . ولم يكن هناك صوت يرتفع غير ذلك الصوت ، فقد كان كل ما حولنا ساكنا ، كما كان صوت المحيط نفسه هادئا ايضا . وما كاد البحارة يسمعون النداء ، حتى هبوا مسرعين ، وتوضأوا على عجل ، وكونوا صفاف ورام حمد بن سالم على سطح المؤخرة . حتى نجدي ، رغم مرضه ، لم يتأخر عن الانضمام اليهم ، بعد أن قام من فوق سجاده ، وهو يئن من الألم ، وتوضأ بسرعة وشارك في الصف . ولا شك أن ماء البحر البارد ، الذي اغتسل به ، قد ولد له ألما مضاعفا ، عندما لامس وجهه المحتقن .

وعندما اكتمل الصف ، ووجهوا وجوههم نحو مكة ، بدأ حمد يصلي ، وقد استمر في ذلك طيلة المدة التي استمر فيها الخسوف . ولم يكن يبدو الخوف على حمد ، فقد كان إيمانه بالله لا يتزعزع ، ولم يقزع ذلك الظل على وجه القمر . الا أن الآخرين كانوا خائفين حقا . ومع أنى كنت أعلم



تماما ما يجري من الناحية العلمية ، وكنت ، طيلة النهار ، اتطلع لرؤية الخسوف ، الا أنها كانت تجربة غريبة بالنسبة لي أن لاحظ كيف كان الخوف ، الناتج عن الخرافات ، ينتقل من بحار الى آخر ، بحيث عمهم جميعا . بل أنني أخذت أكافح لكي أبعد ذلك الخوف عني ، رغم معرفتي التامة بأن ذلك الشعور كان سخيلا لا داعي له . وبعد أن أنهى بعض البحارة صلاتهم ، انطلقوا الى مقدمة المركب ، وحملوا الطبول الهندية وأخذوا يقرعونها . أما المدرسون السواحليون ، فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يبالون بما كان يجري ، لمعرفة التامة بالاسباب الطبيعية لخسوف القمر ، الا أنهم شاركوا في الصلاة بنفس حماس الآخرين ، ولكنني أعتقد أنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يجرؤوا على عدم الاشتراك في الصلاة ، وفي ذلك التعبير الحماسي عن الشعور الديني ، رغم أنهم كانوا يعرفون أن ذلك كله مبني على الاوهام المتعلقة بالخسوف . فقد لاحظت أنهم لم يكونوا يشاركون كثيرا في الصلاة ونحن نبحر بحذاء الساحل الافريقي . أما وقد أصبحنا الآن مقابل ساحل الجزيرة العربية ، فقد تذكر هؤلاء فجأة أنهم مسلمون ، بل أنهم كانوا يزدادون ايمانا وتحمسا للصلاة ، كلما كنا نقرب من مسقط .

لم يستمر الخسوف الا بضع دقائق ، الا أن وقتا طويلا مر على انتهائه ، قبل أن يعود البحارة الى هدوئهم . وقد شعروا بالارتياح الكبير ، عندما انزاح الظل كله عن وجه القمر ، وأدوا صلاة أخرى دليلا على الشكر والامتنان . وبعد ذلك تجمع فريق الحراسة حول قاعدة الشراع الصغير ، وأخذوا يتناقشون بأصوات خائفة في تلك الظاهرة التي شاهدوها . فقد كانوا يؤمنون بأن القمر نور النبي في السماء ، وأن الظل الذي غطى ذلك المصباح كان نوعا من التهديد والوعيد للنبي ، وتبعاً لذلك فهو تهديد لهم أيضا ، وهذا هو سبب قيامهم بتأدية تلك الصلاة . وعندما سألوني عن رأيي في الموضوع ، أخبرتهم بأن ما رأوه لم يكن سوى خسوف عادي للقمر ، وهي ظاهرة فلكية عادية جدا ، يمكن التنبؤ بها ، ويمكن لأي تلميذ في المدرسة أن يعملها . ولكن كلامي لم يترك فيهم أي أثر ، رغم أنهم أخذوا يسألون عن بعض التفاصيل . فلم يكن من السهل تعليل الخسوف لهؤلاء الرجال البسطاء ، الذين كانوا يؤمنون بوجود الجن ، وبكثير من الاسس الخرافية لبعض جوانب دينهم (١) . ولكنني حاولت جهدي معهم ، وتمسكت بالتفسير العلمي للظاهرة .

» حمد بن سالم

(١) هذا هو رأى المؤلف ، وهو حر في رأيه . ولكن الرد على كلامه سهل وواضح ، وإن كنا لا نرى داعيا لأن نفعل ذلك هنا . (المترجم)

وقد ضحكوا ما شاء لهم الضحك من جهلي ، وشاركهم نجدي في ذلك •
فقد كان كلامي شبيها بقصة (التريك) ، أي الكهرياء المغزونة في الغيوم
(التي يتولد منها البرق) • وقد ضحكوا وضحكوا لدرجة أنستهم خوفهم
الخرافي • وكرروا كلامهم قائلين ان أي طفل بدوي في الصحراء يعرف
تماما أن القمر مصباح النبي في السماء • أما الظلال التي كانت تغطي وجه
القمر ، فلم تكن سوى أحد أفراد الجن الهائلين وهو يهاجم مصباح النبي •
وكان ذلك نوعا من الاشارة أو الاختبار للبحارة لكي يلاحظوا ذلك الهجوم
ويستجيبوا له بالصلوات الحارة • فقد كانوا يصلّون لكي يطردوا الجن •
أما خط الظل المتحرك على وجه القمر ، فلم يكن سوى قم الجني وهو يتقدم
ثم يتقهقر - ولكن بعض البحارة قالوا ان ذلك كان ناتجا عن جفاف اللعاب
الذي كان الجني قد بصقه على المصباح اثناء هجومه عليه • وكان السواحليون
الثلاثة يشاركونني سخرיתי من مثل هذه المعتقدات الغريبة ، الا أنهم ساهموا
في الصلاة والدعاء بنفس الحماس والحرارة ، كما اشاركوا أيضا في القرع
على الطبول • على كل حال ، لقد كان الشعور بالخوف الذي اعتري الجميع
غريبا ومؤثرا ، وقد شعرت بالارتياح عندما انتهى الخسوف •

ولم يوافقوني قط على تعليلي العلمي للظاهرة ، وكانوا يسخرون
مني ويقولون اي انه لم يبق سوى أن أخبرهم في المرة القادمة أن القمر ،
كالبرق ، ليس الا « تريك » مخزونا في الغيوم •

ومرت الايام واحدا بعد الآخر بهدوء وبطم ، ونحن نبحر قبالة
الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، متجهين الى راس الحد وخليج
عمان • ولكن الألم ، الذي كان نجدي يشكو منه في احد أسنانه ، ازداد
حدة ، وكان يمكن أن يتحسن ، لو ترك نجدي أسنانه وشأنها ، ولكنه لم يكن
يكف عن وخزها واللعب بها كأنه ولد صغير ، وكأنه كان يأمل أن مزيدا من
العذاب يمكن أن يخلصه من الألم ، ويعيد اسنانه الى حالتها الطبيعية • وكان
سبب المشكلة أن أحد اطباء الاسنان (أو بياطرة الاسنان) اليابانيين كان
قد ركب في قم نجدي ، ونحن في زنجبار ، جسرا مؤلفا من ثلاثة أسنان
ذهبية • ولكن الذهب لم يكن ذهباً ، ولا كانت الاسنان اسنانا ، الا أن
الذهب كان يبدو ذهباً ، وكان سرور نجدي به لا يوصف ، أو هذا ما كان
عليه حال نجدي عندما غادرنا زنجبار • الا أن الصناعة السيئة للجسر
سرعان ما ولدت خراجاً تحته ، وأصبحت السن الذهبية تضغط بشكل مخيف
على الجزء الملتهب تحته ، فيزيد الألم أضعافا مضاعفة ، وأصبح نجدي
المسكين لا يستطيع النوم أو الاكل ، بحيث أصبحت حياته جحيما لا يطاق •
ولكنه سخر من العلاج البسيط الذي اقترحته ، بأن نحاول نزع الجسر

الذهبي من فمه بأية أداة تعثر عليها ، وتابع رحلة العذاب بأن واصل اللعب بقمه بالسّواك ، كما كان كثيرا ما يملأه بالسمن الحار ، ويدخن بلا انقطاع ، ولا يتوقف عن الشكوى والالنين . ولم يكن في الواقع يخاف من أية عملية تجرى على سنه . ولكنه لم يكن يحتمل أن يتنازل عن أسنانه الذهبية ، فقد كانت في نظره كنزا عظيما لا يمكن التخلي عنه . وفي أثناء ذلك ، ساءت حال فمه ، وتورم وجهه ، وتدهورت روحه المعنوية الى الحضيض . وفي أحد الايام ، قص على كيف أصابه ألم في إحدى أسنانه عندما كان ، وهو صبي ، على ظهر أحد مراكب الفوص العاملة في الخليج العربي ، وكيف تحمل الألم بضعة أيام ، قام بعدها أبوه بخلع سنه مستخدما في ذلك مسمارا وزرادية (كلابتين) . وقد تم ذلك بأن أمسك ستة رجال برأسه ، واستمرت العملية ساعتين كاملتين . وعندما أنهى قصته ، اقترح على أن أقوم بنفس العمل في الحال ، ولكنه كان يشير الى سن سليمة، وكنت متأكدا من أن خلعها لن يخفف الألم أبدا . وقد أخبرته بذلك ، وأصررت على أن الحل هو التخلص من الاسنان الذهبية . كما أنه لم يكن معي من الأدوات شيء اطلاقا . وقد اعترف نجدي بأنه اضطر ، بعد تلك التجربة مع والده في الخليج ، أن يظل في المستشفى مدة أسبوعين يعالج من التهاب في فكه . وقد أثبتت على شجاعته ، ولكنني حاولت اقناعه بأن التهابا في الفك أشد خطورة بمراحل من أى ألم في إحدى الاسنان ، ولذلك فإن علينا أن نتخلص من الاسنان الذهبية . ولكنه رفض ذلك رفضا قاطعا ، واستمر في الشكوى والالنين .

ولكنه ، بعد بضعة أيام أخرى من العذاب ، ضعف ، ولان ، ووافق على التخلص من الاسنان الذهبية ، الا أنه أصر على أن يفعل ذلك بنفسه . وهذا ما حدث بالفعل ، وقد استخدم لذلك أزميل النجار ، وقدوما صغيرا ، واستمرت العملية يومين كاملين ، يومين من العذاب المخيف الذي لا يمكن تصوره . ولكنه ، في النهاية ، استطاع انتزاع تلك الاسنان الذهبية اللعينة، مع أنه أعلن في الحال بأن ذلك العمل كان خطأ فاحشا ، وأنه لم يؤثر على حالة الألم التي كان يعاني منها . الا أن الواقع أن فمه بدأ يتحسن في الحال، ولم يمض يوم واحد حتى كان الألم قد خف الى درجة كبيرة .

وقد طلب نجدي من يوسف أن يخبئ الاسنان الذهبية بعناية في صندوق امتعته ، وأعلن أنه سيركبها ثانية بطريقة سليمة اما في البصرة أو في البحرين .

في ذلك الوقت كنا نبحر بحذاء جزر « كوريا موريا » ، التي كانت إحدى المعالم الرئيسية القديمة على طريق مراكب الرقيق القادمة من زنجبار . وهي

جزر لها طابعها الخاص من الجمال • وقد مررنا من بينها ، على مقربة من جبل صخري تأكلت بعض أجزائه ، فبانت طبقاته المختلفة ، وبدأ شكله العام في ضوء الشمس الساطعة فوق رؤوسنا كأنه تمثال مصنوع • وعند قدميه ، على مستوى سطح البحر ، كان يمتد نصف فدان من الرمل الاصفر ، الذي كان يصطلى بحرارة الشمس المحرقة • وعلى يسارنا ، كانت تمتد على البعد سواحل الجزيرة العربية الجنوبية ، وهي لا تبدو واضحة خلال النهار بسبب وهج الشمس ، ولكن معالمها تتحدد عند المغيب وعند الشروق • وحولنا كان الماء يعج بالحياة البحرية ، كما كانت إحدى البغلات الفارسية ترافقنا عن بعد وهي متجهة بحمولة خفيفة من الحديد في اليمن الى ميناء « كنجان » على الخليج العربي •

شفي نجدي من ألم أسنانه ، وظل في يقظة تامة غير عادية ونحن نعبر جون « كوريا موريا » ، وذلك لأن الريح ، بحسب قوله ، غير مأمونة أو مستقرة هناك ، كما أن بدو الشاطئ مستعدون للقيام بأخس الاعمال • وقد قص علي قصة يوم كويتى كان متجها من البصرة الى بربرة ، صادفته بعض الصعوبات في هذه المنطقة في السنة الماضية ، فهاجمه البدو وجردوه من كل ما عليه ، وسرقوا التمر الذي كان يحمله • وأضاف نجدي قائلا ان من السهل أن يصادف المركب بعض المصاعب هناك ، فيضطر الى التوقف ، وعندها يصبح تحت رحمة البدو الذين لا يعرفون الرحمة • فقد كانوا ينتمون الى قبيلة فقيرة ، لا تجد من القوت ما يكفى أفرادها ، لأن أراضيهم كانت قاحلة لا تنتج شيئا ، ولذلك ، عندما كانوا يعثرون على مركب متعطل محمل بالتمور ، كانوا يعتبرون ذلك هبة من الله • وقد استنتجت أن القرصنة ما زالت أحد المخاطر التي تواجه المراكب العربية في تلك المياه • وبالفعل قص علي نجدي ، الذي لم يكن في العادة يبالغ في رواية منامراته ، ما حدث له شخصيا في ذلك الجوار قبل بضع سنوات ، وكيف نجا بمعجزة ، عندما كان يقوم بأولى رحلاته البحرية الى افريقيا • فقد كان يقود مركبا صغيرا ، كان يملكه قبل مركبه الحالي ، في الطريق القديم الموصل من البصرة الى المكلا ، عن طريق مسقط ، وهو يحمل شحنة تتألف من (١٢٠٠) جلة من تمور العراق • وكان ذلك في أول الموسم ، عندما لم تكن الرياح الموسمية الشمالية الشرقية قد بدأت بالهبوب ، وكانت الطريقة الوحيدة للقيام برحلة الى الغرب ، في ذلك الوقت من السنة ، أن يظل المركب قريبا جدا من الشاطئ ، ويستغل كل حركة مؤاتية من حركات التيار المعاكس ، ويستفيد من كل هبة من النسيم تأتي من البر ، لأن الظروف في عرض البحر كانت كلها معاكسة ، بوجود رياح جنوبية غربية قوية الى حد ما تدفع المركب الى الخلف • وفي الوقت نفسه ، لم تكن الملاحة سهلة على مقربة من الشاطئ ، لأن ذلك الجزء من الساحل كان يعج بالمخاطر • وعلاوة على ذلك ، فقد كان البدو هناك غدارين ، غير

مسالمين • وكان من الضروري أن يقوم نجدى بارساء المركب عدة مرات في البحر بعيدا عن الشاطئ ، خوفا من مخاطر الرسو قريبا من البر خلال الليل • وكان على بحارة المركب الذى يقف على مراسيه هناك أن يقوموا بالحراسة اليقظة ليلا ، خوفا من تقطع حبال المراسى وانجراف المركب وتحطمه على الشاطئ ، بحيث تصبح حمولته من التمور مصدر اغراء شديد للبدو القاطنين هناك •

وتابع نجدى قصته قائلا انه توقف فى احدى الليالى ، وأرسي مركبه فى خليج صغير مقابل « راس شرتبات » ، لا يبعد كثيرا عن المكان الذى كان مركبنا يبحر قبالة فى هذا الوقت • ومع علمه بأن سمعة البدو القاطنين فى تلك البقعة من الارض كانت سيئة ، الا أن هذا لم يكن يقلقه كثيرا ، فقد تمكن قبل ذلك من مصادقة عشائر بدوية أسوأ من هؤلاء ، كما أنه كان يوزع التمر بسخاء على جميع مضارب البدو التى مر بها فى رحلته تلك • وكان يعرف أن أنباء كرمه الحاتمي تنتقل بسرعة كبيرة فى الجزيرة العربية ، ولذلك كان يمتدح بأن تلك الانباء السارة كانت تضمن له رسوا آمينا ، أو على الاقل تؤمن له عدم قطع حبال المرساة • وفى النهار السابق لتلك الليلة ، لم يشاهد نجدى أي مضارب للبدو ، ولذلك لم ينزل الى البر ، لأنه كان متعبا ، وكان ينوى استئناف السفر عند الفجر • وهكذا أرسى مركبه هناك دون أن يرفع عليه أية مصابيح ، كما لم يبق من البحارة أحد مستيقظا يقوم بالحراسة سوى بحار واحد ، أما الآخرون فقد تلفح كل منهم بعباءته وأخلد للنوم • ولا بد أن الحارس الوحيد قد نام أيضا ، عندما أوغل فى الليل ، دون أن يلحظ أمرا غير عادى • وفى وقت ما بعد منتصف الليل ، أوقظ نجدى بعنف ، ليجد نفسه أمام ما لا يقل عن ستة من البدو الملتحين الذين يبدو عليهم الجوع ، والذين لم يسمعوا ، على ما يظهر ، بسخائه فى توزيع التمر ، وهم يطالبون بحمولة المركب جيمعها • وكان هؤلاء البدو يحملون سيوفا وبنادق قديمة ، ويتمنطقون بالخناجر العمانية المعقوفة •

وعندها خاطب نجدى زعيم تلك العصابة من البدو قائلا : « أيها الشيخ ! ما سبب تشريفكم اياى وايقاظي فى منتصف الليل ؟ » • فأجاب البدوى القدر ، بعد أن أطلق ضحكة خبيثة : « السبب هو التمر • نعم التمر ، هذا هو ما نريده ، أيها النوخذة الشاب • التمر • نريد كل جلة من التمر على ظهر المركب » • فقال نجدى : « ولكنى كنت أوزع التمر على جميع مضارب البدو التى رأيتها على طول الشاطئ » • كان نجدى يقول هذا ، بينما كان معلم المركب يسخر من كلامه ، لانه لم يكن يوافقه على ذلك الكرم الذى لا داعى له • وتابع نجدى كلامه مخاطبا زعيم البدو قائلا : « اذا كنتم تريدون

التمر ، فهو لكم ، ولكن لا تفعلوا شيئا بمركبي الجميل » • وعندما سمع ذلك البدوي القذر كلام نجدى ، أجابه قائلا بكل خبث : « ولكننا لا نريد التمر فقط ، أيها النوخذة • بل نريد أيضا مفاتيح صندوق أمتعتك • هيا ، ناولنى اياها فى الحال • فانا نرحب أيضا بما يمكن أن نجده على مركبك من المال ، نحن معشر الفقراء • أما أنت فان بإمكانك أن تحصل على مزيد منه فى المستقبل » • وقد وجد نجدى أن الوضع سيء ومتأزم جدا ، فأخذ يستعطف البدو قائلا • « أستم جميعا مسلمين ؟ » ، لمعرفته بالكراهية الشديدة التى كان الرسول يكتننها للسرقة والسارقين • ولكن ذلك لم يؤثر فى البدو ، فهم ، اذا لم يسرقوا يموتون جوعا • هذه سنة الحياة بالنسبة لهم • فقد كانت السرقة والنهب مسموحا بها عندهم ، كما كانت حياتهم لا قيمة لها •

وقد تأزمت الامور فعلا ، وبلغت حد اليأس • ولم يخف على نجدى أن بحارته كانوا قد حوصروا وجمعوا كاسرى تحت سطح المؤخرة • كما كان بإمكانه أن يرى قمتى صاريين لسبوكين صغيرين يقفان بجوار مركبه • وقد قدر أن على ظهر مركبه ما لا يقل عن أربعين بدويا • وبدأ الامر ميثوسا منه • بل أن بعض البدو كانوا قد بدأوا فعلا بنقل جمل التمر الى السبوكين الصغيرين • وكان من الواضح أن البدو ، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ، لن يقنعوا بأقل من كل ما تقع عليه أبصارهم • كما أن من المحتمل أنهم ، عندما يفرغون من الحمولة ، سيحرقون المركب ويأخذون بحارته معهم ليبيعوهم عبيدا فى داخل البلاد • ولذلك فقد أخذ عقل نجدى يعمل بسرعة ، وكله شعور باليأس ، لعله يجد طريقة للخلاص من ذلك المأزق • وفجأة ، خطرت له خاطرة • ألم يكونوا يريدون صندوق أمتعتهم ؟

بدأ نجدى يتحادث مع زعيم البدو ، محاولا تسليته بعض الشيء ، والهامه عما اعتزم القيام به • فأخذ يتظاهر باعتبار الامر كله نكتة كبيرة ، وأنه لا يعدو أن يكون تعبيراً عن ارادة الله ورحمته للبدو الفقراء المساكين • ولذلك فقد صرح لهم بأنه سيفتح صندوقه ، وكان يعرف أن الصندوق لم يكن يحتوى على أى نقود ، وأنه لا ضرر من أن يتفرج البدو على ما فيه ، بل وأن يأخذوا ما يشاؤون من الملابس التى كانت فيه • الا أن نجدى كان يعرف أن فى الصندوق شيئا آخر ، شيئا كان يأمل أن تصل يده اليه قبل أن تصل اليه أيدي البدو • ولذلك فقد تابع نجدى مزاحه مع البدو ، حتى أن بحارته الذين كان بإمكانهم سماع ما يقول ، كانوا ينظرون اليه فى ذهول لا يكادون يصدقون ما تسمعه آذانهم •

كان لا بد أن تكون يدا نجدى حرتي الحركة وهو يفتح الصندوق ، ونظرا الى أنه كان ينظر الى الامر كله بغير مبالاة ، فان البدو لم يتخذوا

آية احتياطات خاصة لاتقاء شره • وكما كان الحال على المراكب الشراعية الكبيرة ، كانت مفاتيح الصندوق مثبتة في حلقة معلقة على خصر نجدي • ولكي يتمكن من فتح الصندوق ، كان عليه أن ينحني فوقه ، ويوصل نهاية الحلقة بالقفل • وهكذا فعل ، وهو لا يزال يلاطف زعيم البدو ويوصيه بأن يحتفظ بأفضل التمر لنفسه • فانحنى على الصندوق ، وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بهذه العملية ، وقرب المفتاح ببطء من القفل ، وبدأ يحاول فتحه • ولم يتمالك البدو انفسهم ، فاقتربوا منه ، وتزاحموا حوله ، وكلهم شوق لمشاهدة ذلك الكنز الذي يحتوى عليه الصندوق • وبدأ نجدي بإدارة المفتاح في القفل ببطء شديد ، والبدو يتحلقون حوله ، بل إن بعضهم بلغ بهم الحماس مبلغا شديدا حتى أنهم ألقوا ببنادقهم جانبا •

وقبالة رفع نجدي غطاء الصندوق ، ومد يده الى الداخل ، وهو يصيح بهم بصوت كأنه زئير الاسد : « والآن أيها البدو الانذال ! أغربوا عن وجهي ، واذهبوا الى جهنم وبئس المصير • أيها البحارة ، اقذفوا بهؤلاء الخنازير في البحر » •

ولم يصدق نجدي نفسه عينيه ، كما لم يصدق بحارته عيونهم وهم يرقبون النتيجة ، بعد أن كانوا غير قادرين على فهم تصرفاته حتى الآن • فقد وأت جموع البدو الأدبار ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم في البحر ، دون أن ينتظروا ليفكوا الحبال التي كانت مراكبهم مربوطة بها ، بل أنهم كانوا يلقون ببنادقهم وهم يهربون • ولم يقصّر البحارة ، بل أخذوا يصيحون ويحدثون ضجة هائلة ، تجاوبت أصداؤها على طول الخليج وعرضه ، وهم يطردون البدو من فوق ظهر المركب ، ويتابعونهم بالصراخ ، وهم يخوضون الماء ، أو يسبحون فيه باتجاه الشاطئ •

وعندما جمع نجدي البنادق ، وجد أنها غير محشوة • بل وجد أنها كانت قديمة لدرجة أنها يصعب أن تطلق منها طلقة واحدة • ثم أخذ ينظر الى مسدسه بكل تأمل وهو يشكر الله كثيرا ، فقد كان المسدس فارغا أيضا •

أما وقد تذكر نجدي هذه الاحداث ، فقد ابتعد بمركبنا كثيرا عن ذلك المكان ، وهو يقول : « لا بد أن البدو يتذكرون تلك الليلة أيضا ، وأنهم قد عقدوا العزم على ألا يفشلوا مرة ثانية » • لقد كان الحظ حليفه في تلك الليلة ، ولكن الحظ لم يحالف كثيرين غيره من التواخذه الكريتيين ، الذين لا تزال عظام بعضهم ، وبقايا مراكبهم المحطمة ، منثورة هناك على ذلك الشاطئ القاسي البغيض •

كنا نتابع ابحارنا خلال الليل في بحر كان مياهه مضاعة بالفسفور ، وكان قمم الامواج السوداء المتكسرة منارة بأنوار خضراء قوية جدا تنبعث من أسفلها . وعند ظهور القمر ، كانت بعض السحب السوداء تتراكم بسرعة في السماء من ناحية الغرب ، مع شيء من البرق ، وهدير الرعد البعيد . وفي هذه الاثناء ، كان نجدى ، وهو لا يزال يشمر بالضعف المتسبب عن ألم الاسنان الذي أصابه ، ينزل الاشرعة ، ويترك المركب ينجرى بهدوء ، خوفا من أي تغير مفاجيء في اتجاه الريح أو قوتها . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولذلك كنا بعد منتصف الليل نرفع الشراع ، ونبحر ثانية ، بعد أن صفا الجو وظهرت النجوم .

أخذنا نقرب تدريجيا من رأس الحد ، وهو نقطة التحول على ساحل الجزيرة العربية . وعندئذ خلع المدرسون السواحليون سراويلهم ، التي كانوا يرتدونها حتى الآن ، وارتدوا الجلابيب العربية الفضفاضة . لقد كانوا ثلاثيا غريبا . فلم يكونوا يختلطون كثيرا بالآخرين ، بل كانوا يلتصقون بعضهم ببعض الآخر . ويعيشون على القسم الايسر من سدة النوخدة ، فيضيئون الخناق على حمد بن سالم ، الذي كان يعيش هناك أيضا . كما كانوا يقضون النهار بطوله وهم يتحدثون بلغتهم السواحلية اللطيفة ، وكأنهم منهمكون في تدبير مؤامرة خطيرة . وعندما استفهمت من نجدى ، الذي كان يعرف تلك اللغة ، عن المواضع التي كانوا يتحدثون فيها ، افاد بأنهم كانوا يبحثون الاوضاع السياسية في زنجبار . وكثيرا ما كان نجدى يوبخهم على ارتداء السراويل ، التي لم يكن يعتقد أنها مناسبة لهم ، وعلى عدم مواظبتهم على تأدية صلواتهم اليومية ، وعلى كونهم مثلا سيئا للآخرين . الا أنهم لم يكونوا يبالون بما يقول ، بل كانوا يواصلون حديثهم المعتاد بلغتهم السواحلية .

عندما رأيت هؤلاء الثلاثة أول الامر حسبتهم ثلاثة زنوج ، فقد كانت هيئتهم أقرب الى الزنوج من هيئة أي من بحارتنا . الا أنني علمت منهم فيما بعد أنهم شقيقان بلوشيان ، وعربي واحد يتصل بأمير زنجبار بشيء من القرابة . وكانوا يتكلمون اللغة الانجليزية بطلاقة ، كما كانوا قد تدربوا على أعمال الكشافة ، ويشعرون بالاعتزاز بتلك الخبرة ، وهام الآن منطلقون للتعرف على العالم الخارجي . أما الاخوان البلوشيان ، فانهما ينحدران من أب بلوشي يعمل في تجارة العاج وأم من الكونغو ، وقد ولدا في مكان ما في داخل افريقيا . أما العربي ، فقد كان ربع زنجي ، مولودا في زنجبار . لقد كانوا ثلاثة شباب يتمتعون بصحة جيدة ، وتتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين . أما سبب مغادرتهم المفاجئة لزنجبار،

فلم أتمكن من معرفته تماما ، الا أنهم غادروها دون أن تكون معهم جوازات السفر الرسمية • وبحسب روايتهم ، فقد كانوا ثائرين على حكم أهلهم ، وعلى التربية التقليدية للشباب المسلم ، وذلك بحكم الثقافة التي يتحلون بها ، والتي جعلتهم لا يرضون بالافكار القديمة ، ولا يقنعون بحياة زنجبار المحدودة جدا • ولا بد أنهم سمعوا الكثير عن العالم الخارجي من الهنود الكثيري العدد هناك ، ولذلك فقد رغبوا في الخروج من بلادهم للتعرف على ذلك العالم الواسع ، وكانت الخطوة الاولى أن ساعدهم السيد سليمان على عبور البحر الى مسقط على مركب نجدي • وكان هذا قد خبا حماسه الاول نحوهم ، الا أنه كان يتركهم وشأنهم ، فيما عدا نقده اليومي للابسهم الاوروبية ، ولتخلفهم عن تأدية الصلوات الخمس • ولم يكن نجدي يتقاضى أجرا على سفرهم في مركبه ، وكان يبدو كأنه نادم على تهوره ، وتعده للسيد سليمان بأن يوصلهم الى مسقط بسلام •

وقد تحدثت معهم باللغة الانجليزية ، وكنت أشعر بشيء من الراحة بعد جهادي الدائم للتحدث باللغة العربية ، وفهمت منهم أنهم كانوا يحبون الحياة في زنجبار ، الا أنها كانت حياة محدودة جدا بالنسبة لشباب يرغبون في التفرج على العالم وهم صغار السن • لقد كان يسعدهم جدا أن يتمكنوا من الانخراط في سلك البحرية البريطانية في زنجبار ، الا انه لم يكن هناك مجال لذلك • ولذلك فانهم ذاهبون الى الخليج ، على أمل أن يجدوا سفينة تجارية في مكان ما هناك ، تقبل أن يعملوا على ظهرها • وربما تمكن بعض أقاربهم ، الموجودين في مسقط ، من مساعدتهم على تحقيق بغيتهم • وقد فهمت أيضا أن آباءهم لم يكونوا يوافقونهم على ما يريدون • وبدأ من الواضح أن ذويهم كانوا يريدون منهم أن يتزوجوا ويستقروا في زنجبار ، الا أن هذا لم يلق هوى في نفوس هؤلاء الشباب ، الذين أحببتهم وتمنيت لهم التوفيق والنجاح ، فقد كانوا مجموعة طيبة محبوبة •

أخذنا ندور حول رأس الحد ، بعد أن مضى علينا ثلاثة أسابيع منذ مغادرتنا زنجبار ، وكنا برفقة خمسة مراكب من نوع السمبوك متجهة الى ميناء صور ، فلم تكن المراكب الصورية تتعدى ذلك الميناء في طريق عودتها الى أرض الوطن • أما اذا بقيت بعض الحمولة على ظهورها ، فقد كان بحارتها يفرغونها على الشاطئ ، وينتظرون الى أن يحين الوقت المناسب للسفر شمالا في الخليج العربي ، للتزود بشحنة من تمور البصرة • وكانوا دائما ، وهم في طريق عودتهم الى الوطن ، ومعهم شحنات من الأعمدة الخشبية من الروفيجي أو لامو ، يحاولون بيعها على طول الشاطئ ، اما في حضرموت ، ان استطاعوا الى ذلك سبيلا ، أو في بلدتهم صور نفسها • أما اذا لم يتمكنوا من بيعها ، فقد كانوا يفرغونها ويخزنونها ، وبعد استراحة

الصيف ، يعيدون تحميلها ، ويشحنونها الى البلدان الواقعة على خليج عمان ،
أو الخليج العربى ، كالبحرين وقطر والكويت والبصرة والموانئ الأخرى
الواقعة على الساحل الفارسى من الخليج . وهذا ، على ما أعتقد ، هو سبب
عدم مرورنا بحضرموت فى طريق العودة ، فقد كنا نترك ذلك السوق
للعمانيين من صور ، لعلنا أننا نستطيع أن ننافسهم ونسبقهم الى أسواق
أفضل فى الموانئ المأهولة على الخليج العربى .

لم نر من ميناء صور سوى الجبال المحيطة به ، وقد حزنت لعدم
استطاعتى زيارة ذلك المكان الجميل ، الذى خرجت منه تلك الشخصيات
المتنوعة من أمثال ماجد وسعيد المهرب ، وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض
أبدا ، ومبارك ، مرشدنا فى دلتا الروفيجى . الا أنه لم يكن بإمكاننا أن نبيع
شيئا هناك ، ولذلك واصلنا سيرنا دون توقف ، مع أن نجدى أخبرنا بأنه
ربما نزل الى المدينة ، اذا كان البحر هادئا . فقد خطر له أن يحاول
استرجاع بعض الديون القديمة ، التى كانت له على بعض سكان البلدة .
ولكن حمدا نصحه بأن ينفذ النظر عن ذلك كلية ، فلم تكن ، فى رأيه ،
فائدة ترجى من محاولة جمع أية ديون من هناك ، ولذلك فان النزول الى
البلدة أن ينتج عنه الا تأخير سفرنا . وهكذا واصلنا سيرنا بمساعدة ريح
جنوبية لطيفة ، وبدأنا بالابحار صعدا فى خليج عمان ، بينما كان أصحابنا
الثلاثة ، السواحليون أو البلوشيون أو العرب ، أو كائنا ما كانوا ، يغيرون
ملابسهم الاوروبية ويرتدون الجلابيب العربية ، ويزيدون اهتمامهم بتأدية
الصلوات فى مواقيتها ، والبحارة يتجمعون فى الامسيات اللطيفة ويزداد
حديثهم عن الكويت . ولم أعد أسمع الا اسم الكويت ، الكويت ، الكويت .
فقد كانت الكويت بالنسبة لهم جنة الله فى الارض . ولم تكن سنتوقف فى
مسقط الا لحمل البريد ، ولا بد أن يتسلم نجدى هناك رسالة من أبيه ،
ينصحه فيها بأفضل الأماكن التى يمكن أن يبيع فيها بضاعته ، ويحصل على
أفضل الاسعار . وبعد أخذنا البريد ، سنتجه الى الكويت مباشرة ، فقد كان
الجميع يفترضون أنها ستكون أفضل مكان لبيع شحنتنا من الخشب .

وبعد أن تخطينا ميناء صور ، سكنت الريح تماما فى خليج عمان ،
وتوقف المركب هناك منتصبا فى المياه الزرقاء ، وكأنه قد اغتبط برؤية
صورته الجميلة فى الماء ، حتى أنه عزف عن مغادرة المكان . وكنا نرى ،
على البعد ، من الناحية اليسرى ، جبال عمان الشاهقة الجرداء التى حرققتها
أشعة الشمس . كما كنا نرى أمامنا بيوت مسقط البيضاء ، وهى تبدو على
البعد كأن كلا منها مبنى على صخرة عالية . وقد استغللنا فرصة الهدوء ،
فأرسلنا البحارة الى الماء ، وهم نصف عراة ، لكى ينظفوا قاع المركب مما

علق به من الاعشاب . ومع أنى كنت أعلم أن معظم يحارتنا يعملون فى الغوص على اللؤلؤ ، الا أنى كنت مندهشا من طول المدة التى كان يمكنهم أن يقضوها تحت الماء . فقد كانوا يسبحون ببطء تحت متن المركب من جانب الى جانب وهم ينظفون القاع ، دون أن يبالوا كثيرا بسمكتى قرش كانتا تسبحان بهدوء عند المؤخرة . وعلى سدة النوخذة ، كان نجدى يسلى نفسه بالغناء فى شمس الصباح الجميل ، بعد أن تخلص من ألم أسنانه ، وشعر بكثير من الراحة والسعادة . أما محمد ، عريف البحارة ، فقد كان يسخن الطبول والدفوف على موقد جاسم ، بينما كانت الهريرات المولودة حديثا تصعد الى السطح للمرة الاولى ، وتقفز وتتدحرج وتلعب بسعادة وحبور .

وبعد انقضاء ثلاثة وعشرين يوما على مغادرتنا زنجبار دخلنا بمركبنا الى خليج «مطرح» ونحن نهزج وندق الطبول ، ونرفع العلم الكويتى على مقدمة المركب ومؤخرته ، ونعلق نموذجا لطائرة جديدة على قمة سار فى المقدمة . لقد كان وصولا مؤثرا ، وألقينا مراسينا بين عدد من المراكب الكويتية القادمة من زنجبار والهند ، والتي رفعت أعلامها ترحيبا بقدمنا . كما كانت أعداد أخرى من المراكب الفارسية والعمانية والهندية تملأ الاجزاء الداخلية من الجون الصغير . وكان هناك مركب عبد الوهاب خليفة ، الذى كان قد أبحر بمركبه من دلتا الروفيجى قبلنا بأسبوعين ، ولكننا لم نسمع شيئا عن المركب « بدرى » ، كما أنا لم نتوقع وصول عبد الله القطامى قبل مرور بضعة أيام أخرى . لقد كانت سفرتنا فى هذه المنطقة موفقة جدا ، وكان نجدى سعيدا جدا ، رغم الاخبار التى وصلتنا من سائر النواخذة ، والتى كانت تشير الى عدم توفر الفرصة المناسبة لبيع شحنتنا من الخشب ، سواء هنا أو فى مسقط . فقد وصلت الى نجدى رسالة من والده ، ينبئ به فيها أن كل شيء هادئ فى الكويت مرة ثانية ، وأن زوجته قد رزقت بصبى جميل .

الفصل الخامس عشر

في ميناء مطر

فى ميناء مطرح

عندما كنا ندخل خليج مطرح، ونحن عائدون من زنجبار، رحت أتساءل مرة ثانية عن مقدرة نجدى الملاحية . فعندما سمعت لأول مرة بأننا سنلازم الشاطئ فى رحلة العودة الى الوطن ، بعد أن كنا قد فعلنا ذلك طوال رحلة الذهاب الى أفريقيا ، كنت ميالا الى الشعور بشئ من الازدراء للملاحة العربية . ولكنى أيقنت الآن بأنى كنت على خطأ ، وأن نجدى ، كما قال ، قد قاد مركبه فى الطريق الصحيح . كما أنه لم يزعم فى يوم من الايام أنه كان ملاحا ، بل كان دائما يقول أنه يعرف طريقه معرفة تامة . ويجب علي أن أعترف بأن كلامه صحيح تماما ، وأنه قام برحلة ممتازة . فلو كان علي أنا أن أقوم برحلة العودة ، لسلكت الطريق المباشر فى عرض البحر ، ولكنى تأكدت الآن ، بعد أن أتم المركب « فتح الخير » الرحلة بسلام ، أن الطريق الذى كنت سأسلكه لم يكن الطريق الصحيح . لقد كانت الرحلة مصحوبة بشئ من الريح ، فيما عدا بعض الاوقات القصيرة التى كانت الريح تهدأ فيها تماما ، وتولد لنا شيئا من الازعاج ، وكان من الممكن استغلال تلك الريح بشكل دائم ، بحيث تساعدنا فى سيرنا . لقد قام نجدى بانجاز رائع حقا ، وكنت دائما أحسده قليلا على تلك الكمية الهائلة من المعلومات البحرية التى كان يخبئها فى رأسه ، ولكنى أصبحت الآن أكن له اعجابا وتقديرا عظيمين . فربما كان صحيحا أنه لم يكن بحاجة الى أية معلومات لا يعرفها ، ولكنه كان صحيحا أيضا أن معلوماته كانت وليدة جهده وخبرته الشخصية ، وأنها كانت كافية له تماما ، وأنه لم يكن بحاجة الى الرجوع الى الكتب للحصول على المزيد . فطالما كان بإمكانه ، بحسب قوله، أن يقوم برحلة طويلة من هذا النوع بسهولة كبيرة ، فلماذا يكثرث بعلوم الملاحة ؟ ومع ذلك ، فانى لعلنى يقين أنه كان يرغب فى اتقان ذلك العلم ، لو أتاحت له الفرصة . فقد كان صديقنا العجوز ، عبد الوهاب خليفة ، يلاحقنى باستمرار لكى أطلعه على أسرار آلة قياس الابعاد ، وآلة قياس الزمن (الميقت) ، والجداول الملاحية ، كما أنه كثيرا ما كان يبدى أسفه لعدم وجود مدرسة للملاحة البحرية فى الكويت . فقد كان يرى أن من واجب العرب أن يحافظوا على هذا العلم القديم ، حتى لو لم تكن له فائدة عند القيام بالرحلات العادية الى افريقيا ، وأن عليهم أن يحافظوا لا على فن الملاحة فقط ، بل وعلى فن قيادة السفن أيضا ، لأن يوم عزهم ومجدهم آت لا محالة فى وقت قريب .

لقد أعجبت كل الاعجاب بأواصر الصداقة التي كانت تربط بين النواخذة • فكلما كنا نرسو في أحد الموانئ ، سواء كان ذلك في ميناء مطرح أو في غيرها من الموانئ التي قمنا بزيارتها ، كانت جماعات منهم تتقاطر على مركبنا في الحال ، وتتجمع على سدة النواخذة في مؤخرة المركب • وهناك كانوا يجلسون طوال الليل يتحدثون ويتسامرون ، بينما النراجيل تدور عليهم من واحد الى آخر • ولم يكونوا يتوقفون عن الحديث الا عند الصلاة ، أو عند تناولهم طعام العشاء • وعندما يحل موعد صلاة العشاء ، كانوا يشاركون بحارتنا في الصلاة ، فيقف النواخذة مع نجدي في وسط الصف وراء الامام حمد ، بينما يكمل بحارتنا وبحارتهم الصف على الجانبين ، من أول المركب الى آخره ، ويولون وجوههم شطر مكة ، ويبداون بترتيل صلواتهم ، في الوقت الذي تختفي فيه آخر أنوار النهار • وفي مثل هذا الوقت كان غناء الايرانيين ، وهم ينقلون الخشب من بغلاتهم ، يتوقف تماما ويخيم الهدوء والسكينة على المرسى بأكمله • وفي الليل ، كان ضيوفنا ينامون معنا على ظهر المركب ، وفيما بعد ، تقام الولائم التي كان اسماعيل يحييها بعزفه على القيثارة ، رغم انه لم يشف تماما من الحمى التي كان قد أصيب بها في دلتا الروفيجي • لقد كانت تلك الصداقة ، التي تربط بين نواخذة الميناء الواحد ، صداقة حقيقية ، وكانوا يؤلفون عصبة واحدة مترابطة • وكانوا مستعدين دائما لمساعدة بعضهم بعضا تحت أية ظروف ، وللقيام بأعمال انقاذ خطيرة لا يتقاضون عنها أجرا ، ولأن يعير بعضهم بعضا واحدا أو أكثر من البحارة ، أو أحد الطباخين ، أو مجموعة من السجاد ، أو أى شيء آخر يكون لازما • وفي الحالات الطارئة ، كان أحدهم مستعدا لحمل بحارة مركب آخر آلاف الاميال • كما كانوا يأخذون على مراكبهم ضباطا من مراكب أخرى ، يبعث بهم نواخذتهم لمحاولة تحصيل الديون المتأخرة • ولم يكونوا يتقاضون أجرا عن أى من الاعمال المذكورة • ولم يكن أى نواخذة عربى يطمع فى الاستيلاء على أحد من أطلق بحارة مركب آخر • لقد كانت صداقتهم أخوة حقيقية في البحر ، وكنت لذلك أكن لهم كل حب واحترام • ولم تكن الحوادث البحرية غير معروفة لديهم ، فقد كانوا يبحرون فى مياه خطيرة ، ولكنهم قلما كانوا يفقدون أحدا من بحارتهم • ففى بعض الاحيان ، كانت بعض مراكبهم تتفسخ وتغرق ، كما كان يحدث أن يفرق أحد تلك المراكب تحت وطأة المطر الغزير ، اذا كان محملا أكثر مما يطيق ، وهو فى طريق العودة من افريقيا أو من ساحل ملابار ، ومع ذلك فقلما كان أحد من بحارتهم يفقد فى مثل هذه الحوادث • لقد كان هؤلاء النواخذة الكويتيون مجموعة طيبة ، وتمكنت ، خلال الاشهر الطويلة التي قضيتها على بوم نجدى ، أن أعرفهم معرفة جيدة ، ولذلك فقد كان جميع ضيوفنا فى مطرح من الاصدقاء القدماء •

وقد علمنا من هؤلاء ان الامور لم تكن حسنة في مسقط أو في خليج مطرح ، وان التجار ، رغم حاجتهم للاخشاب التي كنا نحملها ، لم تكن لديهم الروبيات اللازمة لتسديد ثمنها . وتحت هذه الظروف ، لم يكن هناك داع لاطالة بقائنا في هذا المكان . ولذلك فقد انزلنا المدرسين السواحليين الثلاثة ، وبعنا شيئاً من جوز الهند الذي كنا نحملة ، وتزودنا بالماء العذب من بئر المسجد ، وبعنا حوالى نصف الشعيرية الى مركب من دبي نقلت اليه خلال الليل ، واشترينا كمية من حلويات مسقط الذائعة الصيت ، ثم غادرنا المكان . ولم نمكث في خليج مطرح الا ثلاثة ايام ، وهي اقصر مدة نقضها في أى ميناء حتى الآن . ولعل نجدى أصبح فى شوق شديد لرؤية ابنه الجديد .

لقد تفرجت ما طاب لي أن اتفرج في مطرح ومسقط خلال اقامتنا القصيرة ، ولم أجد في أي من المكانين ما يلفت الانتباه . فقد كان ميناء مطرح أقدر مكان زرناء خلال رحلتنا الطويلة كلها ، وكانت الرائحة الكريهة، المنبعثة من الشاطئ ، قابضة للنفس . وبلدة مطرح هذه تقع على جون صغير ، يبعد حوالى ميل أو ميلين الى الشمال من مسقط ، بين جبليين ، يقوم على كل منهما حصن يرتفالي عفى عليه الزمن ، فلم يبق منه الا الخرائب . وعلى امتداد الشاطئ في البلدة ، تقوم بيوت التجار والوسطاء ، الذين ينتمون الى الطبقة العليا من ذلك المجتمع الصغير . بينما تنتصب مئذنة هنا ومئذنة هناك . وعلى أحد طرفي الشاطئ ، توجد ساحة للخردة من المراكب ، رأيت فيها مركبين صغيرين باليين مغمورين حتى نصفيهما في المياه ، وعلى الطرف الآخر توجد نقطة الجمرك ، ومكان النزول الى الشاطئ الرملى نفسه ، فهو يستعمل ممرا ، ومنتزها ، ومرمى للنفايات والخردة ، وسوقا ، ومكانا لبيع السمك ، ومراقبة الى البر ، ومأوى للكلاب ، ومرحاضا عموميا لجميع سكان عمان ونصف سكان بلوخرستان . وهو دائما مملوء بالكلاب المصابة بالجرب ، التي تبدو نصف ميتة ، وبالبلوشيين ، وبالسماك ، والماعز ، وجميع أقدار البشر ونفاياتهم ، حتى أن المرء يتردد كثيرا قبل النزول اليه والتمشي عبره . كما أن البدو العمانيين المسلحين يختالون عليه حفاة ، على الرغم من كل تلك القاذورات المتعقنة المكدسة على طوله ، وهم يرتدون القمصان الداكنة ، ويتمنطقون بالأحزمة المحشوة بخراطيش الرصاص ، بينما يتدلى من وسط كل منهم الخنجر المعقوف ذو المقبض الفضي . وكثير من هؤلاء يحملون بنادق ضخمة مخيفة ، مطعمة بالزخارف الفضية ، أو بالحلقات المعدنية المصنوعة من النحاس أو الفضة . ولم تكن جميع تلك البنادق قديمة جدا ، بل أن بعضها يبدو صالحا للاستعمال .

لقد كانت مسقط ، كما كان خليج مطرح فيما مضى ، مركزين هامين لتجارة الاسلحة الى منطقة الشرق الاوسط ، وكثيرا ما حملت شحنات من هنا عبر الخليج العربي الى أفغانستان ، أو شمالا الى الأحساء ، وبلاد فارس ، والعراق والكويت . بل ربما كان هناك شيء من التهريب الى ايران . ولكن تجارة السلاح منظمة ومراقبة الآن ، ولم يعد هناك مجال لكسب الثروات من وراء هذا العمل ، على الاقل في عمان . وانتقلت عمليات التهريب الى ايران ، والى موانئ دبي والشارقة . وبتوقف تجارة السلاح ، تضاعفت أهمية مسقط ، فأصبحت الآن من الموانئ غير الهامة على ساحل الجزيرة العربية ، ولا يستعملها العرب الا لتوصيل بعض الطلبات من البضائع . كما أن حياة البشر لا تزال رخيصة فيها ، فحتى في هذا الوقت ، لا يليق بالرجل المحترم أن يخرج من منزله دون أن يكون حاملا سلاحه . وفي السوق يوجد عدد من حوانيت بيع السلاح ، يستطيع المرء أن يشتري منها بنادق البدو أو سيوف الحضر ، ونادرا ما ترى عمانيا مرتديا كامل ملابسه ، دون أن يكون متمنطقا بالخنجر المعروف ، سواء أثناء سيره في الشارع ، أو حتى على شاطئ مطرح .

وعلى طول الشاطئ ، كنت تستطيع أن ترى أكوام السمك بأنواعه المختلفة ، من سمك القرش ذي الرأس الشبيه بالمطرقة ، الى سمك الشفتين العملاق ، فقد كانت مياه الخليج المحاذية لعمان تزخر بالسمك ، الذي كان كثير منه يشحن الى أوروبا ليستعمل سمادا . ومن آن لآخر ، كنت ترى سيارة عتيقة ، تهتز اهتزازا شديدا ، وهي تحاول السير في شارع مسقط الكثير الحفر ، وتعبير الشاطئ وهي تشق طريقها بين الاطفال والكلاب . وخلف الصف المواجه للشاطئ من البيوت الانيقة ، كان السوق يمتد بطرقاته الملتوية المتعرجة الضيقة ، تحميها من حرارة الشمس سقوف من جريد النخل والحصير ، وتقوم على جانبيها الحوانيت الصغيرة ، تعرض بضائع اليابان الرخيصة . ومع كل ما سبق ذكره ، فقد وجدت أن مطرح مكان جميل ، وان رائحة البلدة أقل سوءا مما يمكن أن تكون في أمثالها من البلدان الاخرى .

وكان النواخذة الكويتيون يجلسون ، في العادة ، في أحد مقاهيهم المفضلة ، قرب سوق السمك ، على الشاطئ ، حيث كانوا ينزلون بقواربهم الطويلة . وهناك كنت أجلس معهم ، عندما أكون على الشاطئ ، وتدور علي من آن لآخر ، وعلى فترات طويلة متعاقبة ، أكواب القهوة المعطرة بالقرنفل أو الهال ، أو الكؤوس الصغيرة من الشاي الشديد الحلاوة . ومن ذلك المقهى ، كان باستطاعة المرء أن يرى الشاطئ بأكمله ، ويراقب كل ما

يجري في الميناء ، ولذلك كان المكان مناسباً لنواخذة المراكب . وكان الشاطئ مملوفاً ، بدون انقطاع ، بأجناس وأشكال من البشر شتى ، من آلاف البلوشيين إلى العمانيين ، والعرب ، والفرس ، والهنود ، والكوييتيين القادمين على مراكبهم ، والبدو المدججين بالسلاح . كما كان بإمكان المرء أن يشاهد النساء ، بسرّاويلهن الطويلة ، وأقنعتهن الفضيلة ، وهن يزعن ، مناديات أطفالهن التمساء ، لكي يكفوا عن ضرب الكلاب بالحجارة ، وأن يشاهد الأطفال وقد طليت وجوههم بالكحل والألوان المختلفة حتى أصبحوا يبدوون كالمهرجين بطرابيشهم ذات الشراريب ، ومعاطفهم الحمراء ، وإن يرى البلوشيين بسرّاويلهم الضخمة التي يكفي قماش كل رجل منها لصنع خيمة صغيرة ، والفتيات الصغيرات بسرّاويلهن ، والأولاد العراة وهم يشاكسون الكلاب الضالة ويقذفونها بالحجارة . ومن علّ ، كان الحصنان العاليان ينظران إلى كل ذلك شزراً ، وهما يقفان على التلال التي حرقتهما الشمس وسودتها ، كما كان الطريق إلى مسقط يدور حول الصخور ، ثم يتجه إلى الجنوب .

وهناك في مقهى النواخذة ، كنت تسمع نجدي وهو يصيح منادياً أحد النُدُل لكي يبدل نار نرجيلته ، بينما ترى عبد الوهاب بن خليفة الغانم يرشف كوباً من القهوة المعطرة بالهال ، وهو يراقب الأعمدة الخشبية وهي تنزل من قاربه الطويل إلى الشاطئ . وفي هذا الوقت يصل مركبان هنديان ، يبدو أنهما قادمان من بومباي ، إلى المرسى ، وهما يرفعان الأعلام الحمرية الكبيرة ذات الخطوط الأفقية الحمراء والبيضاء . بينما يتجه حمد بن سالم إلى الصرافين ، لكي يبدل ما يحمله من العملة الفضية النمساوية بالروبيات الهندية . وكانت هذه العملات النمساوية تحمل تاريخ ١٧٨٦ ، ولكنها مضروبة في دار سك النقود البريطانية في العام السابق ، وهي العملات التي كان حمد قد أتى بها من زنجبار . ولا زال البدو العمانيون يفضلون هذه القطع النقدية المستديرة التي تحمل ذلك الوجه السمين لماريا تريزا ، ولذلك كانت تصرف بسعر مناسب في سوق مطرح ، بمبلغ تسعين روبية لكل مائة منها ، بينما هي مشتراة من زنجبار بثمانين روبية فقط .

وقد رأيت يوسف أيضاً ، وهو يذهب في مهمة شراء الحلويات لأسرة نجدي ونسائه ، بعد أن سأل نجدي عما يرغب فيه . لقد كان هذا المقهى ملتقى الجميع من الضباط ، وقائدي الدفة ، وأشقاء النواخذة القادمين من جميع المراكب الراسية في الميناء ، وكانت تتم فيها كثير من الصفقات التجارية . ولكن النواخذة فقط هم الذين كانوا يجلسون على المقاعد - أعني النواخذة ، والوكلاء ، والوسطاء الذين لهم علاقة بالمراكب ، والتجار الذين

كانوا يسعون لشراء بعض شحنات المراكب • لقد كانت تلك المقاهي شبيهة بأسواق العملات ، وبالنوادي ، وكانت معظم المعاملات المتعلقة بالتجارة البحرية تتم فيها • ولم يكن النواخذة يدفعون في الحال ثمن ما يطلبون من المشروبات ، فقد كانوا معروفين لدى صاحب المقهى ، وكانوا يدفعون حسابهم عند مغادرتهم البلدة ، بل أنهم كانوا حريصين جدا على المحافظة على سمعتهم الطيبة عن طريق علاقاتهم بصاحب المقهى ، وطريقة تعاملهم مع الآخرين ، وكان لكل منهم عادة حساب مفتوح مع أصحاب المقاهي المتشابهة ، القائمة في جميع البلدان التي يتعاملون معها ، من جدة الى زنجبار ، ومن العشار الى بربرة ، ومن موقاديشو الى خليج مطرح •

وعندما كنا نمل الجلوس في المقهى ، ونرغب في شيء من التغيير ، كان بعضنا يذهب احيانا للتجول في السوق المكتظ بالناس • وقد وجدت السوق كبيرا ، مع أن بحارتنا كانوا يقولون انه لا يقارن بسوق الكويت • الا أنهم كانوا يهرعون الى شراء قطع طويلة من قماش ذي لونين ، أحمر وأصفر لأنه قماش جيد ، بحسب قولهم • كما كانوا يشترون سلالا صغيرة من الحلويات يحملونها الى ذويهم ، فقد كانت حوانيت الحلوى في مسقط ومطرح مشهورة بجودة مصنوعاتهما • الا أن اصحابها كانوا سيفلسون لو اعتمدوا علي وعلى أمثالي • فعلى الرغم من أنني أمضيت ستة أشهر وأنا أحاول استساغة طعم تلك الحلويات ذات الطعم الشديد الحلاوة لدرجة تصيب الانسان بالغثيان ، الا أنني لم أفلح في ذلك أبدا • الا أن السوق كان مسليا لبعض الوقت ، فهو يزخر بالحياة والمتعة بأشكالها المختلفة • فانت ترى هناك رجالا يحلقون شعور آخرين بالموسى ، وآخرين يكتبون ، وغيرهم يسنون السكاكين بإدارة قرص المجلخ المصنوع من حجر الصوان ، ورجالا وصبياننا يطرقون الحديد في محددة قائمة على جانب الطريق ، كما ترى الحوانيت المملوءة بالتباريق ، والاقمشة القطنية ، وتلك المصنوعة من وبر الجمال ، علاوة على حوانيت السلاح ، والصرافة ، والمعادن ، حيث يمكنك أن تجد مجموعة كبيرة من الاقفال المتنوعة – لأن العربي يقفل كل شيء بالقفل – بالاضافة الى بعض الادوات البسيطة الرخيصة الثمن • أما أرض الشارع المار بالسوق ، فهي من الرمل الذي أصبح قاسيا من كثرة وطء الناس له ، ولكنه لا شك يصبح كتلة متصلة من الوحل لو أمطرت السماء عليه •

أما مسقط ، فانها اذا قورنت بمطرح ، تبدو أقل امتاعا ، فقد كانت، عندما زرتها ، مكانا هادئا يبدو عليه الكساد • ولم تتكرر زياراتي لها كثيرا ، كما أن البحارة لم يذهبوا اليها قط • وكان الوصول اليها يتم

بسيارة عتيقة تسير عبر ممر جبلي جيد . كما كانت تبدو للوهلة الاولى بلدة جميلة ، فيها بعض النباتات الجيدة ، مثل قصر السلطان (وكان هذا شابا صغير السن ، بعد أن تنازل والده حفيد السيد سعيد المعروف عن الحكم وقرر تمضية بقية حياته في اليابان) ، وكمقر المقيم البريطاني ، وبيوت بعض كبار التجار . وعلى الناحية الاخرى من الجون من جهة الجنوب ، كان يقوم حصن برتغالي متهدم يستعمل الآن سجنًا .

وكان المسئول عن السجن رجلا بلوشيا محترما يعامل السجناء كأنه هو مالك الحصن . ولم يكن عدد أولئك السجناء يزيد عن العشرين رجلا . أرجلهم مقيدة بالسلاسل الحديدية . وكان احدهم مسجوننا هناك عقابا على سرقة جمل ، وقد مرت عليه سنة ، ولا يعلم كم سيطول به المقام في هذا المكان . كما كان بين السجناء أربعة من الشيوخ العتيقين من مكان ما في الباطنة ، حكم عليهم بالسجن لقيامهم بحرق بستان لأحد الخصوم اثناء تأجج النزاع بينهم وبينه . وكان هؤلاء يرتدون الجلابيب الطويلة والعمائم ، فاذا سئلوا عن سبب دخولهم السجن ، كانوا يتسمون بطريقة معبرة . واذا جاز لنا الحكم عليهم من طريقة ابتسامهم ، يمكننا القول أنهم لم يكونوا يعترضون كثيرا على السجن ، فلن يمضي وقت طويل ، حتى يطلق سراحهم ، باذن الله ، كما أنهم ينالون حاجتهم من الطعام في وضعهم الحالي . فلماذا الاعتراض ؟ وقد لفت نظري ، أكثر من المساجين ، رسوم للمراكب ذات الاشعة المربعة ، كانت مرسومة على جدران غرفة الاستقبال في هذا السجن الغريب . وقد عجبت لوجود رسوم هذه المراكب الاوروبية في معقل للمراكب العربية كهذا المعقل . وعندما سألت نجدي عن تلك المراكب الغربية ، أجاب أنه لم ير مثلها قط . وكانت الرسوم متقنة ، وسليمة من الناحية الفنية ، وكان بعضها لطرادات ، والبعض الآخر لمراكب حربية أخرى ، يعود تاريخها الى القرن الماضي .

وعلى الرمال المجاورة لمقر المقيم البريطاني ، رأيت صاريا رئيسيا مأخوذا من أحد تلك الطرادات التي كان السيد سعيد يصونها ، ويستخدمها في أيام مجد مسقط وعمان وازدهارهما ، عندما كانت زنجبار وأكثر من نصف ساحل أفريقيا الشرقي تحت حكم السلطان . فقد كان السيد سعيد يشتري الطرادات القديمة من الانجليز ومن الهنود لكي يحافظ على سلطانه، ولكي يسافر على ظهرها في زيارته المتكررة لمستعمراته الافريقية . ويبدو أن السيد سعيد كان يحب الطرادات وسفن القتال الكبيرة بل انه ، في الواقع ، قام مرة بارسال إحدى السفن المسماة « سلطنة » في مهمة الى أمريكا ، الا أن سكان مدينة « سالم » في ولاية انجلترا الجديدة عاملوا

البحارة العرب الملتحين بغلظة وفظاظة ، وأخذوا يشدونهم من لحاهم ، ويسخرون منهم ، وانتهت المهمة الى الفشل الذريع .

وما زالت التقاليد المتعلقة بالمراكب الشراعية الحربية البريطانية حية وقوية في الخليج العربي . فقد لاحظت فيما بعد ، عندما وصلت الكويت ، أن دليلا للبحار الشرقية أعطاني اياه خليفة الغانم ، والد النوخدة عبد الوهاب ، كان يحتوي على رسومات كثيرة للطرادات بدلا من المراكب العربية . ولكن خليفة ذكر لي أن الدليل من صنع مسقط ، وأنه جلب الى الكويت عندما بدأ الكويتيون لأول مرة بالملاحة في البحار العميقة . ولكني لاحظت أيضا تشابها بين عدد من المصطلحات التي يستخدمها البحارة العرب . وتلك التي كانت مستخدمة في الاسطول البريطاني القديم ، فمثلا كلمة « جلبوت » تأتي من كلمة (Jolly boat) وكلمة « باورة » الدالة على المرساة ، تأتي من الكلمة الانجليزية (bower) و « كتر » من (cutter) . و « لنش » من (launch) .

وكانت المدافع القائمة أمام الحصن البرتغالي موجهة الى قصر السلطان ، وكانت هذه مجموعة متنوعة من المدافع القديمة التي تعبا من فوهاتها ، فيها مدافع حديدية من الهند ومن يوركشير في انجلترا ، وفيها أيضا مدفعان برتغاليان منقوشان نقشا جميلا ، وكانت حمالة تلك المدافع متأكلة ، وقواعدها لا تكاد تتحمل أن يتمشى الانسان عليها .

من الواضح أن مسقط كانت في أسوأ حالاتها ، فلم تكن فيها صناعة لبناء السفن ، ولم تكن فيها من التجارة سوى تلك التجارة المحلية البسيطة بين ميناء مطرح وبلوخرستان عبر الخليج العربي ، أو بينها وبين صور والباطنة على الساحل . ولم يعد المسقطيون يملكون كثيرا من المراكب الكبيرة . بل كانت معظم تجارة عمان بعيدة المدى تقوم بها مراكب سكان « صور » ، أو مراكب عتيقة يملكها أهل الباطنة أو الساحل المتصالح ، وكان المتسولون يملأون أسواق مطرح ، التي كان عدد البلوشيين فيها يفوق عدد العمانيين . أما المركب الكبير الوحيد ، الذي أبحر من ميناء مطرح في اثناء اقامتنا هناك ، فقد كان بوما فارسي في الاصل ، ولكنه محول الى عمان ليحمل العلم العماني الذي يسهل له التجارة بحرية أكبر . وكان هذا بوم محمد خنجي ، الذي كنا قد قابلناه في زنجبار ، في تلك المؤسسة الغامضة التي يملكها السيد سليمان بن سعيد .

وصل بوم عبد الله القطامي بعد وصولنا بيومين . وقد وجد

الكويتيون أن الوقت قد حان لاطلاع عبد الله على موت أخيه ، ولذلك ما كاد يلقي مراسيه حتى تجمع النواخذة الكويتيون الموجودون في الميناء ، وكانوا سبعة ، واعتلوا مركبه بكل جد ووقار ، وأعلموه بالنبا السيئ . ورغم أنهم حاولوا أن يعلموه بالامر بالطف بطريقة ممكنة ، إلا أن وقعه كان شديدا عليه . وبعد أن قدموا تعازيهم وعبروا عن استعدادهم لتقديم أي نوع من المساعدة يتطلبه الموقف ، غادروا المركب بصمت تام ، ولم يبق على ظهره الا نجدي ، الذي لازم صديقه الى أن أبحرنا من المكان . فقد كان عبد الله لا يزال يعاني من أثر حمى شديدة أصابته بعد أن أفترقنا في البحر ، وكان وقع الخبر عليه كالصاعقة - إذ أنه كان يحب أخاه محمدا حبا جما ، ولم يكن قد سمع بخبر الفتنة ، ولذلك فقد كان خبر موت أخيه صدمة كبيرة له . فالحوادث من هذا النوع نادرة الوقوع بالكويت . كما أن رجل البحر قلما يضحى بحياته من أجل سخف سياسي ، فهذا من اختصاص أولئك الذين لا يغادرون البلاد . لقد كان من الصعب على عبد الله أن يصدق تلك الاخبار المأساوية ، وظل يعتقد أن الوفاة لا بد قد حدثت عن طريق الصدفة والخطأ ، ففي فتنة من هذا النوع تحدث في سوق مزدحم ، اذا كنت قريبا من مركز الشغب ، فلا بد أن تصاب بالرذاذ . وكم كان يتمنى لو كان أخوه قد رافقه في رحلته بدلا من التخلف في الكويت .

وفي اليوم الذي وصل فيه عبد الله القطامي ، كان الميناء يعج بالفرس . فقد وصلت خمسة من مراكبهم ، قادمة مما من أفريقيا . وكان الجون يدوي ، وهم يرددون أهازيجهم وهم على ظهر قواربهم الطويلة المتجهة الى الشاطئ ، والنواخذة واقفون وهم يلوحون بأيديهم ، تحية للمراكب الفارسية التي يمرون بها . وعند الغروب ، كان بالامكان سماع صوت الحبال والسلاسل ، وهي ترسل صريرها المعروف عند رفع الاشرعة الى أعلى استعدادا للرحيل ، مصحوبة بالطبع بالغناء والرقص . لقد كان جون مطرح جميلا جدا في ذلك المساء ، والنجوم تتلألأ في السماء ، وترسل شيئا من النور اللطيف ، فتجعل المكان رومانسيا أخاذا ، بينما البحارة الفرس يستعدون للرحيل . وكان أحد مراكبهم بغلة ضخمة جدا ، حمولتها (٥٠٠٠) جلة من التمر ، ذات قاع مغطى بالنحاس ، وفي غاية الجمال . وقد علمت أنها آخر بغلة من صنع ميناء « قشم » ، وان عمرها سبعون عاما . وعندما وصلت ميناء مطرح ، كانت قادمة من ساحل مالابار في الهند محملة بخشب الساج . ومواد لصنع الحبال ، وحبال مصنوعة ، كما كان ثلاثون قاربا صغيرا (محفورا من جذوع الاشجار) مكدسة على السطح ، وكمية مسن الاثاث الهندي تتدلى من جانبي سور المؤخرة . وفي نفس الليلة ، وصلت بغلة كويتية ، بعد تسعة عشر يوما من مغادرتها ميناء « لامو » على ساحل

«أفريقيا الشرقي» - وما أن انتصف الليل ، حتى أتتنا من الشمال الغربي رياح قوية أخذت تهب علينا ، وهي تحمل جميع حرارة الصخور والصحراء المجاورة ، فتلفح وجوهنا وكأنها شواظ من نار ، حتى تكاد تحرقها ، بحيث لم يتمكن أحد من النوم تلك الليلة حتى على ظهر المراكب الواقفة بعيدا في مياه الخليج .

وهكذا ظللت صاحيا ، لم يغمض لي جفن ، وقد حمدت الله على ذلك لأننى تمكنت من مشاهدة يوم عبد الوهاب القطامى العظيم ، وهو يدخل الميناء فى أولى ساعات الصباح الباكر كأنه شبح هائل ، ويجد له مكانا مناسباً يرسو فيه فى الظلام . وكنت أسمع صرير البكرات عند انزال العارضة ، بينما كان البحارة يتكلمون وينادون بعضهم بعضا بهدوء لئلا يزعجوا سائر من فى الميناء . لقد كان منظرا رائعا ، والمركب يلقي بمراسيه فى الظلام الحالك ، والرياح تهب بقوة وعنف ، مما جعل العملية فى غاية الصعوبة ، فعملية من هذا النوع شاقة جدا حتى خلال النهار ، عندما يستطيع النواخذة أن يرى جميع المراكب حوله ، فكيف والوقت ليل ، وليس فى أى من المراكب الراسية بصيص من نور يدل عليها ؟ والواقع أنى لست أدري كيف استطاع القطامى أن يهتدى الى طريقه بين المراكب ، ومركبه يسير بسرعة ، وأن يوقفه بحذاء اليوم الصغير الذى يملكه ابن أخيه عبد الله القطامى . فلو تم هذا العمل نهارا لكان عملا باهرا ، أما وقد تم ليلا فقد كان أشبه بالمعجزة . ولا شك أن تقدير المسافات بطريقة عبد الوهاب فى تلك الليلة ، والرسو فى ميناء مزدحم بالمراكب ، دون الاستعانة بمصباح واحد ، بكل رشاقة وروعة ، هو قمة الفنون الملاحية ، فقد كانت هذه المراكب تقاد الى مراسيها دون مساعدة الشراع ، مما يزيد من مسئولية النواخذة ، فكل شيء متروك لتقديره وحكمه . لأنه اذا ارتكب خطأ واحدا فى وقت كهذا ، فليس بإمكانه أن يصلحه بنشر الشراع ، أو بمحاولة الرجوع الى الخلف ، ولذلك فان عليه أن يدخل بسرعة ، والا فلا يمكنه أن يوجه مركبه أبدا ، فاذا حدث أدنى خطأ ، لا بد أن يصطدم المركب بمركبين أو ثلاثة على الأقل . ومع كل ذلك فان قيادة مركب كبير كهذا « الداو » فى مثل هذه الظروف ، كانت تعتبر عملا روتينيا عاديا جدا بالنسبة للنواخذة العرب .

وعندما نظر يوسف الشيرازى العجوز الى ذلك « الداو » فى وقت لاحق من فجر ذلك اليوم تمتم قائلا انه عاد الى حيث ينتمى . فكثيرا ما كان يحمل شحنت من السلاح من هذا الميناء بالذات ، وكان يوسف يبحر على ظهره . وفى إحدى المرات التى سافر بها على هذا المركب ، اعترضه البريطانيون ، وساقوه الى قاعدتهم البحرية الواقعة قريبا من مضيق هرمز . لقد كان هذا « الداو » مركبا ذا تاريخ حافل .

أقلعنا في صباح اليوم التالي برفقة سبعة مراكب أخرى كانت تضم
جوم عبد الله القطامي الصغير تحت قيادة العبد المحرر سعود ، فقد كان
عبد الله محطم النفس ، مريضاً بالحمى ، مما اضطره لترك المركب والانتقال
إلى مركب عمه عبد الوهاب ، في « الداو » الكبير . وقد أقلع معنا ، في هذا
الصباح المشمس أيضاً ، البوم الكبير المسمى « سمحان » ، بقيادة النوخذة
الكويتى المعروف يوسف بن عيسى ، كما رافقتنا بغلة كبيرة من بغلات ميناء
قشم الفارسي ، وبوم كويتى قديم كان عائداً إلى الوطن بشحنة من زيت
السماك من ساحل المهرة ، بالإضافة إلى ثلاثة مراكب فارسية أخرى عائدة من
رحلة أفريقيا . لقد كان الصباح جميلاً ومنظر المراكب رائياً ، وهي تطلع سوية
وقد نشرت جميعها أشعتها البيضاء الكبيرة فوق أجسامها المنسابة على سطح
الماء الأزرق الصافي ، بينما تقف من خلفها الجبال الشامخة . وطوال ذلك
النهار كانت الريح تهب بضعف شديد ، تكاد لا تكفى لدفعنا قدماً ، ولكن أحداً
لم يكن يبالي إذا سبب ذلك تأخيرنا في الوصول . فقد كانت الظروف مثالية ،
وكنا نمتع أنظارنا بمنظر المراكب الأخرى المرافقة لنا . وسرعان ما تخلفت
المراكب جميعها عنا ، إلا أننا لم نتمكن من سبق البوم الكبير « سمحان » ، بل
كنا نبحر معاً طوال النهار ، ونحن لا نبعد بعضنا عن بعض بقدر مرمى
الحجر ، وكان بحارتنا يجلسون في ظل الشراع يرقبون بحارة المركب الآخر
يجلسون في ظل شراعهم يرقبون بحارتنا . وكان سمحان عائداً من لامو وعلى
ظهره ما يزيد عن (١٢٠٠) عمود من خشب المنجروف . والحق يقال إنه كان
مركباً كبيراً ، أكبر حتى من الداو - الذي كان قد عجز عن مسيرتنا -
ولكنه ، برغم ذلك ، كان يشق عباب الماء بشكل رائع ، تاركاً خلفه أثراً
مستقيماً ، كما كان بإمكانه أن يستمر في الإبحار بأخف دفعة من الهواء .
وعند الغروب نظرت خلفي إلى ذلك الاسطول العربي - الفارسي وهو يبحر
في خليج عمان ، ومراكبه مصفوفة واحداً بعد الآخر خلفنا ، وأشعة الشمس
الذهبية تسقط على أشعتها فتحيل لونها إلى لون الذهب ، بينما تتجه الشمس
إلى المغيب ، وتكتسى السماء عند الأفق بذلك اللون الرمادي المزرقي الذي
يسبق الظلام ، فشعرت براحة كبيرة جداً . لقد كان منظراً هادئاً وادعياً ،
يوحي بالسلام والطمأنينة ، في هذا العالم الذي تمزقه الحروب . وقد تابعنا
سيرنا ليلاً ونهاراً بصحبة المراكب الأخرى ، وكان البوم سمحان يبدو منظراً
رائعاً في ضوء النجوم المتلألئة في السماء .

وهكذا تابعنا سيرنا الهنيء صعداً في خليج عمان ، باتجاه رأس مسندم
والخليج العربي ، واستمر ذلك خمسة أيام كاملة ، فقد كانت الريح هادئة
. وكانت سرعتنا بطيئة ، مما جعل نجدى يشعر بشيء من نفاد الصبر ، فلا شك
. أنه كان متشوقاً لرؤية ابنه الجديد ، كما بدا على البحارة الشوق للوصول

الى أرض الوطن • ولكنى لم أكن أدري ، كما لم يكن غيرى من البحارة يدري ، الى أين كنا متجهين ، لأن ذلك كان يتوقف على الظروف • فلم يكن من المحتمل مثلا أن نحمل جميع شحنتنا من مواد البناء الى الكويت مباشرة ، دون أن نحاول أولا أن نبيع جزءا منها فى أماكن أخرى • فقد غادرنا زنجبار ونحن نحمل أوراقا رسمية تشير الى أننا عائدون الى الكويت مرورا بمسقط والبحرين ومكان آخر يدعى « جبيل » على ساحل العربية السعودية • وكان نجدى يتحدث عن البصرة ، بل وأحيانا يذكر بعض الأماكن الواقعة على الساحل الفارسى من الخليج ، ولكنه لم يأت على ذكر جبيل قط • ولم أكن أعلم أنه من المفروض بنا أن نمر بتلك البلدة ، لو لم يناولنى أوراق المراكب ، ويطلب منى أن أدله على « المانيفست » الخاص بجبيل • وكانت الأوراق مكتوبة باللغة الانجليزية ، ولم يكن هو يفهم منها شيئا • وتقع جبيل هذه على ساحل الاحساء ، على بعد حوالى مائة ميل جنوبى جون الكويت ، ولم تكن سوى مكان صغير لصيد اللؤلؤ • ولست أدري لماذا كنا نحمل أوراقا تشير الى تلك البلدة ، فنحن لم نذهب اليها قط ، ولا أعتقد أننا كانت لدينا النية للمذهب الى هناك • فربما كانت بعض الظروف الطارئة تتطلب مجموعة من هذه الأوراق ، وكان نجدى يحب أن يكون دائما مستعدا لكل طارئ •

تابعنا سيرنا ونحن أحيانا ننساب انسيابا متصلا ، وأحيانا أخرى نسير سيرا متقطعا ، وأحيانا بمساعدة هبات من النسيم ، وأحيانا أخرى بدونها ، وأحيانا بدفع هبات نشطة من الريح تستمر ساعات عديدة ، وأحيانا أخرى يخيم الهدوء والسكون التامان على كل شيء • ولم يكن أحد يبالى بذلك كثيرا ، فسنصل ، بمشيئة الله ، الى الكويت فى الوقت المناسب ، وحسبنا الآن ما نحن فيه من النعماء ، وأن الله لم يرسل علينا الريح الشمالية المعاكسة • فلم يكن أحد يرغب فى تلك الريح التى تهب بعنف فى مواجهتنا تماما ، فتعطل سيرنا ، وتستمر فى العادة أربعين يوما كاملا • وقد دعوت معهم الا يبتلىنا الله بتلك الريح ، على الاقل الى أن نقطع مسافة معقولة فى الخليج تقربنا من الوطن • الا أن نجدى كان قلقا ، لأنه يعلم أن هذه الريح تهب عادة بعد فترة من الهدوء • وفى أثناء ذلك ، كنا نقوم بالتزاور مع يوسف بن عيسى الذى كان يأتى إلينا فى قاربه الصغير • لقد كان رجلا ضخما ، مرحا ، صحيح الجسم ، ذا بنية قوية يبلغ طوله حوالى ستة أقدام ، وكان دائما يستمتع بالنكات التى يقولها ، ويضحك لها بصوت عال • وكان يأتى وهو يرتدى جلبابه الابيض الطويل وكوفيته الحسنة الزرقة ، ويحمل فى يده مظلة يابانية لتقيه وهج الشمس • وكان يزورنا يوما ، ويقضى عصر ذلك اليوم وهو يتجاذب أطراف الحديث مع نجدى ومع حمد بن سالم ، وفى اليوم التالى نقوم نحن برد الزيارة له • لقد أحببت يوسف بن عيسى ، وكنت

أسعد بزيارة مركبه الكبير النظيف ، الذى كان على مؤخرته قمرة صغيرة مزودة بمصباح كهربائى وبمذياع ، ولكن أيا منهما لم يكن صالحا للعمل . وعندما كنا نقوم بزيارته ، كان بحارته يتجمعون على سطح المؤخرة لتحية نجدي ، وعندما كان هو يقوم بزيارتنا ، كان بحارتنا الذين يعرفونه من قبل ، وربما عملوا تحت امرته ، يتقدمون لتحيته ، ويصافحونه بحرارة . لقد كان النظام والانضباط على المراكب الكويتية ممتازا ، وكانت هذه تدار ادارة حسنة . الا أن البحارة والضباط كانوا يعرفون كيف يتصرفون تجاه بعضهم البعض من غير نفاق أو تذلل ، ودون أن يرفعوا الكلفة بدون مناسبة . فقد كان الضابط بين العرب ضابطا لأنه يستحق ذلك ، كما كانت قيادته للآخرين أمرا طبيعيا ، ومن أجل هذا لا بد أن ينزل المنزلة اللائقة به .

وفى أوقات العصر ، كان حمد وحسن قائد الدفة يعملان على ضبط الحسابات ، حمد ممثلا للمركب ، وحسن نيابة عن البحارة ، لأن الرحلة أذنت بالنهاية ، وبانتهائها يتوجب أن يكون حساب الحصص منتهيا ، ويدفع لكل رجل ما يخصه من الارباح . وكانت هذه العملية مسألة طويلة معقدة ، ولذلك فقد واصل الرجلان عملهما للانتهاء منها دون تعب أو ملل ، بينما ، من الناحية الاخرى ، كان يوسف بن عيسى لا يتوقف عن القهقهة استمتاعا بنكاته التى لا تنتهى ، ولكن عينه على مركبه دائما ، ونجدي يرقب الجو بعينيه اليقظتين ، وهو يتوجس خيفة من هبوب الرياح الشمالية . فلم يكن المركب يتطلب عملا كثيرا فى هذه المرحلة من الرحلة ، ما عدا المحافظة على المركب سائرا فى الماء . وكان خليل ومساعدوه لا يتوقفون عن عملهم فى بناء القارب الجديد ، وفى فترة الصباح ، كان حريف البحارة يقود بحارته فى تركيب « كابل » جديد . وكان على ظهر المركب الآن أربعة من البحارة يشكون من الحمى ، كما أصبح اسماعيل ، الذى أتاحت له فرصة العزف على قيثارته بسعادة وحبور فى ميناء مطرح ، يشكو من الروماتزم ومن البواسير . فى آن واحد .

وعندما لم يكن نجدي يستقبل ضيفه يوسف على ظهر مركبنا ، أو لم يكن يزوره على ظهر مركبه ، كان يجلس على سجاده الممدودة وعلى السدة . وفى المؤخرة ، ويرتل آيات من القرآن الكريم ، أو يعبث بقدمه السوداء الحافية ، وهو يرقب الشراع والبحر والمراكب الأخرى ، بل وربما يفكر بابنه الجديد ، أو بما يمكن أن يحالف أخاه من الحظ فى جمع ديونه من موقاديشو . ومن آن لآخر كان يبدأ محاضراته عن السياسة ، أو يسألني للمرة المائة كيف يمكن للاخلاق المسيحية أن تتحول الى أساس لحياة معقولة ، أو يستعلم مني عن الوقت الذى سأبدا فيه تأدية الصلاة .

مضت علينا بضعة أيام ، ونحن نبحر بحذاء الشاطئ ، قبل ان نصل الى رأس مسندم ، وكنا نسير ببطء بمحاذاة ساحل الباطنة وكأننا تحت الجبال مباشرة ، بينما ندور أحيانا وكأننا نتجه الى الساحل الفارسي . وكانت جبال الباطنة تبدو قديمة جدا ، حارة جدا ، سيئة الطبع جدا ، وكأنها قد تعبت من الوقوف باستمرار تحت أشعة الشمس المحرقة . وكانت تبدو كالحة قاتمة مقفرة ، ووجهها الشديد الانحدار المقابل لنا مملوء بالفجوات والاخاديد والشقوق ، ولم تكن ، اجمالا ، توحى بأن ذلك الساحل العماني يرحب بالضيوف . فقد كانت تقف صلبة شامخة على الشاطئ مباشرة ، كأنها تؤكد أنها لا يمكن أن تقهر ، وكأنها تريد ابعاد أي بحار يمر من هناك . لقد كان هذا الجزء من الارض الشاطئ المناسب للجزيرة العربية المتخلفة وأرض البدو الغزاة . وكنت ، وأنا أنظر الى تلك الجبال يوما بعد يوم ، أعود بالذاكرة الى البرتغاليين الذين كانوا يبحرون في هذه النواحي ، والى جميع المراكب الاخرى التي كانت تمر هذه المياه ، من المراكب الشراعية الاوروبية على أنواعها ، الى المراكب الصينية التي كانت تجلب الحرير والبضائع الثمينة الى الاسواق العظيمة في بلدان الخليج العربي . وما نحن أخيرا على ظهر بوم عتيق ، يؤلف آخر حلقة من حلقات المراكب الشراعية الشرقية ، نشق طريقنا شمالا ، ونحن نحمل شحنة من الأخشاب المقطوعة من احدى غابات أفريقيا . لقد صبت ثروات جزر الهند الشرقية هنا ، ومن هنا أبحر العبيد ، والقراصنة ، والقباطنة وتحاربوا ، وفي هذه المياه قام المكتشفون والرواد باكتشافاتهم ومغامراتهم . ولكن.. ها نحن الآن نشاهد احدى ناقلات النفط العملاقة ، القادمة من عبادان ، تمر بنا بسرعة ، وهي تدفع نصف مياه الخليج أمام مقدمتها الضخمة ، وتسحب النصف الآخر خلفها ، وهي تحمل النفط لاستعمال السيارات الفارمة ، التي تجوب الأحياء الراقية في لندن . وكان نجدي ينظر الى السفن ويتمتم : « انها تجيء وتذهب . لقد كانت هكذا دائما » ، وهو يتابع بنظره دخان السفينة وهي تبتعد عنا فترة طويلة من الزمن . ولكنه ما لبث أن عاد الى عالمه ، فتوضأ وأدى الصلاة .

وعند المغيب ، هب علينا نسيم عليل ، فبدت الجبال كأنها أقل قسوة . رغم أنها كانت لا تزال تقف بسوادها وجلالها أمام آخر أشعة الشمس الغاربة . وفي الافق البعيد من جهة الشرق ، كان ساحل ايران يبدو خطا أزرق غير واضح تماما . لقد كانت جبال الباطنة جميلة في تلك اللحظة ، الا أن نجدي لم يشاركني شعوري ، عندما أخبرته به . بل أجابني قائلا : « وأين موطن الجمال في هذه الجبال ؟ انها لا تنتج شيئا . انها لا تخرج شيئا حيا » . وعندما أجبته بأن الجبال أيضا جزء من مملكة الله ، وأن الله-

جعلها جميلة ، لم يحرجوا ، ولكنه لم يقتنع بكلامي - فلم تكن فكرة جمال الجبال تروق له ، بل قال لي ان علي أن أنتظر لأصل الكويت ، اذا أردت أن أرى الجمال الحقيقي .

ومع أننا أصبحنا قريبين جدا من رأس مسندم ، حيث يتصل خليج عمان بالخليج العربي ، وحيث تلتقي جميع ناقلات النفط القادمة من عبادن ومن البحرين ، وحيث تأتي المراكب المحملة بالتمور من البصرة وبوشهر وتعود ، الا أننا لم نعلق أية مصابيح على ظهر المركب . وعندما سألت نجدي ما اذا كان من الحكمة أن نرفع ولو مصباحا غازيا من المصابيح المضادة للأعاصير ، في مثل هذه المناسبات ، أجاب أن الجمل يعرف طريقه في الصحراء دون حاجة الى أية أنوار ، وتساءل لماذا ، اذا ، يجب على المركب العربي أن يكون مضاء في البحر ؟ ولكنني أجبت أن بإمكان الجمل أن يتفادى الاصطدام على البر أكثر من المركب في البحر ، كما أن للجمال الاخرى عيوننا تستطيع الرؤية بها . الا أنه لم يبد أي اهتمام ، وبقيت مصابيحنا في المخزن في أسفل المركب . ولما كانت الريح قد سكنت ثانية ، فقد أخذت نجدي الى الراحة والنوم على حصيره بعد أن أدى صلاة العشاء ، بينما ذهبت أنا لاقضي الليلة اتجاذب أطراف الحديث مع البحارة الذين كانوا يقومون بنوبة الحراسة ، وهم في القارب الطويل الممدد على سطح الحمولة . وكان الحديث في تلك الليلة عن الكويت ، كما كان الحال منذ مدة . وكان الشراع الرئيسي العظيم يتشكل بأشكال مختلفة وهو يهتز بلطف تحت ضوء النجوم ، بينما كان شخير نجدي ، وهو نائم على سدة ، يخرق الصمت المخيم على المركب ، وحمد بن سالم متلفعا بجلبابه وعباءته ، ولكنه يقوم بالحراسة رغم النعاس الذي كان يراود جفنيه . كما كان ابراهيم ، قائد الدفة ، يبدو جسما مظلما أمام النور المنبعث من صندوق البوصلة ، وهو جالس أمام عجلة القيادة . وكان ماء البحر يداعب جوانب المركب ومقدمته بلطف ، بينما كانت البكرات تصر فوقنا ، والمركب يتابع سيره ببطء .

وما أن دخلنا الخليج العربي حتى انقلبت الظروف رأسا على عقب . فقد تبدد الهدوء في الحال ، وبدلا من ذلك بدأت الريح الشمالية بالهبوب بهدوء أولا ، ثم أخذت بالاشتداد . فازداد قلق نجدي ، الا أننا طويلا أصغر أشرعتنا الرئيسية وتابعنا سيرنا . وقبل أن ينقضي النهار ، كانت الريح تعوي كأنها الذئب ، وارتفع الموج ، حتى أننا لم نحرز تقدما يذكر . ومنذ ذلك الحين بدأت الايام تتعاقب ، كل منها لا يختلف عن سابقه ، وأخذنا نكافح لكي نكسب بعض المسافة مهما كانت ضئيلة . وكنا أحيانا نبصر بمحاذاة الساحل الفارسي لعلنا نحظى بتغيير في اتجاه الريح هناك ، وفي

أحيان أخرى ، عندما ينتابنا اليأس من ذلك الجانب ، نندفع عبر الخليج إلى الساحل المتصالح ، ونتجه صوب الشارقة ودبي . وهكذا كنا نمر ببطء شديد بجميع الموانئ التي كانت ترسل أساطيلها إلى أفريقيا : مسقط ، والباطنة ، والشارقة ، ودبي ، وكنج ، وبندر لنجه ، وقشم . وتابعت صراعنا مع الريح والموج يوما بعد يوم . فقد كان الوطن بعيدا ، على رأس الخليج ، وكانت المسافة بيننا وبينه ما زالت كبيرة . وفي أثناء ذلك مررنا بجوار عدد من الشواطئ الفارسية ، وكنا قريبين جدا من عدد من الموانئ والبلدان . فقد مررنا بقرب « حنجم » ، التي كانت فيما مضى قاعدة بحرية بريطانية ، ولكنها الآن تبدو مهجورة تماما . وهنا قدم إلينا رجل فارسي . في قارب صغير ، واعتلى ظهر المركب وأبدى رغبته في شراء شيء من زيت جوز الهند ، وبعض البضائع المصنعة ، وشيء من السكر والشاي والطباق التي أتينا بها من مسقط . وقد مررنا أيضا بروقان ، وجرك ، وجيرو (١) . كما أمضينا ثلاثة أيام ونحن نتقدم بصعوبة ما بين جرك وجزيرة أم قيس (٢) . ويوما آخر ما بين جيرو وهندرابي (٣) .

هدأت الريح قليلا ونحن نبحر في الممر المجاور لجزيرة أم قيس ، فافغتمنا الفرصة لنتفرج على تلك الجزيرة الملفتة للنظر . وقد رأينا عددا من القوارب الصغيرة التي تستخدم للغوص على اللؤلؤ وهي تعمل على الشاطئ الداخلي ، إلا أن نجدي أفاد بأن تلك القوارب كانت متواضعة ، وأن اللؤلؤ الذي يصاد على الجانب الفارسي من الخليج لم يكن جيدا ، بل الجيد والتمين هو ما يصاد من المياه المقابلة للساحل العربي ، وخاصة مقابل البحرين . وقد رأينا أيضا البلدان الثلاثة التي تقوم على الجزيرة ، ولكنها كانت تبدو خربة في الغالب فيما عدا بضع بنايات جيدة . وكان من الواضح أن الأوضاع سيئة في الجزيرة . وقد اكتشفنا أن « حسنا » قائد الدفة ، لم يكن كويتي ، كما كان يدعي حتى الآن ، بل كان من جزيرة أم قيس ، وقد أعلمنا هو بذلك ، وأضاف بأن الاحوال لم تكن حسنة في الجزيرة ، وأنه كان قد غادر الجزيرة مع أسرته منذ عشر سنوات واستقر في الكويت ، وأن المكان كان فيما مضى مكانا جميلا ، غنيا باللؤلؤ ، إلا أنه لم يعد جميلا ولا غنيا الآن . ولم يزد على ذلك سوى أنه كان يبدو وكأنه يتحسر لأنه ولد في ذلك المكان أصلا .

(١) موانئ فارسية صغيرة على الضفة الشرقية من الخليج العربي تقع شمالا من مضيق هرمز . (المترجم) .

(٢) أم قيس : جزيرة تقع مقابل الساحل الإيراني ما بين مينائي جرك وجيرو (المترجم) .

(٣) ميناء فارسي صغير على الضفة الشرقية من الخليج العربي تقع شمال ميناء هرمز (المترجم) .

علاوة على جزيرة أم قيس ، كان بإمكاننا أن نشاهد عددا آخر من البلدان نصف المهجورة ، ونحن نقف هنا وهناك على طول الساحل الفارسي ، تحت التلال الملونة ، التي كان بعضها يبدو كأنه أكوام من الأتربة الملونة وضعها الانسان هناك . وعلى قرب من بلدة يدعوها الكويتيون والفرس باسم « كالت » ، رأينا حصنا كبيرا يشبه القلاع على قمة احدى التلال . كما رأينا سمبوكا راسيا مقابل البلدة ، التي كانت تبدو بلدة كبيرة ، الا أننا لم نشاهد أي أثر للحياة ، مع أننا كنا نمر على مسافة قصيرة جدا منها ، وبسرعة بطيئة جدا . وقد أفاد حسن بأن أهالي البلدة قد هاجروا سوية الى بلدة على ساحل الباطنة تدعى خورفكان . وبينما كان حسن غير راغب في الحديث عن جزيرة أم قيس ، لم يكن لديه مانع من الكلام عن هذه البلدة . ويبدو أنه كان قد غادر جزيرة أم قيس أولا قاصدا بلدة « كالت » ، وأنه وصل الى الكويت أخيرا بطريقة دائرية طويلة . وقد قص علي القصة كاملة ، كما أروىها هنا . في البدء أصبحت الحياة في جزيرة أم قيس لا تطاق ، وكان السبب الرئيسي في ذلك ، بحسب كلام حسن ، هو استبداد الشيخ المحلي وطفياه ودأبه في نهب أرزاق الشعب . وعندها هاجر حسن ، وكان يافعا ، مع أسرته الى المكان الآخر المسمى « كالت » . وفي ذلك الوقت كانت هذه البلدة مزدهرة ، وكانت الحياة فيها رخية ، ولكن كان هناك وميض نار تتأجج تحت الرماد ، بسبب خطوات التحديث والتجديد التي كان الشاه الجديد يقوم بها . وكان هذا الشاه ، على ما يبدو ، لا يطيق بقاء الاشياء على ما هي عليه ، وكان على عجلة من أمره في تغيير الاوضاع السائدة . وقد بدأت الاشاعات والتقارير تصل تباعا الى « كالت » عن أشياء فظيعة جدا تجري في مملكة فارس . وكانت بعض تلك الاشاعات تقول ان الشاه يقوم بهجوم أحرق على مبادئ الاسلام ، بينما كانت تقارير أخرى تقول أنه يعمل على خراب البلاد . وأنه قد طلب من الناس في بعض أجزاء البلاد الاقلاع عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، بأن تقلع نساؤهم عن ارتداء الحجاب والانغلاق على أنفسهن في الحريم . كما ان على الرجال أن يقلعوا عن ارتداء القفطان الفضفاض والعمامة الجميلة ، وعوضا عن ذلك عليهم أن يحرروا نساءهم ويرتدوا القبعات .

وكان هذا في نظر معظم أفراد الشعب كفرا . وحتى في الوقت الذي كان حسن يحدثنا فيه عما جرى ، لم يكن يتصور كيف يمكن أن يتقدم أي إيراني بمثل هذه الاقتراحات . الا أن الشاه أعلن ذلك على الملأ بالفعل ، بل والأنكى من ذلك ، أنه عمل على تنفيذ تلك الاوامر . وكان أهالي أم قيس وكائنات يعتقدون بأن الامر لا يهمهم في قليل او كثير ، فبلدانهم تقع في زاوية منعزلة بعيدة عن العاصمة ، ولن تصل اليهم الاصلاحات المزمعة الا بعد

وقت طويل • الا أنهم أفاقوا من حلمهم ذات يوم ، واذا بمبعوث من البلاط-
الشاهنشاهي ، يصل البلاد ، ويحمل الاوامر الصادرة عن الشاه ، بأن على
أفراد الشعب أن يقلعوا عن عادات آبائهم وأجدادهم ، وأن يتبذوا الافكار
القديمة ، ويحرروا نساءهم ، كما فعل الاتراك من قبل • علاوة على أمور
أخرى ، ذكرها حسن ، معظمها يتعلق بالضرائب الجديدة ، والرسوم-
الجمركية ، ووضع نهاية لتجارة التهريب المستمرة منذ قرون • وقد استمع
أهالي كالت الى مبعوث الشاه بدهشة وصمت ، غير قادرين على تصديق
ما يسمعون • ولكن ما أن غادر المبعوث البلاد ، حتى عاد كل شيء الى
ما كان عليه ، ولم يبال الناس بالاوامر الجديدة ، لأنهم كانوا يعارضون
جميع ما جاء فيها معارضة تامة ، ويحبون الحياة التي كانوا يحيونها ، والتي
يتطلب تغييرها أكثر من مجرد أوامر يصدرها شاه ، يحمل أفكارا جديدة ،
ولكنه يبعد عنهم آلاف الاميال •

ولكن الشاه ، بمرور الوقت ، سمع بخبر هذا العصيان ، فجرد على
البلاد حملة من خيرة جنوده ، لتنفيذ الاوامر • ومع أن الجنود كانوا من
خيرة الرجال الذين رأهم أهل كالت ، وكان منظرهم وسلوكهم مؤثرين ، الا
أنهم ، كغيرهم من الجنود ، كانوا يحبون « العرق » وأي مشروب روحي.
آخر • وقد أقام لهم أهل كالت وليمة عظيمة لكي يوثقوا عرى الروابط التي
توحدتهم مع سائر بلاد فارس ، ولم يخلوا عليهم بالعرق والمشروبات الروحية
الآخري ، بل أغرقوهم بها ، ولم يكن هناك مكان فسيح يتسع لجميع المدعوين.
سوى السجن المحلي • فزينوه بشكل لائق ، وأقاموا وليمتهم فيه • الا أن
الخطة لم تنته عند ذلك ، بل ما كاد الجنود يشملون من الشراب ويصبحون
عاجزين عن المقاومة ، حتى قام المواطنون ، الذين كانوا يشربون الماء بدلا
من العرق ، بحشر الجنود في داخل السجن ، واقفال الابواب عليهم • وقد
كان حسن منشرحا وهو يروي تلك القصة التي كان يعتبرها نكتة كبيرة ،
فقد ساعد بنفسه على اغلاق أبواب السجن • ولكن ما أن تم للناس ذلك ،
حتى شعروا أنه لم يعد لهم بقاء في بلدتهم « كالت » ، لأن الشاه ، عاجلا
أم آجلا ، سيرسل حملة أخرى لتأديبهم ومعاقبتهم على فعلتهم ، الا أنهم
كانوا قد أكملوا خططهم ، فليس لهم بقاء في بلاد تسير فيها النساء في
الشوارع من غير حجاب ، ويرتدي فيها الرجال القبعات • وهكذا سار
الجميع ، الرجال والنساء والأطفال ، الى الميناء ، وأقلعوا على ظهر المراكب
العسكرية وكانت هذه هي المرة الاولى التي يركب فيها حسن البحر ، فيما
عدا تلك الرحلة القصيرة التي قام بها من جزيرة أم قيس الى البر ، ومع
أنه شعر بدوار البحر ، الا أن المغامرة كانت عظيمة • لقد حمل الجميع كل
ما تمكنوا من حمله ، وأقلعوا في البحر ، ولم يعد أي منهم الى بلده مرة

ثانية • ومن ذلك الوقت حتى الآن وبلده « كالت » مدينة مهجورة تسكنها
الاشباح •

وقد أضاف حسن أن أسرته هاجرت أولا الى مكان يدعى « خورفكان »
في محمية عمان (١) ، ومن هناك هاجروا فيما بعد الى الكويت ، وسواء
كانت رواية حسن صحيحة أم لا ، فقد كانت « كالت » مدينة مهجورة عندما
مررنا بها • لقد كان من الممكن أن تكون البلدة مئنة تماما ، الا أنها لم تكن
مئنة لدرجة تشجع « نجدي » على القاء مراسيه فيها ، مع أن الظروف الجوية
كانت معاكسة لنا ، وكان يحسن بنا أن نرسو هناك ، فقد كان نجدي يخشى
الايرائيين الجدد وجميع ما يقومون به من أعمال • كما أن الايرانيين
كانوا يرتابون بالمراكب الكويتية ، ويتهمونها بالقيام بأعمال التهريب بدون
انقطاع ، ولكن « نجدي » كان يسخر من ذلك ويدعي بأن المراكب الكبيرة
لا تقوم بأعمال التهريب ، بل أن هذه الاعمال متروكة للمراكب الصغيرة •
فكل كبير وصغير يعرف أن المراكب الصغيرة تهرب البضائع من الشارقة
ودبي والبحرين وخورفكان الى ايران هذه الايام • فان المعقول أن تحمل
البضائع المهربة بكميات صغيرة على مراكب صغيرة وتنتقل خلال الليل ،
بدلا من الشحنات الكبيرة التي تحتاج الى وقت أطول لتفريغها ، ونتيجة
لذلك تتعرض لمخاطر أكبر • كما أن المراكب الصغيرة يمكنها أن تختبئ
في أي مكان ، أو توقف على رمل الشاطئ أو تحرق عند الضرورة القصوى ،
أما المراكب الكبيرة فلا يمكنها أن تقوم بشيء من ذلك ، ولهذا كله فان
« نجدي » بعيد عن عمليات التهريب بعدا تاما ، بحسب قوله ، ولكن
يضيف ، في صوت هامس ، وهو يحدثني متسائلا عما اذا كنت أعرف أية
بقعة من بقاع الارض يمكن لربان فقير يقود مركبا عربيا أن يحمل شحنة
اليها •

اني أعتقد ، استنادا الى كل ما سمعت ورأيت ، أن عمليات التهريب
رائجة على طول الساحل الفارسي ، وأشك بأن الكويتيين غير منخرطين
فيها أيضا • فالتهريب في المراكب الكبيرة ، وهي مسافرة الى أفريقيا ،
عملية صغيرة يقوم بها نفر من الرحالة وبعض البحارة ، أما الربح الذي
يمكن الحصول عليه من تهريب شحنة من الشاي أو البضائع الخفيفة الى
ساحل ايران فهو شيء مختلف تماما • وفي احدى الليالي ، بعد أن شاهدنا

(١) خورفكان بلدة تتبع إمارة الشارقة ، لا محمية عمان ، وإن كانت تقع على الساحل
الشرقي من شبه الجزيرة • وإمارة الشارقة الآن بالطبع جزء من دولة الامارات العربية
المتحدة • (المترجم)

قافلة من الجمال تغذ السير قبل المغيب ، وتختفي في منخفض من الارض يقف قبالة بوم من دبي راس هناك ، بدأ العجوز يوسف يتحدث عن رحلات التهريب التي تقوم بها المراكب من الساحل المتصالح الى « كالت » وأماكن أخرى . ومن جملة ما قاله ، ان تلك المراكب كثيرا ما تعود ، من رحلات التهريب الى فارس ، بحمولة كاملة من الرجال ، تنزلهم على أحد شواطئ البحرين المنعزلة تحت جناح الظلام ، ليجربوا حظهم في العمل كعمال في حقول النفط . ولست أدري موقف حكومة البحرين من هذا ، كما أن يوسف لا يهتم ذلك ، ولكنني لا أشك في أن هذا الامر يزعج الحكومة ، لأن وضع الايرانيين الفقراء يعتبر مشكلة حادة في تلك الجزيرة منذ بعض الوقت .

لقد قص يوسف علي أيضا قصة ذلك المركب الذي كان يعمل على ظهره ، والذي قبض عليه وهو يفرغ شحنة من البضائع الى قافلة من الجمال في الليل . فقد أرسل مع المركب ثلاثة من الجنود الايرانيين ليرافقوا المركب ويوصلوه الى ميناء بوشهر . الا ان البحارة تغلبوا على الجنود في أثناء الطريق ، وقيدوهم ، وألقوهم في وقت لاحق على شاطئ منعزل على ساحل الاحساء ، غرب الخليج . أما ماذا حدث لهؤلاء ، فلم يكن يوسف يدري ، بل هو كتفيه بلا مبالاة . ولا بد أن حركة التهريب هذه شوكة في جنب شاه ايران الذي كانت تجارة بلاده آخذة بالكساد ، والذي كان رعاياه ، ذوو الافكار المستقلة ، الناقمون على آرائه الغريبة عن تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، يهاجرون الفوج تلو الآخر ويختفون في مجاهل عمان . وقد علمت أن هناك أعدادا كبيرة من الايرانيين المنفيين أو الهاربين من بلادهم يقطنون البحرين والكويت بالإضافة الى موانئ الساحل المتصالح .

وفي هذا الوقت ، أصبح لدينا خمسة مرضى من البحارة : اسماعيل ، وعبد اللطيف المغني ، وجاسم الطباخ ، وناصر النواص ، وابراهيم قائد الدفة . وقد علق نجدي على ذلك قائلا أن نظرة واحدة من هؤلاء على وطنهم الكويت كفيلة بشفائهم جميعا ، الا أنني كنت أشك في ذلك شكاً كبيراً . فقد كان ناصر النواص ، الذي كان يفوص على اللؤلؤ منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره ، يشكو من درجة متقدمة من مرض السل ، وأصبحت أيامه معدودات ، مع أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين . لقد كانت الحياة على ظهر المراكب شاقة جدا ، فالطعام لم يكن كافيا أو مناسباً ، ولم يكن هناك مجال للراحة الطويلة ، ولم تكن الملابس كافية وكثيرا ما كانت مبللة ، كما كان البحارة معرضين دائما للحميات وأنواع أخرى من الامراض الاستوائية . ولا بد لمثل هذه الظروف أن تترك أثرها العميق على صحة البحارة . فقد كان كل من الملاحين على ظهر مركبنا ، فيما عدا شابا في السادسة عشرة ،

أشيب الشعر ، بل أن شعر بعضهم كان بلون الحديد • وكثير منهم كان يبدو عليهم الكبر ، مع أن أحدا منهم لم يكن قد تقدمت به السن • فلم يكن سالم ، الذى لم تبق فى فمه سن واحدة ، يبلغ الأربعين ، ولكنه كان يبدو فى الستين من عمره ، كما لم يكن يوسف الشيرازى يزيد عمره عن الخامسة والخمسين مع أنه كان يبدو فى السبعين • فقد كانت ثلاثة من أظافر يديه وثلاثة من أظافر قدميه مخلوعة من جذورها ، وكان هذا أمرا عاديا جدا لا يلفت انتباه أحد • ولكن نجدى ، الذى لم يكن يؤمن بالدواء غير الكى بالنار والربط بأوراق المصحف ، كان يرى أن جميع بحارته بصحة جيدة ليس بينهم مريض واحد • ففى رأيه أن الضعيف يموت صغيرا فى الجزيرة العربية ، أما من يكبر ليصبح بحارا ، فلا بد أنه صحيح الجسم معافى ، كما كان يدعى أن نظرة واحدة من المرضى على الكويت كافية لشفائهم جميعا • وقد كنت أرجو ذلك فعلا •

وفى أثناء ذلك لم نستطع التقدم كثيرا أو الاقتراب من موطن الجمال. هذا ، الذى يمكنه أن يشفى المرضى ويملا القلب بهجة وسعادة ، فقد كانت الرياح لا تزال تهب معاكسة لنا من الشمال ، أحيانا خفيفة ، وفى أحيان أخرى عنيفة وتعمل على تمزيق أشرعتنا • وكان « فتح الخير » يتراقص ويهتز فى المياه المحصورة فى الخليج العربى دون أن يتمكن من احراز أى تقدم ، وكان يفعل ذلك بعنف وبشكل مستمر ، حتى أن نجدى أصبح يشعر بكثير من التشاؤم ويقول : « يظهر أنى لن أعود حيا لأى من زوجاتى » ، وذلك عندما استمرت الظروف السيئة لليوم الحادى عشر على التسوالى ، وأعترف لى للمرة الاولى بأن شراعا رئيسيا جديدا ربما صلح به حال المركب • فقد كان دائما يدعى فى السابق بأن « فتح الخير » كان آية فى الكمال ، على الرغم من العيوب الواضحة فى شراعه الرئيسى ، التى بدأت تظهر وتزداد وضوحا مع كل هزة من هزات المركب • ولكن ما آله حقا هو أن اليوم الكبير سمحان قد سبقه وغاب عن بصره ، فأخذ يشعر بالانقباض ، عندما يخطر على باله أنه لن يتمكن من بيع الأخشاب التى يحملها ، بعد أن يكون المركب سمحان قد أغرق السوق المحلى بألف ومائتين من الاعواد التى يحملها على ظهره •

وقد استمر يتذمر ويقول : « يظهر أن أيا من زوجاتى لا ترغب فى عودتى (١) • سيفرق المركب سمحان السوق بالأخشاب • يبدو أن هذه الرياح

(١) يكرر المؤلف فى عدة مواضع أن لنجدى عددا من الزوجات • وعند الاستفهام عن ذلك من السيد أحمد البشر الرومى ، الذى كان يعرف « نجدى » معرفة جيدة ، أفاد أن الواقع أنه كانت لنجدى زوجة واحدة هى زوجته الاولى التى توفيت منذ عشر سنوات تقريبا ، بعد أن أنجبت له جميع أولاده • ومنذ سنوات قلائل تزوج للمرة الثانية الزوجة التى أصبحت أرملة الآن بعد وفاته فى مارس ١٩٧٩ • (المترجم) •

الشمالية اللعينة لن تتوقف ، • كان يقول أشياء من هذا القبيل ويكررها دون أن يؤمن بصحة أي سوى الأخيرة منها ، ولكنها جميعا كانت تسبب له القلق والازعاج • فاقترحت عليه أن نذهب الى البحرين ، بدلا من أن نبقى على هذا الحال ، وذلك بعد أن نظرت الى خرائطى ، ووجدت أنها ربما كانت فكرة صائبة أن نحاول الاطلاع على سوق الاخشاب فى البحرين ، لعلنا نوفق الى بيع بعض ما نحمله ، خاصة أن ذلك لن يزيد فى تأخيرنا أكثر مما تقوى عليه الريح الشمالية • علاوة على أن ذلك سيريحنا كثيرا من العذاب الذى نحن فيه • ثم أننا كنا قد أصبحنا فى النصف الشمالى من الخليج ، بحيث يمكننا أن نصل البحرين بالدوران على أنفسنا والاستفادة من هبوب الريح الشمالية التى لم تنقطع •

نظر نجدى الى طويلا ، وللمرة الاولى فى حياته ، وافقنى على كلامى ، على الرغم من أنه لم يكن راغبا فى الذهاب الى البحرين ، أو الى أى مكان آخر غير الكويت • وأجاب قائلا : « ان شاء الله • ما دمنا لا نستطيع الذهاب الى أى مكان آخر ، فلنتوجه الى البحرين » •

اعتقد أن ما أعجبه فى اقتراحى بالفعل هو أن يسبق المركب سمحان الى شىء لم يقم به ، فبينما يكون سمحان يشق طريقه بصعوبة بالغة باتجاه الكويت والبصرة ، يستطيع هو أن ينسل الى البحرين وربما حالفه الحظ وباع شحنته من الخشب فيها ، دون أن يجد منافسا له هناك • وكلما فكر فى الاقتراح ، ازداد اعجابا به ، فقد كان والده قد ذكر له فى رسالته بأن فى البحرين حركة عمرانية نشطة ، نتيجة للتوسع السريع لشركة النفط ، وازدياد موارد الحكومة •

وحوالى منتصف الليل ، بينما كانت الريح تعصف وتزار ، ومركبنا يملو ويهبط بعنف فى بحر مضطرب فى مكان ما مقابل « رأس نابند » ، درنا على أنفسنا مصحوبين بالطبع بالصراخ المعروف ، وبتمزيق الاشرعة • وما أن فعلنا ذلك حتى وجدنا أنفسنا نتجه بسهولة نحو البحرين • لقد قمنا بتلك الحركة عند منتصف الليل ، لكى لا ترانا أو تشعر بنا أية مراكب يمكن أن تكون قريبة منا ، فقد كان من الاهمية بمكان أن نذهب الى البحرين بمفردنا ، وألا نجد أية منافسة فى البحرين ، والا فان زيارتنا لذلك البلد ستكون بلا فائدة •

الفصل السادس عشر

ابن سعود يشاري الشحنة

ابن سعود يشتري الشحنة

بعد يومين كنا نلقي مراسينا في ميناء المنامة الضحل ، في جزيرة البحرين . وكان أول ما رأينا هناك « سمحان » بوم يوسف بن عيسى وهو يرفع علم الكويت تحية لنا . وفي داخل الميناء على مقربة من الشاطئ كان يقف بوم حامد يوسف الفارسي القادم من ديماء ، كما كان بوم عبد الوهاب خليفة الكبير قد بدأ يظهر في نور الصباح الباكر ، وهو يسير خلفنا في عرض البحر ، محملا بأعواد الخشب أيضا ، ومتجها الى الميناء نفسه . وفي خلال الايام القليلة التالية وصل نصف أسطول الكويت من المراكب العائدة الى أرض الوطن من أفريقيا ومن الهند ، بما فيها « الداو » الكبير ملك عبد الوهاب بن عبد العزيز ، وبغلة سليمان الروضان ، وبغلة ناصر بن عيسى المسماة « القطعة » - والتي لم يكن هو يدعوها بهذا الاسم - ، ومركب أخيه حمود المحمل بخشب الساج ومواد صنع الحبال قادما من مالابار ، بالإضافة الى ثلاثة أو أربعة مراكب فارسية أخرى .

عندما وصلنا الى البحرين ورأينا الميناء مكتظا بهذا الشكل ، خيمت الكتابة على نجدي ، وأعلن في الحال بأنه عازم على العودة والاتجاه الى عرض البحر ثانية ليواصل سيره الشاق صعدا في الخليج ، ويحاول أن يسبق المراكب الاخرى الى البصرة . فقد دفعت الريح الشمالية بجميع تلك المراكب الى البحرين ، كما دفعتنا نحن أيضا . ولكن يشاء حسن الطالع أن يحالفنا الحظ لأول مرة ، لأنه لم يمض على وصولنا الا ساعات قلائل ، حتى كنا قد بعنا جميع حمولتنا من خشب البناء . كما لم تجد المراكب الاخرى أية صعوبة في التخلص من حمولاتها أيضا ، وذلك لأن عبد العزيز بن سعود، ملك المملكة العربية السعودية ، كان قد زار المدينة قبل مدة وجيزة ، وترك تعليمات مع أحد الوسطاء المحليين بأن يشتري حمولة عشرين مركبا من الاخشاب الصالحة للبناء . فقد كان الملك قد بدأ برنامجا لاعداد مدينة الرياض ، ومدن أخرى في مملكته ، بعد أن زادت موارده زيادة محسوسة من بيع النفط الذي اكتشفته الشركات الامريكية في البلاد ، وكانت البحرين هي المكان الطبيعي للحصول على المعدات والمواد اللازمة لذلك البرنامج . لقد كنا محظوظين فعلا ، وشاء الله أن تكون الريح الشمالية نعمة لا نقمة . وكانت أسعار ابن سعود جيدة ، أفضل مما يمكن أن نحصل عليه في أي مكان آخر ، فقد كان الملك دائما كريما . وهكذا تمكنا من بيع حمولتنا عن طريق

وسيط ايراني بسعر عشرين روبية لكل عشرين عمودا ، ولم تكن قد دفعنا
ثمننا ، لأكبر وأفضل تلك الاعمدة ، أكثر من عشر روبيات لكل عشرين منها
فكان ربعا مجزيا ، بعد طول انتظار ، وانقلبت الرحلة فأصبحت موفقة ،
بعد أن كنا لا ننتظر منها خيرا كثيرا .

لم يكن الوصول الى البحرين بالأمر اليسير ، بل كان علينا أن نكافح
ونبحر في ظروف قاسية لكي نصل اليها . فعندما استدرنا لنتجه اليها ،
أخذت الريح تدفعنا بعيدا عن خط سيرنا ، وبدلا من أن نصل البحرين
مباشرة ، وجدنا أنفسنا مقابل شاطئ قطر ، وهي شبه جزيرة رملية ، منخفضة
تبرز الى البحر عند الزاوية الجنوبية الغربية من الخليج العربي ، تحيط
بها مياه ضحلة خضراء اللون ، تكثر فيها الحواجز المرجانية . وكانت هذه
المياه مياها خطيرة ، وقد رأينا الوهج ينبعث من رمال الصحراء خلفنا ، قبل
أن نشاهد تلك الارض الواطئة ، وعددا من الغواصين وهم يحاولون الاحتماء
من العاصفة بالحاجز المرجاني . فالريح كانت قوية في ذلك اليوم ، وأمواج
البحر عالية ، قصيرة ، عميقة ، يملوها الزبد الابيض . ولم تكن هذه
الظروف مناسبة لمركبنا القصير ، ذي الصواري العالية ، فأخذ يعلو ويهبط
ويهتز وترتجف صواريه دون تقدم يذكر . وكنا قريبين جدا من شواطئ
قطر ، مما مكنتنا من رؤية إحدى البلدان الخربة ، قبل أن نمضي في
سيرنا . وعندما سألت « نجدي » عن تلك البلدة ، أجاب بأن اسمها « زبارة »
وانها كانت مكانا هاما في يوم من الايام ، وانها الموطن الاصلي لعدد من
الكويتيين ، وكذلك لعدد ممن يسكنون البحرين الآن . ولكن المكان لم يكن
يبدو ذا أهمية الآن . ولذلك فرحت عندما انقلبنا واتجهنا بسيرنا بعيدا عن
قطر . وقد أضاف نجدي قائلا ان هناك كثيرا من المشاكل في قطر ، وانحي
باللائمة على بعض المشايخ السيئين . ولا بد أن أقول ، استنادا الى
ما شاهدت ، أن كثيرا من بلدان الخليج كانت تبطل من آن لآخر ببعض
المشايخ الظالمين .

عندما غيرنا اتجاهنا ، ويمنا وجهنا شطر الشاطئ الفارسي من
الخليج مرة ثانية ، شاهدنا بومين أمانا ، وفي الحال تعرف نجدي عليهما ،
وقال ان احدهما كان قد غادر زنجبار قبلنا بشهر كامل ، وكان هذا الأمر
مصدر سعادة لنجدي ، أما الآخر فكان من الباطنة ، متجها شمالا يحمل
شحنة من حطب الوقود . وتدرجيا بدأنا نقرب منهما ، والريح تهب علينا
حارة جدا كأنها لهيب جهنم ، ومحملة بالرمال بحيث تعطل الرؤية ، كما كان
البحر غاضبا ، مخيفا ولم يتوقف مركبنا عن التارجح الشديد ، وعن الصعود
والهبوط بعنف ، كما لم يتوقف البحارة عن نزع الماء من باطنه ، فقد كان

رذاذ البحر يغمر المركب وهو يهب علينا كأنه السحاب ، فيبطل القرد « يميد » الذي كان قد خرج من مخبئه ليراقب البحارة وهم يقومون بأعمالهم ، ويغمره بالماء ، وكان هذا ينظر حوله بمرارة ليرى من الذي سبب له البلل ، ويبدأ بالثرثرة وهو ينظر الى البحر ، وكأنه يقول له شيئاً ، ثم لا يلبث أن يزحف وهو يقطر ماء ، عائدا الى حِمَى الموقد وهو ينظر خلفه بغضب . أما القطعة فقد كانت أكثر تعقلا من القرد ، ولم تخرج قط من المكان الامين الذي كانت قد أوت اليه مع صغارها .

وقبل أن يختفي آخر شمع من نور ذلك اليوم ، وكان البحر لا يزال على هيجانه ، مررنا على مقربة من البومين الآخرين . وكان كلاهما يسيران وهما يرفعان أصغر شراعيهما الرئيسيين ، ويحرزان بعض التقدم رغم ارتفاع الموج وسوء الاحوال الجوية . لقد كان منظر المركبين لا ينسى ، وهما يصارعان الأمواج في أولى ساعات ذلك الليل المدلهم ، فكنت انظر الى شكليهما الجميلين وخطوط اجسامهما الانسيابية ، وكل منهما يمخر عباب اليم ، مرة يرفع مقدمته الفاطسة في الماء ، ومرة أخرى يرفع مؤخرته ، بينما جسمه كله يهتز اهتزازا شديدا ، ويتمايل مع هبوب الريح من أحد جانبيه ، ولكنه يبقى واثقا من امكانية متابعة سيره دون خوف من الفرق . وعندما اقتربنا منهما ، بعثنا لهما بالتحية ، وتمنينا لهما ليلة موفقة . لقد كانا مركبين صغيرين باسليين بالنسبة لتلك الظروف . وقد خطر لي في ذلك الوقت ، كما كان قد خطر لي سابقا – وأنا على شاطئ « كوالى » ، أنظر الى المركب العتيق « بدري » ، من على ظهر المركب في تلك الليلة الليلية التي قضيناها مقابل بلدة « ماليندي » ، وثانية مقابل « كيسيمايو » – خطر لي أن من المؤسف حقا ألا يقوم الكويتيون ، الذين بإمكانهم بناء مثل هذه المراكب الجيدة ، ببنائها بشكل أفضل قليلا ، بحيث تصبح صالحة للملاحة في أي وقت وتحت أية ظروف ، وألا يقوموا بتجهيزها بشكل أقوى قليلا ، على الطريقة الهندية . فلم يكن يلزم تلك المراكب ، لكي تصبح أفضل وأقوى مما هي عليه ، سوى عناية أكبر بطريقة تثبيت الاخشاب بعضها ببعض الآخر ، واستخدام انواع أفضل من الخشب ، وبناء سطح لا ينفذ منه الماء ، وتوفير احتياطات ملاحة للتخلص من الماء الزائد في المركب . فلو أضيفت هذه التحسينات البسيطة ، في رأيي ، لأصبحت المراكب الكويتية قادرة على السفر الى أي مكان . وأنا شخصيا أفضل أن أجهز مركبا كويتيا على الطريقة الهندية ، اذا كنت سأسافر على ظهره الى أي مكان آخر خارج المحيط الهندي .

وحوالى منتصف الليل ، تحسن هبوب الرياح ، واستطعنا أن نندور

على أنفسنا مرة ثانية ونيمم وجهنا شطر البحرين • وقد نجحنا هذه المرة ، ووصلنا البحرين عند فجر اليوم الحادي عشر على مفادرتنا خليج مطرح ، بعد أن واصلنا سيرنا طوال الليل • وكان هذا فعلا انجازا عظيما يقوم نجدي به ، لولا أنه لم يفتأ يفخر بذلك ويدعي عدة مرات بأن نوحدة آخر غيره لا يمكنه القيام بما قام به هو • ذلك لأن البحرين تقع في زاوية من زوايا الخليج العربي ، المملوءة بالشعاب المرجانية ، التي يحق للبشارة أن يخشوها ، كما أن المياه ضحلة حولها ، وحواجز اللؤلؤ ترتفع كثيرا بحيث تقترب من قاع المركب ، ويصبح بإمكانها فتح الثقوب به اذا مر من فوقها • ولا شك عندي بأن معظم النواخذة الآخرين لن يجرؤوا على محاولة الابحار باتجاه البحرين الا خلال النهار ، وهذا في رأيي ، عين العقل والحكمة • ولذلك فقد كان منظر نجدي لا ينسى ، وهو يغني بسعادة وقلة اكتراث وراء ظهر قائد الدفة في ذلك الليل البهيم ، بينما يواصل المركب سيره دون توقف باتجاه ميناء البحرين • ولم يكن الليل مقمرا ، ولكن السماء كانت مرصعة بالنجوم المتألثة • كما كنا نخلف ورائنا خطا من الزبد الابيض ، يقطعه أحيانا النور المنبعث من حبل الرصاص الذي كان البشارة يسبرون به غور البحر من آن لآخر ، وكانت الأشعة المنتفخة تبدو سوداء في ضوء النجوم ، وقائد الدفة منحنيا على عجلة القيادة ، بينما كان البشارة الذين لا عمل لهم ، يغطون في نوم عميق على ظهر الصناديق •

وقد دخلنا الميناء بسرعة عادية ، وكان نجدي مغتبطا جدا بما قام به ، وفخورا بنفسه ، ولكن ما أن أشرقت الشمس من وراء الافق ، ورأى ذلك العدد الهائل من المراكب التي سبقتة الى الميناء ، حتى غادرت غبطلته وانشراحه واغتم اغتما شديدا • ولم يخفف من غضبه أن أفضل تلك المراكب كانت قد غادرت دلتا الروفيجي أو ميناء لامو قبل أن تغادر نحن زنجبار بأسبوعين على الأقل • ولم تمض خمس دقائق على وصولنا حتى كان يوسف بن عيسى قد اعتلى مركبنا ، وهو يضعك بملء شذقيه كمادته ، ويروي على مسامع نجدي قصة العرض السخي الذي قدمه ابن سعود لشراء جميع الشحنات من الخشب • وقد تأكد ذلك بأن زارنا في الحال وكيل الملك يعرض شراء الشحنة • وقد تم ذلك بدون تأخير ، ومن غير فحص دقيق للبضاعة ، فلم يكن ابن سعود ممن يماحكون في عقد الصفقات التجارية • وكان الوكيل بحرانيا ايرانيا ، يرتدي قميصا أبيض اللون ، وسروالا من الحرير الاصفر تحت جلباب من القطن ، وكله حيوية ونشاط وشغف بالحياة ، ولم يستغرقه شراء الشحنة كلها أكثر من خمس دقائق • وقد فهمت أن عمولته من كل صفقة تبلغ نصفها في المائة • وكان ما اشتراه منا يزيد عن (٣٠٠) عمود ، بينما لم ندفع نحن للسلطات في دلتا الروفيجي الا ثمن

(١٥٠) • أما كيف تمكنا من شحن ضعف العدد الرسمي ، رغم كل الصعوبات والرقابة الشديدة علينا ، فهذا أمر أجهله تماما ، ولكنني خمنت أن مرشدنا المشهور « مبارك » ، الذي ذكرنا قبلا أنه سيق الى السجن في « أوتيتي » ، كان ، بلا شك ، وراء العملية كلها •

لقد كان الحر قاتلا في ميناء البحرين ، الذي كان يبدو أقل عروبة حتى من ميناء عدن • فقد كانت المنامة ميناء نشطا كثير الحركة ، ولكنه لم يكن عربيا • فقد كان يعج بالهنود والایرانیین والأمريكيين ، بينما كان العرب يغوصون على اللؤلؤ ، والایرانیون يقومون بالأعمال الشاقة • وهو ميناء حار ورطب لدرجة لا يستحق بذل الجهد الكبير لاستكشافه • فلم تكن البلدة تبدو لي أكثر من مركز تجاري لتوزيع البضائع الرخيصة السيئة الصنع الى الاحساء ونجد وإيران دون ان تتدخل سلطات الجمارك كثيرا ، وللحصول على أي أموال يتكرم الكفار المشرفون على صناعة النفط بانفاقها ، أو تبديدها هناك • وكانت هذه الاموال ، برغم كفاءة الأمريكيين ، تبدو مبالغ طائلة ، بحسب رواية العرب • فقد كانت السيارات الحديثة الانيقة تتجول هنا وهناك في سوق المنامة ، ولم تكن جميعها ملكا لرجال النفط ، بينما كان البحارة يجوبون الطرقات حفاة الاقدام ، ويجدون أن أسعار الحاجيات في هذه الايام تفوق طاقتهم على الشراء •

أما وقد تم الاتفاق على بيع حمولتنا بهذه السرعة ، فقد أعلن نجدي أننا لن نمكث في المنامة أكثر من ثلاثة أيام ، فقد كان متلفها للعودة الى أرض الوطن • وقد شاركه البحارة في لهفته ، الا أن ثلاثة أيام كاملة مضت قبل أن نبدأ في تفريغ حمولتنا • ولكن ما أن بدأ التفريغ ، حتى تم بسرعة • وقد قام بحارتنا بانزال الخشب الى الشاطئ ، مستخدمين لهذا الغرض القارب الطويل وبضعة قوارب أخرى استأجروها من الشاطئ ، وكانوا يلقون الخشب على جانب الشارع الممتد على طول الميناء • ولم يمض أسبوع على وصولنا الى هناك حتى كان ذلك الشارع قد غطي كله تقريبا بأعواد الخشب المجلوبة من الروفيجي ومن لامو وهي الأعواد التي اشتراها ابن سعود • ولكن نجدي ، الذي كان في البداية سعيدا بتخلصه من الشحنة التي كان يحملها ، عاد يشكو من مجيئه الى البحرين أصلا ، لأن ذلك أخر عودته الى الوطن • وكان يبدو كأنه غير راض عن السهولة والسرعة التي يتم بها تفريغ الحمولة ، لأن ذلك لم يكن يمثل الطريقة التي يؤدي بها العربي مهامه • وأعتقد شخصيا بأنه كان يجد متعة في المساومة على بضاعته بضعة أيام كاملة • ولكن ها نحن أولاء ، ما كدنا نصل ، حتى اعتلى مندوب الملك المركب ، واشترى البضاعة في بضع دقائق ، دون

مساومة ، ودون ذلك الشعور بالبراعة والدهاء ، الذي يحسه البائع عندما يساوم طويلا على بضاعته . ولا شك أن نجدي كان يحب ذلك ، بل أنه كان جزءا من لذة الحياة .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد بدا لي أن « نجدي » أخذ يسمح لنفسه بالاستمتاع بوقته بشكل معقول في المنامة . فقد ذهبت معه بضعة مرات الى البر ، كما زرنا بضعة مراكب أخرى ، وكان واضحا أن نوعية الحياة التي كان يحيها نواخذة هذه المراكب الكبيرة أخذت تميل الى التحسن كلما اقتربوا من الوطن . فقد كنا نذهب في القارب الطويل ، في الصباح الباكر ، حين يكون الجو باردا نسبيا - لأن التجول في المنامة بعد الساعة العاشرة صباحا ، مشيا على الاقدام ، يشبه الدخول في حمام تركي - وننزل الى الشاطئ على طرف رصيف طويل مبني من الحجارة المرجانية . وكان هذا الرصيف في طور التحسين والتطوير ، ومن هنا كانت القوارب الصغيرة ، التي تنقل الحجارة ، وهي تنساب على سطح الماء ، تسوقها أشعتها المثلثة العالية ، تمر من أمامنا واحدا بعد الآخر ، كأنها في حلبة سباق . وفي جميع أنحاء الاجزاء الداخلية من الميناء ، كان العمال يقفون عراة في الماء ، ويكسرون الصخور المرجانية ، ويحملون قطعها في تلك القوارب التي كانت تقوم بنقلها الى الرصيف . وفي طريقنا الى الشاطئ ، كنا دائما نتوقف عند المراكب الكويتية الاخرى ، ونصطحب معنا أية نواخذة يرغبون في النزول الى البر . وفي العادة كان الجميع يرافقوننا . ولكن كان يحدث ، في بعض الاحيان ، أن يكون القارب الطويل ، التابع لأحد المراكب الكبيرة ، ينتظر عند سلم المركب الى أن نمر ، وركابه على ظهره ، وحالما نمر بهم ، كانوا يندفعون لمسابقتنا . لقد كان سباقا رائعا حقا ! فقد كان البحارة يهزجون ، والمجاديف تخبط الماء فتبعث الرذاذ عاليا ، والنواخذة يقفون على رأس بحارتهم يحثونهم ويشجعونهم ، بينما يذمّون بحارة المركب الآخر ، وعرفاء البحارة يصيحون ، وقائدو الدفة يقفون بكل يقظة ونشاط وراء سكان كل منها ، وجميع من في الميناء يتفرج على السباق . وكنا دائما نتسابق مع بحارة « الداو » الكبير . فقد كان قاربهم الطويل جميلا ، يزيد طوله عن سبعة وثلاثين قدما ، يجذفه أربعون من الرجال الاشداء ، ويقودهم عبد الوهاب نفسه وهو يمسك الدفة . وكانت أفضل تلك السباقات التي كانت تجرى في المساء ، عندما تكون جميع القوارب الطويلة تنتظر عند الرصيف ، لكي تعيد كلا من النواخذة الى مركبه . وكان سبعة أو ثمانية من هؤلاء يعودون دائما ، وهم يتمشون ، قافلين من المقهى ، وكل منهم يداعب حبات مسبخته ، وحالما يصلون الى رأس الرصيف ، ينطلق كل منهم الى قاربه كالسهم ، وتندفع القوارب في الحال ، كل يحاول أن يسبق الآخر . لشد ما كان هؤلاء البحارة يجذبون مجاذيفهم ، وكم كان

الميناء كله يرجع صدى صياحهم وأغانيتهم ! وكانت المسافة الى المراكب حوالى نصف ميل ، وكانت تلك مسافة طويلة في ذلك الجو الخانق . الا أن البحارة كانوا يحبون هذا السباق ويسعدون به ، ولذلك فقد كانوا يعاودونه نهارا وليلا ، بلا انقطاع . وكنا نتعادل تقريبا مع رجال « الداو » الكبير ، فقد كان مركبهم طويلا ، رشيقا ، قويا ، جميلا . وقد أقسم نجدي ليحصلن على قارب أفضل من قاربه الحالي في الرحلة المقبلة .

أما الفترات التي كانت تمتد ما بين سباق الصباح وسباق المساء ، فقد كنا نقضيها في التجول في أرجاء السوق ، والاسترخاء في المقاهي ، وتناول الطعام في بيوت التجار ، والاستلقاء على سجادهم في البرودة النسبية للغرف الظليلة . أما السوق نفسه ، فقد كان قسيحا ومستقوفا ، وكان فيه كل ما يخطر على البال ، من البعائات العربية الجميلة ، الى الملابس الداخلية الامريكية الصنع ، ومن عطور باريس ، الى ربطات العنق الخاصة بالسهرات الرسمية ، ولذلك كان باستطاعة المرء ان يشتري أي شيء يحتاجه من سوق المنامة ، فقد كان ازدهار المدينة واضحا للعيان . الا أن المكان كان حديث عهد بالنعمة ، وكان الازدهار يعود بشكل رئيسي الى النفط ، مما جعل البحرين تنتقل من لا شيء الى أكبر ثاني عشر حقل للنفط في العالم . أما في الماضي ، فقد كانت صناعة اللؤلؤ هي الصناعة الرئيسية في البلاد ، الا أنها كانت في كساد منذ مدة طويلة : أولا ، بسبب الكساد الذي كان يسود العالم ، ولكن بدرجة أكبر ، بسبب المنافسة الحادة للؤلؤ الاصطناعي الياباني . أما الزراعة ، فقد كانت مهمة في يوم من الايام ، الا أنها الآن أصبحت مهمة بوجه عام ، وتركزت ثروة البلاد في النفط فقط . وقد بدأت أتسامل ، وأنا أتجول مع نجدي في السوق ، وأرى الحوانيت المملوءة بالبضائع ، ما اذا كان هذا الرخاء المفاجيء والعارض نعمة بالنسبة للبلاد ، ولكنني لم أعثر على واحد يقول انه يمانع في ذلك أو يعترض عليه . بل أن نجدي أجابني على تساؤلي بقوله : « ستصبح الكويت كالبحرين عما قريب » . ولكنني أجبتة قائلا : « لا سمح الله ولا قدر ! ليست الكويت مدينة عربية ! » فنظر الي مليا ثم قال : « نعم ، ولكن فيها نفطا وفيرا » الا أنه بعد لحظة أضاف قائلا : « ربما كنت على حق . فهذه المدينة ليست عربية » ، ولم يزد على ذلك شيئا .

لقد كان تجوالي في السوق مع نجدي تجربة مفيدة ، وكنت أراقبه وهو يحيي الأقارب والتجار والاصدقاء . وفي احدى المرات ، قمنا بزيارة واحد من كبار التجار ، وكان له صلة قرابة بعيدة بنجدي . وكان رجلا محترما ، قليل الكلام ، يتصرف بشيء من التعالي ، ويرتدي أفخر الملابس .

وعندما زرناه في مكتبه في السوق ، كان مشغولا في حديث مع عدد من الصرافين من « بنيان » ، وهو يحاول افهامهم بكلمات قليلة ، ليست كلها لطيفة مهذبة ، لماذا لا يستطيع الموافقة على عروضهم . وهنا ، كما كان الحال في كل مكان آخر ، جرى الترحيب بنا بتقديم الحلوى ، والشراب ، والقهوة العربية غير المحلاة ، والشاي شديد الحلاوة . وقد دعانا الرجل لتناول طعام الغداء في منزله ، الا اننا لم نلب الدعوة . وكان تعليق نجدى على الرجل : « انه تاجر وأن التجار قوم خلاط القلب ، كل مهمهم جمع المال » . فسأله : « وماذا عن النواخذة ؟ » . وكان جوابه : « النواخذة لهم البحر . أما المال فهو لمراكبهم » .

أمضينا بعض الوقت في مكتب ذلك التاجر ، ولكن ما لبثنا أن أخذنا نتجول في الازقة الضيقة التي تقع خلف السوق ، حيث كانت الحمير تجرى ، وهي محملة بجميع أنواع البضائع ، وأصحابها يركضون خلفها وهم يصيحون : « أفسحوا الطريق ! أفسحوا الطريق ! » ثم قمنا بزيارة بعض المكاتب الاخرى ، وكانت أقل أهمية من المكتب الاول . ورأيت فيها العرب الوقورين الجادين يجلسون الى مكاتبهم لا يفعلون شيئا ، بينما كان عدد من أتباعهم يجلسون على المقاعد الطويلة يحملون بأصحاب المكاتب ولا يفعلون شيئا أيضا . وكانت هذه المكاتب غرفا عارية ، لم أستطع أن أكتشف نوع التجارة أو الاعمال التي كانت تقوم بها . وقد أخبرني نجدى بأن هؤلاء كانوا وسطاء ، وقد بدا لي أن أى تاجر في الجزيرة العربية يستطيع أن يصبح وسيطا ، اذا لم يكن باستطاعته أن يفعل أى شيء آخر .

وكان الحديث في تلك المكاتب ، التي كنا نزورها زيارات مجاملة ، دائما يدور عن الاعمال التجارية ، ولم يكن نجدى يشارك فيها أبدا . الا أننا ، عندما كنا نتمشى في السوق أو على الشاطئ ، كنا كثيرا ما نلتقي بعدد من النواخذة الآخرين ، وكان الحديث يدور معهم طبعاً عن المراكب ، وكان نجدى دائما يدلى بدلوه . وكان ، في هذه المواقف ، يعود الى وضعه الطبيعي ويصبح رجلا كاملا واثقا من نفسه ، بينما كان يصغر ويتقلص عندما يكون في مكتب أحد التجار . ولم أكن قد لاحظت من قبل كم كان نجدى صغير الحجم ، ولكنى أدركت ذلك عندما كنت أراه وهو يتكلم بأدب على كرسى أحد التجار ، ولم ينفع في هذا الموقف جلبابه الحريري الممتاز ، ولا عباؤه المطرزة الرائعة في رد اعتباره لنفسه وكان نجدى حريصا على أن يرتدى أفضل ما لديه كلما نزل الى البر ، فكان يلبس جلبابه الحريري الموشى بخيوط الذهب ، وكوفيته البيضاء المخططة بالذهب أيضا ، والتي يمسكها في مكانها عقال من الصوف العجمي الاسود ، علاوة على نعله

المصنوع باليد والمزين باللونين الاخضر والاحمر ، وسبحته المصنوعة من
أفضل أنواع الكهرمان .

عندما كنا نلتقى مع النواخذة ، كنا سرعان ما نتجه الى المقهى ، وكان
هذا هو نفس المقهى دائما ، وكان مقهى فسيحا ، يقع فى عمارة الهلال على
الشاطيء ، وكانت شاة سوداء كبيرة تدخل الى المكان وتخرج منه وكأنها
من أهل البيت ، بينما كانت الجدران مغطاة بصور غريبة . وكنا دائما
نقضى الوقت فى أحاديث البحر وتدخين النرجيل . وكانت صور الجدران
تتألف من صور بعض الشيوخ ، وصور بعض الفتيات المصريات الجميلات
ذوات العيون الجريئة ، وبين هذه وتلك ، صور دعاية لفتيات يدخن السجاير
الاميركية ، وبعض الصور الهزلية المقطوعة من احدى جرائد يوم الاحد
التي تصدر فى شيكاغو . أما الصورة الرئيسية ، فقد كانت صورة فظيعة
ملونة، يظهر فيها بعض الشرقيين وهم يعذبون النبى عيسى بن مريم . وفوق
هذه ، كانت صورة مطبوعة لشاه ايران ، وكان يجلس تحتها ، فى احدى
زوايا المقهى ، عدد من الايرانيين وهم يتذمرون من تصرفات حكومتهم .
وفى ركن آخر كان هناك جهاز حاك يزعق ، وعدد من العرب متكئين على
المقاعد الطويلة ، وهم يشربون الشاي ويدخنون السجاير . وكان نجدى
عادة يخلع نعليه ، ويبدأ بالحديث الجاد عن احدى نواحي الرحلة التى نقوم
بها . وهكذا كنا نقتل الوقت فى هذا المقهى ، لأن الوقت فى المقاهى العربية
لم يكن يعنى شيئا لا للزبائن ولا لصاحب المقهى ، فبإمكانك ، اذا شئت ،
أن تنام أو تقضى النهار وأنت تلعب احدى لعب النرد الشائعة .

وفيما بعد كنا نتناول طعام الغداء فى مطعم عربى يقع على الناحية
الاخرى من الشارع ، حيث يقدم وجبات شهية من اللحم والسمك والخضار
واللبن الرائب . وبعد ذلك ، كنا عادة نعود الى المقهى لنسخن نارجيلة
أخيرة ، قبل أن نعود أدراجنا الى المركب لننام قليلا . وهناك كنا نقضى
القيولة حيث الحرارة فى أوجها . وعند العصر ، كان النسيم يتسلل بلطف
الى مكان رسونا ، فيوقظنا لتناول الشاي وأداء الصلاة . ومرة ثانية ، كان
الحديث يدور حول المراكب والمغامرات البحرية ، بينما كل منا يداعب حبات
مسبحته ، ويدخن نارجيلته ، ويشير بيديه لتوضيح حديثه . ولم يكن نجدى
يهدأ أو يمل من الحديث ، وكثيرا ما كان يقص على مستمعيه ما حدث له
خلال الرحلة ، وكيف كان مركبه يؤدي مهامه على خير وجه ، بل أنه كان
يروى بعض الاحداث البحرية العظيمة التى لم تحدث على الاطلاق . وكنا
أحيانا نتحدث وننام على ظهر هذا المركب ، وأحيانا نفعل ذلك على ظهر
مركب آخر ، فلا فرق ولا تفريق ، فقد كان النواخذة يتناوبون فى استضافة

بعضهم بعضا • وكان الجو العام رائعا ، والجميع يؤدون أعمالهم وضيافاتهم وتصرفاتهم دون أدنى تكلف • فعندما كنا نعتلى ظهر أحد المراكب ، لم يكن بإمكاننا أن نعرف متى نغادره ، فربما طاب لنا المقام ، وامتد بنا حتى صباح اليوم التالي ، بل وربما لليوم الذى يليه •

وأجد هنا من واجبى أن أعترف أن من السهل على التوخذة العربى أن يبدي كرم الضيافة العظيمة هذه دون استعداد مسبق ، لأنه لم يكن بحاجة أن يعد فراشا لضيوفه ، أو عددا اضافيا من الكراسى حول المائدة • فقد كان بإمكان الجميع أن يفتروشوا سطح المركب ، ويلتحفوا نجوم السماء • أما الطعام ، فلم تكن هناك حاجة لاعداد القدور أو المواعين الاخرى له ، بل كان الارز واللحم يقدمان على طبق واحد كبير يتسع لنصف دزينة من الايدي الاضافية • ومع ذلك فلم أستطع أن أمتنع عن التفكير بأن هؤلاء القوم كانوا فعلا يقدمون لنا ضيافة حقة • ولم يكن هناك وجه للمقارنة بين ما يفعله هؤلاء وما نفعله نحن فى الغرب •

أصبحنا فى آخر يوم من أيام شهر مايو (أيار) وما زلنا راسين قبالة المنامة ، وعلى الرغم من أن البوم أصبح خاليا من الحمولة ، فلم يكن هناك ما يشير الى أننا سنغادر الميناء قريبا • ولكن ذلك لم يكن يقلق أحدا • فقد كان كل يوم بالنسبة لنا خلقا جديدا نحاول أن نهنا به ، أما الغد فلا مدعاة للقلق عليه ، فسيأتى ومعه خيره • ولكن بعض البحارة أصبحوا متشوقين للسفر والعودة الى أرض الوطن ، فقد كان بعضهم ينوى أن يتزوج فى الكويت ، كما كان خليفة ، مدير الدفة ، قد قابل رجلا على البر نقل اليه خبر ولادة ابن جديد له ، أصبح الآن فى الشهر السادس من عمره ، ولكنه لم يشاهده بعد ، لذلك فقد أسعده أنه سيرى ابنه الجديد عندما يصل ، وأصبح يقوم بعمله بنشاط مضاعف • الا أن الايام كانت تمر ونحن واقفون فى مرسانا ، وكانت تصلنا أخبار كثيرة عن الكويت عندما ننزل الى السوق ، وقد أجمعت جميع الروايات على أن الحالة رائقة والاعمال مزدهرة هناك ، وأن مثيرى الفتنة يقضون بقية أعمارهم القصيرة فى سجون الشيخ التى لا أمل فى خروجهم منها وهم على قيد الحياة • كما علمنا أن أخبار النفط مشجعة ، رغم أنها ما زالت فى مراحلها الاولى ، وأن ابن سعود قد رفع الحظر الذى كان يفرضه على تعامل بدو مملكته مع الكويت ، وسمح لهم بالاتجار مع أهل الكويت بكل حرية • لقد كانت معظم الاخبار عن العالم العربى تنتقل بالسماع ، ولكنى دهشت للسرعة الكبيرة التى كانت تتناقل بها ، علاوة عن أنها كانت دقيقة فى معظم الأحيان •

لم نسمع ، منذ أن غادرنا زنجبار ، عما حصل للبغلة « بدري » ، التى

يقودها بدر صديق نجدى ، الا أن هذا لم يبدر منه ما يدل على أنه كان قلقا على مصير ذلك المركب . وفى ذلك اليوم ، الاخير من شهر مايو ، خرجت من المركب مبكرا فوجدت نجدى على ظهر يوم حمود بن عبد اللطيف ، الذى كان قد وصل مؤخرا من الهند ، وقد جلس على السجادة المبسوطة على سدة النوخدة يدخن النارجيلة ، وأمامه طبق من الحلوى ، وقبالتة على الرحوية ، يجلس بحار زنجى يسليه بالعزف على القيثارة . وكان يوم حمود موسوقا بالحبال ، والخشب وبخاصة خشب الساج ، والخيزران ، والصناديق ، والكراسى ، وفوق ذلك كله عدد من القوارب المصنوعة من جذور الاشجار المجوفة . وكان قد مر على المركب اثنان وخمسون يوما منذ أن غادر ساحل ملابار فى الهند الى أن وصل مسقط ، وهذا يدل على أن سير المركب كان بطيئا . ولكن لما كان قد أمضى عشرين يوما ليصل من مسقط الى المنامة ، فقد استنتجت أن المركب بطيء فعلا ، أو أن قيادته كانت سيئة ، لأن المدد التى ذكرتها مدد طويلة جدا . ومع نجدى وحمود وجدت أيضا ناصرا ، شقيق حمود ، وقائد البغلة « القطعة » ، وكان هذا رجلا صغير الحجم ، قصير القامة ، ذا شاربين ضخمين ، يقهقه بصوت عال لأية نكتة سواء كان هو قائلها أو سواه . لقد كان رجلا صغيرا ، مرحا ، لا يزيد طوله عن خمسة أقدام ، متناسب تماما مع (القطعة) التى كان يقودها . ولكنه لم يكن ينظر الى بغلته على أنها صغيرة ، أو شبيهة بالقطعة . وكان من المفروض أن يكون اطلاق اسم القطعة على تلك البغلة نكتة عظيمة ، ولكنى لم أستطع أن أفهم النكتة ، كما لم يستطع ناصر أن يفهمها ، رغم أنه ذواق للنكت ، محب للمزاح . وكان هو يدعو بغلته « سيدة البحار » ، أو اسما رنانا طنانا بهذا المعنى ، ولكنها لم تكن كالقطعة بأى حال من الاحوال ، رغم أن الجميع من النواخذة الى البحارة ، كانوا يعرفونها بهذا الاسم . وكانت هذه مركبا صغيرا جميلا يتسع لألف وثمانمائة جلة من تمور البصرة ، وكانت لها مؤخرة محفورة بأشكال جميلة ، ورغم أن عمرها كان يزيد عن خمسين عاما ، الا أنها كانت سليمة وقوية ، كما كانت أفضل البغلات الكويتية الباقية على قيد الحياة ، وكنت ، لذلك ، أنظر اليها باعجاب واهتمام . فقد كنت لا أزال أقلب فى ذهنى فكرة محاولة انقاذ احدى تلك البغلات من الاندثار ، بأن أبحر بها برحلة عبر المحيط الاطلسى ، وكانت « القطعة » تبدو مثالية لمثل هذه المغامرة . ولكنى لم أذكر شيئا عن ذلك لأحد ، فأمامى فى الكويت فرصة كافية لفحصها فحسا دقيقا عندما تسحب وتوقف على الشاطئ هناك مدة ثلاثة شهور كاملة .

وكنا أحيانا ، بدلا من أن نعود أدراجنا الى المركب لننام القيلولة ، سنقضى تلك الفترة فى شقة تاجر كويتى شاب يدعى بدر السابر ، فى بناية

الهلالى • وكانت هذه الشقة تطل على الشاطئ كما تطل على جزء من السوق ، وكانت حركة الحياة فى كليهما تسر الناظرين • ولم تكن خمس دقائق تمر على دخولنا الى هناك ، حتى يكون عبد الوهاب ، ونجدى ، وحمود ، وناصر ، وعبد الله القطامى ، ورجل ايرانى يبلغ الستين من العمر كان قد وصل لتوه فى مركبه الضخم عائدا من لامو ، - حتى يكونوا جميعا قد استلقوا على السجاد وراحوا فى سبات عميق ، وقد غطى كل منهم رأسه بكوفيته ، واستند الى ذراعه المغطى بالشعر الغزير ، بينما أخذ شخيرهم يهز أرجاء الغرفة • وكان وقت القيلولة يمر خفيف الظل ونحن نيام ، وعندما تنكسر حدة الحر عند العصر ، تدب الحياة ثانية على الشاطئ وفى السوق • فكنا نرى قطمان الاغنام الكويتية السمينة ، وهى تنزل من بوم صغير الى الرصيف وتساق من هناك الى حيث تذبج ، فتصبح لحما سائغا للأكلين من أهل البحرين • كما كانت هناك أرتال الحمير بأجراسها التى لا تنقطع عن الرنين ، وهى تهول محملة ببالات الجلود ، أو أكياس الارز، أو جلل التمر ، كما كنا نرى مجموعة من الايرانيين ذوى الاصوات العالية المنكرة ، وهم يرتدون السراويل والقلانس الروسية الرهيبة ، ويتناقشون مع رجال الجمارك بشأن ادخال عدد من رزم السجاد المنوعة • كما كانت جميع أجهزة الحاكي الموجودة فى السوق تنطلق من عقالها معا - وهكذا كانت الحياة تعود الى المنامة ، وتعود تلك القوارب الصغيرة الى حمل الصخور المرجانية الى طرف الرصيف لزيادة طوله ، بينما ترى ، على البعد ، مراكب الفواصين عائدة من مهمتها فى البحر ، والسمايك والجلابيت عائدة من الاحساء •

وكان يتجمع فى الشوارع جمهور مختلط من أبناء الشرق • فكان هناك الايرانيون ، بعضهم يرتدي ما تسمى بالملابس الاوربية فى بلادهم ، والبعض الآخر يرتدي الجلابيب والعمائم الملفوفة بعناية ، كما كان هناك اناس من « بانيان » ومن البنجاب وعدد قليل من بلوخستان ، علاوة على العرب من عمان ، والساحل المتصالح ، والاحساء ، ونجد ، والكويت ، وقطر ، والبحارة الزنوج الاشداء من الكويت وهم يؤرجحون مسابيحهم ، ويخطرون كالرجال الحقيقيين ، والبدو ذوو الشعور الطويلة القادمون من البادية ، والمساجين يرسفون بأغلالهم وهم يسىرون فى الشارع ومن خلفهم حراسهم ، وواحد أو اثنان من الصوماليين النحيل الجسم ، الطوال القامة ، المحبين للشغب والصخب ، الحريصين على استقلالهم فى الرأي والتصرف • وقد زارني احد هؤلاء فى بيت بدر ، وكان يدعي أنه شاعر ، وأخذ يتلو شيئا من شعره الذى أصغى له الجميع اصغاء تاما • ويبدو أن موضوعه كان يدور حول مقاومة الاحباش للهجوم الايطالى على بلادهم ، فكان الجميع

يشنون على ما يسمعون بترديدهم كلمة « طيب » . ولكن الشعر كان ، لسوء حظي ، فوق مستوى طاقتي على فهم اللغة العربية ، التي كان حتى الكلام العادي بها صعبا علي . وربما كان الشعر جيدا ، لا أدري ، الا أن الشاعر نفسه لم يبد لي صوماليا جديرا بالاحترام . وعلى كل حال ، فقد ناولناه اكرامية ، وذهب في حال سبيله ، وهو يرتدي صدرية ذهبية اللون ، ومعطفا من الخام ، بينما تمشيينا نحن عبر الساحة متجهين الى الحمامات الايرانية خلف المنزل ، على مقربة من بستان الفاكهة . وكانت هذه الحمامات رحبة وصالحة للسباحة ، وقد القينا بأنفسنا فيها ، وسبحنا ساعة من الزمن . وكان العجوز عبد الوهاب بن خليفة ، الذي كان ضخما قوي الجسم ، يسبح برشاقة سبع البحر ، مع أنني كنت أتوقع أن يعوم بثقل كالخوت . وكثيرا ما كانت البركة تمتلئ بالنواخذة يطرحشون ويلعبون كالأولاد . لقد كان المكان جيدا ، تهب عليه الروائح العطرة من الرياض ، ومن أزهار الشجر ، يحملها نسيم البحر . الا أن الطقس في الخارج كان رطبا بشكل مخيف ، بحيث ان المرء يسبح في العرق حتى لو وقف جامدا لا يحير حراكا . وعلى وجه الاجمال ، فقد كان نواخذة المراكب العربية الكبيرة يحاولون الاستمتاع بأوقاتهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

وبهذه الطرق المختلفة التي ذكرتها ، كانت الايام في المنامة تمر هائلة ، ولم أعد اتطلع كثيرا لنهاية الرحلة . فقد كانت البحرين آخر موقف لنا ، وبعدها تأتي الكويت مباشرة . وعلى الرغم من أن ربح « الشمال » كانت لا تزال تهب بعنف ، الا أن أيامها الاربعين قاربت نهايتها . فقد ذكر لي نجدي أنها كانت أحيانا تواصل الهبوب مدة عشرين يوما ، ثم تتوقف عشرة ، ثم تعود الى الهبوب بقوة أكبر من ذي قبل مدة أربعين يوما أخرى . وكان يرغب في الانسلاخ من المرسى والجري الى الكويت في أي وقت تتوقف فيه ربح الشمال ، ولو مؤقتا ، عن الهبوب ، فبقية الرحلة لن تستغرق ، في رأيه ، أكثر من يومين بالطريق المباشر فوق الصخور المرجانية . فكان لذلك دائم اليقظة ، يراقب الطقس والرياح مراقبة مستمرة ، رغم انه كان يقضي أياما هنيئة هادئة في المنامة ، وكان مستعدا للاقلاع في خلال خمس دقائق . ولكن ، سواء كانت الريح تهب أو تسكن ، فلم يكن بإمكاننا الاقلاع بمثل هذه السرعة ، لأننا لم نكن قد تسلمنا ثمن البضاعة بعد . ولكن لم يكن هناك داع لأن نقلق من هذه الناحية ، فسيدفع لنا المال ان عاجلا أم آجلا ، فلم يكن في كل الجزيرة العربية من يدفع المال المستحق عليه أفضل من الملك عبد العزيز .

في إحدى المرات ، ذهبنا لزيارة حوض صناعة المراكب ، وهو مكان صغير يقع على أحد اطراف المدينة ، فوجدنا ان صانعي المراكب ومساعدتهم

يكسبون مالا من صنع النماذج الصغيرة وبيعها لرجال النفط الامريكان أكثر مما يكسبون من صنع المراكب الحقيقية وبيعها الى الملاحين العرب . ويبدو أنهم كانوا فيما مضى يصنعون نماذج متقنة جدا ، الا أن كثرة عدد الزبائن ، الذين لا يميزون بين الفث والسمين ، وكثرة الطلبات ، كان لهما تأثير واضح على مستوى الصناعة . فقد كانت النماذج التي رأيتها سيئة ، على الرغم من أن المراكب الحقيقية التي كانت تقف هناك غير مكتملة الصنع ، كانت في منتهى الجمال . وكان بعض من هذه يقف هناك منذ أربع سنوات أو خمس ، فلم يكن لها سوق رائجة ، وكان حال البحارة سيئا . وكانت أفضل الأعمال تشتمل على توزيع البضائع الى الأحساء ، والتهريب الى ايران ، الا أن تجارة اللؤلؤ ، التي هي عصب الاقتصاد للبلاد ، قد تقلصت الى حوالى النصف .

وبالإضافة الى هذه الزيارة ، وتمضية للوقت ، قمنا بزيارة الآثار البرتغالية . كما تناولنا طعام الغداء مرة مع أحد الايرانيين في بلدة المحرق . وكان الطعام من اللحم والدجاج والسمك والفاكهة ، مبسوطا فوق السجاد ، على سطح المنزل ، تحت ضوء القمر ، وكنا من هناك نرى مراكب الماء ، وهي تضخ الماء العذب من الينابيع الواقعة تحت البحر . كما كنا نقيم اللوائح ونحضر غيرها ، ونسمر وحدنا ومع الآخرين ، ونتجول في السوق نتفرج على الحياة في البحرين . ففيما كان بحارتنا يعملون ، كنا نحن نتمتع بأوقاتنا .

وقد قمنا أيضا بزيارة حقول النفط . وهي قطعة من تكساس مقامة في وسط البحرين ، حيث الطقس أشبه بنار جهنم . ومع أن الامريكان كانوا يسكنون في أكواخ مكيفة الهواء ، الا أنه لم يكن ممكنا بالطبع تكييف المنشآت الخارجية ، وكان الانتقال من الخارج الى داخل تلك الأكواخ كالانتقال من الصحراء الى برد شيكاغو ، وذلك بمجرد أن تفتح الباب ، وكان الانتقال المفاجيء غير المتوقع مخيفا . وكان حقل النفط مكانا شاسعا ، حسن الإدارة ، ولكنه كان يبدو لنا ، نحن أبناء البحر ، مجموعة رهيبة من الخزانات الهائلة الحجم ، والمراحل الضخمة ، والانابيب المعدنية الغريبة ذات الاشكال المعقدة ، يشرف عليها رجال يمكن أن يكونوا قد أتوا من كوكب المريخ ، رغم الأمور المشتركة التي تجمع بينهم وبين من حولهم من العرب . وقد شاهدنا كل شيء الا النفط ، مع أنهم كانوا يشحنون منه كميات هائلة تصل الى عشرات الألوف من البراميل يوميا . كما لم نر أية براميل أيضا ، الا أننا شاهدنا ناقلات النفط وهي تعبأ بالنفط لتنقله الى الخارج . وكان النفط من الناحية الجغرافية ، يخص البحرين ، كما كانت

الأرباح التي تجنى منه تنعكس رخاء على البلاد ، ولكنه في الحقيقة كان يمكن أن يكون في المكسيك أو فنزويلا . وكان الحقل معزولا عن سائر الجزيرة بالأسلاك الشائكة . ولكنه كان منعزلا بحد ذاته دونما حاجة الى تسوير .

وكان من الممكن أن يقف المرء على مكان مرتفع في إحدى الأمسيات الصافية ، ويشاهد حقل النفط القريب الواقع على البر الأصلي التابع للعربية السعودية ، والذي لم يكن يبعد عنا أكثر من عشرين ميلاً . وهناك كانت تقوم مدينة أخرى مكيفة الهواء ، يسكنها رجال النفط القادمون من تكساس وجنوب كاليفورنيا ، ويضخون الذهب السائل من باطن الأرض . وقد علمت أن ابن سعود نفسه كان قد زار المكان قبل بضعة أيام خلت ، بمناسبة شحن أول كمية كبيرة من النفط من الميناء الجديد في رأس تنورة . كما أنه كان قد قدم الى البحرين بدعوة من شيخها ، صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى الخليفة ، قبل بضعة أيام من وصولنا الى البلاد . وقد أسفت لعدم تمكننا من رؤية الملك السعودي ، الذي كان الكويتيون وسائر العرب الآخرين يكتنون له كثيراً من الاحترام . وقد روي لي كيف أتى الى البحرين في قافلة مؤلفة من (٣٠٠) عربية شحن كبيرة و (٢٠٠٠) من الجنود البدو ، الذين كادوا أن يأكلوا الأخضر واليابس ، فقد قيل أن كلا من أولئك البدو قد استهلك خلال إقامته في البلاد نصف دسسته من الفهم ، وصندوقين من عصير الاناناس .

وفي هذا الوقت الذي كنا خلاله في البحرين ، كان النفط يدر على البلاد ما يقرب من خمسة ملايين روبية سنوياً ، يذهب ثلثها الى الأسرة الحاكمة . وقد رأينا أبناء الحاكم بالفعل وهم يسرحون في البلاد في أحدث السيارات الأمريكية ، التي كانت تحتوي على أبواق الشرطة التي لا تنقطع عن العويل . أما مدى دلالة مثل هذا التصرف على المستوى الثقافي المتدني ، فعلمه عند الله ، وقد كان البعض يقول بذلك . كما كان نجدني يسخر من أولئك الشيوخ الصغار وهم يزعجون الناس بأبواق سياراتهم .

وكان نجدني يصيح قائلاً : « ما هذه الضجة ! انها مزعجة فعلاً ، ليست الطبول الفارغة هي التي تصدر أعلى الاصوات ؟ » وكان يضيف قائلاً ان البحرين قد تغيرت في السنوات العشر الماضية بحيث لم يعد بإمكان المرء أن يتعرف عليها ، وإن كان يقر دائماً بأن ذلك التغيير كان نحو الأفضل . الا أن حقل النفط ، وأبراج الآبار العالية ، والسيارات التي تمر بسرعة كبيرة ، كل هذه كانت تذهله وتقلقه . وكان يشكو من أنه

لم يشاهد أحدا في السوق لا يرتدى على الأقل بعض الملابس من صنع أوربا .
وحتى النساء أصبحن يرتدين الجوارب والاحذية ، وكان يتساءل : « ما الذى
دها العرب ؟ ولماذا يقلدون الاوروبيين كالقردة ؟ » ، ويضيف قائلا : « ان
النساء سيخرجن بدون حجاب فى وقت قريب جدا ، كما سيهمل الرجال تأدية
الصلاة » . وكنت أخشى أن يبدأ نجدى محاضرة دينية ، كلما بدأ حديثا من
هذا النوع ، فكنت أتخلف عنه قليلا ، وأرافق العجوز عبد الوهاب ، الذى
كان يقبل الامور على علاقتها ، فينظر الى الامور بكل هدوء ، ولا يعلق عليها
بكلمة واحدة .

وفى يوم قائط من أيام الاسبوع الاول من يونيو (حزيران) أتى أحمد
برفقة وكيل مركبنا ، وهما يحملان كيسا فيه ستة آلاف روبية ثمننا لاختابنا .
وقد أقلعنا فى نفس المساء . فعندما سكنت ريح الشمال ، لم يكن هناك مجال
لإضاعة الوقت . وكان ثقل التوازن (الصابورة) يتألف من الصخور المرجانية
التي كان البحارة قد قطعوها من قاع الميناء ، وكسروها ونقلوها الى المركب
على ظهر القارب الطويل . فبينما كان النواخذة يستمتعون بأوقاتهم فى
المنامة ، كان على البحارة أن يقوموا بكثير من الاعمال . وكنا ما زلنا نحمل
بعض جوز الهند ، وخمس أكياس من القرنفل . أما باقى السلع ، فكانت قد
بيعت كلها .

خرج نجدى بمركبنا من الميناء ، ومعه مجموعة من النواخذة . وكان
ذلك فى المساء المنخفض الحرارة ، وأقلعنا فى الحال ، دون كبير استعداد ،
بينما كان البحارة فى غاية الانهماك ، وهم تارة يسبحون فى عرقهم ، وتارة
أخرى يقطرون من ماء البحر وهم يقفزون فى الماء لكى يخلصوا المرساة من
الصخور المرجانية ، أو لينظفوا الكابل ، ثم يتسلقون المركب ثانية لينشروا
الشراع . وقد رفعنا قواربنا الى السطح ونحن نقلع ، كما ساعدنا رجال
« الداو » فى شد الحبال لرفع العارضة ونشر الشراع . وسرعان ما فارقونا
عائدين الى قاربهم ، وقاموا هم وباقى البحارة على المراكب الاخرى بتحيتنا
تحية الوداع ونحن نمر بهم . وكانت الريح مؤاتية ، ولكنها خفيفة جدا ،
وبدأنا نستجمع قوتنا ونزيد سرعتنا قليلا ، وقد رافقنا فى اقلاعنا بومان
آخران ، وهما يوم حمود ويوم منصور الفارسى ، كما خرجت معنا بغلة ناصر
« القطسة » .

خرجنا ببطم عبر المياه الضحلة متجهين الى الكويت بالطريق المباشر ،
فقد اشتد بنجدى الحنين الى وطنه . وكان الطريق المباشر من البحرين الى
الكويت يمر فوق مياه ضحلة وصخور مرجانية ، وعقبات خطيرة . وكان علينا ،

على ما أعتقد ، أن نبعد عنها كثيرا في الظروف العادية ، الا أن نجدى كان قد سمع بأن زوجته مريضة جدا ، ربما من آثار الولادة ، ولذلك فقد كان عازما على قيادة المركب الى الكويت بأقصر الطرق .

ثم بدأت الريح تنشط قليلا ، وزادت سرعة المركب ، وبدأ السرور والانشراح على البحارة جميعا . فها نحن ، بعد أشهر طويلة ، متجهون الى أرض الوطن ، نحمل معنا ستة آلاف روبية في صندوق النوخدة ، وتساعدنا على السير ربيع معتدلة مؤاتية .

الفصل السابع عشر

نحدي يغذُّ السَّير إلى الوطن

نجدى يغذ السير الى الوطن

لقد كانت اندفاعتنا من البحرين عبر الشعاب المرجانية الى الكويت اكثر اجزاء الرحلة كلها اثارة ودرامية . فعندما طلع نهار اليوم الثانى لاقلاعنا ، لم يكن هناك مركب واحد فى مرمى البصر . وكنا تبحر فى بحر ضحل ، بين عدد من مراكب الفواصين الصغيرة التى كانت ، عندما مررنا بها ، مملوءة بالبحارة الجالسين على أسطح مراكبهم ، وهم يفلقون المحار . وبموجب قول نجدى ، كانت تلك المراكب تكون أسطول القطيف ودارين ، وقد تقلص عددها بسبب الكساد . تبادلنا التحيات مع أولئك الفواصين ونحن نمر بحذائهم ، وسألناهم عن حالهم وعن صيدهم، ولكنهم لم يجيبوا الا بالعبارة المعهودة « الله كريم » . وعندما سألهم نجدى ما اذا كانوا قد شاهدوا أية مراكب كبيرة أخرى ، أجابوا بالنفى ، وأضافوا قائلين أن ثلاثة مراكب أو أربعة كانت قد مرت بهم قبل مرورنا ببضعة أيام ، الا أن نجدى كان مصرا على أنه لا يمكن لأى منها أن يكون قد تجرأ وأبحر عبر تلك الحواجز المرجانية . ومما يجدر ذكره هنا ، أن الجانب الغربى من الخليج العربى ، الممتد من البحرين الى جوار الكويت ، مملوء ببقايا المراكب المحطمة الفارقة لأن المنطقة تعج بالشعاب المرجانية ، وبالجرف ، وبالرمال المتحركة على امتداد مائتى ميل ، كما انه لا توجد خرائط تفصيلية دقيقة لتلك المنطقة ، وذلك لأنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة للسفن التجارية الكبيرة ، الا انى علمت من نجدى أنه كان يفوص على اللؤلؤ هناك منذ كان طفلا .

وكان كل رجل على ظهر المركب يعرف هذه المياه معرفة تامة ، فلم يكن بينهم من لم يبحر فيها عشر سنوات على الاقل . وكان نجدى يعرف كل جرف ، وكل تيار ، وكل نقطة رملها منخفض . وكنا نسبر غور الاعماق باستمرار ، وفى كل مرة نضع مادة لاصقة فى المسبر ، مع أننا لم نكن نفعل ذلك قط حتى الآن . فكان البحارة يضعون شيئا من دهن الجمال فى ثقب مفتوح بطريقة بدائية فى قاع المسبر ، وكان نجدى يفحص فحصا دقيقا الحصى والرمل والصدف التى كانت تعلق به . وكان يبدو قادرا على تحديد خط سيره بهذه الطريقة ، كأنه كان يقرأ الاشارات الموجودة على جانبي الشارع فى احدى المدن . وكنا أحيانا نسير بطريقة ملتوية تاركين وراءنا أثرا يشبه التواء الثعبان ، مع أنى لم أكن أرى الطريق الآمن الذى ينبغى أن نسلكه ، أو أميز بين الاماكن التى يبلغ عمق الماء فيها قامتين من تلك التى يبلغ فيها قامة واحدة .

ولم يكن بإمكاننا أن نرى البر كثيرا ، لأن ساحل الاحساء منخفض ، ولكن نجدى كان يعرف كل شبر من البحر ، وكل مركب صغير نشاهده ، وكل اختلاف ، مهما كان صغيرا ، فى قاع الخليج • وكان هذا أوج الملاحه المحليه • وكنت أراقب نجدى باهتمام وأغبطه على تلك الخبرة ، فلم يكن باستطاعته أن أقوم بما يقوم به ، ولو بعد عشر سنوات من الابحار والفوص على اللؤلؤ ، وحتى لو توافرت لى جميع الآلات اللازمة ، من آلات قياس الابعاد ، الى الجداول ، الى آلات قياس الزمن ، الى المساطر الحسابية وغيرها • لقد كانت هذه الملاحه تعتمد على النظر وعلى الخبرة الفردية ، وكان تلك المقدرة أصبحت غريزية • ولكى يتمكن الملاح من الابحار بهذه الطريقة ، فان عليه ألا يحشو رأسه بمعلومات من الكتب ، وربما كان نجدى على حق فى احتقاره لوسائلنا وأساليبنا • فقد كان يقول أن عملا من نوع عمله يتطلب الاستعانة حتى بلون السماء ، لأنه ، كما يقول ، يستطيع أن يلحظ فيها تغيرا فى اللون فوق الاماكن الضحلة ، ولكن ما كان يدهشنى حقا هو تلك المقدرة الواضحة على معرفة اتجاه الرياح والمد والجزر ، والتنبؤ بها • فلم يكن لديه جداول تساعد على ذلك ، بل ولم يكن يعرف حتى تاريخ اليوم وكان يكتفى بالقمر، حسب قوله — بالقمر والنجوم ، وأحوال البحر •

تابعنا سيرنا ذلك الصبح بمساعدة ربح خفيفة ، وكان نجدى يبدو ، لأول مرة خلال الرحلة كلها ، غير راض عن ذلك ، بل أنه كان قلقا يرجو سرعة أكبر • وكنا قد انلعلنا ونحن نرفع الشراع الكبير الثانى ، لأننا لم نكن نرغب فى نشر الشراع الكبير (العود) على مركب خفيف الوزن ، فقد كانت هبة قوية واحدة من الرياح كفيلة بأن تقلبه • ولكن ، عندما انخفضت سرعتنا الى خمس عقد فى الساعة ، أصدر نجدى الأوامر بأن ننزل الشراع الثانى ، (السينديرا) (١) ، كما كان يسمى ، وأن نجهز الشراع الرئيسى (العود) • ولم يتقاعس البحارة عن ذلك ، بل قاموا بالمهمة بسرعة البرق ، وسرعان ما أصبح الشراع فى أعلى الصارى • وما أن نشر الشراع ، حتى نشطت الرياح ، وأصبحنا نسير بسرعة عشر عقد ، ونحن نقذف بالزبد ، وسور المركب من الجهة المحجوبة عن الرياح لا يرتفع كثيرا عن سطح الماء • وكان نجدى يصيح « أطلقوا له العنان » ، وهو يجلس القرفصاء على مؤخرة المركب ، وأعصابه ثائرة ، يرقب المركب بعينين كعيني النسر البحرى المعجوز • ومع أن المركب كان يهبط أحيانا لدرجة يخشى فيها أن يغمره ماء البحر ، الا أن ذلك لم يحدث أبدا ، واستمر يشق عباب اليم غير عابىء بشيء • وكان أحيانا يميل ميلا شديدا بحيث يصبح سوره على مستوى سطح الماء تقريبا ،

(١) يقصد « الفديرة » (المترجم)

البحر

الكويت

الرياض

البحر الأحمر

الخليج العربي

عُمان

عُمان

جزيرة

عُمان

- ۴۸۹ -

ولكن البحارة كانوا يقابلون ذلك بالنشوة والضحك • ولم يكتف نجدي بذلك، بل تابع تحميسه للبحارة بقوله : « أطلقوا له العنان » ، فقاموا برفع الشراع المزينى ، كما رفعنا شراعاً صغيراً على المقدمة ، وأصبحنا نسمع زئير الريح وهى تمر بين الجبال • وكان الزبد يختفى من أمام المقدمة ، كما كان أثرنا يمتد أميالا خلفنا • بينما كانت الطيور تحيينا ، والفواصون العاملون على ظهر المراكب القادمة من جبيل ينظرون إلينا بدهشة كبيرة ونحن نمر أمامهم بسرعة هائلة •

وكنا نمر فوق بعض القيعان المرتفعة ، وبعض الصخور المرجانية العالية ، التى كانت تبدو قريبة جداً من قاع المركب لدرجة يخشى معها أن نصطدم بها • ولكن نجدي كان يطمئننا بأن هناك من الماء ما يكفى لحمل مركبنا • وكنا بالطبع نتجنب الأماكن الشديدة الخطورة ، وكان قائدا الدفة ، عندما لا يكون أى منهما وراء عجلة القيادة ، يسبران الفجور من الجانبين بشكل مستمر بمسبر يدوى • وكان ترددهما لمقادير العمق ، يبدو موسيقياً فى مهب الريح •

لم نر شيئاً من اليابسة سوى قاع الخليج ، الذى كنا نراه بشكل متواصل تقريباً • وفى إحدى المرات شاهدنا رأس البر المنخفض المدعو « أبو علي » ، الذى لم يكن سوى امتداد رملي • أما بقية ساحل الأحساء الأبعد من ذلك اللسان الرملي ، فقد كان السديم يحجبه عنا • وقد تابعنا إبحارنا السريع جداً طوال النهار ولم نبدل شيئاً خلال الليل ، بل بقيت جميع الأشرعة منشورة ، رغم أننا كنا حينئذ فى واحدة من أخطر مناطق الخليج كله • وكان البحارة قد قاموا خلال النهار بذلك السطح وتنظيفه ، وواصلنا إبحارنا خلال الليل فى ضوء القمر الساطع وكل ما فى المركب نظيف يلمع ، وأشرعته البيضاء غارقة فى الجمال والروعة ، وأسطح المركب اللامعة تحت أشعة القمر أنظف منها فى أى وقت مضى • وكان البحارة متجمعين حول قاعدة الصاري المزينى ، وهم متلفعون بعباءاتهم ، سعداء ، لا يتحدثون إلا عن وطنهم الكويت • الكويت ! الكويت ! هذا هو كل ما كنت أسمع ، ولم أكن أسمع شيئاً غيره • وأخيراً أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من ذلك الفردوس المنشود ، وما أن يطلع صباح اليوم التالى حتى يكون قد ظهر فى الأفق • الكويت ! الكويت ! ذلك البلد العربى الذى كان فيه كل مركب مركباً جميلاً قوياً ، وكل فتاة آية من الجمال • الكويت ! حيث بيوت الشيوخ وكبار التجار وقصور عظيمة تزخر بثروات الهند ، وحيث الماء قراح ، والفاكهة رائحة ، والبطيخ النابت من الأرض له طعم العسل ورائحة الريحان • أى نوع من البلاد هذه الكويت ؟ لا بد أنها أكثر ثمراً من زنجبار ، وأروع هناء من بيروت ، وأفضل مناخاً من جبال الهند •

وهكذا كان البحارة يهدون ، بينما كان نجدي يجلس القرفصاء على سدته يرقب المركب الهادر في سيره ، وللمرة الاولى ، لا ينبس ببنت شفة • لقد كان علي أن أنتظر الوصول لأرى المدينة بنفسه • فلم يكن هناك أدنى شك في حب هؤلاء البحارة لوطنهم ، ولكني بدأت أتساءل عما تكون عليه تلك البلاد ، التي يضطر هذا العدد الهائل من رجالها أن يعتلوا ظهور مراكبهم الكبيرة ، ويجوبوا البحار معظم شهور السنة سعيا وراء قليل من الرزق • ومع أني أخذت أتساءل عن هذا ، لم تبدر مني بادرة تدل على شعوري ، فقد كان حماس البحارة معدياً • ولاحظت أن جميع الأمراض قد اختفت أو كادت ، حتى الحمى التي كان ابراهيم يشكو منها ، ووقف جاسم الطباخ على قدميه ، وان لم يكن ثابتاً تماماً عليهما ، بينما اسماعيل ، الذي كان قبل أيام قلائل يشكو من أوجاع الروماتزم ، كان يعزف على قيثارتة بسرور وسعادة • وأخذ سلطان ، وناصر – الفواص الذي كان أجله قريباً – يتحدثان بمرح وحبور عن الفتاتين اللتين سيتزوجانهما في اليوم الثاني لوصولنا ، كما كان خليفة ، قائد الدفة ، يبتسم مسروراً وهو يفكر بابنه الجديد • وكان سلطان يفخر قائلاً أنه سيتزوج أجمل فتاة في الكويت ، بينما كان زيد يتحدثاه قائلاً ان فتاته أجمل • ولكن سموداً ، ذلك البحار الصغير القامة الجدي المزاج ، كان ينفي كل ذلك قائلاً : كيف يمكن أن يتزوج اي منهما فتاة جميلة ، وقد سبق له هو أن تزوج جميع الجميلات في البلاد ؟ أما حسن ، قائد الدفة ، فقد كان يتقدم منا ، بعد انتهاء نوبته أمام عجلة القيادة ، ويتحدث عن زوجتيه اللتين تنتظرانه وكلاهما حامل ، واحدة عمرها عشرون سنة ، والاخرى ، التي تزوجها في السنة السابقة ، لا يزيد عمرها عن السادسة عشرة • وكان يقول انه يحتاج الى كليهما خلال الصيف القصير الذي سيقضيه في الوطن بعد سفر تسعة شهور في البحر ، فلم تكن واحدة كافية له • كما كان يتحدث عن الزواج بثلاثة ، فقد كانت الاثنتان اللتان تزوجهما على وفاق تام ، وكانتا مصدر بهجة في حياته • فاذا اصبحن ثلاثة ، فلا شك انه سيعيش في جنة النعيم • كما أن تكاليف الحياة – فيما عدا المصاريف الاولى – لا تختلف كثيراً بين زوجة أو اثنتين أو ثلاث • وكان سعيداً لأن زوجتيه كانتا على وفاق ووثام تامين ، وكانتا تحفظان بيته في غاية النظافة والترتيب والجمال • وكان ينام مع احدهما في وقت القيلولة ، ومع الأخرى خلال الليل ، في نظام دائم دقيق ، ولذلك فلم تكن أي منهما تغار من الأخرى ، أو تحسدها •

وعندما أتم حسن كلامه ، التفت اليه يوسف قائلاً : « نصيحة لك يا بني من رجل عجوز محنك • عليك أن تفكر ملياً قبل أن تتخذ لنفسك



زوجة ثالثة • بل يجب أن تحمد الله أنه رزقك بزوجتين تعيشان معا في وفاق ووثام ، وأن تقنع بهذه النعمة • صدقني يا بني أنه لا يوجد على وجه الارض ثلاث نساء يمكنهن أن يتقاسمن رجلا واحدا • كما أن من المحتمل أن تكون الثالثة امرأة مشاكسة مزعجة » •

ولكن حسنا أجب ساخرا : « كفك شكاية يا رجل ! ان زوجتك تبلغ الثلاثين من العمر ! » وضعك الجميع عاليا على هذه النكتة ، فإن يكون للرجل زوجة في الثلاثين من عمرها كاف للحكم بأنه أصبح واحدا من مجتمع المسنين العاجزين • الا أن يوسف العجوز ، رغم أن زوجته تبلغ الثلاثين ، كان يتطلع الى العودة لزوجته وأهل بيته بشوق لا يقل عن شوق الآخرين • مسكين يوسف ! لقد كانت قدماء في حالة يرثى لها ، من جراء المشاق التي تعرض لها خلال الرحلة • فقد كانتا متشققتين من أثر الوطء على العقد المسننة الحادة التي تتميز بها أعمدة الخشب المقطوع من دلتا الروفيجي ، وكانتا مصابتين بكدمات واصابات أخرى من أثر العمل الشاق المتواصل • وكانت قدماء ، كسائر أقدم البحارة الآخرين ، قويتين ، جافتين صلبتين بشكل مخيف ، وكان في أسفلهما طبقة من الجلد المتحجر لا يقل سمكا عن ربع بوصة • ومع ذلك فقد تمكنت الشعاب المرجانية وأشواك الخشب من النفاذ حتى من تلك الطبقة الواقية ، ومن أن تجعل الدم يسيل من قدميه كلما اضطر الى الجري • وكنت أقوم بمهمة العناية بقدميه ، رغم أنه لم يكن يطلب مني ذلك ، ولم يكن بإمكانني ، على أي حال ، أن أقدم له الكثير ، فكان كل ما أفعله هو أن أغسل قدميه بمحلول البوريك ، وألفهما بالقماش اللاصق • ولكن سرعان ما نفذ هذا القماش ، الا أن يوسف لم يكن يبالي ، فزوجته تعرف كيف تعنى بقدميه عندما يعود الى بيته ، كما تعرف تماما الوسيلة لذلك ، وهي التي تفعل ذلك دائما بين كل سفرة وأخرى • وقد أخذت أرسم لنفسي صورة ليوسف المسكين ، وهو يقيم في بيته الصغير الواقع في أحد أزقة الكويت الخلفية ، بين أبنائه الثلاثة ، يحيط به قطيع الماعز مع صغاره ومع الدجاج البياض (فقد كان أخبرني عن ذلك كله) يجهز نفسه لرحلة قادمة بمساعدة زوجته التي تواصل علاج قدميه ، ودهن مينييه بالمراهم • فقد كانت اعالة أسرته تتوقف توقفا كليا على قوة جسمه ، ولم يكن العمل على المراكب يرحم أو يحابي أحدا ، الا اذا كان من طينة اسماعيل الموسيقي ، الذي كان يتمتع بمركز خاص يسمح له بالتفاوض والمساومة مع النواخذة ، على ما يتقاضاه من الاجر ، نظير اظهاره مواهبه العظيمة هناك على الساحل الافريقي •

→ الطاهي جاسم

لقد كان ايقاع العمل على المراكب الكويتية سريعا بصورة مذهلة ، وأسلوبه قاتلا ، ولا بد أن ذلك كان أمرا شاقا جدا على رجل عمل في الغوص على اللؤلؤ فيما مضى . فعلى ظهر المركب التجاري ، يجب أن يندفع الرجال الى مهامهم بسرعة البرق ، ويجب أن تطاع الاوامر المتتالية بلا مناقشة في الليل وفي النهار ، كما يجب أن يوافق مزاج البحارة مزاج النواخذة ، فاذا كان هذا حاد الطبع أو متسلطا ، فإن عليهم ، رغم ذلك ، أن يتحملوه ويصبروا عليه . ولم يكن النواخذة عادة يقيمون اعتبارا كبيرا للآخرين . ولا بد أن الحياة على ظهر المركب شاقة قاتلة ، بالنسبة لكبار السن بوجه خاص ، فاذا لم يستطع الرجل أن يجاري تلك الحياة ، فإن عليه أن يتخلى عنها . ولكنه كان في العادة يمضي في عمله حتى يأتي يوم يجد فيه الرجل نفسه وقد خر صريعا . ولا شك أن سرعة اداء الاعمال على المركب العربي سرعة قاتلة ، بل هي جنونية ، لانه لا داعي في الواقع لكل هذه العجلة .

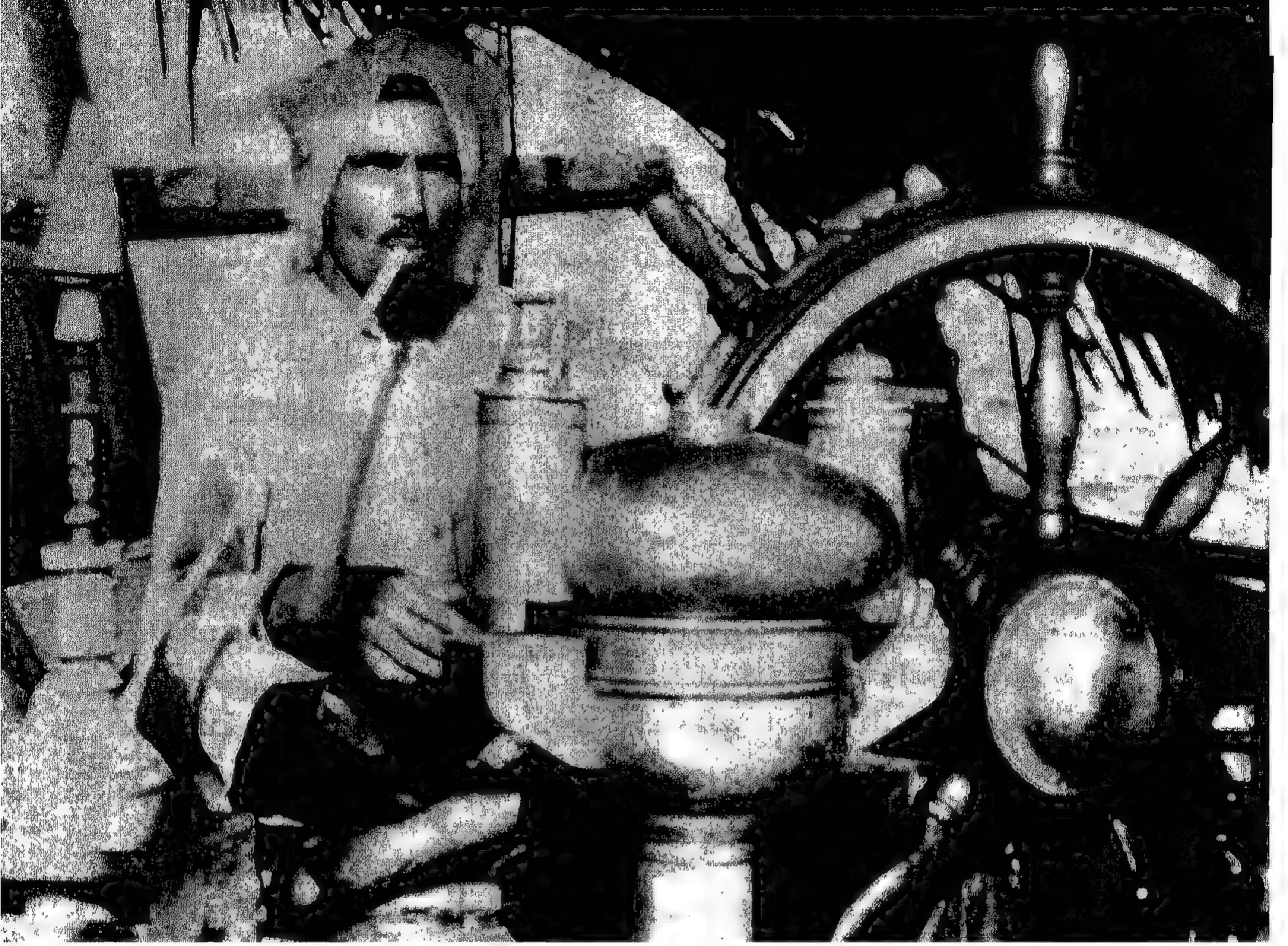
وفي احدى المرات سألت نجدي عن هذا الامر ، فلم يحاول أن يجد مبررا له أو يبين أسبابه ، بل أجاب قائلا : « انها طريقتنا في العمل » . قال ذلك وهو مندهش لاقدامي على توجيه مثل هذا السؤال . وقد لاحظت فعلا أن البحارة أنفسهم كانوا يشعرون بالفخر وهم ينطلقون الى أعمالهم جريا ، مع أن بعضهم كان يصطدم بالبعض الآخر في اثناء ذلك ، وربما أصيب بأذى . فكان يخيل الي أن الواحد منهم كان يشعر بالاعتزاز اذا كان سباقا الى العمل ، سواء كان ذلك في الصمود الى اعلى الصاري مثلا ، أو في التجديف ، أو بحمل وتصنيف الاعمدة الخشبية الثقيلة على سطح المركب . ولم يكن أحد غير الكويتيين يفعل ذلك : لا العمانيون ، ولا اليمنيون ، ولا الحضارمة ، ولا بحارة الساحل المتصالح أو الباطنة ، ولا الهنود ، ولا الايرانيون . لقد كان هذا أسلوب الكويتيين وحدهم ، وكان أسلوبا شيقا ، فعلا ، مؤثرا ، الا انه كان في بعض الاحيان قاتلا أيضا . وكنت أتساءل الى متى يستطيع يوسف العجوز أن يتحمل مشاق هذه الحياة ، وماذا سيحدث لاسرته الصغيرة عندما ينتهي عمره . فقد كان حدثني عن أصغر أخوته ، الذي مات وهو يعمل على ظهر بوم كويتي في كراتشي في العام المنصرم . وكان يخيل الي أنه بحاجة ماسة الى الأشهر الثلاثة التي يقضيها في البيت خلال الصيف يستريح من عناء السفر ، قبل أن ينطلق في رحلة أخرى . فقد فهمت أن معظم البحارة كانوا يموتون في البحر ، وأن الغوص على اللؤلؤ هو الذي كان يقتلهم في الغالب . ولذلك كان يوسف يحمد الله الذي أنجاه من ذلك العمل المميت . كما علمت منه أنه قد انتهى من تسديد الدين الذي كان يرزح تحته منذ أن ترك عمل الغوص قبل خمس

سنوات ، دفع خلالها عشرين روبية سنويا من المال الذي يجنيه من رحلاته البحرية على ظهر المراكب الكبيرة . وعلى هذا فقد كان يشعر بالحريسة الكاملة . وكان يقول لي أنه لا مجال للمقارنة بين السفر وبين الفوص على اللؤلؤ ، فالفوص كان دائما مصحوبا بأسوأ ظروف السفر ، حتى أن قضاء شهر في دلتا الروفيجي المخيفة ، يعد ، بالنسبة للفوص ، اجازة للراحة والاستجمام .

وفي صباح اليوم التالي ، كنا لا تزال نبحر باندفاع كبير . فقد كان نجدي يسوق مركبه طوال الليل ، دون أن يتناول شيئا من الطعام ، ودون أن يغمض له جفن ، وهو جالس على سدته خلف قائد الدفة ، يراقب باستمرار ، ويفحص في ضوء البوصلة ما يعلق بقاع المسبر من الرمل والحصى كلما أتاه البحارة به ، ويستدل على قوة الريح واتجاهها عن طريق الأنف . وكنا أحيانا نخفف من سرعتنا ونغير اتجاهنا الى هذه الناحية أو تلك ، رغم أنني لم أكن أرى سببا لذلك سوى ما يقوله نجدي عن وجود الكثير من الصخور المرجانية . وكنت أعرف ذلك ، ولكن ما كان يحيرني فعلا هو كيف كان نجدي يحدد تلك الصخور ، ويشق لنفسه طريقا بينها . ولكن كان من الواضح أنه كان يعرف ذلك ويفعل ما يجب فعله دون تردد . وما أن انتصف نهار اليوم التالي ، ونحن نغذ السير مارين برأس بر بعد رأس بر ، حتى كنا قد أصبحنا قبالة رأس الزور ، الذي يعين الحدود الجنوبية لدولة الكويت . وقد نشطت الريح ، وأشار نجدي الى الارض ، وهو يتمتم : « الكويت » كأنه لا يكاد يصدق أنه ، بعد تلك الشهور الطويلة ، يرى وطنه مرة ثانية . وقد ناداني ، وهو يشير الى البر قائلا : « تلك هي الكويت . تلك هي البلاد الجميلة التي تستحق أن تراها . ألا ترى معي أنها جميلة فعلا ؟ » فأجبته ، وأنا أظاهر بعدم المبالاة : « ماذا ؟ أتقصد تلك البقعة من الرمل ؟ » فبدا عليه الامتعاض من جوابي ، مع أن الواقع أن الارض المحيطة برأس الزور ليس فيها ما يلفت النظر ، ولا يمكن أن يجد فيها أحد غير الكويتي شيئا من الجمال .

فصاح نجدي قائلا : « رمل ؟ بقعة من الرمل ؟ أنظر اليها أيها النصراني ! ألا ترى أنه ليس فيها تلك الجبال الشاهقة الوعرة ، بل هي أرض ناعمة ، مستوية ، لطيفة ، لا ترتفع الا كنهود العذارى ! ألا تشعر بالخجل الآن لأنك قلت لي سابقا أن جبال عمان جميلة ، مع أنها لا تنتج شيئا ؟ أنظر الان ومتع ناظريك برؤية الكويت » . وتابع هو النظر طويلا ، ولم ينقطع عن النظر ، دون أن يهتم بانطباعاتي الخاصة .

والواقع أن الارض التي كنا نراها لم تكن تختلف عن أية قطعة أخرى



حسن قائد الدف

من الارض الرملية ، وهي شبيهة الى حد ما بساحل بنادير ، جنوبي رأس
حيفون . الا أنني لم أقل ذلك ، فقد شاهدت التأثير واضحا على وجه نجدي
الأسود ، كما رأيت عينيه المتعبتين وقد أغرورقتا بالدموع ، وكان في الليلة
السابقة قد أخبرني لماذا كان يقود مركبه بهذه الطريقة ، بحيث كان سوره
على مستوى سطح الماء ، وشراعه الكبير قد تشقق من الريح الجنوبية
النشطة . فقد كانت الأخبار قد وصلت ، وهو في المنامة ، بأن زوجته الأثيرة
الى نفسه مريضة ، وربما فارقت الحياة .

وها نحن الآن قد أصبحنا على مقربة من جزيرة كبر ، التي صعدت
منها الطيور في قطعان هائلة كأنها السحاب ، ونحن ننطلق بحذائها بسرعة
تبلغ حوالى اثني عشر عقدة . كما أننا أدركنا وتجاوزنا سفينة البريد
الهندية البريطانية البطيئة ، التي كانت قد غادرت البحرين في نفس الوقت
الذي غادرنا فيه ، وهي تحمل رسالة من نجدي يعلن فيها نبأ عودته الى
الكويت . وعندما مررنا بها ، رفع نجدي علم الكويت ، بينما كان البحارة
يضحكون عاليا . وكانت الطبول تسخن على موقد جاسم ، فلم تكن المسافة
بين كبر والكويت تصل الى عشرين ميلا ، يمكن قطعها في ساعتين من

الزمن • كما دب الحماس وازداد الشوق بالبحارة ، فأخذوا يتراكمون هنا وهناك يخرجون أفضل ملابسهم ، وأنظف كوفياتهم ، كما أخذوا يشذبون شواربهم وينظفون أسنانهم ، بل بلغ الوجد ببعضهم حد العجز عن القيام بأي عمل • أما نجدي ، فبعد أن تخطى جميع العقبات ، وتغلب على جميع المخاطر ، (فقد كانت جزيرة كبر تؤذن بانتهاء المياه الخطرة) ولم يبق أمامه الا الكويت ، فقد جعل حسنا يحلق له شعره بالموسى ، ويدلك جسده ، ويحممه بماء البحر ، وبعد ذلك قام يورسف بتعطيره ، بأن مسح ببعض العطر الباريسي على جبينه ، وخلف أذنيه ، كما أخذ يفتش في صندوق أمتعته ، ويخرج الحللي الذهبية ، ويضعها على وجه الأمتعة ، لتكون جاهزة للاهداء الى زوجاته حال وصوله • وحتى القرد « يميز » ساهم في الحماس ، بأن أخذ يقفز هنا وهناك ، وهو ينظر الى شاطئ الكويت ، بينما أغتنمت القطة فرصة انشغال جاسم الطباخ ، وهجمت وصغارها : فهد وفريد وفاطمة ، على الموقد للحصول على ما يمكن الحصول عليه من الطعام • وكان البحر شديد الخضرة ، وكان للرمال الابيض الممتد على الساحل قبالتنا وهج شديد ، فقد أصبحنا قريبين جدا من رأس الخليج العربي •

المعلم يحلق شعر لحيته



الا أن الريح أخذت تهدأ تدريجيا ، فهبطت سرعتنا ، وأمضينا عصر ذلك اليوم كله نقطع الاميال العشرين التي تفصل بين جزيرة كبر ورأس الارض . وفي أثناء ذلك أدركتنا سفينة البريد وسبقتنا ، وفي هذه المرة لم ننظر اليها لنجلنا . ثم وصلنا جزيرة فيلكا ، التي كانت آخر علامة برية شرقي جون الكويت ، وهكذا تكون رحلتنا انتهت تقريبا ، ولم يبق لنا سوى أن ندور حول الرأس ونلقي مراسينا في جون الكويت . وقد رأينا بيوت فيلكا ، وبعض السمابك الواقعة على الشاطئ ، علاوة على مراكب الماء ومراكب الحطب ومراكب « البلم » الصغيرة ، وهي قادمة من البصرة على الطريق الممتدة بين جزيرة فيلكا والبر الأصلي . كما شاهدنا قوارب الصيد المصنوعة من سعف النخيل ، والصيادون يستخدمونها في مياه رأس الأرض ، ومعظم اجسادهم مغمورة في الماء ، وهم جلوس فيها ، لأن تلك القوارب كانت لا تعدو أن تكون كومة من الاعواد العائمة ، لا تمنع نفاذ الماء ، بل ولم يقصد صانعوها أن تكون كذلك . ثم درنا حول المنارة المثلثة الواقعة على رأس الارض ، ورأينا نورها يلمع ، ونحن نتجه الى جون الكويت ، ببطاء شديد جدا ، بعد أن سكن الهواء ، وأصبحت حركة المد معاكسة لنا .

وعند المغيب ، أصبحت الكويت على مرأى البصر ، ونحن متجهون اليها ، على قرع الطبول والدفوف ، وصوت الفناء والأهازيج . وببطء مررنا على قصر الشيخ ، وقد خيم الظلام على الكون فحجب منظر المدينة عنا ، ووصلنا الى مرسانا في الظلام الدامس ، بينما كانت الطبول تقرر والفناء لا ينقطع ، وكان قد مضى علينا منذ مغادرتنا البحرين ثمان وأربعون ساعة ، وهي تعادل سرعة البريد السريع ، بحسب قول نجدي ، (مع أن البريد البطيء سبقنا) . ومع أن نجدي قاد مركبه على نحو رائع ، وتمكن من القيام برحلته الطويلة والعودة الى الوطن سالما غانما ، الا أنه أصيب بخيبة أمل عظيمة ، لأنه وصل خلال الليل ، مما حرمه من فرصة الابتهاج بالنصر . فلو كنا قد وصلنا نهارا ، لرأينا البلدة بأسرها ، ولانبرت القوارب ، وهي تغص بالاصدقاء ، لاستقباله في البحر وتحيته والترحيب به ، ولكان كل من على شاطئ البحر قد عرف بعودة نجدي من رحلته الافريقية عن طريق البحرين بتلك السرعة الهائلة - نجدي ، قائد المراكب والرجال ، نجدي على ظهر « فتح الخير » ، وقد قهر البحار مرة أخرى . لقد كانت صدمة له ألا يجد أحدا يرحب به ، فلم يكن أحد ينتظر وصولنا ، ولن تصل الرسالة التي تعلن ذلك الا في صباح اليوم التالي .

وكان البحارة لا يزالون يقرعون الطبول ويهزجون ، الا أن الشعور بالانجاز العظيم كان قد فارق نجدي ، ولو مؤقتا على الاقل . ثم أنزلت

الأشعة ، وأرخيت للمرة الأخيرة خلال هذه الرحلة ، بينما البحارة لا ينفكون عن الغناء ، حمدا لله ، ومدحا لنجدي ، وهم ينزلون الشراع الكبير الذي كان يتألف من تسع وخمسين قطعة من القماش ، ثم وهم يرسون المركب نهائيا تحت نجوم السماء .

قمنا بتحية بعض المراكب الايرانية الكبيرة التي كانت راسية بجوارنا ، وفهمنا من بحارتها أن المراكب التي كانت قد غادرت البحرين قبلنا ببضعة أيام لم تصل بعد ، وقد سر نجدي عند سماعه ذلك . الا أنه ما زال يجلس على سدته مكتئبا ، مرهقا جدا ، وقد فارقه حماسه المعروف ، بعد أن انتهى النهار وأتت الرحلة الى نهايتها . وقد نصح الايرانيون بالعودة الى البحرين وبيع حمولتهم هناك . وكانت هذه نصيحة مخلصه ، واستجابوا لها بأن أخذوا في الحال يعدون العدة للاقلاع ، فلم يكن أفضل سعر لخشب المانجروف في الكويت ليزيد عن ثماني او تسع روبيات لكل عشرين منها . لقد كان نجدي يشعر بالفخر والاعتزاز عندما أجاب أن اليوم « يوم نجدي » ، وذلك ردا على استفسارات المراكب الراسية . الا أنه كان الآن يشعر بخيبة الأمل ، لأن الوقت لم يكن نهارا . ولما كانت الرحلة قد أتت الى نهايتها ، لم يبق الا أن تنزل الى الشاطئ . ومع ذلك ، وبعد أن قاد نجدي المركب بذلك العزم وتلك القوة لكي يصل الى الوطن ، فقد كان يبدو الآن وكأنه يخشى النزول الى البر لرؤية زوجته .

الا أن الجميع ما لبثوا أن غادروا المركب . فبينما كانت أغاني البحارة بالحمد والشكر تتردد أصداؤها في جميع أرجاء الميناء ، أنزل القارب الطويل ، ونزل الجميع اليه متجهين الى الشاطئ : نجدي ، وحمد ، وعريف البحارة ، وقائدو الدفة ، ويوسف ، وجميع الآخرين ، كلهم غادروا المركب ، الذي لم يبق على ظهره الا ثلاثة هم : اسماعيل ، الذي كان يتيما ولا زوجة له ولا بيت ، وسالم المعجوز ، الذي كان بدويا من الصحراء : وأنا . لقد غادرنا الجميع في القارب الطويل الذي كان مريعا ، يكاد يطير تحتهم ، وهم لا ينفكون عن الغناء . وكنت اسمع غنائهم الى أن بلغوا الشاطئ . وهكذا وصل اليوم وأرسي في ميناء الكويت ، بعد أن قام برحلة طويلة ، وتخلص من كل حمولته . أما اسماعيل وسالم فقد استغرقا في نوم عميق ، بينما بقيت أنا جالسا على المؤخرة فترة من الزمن ، أستعيد ذكريات تلك الرحلة الرائعة .

ما أعظمها من رحلة ! قطع المركب فيها ما يعادل عشرة آلاف ميل ، وقضى فيها تسعة أشهر ، كلها حياة شاقة وملاحة صعبة، من منتصف أغسطس

(آب) الى منتصف يوليو (حزيران) التالي • تبدأ الرحلة من البصرة ، بعد استراحة الصيف في الكويت ، ومن البصرة يحمل المركب بشحنة من التمور الى تجار المكلا ، ثم ينطلق أولا في الخليج العربي ، ثم في خليج عمان ، الى أن يصل بحر العرب ، قبل أن تهدأ آخر الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، بعد وقفة قصيرة في مسقط للتزود بالمياه العذبة • فقد كان التزود بالماء ضروريا ، للقيام بالرحلة الطويلة ، على محاذاة الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية ابتداء من رأس الحد ، لأن البدو ما زالوا يقومون بأعمال القرصنة في تلك المناطق التي كانت الملاحة فيها صعبة ، والظروف العامة غير مؤاتية ، والساحل خاليا من الموانئ ، ويتسم بالخطورة في معظم أجزائه • ثم يصل المركب الى المكلا ، لتحميل شحنات الى بربرة وايصالها الى هناك عبر خليج عدن • وفي بربرة تفرغ شحنة التمر لبيعها هناك الى الصومال والحبشة ، ويقوم البحارة بافراغ المركب وهم يعملون في ذلك الحر القاتل • وعندما ينتهون من ذلك ، يسحبون المركب الى الشاطئ ، ويوقفونه هناك لتنظيفه واعداده لمتابعة الرحلة • ومن هناك يعود المركب الى ميناء عدن ، الذي يعتبر نقطة الانطلاق التقليدية للرحلات الافريقية ، حيث الحر مخيف ، والاغراء الوحيد هو رخص بعض البضائع والخردوات في الاسواق • ومن عدن يتابع المركب ابحاره شرقا الى المكلا وموانئ حضرموت لاكمال الحمولة ، وأخذ بعض الركاب البدو الراغبين في السفر الى افريقيا • ثم يعود المركب ويتجه الى افريقيا ، مبتدئا بميناء حيفون ، تلك الكومة الجهنمية من الرمل والملح ، فموقاديشو ، حيث العمل التجاري غير ممكن ، وحيث يحاول عبد الله أن يجمع الديون المستحقة على التجار ، فلامو ، وهو أول ميناء لطيف نعثر عليه خلال الرحلة الطويلة كلها ، رغم أن النشاط التجاري فيه لا يختلف عنه في موقاديشو ، فالسوق في حالة كساد • ومن هناك الى ممباسا ، تلك الجزيرة المشمسة ، حيث ينزل الركاب وتنظف أسطح المركب • وأخيرا الى زنجبار ، جزيرة المتعة والبهجة • ومن هناك الى دلتا الروفيجي ، بعد المرور بكوالى ، ذلك المكان الرهيب في دلتا الروفيجي ، حيث يتحول البحارة الى أشباح من شدة الهزال ، ويصاب بعضهم بالحمى وهم يعملون تحت ظروف تكاد لا تحتمل مطلقا • ومن الروفيجي نعود الى زنجبار ثانية ، حيث تمسح أيدي الحوريات الناعمة ، ومداعبات الفتيات المحليات على آثار الشقاء والعناء • ومن هناك ينطلق المركب بتلك الرحلة الطويلة على محاذاة ساحل أفريقيا الشرقي ، وساحل الجزيرة العربية الجنوبي ، الى خليج عمان مرة ثانية ، بحيث نتوقف في مسقط ، ثم نعاود السفر شمالا الى الخليج العربي ، ونتوقف في البحرين ، ومن هناك ننطلق في آخر شوط من الرحلة الى أرض الوطن •

انها لرحلة دائرية عظيمة حقا ! عشرة آلاف ميل من الابحار ذهابا مع

احدى الرياح الموسمية ، واياها مع أخرى • ولكنها رحلة ليست باليسيرة كما يمكن أن يتصور المرء ، فقد كان فيها الكثير من الظروف المعاكسة ، كما كان فيها عدد من الاماكن الخطرة التى كان علينا أن نتعامل معها بحذر وتعقل • ومع كل ذلك ، فقد تمت الرحلة ، بل تمت بشكل مرض جدا ، بلا جلبة كبيرة ، وبلا حوادث • تمت على ظهر واحد من أكثر من مائة من المراكب العربية التى تقوم بنفس الرحلة تقريبا • تمت على أيدي مجموعة من البحارة الذين يرتدون الزرارات ، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، مجموعة من الرجال المتعصبين لدينهم • الا أنهم بحارة حتى العظم ، بحارة لا يعرفون أنواع الانشوطات المختلفة أو الأعيب البحر ، بحارة معظمهم لا يعرفون طرف البوصلة هذا من الطرف الآخر ، بحارة يقضون معظم أوقاتهم فى البحر دون أن يقابلوا عاصفة هوجاء واحدة ، أو يتعرضوا للمطر الغزير • ومع ذلك كله ، فان بإمكانهم أن يقوموا بواجباتهم كأي بحارة آخرين ، ويقاسوا من المشاق وشظف العيش ما يعجز عنه كثيرون غيرهم • كما أن بإمكانهم أن يتعاملوا مع أشربة وصوار وعارضات ضخمة صعبة التحريك ، حتى عندما يصبح التعامل معها فى غاية الخطورة •

أخذت ، وأنا جالس هناك على مؤخرة المركب ، أفكر فى الحياة التى كان هؤلاء الرجال يعيشونها ، كما أخذت أفكر فى نجدى ، ومساعدته حميد ابن سالم ، اللذين كانا يقودان أولئك الرجال • لقد كان لنجدى أخطاؤه ، وقد ذكرت كثيرا منها • فقد كان عنيدا ، لا يقيم كبير وزن للآخرين فى كثير من الاحيان ، لا يميل الى الزهد اذا أتاحت له فرصة الاستمتاع بفتاة جميلة ، قانعا بما لديه من المعرفة ، ويشعر بالامان لاعتقاده أنه موعود بجنة لا يتكلم أحد فيها الا اللغة العربية • الا أنه برغم ذلك كله ، كان بحارا ذا صفات رائعة ، كما كان قائدا قديرا وملاحا وربانا يشار له بالبنان ، علاوة على دهائه ومقدرته على مقارعة التجار والوسطاء المقيمين على البر • لقد كان نجدى رجلا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولذلك أحببته كثيرا ، وكان جميع بحارة مركبنا يحلفون بحياته ، كما كان بحارة المراكب الاخرى يحترمونه ، مع أنهم لم يكونوا دائما يحترمون بعض النواخبذة الآخرين • وحتى بحارة « الداو » الكبير ، كانوا يتلفتون حولهم اذا ما مر بهم نجدى وهم يتسكعون فى أسواق زنجبار • فقد كان ، وعلى مدار ثلاث سنوات متتالية ، يدفع لبحارته نصيبا من الربح يزيد عما يدفعه أى نوحدة آخر يقوم بالرحلة السنوية من الكويت الى ساحل أفريقيا ، مما أكسبه سمعة طيبة • وفى خلال تلك المدة ، كانت قيادته لفتح الخير قيادة حازمة حكيمة ، على الرغم من أن انصرافه عن رحلات الهند حديث العهد ، ففقد كان قادرا على تجنبه أية حوادث خطيرة • أضف الى ذلك كله أن نجدى كان صديقا حميما لى ، صديقا تعلمت منه الكثير الكثير •

أما حمد بن سالم ، الذى كان يتسلم زمام القيادة عندما يتغيب نجدى عن قيادة المركب ، فقد كان رجلا أيضا • الا أن نجدى ، ما دام على ظهر المركب ، فهو السيد ، بينما حمد شخصية صغيرة جدا بالنسبة له • نجدى هو الأمر الناهى الذى لا يستطيع حمد أن يملأ الفراغ الذى يتركه • وكل ما كان يستطيعه هو أن يحل محله الى أن يعود • ولكن كل ما كان حمد يقوم به ، كان يقوم به على الوجه الاكمل • وقد وجدت صعوبة فى البداية فى معرفته معرفة جيدة ، لأنه كان هادئا متحفظا ، شديد التدين ، الا أنى ، مع ذلك ، أحببته منذ البداية ، وارتفع شأنه فى نظرى كلما زادت معرفتى به • وكان حمد ملازما للمركب ، دون أن يحظى بيوم واحد من الراحة ، طوال الشهور التسعة التى استغرقتها الرحلة • وكان دائما موجودا وجاهزا للعمل ، صاحيا عندما يكون نجدى نائما ، مسؤولا عن المركب خلال رحلة الروفيجى ، يعمل على حل المشاكل المزعجة التى تلت القبض على مبارك • وكان حمد يولى اهتماما بالبحارة أكثر من نجدى ، لأنه كان فيما مضى بحارا مثلهم ، بينما لم يكن نجدى بحارا قط ، بل كان دائما ينتمى الى طبقة النواخذة ، أما حمد فقد أصبح ينتمى لهم بالتزاوج • وكنت أتمنى من كل قلبى أن يتمكن حمد من الحصول على مركبه الخاص قبل الموسم التالى ، وكان هو يتمنى ذلك أيضا ، دون ان يبنى قصورا فى الهواء ، فهو حري بذلك وجدير به •

أما البحارة ، فقد كانوا أناسا طيبين دون تباه أو تظاهر ، يعملون بكل جدية وإقبال ، وكانوا يعرفون واجباتهم ويؤدونها على الوجه الاكمل دون أن يقف أى عائق فى طريقهم • وكانت حياتهم قاسية جدا ، فلم يكن لأى منهم ستة أقدام من سطح المركب يمكن أن يقول انها تخصه وحده ، ولم تكن أية أجور تدفع لهم سوى حصصهم من أرباح المركب ، ولم يكونوا يتناولون طعاما لا يدفعون ثمنه ، فقد كان ثمن ما يأكله كل من هؤلاء يحسم من أجرته قبل كل شئ عند اجراء الحساب الختامى • ولم تكن لديهم أية فكرة عن التعويض عن الاضرار التى يتعرض لها العامل أثناء تأديته لعمله ، كما كان التأمين مخالفا لاصول دينهم • ولم يكونوا يرتدون الملابس الكافية ، أو ينامون على الفراش اللائق ، ونادرا ما كانوا ينامون ليلا كاملة ، دون أن يزعجوا ويوقظوا من نومهم لتأدية عمل ما • كما لم تكن حياتهم فى الموانئ أقل تعاسة من حياتهم فى البحر • وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كانوا يستخلصون شيئا من المتعة من حياتهم اليومية ، ولم يكن بينهم واحد لا يشعر بعاطفة جياشة نحو المركب ونحو البحر • لقد كانوا بحارة حقيقيين ، كما كانوا مجموعة من الاخوان المخلصين • وعلى الرغم من أن كثيرا من موظفى الموانئ والجمارك ، فى نصف موانئ الشرق ،

لا يحبون شيئا أكثر من رؤية هؤلاء البحارة وراء القضبان ، لأنهم كانوا مهربين راسخى الجذور ، وأن كثيرا من قباطنة ناقلات النفط يتمنون أن يروا تلك المراكب العربية غير المضاعة ليلا وقد اختفت من على سطح البحر كلية ، لأنها كانت تهدد الملاحة بالنسبة للسفن التجارية ، وأن كثيرا من موظفى الموانئ المنهكين فى موقاديشو ، أو ممباسا ، أو زنجبار ، أو موانئ ساحل الهند الغربى ، يدعون ربهم كل ليلة ، فى موسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ألا يروا انسانا أو مركبا عربيا مرة ثانية - على الرغم من ذلك كله ، فقد كان هؤلاء البحارة أناسا طيبين • وإذا كانت الكويت التى سمعت عنها الكثير ، تستطيع أن تنتج مراكب وبحارة من هذه الجبله ، فهى بلا شك ، مكان عظيم يستحق أن أتعرف عليه •

أخذت أنظر الى النجوم والى الظلمة التى كانت تغطى الكويت ، بحيث لا أرى منها شيئا ، فقد كان الوقت منتصف الليل ، وانتقل بى الفكر الى يوسف الذى ربما كانت زوجته تفصل قدميه الآن ، والى خليفه وابنه الصغير ، والى حسن وزوجتيه الطيبتين ، والى نجدى ، وكنت أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام بالنسبة لأسرة كل منهم ، فقد كانوا رجالا طيبين يستأهلون عودة مباركة الى أوطانهم الصغيرة •

ولا بد أنى غفوت وأنا أجيل هذه الافكار فى ذهنى ، واستغرقت فى نوم عميق الى وقت متأخر من الصباح • فلم يكن هناك من يؤذن للصلاة ، أو من يعد خبز الافطار ، أو من يغلى الشاي • الا أن القارب الطويل عاد مبكرا ، وهو يحمل عريف البحارة مع جميع بحارته ، وحمدا بن سالم • وفى الحال باثروا أعمالهم ، بانزال الصواري ، واعداد المركب للسحب الى الشاطئ • فقد كان عليهم أن يجردوا المركب من كل ما عليه من الاشرعة والحبال وسواها وينزلوها الى الشاطئ ، وبعد ذلك يعوموا المركب ، عند قدوم المد العالى ، الى مكان آمن على الشاطئ ، خلف السور الحجرى الواقى من الامواج • وهناك عليهم أن يغطوا المركب بسقف من الحصير وسعف النخيل ، لحمايته من أشعة شمس الصيف اللاهبة ، ويحيطونه بمزيد من قطع الحصير لحماية هيكله وقاعه ، ثم يتركونه هناك الى أن يحين الموسم القادم لقطاف التمر من ضفاف شط العرب •

وقد أقبل البحارة على هذا العمل بقوة وعزيمة • فلم يكن الوصول الى الميناء يعنى نهاية العمل ، مع أنه كان يعنى بالطبع نهاية الرحلة • فلن ينتهى عمل البحارة ، حتى يرفعوا المركب الى مكانه المناسب الآمن على رمل الشاطئ ، وينزلوا ما عليه من المعدات • وقد دلونى على منزل نجدى ،

على الشاطئ قبالة البحر ، وعلمت أن المركب سيوقف أمامه للاستراحة خلال أشهر الصيف . ولا شك أن ذلك نظام معقول ، بأن يكون مركب كل نوحدة واقفا أمام بيته . وقد استطعت فعلا أن أرى بيوت النواخذة الممتدة على طوال الشاطئ ، وأمام كل منها بوم يقف على الرمل للراحة من عناء السفر .

علمت من يوسف أن هذا الجزء الاخير من العمل على المركب يستغرق فى العادة ثلاثة أيام . وبعد ذلك ، على البحارة أن يطلوا المركب بالزيت من الداخل والخارج ، وبهذا يأتون الى نهاية عملهم ، ويعتبرون أنفسهم أحرارا بقية أشهر الصيف ، الا أنهم لن يتقاضوا ما يستحقون من المال قبل عودة عبد الله ، لأن الديون المستحقة فى موقاديشو يجب أن تحصل ، قبل أن يجرى الحساب الختامى للرحلة ، وربما استغرق ذلك شهرا أو شهرين . ولكن بإمكان البحارة فى هذه الاثناء أن يستلفوا من نجدى أى مبلغ من المال يجدون أنفسهم بحاجة اليه . وكان يوسف يقول ان بعض البحارة لم يكونوا ينالون الكثير فى نهاية الرحلة ، وذلك بعد أن يحتسب ما استلفوه فى بداية الرحلة ، وما أخذوه فى عدن وزنجبار . ولكن ذلك لا أهمية له ، فقد كان بإمكانهم أن يقترضوا على حساب الرحلة القادمة ما يكفيهم لأشهر الصيف ، اذا شأوا ذلك . وكثيرا ما كانوا يشاؤون فعلا . ويبدو لى أن حياة البحارة فى الكويت كانت تمول كلية بموجب نظام التسليف هذا ، بحيث أن معظمهم يجدون أنفسهم مدينين طوال الوقت ، وكانوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين بالنوحدة الذى كانوا يدينون له بالمال .

وقبل أن ينتصف النهار ، كان نجدى قد عاد إلينا . وهو يصطحب أربعة من أبنائه الذين كانوا ينظرون الى كل شىء فى دهشة وحب استطلاع . وقد أفاد بأن زوجته لم تكن مريضة جدا ، كما قيل له ، وحمد الله كثيرا على ذلك . الا أنه كان ما زال متضايقا من عدم وصوله منتصرا خلال النهار ، بعد تلك الرحلة الرائعة من البحرين . فقد كنا أول بحارة يعودون من رحلتهم الى أفريقيا . أما المراكب التى كانت واقفة على رمل الشاطئ فقد كانت عائدة من رحلتها الى الهند ، أو كانت من مراكب الغوص ، التى تنتظر موسمها ، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى .

ومع نجدى أتى تجار ، ووسطاء ، ونواخذة آخرون ، وكان بينهم نوحدة أحد مراكب الغوص ، أتى يبحث عن بحارته ، فقد كان جميع بحارتنا تقريبا غواصين من نوع أو آخر . وما دام أحدهم قد بدأ هذه المهنة ، فلا بد له من المضى فيها . وكان على أولئك ، الذين يدينون ببعض المال لواحد

من النواخذة العاملين فى المهنة ، أن يرافقوه الى مصائد اللؤلؤ ، اذا كان سيذهب فى رحلة للغوص ، والا فان عليهم أن يسددوا ما عليهم من الدين • وقد أنقذهم كساد تجارة اللؤلؤ من هذا المصير بضع سنوات • أما الآن ، فان من الواضح أن النواخذة راغبون فى تجربة حظهم مرة أخرى • وقد استطعت أن ألح الاكتئاب على وجوه بعض بحارتنا ، لأن عليهم أن يحزموا أمرهم ، بعد أن دفعهم الكساد الطويل لعدة سنوات على التخلف عن سداد الدين أو الذهاب للغوص ، لأن النواخذة لم يكونوا يخرجون بمراكبهم ، اذ لم تكن هناك فائدة من الخروج فى رحلة غوص لا يجنون من ورائها شيئا • أما هذا العام ، فقد كان أكثر من مائة من المراكب تجهز للسفر ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة الى البحارة • وقد رأيت خيبة الأمل الشديدة على وجه سلطان ، عندما تقدم منه أحد التجار ، فقد كان المسكين قد وطن النفس على الزواج بما يستحقه من أرباح المركب • أما الآن فان التاجر يخيره بين أن يسدد دينه أو يرافقه فى رحلة الغوص • ولم يزد عن قوله : « الله كريم » مع أنى لم أجد أن هذا القول يناسب الموقف ، وربما كان مجرد دعاء فقط • أما محمد ، ذلك الرجل الصغير الجسم ، الذى كان ينوى أن يستعمل حصته من الارباح لتأدية فريضة الحج الى مكة ، فقد كان مهموما أيضا • « الله كريم » سمعتها من سبعة أو ثمانية من البحارة الآخرين ، الذين وجدوا أنفسهم فى نفس الموقف •

مساكين ! ها هم يعودون من تلك الرحلة الطويلة المرهقة ، وقد أصبحت أقدامهم على البر تقريبا ، واذا بهم يضطرون للسفر مرة أخرى للغوص على اللؤلؤ • ولم يكن أمامهم مجال كبير للخيار • ويبدو لى أنهم ما أن يتورط أحدهم مرة واحدة فى الاقتراض من أحد نواخذة الغوص ، حتى يجد أنه لا يستطيع الفكاك من تسديد الدين بأية طريقة من الطرق • وما أن زال أثر الصدمة الاولى حتى عاد كل شيء طبيعيا ، فلم أسمع بكاء أو حتى أحدا يجأ بالشكوى ، فقد كان هذا قانون الميناء ، وكان الجميع يعرفون ذلك منذ نعومة أظفارهم • ولكن لم يكن الامر كله عذابا وفقرا ، فقد كانت هناك فرص للاثراء من الغوص أيضا • وكان البحارة ، مثلهم فى ذلك مثل سائر البحارة فى أى مكان آخر فى العالم ، قمامرين راسخى الاقدام • وسرعان ما عادت الروح المعنوية العالية الى أولئك الذين كانوا سيئي الحظ ، فأخذوا يقولون النكات ، ويرددون النوادر عن اللآلىء الضخمة التى سيعثرون عليها فى الموسم القادم ، وعن الثروة التى سينالونها • ولكنى لاحظت أن نوادرهم فى ذلك اليوم كانت تملو من المرح الحقيقى •

وقد شعرت بالسعادة لأن أيا من النواخذة لم يكره يوسف العجوز على

الذهاب معه ، فقد كان هذا بحاجة الى الراحة فعلا . ولا بد أنه كان مطمئنا الى أن أحدا لن يكرهه على ذلك ، فقد سدد ما عليه من الدين ، خاصة أنه لم يعد يذهب للغوص منذ عدة سنوات ، وكان حريصا على ألا يضطر للاستدانة ثانية ، فقد نال أكثر من نصيبه من الغوص . وقد أخذت أبحاث عن هذا الصديق المعجوز على ظهر المركب ، الذى كان دائما أول من يتصدى لأشق الاعمال . نعم . ها هو ما زال هناك ، لا ينفك عن العمل ، ولا يتوقف عن الفناء .

ولكن ما هذا ! ها هو أحد تجار اللؤلؤ يتقدم منه ، ويمسكه من كم جلبابه ، ويبدأ معه شجارا طويلا . ولكن ما شأنه بيوسف ؟ لقد قام يوسف بتسديد جميع ديونه . ولكنى كنت مخطئا . فقد كان له شأن مع يوسف المعجوز ، وان لم يكن قبطان يوسف نفسه . وقد علمت فيما بعد أنه كان نوحذة لمركب من نوع « البلم » ، كان أخو يوسف يعمل عليه . وعندما مات هذا انتقلت ديونه الى يوسف ، الذى كان عليه أن يذهب الى الغوص لتسديد تلك الديون . لقد كانت هذه ضربة مخيفة ليوسف . ولكن يبدو أن الشرع الاسلامى ، كما يفسره تجار اللؤلؤ ، يوجب على الرجل تسديد الديون المستحقة على أخيه . على كل حال فقد كانت هذه تقاليد الميناء ، بحسب قول يوسف نفسه ، وكان عليه تسديد دين أخيه . فاذا كان ذلك النوحذة يريد للذهاب معه الى الغوص ، فلا بد أن يذهب ، وينسى ما وعد به نفسه من قضاء أشهر الصيف مع أسرته . وكان الأخ مدينا بأربعمائة روبية ، تجمعت عليه خلال عشرين عاما من الغوص على اللؤلؤ .

ولم يكن المبلغ كبيرا ، فقد كان بعض الفواصين يدينون بآلاف الروبيات ، الا أنه لم يكن مبلغا يستهان به بالنسبة ليوسف ، الذى لم يكن يحلم بتسديده طيلة حياته . فلم يكن ، فى رأى ، جميع ما يكسبه يوسف فى عام كامل ، لقاء قيامه بالرحلات الطويلة والقصيرة معا ، يزيد ، فى يوم من الايام ، عن (٢٠٠) روبية ، كان عليه أن يعول أسرته بشئ منها . وكانت نفقات الحياة ، بالنسبة لبحار فى الكويت لديه بيت صغير وأسرة يعولها ، لا تقل عن روبية فى اليوم - أو اثنتى عشرة آنة ، على الاقل ، حتى تبقى أسرته على قيد الحياة .

ولم يكن يبدو لى أن من العدل أن يضطر يوسف المسكين ، الذى ما كاد يعود من البحر ، الى السفر مرة أخرى فى رحلة للغوص المرهق ، الذى يعد أقسى المهن على الاطلاق . وحتى يوسف نفسه ، الذى كان معتادا على شظف العيش ، كان يعترف لى بأن الغوص على اللؤلؤ لم يكن الا عملا شاقا

قاتلا متواصلا تحت ظروف فى غاية القسوة ، كما أن احتمال أن يخرج من الموسم كله ، دون أن يجد نفسه غارقا فى دين أكبر للنوخذة ، احتمال ضئيل جدا ، ولكن الله كريم ، كما كان يوسف يردد باستمرار ، وعلى شفثيه ابتسامة القناعة والرضى ، وقد انكب على عمله بجهد مضاعف ، رافعا عقيرته بالدعاء والحمد والشكر لله على نعمائه .

وقد قررت فى الحال بأنى سأرافق يوسف فى رحلة الغوص ، اذا اضطر للذهاب ، وكان أمامى أسبوع أو اثنان ، أتفرج فيهما على الكويت التى أخذت تبدو لى أكثر اثارة مما تصورت . فقد كانت بعيدة عن الفردوس الذى وصفوه لى بعد الارض عن السماء ، ولم يكن ينمو فيها أى نوع من الفاكهة ، أو أى شىء آخر سوى بعض السمك والغنم ، كما أنه لم يكن فيها ماء عذب صالح للشرب خلال أشهر الصيف ، بل كانوا يجلبونه من شط العرب فى مراكب صغيرة ، تأتى وتذهب خلال النهار . وكان الرمل الجميل ، الذى وصفه نجدي بالنعومة والدفع ، بل وشبهه بنهود العذارى ، يهب على الميناء ، ويدخل فى عينى ، ولم يكن ناعما ولا مريحا ، بل كان يرسل وهجا ساطعا يصبح مؤذيا بعد فترة من الزمن .

ها نحن فى الكويت ، ويوسف العجوز يجلس هناك وهو يعمل ويغنى، وأبناء نجدي الأربعة ينظرون الى كل شىء حولهم وهم فاغرو الافواه . أما تجار اللؤلؤ ، فقد انتهوا من عملهم، وربطوا بعض البعارة برحلات الغوص، وغادروا المركب فى قواربهم الصغيرة .

الفصل الثامن عشر

الكويت - ميناء المراكب الكبيرة

الكويت - ميناء المراكب الكبيرة

لا تبدو مدينة الكويت المسورة فى أفضل حالاتها اذا نظر اليها المرء من الميناء ، الا أن واجهتها البحرية ، التى تمتد مسافة تزيد عن الميلين ، من أكثر الواجهات البحرية امتاعا فى العالم . ففى عام ١٩٣٩ ، كان المكان يبدو كأنه حوض واحد عظيم لصنع المراكب والاتجار فيها ، اذ كانت المراكب الكبيرة والصغيرة على السواء تقف متلاصقة على طول تلك الواجهة البحرية ، التى تمتد شرقى وغربى الميناء ، بمحاذاة الشاطئ الضحل المنبسط على جون الكويت ، من مقر دار المعتمد البريطانى شرقا الى المستشفى الأمريكى غربا . فهى على رمل الشاطئ ، وهى على الماء الضحل ، وهى هناك فى عرض البحر ، تملأ المكان فيبدو شديد الازدحام حقا . صفوف طويلة منها تقف خلف الحاجز الحجرى ، وهى تواجه البحر ، كل خمسة أو ستة منها فى صف واحد ، وهى تستند الى متونها الطويلة ، ومقدماتها متجهة الى البحر ، ودقاتها منزوعة ، وجوانبها مغطاة ، وأسطحتها محمية من حرارة الشمس بأسقف من الحصير ، وكانت المراكب الكبيرة تقف فى الماء الضحل ، أما الصغيرة فهى مرفوعة الى رمل الشاطئ وواقفة تستريح وتجف هناك .

ومع أن الوقت كان لا يزال فى منتصف يونيو (حزيران) عندما وصلنا الكويت ، ولم يكن عدد كبير من المراكب الكبيرة قد عاد الى الوطن بعد ، كان هناك ما لا يقل عن مائة مركب كبير تقف هناك فى أماكنها الصيفية ، هياكلها مرفوعة على أعمدة من خشب لامو ، أو الروفيجى ، أو على جذوع الأشجار الهندية ، بينما نزع جميع معداتها وأنزلت الى البر . كما كانت بعض المراكب تعوم ، أو تنزع معداتها وهى فى المرسى ، استعدادا لكدها عندما يصل المد التالى . وكان عدد من القوارب الطويلة ، المكتظة بالبحارة وهم يهزجون ، تقطر المراكب ، وبحارتها يحملون حبالا الى الحاجز الحجرى لربطها به ، أو الى المراسى المغروزة فى الرمل لتثبيتها بها ، وذلك للمساعدة فى جرها ورفعها الى مواقعها الصيفية . وهكذا كان الشاطئ يعج بالمراكب ، على جميع أنواعها وأحجامها وأعمارها ، بينما كان البحارة يملأون الواجهة البحرية النشطة وهم يؤدون أعمالهم ، ويذهبون هنا وهناك كأنهم نهر لا ينقطع عن الجريان . كما كان هناك البحارة ، الذين يكادون ينوءون بما يحملون من الأشرعة الكبيرة والصغيرة التى نزعوها من مراكبهم ، لكى يوصلوها الى الشاطئ ، بينما كان غيرهم من البحارة يرقصون

ويهزجون ، وهم يجرون القوارب الطويلة ، ويحكمون وضعها وتثبيتها فى الأماكن المناسبة ، ثم يغطونها بسعف النخيل ، لحمايتها من الشمس . وكان غير هؤلاء وأولئك من البحارة يكدون ويعرقون وهم يديرون الرحويات ، لكى يرفعوا مراكبهم الى البر ، بينما كان آخرون يهزجون ويرقصون وهم يعثومون الاشربة الثقيلة ، والقضبان المعدنية الرفيعة ، ويجعلون منها رزمات مربوطة بعناية ، يضعونها على الشاطئ ، بين الأكوام الهائلة المنوعة من الرحويات ، والقوارب الطويلة ، وقوارب النجاة ، وقوارب الربابنة ، وخشب الساج الهندي ، والمراسي ، والدفات ، ومصدات الامواج ، وخزانات المياه ، والمواقد ، وأنواع لا تحصى من الأدوات والمعدات البحرية ، التي كانت تملأ المكان ، فتكاد لا تترك فيه موطئا لقدم .

وكان الايرانيون يعبرون الشارع الترابي ، والأحمال الثقيلة على ظهورهم . فقد كان من الواضح أنهم هم الذين يتولون مثل هذه الأعمال ، وهم الذين يقومون بإيصال الماء الى البيوت ، وهم الذين يؤدون معظم أعمال التحميل والتفريغ في الميناء ، علاوة على جميع الاعمال اللازمة لأحواض بناء السفن واصلاحها . وكان هناك آلاف منهم ، بعضهم يقومون بنشر قطع الساج الهندي الضخمة وجعلها ألواحاً ، وكان ذلك عملاً قاتلاً في ذلك الجو الخانق ، وغيرهم يفرغون مراكب الماء الآتية من شط العرب ، فيسوقون حميرهم الى داخل البحر لكى يحملوها بنصيبهم من القرب ، وآخرون ينقلون على ظهورهم كل ما يلزم نقله من الحطب ، أو أكياس الأرز ، أو جلل التمر ، أو أي شيء آخر يلزم نقله الى مخازن التجار . لقد كان الايرانيون وحميرهم يقومون بأعمال المدينة ، أما الكويتيون فكانوا يقومون بأعمال البحر . وقفت مع نجدي أراقب عدداً من الايرانيين ، وهم يعدون بوماً جديداً لانزاله الى الماء من حوض لبناء السفن ، كان فيه خمسة من المراكب غير المكتملة تقف صفاً واحداً ، خلف سور من الصخور المرجانية والطين . وكان العمال يقومون بهدم السور أمام مركب انتهى صنعه ، ويحملون مرساة كبيرة الى الماء الضحل . ولم تكن إعادة بناء السور ، تستغرقهم أكثر من ساعة أو ساعتين ، بحسب قول نجدي . وكانوا سيتومرون برفع المركب وسحبه الى الارض اللينة في أثناء الجزر ، فاذا ما جاء المد عثوم ، وأصبح من الممكن قيادته الى عرض البحر .

سألت نجدي : « ولكن لماذا يبنى السور ثانية ، ما دام سيهدم كلما أنزل بوم جديد الى البحر ؟ » فقد كانت ستة من تلك المراكب الجميلة يجري بناؤها في تلك الاحواض ، ومثلها تبنى على الشاطئ

المكشوف ، حيث ترى مرتفعة شامخة على بقية المراكب الاخرى . فأجاب نجدي قائلا : « يحسن أن يكون المركب محميا اثناء صنعه » .

ـ لكن لماذا ؟

ـ لأن السور يبعد الجن .

ـ وماذا عن المراكب التي تبنى في الهواء الطلق على الشاطئ المكشوف ؟ أليست هي أيضا معرضة للجنة الجن ؟

ـ بلى ، ولكن بعض أصحاب المراكب وبعض النواخذة لا يبالون بالجن كثيرا في هذه الايام ، الا أن هناك شيئا واحدا يحرصون عليه حرصا كبيرا ، وهو الا تقفز امرأة واحدة فوق متن المركب الحديث البناء .

ـ ولماذا تفعل ذلك ؟ لماذا ترغب أي امرأة في القفز فوق متن مركب ؟ واذا أرادت أن تفعل ذلك ، فلماذا لا تدعوونها تفعل ما تريد ؟ «

نظر نجدي الي بدهشة واستغراب ، كأنه كان علي أن أعرف شيئا من هذه الامور بعد أن قضيت معه ستة أشهر ، وبعض الوقت مع أحمد اليمني من قبل . ثم أجاب على سؤالي قائلا :

ـ ليس هناك من يجهل ان المرأة العاقر ، التي تتخطى متن مركب حديث ، تستطيع الحمل بعد ذلك .

لقد كان هذا الخبر جديدا علي . اذا لا بد أن عقر المرأة أمر خطير جدا في الكريت ، حيث الوظيفة الاساسية للنساء هو انجاب الاطفال . ولم أكن قد سمعت بهذا الامر الغريب من قبل ، فتساءلت قائلا :

ـ اذا كان المجتمع لا يرحب بالمرأة العاقر ، واذا كانت كثرة الاولاد تعتبر بركة ونعمة ، فلماذا لا تشجع النساء العاقرات على القفز من فوق متون جميع المراكب الحديثة الصنع ؟

ـ لا يا صديقي . حياة مقابل حياة . الا تعلم ذلك ؟ هذا هو الوضع مع الجن . فاذا قنزت امرأة من فريق متن أحد المراكب الجديدة ، يكون قد انتهى عمر بعمر ، الا تعلم ذلك ؟ واذا لم يكن النواخذة هو الذي يموت ، فربما لاقى أحد النجارين حتفه ، قبل أن يتم صنع المركب وينزل الى الماء . ولذلك فان عمل المرأة هذا فال سيء . ألا توافقوني على ذلك ؟

وتابعنا سيرنا على الشاطئ ، واخذت أتخيل أنني أرى فريقا من النساء العاقرات ينظفن الملابس على صخور الشاطئ الصلبة ، وهن ينظرن بعين الحسد الى متون المراكب الجديدة . بينما أخذ نجدي يحدثني كيف كان عشرون رجلا يقومون بالحراسة ليل نهار ، عندما كان النجارون يبنون

له « فتح النير » ، خشية أن يفقد حياته ارضاء لاحدى النساء العاقرات التي ترغب في انجاب الاطفال . وقد لاحظت أيضا أن صانعي المراكب كانوا ، عندما يمدون متن المركب ، يعملون بسرعة جنونية ، الى أن ينتهرا من تركيب الالواح على كل جانب من جانبيه ، لكي يمنعوا أية امرأة عاقر من القفز فوقه . ولذلك ، فقد كان على المرأة ، التي ترغب في القفز ، أن تكون فى منتهى السرعة ، وأن تفعل ذلك فى أول يوم يبدأ النجارون فيه ببناء المركب .

وكانت معظم النساء ، اللواتي رأيناهن على طول الواجهة البحرية في صباح ذلك اليوم ، اما زنجيات أو إيرانيات ، وجميعهن متشحات بالسواد . وكان النسوة ، اللواتي يقمن بفصل الملابس في البحر ، يغطين وجوههن بالحجاب الاسود الكثيف ، مع أن أجسامهن كانت كثيرا ما تنفطس في الماء ، فتظهر تضاريس اجسادهن واضحة جليلة ، تحت ملابسهن المبللة الملتصقة بها . وكان معظمهن كبيرات السن أو هرمات ، ولكن بعضهن لم يكن كذلك . ولم يكن نجدي ينظر اليهن ، فلم يكن من اللائق للرجل أن يراقب أولئك النسوة ، وهن يقمن بأعمال الغسيل في البحر ، وكانت غالبيتهن من زوجات العمال والحمالين ، ولم أر واحدة منهن ترغب في القفز من فوق متن أحد المراكب الجديدة . فقد كان مع كل منهن تقريبا جيش جرار من الاطفال ذوي العيون الجميلة ، صبيانا وبنات ، يلعبون في الماء بينما امهاتهم يقمن بأعمالهن .

وتابعت سيرى بصمت بجانب نجدي ، وهو يحيي الاعداد الكبيرة من النواخذة الذين كانوا يجلسون على المقاعد الطويلة المصفوفة في الظل أمام بيوتهم . لقد بدأ نجدي باعطائي فكرة عن أصول السلوك الاجتماعي عندهم ، فقال أن على الماشي أن يحيي الجالس ، وعلى الراكب أن يحيي الماشي . كما أن على ربان المركب العائد من رحلة ، والغريب القادم الى المدينة أن يذهبوا للسلام على الشيوخ . وبما أن نصف النواخذة في المدينة كانوا جلوسا ، كما أن في البلدة عددا كبيرا من الشيوخ ، فقد توقعت أن أنشغل كثيرا في الايام القادمة . ولكننا كنا أحيانا نجلس ونحتسي الشراب أو القهوة أو كليهما مع بعض النواخذة أو التجار ، وعندما كان جميع البحارة وأهل البلدة الذين يمرون من أمامنا يبدأوننا السلام بقولهم « السلام عليكم » ، فنجيبهم قائلين « وعليكم السلام » ، ثم يقولون « صبحكم الله بالخير » ونحن نجيب « صبحكم الله بالخير » . وكثيرا ما كان النواخذة يعانقون نجدي ويقبلونه على الخدين ، كما كان هو يعانق الأصدقاء والأقارب . أما أولئك الذين لم يكونوا يعانقونه ، فقد كانوا

يمسكون بيده اليمنى وذراعه الايمن ، وينظرون في عينييه بشوق وحب ، ويسألونه بضع مرات متتالية عن صحته .

وقد كان من الواضح أن العادة في الكويت كانت تقضي بأن يسأل المرء عن صحة الرجل الآخر عند السلام الاول ، ما دام هذا يستطيع سماعه . وكان الناس يسألون عن الصحة بشكل لا ينقطع وبالبحاح شديد ، حتى أنه خيل الي بأنهم لم يكونوا يسمعون الاجابات . بل الواقع أنه لم يكن هناك داع لمثل الاجابات ، فقد كان من الواضح أن السائل والمستول كليهما بصحة جيدة جدا .

كنا نسير في الطريق الممتد على محاذاة الشاطئ باتجاه قصر شيخ الكويت ، صاحب السمو أحمد بن جابر الصباح ، لكي نسلم على سموه ، كما كانت العادة في الكويت بالنسبة للاغراب ، والنواخذة العائدين مؤخرا من البحر . وما كدنا نقطع نصف المسافة الى قصر الشيخ ، حتى قابلنا الشيخ نفسه وهو قادم من حول منعطف في الطريق في سيارة أمريكية الصنع ، يتقدمه ويتبعه عدد من سيارات الشحن الكبيرة المملوءة بالجنود البدو المسلحين . فقد وجد سموه أنه لم يعد من الحكمة ، بعد الفتنة التي حدثت في البلاد مؤخرا ، أن يسير في المدينة من غير حراسة ، كما كان الامر في السابق . توقفت السيارة على مقربة منا ، وتبادلنا التحية . وقد أحببت شيخ الكويت من النظرة الاولى . كان رجلا وسيما ، قوي البنية ، له شاربان سوداوان ولحية سوداء ، وعينان واسعتان نفاذتان . وكان يرتدي اللباس العربي الجميل الذي يرتديه شيوخ العرب : الجلباب الابيض الطويل ، وفوقه العباءة المصنوعة من وبر الجمال والموشاة بخيوط الذهب ، كما هو حال عباة نجدي ، الا أن التطريز على عباة الشيخ كان أكثر وأجمل . وكان يرتدي على رأسه كوفية من القماش الخفيف المشجر ، الذي لم يكن يخفي القلنسوة المحاكة على شكل نماذج من الازهار . وكان عقاله قويا . مصنوعا من الخيوط المذهبة ، ومثبتا فوق الكوفية ، حيث يبقى شكله مربعا ، كما كان الحال بالنسبة لمشايخ العرب . وكان وجهه قمحيا ، يميل الى السمرة ، ليس فيه شيء من الغموض أو اللؤم . وكان من الواضح أنه ليس حاكما مستبدا ، مما جعلني أتساءل أكثر من ذي قبل عن الداعي لتلك الفتنة التي قتل فيها محمد القطامي .

وبعد أن تبادلنا التحية ، رحب سموه بي في الكويت ، وطلب مني أن أكون ضيفه في قصره الواقع في المدينة ، والذي كان بيتا كبيرا مبنيا حول فناء ، بحذاء الجزء الشرقي من سور المدينة . وقد شكرت له حفاوته وكرمه .



ولكنني اعتذرت عن عدم قبول الدعوة لأنني أفضل ، اذا لم يكن لديه مانع ، أن أقيم مع بعض الاصدقاء ، على الاقل مؤقتا ، فقد كان لي هدف واحد من قدومي الى الكويت ، وهو أن أتعلم أكثر ما يمكنني عن المراكب ، وذلك لن يكون ممكنا وأنا حبيس أربعة جدران في قصر الشيخ * فأجاب سموه ، أنه يأمل أن أجعل من الكويت وطني الثاني ، وغادرنا بابتسامة لطيفة * وفي وقت لاحق من ذلك النهار ، تناولنا القهوة مع سموه في قصر السيف الواقع في وسط المدينة والذي كان جده العظيم ، مبارك أسد الجزيرة ، قد زين سقوف غرف النوم فيه برسوم المثلثات والملكات * ولم يكن هذا القصر مستعملا هذه الايام الا لعقد المجلس اليومي ، الذي يمكن لكل مواطن أن يحضره * ولم يعد أحد مضطرا لاستخدام غرف النوم ، وسهر الليالي أرقا ، وهر يتحسر على أولئك المثلثات والملكات المرسومات على السقوف * وفي إحدى غرف هذا القصر الغريب ، لاحظت وجود صورة شمسية للورد كيتشنر على صهوة حصان ، وكانت الصورة موقعة بخط يد صاحبها نفسه *

وقد ذهبنا أيضا وقدمنا واجب التحية للشيخ علي خليفة ، اليد اليمنى لشيخ الكويت ، ووجدناه يدخن ، وهو يجلس في ظل شرفة من شرفات مكان يشبه الحصن ، ويطل على الساحة الواسعة الواقعة في الجهة الجنوبية من المدينة ، غير بعيدة عن البوابات الرئيسية * وكانت الساحة خالية من الناس تقريبا عندما وصلنا مقر الشيخ ، لأن النهار كان قد قارب الانتصاف ، وكان دبيب الحياة في المدينة يخف كلما اشتدت حرارة الشمس * وفي مكان فسيح على مقربة من الطريق المؤدي الى البوابات ، كان قطيع من الجمال تبرك وأرجلها مربوطة على طريقة أهل البادية ، بينما كان أصحابها من البدو يتسوقون أو يتناقلون الاخبار في المدينة ، بعد أن تركوا أسلحتهم في عهدة الحرس القائمين على البوابة ، وهميونهم تكاد تبرز من محاجرها دهشة لما كانوا يرونه من عجائب السوق * وكان هذا السوق مشهورا ومعروفا لدى جميع البدو ، الذين يقطنون شمال الجزيرة العربية حتى حدود سوريا وشرقي الاردن (١) * وقد رأيت ، من مجلسي ، بدويا يسوق قطيعا من الغنم الاسود ، وهو يمشي وراءه مرتديا ملابس الرسل ، ولكنه يحمل في يده مظلة يابانية رخيصة لتقيه من حرارة الشمس ، كما كانت الجمال تتهادى بعظمة ووقار وهي تتجه الى الساحة الكبيرة ، كما كان بعض النسوة الايرانيات يخرجن من بيت أحد التجار ، وهن محجبات

من شيخ الكويت مع المعتمد البريطاني

(١) كان هذا هو الاسم القديم ، أيام الانتداب البريطاني لفلسطين ، للمملكة الاردنية الهاشمية (المترجم) *

بحجاب أسود ، الا أن أدنى سراويلهن الطويلة المطرزة ، كانت تظهر من تحت الغطاء ، وكن ، على ما يبدو ، خارجات للتسوق رغم تأخر الوقت بالنسبة لمثل هذه المهمة .

كان الشيخ علي خليفة رجلا وسيما ملتحيا في أوائل الخمسينات من العمر ، يحيط به عدد من الجنود البدو بنظراتهم القاسية ، وبنادقهم الحديثة العملية . وقد وقف لنا عندما دخلنا ، وقدمت لنا القهوة والشراب . لقد أعجبني الشيخ علي خليفة ، فعلاوة على شهرته الواسعة كمستول قدير عن الأمن - فانه كان يتحلى بروح النكتة . وكانت احدى كلماته لي اني ما دمت قد اخترت أن أقدم الى الكويت على ظهر مركب عربي ، فملي ، عندما يحين الوقت ، أن أغادر البلاد على ظهر بعير . ولكني أجبت بأني سأكون سعيدا جدا لو سافرت على ظهر مركب مرة أخرى .

ولم ينته ذلك النهار حتى كنا قد سلمنا على عدد من الشيوخ ، وكان من بينهم الشيخ عبد الله بن جابر ، الذي كان رئيسا للمحكمة المختصة بمشاكل اللؤلؤ . وقد وجدناه يأمر أحد البدو الفقراء ، بالذهاب مع النوخدة الى البحر . كما كان من بينهم الشيخ عبد الله بن سالم ، الذي كان رئيس مجلس المدينة ، والشيخ فهد ، ابن اخي الشيخ علي خليفة ، وكان هذا قد درس في الجامعة الامريكية في بيروت ، وكان يتكلم كثيرا . ثم الشيخ صباح الذي كان أميراً لأسطول الغوص على اللؤلؤ ، وقد وجدناه في أحد المقاهي الخاصة بالغواصين مقابل مسجد السوق الكبير . كما قدمنا تحياتنا لعدد من أبناء الشيخ الكبير ، وأقاربه ، ممن كانوا مسئولين عن الشرطة ، أو مخازن السلاح ، أو الادارة الحكومية ، أو خلافاها . وقد وجدنا الشيخ عبد الله بن سالم يعقد مجلسه فوق السجون المظلمة ، التي كان السجناء السياسيون يقضون بقية حياتهم فيه وهم مقيدون بالسلاسل بعد الفتنة الاخيرة ، بينما كان يحيط به عدد من وجهاء البلاد ، وهم يرتدون جلابيبهم الطويلة . وكان هذا رجلا ضخما ، ذا وجه متورد ، وعينين عميقتين ، تدلان على التفكير العميق . وكان معظم الشيوخ ، فيما عدا صباحا ، أميرال اسطول الغوص ، يرون من الحكمة أن يكون لديهم حرس من العبيد والبدو لحمايتهم ، مع أنني لم استطع أن أحكم ما اذا كان ذلك ضروريا ، أو أنه يستخدم من أجل المظهر فقط . أما شيخ الكويت نفسه ، الشيخ أحمد الجابر ، كما كان رعيته يدعونه ، فلم يكن ينتقل خطوة واحدة دون عدد كبير من الحرس الذين كان بعضهم مزودا بالمدافع الرشاشة .

ومن قصور وحصون الشيوخ ، عدنا الى الواجهة البحرية ، الى حيث يقع بيت نجدي الذي كان سوره يواجه البحر ، ونوافذ الجزء المخصص للحريم .

مشبكة لحمايتها من عيون الفضوليين • وكان بيت نجدي كبيرا ، لا يبعد كثيرا عن دار المعتمد البريطاني ، على مقربة من الاحواض التي كانت ترسو فيها مراكب الغوص الصغيرة • وكان يتألف من طابقين ، مبنيين من الحجارة المرجانية والطوب المصنوع من الطين المجفف بالشمس ، شأنه في ذلك شأن معظم بيوت المدينة الثمانمائة ، التي يسكنها حوالي سبعين ألفا من الناس (١) • وكانت الجدران غير منتظمة ، والبيوت غير مرفوعة عن الارض ، ومع ذلك فقد كانت تتمتع بشيء من الجمال ، وخاصة تلك الاشكال المتقنة الصنع ، المحفورة على الابواب الخشبية • وكانت تمتد من أسطح المنازل الى أسفل أعداد كبيرة من الميازيب التي كانت تشاهد على جوانب الطرق جميعها • وقد عجبت لماذا كل هذه الترتيبات لهدر ماء المطر في بلد ماؤه شحيح الى هذا الحد • ولكن نجدي أخبرني بأن زخات من المطر تسقط أحيانا في فصل الشتاء ، وإن الأسطح الترايبية المسطحة ، والجدران المصنوعة من الحجارة والطوب لم تكن قادرة على مقاومة المطر الغزير • ولهذا كانت البيوت مجهزة بتلك الميازيب ، التي كانت مصنوعة من جذوع شجر النخيل المجوفة ، للتخلص من ماء المطر • وقص علي كيف أن ألفين من بيوت الكويت قد تهدمت بالفعل من أثر المطر الغزير ، الذي سقط قبل عام أو عامين ، والذي لم يكن عاديا ، ولا كانت نتائجه عادية • فقد تساقط المطر خفيفا في أول الأمر مدة يومين أو ثلاثة ، مما جعل المواد التي بنيت منها البيوت تبدأ بالتحلل والارتخاء • وتلا ذلك مطر غزير مفاجيء قضى على بعض البيوت الضعيفة ، بعد أن اهترا أو تحلل معظم الطين الذي صنعت منه • وتابع نجدي روايته قائلا أن صوت تهدم البيوت كان يشبه الاصوات الصادرة عن معركة كبيرة ، وإن عددا من الضحايا قد سقط ، كما شرد الآلاف من الناس عدة شهور • ورغم هذه الحادثة لم لاحظ أن أي تحسين قد طرأ على طريقة بناء البيوت • فكانت ، عندما شاهدتها ، لا تزال بدون أسس ، ولا تزال جدرانها مبنية من الصخور المرجانية ، وإن كنت أرى هنا وهناك بعض البيوت الجديدة المقواة بالاسمنت الياباني ، وكان بعض هذه البيوت يبدو أفضل وأقوى من غيرها • وقد علمت من نجدي أن استخدام الاسمنت أخذ يتزايد ، إلا أنه كان يشك في فعاليتها ، ذلك لأن البنائين المحليين كانوا يضيفون له من الرمل أكثر مما ينبغي •

وفي الشارع القريب من منزل نجدي ، مررنا بصبي عار ، حديث الختان ، وهو يستند الى أحد الجدران ، يجهش بالبكاء ، ولم يكن عمره

.. (١) لقد حصلت على هذه الأرقام من مجلس المدينة • وكانت بيوت المدينة في ذلك الوقت قد احصيت ورقمت إلا أن الإحصائيات الأساسية لم تكن متوافرة (المؤلف) •

يزيد عن ستة أعوام . وقد أخبرني نجدي بأن « مطهر » الأولاد كان قد مر من هناك في صباح ذلك اليوم . وبعد قليل مررنا بصبيين آخرين يبكيان ، ولكن نجدي أشار الى انهما سيتغلبان على الألم بعد فترة قصيرة ، وصاح بهما أن يكفا عن ذلك التصرف الصبياني ، ولكنهما لم يلتفتا اليه واستمرا في بكائهما . ثم مر بنا أحد التجار وهو يقود صبيا ، حديث الختان أيضا ، وقد رفع جلبابه الى وسطه ، وجسمه مطلي من أسفل بنوع من المرهم الاسود ، وكان يسير كأن به عرجا ، ولكنه لم يكن يبكي ، وقد علق نجدي على ذلك قائلا « هذا رجل حقا » .

دخلنا الى بيت نجدي ، حيث كان عدد من أقاربه ، ومن النواخذة الآخرين ، والتجار ، والمتعاملين باللؤلؤ ، قد تجمعوا لتناول وجبة الغداء . وتناولنا طعامنا بصمت ، في ظل الشرفة الواقعة أمام غرفة الجلوس الرئيسية ، والمواجهة للفناء . وكانت الشرفة تستند على عمدان محفورة من الخشب الهندي . أما السقف فكان يتألف من عمدان المانجروف الافريقية المصفوفة قريبة بعضها من البعض الآخر ، تعلوها شبكة من الخيزران ، مغطاة بالحصير المصنوع من سعف النخيل العراقي ، وفوق هذا كله طبقة من الأتربة والطين . وكانت أرض الشرفة مغطاة بسجادتين عجميتين كبيرتين ، وقد مد عليهما سباط كبير من القماش الابيض ، وضع عليه الطعام . وكان هذا يتكون من خروفين محمرين محشوين ببعض الفواكه المجففة والاعشاب والبيض المسلوق ، بالإضافة الى عدد من الدجاج المشوي جيدا بحيث يمكن تقطيعه اربا بلمسة خفيفة من اليد ، وأطباق كبيرة من سمك « الزبيدي » المفلطح الشهى ، الذي اشتهر به جون الكويت ، ومن أنواع أخرى من السمك ، وتلال فوق تلال من الأرز المسلوق ، المخلوط بالزبيب وبمواد أخرى لم أستطع تمييزها ، وبكميات كبيرة من السمن ، علاوة على أطباق هائلة الحجم من البطيخ ، المجلوب من مزارع شط العرب في العراق . وكان نظام السفرة متقنا ، وسرعان ما غسلنا أيدينا ، وأخذنا نتناول الطعام بهدوء وصمت . ولم يبدأ أى من الحاضرين ، وكان عددهم يفوق الاربعين ، بالكلام الا بعد أن انتهوا جميعا من الاكل . وكان والد نجدي بين الحاضرين ، وكان يأكل بشهية جيدة ، رغم أنه جاوز السبعين من العمر . وكان هذا رجلا صغير الجسم ، ذا كرش هائل ، وعينين قويتين . نفاذتين . وكان لون بشرته أكثر بياضا من معظم الحاضرين ، مع أن كثيرا من هؤلاء ، لو ارتدوا الملابس الاوربية ، لظن الناظر اليهم أنهم أسبان أو برتغاليون . وكانت عيون بعضهم زرقاء اللون ، بينما كان غيرهم لا يختلفون عن الزوج في شيء ، الا أنهم كانوا عربا ، ينحدرون من آباء من التجار وكبار النواخذة العرب ، وأمهات من الجواري الزنجيات .

وعلى الرغم من أني كنت غريبا بالنسبة لمعظم هؤلاء الناس ، إلا أن ما كانوا يتحلون به من حسن الأدب الطبيعي كان يمنعهم من إبداء حب الاستطلاع عمن أكون وما شأني بالكويت . لقد أحببت هذه الولايم التي كانت تقام على البر . فقد كانت ممتاز بشيء واحد على الأقل عن الوجبات التي كنا نتناولها على ظهر المركب ، هو الاتساع في الأماكن المتوافرة حول الطعام . كما كان الطعام ممتازا ، وفكرة وضع الطعام على السماط دفعة واحدة والجلوس أمامه فكرة حسنة ، علاوة على الصمت ، الذي كان من الأدب أن يحافظ الجميع عليه أثناء تناول الطعام ، لأن الكلام ، كما قال نجدي ، يزعج أعصاب المعدة . وهكذا كنا نأكل كأننا لن نشبع أبدا ! لقد كان لحم الضأن ممتازا بوجه خاص ، وكذلك كان الدجاج . وكان كل من الحاضرين يفتح شهيته بدجاجة أو اثنتين ، ثم يثني بكمية كبيرة من الأرز يتناولها باليد ، ويختم ذلك بكمية تتراوح بين ثلاثة وسبعة أرطال (انجليزية) من لحم الضأن ، مع شيء من السمك . وكنت أجلس بين والد نجدي وأحد التجار ، وكان هذا يعمل يديه بطبق الأرز ولحم الضأن كأنه معول بخاري . ومن آن لآخر ، كان واحد من جاري ينتزع بضعة أرطال من اللحم الحار جدا ، أو يفلق دجاجة الى نصفين ، ويلقي بها أمامي . ورغم أني كنت قد أصبحت خبيرا بطريقة الأكل ، بعد تلك المدة الطويلة على المركب ، إلا أني لم أكن أستطيع مجاراة جيراني في سرعة الأكل . وفي مثل هذه المناسبات ، لم يكن من اللائق أن يأكل المرء بتأنق وتكلف ، بل أن آداب المائدة كانت تقضي بأن يستمتع الانسان بكمية كبيرة من الطعام . حتى لو وصلت الى نصف خروف ، وخمس دجاجات أو ست . - والواقع أني كنت جائعا في ذلك اليوم ، فقد كنت عائدا لتوي من البحر ، إلا أن الريح الجنوبية كانت تهب محملة بالرطوبة والحرارة ، مما لم يكن يشجع على الأكل . كما أني ، ورغم كل شيء لم أعود على أكل الأرز .

ومع أني أكلت كمية من الطعام تكفي لبحار مؤونة شهر ، حتى على مركب من تلك المراكب التي تدور حول رأس الرجاء الصالح ، إلا أنهم أخذوا يعيبون على شهيتي الضعيفة ، عندما انتهينا جميعا من تناول الطعام ، وقمنا بغسل أيدينا ، ثم نتجشأ ، ونشرب القهوة المطيبة بالقرنفل ، ثم نعود متثاقلين الى مجلسنا على السجادة ، في ظل الشرفة .

وبينما كنت جالسا هناك ، أنظر الى بعض المجاذيف الطويلة المكومة في جانب من الفناء والى صواري اليوم في الخارج ، بدأ والد نجدي يستفسر عن أخباري وأحوالي ، بعد أن امتلأت بطوننا بالطعام ، وحل الوقت المناسب للكلام . فسألني عن عدد أبنائي ، وعن مكان زوجاتي ، وما اذا كان ابنه

نجدى قد أحسن معاملتى ، وماذا حدث فى زنجبار ، الى غير ذلك من الاسئلة . وقد همس معيوف البدر فى أذنى قائلا أن السيد سليمان ، الذى كان قد ودع نجدى بالعناق الحار ، قد كتب الى أبيه يروى له سلوك أبنته المعيب فى تلك الجزيرة الافريقية . وقد أجبت على الاسئلة قائلا انى لا أعرف شيئا عن زنجبار ، وانى للأسف ليس لى أبناء ، ولا حريم ! وقد بدا الاستغراب على وجه الجميع ، وأخذوا يرددون بدهشة : « ماذا ، ليس لديك حريم ؟ » وكنت أجيب بقولى : « لا لست متزوجا ، لأنى أفضل المراكب على النساء ! » وكانت صيحات الاستهجان أعلى من قبل : « ماذا ؟ تفضل المراكب على النساء ؟ » ثم انفجر الجميع بالضحك ، كان ما قلته نكتة كبيرة ، وبدأوا يعلقون على كلامى بعبارات مختلفة ، كقول والد نجدى ان المراكب لا تنجب الابناء . ولكنى أفهمتهم أنى لم أكن بحاجة الى الابناء فى أوروبا كما أعرفها . وقد وافقنى الرجل العجوز على ذلك . ولكنه تساءل لماذا لا أمكث معهم فى الكويت ، فان فيها عددا كبيرا من الفتيات اللطيفات ، ومن الممكن ، بل من السهل ، أن أستقر فيها .

وقد راق هذا الاقتراح للتجار والبحارة المجتمعين هناك ، ولاقى منهم قبولا حسنا ، كما خيل الى أن هناك ما يزكى هذا الاقتراح . والواقع أن أولئك النواخذة الكويتيين يمكن أن يحسدوا من عدة نواح على الحياة التى كانوا يحيونها . فقد أحببت بيوتهم الممتدة على الطريق المحاذى للشاطئ ، ومنظر المراكب التى لا تنقطع عن الحركة والنشاط أمام تلك البيوت . وأحببت تلك المراكب السريعة الجميلة ، التى كانوا يبحرون على متونها الى زنجبار ، والى ساحل ملابار ، والى الصومال واليمن . وأحببت كرم ضيافتهم التى لا حدود لها ، كما أحببت بعدهم عن النفاق والرياء . وأخذت فى تلك اللحظة أتصور ما يمكن أن أؤديه من الاعمال المفيدة على تلك الواجهة البحرية ، كأن أتعرف على المزيد من تاريخ الملاحة عند العرب ، وأن أبذل ما أستطيع من جهد لتحسين نوعية المراكب بتطوير أعمال بنائها ، ولزيادة الاهتمام بالممرات المائية وبطريقة حماية المراسى من البحر ، ولتحسين طريقة تثبيت الصورى فى المراكب ، وخياطة الاشرعة ، وربما لإنشاء مدرسة بحرية أيضا . وكان الطلب على انشاء مثل هذه المدرسة كبيرا ، فلم يكن جيل النواخذة الكبار السن راضيا عن ضياع علم الملاحة الصحيح من أذهان الجيل الجديد ، فلم يكن بين هؤلاء عدد كبير ممن يعرفون طريقهم فى البحر على الوجه السليم ، بل كانوا قانعين بالابحار بمحاذاة السواحل . وهنا قطع على والد نجدى حبل تفكيرى بأن قدم عرضا هائلا ، بأن يبحث لى عن عدد من الفتيات الجميلات ذوات العيون السوداء الرائعة ليقمن على خدمتى ، ويجعلن مقامى فى هذا المكان البحرى جنة من جنات الفردوس .

ولكن ذلك كله لم يكن الا أضغاث أحلام . لقد كانت الفكرة رائعة ولكننا لا نستطيع فى هذه الايام أن نتخلص بسهولة من أنفسنا ، أو من تلك الفوضى التى تسببنا فيها .

أما وقد امتلأت بطوننا ، فقد أخذنا الى النوم ، يخفف وطء الحر عنا تلك النسمات الباردة ، التى كانت تولدها المراوح التى كان العبيد يهزونها ، ونحن مستلقون فى ظل الشرفة . هذه هى الحياة التى كانوا يتمتعون بها . وقد سألنى نجدي ما اذا كان بإمكان أمريكا أو انجلترا أن تقدم أفضل من هذه الحياة ، ولم يكن الجواب سهلاً . وما دام الامر كذلك ، فلماذا أفكر فى مغادرة البلاد ؟ وكان جوابى أنى لم أمض فى الكويت الا يوماً واحداً ، وأنى سأفكر فى الأمر فيما بعد .

وعندما استيقظنا من النوم ، شربنا الشاي ، وتناولنا شيئاً من الكعك الذى أتوا به من مخبز إيراني مجاور ، ثم بدأ الضيوف يغادروننا لأداء الصلاة ، بينما أداها أهل البيت على الشرفة . وكان الوقت عصراً ، وبدأنا نسمع أصوات الاعمال المختلفة ، التى كان البحارة يقومون بها وهم يغنون ويرقصون ، بعد أن استأنفوا العمل عقب القيلولة ، وهى تتردد فى جنبات الشاطيء ، فخرجنا نسير الهويناً ، مروراً بمراكب الفوص الواقعة على الشاطيء ، والتى لم يسافر بعضها منذ سنين ، ونحن متجهون نحو القصر المهجور الذى كان يملكه شيخ « المحمرة » ، ونحو السور القائم على الطرف الشرقى من المدينة . وكان قصر شيخ المحمرة هذا من المعالم البارزة ما بين دار المعتمد البريطانى وقصر السيف ، وقريباً منه كان ملحق الحريم . ويتألف هذا من عدد من المباني الكبيرة ، التى تقوم وحدها على قطعة فسيحة من الارض ، والتى تبدو كأنها تنطق بالحزن والأسى على نفسها وهى تنتظر حيلة سنوات طوال ، عودة صاحبها اليها . وفى أقدم تلك البنايات ، لا تزال تعيش احدى أرامل الشيخ ، وأصغرهن سنا ، وهى أرملة عروس كان قد تزوج بها أثناء رحلته الاخيرة الى الكويت ، ولكنه لم يدخل بها ، لأنه مرض وانتقل الى جوار ربه بعد الزواج منها مباشرة . وما هى تعيش الآن ، تلك الأرملة العذراء ، التى لم تعد صغيرة السن . ولم تتح لى الفرصة ، طبعاً ، أن أرى تلك الفتاة ، بل أنى لم ألحظ أى أثر للحياة فى أى من تلك البيوت . الا أن صندوق زفاف تلك الفتاة ، وهو صندوق عربى كبير مصنوع من خشب الساج ، ومطعم بأشكال جميلة من النحاس الاصفر المطروق ، ما زال موجوداً فى قاعة الاستقبال فى دار المعتمد البريطانى بالكويت . وقد أكد لى المعتمد نفسه أن الارملة ما زالت تسكن القصر .

وكانت هناك على طول الواجهة البحرية مجموعة من مصائد الأسماك

(الحضرات) ، كما كان عدد من جنود الشيخ من البدو يصيدون الطيور .
كما مررنا ببيت كبير مهجور آيل للسقوط ، قال نجدى أنه يخص أحد التجار ،
وان هذا يملك أكياسا مملوءة باللؤلؤ ، التى لم يكن لها سوق رائجة فى الوقت .
الحاضر . وكان التاجر قد اشترى اللؤلؤ قبل الكساد الأخير ، الا أنه لم
يستطع أن يبيعه بسعر معقول ، وهو ما ازل متمسكا بتلك الجواهر بكل عزم
واصرار ومكابرة ، مع أنه بهذا خسر بيته ، ومراكبه وتجارته ، وكل ما يملك ،
فيما عدا اللآلىء ، التى لم تكن تساوى الآن عشر معشار ما دفع ثمنها لها .
فلم يكن المسكين يستطيع أن يقنع نفسه بأن عليه أن يتخلص من تلك اللآلىء
بأى ثمن وهكذا فقد فقد كل شيء ، ولكنه ظل متمسكا باللآلىء .

وهناك فى الميناء ، كان بومان كبيران قادمين بخفة ورشاقة كالأوز
الجميل ، وأشرعتهما الجميلة البيضاء تخفق فى الريح ، بعد أن كانا قد
تخلصا من حمولتهما من الاخشاب . وكان بحارتهما يدخلون المرسى وهم
يقرعون الطبول ويهزجون ، فتتجاوب أصواتهم فى أرجاء الميناء . فأخذ نجدى
ينظر إليهما بشيء من الحسد ، قائلا : « هكذا كان يجب أن ندخل المدينة ،
لا تحت جناح الظلام ، كما كتب لنا أن نفعل » . لقد كان نجدى لا يزال يشعر
بغصة من هذا الأمر .

عدنا أدراجنا عن طريق الأزقة الخلفية الملتوية ، التى تتفرع من
« الكورنيش » ، والتى تمر من بين بيوت لا نوافذ لها ، ولا يرى منها سوى
جدرانها المبنية من الطين ، وسوى تلك الميازيب المنحدرة من الأسطح . وهنا
وهناك كنا نمر ببعض البحارة أو النواخذة وهم جلوس فى الظل . وفى
أحدى المرات ، انضممنا الى مجموعة منهم يتناقشون فى رحلة عودة سيئة من
ساحل ملابار ، وكان أحد النواخذة الملتحين يرسم الطريق التى سلكها على
الرمل بعضا من عصى زنجبار . فكان يرسم الهند هنا ، ثم الجزيرة العربية هنا ،
وهنا الخليج العربى . ثم بدا يشرح كيف غادر ميناء كاليكوت بصحبة مركبين
آخرين ، قاصدا مسقط لتسليم كمية من البضائع . وأخذ يروى أن الريح
الشمالية الشرقية كانت تهب هادئة جدا على بحر العرب ، باتجاه الجنوب
الغربى . وقد ذكر أن الريح لم تتح لهم الفرصة المناسبة للبحار الجيد قط .
فكانت المراكب الثلاثة تنجرف ببطء شديد ، عبر المحيط الهندي باتجاه
سومطرة ، ولم يكن ذلك يفيدهم فى شيء . وقد حاولوا ان يعودوا الى الهند
ولكن التيار كان معاكسا لهم ، فلم يمكنهم من ذلك . وتدرجيا ، توقفوا
توقفا كليا تقريبا . ومرت الايام ثم الأسابيع ، ولم يطرأ أى تغير على
الطقس ، ولم يكونوا يعرفون أين هم ، فلم يكن بين البحارة جميعا الا
اثنان يعرفان استعمال آلة قياس الأبعاد على الوجه السليم . وقد اغتنم

هؤلاء فرصة طقس صاف وحددا المكان الذي كانوا فيه . وكان هذان على المركب نفسه ، الا أن المراكب الثلاثة كانت تبجر معا ، وقد ظلت كذلك . ثم مضى شهران كاملان ، ونفذ الماء من أحد المراكب ، فأعطاه المركبان الآخران شيئا منه . ومضى سبعون يوما ، فنفذ الماء من اثنين من المراكب ، كما كان الماء في المركب الثالث على وشك النفاذ أيضا . وما زالت الظروف الجوية على حالها ، ولم يسقط المطر ليستفيدوا منه كماء للشرب . كما كانت المراكب واقفة بعيدا عن طريق السفن البخارية . وفي اليوم الخامس والسبعين ، نفذ الماء من جميع المراكب . فاغتنموا فرصة الهدوء ، وتجمعوا جميعا على ظهر مركب واحد ، وأدوا صلاة الاستسقاء . وما كادوا يفعلون ذلك حتى هبت عليهم عاصفة قوية ، جلبت معها المطر الغزير ، الذي كان شريان الحياة بالنسبة لهم ، كما ساعد هبوب الريح للمرة الاولى على الابحار ثانية . وختم النوخة كلامه قائلا : « نعم ، الله كريم » ! .

وقد وافقت أن تلك كانت ضربة حظ موفقة بلا شك ، ولكنني تساءلت كيف يمكن أن تطول المدة الى هذا الحد لقطع مسافة قصيرة كهذه المسافة . فأجاب نجدي بأن الريح تكون عادة ضعيفة جدا في منتصف فصل الصيف ، وأن المسافة ما بين ساحل ملابار ومسقط طويلة . فاذا صدف أن ابتعد المركب عن مساره ، فليس من السهل أن يعود اليه ثانية . كما أن المركب يحمل من الماء ما يكفيه سبعين يوما ، فلم يكن من المحتمل أبدا أن تطول تلك الرحلة أكثر من ذلك . وأضاف نجدي قائلا أنه كان شخصيا يضطر الى التزود بالماء من سوقطرة ، عندما كان يقوم برحلاته الى الهند . وكانت هذه طريقة المراكب الاخرى . وعلى كل حال ، فان كل شيء مرهون بمشيئة الله ، والله كريم دائما ! وقد علقت على كلام نجدي قائلا ان هذه فلسفة مريحة بلا شك ، الا أن معرفة أفضل بأصول الملاحة لها ميزتها الكبيرة أيضا . وقد وافقني نجدي على ذلك ، ولكنه قال أنه ما باليد حيلة . فلم تكن هناك مدرسة بحرية في الكويت ، ولا في أي بلد آخر في الجزيرة العربية بأسرها . كما أن أية معلومات ملاحية لن يكون لها أي تأثير على الريح . ولذلك فان كل شيء مرهون بإرادة الله ، التي يجب أن ينحني لها الجميع .

إذا ، لا بد أن ارادة الله أيضا كانت وراء فقدان المركب الكبير « نور البحار » ، الذي سمعت عنه روايات متناقضة في ذلك اليوم . فلم يكن هناك اجماع حتى على اسم المركب ، مع أنني تعادلت مع قبطانه ومع عدد من البحارة الذين كانوا على ظهره . فكان البعض يدعونه « نور البحر » ، والبعض الآخر « نور البحر والبر » وغيرهم « روح المحيطات » ،

الى غير ذلك من الاسماء . وكان هذا مركبا مشهورا ، تبلغ حمولته حوالى (٥٠٠) طن ، قام الكوييتيون ببنائه على شاطئء ملابار منذ حوالى ٢٠ عاما . وان كان بعض الغموض يكتنف هذا أيضا . ولكنه فقد في رحلته الاولى . وكان قد بني على ساحل ملابار ، لتوفير نفقات شحن الخشب اللازم لبنائه من الهند الى الكويت ، وبدلا من ذلك ، ذهب صانعو المركب الى حيث يوجد الخشب . ولكن هذه الفكرة لم تكن موفقة ، كما كان يتوقع لها ان تكون ، ذلك لأن مستوى العمال المحليين كان منخفضا ، مما جعل بناءه يستغرق ستة اشهر كاملة ، ويكلف (١٢٠) ألف روبية . وكان المركب يبنى لحساب التاجر البحريني عبد الرحمن الزباني ، وكان قبطنه كويتيا . أما المشرفان على بنائه فقد كانا صانعي المراكب المشهورين سالم بن راشد ومحمد الثويني . وكان طاقم البحارة خلال الرحلة الوحيدة يتألف من سبعة وثلاثين كويتيا ، وأربعين رجلا من كاليكوت ، لهم خبرة طويلة بالطرق البحرية ، وثلاثة من الصبيان . وكان بإمكان ذلك اليوم أن يحمل (٧٥٠٠) جلة من تمر البصرة ، كما كانت حباله تتألف من تسعة عشر حبالا من الألياف المجدولة ، وبموجب كلام « الخياط » سعود ، الذي كان يبحر على ظهر المركب ، فقد كان بإمكان البحار ان يتسلق تلك الحبال بسهولة كبيرة حتى يصل الى أعلى الصاري الرئيسي تماما . وتقول الرواية أن المركب أخذ حمولته الكاملة من كاليكوت ، ونزل الى البحر على دوي الطبول ، وأهازيج البحارة ، والأعلام تزيينه من جميع أنحائه ، وأبحر بأمان الله طيلة النهار ، الا أنه واجه عاصفة هوجاء مصحوبة بالمطر الغزير خلال الليل ، مما تسبب بغمره بالماء وغرقه . ومما ساعد على ذلك تشبع الليف الذي كان يحمله بالماء ، مما زاد في وزنه ، فانفجر وغطست أجزاؤه للمرة الاخيرة ، وغمرت بالمياه . اما سعود ، الذي كان يروي القصة ، فقد اضطر للسباحة ليلة ويوما الى أن وصل الى الشاطئء ، وكانت بعض الندوب لا تزال على جسده من أثر الاخشاب المتناثرة من الانفجار .

وقد تمكنت من مقابلة نوحدة المركب في اليوم نفسه . وكان ذلك عندما كنت أتمشى مع نجدي في السوق . وكان الرجل قد تقدمت به السن ، وابتضت لحيته ، الا أنه كان لا يزال يقود المراكب في البحر . لقد كان غرق اليوم الكبير ، بحسب رأيه ، عملا الهيا ، فقد شاءت ارادة الله أن يفرق . ولكني لم أقتنع بهذا الكلام بالطبع ، وكنت موقنا بأن خطأ جسيما لا بد أن يكون قد وقع اثناء بناء المركب ، غير ارادة الله ، مما جعله لا يستطيع مقاومة هبة واحدة من الريح وزخنة واحدة من المطر ، فقد كان الامر غريبا جدا . وعندما سألته لماذا لم يغط الحمولة بما يحميها من المطر ، أجاب بأنه لم يفعل ذلك لأنه لم يتوقع هطول المطر ،



السوق المسقوف في الكويت

الا أن الله أرسله لحكمة لا يعلمها الا هو • لقد شاءت ارادة الله بألا يكمل
الركب الكبير رحلته الاولى • ولكن الكويتيين تعلموا درسهم من تلك
الحادثة ، فلم يعودوا يفامرون بالذهاب الى ساحل ملابار لبناء
مراكبهم هناك ، بل دأبوا على صنعها في الكويت منذ ذلك التاريخ •

هكذا كنت أمضي وقتي في الكويت ، تلك المدينة المدهشة ، التي ظلت
مصدر متعة لي مدة أربعة أشهر كاملة • وهذا لا يعني أنني قضيت تلك
المدة كلها في المدينة ، فقد قمت خلال ذلك برحلة مع الغواصين على اللؤلؤ ،
كما تجولت هنا وهناك وذهبت الى ساحل الاحساء ، والى العراق والى جزر
الخليج • ولكن المدة كلها كانت ممتعة لدرجة كبيرة جدا ، فقد كنت أتعلم
شيئا جديدا في كل يوم ، وفي كل مرة أتمشى فيها على طول الواجهة
البحرية • الا اني في النهاية اضطررت الى مغادرة البلاد وأنا واثق أنني لم
أتعلم الا القليل • وفي بداية الامر كنت أعيش مع اصدقائي من آل الحمد ،
في منزلهم الريفي المسور القائم على شط الخليج ، في الدمنة (١) ، خارج
مدينة الكويت • وهناك كنا نعيش عيشة العرب المترفين ، نتغدى سمكا
ونتعشى الخرفان المحشوة يوما بعد يوم • كما كنا نسبح في البحر صباحا ،

(١) السامية ، حاليا • (المترجم) •

قبل طلوع الشمس ومساء عند الغروب ، وثناء ساعات القيلولة ، وفي بعض الاحيان كان يزورنا بعض النواخذة ، فنجلس نتحدث عن البحر وأسفاره . وفي أحيان أخرى كان يأتينا تجار اللؤلؤ ، أو زوار قادمون من أماكن بعيدة جدا كسوريا ، وسنغافورة ، وحرار ، وزنجبار ، فقد كان آل الحمد من أكبر تجار الكويت ، فكانوا يملكون المراكب والمزارع ، كما كانوا من كبار رجال الاعمال الذين تمتد مراكز عملهم من الكويت الى البصرة الى عدن ، مع فروع على طول ساحل البحر الأحمر . وكان هؤلاء خمسة أخوة ، ينحدرون من والدهم الجليل عبد اللطيف الحمد ، الذي كانت قد مضت على وفاته بضع سنوات، وهم خالد ، وأحمد ، ويوسف ، وعلي ، وعبد الله . فكان خالد يدير أعمالهم في مركز عدن ، وأحمد يهتم بأمور منزلهم في البصرة ، بينما يدير يوسف أعمالهم في الكويت . وكان علي يأخذ قسطا من الراحة والاستجمام في ذلك الوقت ، بينما كان عبد الله مسافرا الى الهند . وكان هذا الأخير قد عاد مؤخرا من بربرة ليساعد في موسم التمور ، قبل أن يسافر الى كلكتا في الهند ، أو الى أي مكان آخر يبعث به أخوته اليه . وكان عبد الله دائما جاهزا للسفر الى أي مكان من غير انذار سابق ، بل أنه كان يتمنى لو يرسله أخوته في رحلة الى أمريكا .

اسرة بدوية



وهكذا عشت في الدمنة ، مع الأخوة الثلاثة • وكنا ننام على قطعة أرض رملية تقع خارج أسوار البيت ، يحيط بها جدار منخفض من الاسمنت ، لابعاد الأفاعي عن النائمين ، وكانت تلك الأرض قريبة من الشاطئ ، فكنا ننام على وشوشة الامواج الهادئة ، نفتش الأرض ونلتحف السماء بنجومها المتألثة ، ونصحو عند الفجر لنسبح في البحر • لقد كانت حياة هائلة لطيفة • وهنا كان الرجال يجتمعون قبل النوم ، وكان الحديث يدور عن البحر والمراكب ، والتجارة البحرية ، وكان كثير من النواخذة الذين يزوروننا من أولئك الذين ينقلون بضائع آل الحمد ، وكانوا جميعا من أصدقاء الأسرة الحميين • وكلما كانت مراكبهم تعود الى الكويت ، كانوا يرجون على بيت آل الحمد في الدمنة • وكنت دائما أجد متعة كبيرة في الحديث الى هؤلاء النواخذة ، الا أن أكثرهم امتاعا كان ذلك النواخذة القوي الجسم معيوف البدر ، الذي كان ينحدر من أحد تجار أسرة البدر ، ومن أم حبشية • وكان هذا يقود مركب آل الحمد المسمى « فتح الرحمن » ، وكان عائدا لتوه من رحلة حمل فيها تمر البصرة الى جيزان وعاد بشحنة من الصابون اوصلها من عدن الى البصرة • لقد كان معيوف نواخذة مشهورا ، ورجلا وسيما يتمتع برجولة خارقة • وكان عادة يأتي في الصباح الباكر بعد صلاة الصبح بقليل ، قادما من مدينة الكويت مشيا على الأقدام ، بعد أن يكون قد قضى على كل ما يجده من الزبد على المائدة بحيث لا يترك لأبنائه شيئا منه ، فقد كان يحب الزبد حبا عظيما ، ويأكله أينما وجد • وقد أحببت معيوبا هذا ، لأنه كان رجلا قويا مستقيما ، يعرف ما يريد ، ويأخذه اذا أمكنه ذلك • وعندما كان يسير ، كان يخب في نعليه ، وهو يضع عباءته فوق رأسه اتقاء لحرارة الشمس ، بينما شراريبها تتدلى على الجانبين • وكانت أحاديثه عن البحر مذهلة ، بل أنها ربما كانت صادقة في بعض الأحيان • فلم يكن من المألوف مثلا أن يتوغل المركب الكويتي الكبير في مياه البحر الاحمر حتى يصل الى جيزان ، بل كانت الحديدة هي الحد الأقصى لما ينبغي أن تصل اليه تلك المراكب ، التي كان معظمها لا يتجاوز عدن • الا أن معيوبا كان يفخر بأنه تمكن من قيادة مركبه في تلك المياه المملوءة بالشعاب المرجانية ، حتى وصل الى جيزان ، ولكنه لم يكن يفخر بأنه اضطر لتمضية خمسة وستين يوما في رحلة العودة من جيزان الى عدن ، دون أن يكون على ظهر المركب أية شحنة من أي نوع •

وكان مجموعة أصدقائي تتألف من معيوف ، وسعود ، وصانع الجلابيب ، وعبد الله ، أصغر أبناء الحمد ، ونجدي ، وعلي عبد اللطيف ، وكانت الأيام تمر بصحبتهم لطيفة ممتعة ونحن نتنقل ما بين الكويت والدمنة • ورغم حرارة الجو القاتلة ، الا أن الحياة كانت منظمة بطريقة

توافق ذلك الجو . فقد كانت الرياح الشمالية تأتي معها ، وهي تعبر جون الكويت ، بالتراب والرمل اللاسع ، بينما كان الهدوء والرياح الجنوبية يأتيان بالרטوبة . ولكن الطقس كان دائما أفضل في الدمنة منه في الكويت نفسها ، ذلك لأن ريح البحر الباردة كانت تخفف من وطأة الحر ، ولم يكن « الطوز » شديدا فيها . ولما لم تكن من عادة العربي أن يبتعد عن لنعود الى ما كنا فعلناه في الصباح ، ونزور ونزار ، ونجلس في الحوانيت كل صباح ، فنصل الى هناك في الساعة السادسة والنصف ، ونمضي الصباح هناك نزور ونزار ، ونرشف القهوة ، ونتحدث ، ونزور مرة هذا التاجر ومرة ذاك ، ونذهب للتسليم على الشيوخ وكبار القوم ، ونجلس على السجاد خارج الحوانيت او داخلها ، نتفرج على الحياة النشطة جدا من حولنا . وهكذا كان الصباح بأكمله يمر ، الى أن تبلغ الساعة الحادية عشرة ، وعندها كنا نعود الى الدمنة لتناول طعام الغداء . وما أن نفعل ذلك حتى نقيّل ، ثم نصحو ونستحم في البحر ، ونشرب الشاي ، ثم ننطلق الى الواجهة البحرية والسوق مرة أخرى ، عندما يبرد الجو قليلا عند العصر ، السوق يوما بأكمله ، ان تيسر له ذلك ، فقد كنا نذهب الى سوق الكويت نستمع الى حكايات لطيفة واسطوانات رديئة . وهكذا كان التجار يمضون أوقاتهم ، بينما كانت أعمالهم تزدهر ، ويكتسي النواخذة باللحم والشحم من الطعام الشهي الذي يتناولونه ، ويزدادون كسلا وتراخيا من كثرة تمتعهم بنسائهم . وقد عبر معيوف عن ذلك مرة بقوله « نحن لا نفعل شيئا سوى الصلاة والأكل والتمتع بالنساء » . وهذا أمر حسن بالطبع . ولكن العودة الى البحر حسنة أيضا .

هذه هي الحياة الناعمة التي كان يحيها التجار والنواخذة ، أما البحارة فلم يكن لهم نصيب منها . فبعد بضعة أيام ، لاحظت أن الوجوه المألوفة للبحارة الذين كانوا يعملون على ظهر « فتح الخير » قد اختفت من السوق ، بعد أن ذهب أصحابها في رحلة الغوص على اللؤلؤ . فمراكب الغوص تبدأ موسمها بعد عودة المراكب الكبيرة من تجارتها في الخارج ، وتنتهي موسمها عندما يحين الوقت لاقلاع المراكب الكبيرة في رحلتها السنوية مرة أخرى . وفي معظم الحالات ، يعمل نفس البحارة على النوعين من المراكب ، ولذلك فإن الحياة ، لا شك ، شاقة جدا بالنسبة لهم . الا أنهم كانوا ، عندما يعودون من رحلاتهم الطويلة ، يمضون بضعة أيام وهم يرتدون أفضل ملابسهم ويتبخثرون في السوق ، يطوحون بعصيتهم ، أو يعدون حبات مسابحهم ، أو يجلسون في المقاهي يدخنون النرجيل ، ويتزاورون ويقصون القصص والحكايات . ولم يكن لبعضهم بيت يأوي اليه ، ولكن هذا الأمر لم يكن مشكلة عويصة ، لأن بإمكان البحار أن ينام على رمل الشاطئ ، او على

جانب الشارع • وكان الشاطئ ، الممتد على طول الواجهة البحرية ، تتجاوب فيه اصدااء شخيرهم وهم نائمون عليه ، وكل منهم متدثر بعباءته ، ومستلق تحت النجوم • ولم يكن البحار ، اذا كان عزبا شابا ، يلزمه الكثير ليتدبر أمره ، فلم يكن الطعام يكلفه أكثر من بضع أنات يوميا • أما اذا لم يكن معه شيء من المال البتة ، فانه لن يموت جوعا ، فهناك دائما سباط ممدود يمكنه أن ينضم الى الجالسين حوله ، كما أن كساءه لم يكن يزيد عن جلباب وعباءة وكوفية وعقال • وهذا كل ما يملك عادة ، كما انه لم يكن يملك فراشا ينام عليه • أما صندوق أمتعته ، فهو مودع مع بقية معدات المركب حيث يقف ، بانتظار الاقلاع مرة أخرى ، فهو لا يحتاجه لرحلة الفوص • فلم يكن الصندوق يستخدم في الواقع لحفظ ملابسه ، بل كان يحفظ فيه بعض السلع التي كان يتاجر بها ، اثناء الرحلات الطويلة ، وذلك لأنه لم يكن لدى أفضل البحارة ما يملأ نصف هذا الصندوق ، ولو أمكنه ذلك لأقدم على بيع تلك الملابس • وكان الشباب غير المتزوجين ينامون على الشاطئ في ظل تلك المراكب التي كانوا يقومون على خدمتها بكل أمانة واخلاص ، وهم سعداء لا يحملون هما ، وأجسامهم سليمة قوية في أفضل حالاتها • أما عندما ينتهي موسم الفوص فقد كانت الامور تختلف ، فالفوص عمل شاق جدا •

ومرت الأيام والأسابيع على هذا المنوال • وفي خلال ذلك ، كان يوسف العجوز قد ذهب الى الفوص بدلا من أخيه المتوفى ، كما وصل عبد الله القطامي ، وأوقف بومه على الشاطئ مقابل بيته القائم على الواجهة البحرية • ووصل أيضا العبد الوهاب ، ورضوان على بغلته ، وغانم بن عثمان على بومه الكبير ، ويوسف بن عيسى ، وناصر على مركبه الصغير « القطة » ، ومحمود على ظهر مركبه « نجمة الصبح » ، وموسى ، وعيسى ، وحمود ، واسماعيل ، ومحمد ، وسعيد بن علي — لقد وصل هؤلاء جميعا ، وأصبح المكان ، الذي يجلسون فيه في الظل قبالة الواجهة البحرية ، يكتظ بالنواخذة ، كما كانت شوارع السوق تزدهم بهم ، ولكن لم تصل أية أخبار عن مركب بدر المسمى « بدري » •

ولكن ما أن انقضى على وصولنا شهر من الزمن ، حتى كان « بدري » قد ظهر في مسقط بعد رحلة طويلة من زنجبار ، ثم تابع سيره الى قطر لانزال بعض البضاعة • وكان شيء من المتاعب قد صادفه ، في تلك الليلة العاصفة التي أمضيها قبالة ساحل « ماليندي » ، وفي الليلة الاخرى مقابل « كيسيمايو » • أما عبد الله ، شقيق نجدي ، فلم يكن قد عاد بعد ، الا أن بعض الأخبار وصلتنا عنه • فقد كان آتيا من موقاديشو على مركب

العمانيين ، وكان سفره بطيئاً لأنه كان يضطر للتنقل من مركب الى آخر على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية . وكان من المنتظر أن يصل الكويت خلال شهر . ولم يكن بحارة مركبنا قد تسلموا أجورهم . فلم تكن الأنصبة قد وزعت بعد ، الا أن « نجدي » كان يعطيهم ما يحتاجون اليه من المال . وواقع الامر أن كثيراً منهم سيكونون قد استنفذوا جميع ما يستحقون من المال ، عندما يحسب حساب الحصص ، لأن نظام السلف والديون كان يلتهم كل ما يجنون . فقد كان من الصعب ألا يكون البحار مديناً ، بل أنني لاحظت أن أحدا منهم لم يكن يبالي أو يحاول ألا يكون كذلك . وكان من الواضح أن الدين كان أمراً مقبولا ، ولم تكن هناك غضاضة في أن يكون المرء مديناً للآخرين . فقد كان البحارة مدينين للنواخذة ، والنواخذة للتجار ، والتجار لتجار آخرين أو للشيخ نفسه . وعلى هذا فقد كان الجانب الاقتصادي من ميناء الكويت متاهة مظلمة ، لاضطرار الجميع الى العمل من غير نظام مصرفي ، أو تأمين ، أو ربا ، أو حتى فائدة - فقد كانت هذه كلها محظورة ، على الأقل نظريا ، في الشرع الاسلامي . وكان من الواضح أيضا أن النواخذة ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للمراكب ، لم يكونوا الملاك الحقيقيين لها ، بل كان التجار أصحابها الفعليين ، وكان هؤلاء ، على ما يبدو ، يجدون من الأنسب لهم أن يمولوا النواخذة ، على أن يتحملوا بأنفسهم مسئولية ادارة المركب ، وكان لهذا أسباب كثيرة ممتازة ، فربما كانوا يدفعون لأصحاب المراكب لقاء تمويلهم لها ، أكثر مما يتوقع من المراكب أن تجنيه بطريقة قانونية . وبعبارة أخرى ، فإن المال الذي كان يسلف للنواخذة للابحار في المراكب وادارتها لحسابهم ، كان يعود على أصحابه بعائد أكبر مما يمكن أن تربحه نفس الأموال ، فيما لو استثمرت في المركب بشكل مباشر ، ثم قام أصحابها بدفع أجور النواخذة للابحار بها . لقد كان التجار يجنون الربح الوفير من هذه الطريقة ، كما كان النواخذة يعيشون عيشة راضية ، الا أنه كان يبدو لي بأن هذا النظام يمكن التجار من امتلاك النواخذة أيضا ، علاوة على المراكب ، لأنه لم يكن هناك أمل في أن يتحلل النواخذة من الدين . ولكنني لاحظت أن هؤلاء لم يكونوا يبذلون أي جهد للتخلص من ديونهم ، فقد كانوا يعيشون عيشة راضية ، وكانوا قانعين بذلك . أما اذا تمكن أحدهم من أن يفعل ذلك ، فربما أصبح هو نفسه تاجرا . ولكنني لم أسمع بأن أحدا من التجار كان يعمل نواخذة من قبل .

وكان النواخذة بدورهم يملكون رقاب البحارة ، الذين كانوا يعتبرون مرتبطين بالنواخذة الذي يدينون له بشيء من المال ، وكان معظمهم على هذا الحال . وهكذا كان النواخذة مرتبطين بالتجار ، والبحارة مرتبطين بالنواخذة ، وان لم يكن هؤلاء عبيدا ، بل لم يكن هناك رق بالكويت ، اذ لم

تكن الحاجة تدعو اليه ، فقد أصبح الرقيق غير مجد من الناحية الاقتصادية ، فكان من الافضل أن يستفيد المرء من عمل الرجل ، بدلا من أن يكون مضطرا لاعالته ، فاذا كنت تستفيد من عمله ، فلا داعي لأن تتحمل مسئولية اعالته هو وأسرته (١) .

لقد كان من المفروض أن أرافق يوسف العجوز في رحلة الغوص ، كما كنت أعتزم ، الا أنني لم أجد متسعا على ظهر المركب ، فقد ذهب على ظهر سمبوك صغير بعد وصولنا الى الكويت بحوالى أسبوعين . ومع أن السمبوك لم يزد طوله عن ستة وأربعين قدما ، فقد كان على ظهره أكثر من ستين رجلا ، ولم أستطع أن أتصور كيف يمكن لهذا العدد من الناس أن يناموا على سطح المركب ، الا اذا كانوا ينامون طبقات بعضهم فوق بعض ، الا أنهم انطلقوا جميعا وهم يهزجون بقوة ونشاط ، بل أن يوسف نفسه كان يهزج بنفس القوة والحماس ، ويساعد في التجديف أيضا . وكان الصباح الذي أقلعوا فيه حارا ، ساكنا ، لا تهب فيه نسمة واحدة . وقد انطلق سبعة وخمسون مركبا في نفس الصباح ، وجميعها مزينة بالأعلام ، بينما بحارتهما يغنون ويقرعون الطبول ، وكان يتقدم الجميع ويقودهم سمبوك جميل يقوده أمير البحر الشيخ صباح ، وكانت المراكب تبدو كأنها اسطول من السفن الحربية المنطلقة من ميناء صور اللبناني قبل ألفي سنة أو تزيد ، ومجازيفها تلمع في ضوء الشمس الساطع ، بينما هياكلها ، المدهونة بالزيت حديثا ، تبرق وهي مناسبة على ماء الخليج . لقد كان المنظر رائعا مؤثرا ، ولكني كنت حزينا على يوسف المسكين ، الذي كان عليه أن يغيب مائة يوم ، كما أخبرني ، وذلك خلال المدة التي يكون فيها ماء البحر دافئا مناسبا للغوص . وربما عاد قبل وقت قصير من اقلاع « فتح الخير » برحلته الجديدة . لقد كان يبدو مهموما ، كما لم تكن قدماه قد شفيتا تماما . وهناك في الشارع الممتد على طول الواجهة البحرية ، كان هيكلا انسان صغير متشح بالسواد يلوح ليوسف ، وسمبوكه يبتعد رويدا رويدا . وقد ظل ذلك الانسان هناك ينظر الى البحر مدة طويلة طويلة ، بينما المراكب تغادر الميناء وتختفي وراء الأفق البعيد .

(١) انظر ، في هذا الموضوع ، الحاشية في الملحق رقم (٢) بادناه (المترجم) .

الفصل التاسع عشر

الغوص بحثاً عن اللؤلؤ في الخليج

الغوص بحثا عن اللؤلؤ في الخليج

لم أياس لأن الفرصة لم تتح لي للذهاب مع يوسف ، بل كنت عازما على أن أبلغ مصائد اللؤلؤ بطريقة أو بأخرى . علاوة على أنه كان من الممكن أن يتعرف المرء على جزء من تجارة اللؤلؤ دون أن يغادر الكويت . ففي الأشهر الأربعة التي أمضيتها في الكويت ، كانت مراكب الغوص الصغيرة تأتي من المصائد القريبة كل يوم ، وتعود محملة بزيادة جديد من الماء والطعام . ولم تكن كثير من المراكب الصغيرة تبتعد عن جون الكويت أكثر من ثلاثين أو أربعين ميلا ، كما كانت قوافل طويلة من تلك المراكب تعود كل مساء وتلقي بمراسيها في مكان أمين ، كالشعبية ، وغيرها ، من القرى على طول ساحل الكويت ، التي يربطها عدد من الباصات المنتظمة . ومن أن لآخر كان تجار اللؤلؤ يقصدون تلك المراسي ليقابلوا النواخذة على الشاطئ ، أو يحضروا فلق المحار عند الفجر ، ويطلعوا على مجرى الأمور . وكان هذا يساعدهم على تقدير حصيلة الموسم ، وتبعاً لذلك ، على تقويم حالة السوق الجديدة . وكانت بعض المراكب الصغيرة ، وكثير منها عبارة عن قوارب لا يزيد طول الواحد منها عن ثلاثين قدماً ، تفتتح الموسم في وقت مبكر بالنسبة للمراكب الأكبر حجماً . كما كانت كثير من الأيوام الكبيرة ، عندما تعود من رحلاتها الطويلة ، تبعث بقواربها الطويلة ، بعد اعدادها الاعداد المناسب بشكل مؤقت ، لكي تجرب حظها في صيد اللؤلؤ ، وعلى ظهورها عدد من بحارة المركب الكبير ، يقودهم قائد للدفة كثيراً ما يكون الأخ الأصغر للنواخذة .

في عام ١٩٣٩ ، خرج من الكويت مائة وخمسون مركباً ، من جميع الأحجام والأنواع ، للغوص على اللؤلؤ . ولا بد أن العدد كان ينوف على الستمائة قبل أربعين عاماً فقط . وكان الأسطول الذي خرج في ذلك الصيف الذي قضيته في الكويت ، أكبر أسطول يقوم بذلك منذ الكساد الأخير . وفي تلك الأثناء ، كان عدد من التجار ، الذين ضرب الكساد تجارتهم ، قد انسحبوا من هذه التجارة كلية ، وتركوا لغيرهم من التجار الجدد أن يجربوا حظهم فيها . وكانت منافسة اللؤلؤ الياباني المزروع قد خفت حدتها كثيراً . فقبل عدد من السنوات ، عندما كان اللؤلؤ الياباني نادراً نسبياً ، كان يستطيع المنافسة ، كما قيل لي ، بقوة أكبر مما هو عليه الحال في الوقت الحاضر ، عندما أصبح كثيراً جداً . فعندما نزل إلى السوق أول مرة ، كان يباع بحوالي ثلث سعر اللؤلؤ الطبيعي . أما الآن ،

قانه لا يبلغ جزءاً من ثلاثة عشر ، وأصبح ينافس اللؤلؤ المزروع من النوع الجيد ، بدلا من اللؤلؤ الطبيعي الأصلي . وربما كان هذا صحيحا . ولكن مجمل الأمر أن أسعار اللؤلؤ جميعه قد انخفضت ، سواء كان حقيقيا ، أم مزروعا ، أم مصنوعا في مختبر علمي . ذلك أن اللؤلؤ الصناعي الممتاز ، لا يستطيع حتى أكثر العرب خبرة تمييزه عن الأصلي ، وما كان بإمكان تاجر واحد في الكويت ، على الرغم من خبرة عمر كامل في تجارة اللؤلؤ ، أن يميز بين لؤلؤة طبيعية ولؤلؤة صناعية ، دون أن يلجأ الى فحص شامل دقيق للغاية ، بل الى أنواع من التحقق ، التي كانت غالبا ما تتلف الحبة التي يجرى فحصها ، قبل أن يصل التاجر الى نتيجة موثوقة . وما دام هذا حال الخبراء ، فما بالك بالرجل العادي ! وكانت النتيجة المحتومة لذلك كله ، انخفاض ملموس في الطلب على اللؤلؤ الطبيعي ، لأن السيدة المحترمة تأنف من التحلي بجواهر ، يمكن أن تعتبر من النوع الرخيص . لقد هبطت قيمة اللؤلؤ بوجه عام .

وما دام الرجال يشترون اللؤلؤ لكي يسعدوا به النساء ، وما دام هؤلاء لا يسعدن اذا أهدى لهن الرجال شيئا ، لا يمكن الحكم توا ، بأنه أصلي وغالي الثمن ، أو عكس ذلك ، فالنتيجة أن يقل الاقبال على اللؤلؤ ، وأن يصاب سوق اللؤلؤ بضربة مؤلمة ، وهذا ما جرى بالفعل . فلم يعد اللؤلؤ يعود على بئعه بعشر الثمن ، الذي كان يباع به في الكويت أو البحرين ، الى ما قبل خمسة عشر عاما فقط .

وفي أحوال كهذه ، لم يعد اللؤلؤ يستحق الفوص عليه ، وصيده ، ولذلك فإن شاطئ الكويت مملوء ، حتى هذا اليوم ، بهياكل مئات من مراكب الفوص ، ملقاة هناك ، ومهملة لمدة طويلة جدا ، بحيث أصبحت لا تصلح لشيء ، سوى وقودا للنار . هذا مع أن عددا كبيرا من المراكب الكبيرة ، ومعظم مراكب البوم والسنبوك ، قد انتقلت ملكيتها من أيدي الكويتيين الى أيدي أصحابها الجدد من الإيرانيين ، أو سكان الباطنة ، أو الساحل المتصالح ، أو ساحل المهرة ، وأصبحت تستخدم لنقل الركاب والبضائع . لقد نقص عدد المراكب المسجلة في الكويت نقصا كبيرا في السنوات العشر الماضية ، الا أن عددا آخر ما زال مسجلا فيها . وهناك حوض ، لا يبعد كثيرا عن المستشفى الأمريكي ، تزدهم فيه المراكب بكثافة كبيرة جدا ، لا تعادلها الا كثافة المحار الفارغ الملقى على شاطئ الفوص . مراكب من جميع الانواع والاحجام : الجلبوت ، والسنبوك ، والبلم ، والشوعي ، جميعها تصطف هناك بأخشابها الجميلة الشكل ، تلقي ظللا رائعة على الشاطئ تحت القمر ، وتضفي على الشاطئ جمالا أخاذا . الا

أن تلك الاخشاب غدت الآن ملتوية ومهترئة ، بحيث لا يستطيع أي من تلك المراكب أن يبحر في البحر من جديد .

لقد كانت الكويت منذ مدة طويلة ، ولم ترن ، ميناء هاماً جداً للغوص على اللؤلؤ ، لا تفوقها أهمية على ضفاف الخليج العربي كله الا البحرين . وما زالت تحتفظ بهذا المركز الى الآن ، نبي أن كساد تجارة اللؤلؤ كان كبيراً ، وربما دائماً أيضاً . وإذا نظرنا الى هذا الامر من عدة وجوه ، نجد أنه ليس مما يؤسف له ، فقد كان موسم الغوص شيئاً يخشاه البحارة حقاً ، لأنه كان دائماً محفوفاً بالمشاق التي لا تطاق أحياناً ، وبخطر خسارة الصحة ، أو الحياة ، أو عضو من أعضاء الجسم ، كما كان مردوده قليلاً لا يذكر ، يقسم في معظم الاحيان تقسيماً غير عادل ، بل وأحياناً لا يصل منه شيء قط الى أيدي أولئك الذين جمعوه بالفعل .

وعبر التاريخ كله ، كان الخليج العربي ، وما زال ، مشهوراً بآلئه ، كما أن صيد اللؤلؤ تجارة متناهية في القدم . وكان محار اللؤلؤ دائماً يترعرع على ذلك الجرف الهائل ، الذي يغطي الجزء الأكبر من الضفة العربية من الخليج . وقد أصبحت مياه الخليج أغنى وأشهر مصائد اللؤلؤ في العالم ، بفضل شكل الخليج نفسه ، وضخامة مياهه ، وبفضل حرارة شمس الصيف اللاهبة . لأن محار اللؤلؤ ، على ما يبدو ، يحب المياه الدافئة . ، بالإضافة ، على الغالب ، الى قرب الخليج من سوق الهند العظيم ، الذي يشتري معظم اللؤلؤ الى يومنا هذا . وفي بداية القرن الحالي ، قدر عدد العاملين في صيد اللؤلؤ وتجارته بسبعين الى ثمانين ألف رجل . ولم يكن العدد أقل من ذلك بنسبة كبيرة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، أي عام ١٩١٩ . ولكن من المشكوك فيه أن يكون العدد الآن يتجاوز عشرة آلاف ، بما في ذلك أولئك العاملون في البحرين ، وقطيف ، وموانئ الساحل المتصالح ، والكويت . وبينما كان عدد المراكب المشتركة في ذلك العمل ينوف على خمسة آلاف مركب ، قبل أربعين عاماً فقط ، فإن عددها الآن لا يكاد يصل الى ألف . فقد كانت البحرين وحدها ، على سبيل المثال ، ترسل ستمائة مركب للغوص ، أو ربما أكثر من ذلك ، قبل عشر سنوات فقط . ولكننا علمنا ، عندما مررنا بها في رحلتنا الاخيرة ، أن المراكب المسجلة للموسم الحالي لا يزيد عددها عن النصف ، ولولا ظهور النفط ، لكانت البحرين على وشك الافلاس ، وبخاصة أنه ليس فيها تجارة أو صناعة أخرى . وحتى الكويت ، لو لم تتحول بسرعة الى المراكب الكبيرة العاملة في التجارة البعيدة المدى ، فانها كانت ستواجه مصيراً مماثلاً .

على أية حال ، فإن أسوأ آثار الكساد قد زالت الآن . وكما قال

التجار الكويتيون عندما وصلنا البلاد ، عليهم أن يجربوا حظهم فى هذا الموسم مرة ثانية ، فلم يكن من المحتمل أن يبلغ السوء درجة أكثر مما هو عليه الآن . وما دام باستطاعتهم أن يجهزوا بعض المراكب ، مع عدم توقع أسعار أفضل أو أسوأ مما هو سائد الآن ، فإن من المحتمل أن تعود تجارة اللؤلؤ الى سابق عهدها ، بمرور الوقت ، وربما على أسس جديدة ، أسلم من الأسس السابقة . ولكن عنصر المغامرة كان هناك دائما . فمن الممكن أن تحصل أقما المراكب على أفضل اللآلىء ، فلم يكن لحجم المركب أية أهمية ، والى يومنا هذا ، يظل من المستحيل التنبؤ بسلوك محار اللؤلؤ ، أو بنجاح الموسم . وفى بعض المواسم يخصب اللؤلؤ ، ولكنه يكون من الصنف الردىء ، وفى مواسم أخرى يخصب أيضا ، ويكون من الصنف الجيد ، وهذا الذى حصل عام ١٩٣٩ . الا أن اندلاع الحرب العالمية الثانية قضى على كل أمل بازدهار أسواق اللؤلؤ فى ذلك العام . وفى أوقات أخرى ، لا تكون اللآلىء وفيرة ولا جيدة . وأحيانا ، يخرج من جزء من الجرف عدد وفير من اللآلىء الممتازة ، بينما لا تجود الاجزاء الاخرى بشيء يذكر . وكانت المصائد القريبة من البحرين ، الى الشمال والشرق ، تعتبر أفضل الجميع ، الا أن بعض المصائد الجيدة قريبة من الكويت أيضا . وفى بعض الاوقات ، يظل أحد الاحواض عاقرا لا ينجب شيئا سنوات طويلة متواصلة ، ولكنه يشرع فى احدى السنوات فجأة ، ومن غير سبب ظاهر ، بانتاج المحار المحشو بالآلىء النادرة . فليست هناك قاعدة على الاطلاق . وهناك ، عند المصائد ، لا يسعف النوحذة الا خبرته ، وحظه فليست تلك المصائد مرسومة على الخرائط ، وليست مدروسة دراسة علمية . ولا زالت الطرق القديمة لصيد اللؤلؤ تستعمل فى جميع الحالات بدون أى تغيير . فالغطس يتم بدون أية ملابس خاصة أو أية معدات . كما أن المصائد مطلقة للجميع ، ولو أن العادة جرت بأن تترك الاجزاء القريبة من البر للقادمين من أقرب الموانئ اليها . أما فى وسط الخليج ، فإن المراكب الكبيرة تعمل سوية . وقد رأيت أكثر من مائة ، تقف على جرف واحد ، وكانت معظمها من الكويت .

ومع أن أحواض اللؤلؤ مشاع بين الجميع ، الا أن هناك معارضة عنيفة لادخال أساليب جديدة للغوص . اذ ليس الخليج العربى ، الذى يعتبر مهد الغوص والغواصين ، بالمكان المناسب للغوص ، والمعدات الوحيدة اللازمة للغوص غير متوافرة الا فى المركب المسون للمنارة ، المسمى « نياركوس » ، وفى سفن الاسطول الملكى البريطانى . فالعربى يغوص وهو يقفل أنفه بملقط (فطام) ، ولا شيء غيره . ومعظم الغوص يتم فى مياه يبلغ عمقها من خمس قامات الى اثنتى عشرة قامة . أما المراكب الكبيرة فانها تظل فى عرض البحر طوال الموسم ، الا أن الصغيرة منها تعود عادة الى

مراسيها كل مساء • وهناك موسمان للغوص ، أولهما ، مشاع وغير منظم ، تخرج فيه المراكب الصغيرة ، وتتقصى الاحواض القريبة السهلة المنال ، وذلك عندما تكون الشمس فى الصيف قد دفأت المياه بحيث تصبح صالحة للغوص فيها • وبعد قرابة شهر يبدأ الموسم الرئيسى ، وتخرج فيه جميع المراكب ، ويستمر مادامت حرارة الشمس تبعث الدفء الكافى فى الماء ، وهذا يعنى عادة أربعة أشهر ، هى : الجزء الأكبر من شهر يونيو (حزيران) ، ويوليو (تموز) ، وأغسطس (آب) ، وسبتمبر (أيلول) ، ونصيب صغير من أكتوبر (تشرين أول) • وخلال هذه الشهور يكون الطقس فى الخليج العربى أقرب الى الجحيم منه الى طقس بلاد مأهولة ، الا أن الحر الشديد المتواصل لازم جدا لحفظ الماء دافئا ، ويساعد البحارة العراة على تحمل الغطس المتوالى فيه • فهم يمشون فى الماء على مقربة من مراكبهم ، أو يجمعون المحار من قاع البحر نصف النهار تقريبا ، وغطسهم يصل الى عمق خمسين أو ستين قدما • ومن أجل أن يقوى أى انسان على تحمل هذا - حتى حين يكون عربيا قويا رائعا ، أو زنجيا ضخما مفتول العضلات - عدة أشهر متتالية ، دون أن يتناول الطعام المناسب ، فلا بد من أن يكون الماء دافئا • وحالما يميل الى البرودة ، يجب أن يتوقف الغوص وتعود المراكب أدراجها • ويبدو أن المهمة الرئيسية لأمير البحر ، المسئول عن أسطول الغوص ، هى توقيت يوم العودة والاعلان عنه ، وهو اليوم الذى لا يليق بأى مركب كبير أن يعود أدراجه قبله • أما ما تفعله المراكب الصغيرة والقوارب ، فهو من شأنها وحدها ، ولا دخل لأحد فيه ، ذلك لأنه لا يتسنى لها أن تصيد قط كمية من اللؤلؤ تؤثر على السوق •

فى الماضى ، عندما كان صيد اللؤلؤ فى ذروته ، وكان يشترك فيه أكثر من عشرين ألفا من رجال الكويت ، كان البدو والایرانيون ، والعبيد ، وأى انسان آخر يمكن اقناعه أو ارغامه على الذهاب ، يشترك فى الذهاب مع أسطول الغوص • وكان عدد الغواصين حينئذ أكبر من عدد البحارة • ولكن الوضع تحول الآن ، فأصبح عدد البحارة يفوق عدد الغواصين • كما كان السفر فى رحلات طويلة ، فى الماضى ، عملا اضافيا الى الغوص ، أما الآن فقد أصبح الغوص عملا اضافيا الى السفر • فعندما كنت فى الكويت ، لم يكن يشترك فى عملية صيد اللؤلؤ أكثر من ثلاثة آلاف رجل ، كان كثيرون منهم بحارة على مراكب المياه العميقة ، ولكن بعضهم لم يكن كذلك ، وبخاصة الغواصون • وقد لاحظت أن كثيرين من هؤلاء كانوا بدوا ، تدل على ذلك شعورهم الطويلة ، ولكنى لم أر أبدا أى بدوى كويتى أو سعودى يعمل بحارا على ظهر المراكب الكبيرة • وكان التفسير الذى أعطى له هو أن هؤلاء البدو كانوا مضطرين للغوص ، لكى يسددوا ما ورثوه عن آبائهم

من ديون • وقد سرنى أن أعلم أن هذا النوع من الارث قد أوقف في الكويت، كما أنه كان قد انتهى في البحرين منذ عشر سنوات أو يزيد • إلا أنه إذا كان أحد البدو يقوم بتسديد دين أبيه ووقع هو في دين شخصي - كما كان يحصل عادة - فإن عليه إما أن يسدد الدين ، أو يذهب للغوص لتسديده ، حتى بعد أن يكون أبيه قد سدد أو ألغى •

لقد كان الهيكل الاقتصادي لصيد وتجارة اللؤلؤ مبنياً على نظام الدين ، الى درجة تفوق ما ذكر سابقاً عن تجارة المراكب الكبيرة - فقد كان الغواص دائماً مديناً للنوخذة، والنوخذة مديناً للتاجر الذي يموله، والتاجر مديناً لتاجر آخر أكبر منه ، والتاجر الكبير مديناً للشيخ • وحتى الوسيط ، الذي كان يخرج لشراء اللؤلؤ ، ربما كان مديناً لشخص آخر ، يموله بالمال لقاء فائدة معروفة • وهكذا كان النظام برمته يعتمد على الدين ، الذي غالباً ما يكون تسديده مستحيلاً • ولما كان محظوراً في الاسلام على المال أن يربح فائدة من المصارف ، كما لم يكن في البلاد نظام مصرفي، فقد وجدوا طريقة لسد النقص تدر ربحاً أكبر • فقد كان الرجل الذي يقرض المال يتأكد من حصوله على مردود كبير ، رغم أن هذا المردود لم يكن يسمى فائدة أبداً ، بل كان يختفى تحت أنواع مختلفة من الأقمعة ، إلا أنه كان موجوداً دائماً • كما كان الغواصون يدفعون الفوائد على القروض التي يحصلون عليها بطرق مختلفة ، كلها سرقة واحتيال مكشوفان دون حياء أو خجل (١) • لقد كان هؤلاء الغواصون زمرة من الناس المتفائلين ، المقامرین ، غير المباليين ، وكان معظمهم يموتون صغار السن • وكان النواخذة يدفعون الفوائد المترتبة على قروضهم بأساليب وحيل مختلفة عند بيع اللؤلؤ • فقد سمعت أن أحد الممولين كان يشترط على المراكب التي يمولها ، أن تبيعه جميع ما تحصل عليه من اللؤلؤ ، بأربع أخماس قيمته الحقيقية (٢) ، وهذا يعنى الحصول ، بلا خجل ، على فائدة مقدارها ٢٠٪ لمدة أربعة شهور • وليس هذا كل ما يحصل عليه من الربح ، فعلاوة على فرق السعر ، يقوم هذا التاجر ببيع اللؤلؤ في بومبای بسعر يصل الى خمسة أو ستة أضعاف المبلغ الذي استثمره في صيدها • وبالإضافة الى

(١) يبدو أن المؤلف يبالغ في موضوع الفوائد التي كانت تفرض على ديون بعض الغواصين المحتاجين ، لأنها ، كما يقول العارفون من الكويتيين ، لم تكن بالخطورة التي يرويها (المترجم) •

(٢) ربما كانت هذه حالة خاصة شاذة جداً • فقد كان العرف أن يعرض الغواص محصوله على التاجر ، فإذا حصل خلاف على السعر ، فهناك من الخبراء من يلجأ الى الغواص لتحديد سعر محصوله ، فإذا لم يقبله التاجر ، فإن الخبير (أو المثمن) يشتريه بنفس السعر الذي قرره هو • (المترجم ، عن أحمد البشر الرومي) •

ذلك ، فاذا كان ما يحصل عليه المركب في موسم الغوص يقصر ، بموجب حسابه هو طبعا ، عن المبلغ المدفوع منه مقدما ، يسجل الفرق ديننا على النواخذة ، الذي يتوجب عليه أن يقوم برحلات غوص أخرى ، بنفس الشروط ، الى أن يسدد الدين كله . وهكذا كان النواخذة مقيدين ، مثل بحارتهم ، كما كان التجار مرتبطين بنفس الطريقة بالتجار الاكبر منهم ، وهلم جرا ومع أن من الممكن الحصول على أرباح كبيرة ، الا أن امكانية الخسارة واردة . لقد كان هناك عنصر كبير من عناصر المقامرة في العملية كلها ، وكان كثير من التجار الكويتيين الكبار يأنفون من المشاركة فيها ، حتى لو كان ذلك كمساعدة أو جميل خاص يؤدونه لنواخذتهم ، فقد كانت تجارة اللؤلؤ ، في رأيهم ، عملا ينبغي الابتعاد عنه ، وكان ايماني بصدق قولهم يزداد يوما بعد يوم ، كلما ازدادت علما بالموضوع .

لقد اختفت معظم وسائل الاستغلال في البحرين ، على الرغم من أنه كان من الصعب القيام بالاصلاحات المطلوبة ، كما أن الاحوال في الكويت افضل مما كانت عليه من قبل . فقد أجرت حكومة البحرين - التي لا يبدو أنها نالت ما تستحقه من العرفان بالجميل على جهودها في هذا السبيل - اصلاحات دائمة ذات أثر بعيد ، لا بد أن تشعر بها بلدان الخليج العربي الاخرى . ففي السابق ، لم يكن أحد يمسك حسابات رسمية - وما زال الفواصون على المراكب الكويتية لا يفعلون ذلك - . الا أن حكومة البحرين تصر الآن على أن يكون مع كل غواص دفتر رسمي ، فيه حساباته الدقيقة المنظمة حسب الأصول ، كما أنها ترسل المفتشين للتأكد من ذلك . ولم تهتم الحكومة بالمحافظة على حقوق الفواصين فحسب ، بل عملت على حماية مصالح النواخذة أيضا . ففي السابق ، كانت هناك مشاكل عديدة ، وكثير من اللف والدوران في تحديد المبالغ التي تدفع قروضا للفواصين ومساعدتهم في بداية كل موسم . وقد رأت الحكومة أنها لن تستطيع انشاء نظام سليم للمداينة اذا لم تتم السيطرة على السلف . ولذلك فانها تدعو الان في بداية الموسم الى اجتماع عام ، يحضره التجار وخلافهم ممن يهمهم الامر ، وتحدد فيه قيمة السلف وتعلن على الملأ ، ويحظر على الجميع زيادة ذلك المبلغ المقرر . ولكن هذا الاسلوب الجديد لاقى معارضة منظمة ، وبخاصة من الفواصين أنفسهم ، الذين كانت الدعاية المفروضة قد أوهمتهم بأن القيود المفروضة على قيمة السلفة ليست الا طريقة للتضييق عليهم ، والحد من حريرتهم . وقد كان من الصعوبة بمكان أن تقنع رجلا جاهلا معوزا ، رأى أنه سيقبض ثلاثين روبية بدلا من ستين ، بأن هذا التخفيض في مبلغ السلفة في مصلحته هو ، على أساس أنه ، اذا استطاع أن يكسب ستين روبية في الموسم ، فان الحكومة ستعمل على أن يحصل على ذلك المبلغ فعلا ،

بينما ، اذا كسب مبلغا أقل من ذلك ، فان الفرق لن يضاف الى الدين المستحق عليه . وكل ما كان الغواصون يفهمونه أن المبلغ ، الذي سيصل الى جيوبهم في بداية الموسم بحسب النظام الجديد ، أقل مما كان في السابق . ولم يكن يهمهم أن يربو الدين ويتراكم على ظهورهم ، فقد اعتادوا على ذلك . ونجم عن المعارضة أن حصلت بعض أعمال الشغب التي تطورت الى اطلاق نار ، وخسارة في الارواح . الا أن الحكومة أصرت على موقفها حتى الآن ، واستطاع النظام الجديد أن يصمد للريح .

وفي نفس الوقت قامت حكومة البحرين بالغاء نظام الديون الوراثية ، وأصبح دين الغواص يموت بموته . كما ألغيت المحكمة التي كان يعقدها تجار اللؤلؤ ، ولم يعد يسمح للتجار والنواخذة بارغام الغواصين على العمل في بساتينهم ومزارعهم خارج أوقات الموسم . وكانت محكمة تجار اللؤلؤ في الماضي تبت في جميع الخلافات القانونية التي تنشأ بين الغواصين والنواخذة ، ولكن لم يكن من المتوقع أن تكون أحكامها عادلة ، ما دام لم يكن يمثل فيها الا النواخذة والتجار . ولا تزال مثل هذه المحكمة موجودة في الكويت ، الا أن أحكامها أكثر عدلا مما كانت عليه زميلتها في البحرين . ففي الكويت كثير من المهتمين بالعدل وبأمور البحارة ، ممن يراقبون عمل هذه المحكمة مراقبة دقيقة ، ليتأكدوا من أن احكامها ليست شديدة الجور . الا أنهم في الكويت يعتقدون أن الاصلاحات ، التي ينبغي أن تطرأ على تجارة قديمة جدا ، وغير محكومة بضوابط واضحة ، لا بد أن تتم تدريجيا ، اذا أريد لها الاستمرار والدوام . ويمكن القول أن الكويت قد قطعت حتى الان شوطا بعيدا على الطريق التي فتحتها البحرين لها ولغيرها .

وعلى طول ساحل الاحساء أيضا ، تقاسي تجارة الفوص من نفس الكساد ، ولم تعد موانئ القطيف ، ودارين ، وجبيل ، ترسل الا عددا قليلا جدا من المراكب لصيد اللؤلؤ . بل أصبح كثير من الغواصين يعملون الان في شركة الزيت « ستاندرد أويل أف كاليفورنيا » ، صاحبة امتياز التنقيب عن النفط هناك ، ويدفعون جزءا من أجورهم للنواخذة لقضاء ما عليهم من الديون . ولما وجد هؤلاء أنهم يمكن أن يمدوا أرجلهم ، ويقبضوا تلك المبالغ بشكل منتظم ، دون أن يعملوا شيئا ، فقد أصبحوا لا يبالون بالخروج الى الفوص ، حيث المياه صعبة ، والسوق كاسدة . ليس من الافضل لهم أن يجلسوا على شاطئ القطيف ، ويتمتعوا بجزء مما يجنيه الغواصون العاملون في شركة النفط ؟ وهكذا أصبحت مراكب الفوص تقف الان لتتعفن على شاطئ القطيف . ففي « الخبر » شاهدت آخر المراكب المشهورة . « المزخرقة زخرقة عجيبية ، والتي كانت تستخدم مراكب من نوع « البتيل .

لأمراء البحر المشرفين على الغوص في الخليج العربي . فقد أصبح أمير البحر يعمل الآن في شركة النفط ، ويقوم بعمل خفيف ، لا يحصل منه على مال كثير ، بل ربما كان ما يحصل عليه من الديون التي يسدها له الغواصون أكثر مما يحصل عليه أجرا على عمله .

— — — — —

من هذا يتبين بوضوح أن الغوص على اللؤلؤ وتجارته ، كما تمارسان في أحواض اللؤلؤ في الخليج العربي ، عمل شاق ، مضمّن ، وعملية تجارية معقدة . وكنت اتطلع لمعرفة أكثر ما يمكن معرفته عن العملية كلها . وعلى الرغم من أن فكرة قضائي موسم الغوص بأكمله على ظهر سمبوك صغير كانت ترعبني فعلا ، إلا أنني كنت مصمما على القيام بهذه الرحلة . فقد كنت أعتقد أن باستطاعتي أن أتحمّل أي نوع من الشاق ، بعد أن قضيت ستة أشهر على ظهر يوم نجدي . غير أنني كنت مخطئا في اعتقادي . كما كنت أعتقد أنني قد خبرت جيدا ضروب المشاق ومدى الازدحام الممكن على ظهور المراكب العربية . إلا أنني عندما شاهدت مراكب الغوص ، تبينت أنني أرى المراكب المزدحمة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأول مرة . فقد كان السطح الرئيسي لمركب الغوص الكويتي ، عند نزوله إلى الماء ومغادرته الميناء ، أشبه بازدحامه برصيف القطار الذي يسير تحت الأرض « المترو » ، في ساحة تايمز بنيويورك ، في فترة الزحام ، وهو مكتظ بالناس الذين ينتظرون وصول القطار . وإذا قارنا مراكب الغوص « بفتح الخير » ، يبدو هذا الأخير كأنه سفينة عابرة للمحيطات . فبينما كان مركبنا يكس البشر على ظهره كقطيع الماشية ، وهو يعبر البحر من حضرموت إلى أفريقيا ، ويتوقف في عدد من الموانئ ، كانت مراكب الغوص تحشرهم على ظهرها كالسردين المكبوس طبقتين في علبة الصفيح ، ولا تتوقف في أي ميناء على الإطلاق . وإذا كانت الحياة على ظهر « فتح الخير » شاقة قاسية في بعض الأحيان ، فلا بد أن العيش على ظهر مركب من مراكب الغوص كابوس متواصل . وعلى هذا ، فقد كنت أرتعد خوفا من فكرة مرافقة الغواصين في موسمهم ، وكان علي أن أعترف بأن المشاق التي يصادفها الإنسان ، وهو يقوم برحلة غوص حقيقية في الخليج العربي ، ويعمل مع الغواصين مدة تقارب المائة يوم ، في ذلك الجو القاتل ، وتحت الظروف المخيفة السائدة — لا شك أن تلك المشاق فوق ما أستطيع تحمله . كما أنه لم يكن بإمكانني وحدي أن أخفف من قسوة تلك الحياة . بالطبع ، كان بإمكانني ، لو رغبت في ذلك ، أن أجهز مركبا خاصا بي . ولكنني ، بهذه الطريقة ، لا أعلم شيئا عن الأوضاع الحقيقية ، بل ربما أنجح فقط بخداع نفسي . لا ! لن أفعل ذلك ! وإذا كان لا بد لي من الذهاب ، فليكن بالطريقة الواقعية السليمة . وفي النهاية تسنى لي أن أتوصل إلى حل وسط

بعد أن ألقيت نظرة على أحواض صيد اللؤلؤ وأنا بصحبة المعتمد البريطاني على ظهر لنشه المريح . وكان الحل أن ارافق الشيخ محمد عبد الرزاق في مركبه ، ونقوم برحلة لشراء اللؤلؤ ، كان (الشيخ) قد قرر القيام بها . وكان محمد عبد الرزاق يشتري اللؤلؤ لحساب والده ، الذي كان يبيعها في سوق بومباي بالهند ، وكان مركبه من نوع الجلبوت ، كما كان معه حاشية كبيرة ، ورزمة من المعدات الغامضة الملفوفة بقطعة قماش قديمة حمراء ، كما كان معه كاتبه أيضا . وكان للرجل خبرة عمر بتجارة اللؤلؤ ، كما كان رجلا طيبا، أحبته . وقد رافقته في رحلة لشراء اللؤلؤ، بدأت من الكويت ، عبر أحواض صيد اللؤلؤ ، ثم اتجهت جنوبا على ساحل الاحساء ، باتجاه البحرين ، التي كانت مقصدنا النهائي . وكان من المقدر للرحلة أن تستمر شهرا على الأقل . الا أنها في واقع الأمر استمرت شهرين ، ولم نصل البحرين قط . ولكنها كانت رحلة ممتعة حقا ، تعلمت منها الكثير .

لم نقلع من الكويت الا بعد مرور ثلاثة أسابيع كاملة على أول اعلان عن عزمنا الاقلاع ، وكان ذلك صباح يوم من الأيام الجميلة في أوائل شهر أغسطس (آب) . وكان جلبوت الشيخ محمد (الذي كان لقب « الشيخ » يطلق عليه من باب الاحترام) مركبا جميلا صغيرا ، يبلغ طوله حوالي ستة وثلاثين قدما ، وله صار واحد طويل . وكان موسوقا الى أقصى سمته بسبعة من النعاج ونصف طن من الأرز ، وماء عذب للشرب محفوظ في براميل ، ووقود من العوسج الجاف ، وقدر كبير للطبخ ، وأربع دسات من زجاجات الشراب ، وستة صناديق كبيرة ، وثلاثة صناديق أصغر حجما ، وكمية كبيرة من علف الفئم (تتألف من نوع من العشب المجلوب من شط العرب) ، ونارجيلتين ، وكمية ضخمة من الحلويات ، والسكر والمؤن الاخرى تكفي مدة شهرين . وكان عليه اثنا عشر رجلا ، وصندوق مملوء بالروبيات محفوظ في زاوية مظلمة تحت سطح المؤخرة . وكان هناك معنا أيضا الفراش الذي سننام عليه ، وسجادة ، وعباءة لكل منا ، كما كان هناك عدد من الحشايا مصفوفة حول سطح المؤخرة . فقد كان بإمكاننا ، كما أعلمني الشيخ ، أن نخرج على مكان هادئ أمين على الشاطئ كل مساء ، وننام على الرمل هناك . وقد بدا لي أن ذلك أمر لا بد منه ، اذ لم يكن هناك متسع على سطح المركب لننام جميعا عليه . أما خطتنا فكانت أن نتسوق اللؤلؤ حيث نجده ، ونمتع أنفسنا بكل الأرز ولحم الضأن ، ونتجه الى حيث تدفعنا الريح .

كانت خطة الرحلة تبشر بالخير . وهكذا أقلعنا ، من جون الكويت ،

متأخرين بضع ساعات عن الساعة المقررة ، وعشرين يوما عن اليوم المحدد لذلك . وفي اليوم الاول ، لم نشاهد مراكب غوص ، ولا لؤلؤا ، وعرجنا عند المساء على مكان مسور يدعى « الشعبية » . وهنا التهمنا احدى النماج ، واستلقينا على الرمال لننال قسطا من النوم ، وكان المكان طيبا ، ولكن لم تكن فيه أية مراكب غوص ، فقد كان الاسطول قد انتقل الى مكان ابعد جنوبا . وفي فجر اليوم التالي ، بعد صلاة الصبح مباشرة ، أقلعنا ثانية . ولمدة شهر بعد ذلك ، كنا نتنقل من مكان الى مكان في مياه شمال الخليج ، القريبة من الشاطئ ، أحيانا نعود الى أحد الشواطئ الموحشة لننام هناك ، وأحيانا أخرى نظل أياما في البحر المائج ، خلف بعض الشعاب المرجانية ، تحيط بنا مراكب الغوص ، التي يتألف منها الاسطول وأحيانا أخرى نقضي يوما او يومين في مضارب أحد البدو من معارف الشيخ نتناول حليب النوق ولحم الضأن . وكنا نتنقل مع اسطول الغوص ، نذهب حيث يذهب ، وأحيانا نقضى أسبوعا حول حاجز مرجاني واحد ، بينما يقوم الشيخ صباح وهو على ظهر سمبوكه ، بقيادة اسطول المراكب الكويتية في عملية تمشيط الجرف . وكثيرا ما كان منظر تلك المراكب أخاذا ، وهي تقف على الجرف ، أو تنتقل من مكان الى آخر بمجازيفها الطويلة ، والغواصون في البحر وهم انصاف عراة ، وبحارتهما يهزجون ويرقصون وهم ينقلون مراكبهم من مرسى الى آخر . وكنا أحيانا نجد انفسنا بين ما يزيد على ستين مركبا كويتيا ، بينما لا نرى حولنا في أحيان أخرى أكثر من ستة منها . وكانت المراكب الكبيرة تظل في عرض البحر ، اما الصغيرة فهي التي كانت تلجأ الى الشاطئ خلال الليل . وعند الفجر ، كان البحارة يفتحون المحار الذي جمعه في اليوم السابق . وعندها كنا نتجول بين المراكب ، نتسقط الاخبار ومنتظر ذلك الهتاف ، الذي كان يدل على العثور على لؤلؤة كبيرة حقا .

وسرعان ما اكتشفت ان الشيخ محمد لم يكن يبحث عن اللآلئ الجيدة الرخيصة الثمن ، بل كان يسعى وراء أندرهما وأفضلها ، هذا اذا قيض له أن يحصل عليها . ولكنه كثيرا ما أخطأه التوفيق في مسعاه ، لأن النواخذة كانوا يقظين ، لا يتهافتون على بيع ما لديهم من اللؤلؤ الممتاز الى الوسطاء الذين يزورونهم في مراكبهم ، ما دام هناك أمل في بيعها بأسعار مرتفعة في أسواق بومباي أو البحرين . ولكن بعضهم كان يضطر للبيع ، لكي يشتري بالثمن مزيدا من التمر أو الأرز أو الماء .

وكان المشتري في الواقع يسعى وراء لؤلؤة كبيرة لا يستطيع النواخذة أو البحارة تقدير ثمنها . وكانت هذه اللآلئ نادرة ، ولكنهم كانوا يعثرون

عليها أحيانا • وقد فهمت من الشيخ بأن من الممكن أن تبدو إحدى اللآلئ قليلة القيمة ، ولكنها ، إذا عولجت بالطريقة الصحيحة على يد أحد الخبراء ، تصبح أحيانا نادرة الجمال • وكان هو واحدا من أولئك الخبراء الذين يتقنون هذا النوع من العمل • ولذلك فقد كان يسعى سعيًا متواصلًا للحصول على بعض الجواهر التي يمكن أن يعالجها بالطريقة الصحيحة • إلا أننا لم نوفق في الحصول على الكثير منها • أما اللآلئ التي تمكنا من شرائها ، فكانت إما لؤلؤة تبدو كالبثرة ، كان يخرجها من المحارة بمهارة فائقة ، أو لؤلؤة كبيرة مشوهة اللون ، كان يزيل قشرتها الخارجية فقط • هذه هي اللآلئ التي اشتريناها ، وكانت كلها رخيصة الثمن • وكان الشيخ محمد يدفع عادة حوالي خمس روبيات ثمنًا للواحدة ، بينما كانت « العمليات » التي تجرى عليها تستغرق أياما ، إلا أن النتائج كانت في الغالب سيئة • فبعد أن يجري « العمليات » اللازمة على كل منها ، لم تكن لتساوي روبية واحدة • فكانت اللؤلؤة « البثرة » تتكشف عن مجرد زوائد طبيعية ، مغطاة بقشرة خفيفة من مادة اللؤلؤ ، كما كانت اللؤلؤة المشوهة تظل كذلك • أما اللؤلؤة التي في لونها عيب ، فقد كان عيبها يظل واضحا مهما كشط من قشرتها الخارجية • ولكن لا بأس ! فقد كان الأمر كله مقامرة ، والتجارة كلها مقامرة ! ولكن الله كريم ! وفي أحد الأيام التالية ، لا بد أن تظهر لؤلؤة نشتريها بخمس روبيات ، ولكنها تساوي خمسمائة أو ربما خمسة آلاف • لقد كان الأمر يستحق المجازفة • كما كانت « العمليات » ممتعة ، تساعد على قضاء الوقت ، الذي كان لدينا منه الكثير •

ولا أقصد من كلامي هذا ، أن الشيخ محمداً كان يحاول أن يعالج عيوب اللآلئ المشوهة ، بحيث يسترها عن الانظار • فلم يكن هذا شأنه قط ، كما أن ذلك كان مستحيلا • بل إن عمله كان يقتصر على محاولة نزع البثور من المحار ، عسى أن تكون بداخلها لؤلؤة جيدة ، أو نزع القشرة عن لؤلؤة كبيرة خشنة ، عسى أن تخرج من باطنها جوهرة ممتازة لا عيب فيها • هذه هي « العمليات » التي كان يقوم بها • فلم يحاول قط أن يغش جوهرة واحدة ، فقد كان حبه للآلئ عظيما جدا يمنعه من فعل ذلك • كما أن كل إنسان ، في منطقة الخليج العربي ، كان يعلم تمام العلم أن الأمل الوحيد للاحتفاظ بالسوق يكمن في المحافظة على الأمانة والصدق إلى أبعد حد ممكن • وكان يبدو في الظاهر أن من السهل أن يخلط المرء حفنة من اللآلئ اليابانية المصنعة مع مجموعة كبيرة من اللؤلؤ الطبيعي ، طالما أن اكتشاف هذا العمل أمر صعب للغاية • إلا أن الواقع أن هذا كان مستحيلا ، فقد كانت الرقابة على « الصيد » اليومي من اللؤلؤ شديدة جدا ، لا تسمح بعملية الغش هذه • علاوة على أن من يقبض عليه ، وهو يقوم بعمل من

هذا النوع ، يجازف بحياته ، فالأحكام في الجزيرة العربية سريعة وحاسمة ونهائية في معظم الأحيان . بل أن استيراد اللؤلؤ الصناعي الى أي من الاسواق العربية يعد جريمة خطيرة جدا ، يعاقب عليها بالسجن المؤبد . والسجن المؤبد هناك يعني أن يقضي الانسان بقية حياته في زنزانة مظلمة تحت الارض ، يدوي يوما بعد يوم ، الى أن يوافيه الأجل المحتوم في نهاية الأمر .

وكنا أحيانا ننشد التغيير والتسلية ، فنخرج مع أحد مشايخ البدو للصيد بالصقور في « رأس الزور » . وكانت مراكب الغوص المتوسطة الحجم تقصد الشاطئ مرة كل عشرة أيام ، لكي ينال بحارتها وغواصوها قسطا من الراحة خلال يوم واحد يقضونه هناك . وعندما كانت تلك المراكب تفعل ذلك ، كنا نرافقها الى الشاطئ ، لكي نرى نوع الصيد الذي حصلت عليه . ولم تكن عادة نجد فيها أية لآلىء كبيرة ، بل قليلا من اللآلىء الصغيرة التي ليست لها قيمة كبيرة ، وقلما كنا نشترى شيئا منها . ولكننا كنا نقوم ببعض الزيارات الممتعة للبدو ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر ، على الشاطئ ، وهم يسوقون قطعان الغنم ، سعيًا وراء الماء والكلاء ، فكانوا يأتون الى حيث آبار الماء قريبا من الشاطئ صيفا ، ويعودون الى البادية في الشتاء والربيع ، وكان جميع هؤلاء يقتنون الصقور ، التي يولع الكويتيون باستخدامها للصيد . وكان اهتمام البدو بتغذية هذه الصقور وتمهدها أكثر من اهتمامهم بغذاء أطفالهم . كما كانوا يقتنون أعدادا كبيرة من الكلاب الجائمة ، التي كانت تهوّل نحو الخيام ، كلما سمعت أحدا يتناول طعاما . وعندما لم تكن نذهب للصيد ، أو نراقب قطعان الغنم ، كنا نسند ظهورنا الى سروج الجمال ، ونمضي الوقت في الخيام ونحن في حالة استرخاء ، يفصلنا عن الحريم خباء من الحصير الخشن . لقد كانت حياة حرة طليقة خالية من الهموم ، وكنت أعجب لماذا يختار أي بدوي أن يعمل في الغوص على اللؤلؤ . أما أصدقائنا من بدو رأس الزور ، فلم يكن يخطر على بالهم أن يفعلوا ذلك أبدا .

وعلى الرغم من أن تلك الفترات التي كنا نمضيها على الشاطئ كانت أوقاتا لطيفة مسلية ، إلا أنني كنت أفضل أن أقضي معظم الوقت بين الغواصين في البحر ، أتعلم منهم أساليب عملهم ، وأجمع بعض المعلومات عن أسرار المهنة . وكان وجودي مع الشيخ محمد طريقة مثالية لدراسة كل ما يتعلق بتلك المهنة ، لأنني بهذه الطريقة كنت أستطيع أن أراقب كل شيء - الغطس نفسه ، والمناورات ، والحياة على ظهور المراكب على اختلاف أنواعها ، والبيع والشراء ، والعمليات التي كانت تجري على بعض أنواع

اللؤلؤ ، (والتي أشرت اليها سابقا) • وقد تعلمت كيف كان الوسطاء يتنافسون فيما بينهم • فكان كل منهم يرهف السمع دائما ، لعله يسمع عن صيد لؤلؤة عظيمة قبل أن يدري بها الآخرون ، لكي يتمكن من الاسراع الى شرائها ، قبل أن تضطره العروض الأخرى لرفع ثمنها ، وقبل ان يكتشف النوخذة قيمتها الحقيقية • فكنا نحن مثلا نوزع الهدايا يمينا وشمالا ، لكي نكسب بعض الأصدقاء القريبين من النواخذة ، فيساعدوننا على تسقط الأخبار المفيدة - فنقدم شاة هنا ، وعلبة من الحلويات هناك ، وقطعة من لحم الغنم لواحد من الاصدقاء ، وبعض الطبايق لصديق آخر ، وهلم جرا • • • وكانت جميع الأخبار تتناقل شفويا ، وكان معظمها غير موثوق به • فكثيرا ما كانت تصلنا أخبار صيد لؤلؤة عظيمة ، فنسارع للذهاب الى المكان المقصود ، ولكننا لا نعثر على شيء • وقد لاحظت أن الوسطاء لم يكونوا يحملون الا الأخبار السيئة ، فقد كانت تسبق زيارتنا الى أحد المراكب أخبار غير مشجعة عن ركود السوق - وكانت أخبارا صحيحة ، لسوء الحظ - يقصد منها الايحاء للنواخذة ألا يتوقعوا أثمانا عالية لما يصيدونه من اللؤلؤ • وكنا نجلس مع النوخذة وقتا طويلا ، نتحدث في كل ما هب ودب من الموضوعات - فلم نكن في عجلة من أمرنا ، بعد أن نصعد على ظهر المركب - • ثم يقوم النوخذة ، ويمد يده الى مكان سري تحت سطح المؤخرة الصغيرة ، ويسحب صندوقا ، يكون في العادة قديما جدا ، ومربوطا بخيط ، الا أنه مقفل بطريقة أو بأخرى ، بينما تكون مفاتيحه مربوطة بسير جلدي صغير ، مشدود حول خصر النوخذة ، تحت جلبابه • وكان الفواصون دائما يحيطون بنا في تلك اللحظة ، عندما يخرج النوخذة اللآلئ من الصندوق ، يرقبون العملية كلها • وكان الصندوق يفتح على مهل ، كما ينبغى أن يفتح وعاء تنعقد على محتوياته كل تلك الآمال • ثم يأخذ النوخذة باخراج صرر صغيرة من القماش الأحمر أو الأسود • وفي المراكب الصغيرة ، كانت كل صرة تعلم عادة بنوع العقدة للدلالة على صاحبها من الفواصين ، ولكن المراكب الكبيرة كانت تضع اللآلئ التي يصيدها الجميع معا ، الا أنها كانت ، مع ذلك تصنف بطريقة أو بأخرى • ولكنها لم تكن تصنف بحسب حجمها أو جودتها ، فلم يكن يتم ذلك الا عند انتهاء الموسم ، بل كانت كل مجموعة يتم صيدها في أحد الأحواض تحفظ في صرة منفصلة • وكانت معظم اللآلئ لا قيمة لها ، وبخاصة تلك المحفوظة في قطع القماش الاحمر ، التي لم تكن سوى لآلئ صغيرة جدا ، او لآلئ مشوهة لونا ، أو شكلا ، الا أن بعض اللآلئ كانت جواهر ممتازة •

وكان النوخذة عادة يحل عقدة إحدى الصرر الصغيرة • ويديرها علينا واحدا بعد الآخر لنتفحصها • ولكن لم يكن أحد يراقب اللآلئ كلا على انفراد ، مع أن جميع العاملين على ظهر المركب ، ما عدا أولئك الذين

يعملون في الغطس ، وأولئك الذين يمسون لهم الجبال في تلك اللحظات ، كانوا يراقبون العملية . فقد كان من الواضح أن هناك أمانة مطلقة لا تشوبها شائبة على ظهور المراكب ، وان التنافس الحاد في تجارة اللؤلؤ لم يكن هناك شيء منه بين النوخة ورجاله . فلم يكن أحد من أولئك الرجال يحتفظ بالآلئ التي يعثر عليها بنفسه ، بل كانت جميعها في حوزة النوخة . وعندما كانت الصرر تعرض علينا لفحصها ، كان الشيخ محمد كثيرا ما يتظاهر بازدياد احداهما ، فلا يلقي عليها الا نظرة عابرة ، قبل أن يلفها ثانية ، ويلقيها في الصندوق . وكان في أحيان كثيرة ، يفعل مثل هذا العشرة أو أكثر من تلك الصرر الصغيرة ، قبل أن يبدأ عملية البيع والشراء بجد . بل كثيرا ما كانت ساعات طويلة تمر ، قبل أن يبدأ كاتبه وأخوه الصغير موسى باحضار الميزان والمنخل وبقية المعدات اللازمة لعملية الشراء .

كنا نتنكب ظهور المراكب ، قادمين في قارب صغير من الجلبوت الذي كنا نبحر على ظهره . وكنا دائما نأخذ معنا نفس المعدات : كيسا من الروبيات الفضية الرنانة ، والرزمة الحمراء التي كانت دائما ترافق الشيخ محمدا ، علاوة على بعض علب الحلوى ، وبعض السجاير العربية لنقدمها هدايا . أما رزمة الشيخ محمد الحمراء ، فكانت تحتوى على عدسات مكبرة ، وميزان صغير أنيق مما يحمل باليد ، ومجموعتين من الاوزان المصنوعة من العقيق ، وبعض الأوزان الصغيرة المصنوعة من معدن خفيف جدا ، وكتاب باللغة الهندية عن أصناف اللؤلؤ المختلفة ، وقيمة كل صنف منها ، وكتاب آخر يحتوى على المعلومات السرية الخاصة بالشيخ ، والمتعلقة بالأسعار السائدة في أسواق بومباي والبحرين ، ومجموعة من المناخل النحاسية الصغيرة ، ذات الفتحات المتدرجة من الكبيرة الى الصغيرة ، التي تستعمل لتصنيف اللؤلؤ ، بالاضافة الى قطعة من القماش الأحمر تستخدم لحماية الميزان من هبات الريح . وكان الميزان يحمل باليد ، وعلى هذا فلم يكن دقيقا تماما ، ولكن الشيخ كان بارعا جدا بمعرفة وزن مجموعة من الآلئ بواسطته . وقد لاحظت أنه لم يكن أبدا يبالغ في الوزن . فكان يضع جميع الآلئ الصغيرة معا ، ويزنها ، ثم يخصم منها عشرة بالمائة مقابل ما يمكن أن يعلق بها من قطع المحار الصغيرة ، (فقد كنا كثيرا ما نفحص الآلئ ونزنها حال خروجها من المحار) . وعندما كنا نفرغ من فحص اللؤلؤ جميعه بكل دقة ، رغم ما يبدو من قلة المبالاة ، كان يعقب ذلك فترة من الحديث العام . وأخيرا يأتى السؤال المهم : كم الثمن ؟ . وكان النواخذة غالبا ما يحجمون عن اعطاء سعر معين ، كما أن الشيخ كان دائما لا يرغب في عرض أى سعر ، الا أن النوخة كان يدرك جيدا قيمة لؤلؤه . وكانت المساومة عادة تأخذ الشكل التالي :

بعد فترة صمت طويلة ، يقول النوخذة ، وهو غير راغب فى ذلك ،
وأصابه تداعب الصرة الحمراء : « أربعمائة روبية » •

وهنا ينفجر الشيخ محمد بضحكة تدل على عدم التصديق ، ويهبط
واقفا ليخادر المكان • إلا أنه سرعان ما يعود ويلم معداته فى رزمته الحمراء •
وتستمر المساومة :

النوخذة : أربعمائة روبية ثمن قليل •

الشيخ محمد : ليس هناك سوق للؤلؤ ، وأنت تدرك ذلك • وكل ما
أدفعه هنا يمكن أن يكون خسارة لى • إذا استطعت أن تحصل على أربعمائة
روبية لهذه الكمية من اللؤلؤ ، فانى مستعد لدفع ستمائة •

النوخذة : أربعمائة •

الشيخ محمد : على بمائتين وخمسين ، وهذا هو السعر النهائى •
فليس هناك سوق للؤلؤ ، كما أنه ليس فى الصرة لؤلؤة كبيرة واحدة •
ولكن صداقتنا القديمة هى وحدها التى تجعلنى أتقدم بهذا العرض السخى •
احتفظ باللآلىء ، إذا شئت ، لترى ما إذا كنت ستحصل على عرض أفضل من
عرضى • والله ، ان عرضى لسخى •

النوخذة : لن أقبل أقل من أربعمائة • ألا ترى كم من الرجال الفقراء
المساكين سيتقاسمون هذا المبلغ ؟ لقد أمضينا شهرين ونحن نفوس على
هذه اللآلىء - شهرين طويلين قاسيين • ألا يساوى كل ذلك أربعمائة
روبية ؟

الشيخ محمد : الله كريم ! ولكن ليس فى مكنتى أن أحسن من وضع
السوق • إلا أنى مستعد لدفع القيمة الفعلية الحالية لهذه الكمية ، فأنت تعرفنى ،
وتعرف ذلك عنى ، ولكنى لا أملك دفع أكثر مما تساوى ، والسوق كاسدة •
وليس هناك مجال للربح الكثير من تجارة اللؤلؤ • (يتلو ذلك كلام يدل
كله على مدى التقى والورع اللذين يتحلى بهما الشيخ ، ويؤثر ذلك فى
البحارة والغواصين الذين يستمعون إليه) •

النوخذة : يرد بكلام مماثل ، ويختم كلامه بنغمة حزينة مرددا نفس
المبلغ السابق : « أربعمائة روبية » •

ويستمر الحديث التقى ، الذى تتخلله الدعوات ، والأيمان ، والآيات
القرآنية ، والأحاديث النبوية ، طويلا • وبعد قرابة ساعة من الزمن ، وبعد

أن تكون تلك الصرة الحمراء ، قد فتحت وأقفلت ثلاث مرات أو أربع ، بينما الغواصون المعروقون يراقبون المساومة ، وهم يتدفقون على نار الموقد الصغير ، ينهض الشيخ محمد فجأة ، ويمسك بيد أخيه من جهة الأصابع ، ويغطي اليدين بقطعة من القماش الأحمر ، لكيلا يرى الآخرون ما يجري تحتها . وكانت هذه طريقته لمعرفة رأى أخيه فى قيمة اللؤلؤ . فهو لا يسأله ذلك مباشرة ، بل يستشير به هذه الطريقة . وكنت أرى الأصابع وهى تقوم بعملها، الشيخ محمد يلمس أظفر إحدى أصابع أخيه ، أو يمسك بالمفصل الثالث من أصبع أخرى ، أو ينتقل الى المفصل الثانى من أصبع ثالثة وهكذا . ويتم كل ذلك بسرعة كبيرة ، بينما يتجاوب أخوة بنفس السرعة . ان الجانب الحسابى من عملية التفاهم بواسطة الاصابع بسيط لا تعقيد فيه ، والعملية قديمة ومتعارف عليها كطريقة لشراء اللؤلؤ وبيعه فى منطقة الخليج العربى ، الا أن التدريب على العملية نفسها يستغرق وقتا طويلا يصل الى بضع سنوات . فلكل أصبع ، وكل مفصل فى اصبع ، وكل درجة من الضغط قيمتها الحسابية الدقيقة جدا .

وقد علمت من البحارة أنه كان بإمكان التجار والوسطاء ، أن يتفاهموا بهذه الطريقة حتى على مبلغ الاكرامية (البقشيش) الذى سيقتسمونه فيما بينهم ، وأن هذه الطريقة يمكن أن يساء استعمالها . ولكن الأمر مع الشيخ محمد لم يكن يزيد عن اعتبار هذه الطريقة جزءا من عملية الشراء ، وليست كلها . فقد كان الثمن يتفق عليه شنويا ومباشرة ، لا عن طريقة اللمس السرية هذه ، والتى لم يكن يستخدمها الا للتفاهم مع أخيه فى أثناء عملية المساومة ، لأن أخاه كان خبيرا باللؤلؤ أيضا ، كما أن بصره كان أفضل .

وبعد مرور وقت طويل نشترى اللآلىء بمائتين وستين روبية . وعندما يفتح كيس الروبيات الفضية ، ويعد السعر المتفق عليه روبية روبية ، تلقى على الارض لسماع رنينها واكتشاف الزائف منها ، وتنتقل اللآلىء الى جيب الشيخ محمد . وبعد أن نحتسى القهوة للمرة الاخيرة ، نعود بالقرب الصغير الى مراكبنا . لقد كان من المذهل حقا أن أراقب كيف كانت قيمة اللؤلؤ ترتفع بعد أن ننهى يوما كاملا من الشراء ، وتصبح الجواهر فى حوزتنا . فقد كان الشيخ محمد يجلس ويخرج الحبات من مخابئها ، ويتفزل بجمالها ، ويزنها ، ويصنفها ، ويمنحها قيمتها الحقيقية ، بدلا من القيمة العامة التى كان يعطيها لها فى أثناء عملية الشراء ، ثم يجمعها كلها ويضعها مع اللآلىء الأخرى فى رزمة واحدة . ولم يكن يحفظ كل مجموعة يشتريها منفصلة عن الأخرى ، أو يحاول تصنيفها ، الا عندما

ينتهى من جميع عمليات الشراء خلال الموسم . فهناك في البحر ، كنا نحفظ جميع اللآلئ في قطعة واحدة كبيرة من القماش ، موضوعة في صندوق مغلق بالقفل والمفتاح . وكان الشيخ محمد يخرجها من مخبئها عشر مرات ، أو ربما عشرين مرة في اليوم الواحد ، في الاوقات التي لا يكون فيها بيع أو شراء ، ويمتصع هو وأخوه النظر برؤيتها ، ويغبطون النفس على شرائها . وكان يبدو أن ثمن اللآلئ ، حال انتقالها من صرة النواخذة الى صرتهم ، يتضاعف مرتين ، وربما ثلاث مرات .

وبينما كنا راسين مقابل الشاطئ في مكان يدعى « رأس مشعاب » ، وصل مركب غوص صغير ، عليه غواص وافاء الأجل ، ليدفن على الشاطئ . وقد بدا لي كأنه مات من مرض الاسقربوط ، فقد كانت التغذية على مراكب الغوص سيئة جدا . فلم يكن هناك من الطعام غير الأرز والسمك . أما الأرز فقد كان مغديا ، وكان بإمكانه ، لو أضيف اليه السمن العربي الأصلي بكميات وافرة ، أن يبعد مرض الاسقربوط عن البحارة والغواصين خلال أشهر الغوص . الا أن النواخذة درجوا في المدة الاخيرة على استبداله بالدهن الصناعي ، المصنوع في أوروبا ، والمصدر الى الكويت والبحرين . وكان هذا الدهن يبدو عاديا ، كما أنه كان رخيص الثمن ، الا أنه لم يكن سوى نوع رديء من زيت الطبخ ، لا يساوي شيئا من الناحية الغذائية . وهكذا أخذ الغواصون يصابون بمرض الاسقربوط ثانية ، ووقف النواخذة مندهشين لا يعرفون سببا واضحا لذلك .

كانت مراسم دفن الغواص المسكين بسيطة للغاية ، وانتهت خلال دقائق معدودات ، وكل ما فعلوه أنهم أنزلوا الجثة من فوق المركب ، وألقوا بها في حفرة في الرمل ، ولم يجدوا أية مشقة في حمل الجثة ، فقد كانت هزيلة ، منهكة ، خفيفة الوزن . وقد نظرت الى وجه الرجل لأتأكد أنه ليس يوسف ، صديقي المجوز ، فقد كنت أخشى أن يكون هو ، ولكنه كان رجلا آخر من الأحساء . وكنت قد رأيت ذلك الدهن الصناعي على ظهور المراكب من قبل ، محفوظا في صفائح . وطلبت من الشيخ محمد أن يحاول اقناع النواخذة بالتوقف عن شرائه . ولكنه أخفق في ذلك ، وكان السبب ، كما قال لي ، أن هذا الدهن رخيص الثمن ، وأن النواخذة قوم جاهلون - فقد كانوا يستخدمون هذه المادة بسخاء ، دون أن يدروا أنها عديمة الفائدة - أما السمن الكويتي الأصلي فقد كان غالي الثمن ، ولم يكن في مكنة النواخذة الفقراء شراؤه .

وهكذا غيبوا الغواص المسكين تحت الثرى ! وتساءلت عن عدد الغواصين الذين كانوا يلاقون حتفهم بالطريقة نفسها ، فأجابني الشيخ محمد بأن

حوادث الوفاة نادرة ، فيما عدا بعض الغواصين الذين كانوا يفرقون ،
والقلائل الذين كانوا يموتون حتف أنفهم . الا أنني لاحظت أننا لم نصعد
على ظهر مركب من المراكب ، الا رأينا على الاقل واحدا من الغواصين
يشكو من المرض ، وهو متلفع بعباءته الصحراوية ، وامتدد على الخشب
العاري في مؤخرة المركب . وكانت معظم تلك الحالات تبدو كأنها حالات
من المصابين بمرض الأسقربوط .

وعلى بعد بضعة أميال جنوب رأس مشعاب ، شاهدنا أسطول الكويت
الرئيسي ، والمؤلف من ستين مركبا يقف على جرف واحد كبير ، وعدد
آخر يقف هنا وهناك ، كل منها على جرف صغير . وكان عدد ما تسنى لنا
رؤيته منها يبلغ حوالي مائة مركب ، الا أن غالبيتها كانت من المراكب
الصغيرة . وكان المنظر خلافا مؤثرا - فهنا كانت تقف مائة من المراكب ،
بهياكلها البنية المحروقة ، وبمجاذيفها الطويلة ، وكأنها مائة من المراكب
الحربية القديمة ، وهناك كانت الرايات ترفرف على سمبوك أمير البحر .
كما كنا نسمع قرع الطبول ، وأهازيج البحارة القوية ، كلما تحرك جلبوت ،
أو بلم كبير ، لينتقل بجلال وجمال من مرسى الى مرسى آخر ، تسوقه تلك
الحركات الموسيقية للمجاذيف الطويلة وهي تضرب الماء . كما كانت تتناهى
الى اسماعنا تلك الأصوات العميقة ، الصادرة من أعماق مجموعة تتألف
من اثني عشر أو أكثر من البحارة القائمين على ظهر مركب غوص كبير ،
وهو يتخذ مرسى جديدا ، وبحارته ينحنون معا ، وهم يجذفون للمرة الأخيرة،
ويطلقون آخر صيحاتهم ، قبل أن يتوقفوا في المكان المحدد . وفي بعض
الاحيان ، كان واحد من المراكب الصغيرة يرفع شراعا كبيرا على السارية
الأمامية ، وينساب على سطح الماء مسافة ميل أو يزيد . وكانت جميع
المراكب تستخدم هذه الأشرعة ، التي تساعد على سرعة الحركة وخفتها ،
وهي في المصائد ونادرا ما ترفع اشرعتها المثلثة الكبيرة . الا عندما تغادر
المكان نهائيا ، او عندما ترتب مراسيها صباحا ومساء . أما اثناء النهار
فكانت المراكب تنقل من مكان الى آخر باستعمال المجاذيف فقط

وكانت مراكب الاسطول تنظم نفسها ، وتعمل في صيد اللؤلؤ على
الشكل التالي : تصطف المراكب على الطرف الخارجي من الجرف صفا
طويلا ، وتلقي مراسيها بشكل يساعد ، اذا أرسل البحارة حبالها
الغليظة ، على الانجراف تدريجيا الى الطرف الآخر ، بينما يكون الغواصون
يمشطون الجرف عرضا . فاذا ما فرغوا من ذلك ، رفعوا المرساة ، وجذفوا
المركب الى مكانه الأصلي ، وهم يغنون ويهزجون . وكان كل شيء يتم
بحسب أسلوب معروف . ثم يلقي مراسيهم في مكان أبعد قليلا من مكانهم

الأصلي ، ويعودون ثانية الى استطلاع جزء آخر من قاع البحر ، بأن يعمل الغواصون من كل جانب من جانبي المركب في وقت واحد .

لقد كانت طريقة العمل هذه في تمشيط الجرف ، دقيقة جدا ، فلم يكن يمضي يوم أو بعض يوم ، حتى يكون الجرف كله قد نظف تماما كأنه حقل يحراث . فقد كانت المراكب ، وهي تمر فوق الجرف ذهابا وإيابا ، والغواصون ينظفونه من المحار من كل جانب من جانبي المركب ، كأنها مسالف تمهيد الارض تمر فرق أحد الحقول ، لا تخطيء أو تترك شيئا . فكلما كان المركب يلقي مراسيه في منطقة معينة ، كان الغواصون يمشطون البحر ، فلا يتركون فيه محارة واحدة ، وعندها ينتقل المركب الى منطقة مجاورة ، وهكذا . وكان يخصص لكل مركب مساره ، ونصيبه من كل جرف ، ولم يكن يعتبر من اللائق أن يلقي مركب آخر مراسيه في ذلك المسار ، ولكنه كان يحدث ، بين الفينة والفينة ، أن يفقد أحد المراكب الصغيرة كل أمل في العثور على المحار في منطقة ممشطة تمشيطا كاملا بهذا الشكل ، فيرفع شراعا على السارية الأمامية ، ويرحل الى جرف صغير آخر يعمل فيه وحده بعيدا عن الأسطول .

وكانت مهارة النواخذة تنحصر في معرفتهم للجروف التي يكثر فيها المحار ، وفي مقدرتهم على كنسها من المحار كنسا تاما ، فقد كان وجود خمسين أو ستين مركبا فوق جرف معين في وقت واحد يتطلب رجلا حصيفا ، شديد المراس ، يعرف دائما كيف يرسى مركبه كل مرة في جزء جديد من المنطقة ، بحيث يخرج غواصوه من الماء في كل مرة ، وسلاهم مملوءة بالمحار . فقد كنا أحيانا نعتلى ظهر أحد المراكب ، فنجد أن غواصيه لا يستطيعون ، مهما حاولوا ، أن يخرج الواحد منهم من الماء وفي جرابه أكثر من محارتين أو ثلاث في كل مرة ، بينما يقف قريبا منهم سمبوك آخر يعثر غواصوه على ما يملأ سلاهم من المحار الكبير ، كلما غاصوا الى القاع وخرجوا منه . ولم يكن هذا يرجع الى الحظ وحده ، بل الى تلك الحنكة الطبيعية ، التي اما أن تكون لدى النواخذة ، أو لا تكون . وكثيرا ما كان الشيخ عبد الله يشير الى النواخذة الذين يتحلون بتلك الصفة ، وكانوا ، في الغالب ، من أصحاب المراكب الكبيرة . وكان أحد هؤلاء مكفوف البصر تماما ، الا أنه كما قال لي صديقي التاجر ، كان لا يزال يتمتع بتلك الصفة ، كما رأينا كثيرا من النواخذة أنفسهم يغوصون ، الا انهم ما كانوا يواظبون على ذلك كسائر الغواصين الآخرين ، بل كانوا عادة يقومون بالغطسة الأولى لكي يتفحصوا الأحواض .

وكننا ، ونحن في صحبة الأسطول الرئيسي ، نلقي مراسينا في الماء

خلف حاجز مرجاني ، موغل في البعد داخل الخليج ، لا يرى منه البر .
وكان هذا يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الكويت والبحرين ، في ذلك
الجزء من الخليج ، الشديدا الخطورة على المراكب الكبيرة التي تجوب المحيطات
الا أنه لم يكن خطرا علينا ، فقد كان جميع نواخذتنا يعرفون قاع البحر
في هذه المناطق ، كما لو كان حوضا من أحواض الزهور في حديقة المنزل ،
وكانت المراكب الصغيرة تهرع الى حيث نكون في المساء ، كأنها سرب من
الينخوت العائدة من السباق ، الا أن الرائحة التي كانت تنبعث منها كانت
بعيدة كل البعد عن رائحة تلك الينخوت ، كما كان بحارتها السمر الهزيلون
يصدحون بأغانهم الغريبة ، وهم يدفعون المراكب بالمجاديف الطويلة . وكان
بإمكاننا أن نرى الفواصين وهم متكومون على مؤخرة المركب ، كأنهم
أنصاف أحياء ، وكل منهم منطو على نفسه ، يرتجف من البرد .

عندما انضمنا للأسطول الرئيسي ، كانت المراكب الكبيرة ، وبقية
المراكب التي يتألف منها ذلك الاسطول ، تعمل في الخليج بالطريقة التي
سبق ذكرها مدة شهرين : كانت تبدأ من الشمال ، متجهة الى الجنوب ، الى
أن تلتقي بأسطول البحرين المتجه شمالا . وبعد ذلك ، كانت المراكب الصغيرة
تأتي الى المكان ، لترى ما يمكن الحصول عليه من مخلفاتها . وكانت هذه
المراكب الصغيرة تعمل قريبا من الشاطئ ، وتستخدم أساليب مختلفة .
وكنا نراها أحيانا ، يحيط بها جميع بحارتها ، وهم يسبحون هنا وهناك ،
وقد وضعوا رؤوسهم في صناديق ، تتحرك معهم ، فيبدو منظرهم غريبا حقا .
وكان قاع الصندوق مغطى بلوح من الزجاج ، يستطيع السابح أن يرى قاع
البحر من خلاله بكل وضوح . وعندما كان أحدهم يرى محارة أو أكثر ،
فانه يطرح الصندوق جانبا ، ويفطس لاحتضارها . وكانوا يواصلون السباحة
ساعات طويلة ، دون أن يبدو عليهم التعب ، ودون أن يشكوا من أي ازعاج .

وبهذه الطريقة ، كانت قيعان الخليج ، أو على الأقل الضحلة منها ،
تنظف من المحار بكل كفاءة ، على الرغم من الاصرار على استخدام الوسائل
القديمة ، ومن التناقص الحاد في عدد المراكب والرجال العاملين في هذه
المهنة .

وقد مكثنا في ذلك المرسى المحاذي للحاجز المرجاني ، بينما كانت
مراكب الأسطول تعمل في الجرف المجاور ، وتمكن الشيخ محمد ، خلال مدة
اقامتنا ، من شراء عدة رزم من اللآلئ الجيدة . وفي المساء ، وفي تلك
الآونة القصيرة التي تفصل بين النور والظلمة ، كنا نتناول طعامنا ، ثم
نقوم بزيارة المراكب الأخرى ، أو يقوم نواخذتها بزيارتنا ، فنتجاذب أطراف
الحديث معهم ومع التجار الآخرين ، ونبدي إعجابنا بما حصلوا عليه من



اللؤلؤ ، كما نكيل المديح للآلئ التي حصلنا نحن عليها . وعند مغيب الشمس ، ينادي المؤذن للصلاة ، فيقوم الجميع بتأديتها ، وبعد ذلك كنا أحيانا نسمع قرع الطبول على ظهر أحد مراكب البدو الراسية على شاطئ الكويت ، أو نرى ألسنة اللهب تندلع لمدة قصيرة على ظهر أحد المراكب المتأخرة في الوصول الى الشاطئ ، وذلك لتجهيز شيء من القهوة . ثم يخيم على الكون صمت مطبق ، فالجميع يخلدون الى النوم آناء الليل . وكانت المراكب الصغيرة تتماوج وتهتز وهي متكئة على مراسيها ، بل أنها تتحرك فيحتك بعضها ببعض ، الا أن الغواصين الذين كانوا يصطفون متلاصقين كالسردين في علبته ، كانوا ينامون نوما عميقا ، بعد عمل يوم مرهق ، لا يشعرون بشيء من حولهم حتى بزوغ الفجر . وعندها يستيقظون ثانية ، ليعملوا في نلق المحار ، فقد كان صيد اليوم السابق دائما يودع في أكياسه خلال الليل لكي يموت المحار ، فيصبح فتحه ميسورا . وفي اثناء قيام البحارة بهذا العمل ، تبزغ الشمس ، ثم يشتد نورها ، فيتسنى للغواصين بمساعدتها رؤية قاع البحر . فلم تكن هناك جدوى من بدء الغوص قبل أن يقوى نور الشمس . كما لم تكن هناك فائدة ترجى من الغوص في الأيام التي تهب فيها الرياح الشمالية ، المحملة بعبات الرمل الناعم اللاذع ، فتصبح الرؤية سيئة لدرجة أن الغواصين لا يرون شيئا على عمق قامة واحدة . كما لم يكن الغوص ممكنا عندما كان البحر يهيج وترتفع أمواجه ، وترتفع المراكب وتنخفض بشكل عنيف ، يجعل الغوص خطرا على الحياة . وفيما عدا بضعة أيام مثل هذه ، التي كان الغواصون يتعطلون فيها عن العمل ، كان الطقس عادة معتدلا ومستقرا طوال موسم الغوص .

وفي أحد تلك الايام التي كنا نرسو فيها على الحاجز المرجاني، عثرنا على يوسف العجوز . وعندما أتى ، كان الوقت مساء ، هادئا غاية في الجمال ، وقد انعكست على الماء ألوان الشفق الخفيفة الرائعة ، وامتلا الجو بأهازيج البحارة القادمين على مراكبهم يدفعونها بالمجاديف ، ويرفعون أشرعتها الكبيرة ، التي كانت تنعكس صورتها على زرقة الماء الصافية ، فأخذ الجو يعبق بأريج الرومانسية ، وبدأ المنظر كله كأنما هو ضرب من الخيال . وكان يوسف قادما على سمبوكه ، يلحق بالأسطول الرئيسي ، بعد أن جرب حظه في مكان آخر ، وسط الخليج ، يبدو أنه كان خاصا بقائد السمبوك . ولقد صعقت لما طرأ على الرجل من تغير . فقد أصبح وجهه مشدودا ، وازداد هزاله ، كما ازداد شعره الأشيب بياضا ، وتناقص ، وهو

الغوص على اللؤلؤ .

الذي لم يكن غزيرا في الأصل . وغارت وجنتاه حتى كأنهما قطعتان من الجلد المجرد ، شدتا على عظام متقلصة . وأما يداه ورجلاه فقد كانتا متقرحتين ، رغم أن أظافره كانت منطاة بقطع من الجلد تغطيها من الصخور المتكسرة ، والشعاب المرجانية الحادة الرؤوس . وكانت معدته خاوية ، كأنها لم تعرف طعم الزاد منذ أسابيع . ولم يكن يستطيع الوقوف منتصبا ، فقد كان ظهره قد انحنى على معدته الخاوية ، كما كانت رجلاه قد هزلتا ، ولم يبق فيهما الا الجلد والدظم ، وكذلك كانت يداه ، فقد أثر الماء فيها جميعا ، فتركها وقد ذوت وجفت تماما . وكان جلد رجله مغطى ببثور صغيرة ، كانت تبدو كأنها « الخالات » الصغيرة ، وقد أصبح لكثير منها رؤوس متفجرة .

وكان كثيرون من الفواصين على ظهر هذا السمبوك ، وغيره من المراكب الاخرى ، مصابين بنفس المرض في أرجلهم ، وكثيرون مصابين في أذرعهم أيضا ، ولا بد أن هذه البثور كانت مؤلمة جدا . وكنت قد رأيتها لأول مرة ، ونحن على ظهر « فتح الخير » . ولم تكن تستجيب لأي نوع من العلاج ، الا أنها كانت تتحسن بعض الشيء اذا ما أبتعد البحارة عن ماء البحر مدة من الزمن . لقد كان يوسف المسكين في حالة يرثى لها . فكان يبدو كأنما زاد عمره عشرين عاما ، وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة . ورغم ذلك كله ، فقد حياني بحيوية وابتهاج ، فقد كانت روحه لا تزال عالية ، ولم يؤثر فيها قبوله لما قدر له بكل طواعية ورضى ، ولم يكن منظره يوحي بأنه يستجدي العطف أو الشفقة من أحد . لقد كان قبوله لمصيره نوعا من التسليم الشجاع للقدر المكتوب .

وقد علمنا منه أن صيدهم من اللؤلؤ كان هزيلا . وهذا لا يعني أنهم لم يعثروا على شيء منه ، بل حصلوا على الكثير ، الا أنه لم تكن هناك لؤلؤة واحدة من الصنف الاول ، ولم تكن الا بضع لآلئ من الصنف الثاني ، أما الباقي ، فكانت من الاصناف الرخيصة جدا . لقد أذهلني أن أعلم أن عدد اللآلئ الممتازة التي يعثرون عليها ، نادرة جدا . ففي خلال الشهرين ، اللذين أمضيتهما في تلك المصائد ، كنت أرى أكياسا مملوءة باللآلئ في كل يوم ، ولكني لا أعتقد أنني رأيت أكثر من ستة من حبات اللؤلؤ التي كانت جواهر كبيرة لا تشوبها شائبة . وقد قال لي الشيخ محمد أن جميع مصائد اللؤلؤ لم تكن تأتي ، في العام بأكمله ، بأكثر من عقدين من اللؤلؤ الممتاز .

وفي الصباح رافقت يوسف على مركبه ، لأقضي النهار معه ، وأراقب الغوص في نفس الوقت . ولم يقبل العجوز مني شيئا سوى بضع سجائر ،

وحفنة من التمر ، لأنه ، كما قال ، ليس بحاجة للأكل . فلم يكن يجوز للغواصين أن يأكلوا كثيرا ، بل كان من الأفضل لهم ألا يأكلوا أكثر من حبات من التمر مع القهوة في الصباح ، ولقمة من الطعام في المساء ، عندما ينتهون من عمل النهار ، فليس باستطاعتهم الغوص ، ويطرونهم مملوءة بالطعام ، والا فان الموت مصيرهم . وكان على يوسف أن يقضي ستة أسابيع أخرى ، أو سبعة ، وقال لي أنه يستطيع تحملها ، كما تحملها مدة عشرين عاما من قبل . لقد كان الأمر صعبا عليه في بادئ الأمر ، بعد أن كان قد ابتعد عن الغوص خمس سنوات كاملة ، الا أنه تعود على الحياة الشاقة ثانية ، ولم يبق له الا ستة أسابيع ، لو كنت أنا الذي سأقضيها هناك ، لبدت كأنها لن تأتي الى نهاية أبدا .

عندما مرت ساعة على طلوع الشمس ، كنا نقف على الجرف ، حيث كان الماء رقيقا صافيا ، وكان البحارة قد أنهوا فلق المحار الذي جمعوه في اليوم السابق ، وكان ملء سبعة أكياس كبيرة ، الا أنهم لم يحصلوا منها جميعا على أكثر من ملء ملعقة صغيرة من اللؤلؤ ، ولم يكن أي منه من النوع الممتاز . لقد كان الحظ عاثرا بالفعل ، لأن بعض المراكب الأخرى في نفس المرسى ، كانت قد صادت لآلئ ممتازة . كما أن سمبوك أمير البحر كان فيه من اللؤلؤ ما ثمنه عشرة آلاف روبية . ولكن الله كريم ولا بد أن يوأتيهم الحظ عما قريب . لقد كنت أرجو ذلك من كل قلبي ، وأنا أراقب يوسف العجوز وهو يجهز نفسه للغوص .

كان السمبوك قديما ، مضى عليه أربع سنوات ، وهو واقف عاطلا عن العمل ، على رمال الشاطئ ، الا أنه كان أكبر حجما من كثير من المراكب الأخرى ، وفي حالة جيدة ، وكان له ثمانية مجاذيف من كل جانب . كما كان له سطح ، ولكنه بدون شرفات على الجانبين ، مثله في ذلك مثل سائر مراكب الغوص الأخرى . وعندما يكون المركب راسيا ، كانت المجاذيف تلقى على عرضه ، وهي موثقة بمساندها ، وتبرز فوق البحر وهي على زاوية قائمة مع هيكل المركب . وكانت المجاذيف توضع على هذا الشكل ، وفي جميع المراكب ، وهي واقفة فوق الجرف ، لأنها كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة للغوص . فقد كان هناك غواصان ومساعد (١) لكل مجذاف ، وكانت حبال الغواصين تمتد فوق المجاذيف ، لمنع أية امكانية لاشتباك بعضها ببعض الآخر . وفوق كل مجذاف من المجاذيف ، التي أصبحت مهترئة من كثرة امرار الحبال عليها ، كانوا يعلقون حبالا ، يبلغ طوله حوالي خمس

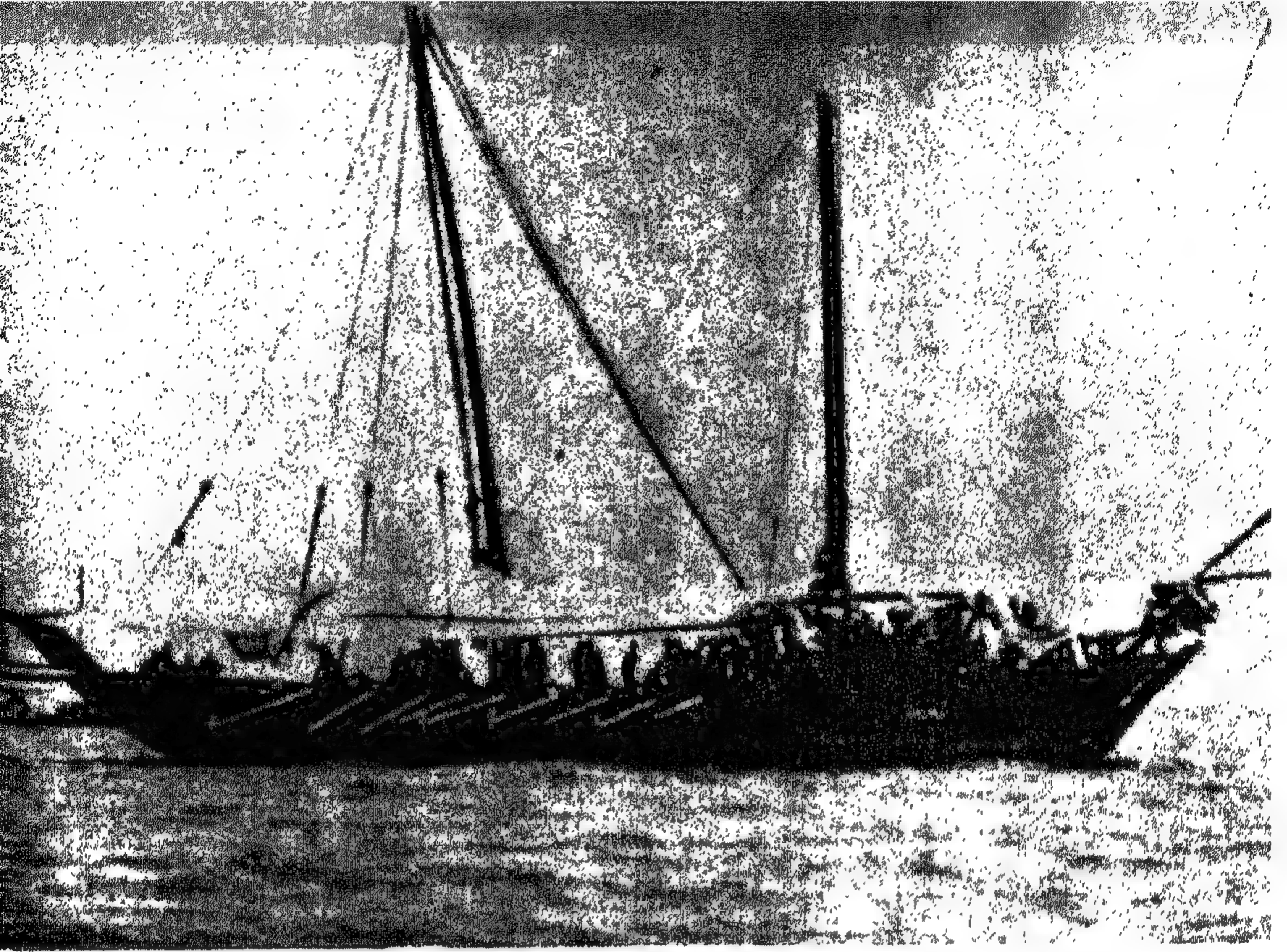
(١) المساعد يسمى « سيب » ، جمعها « سيوب » باللهجة الكويتية (المترجم) .

عشرة قامة ، وفي طرفه حجر مثبت به . وكان الغواصون ينزلون الى الأعماق بمساعدة هذا الحجر ، الذي كان يرفع ثانية ، حالما يصل أحدهم الى قاع البحر . وكان كل منهم يصحب معه حبلا آخر ، مربوطة به سلة مصنوعة من الحبال ، معلقة على عصا معقوفة من الخيزران المجدول ، وكان الغواص يظل متشبثا بهذا الحبل ، الذي كانت وظيفته المحافظة على حياته من جهة ، وجمع المحار في سلته من جهة أخرى ، فاذا ما أفلت هذا الحبل من يد الغواص ، كانت في ذلك نهايته . وكانوا يغوصون وهم يرتدون سراويل سوداء قصيرة ، ولا يرتدون شيئا سواها .

وكان يوسف يعلق قطعة من خيط القنب حول عنقه ، يتدلى منها ملقط للأنف (فطام) . وكان هذا الفطام مصنوعا من قرن الكبش ، الا أن فطامات بعض البحارة الآخرين كانت مصنوعة من الخشب . وقبل كل غطسة كان يثبت هذا الفطام على أنفه بعناية ، فقد كان وسيلة الحماية الوحيدة التي يستخدمها . وقد سأله لماذا يرتدي جميع الغواصين السراويل السوداء ، فأجاب بأن الأسماك الكبيرة ، وخاصة سمك القرش ، لا تحب اللون الاسود ، وما دام الغواصون يرتدون هذا اللون فهم في مأمن منها . وكان هذا اعتقادا مطمئنا ، ولكني لم استطع أن أتأكد من مدى صحته ، وقد أضاف يوسف قائلا ان الغواصين يرتدون قطعا صغيرة من القماش الأبيض اذا تواجد سمك الشفنين في تلك المياه (١) . ولكن نظرا لعدم وجود هذا السمك في ذلك اليوم ، فقد كان الجميع يرتدون السواد فقط . وكان يبدو لي أن لدى كل غواص زوجا من السراويل السوداء ، وازارا واحدا . وعندما كان يصعد الى سطح الماء ، وهو يرتجف من البرد ، بعد أن يكون قد أتم الغطسات العشر المقررة على كل منهم ، ثم يسحب الى سطح المركب ، كان يبدل سرواله المبلل بسروال جاف ، ويعلق المبلل ليجف ، ثم يقف حول نار الموقد يتدفأ ، الى أن يحين موعد نزوله الى الماء مرة ثانية .

لقد كانت هناك نوبتان من الغواصين ، نوبة لكل مجذاب من كل جانب ، يقوم كل فرد منها بعشر غطسات ، ويستريح عشرا . وعلمت من يوسف أنه يغوص مائة وعشرين مرة في اليوم ، معظمها في المياه الضحلة . وكانت كل غطسة تستغرق حوالى دقيقة ، أو بكلام أصح ، ما بين أربعين الى تسعين ثانية في المعدل . وعلى هذا المعدل يمضي يوسف حوالى ساعتين

(١) يبدو ان في الامر لبسا بالنسبة للالوان . فقد كان الغواصون يرتدون القمصان السوداء ، لا البيضاء ، لابتعاد هذا النوع من السمك (المترجم عن محمد أحمد الرشيد) .



سمبوك للنوص

في قاع الخليج كل يوم • ساعتين في اليوم ! لقد كان ذلك يبدو لي كثيرا جدا ! الا ان يوسف أخبرني أن هناك فترات للراحة أيضا ، بمعدل يوم كل عشرة أيام أو يومين كل ثمانية عشر يوما في بعض الأحيان ، اذا كان حوض الصيد غنيا ، والطقس مناسباً للغوص • وكانوا يقضون أيام الراحة على الشاطئ ، لأن المركب كان يحتاج الى التزود بالماء والوقود • وكان البحارة ، الذين يعملون عادة مساعدين للغواصين وهم في البحر ، هم الذين يتولون مهمة البحث عن الماء والوقود ، وجلبهما الى المركب ، في حين يتناول الغواصون طعامهم وينامون نوما عميقا •

ها هو يوسف العجوز يمسك بحبله الآن ، وهو في الماء ، تحت آخر مجداف في الجهة الخلفية ، على ميمنة المركب • وكان هذا هو مكانه المحدد ، وهو المكان الذي يحتله عادة رئيس الغواصين ، الذي كان يؤمل منه دائما أن يأتي بالقدر الأكبر من المحار • وقد بقي معلقا هناك بضع لحظات ، يتحسس الماء ، ويثبت فطامه بالشكل السليم ، وكانت العظمت العشر المصفوفة على سعفة النخل في مؤخرة المركب ، تدل على أن أحدا لم يقم بالغوص حتى الآن • وكلما كان الغواصون ينزلون الى قاع البحر مرة ،

كان البحار الذي يساعد في سحب الفواصين من الماء ، والجالس في الخلف ، ينقل احدى تلك العظلمات من مكانها ، وعندما كانت العظلمات العشر تنتقل كلها من مكانها الأصلي ، يصبح هذا معلنا انتهاء النوبة بالنسبة لهذه المجموعة من الفواصين ، فيصعد هؤلاء الى سطح المركب ليستريحوا ، ويحل غيرهم مكانهم ، وهكذا . وكان على ظهر هذا السمبوك اثنان وثلاثون غواصا ، وعشرون مساعدا ، ونوخذة ، وكاتب ، وطباخ وخمسة صبيان (١) . وكان هؤلاء الصبيان ، حسبما رأيت ، لا يعملون شيئا سوى ابقاء النراجيل مزودة بالطباق ، وجلب الماء ليغسل البحارة أيديهم قبل الأكل ، والوقوف حول النوخذة في كل مرة يغير فيها مرسى المركب ، وهم جاهزون لسماع الأوامر ، ونقلها بصوتهم العالي الحاد الى البحارة ، ليستطيع هؤلاء سماعها من فوق أصوات الغناء الهادر من ستين رجلا ، وكان واحد من أولئك الصبيان هو ابن يوسف ، ولم يكن عمره يزيد عن السادسة . وقد علق العجوز على ذلك قائلا : « اني استطيع على الأقل رؤيته وهو معي هنا . ولكنني سأعمل على الا يتورط في أي دين من أي نوع » .

لقد أصبح يوسف جاهزا للغوص الآن . وما هو يمسك بالسلة من حافتها العليا . ثم يلف الحبل ، الذي ينتهي بالحجر ، حول رجله ، جاعلا الحجر يلامس قدمه . ثم ينظر الى مساعده فوق المركب ، ويعطي الإشارة . وما هو المساعد يفلت الحبل ، ويوسف يغوص في الماء . وما هو يهبط ويهبط الى أسفل ، وأنا أراقبه ، وأستطيع أن أراه حتى يصبح على عمق ثلاث قامات ، ثم أربع ، كما أرى التيار يجرفه معه ، ويسحبه نحو المؤخرة ، ثم يصبح نقطة مظلمة غير واضحة في الماء ، ثم يختفي كلية عن ناظري . وبعد بضع ثوان ، عندما يشعر المساعد بأن الحبل ذا الحجر قد ارتخى على أثر ملاسته للقاع ، يسحبه الى أعلى ، ويجعله في عقدة رخوة حول المجذاف ، ثم يمسك بحبل السلة ، ويمد ليوسف به ، بانتظار تلك الهزة الخفيفة ، التي تشير الى أن رثتي يوسف لم تعودا تقدران على التحمل ، وأن هذه الفطسة قد أتت على نهايتها . كم يا ترى مضى على يوسف وهو تحت الماء ! لقد كان الوقت يبدو طويلا بالنسبة لي ، وأنا واقف هناك أنتظر . ولم أعد الثواني في بادئ الأمر ، فقد كانت تبدو كأنها دقائق . لقد أصبح جميع الغواصين في البحر الآن ، وخيم الصمت على المركب ، بينما كان المساعدون يقفون هناك منتصبين يقظين ، وهم يمسكون بالحبال، وما زال الغواصون في الماء . وكانت الحبال مشدودة وجميعها متجهة الى

(١) ويدعون باللهجة الكويتية « الثبايون » جمع « ثباب » . وهم صبية تحت العاشرة يقومون بالخدمة الخفيفة ، ولا يتقاضون أجورا عن أعمالهم (المترجم) .

خلف المركب ، يفصل كلا منها عن الآخر ذراع المجداف المستدير . وكان من الواضح أن هناك تيارا قويا يجرى فى قاع البحر ، فقد كان يوسف ، آخر الفواصين من الخلف ، يبعد ما لا يقل عن ثلاثين قدما خلف المركب . مضت دقيقة كاملة ، والآن ، ما هذا ؟ انها هزة خفيفة جدا ، يكاد المرء لا يشعر بها . الا أن المساعد بدأ يسحب الحبل سحبات سريعة طويلة قوية ، أولا باحدى اليدين ، ثم بالآخرى بتتابع سريع . وتابع سحبه للحبل ، ومر وقت ، طويل دون أن أرى أثرا ليوسف . والآن ! نعم ، ها هى بقعة داكنة باهتة تبدو فى الاعماق، على زاوية خمس وأربعين درجة من سطح المركب . وبدأت البقعة تكبر بسرعة ، ثم تأخذ شكلا غير واضح لجسم بشرى ، ثم يتضح رأس رجل ومنكباه ، وأخيرا يخرج يوسف الى سطح الماء ، برأسه الأشيب القصير الشعر . نعم ها هو يوسف العجوز يصل الى سطح الماء أخيرا ، وأول ما يظهر منه سلته وقد امتلأت بالمحار ، ثم رأسه الأشيب العجوز ، وقد امتدت احدى اليدين لتعجب عن عينيه وهج الشمس ، ثم كتفاه والماء يتصبب منهما . وكأنما الرجل عجل البحر . وعندئذ نفخ نفخة كبيرة واحدة ، كأنه الحوت ، وأزاح الفطام عن أنفه ، وأخذ شهيقا طويلا . ثم بقى عائما فى الماء بجانب المركب ، بينما كان مساعده يرفع السلة الى سطح المركب .

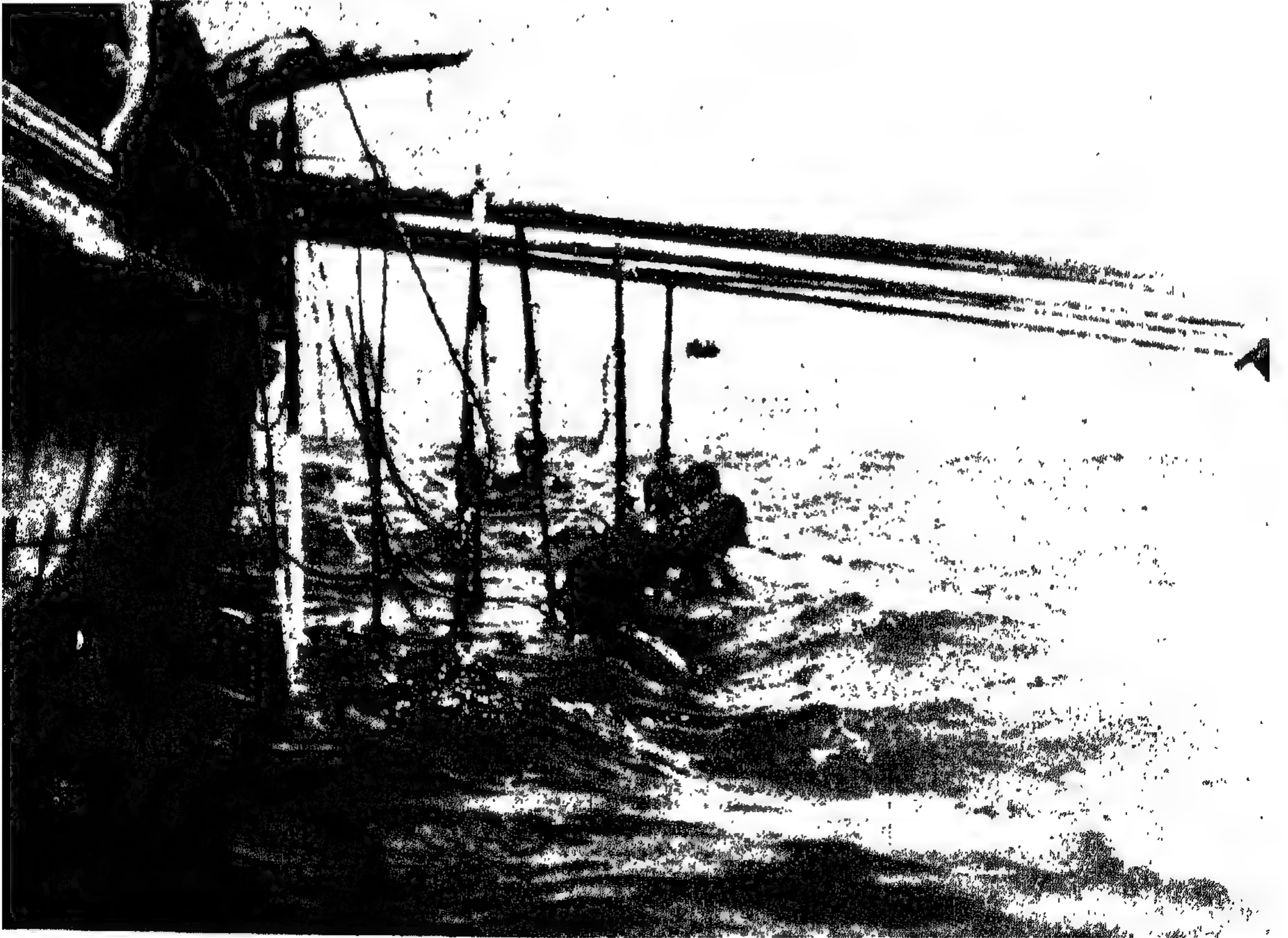
وها هم الفواصون جميعا وقد عادوا الى سطح الماء ، وكان يوسف آخرهم . وها هم المساعدون يتولون أمر سلالهم ، التى كان بعضها ممتلئا الى النصف ، والبعض الآخر الى الربع ، بينما لم يكن فى بعضها سوى محارتين أو ثلاث . وكان كل من المساعدين يرفع سلته ، ثم يدور بجسمه باتجاه المركب ، صائحا : « الله كريم » ، يتبعها بصيحة عميقة أخرى قائلا : « يا الله » وهو يفرغ محتويات السلة على سطح المركب ، فيسمع لها قعقة . والدعوات تتردد من المساعدين الآخرين « الله كريم ! يا الله ! » .

وعند هذا ، يكون الفواصون قد أخذوا قسطا قليلا من الراحة ، فقد غاصوا دقيقة واستراحوا دقيقتين . ثم يشرعون بتناول السلال مرة ثانية ، فالحبال ذات الحجارة ، ثم يثبت كل منهم فطامه على أنفه ، ويغوص ثانية . وبعد ذلك يأتى الانتظار الطويل ، الرهيب أحيانا ، قبل أن تظهر الرؤوس البيضاء على السطح مرة أخرى ، وتصعد السلال المحملة بالمحار الى السطح فتفرغ هناك ، ويسمع لذلك الصوت المعروف ، كما يسمع دعاء «الله كريم!» و « يا الله ! » ، ثم تنتقل احدى العظمت من مكانها الاصلى ، ويمرود الفواصون للنفطس مرة أخرى .

وقد استمر الحال على هذا المنوال عشر مرات متتالية ، بينما كان غواصو الدفعة الثانية يجلسون بكل هدوء على مؤخرة المركب ، دون أن يبدر منهم أى اهتمام ، وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد ، ولكن سرعان ما نودى عليهم ونزلوا الى الماء ، بينما وقف يوسف وغواصو دفعته يرتجفون وتصطك أسنانهم من البرد ، وهم يتحلقون حول الموقد الهزيل طلبا للدفع . وكانت هناك قطعة من شراع قديم قد نشرت لحمايتهم من الهواء البارد ، فقد كان النهار فى أوله ، وكانوا يشعرون بالبرد حقا . وعلى الرغم من أن الطقس كان بالنسبة لى حارا لدرجة لا تحتمل ، فقد كانت درجة الحرارة فى الظل ، فى ذلك الصباح الباكر ، تبلغ مائة درجة فهرنهايت ، الا أن الغواصين البؤساء ، المعروقين ، كانوا يقفون هناك فى وزراتهم وهم يرتعدون من البرد .

وعندما اشتدت حرارة الشمس اشتدادا كبيرا ، رفعت مظلتان من قماش يابانى رخيص ، واحدة فوق مقدمة المركب ، والاخرى فوق مؤخرته، فقد كانت الشمس ترسل أشعتها اللاهبة فتسلق أجسام البحارة بشواظها

الغواصون يستريحون



النارية طوال النهار • وكان هؤلاء، مثلهم في ذلك مثل الغواصين، لا يتناولون شيئاً من الطعام ، فما دام الغواصون لن يأكلوا شيئاً ، فلماذا تطبخ وجبة الغداء ؟ والواقع أن أحدا لم يكن يتناول هذه الوجبة على مراكب الغوص • وفيما كان كثير من الغواصين من البدو، كان معظم المساعدين من الإيرانيين، بينما كان البعض الآخر من العبيد الزنوج المحررين • في هذا الوقت ، كان الغواصون قد غاصوا عشرين مرة في المكان نفسه ، وجمعوا ما يمكن جمعه من المحار • ولذلك فقد أرخوا حبل المرساة الطويل ، فانتقل المركب عشرين ياردة من مكانه الى الخلف ، مع اتجاه حركة المد • وعندما سألته عن طريقة عمله في الاعماق ، وكيف كان بإمكانه أن يبقى على قاع البحر ، دون أن يكون معه ثقل كاف لابقائه هناك ، على عمق يبلغ ثمانى قامات ، أجاب بأنه كان يزحف على قعر البحر وعيناه مفتوحتان ، وكان عليه أن يشق طريقه بالقوة ، بأن يتشبث بالرؤوس الناتئة من الشعاب المرجانية ، ومن الصخور الأخرى • وعندما كان يرى المحار ، كان يقتلعه من الصخر ، ويلقى به في سلته ، كما كان عليه أن يعمل بسرعة كبيرة ، والا يبتعد عن المركب أكثر مما يطيق • وكان كل رجل يتقيد بالجزء المخصص له من القاع ، ويتجه مع التيار الى خلف مجذافه • وحالما يلامس حجره القاع ، يبدأ هو بذرعه ذهاباً وإياباً ، على زاوية قائمة مع هيكل مركبه ، بحسب تقديره وكفاءته • وبهذا يستطيع الغواصون جميعاً تغطية القاع بشكل تام وكامل ، فلا يفوتهم أى جزء منه •

تم تستمر العملية في المكان الجديد : عشر مرات للغطس ، وعشر للراحة ، ثم عشر غيرها للغطس ، ومثلها للراحة ، ثم يرخى الحبل وينتقل المركب الى مكان جديد ، ويستمر العمل • وما نحن نرى الكيس وقد امتلأ بالمحار الى منتصفه ، فقد كان المحار كله يجمع في أكياس موضوعة عند أسفل الشراع المزينى • وما قد أصبح السطح كله مبللاً بالماء ، بل أصبح المركب كله مكاناً مبللاً يستخدم قاعدة للعمل الدائب • فها هم المساعدون يتصبّبون عرقاً ، بينما الغواصون يرتجفون برداً • ومع أن المساعدين كانوا سمناً ، والغواصون في غاية الهزال ، إلا أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون طعم الراحة ، وأولئك لم يكونوا يعرفون طعم الدفء • فقد كان الغواصون ، بوجناتهم الغائرة ، وهزالهم المؤلم ، يتحلقون حول نار الموقد ، ينتظرون دورهم في الغطس • وكان المساعدون يرتدون الوزرات ذات اللونين الأحمر والأزرق ، بينما يرتدى النوخذة قميصاً أبيض ، والغواصون مراويلهم السوداء القصيرة • ولم تكن أسطح المراكب المكتظة تتسع لأكثر من الرجال العاملين عليها • وعلى مقربة من الموقد ، كان هناك بضعة أكوام من العوسج ، وعدد من قرب الماء الفارغة ، فقد كان الماء

الصالح للشرب محفوظا فى خزانات خشبية فى العنبر • وعلى سطح المؤخرة كان يتكوى غواص مريض لا بد من وجوده على كل مركب - أما مركبنا فقد كان عليه مريضان ، لا مريض واحد • وفى المقدمة كانت هناك بعض مصائد السمك المصنوعة من الحبال ، وكانت تستعمل صدف المحار ثقلا لها • وتحت سطح المؤخرة ، بجانب سدة النوخة ، كان الصندوق الوحيد على ظهر المركب ، وهو الصندوق الذى يحفظ فيه النوخة حصيلة المركب من اللؤلؤ • ولم يكن هناك مكان مخصص لنوم أحد ، سوى ذلك المكان الخشن الذى ينام عليه النوخة • وفوق سطح المؤخرة ، وعلى جوانبها ، كانت صرر طاقم المركب موثقة • وهى الصرر التى يحتفظ كل فرد من أفراد ذلك الطاقم بجميع ما يملك من متاع الدنيا فيها ، وكان هذا المتاع يتألف من خرقة من القماش ، وسبحة ، وورقة أو اثنتين من الطباق الايرانى السىء ، ومسواك • لقد كان هذا هو كل شيء ، ولا شيء سواه ، لا فراش ، ولا دواء ، ولا شيء آخر من متاع الدنيا •

وهكذا مضى الحال ، وكأنه لن ينتهى أبدا • الغطس ، والعودة الى السطح ، والنفخ ، والراحة ، وارخاء الحبل ، وصياح الاولاد وهم يرددون « بلي » (1) ، حتى أصبح سطح المركب يعج بالفوضى العارمة ، من وحل البحر ، ومن الزواحف الخارجة من المحار المفتوح • وزاد ارتفاع الشمس ، حتى أصبحت كالجحيم ، وهى تقذف بحمها على الماء الملهب • لقد كان يوما يخيم عليه الهدوء القاتل • ونظرت حولى ، قرأيت على البعد ، من جانبي المركب ، مجموعات المراكب الاخرى وهى تعمل على الجرف : عشرات منها هناك ، بعضها ترى على جانبها رذاذ الماء ، عندما تضربه المجاذيف لتحرك المراكب من مكانها ، وبعضها يخيم عليه الهدوء ، بينما يقوم غواصوه بأعمالهم فى الماء ، كما كان بعضها الآخر بعيدا جدا ، ولكنها تبدو فى غاية الانضخامة من أثر السراب • وكان على أحدهما ، وهو مركب بدوى من نوع « الشوعى » ، شراع أوربى صغير ، وقد بدا بتأثير السراب وكأنه منطاد عظيم غير ممتلئ بالهواء • وعندما تقدم النهار ، اشتدت الحرارة ، حتى بلغت حدا تجاوزت قدرتى على تحملها ، مع أنى كنت أعتقد أنى قد لأممت نفسى مع الوضع السائد هناك • ولم يتوقف العمل ، بل استمر دون انقطاع ، فقد كان الحال مثاليا لأعمال الغوص •

وعندما كان حبل المرساة قد امتد الى نهايته ، أخذ البحارة يشدونه

(1) بلي : صيغة مأخوذة عن الكلمة الانجليزية (belay) وتعنى : يربط على وتد او عقلة • وهى تستعمل على مراكب الغوص لايقاف المركب ، وانزال المرساة فى مكان معين • والتعبير الاكثر شيوعا كان (يروح) وهو أمر بالقاء المرساة (المترجم) •

ليرفعوا المرساة ، بينما كان الغواصون يهرعون الى الموقد ويلتفون حول ناره المشتعلة . فلم يكن هؤلاء يشاركون في هذا العمل الا اذا ارادوا أن يحركوا الدم ثانية في عروقهم . بل كان البحارة هم الذين يؤدونه وهم يرقصون ويهزجون . فقد كان البحارة هم سدنة المركب ، كما كانوا يساعدون الغواصين ، بينما كان على الغواصين الغوص والغوص فقط ، فما كانوا يطبقون القيام بأى عمل آخر ، بل كانوا بحاجة الى كل درهم من الطاقة الكامنة فيهم لاستخدامها فى عملية الغوص .

وها هم البحارة يرقصون في صفيين طويلين متقابلين على ظهر المركب ، ويدورون ويدورون وهم يصفقون بأيديهم الضخمة ، ويهزجون ، بينما يصعد الحبل الغليظ تدريجيا الى أعلى قامة بعد قامة ، وهو يقطر ماء . وها هي المرساة تظهر ، ولم تكن هذه سوى قطعة من الحجر مغروز فيها مسمار طويل ، وتسحب الى السطح حيث تلقى هناك ، وفي الحال يصدر الأمر من النوخة : « الى المجاذيف ! » فيهب البحارة ، يمسك اثنان منهم بالمجذاف في حركته الى الامام ، وثلاثة في حركته الى الخلف ، يضربون به البحر بقوة وعزم ، رغم وزنه الهائل ، وطوله البالغ ثمانية عشر قدما . وهنا فقط بدأت أتخيل كيف كانت الحياة على ظهر المراكب الحربية الاوروبية القديمة ، كما بدأت أفهم لماذا يستحيل دفع المراكب الكبيرة بسرعة باستخدام صف واحد فقط من المجاذيف . فتجذيف مثل هذه المراكب عمل بطيء ، ثقيل ، مؤلم ، وكان يتم على مركبنا بمصاحبة الغناء والايقاع ، وأعتقد أنني بدأت أدرك الآن أن معظم أساليب البحارة الكوريتيين ، في عملهم على ظهور المراكب التجارية الكبيرة التي تجوب المياه العميقة ، مقتبسة من أساليب عملهم على مراكب الغوص . فالأغاني هي نفسها ، والاهازيج هي نفسها ، والتصفيق باليدين هو عينه ، وذلك الصوت الصادر من أعماق الصدر هو هو ، وطريقة ضرب سطح المركب بالاقدام هي ذاتها ، وكذلك نفس الخطوات المستخدمة في الرقص عندما يتاح لهم ذلك .

ها هي المجاذيف الطويلة تلمع وهي ترتفع فى الهواء كلها فى وقت واحد بالضبط ، ثم تهبط بقوة الى العمق المناسب فى الماء ، بينما البحارة الكادحون ، المتصببون عرقا ، يمسكون بأطرافها بقوة ، ويسحبونها الى الخلف ، وهم يعودون بضع خطوات معها ، وعضلاتهم مشدودة شدا كاملا ، وحناجرهم تهتز بالغناء ، بينما يقف النوخة وهو يرقب العملية بعينين كمعيني الصقر ، فلا بد أنه يعرف هذه المياه أكثر من السمك الذي يعيش فيها ، مع ان الطريقة التي يكسب فيها هذه المعرفة لا تزال سرا من الأسرار . فلا يمكنني أن أقول كيف يمكنه أن يميز جرفا من جرف ، لأن الجروف هنا

بعيدة عن البر ، بحيث لا يمكن رؤيته منها . ومع ذلك ، فانه يعرف المنطقة تمام المعرفة ، ويعرف تماما أين يجب أن يوجه مركبه ، ويجزم أنه يصل الى هناك بالفعل . وفي هذه الأثناء ، تدق الطبول لكي تحفظ الايقاع ، أو تساعد على التجذيف الجماعي المنتظم . بينما يمسك الكاتب بذرار الدفة ، ويحركها يمنه ويسره ، استجابة لايماعة من رأس النوخدة . أما الصبيان فانهم يقفون عند قاعدة الصاري المزيني ، على أتم استعداد لترديد أية أوامر تصدر من النوخدة ، والطبول لا تتوقف عن الهدير لكي تحافظ على ايقاع المجاذيف . ومن آن لآخر يسمع صوت هبة قوية من التنفس المجهود ، صادرة من أحد البحارة القائمين على المجاذيف ، الا أن هؤلاء لا يتوقفون عن الانشاد أبدا ، شكرا لله على نعمائه ، ودعاء له لينعم عليهم بمزيد من اللؤلؤ . وهكذا يزحف السمبوك . شاقا طريقه في المياه اللامعة ، في غمرة من الغناء المتصل ، والآن ، هل ننوقف هنا ! نعم ، يومئها النوخدة برأسه ، فيصيح الصبيان : « بلي ! بلي ! بلي ! يكفي ! يكفي ! » ، وسرعان ما تلقى المرساة الصخرية ، وتثبت المجاذيف على جانبي المركب ، وتلقى عليها حبال الأثقال ، وحبال السلال دون تأخير .

وقبل أن يبدأ الفوص في هذا المكان الجديد ، يتجمع البحارة حول الصاري الرئيسي ، ثم يضع كل منهم يده على اذنيه أو على خديه ، ويحني الجميع أجسادهم الى الأمام ، ثم يبدأون بإطلاق ذلك الصوت العظيم الصادر من الأعماق ، الذي عرف به بحارة الكويت ، ذلك الهدير العميق الطويل الذي لا يصدر الا عن الاوتار الصوتية المتناهية في القوة ، التي يتمتع بها بحارة الخليج العربي . انه صوت يشبه زئيرا مكتوما لقطيع من الأسود الجائعة ، أو زمجرة قطيع من الدببة الكبيرة للحصول على قطعة من العظم ، أو هدير بركان عميق . انه صوت غريب أشد الغرابة ، لم أستطع تقليده ، مهما حاولت . ويستمر هذا الصوت المزمجر مدة طويلة ، وأسأل يوسف المعجوز لماذا يفعلون ذلك ؟ أهو لاختافة سمك القرش ، أو سمك اللخمة ، أو لابعاد الجن ؟ الا أن يوسف لا يعرف الجواب ، ولا أحد غيره يعرف الجواب . انه أسلوب البحارة في العمل في الخليج . لربما كان من بقايا أحد الشعائر الدينية القديمة ، التي كان يقصد منها ابعاد الأرواح الشريرة ، أو استدعاء الأرواح الخيرة ، أو اخافة المحار القايح على قاع البحر . من الواضح أن هناك كثيرا من رواسب العادات والشعائر القديمة على هذه المراكب الكويتية . فلماذا ، مثلا يطلى الرأس الطويل الشريب من مقدمة المركب باللون الاسود دائما ؟ وهل هذا أثر من آثار إحدى الديانات القديمة التي كان اتباعها يعبدون قضيب الذكر ؟ ولماذا التضحية بالبدي ، عند انزال المركب الى البحر ؟ وهو الذي ما زالوا يفعلونه في المكلا وغيرها

حتى اليوم • ولماذا يقوم البحارة الآن باصدار هذا الصوت الغريب ، عند الانتقال الى مكان جديد ، على جرف صيد اللؤلؤ ؟ »

لقد بلغ البحارة الآن كفايتهم من هذا الضرب من التصويت العميق •
فها هو النوخذة يوميء برأسه فجأة ، فيصيح الصبيان مترجمين أمره كلاما ،
فتتوقف الضجة توقفا كاملا ، ويهرع الغواصون الى جانبي المركب ، يتخذون
أماكنهم المعتادة ، ويستأنف الغوص من جديد : عشر غطسات ، ثم راحة ،
يغطس خلالها الفوج الآخر عشر غطسات أخرى ، وهكذا • وتشرع السلال
المحملة بالمحار تتصاعد الى السطح حيث تفرغ ، والبحارة يرددون : « الله
كريم ا ، يا الله ا » ثم تعود السلال الى البحر من جديد ، وهلم جرا •••
ويتم تنظيف هذا الجزء من الجرف • فيرخى حبل المرساة ، وينجرف المركب
بضعة ياردات ، ثم يعاود الغواصون الكرة : عشر غطسات ، ثم راحة ، مقابل
عشر غطسات من فوج آخر ، والرؤوس ذات النعور البيضاء تخرج من مياه
البحر الزرقاء ، والأذرع المجهدة ترتفع لتحمي العيون من وهج الشمس ،
والصدور العظيمة تتهالك على أنفاس الهواء ، حالما يزاح الفطام عن الأنوف •
ويعودون الى الغوص ثانية : عشر غطسات ثم راحة ، وعشر غطسات للفوج
الآخر • ثم يرخى الحبل من جديد وينتقل المركب بضع ياردات أخرى ،
وتتكرر الغطسات العشر ، فالراحة مقابل الغطسات العشر للفوج الآخر ، ثم
يرخى الحبل ويتحرك المركب ، ويستأنف الغوص مرة أخرى • وها هي
الشمس قد ارتفعت في السماء الآن ، وأصبح الحر مخيفا قاتلا ، وما عاد
باستطاعة السقائف أن تفعل شيئا ، سوى تعقيم جزء من سطح المركب ، بدلا
من تظليله وتبريده ، وما زال البحارة البائسون يرتجفون من البرد ،
ويتحلقون حول نار الحطب ، بينما يقوم بعضهم بتأدية صلاة الظهر ، التي
حان وقتها • الا أنه لا مجال للقيولة على مركب الغوص • ويستمر العمل
الشاق : عشر غطسات ، وعشر للراحة • ولا يتناول أحد أى طعام ، كما
يغدو الهواء ساكنا سكون القبور ويصبح الهجير قاتلا • وها هو أحد
الصبيان يرفع من البحر إحدى مصائد السمك ، الا أنه يجدها خالية منه •
ويستمر الغوص : عشر غطسات ، ثم راحة لهذا الفريق ، بينما يقوم الفريق
الآخر ، بالغطس عشرا • يا ليوسف المسكين ! لا بد أن تكون هذه الحياة
على ظهر مركب كهذا هي الموت بعينه لنفر من كرام الرجال •

اني أعلم أن المصاعب والمشاق التي يسجلها الكاتب في مفكرته ، يمكن
أن تكون أشد وقعا وأكثر ايلاما من التجارب الحقيقية ، فالقصص التي
تروى عن رحلات الابحار حول رأس « هورن » (بجنوب أمريكا الجنوبية)
مخيفة ومؤلمة • ولكنى أعلم ، من تجربتي على مثل تلك المراكب ، بأن

قدرة الجسم البشري على تحمل العذاب تكاد لا تصدق • ومع ذلك ، فاني اذا قست الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي بأي مقياس ، واذا قارنته بأي نوع من المشاق البحرية التي كابدها شخصيا ، أو رأيته أو قرأت عنها ، فان الغوص يظل فظيما حقا • لقد عدت من الكويت ، وقد تركت نواحي الحياة المختلفة فيها انطبعا جيدا لدى ، كما عدت وأنا من أشد المتحمسين لمراكبها ، والمعجبين ببهارتها • الا أن أعمال الغوص الجهنمية شيء آخر مختلف كل الاختلاف ، فاذا كان لا بد من الحصول على اللؤلؤ ، فليجرف من قاع البحر بالكراكات •

وأخيرا غادرت يوسف على مركبه ذاك ، وهو يغوص عشر مرات ويستريح ، ليقوم غيره بعشر غوصات أخرى ، بينما يقف هو على السطح مرتجفا من البرد ، يحاول التدفؤ بالنار ، تركته وكله ايمان برحمة الله ، كغيره من البحارة • ومملا ريب فيه أن الله كان دائما رحيما به ، ان لم يكن لشيء ، فلأنه وهبه هذا الاعتقاد المطمئن المريح برحمته الواسعة ، هذا الاعتقاد الذي لولاه ، لكنت حياة يوسف جحيما لا يطاق •

وبعد شهر من الزمن ، كنت قد عدت الى الكويت ، بعد أن رأيت ما أردت رؤيته من عمليات الغوص • لقد كان أصغر مركب شاهدته لا يزيد طوله عن أربعة عشر قدما ، ولم يكن على ظهره سوى رجل عجوز وأربعة صبية ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة • أما أكبر سمبوك رأيته فقد كان مركب أمير البحر ، الشيخ صباح • لقد رأيت ما هو حسبي من أعمال الغوص ، ولم أجد ما أعجب به في تلك المهنة الرومانسية ، سوى شجاعة الشجعان وقوة احتمالهم •

الفصل العشرون

الزوجة الجديدة

الزوجة الجديدة

عند عودتي الى الكويت ، وجدت المدينة تعج بالحركة والنشاط - ومع أن الوقت لم يكن أواخر أغسطس (آب) بعد ، إلا أن كثيرا من المراكب كانت تجهز لرحلاتها الجديدة . فكانت الواجهة البحرية ، الممتدة مسافة ميلين على الشاطئ ، كأنها خلية النحل نشاطا وحركة - وفى خلال الجزء الأخير من أغسطس ، وطوال شهر سبتمبر (أيلول) ، كان مركب بعد آخر يعوم من مكان راحته الصيفية ، ويسحب الى ماء الخليج ، لكي يجهز بجميع ما يلزمه من المعدات ، ويوازن بالصابورة (١) ، للقيام برحلته الى البصرة ، حيث كانت التمور قد نضجت ، وأخذت تشحن في المراكب لتصديرها الى الخارج .

ومع كل مد عال كانت عشرة الى عشرين مركبا كبيرا تعوم ، بينما كانت المراكب الصغيرة تقطر وتجر الى الماء مع أي مد . وأصبحت أهالي البحارة تتجاوب طوال النهار في جنبات الاحواض الممتدة على طول المدينة ، كما أصبح الطريق البحري يكتظ بالنواخذة والبحارة وهم في طريقهم للحاق بمراكبهم . ولم يعد المرء يرى فسحة مكشوفة من الأرض ، ليس فيها عدد من البحارة جالسين يخيطنون الأشربة . كما كان النجارون يعملون بحماس وهمة عظيمين لاتمام المراكب الجديدة ، واعدادها للسفر في الوقت المناسب للموسم . فهنا كان يرى مركب ، وهو يسحب الى الطين في وقت الجزر ، وهناك آخر يدفع جانبا الى الجون في وقت المد العالي ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لانزاله الى الماء ، بعد أن تم بناؤه في منطقة محصورة على الشاطئ المرتفع . وما هو ينزل الى الماء الآن ، محدثا رشاشا هائلا ، ومتماوجا مرة أو مرتين ، بينما راياته تنفق عالية ، ثم ما هو يتوازن ويبتدىء حياته وعمله في البحار . وما أن يتم ذلك ، حتى يكون البحارة ، الذين ساعدوا في تدشينه ، قد وثبوا الى الماء ، وسبحوا بملابسهم اليه ، واعتلوا ظهره ، ليبدأوا في الحال مهمة تجهيزه بالمعدات اللازمة - فقد كانت المراكب الكبيرة تدشن وهياكلها عارية من المعدات ، ثم يجري تجهيزها وهي عائمة على مياه الجون . ولم يكن هذا يستغرق وقتا

(١) الصابورة هي الثقل الذى يوضع فى المركب الفارغ عند السفر فيه وذلك لكي يتوازن فى الماء (المترجم) .

طويلا • فقد كانت بضعة أيام تكفي لاقامة الصواري ، وتجهيز العارضات ، وتركيب عجلة القيادة ، ووضع البوصلة في صندوقها الخاص •

لقد كان منظر الكويت أخذا حقا ! مراكب هنا ، ومراكب هناك ، ومراكب في كل مكان على طول الشاطئ ! بينما البحارة ، وقائدو الدفة ، والنجارون ، والنواخذة ، يزحمون « الكورنيش » • ولم يكن يرى أو يسمع على الشاطئ سوى أصوات المطارق ، وهي تقوم بجلفطة المراكب (١) ، وأغاني البحارة القوية العميقة ، وهم يركبون الصواري ، والهدير الصادر عن طرق الطبول الهندية ، والتصفيق بالأيدي الضخمة ، بينما كانت جوانب المراكب الكبيرة وقيعانها تطلّي بالشحم والجير ، وقرقعة الرحويات (٢) العتيقة وهي تدور لسحب أحد مراكب الغوص الى الشاطئ ، وصيحات البحارة وهم يرفعون الصواري لتركيبتها على مركب مدشن حديثا ، ورنين الحديد الذي يطرقه حداد البحر يصنع منه بعض الأدوات البحرية ، وصوت المناشير الايرانية وهي تشق الكتل من خشب الساج الهندي المرفوع على المنصات الخاصة بالنشر ، وصوت قرع الطبول ، وأهازيج البحارة المرحّة ، الصادرة عن سمبوك عائد الى الوطن من موسم الغوص — هذه هي الأصوات التي كانت تملأ جو الشاطئ طوال الوقت ، يوما بعد يوما ، وفي كل يوم ، من غير راحة أو هدوء الا عندما يحين وقت الصلاة •

وبانقضاء شهر سبتمبر (أيلول) ، أخذ الطقس في التحسن قليلا ، بل أصبحت بعض الايام محتملة • فقد كانت أسوأ الأيام ، وأشدّها حرارة قد انقضت ، وأخذ البدو يغادرون البلدة تدريجيا • فعندما كانت المراكب الكبيرة تقلع الى عرض البحر في رحلاتها الطويلة ، كان البدو يغادرون المدينة ، بينما يتوجه البحارة الى البحر • وكان يواكب النشاط الهائل على الشاطئ نشاط آخر في السوق الرئيسي • فقد كان البدو يسارعون الى اتمام مشترياتهم ، بينما يجد رجال الاعمال والصرافون ، أنفسهم في شغل دائم • وكان البحارة يشترون حاجاتهم البسيطة ، وبعض السلع التي يأخذونها معهم بقصد الاتجار • وكانت المقاهي تكتظ بالناس ليلا ، بينما تمتلئ مقاه أخرى خلال النهار بالنواخذة العائدين من الغوص ، يعرضون لألثهم للبيع ، كما كان نواخذة المراكب الكبيرة يتفحصون قطع السجاد المعجمي المعروضة على الأرض ، ليختاروا منها ما يمكن أن يصلح للبيع

(١) الجلفطة : هي عملية تحشية أو سد الشقوق التي تكون بين ألواح المركب عند بنائه ، وذلك لمنع تسرب الماء الى داخله عند انزاله البحر والسفر فيه • (المترجم)

(٢) تدعى الرحوية باللهجة الكويتية « المدور » وجمعها « مداور » • (المترجم) •

بربح مجز في موقاديشو أو زنجبار • أما مقاهي النواخذة فقد أصبحت تبدو مهجورة خلال النهار ، لا يؤمها روادها الا ليلا ، لأن النواخذة مشغولون بشراء ما يلزم لمراكبهم ، والاتفاق على الحمولات ، وجمع السلف المدفوعة على حساب حمولاتهم ، ودفع السلف لبحارتهم • وكان هؤلاء النواخذة يهرعون من مكاتب التجار الى مقاهي التجار ، في حركة دائبة ، وقد اكتست عظامهم شيئا من اللحم ، من أثر قضاء الصيف مع أسرهم في الكويت ، الا أنهم لم يصبحوا من السمنة بحيث لا يستطيعون أن يتحركوا بسرعة ، عندما يدعوهم داعي العمل الى ذلك •

وقد كان هناك عمل كثير هذا العام • فقد كانت كثير من المناقشات تدور ، وكثير من القرارات تتخذ ، خلال الامسيات الصيفية التي كان الرجال يقضونها على الواجهة البحرية • ذلك أن نواخذة المراكب الكبيرة التي تجوب البحار العميقة ، كانوا يطالبون بأن يكون على ظهر كل مركب يسافر في رحلة طويلة « معلم » ، بالاضافة الى النواخذة ، لأنه ليس من الصواب في شيء أن يكون على ظهر المركب رجل واحد يعرف الطريق • وكانوا يطالبون أيضا بأن يدفع لهم التجار تعويضا عن التأخر في تحميل الشحنة ، عندما كانوا يتفقدون معهم على شحنة معينة من شط العرب ، ولكن المراكب تضطر للانتظار أسابيع طويلة قبل أن تسلم لها التمر - وكانت هذه احدى الظلمات القديمة ، التي يصعب حلها • وكان النواخذة يطالبون بشيء آخر ، هو أن يوضع حد نهائي لذلك العرف ، الذي كان النواخذة يعتبر بموجبه مسئولا مسئولية كاملة مستمرة عن ديون المركب ، وعن جميع السلف التي تدفع على الشحنة وغيرها ، حتى في حالة تحطم المركب أو فقدانه - وكان هذا أيضا عرفا قديما ، ليس فيه كثير من العدل ، لأن النواخذة ليسوا في الواقع هم المالكين الفعليين لمراكبهم ، على الرغم من أنها مراكبهم شكلا • وكان النواخذة يقولون أنه ليس من العدل في شيء أن يظلوا هم مسئولين عن ديون المركب ، الذي لم يكن ملكهم في الحقيقة ، حتى بعد فقدانه • بعبارة أخرى ، ان النظام الحالي بالنسبة لهذه الملكية الاسمية للمراكب ، لم يعد صالحا ولا عادلا • فقد كان التجار بموجبه يسمحون للنواخذة بتمويل المراكب بأنفسهم ، وبذلك يتخلصون من أخطار المجازفة ، ويلقونها كلها على عاتق النواخذة • وكانت حجة النواخذة أن خسارة المركب تعتبر كافية لهم ، أما خسارة الحمولة فيجب أن يتحملها أصحابها من التجار • أما التجار فكانوا يعتبرون أن خسارة التمر كافية بالنسبة لهم ، أما المراكب فانها ملك النواخذة ، والديون التي تستحق عليها لهم ينبغي تسديدها • لقد سمعت كثيرا من البحث والمناقشة والجدل في هذه المواضيع ، وخيل الي أن الحق كان في جانب النواخذة ، الا أن التجار لم يوافقوا الا على المطلب الاول ، المتعلق باضافة « معلم » الى كل مركب •

وكانت حجتهم أنه لا يجوز للنواخذة أن يضعوا القواعد الجديدة من جانب واحد ، وأنهم ، اذا ما فعلوا ذلك ، بإمكانهم أيضا أن يفرضوا قواعد وشروطا جديدة ، بل أنهم في وضع أفضل يمكنهم أيضا من تطبيق تلك القواعد والشروط . وقد اتخذ النواخذة قرارا جماعيا بالوقوف معا ، ومؤازرة بعضهم بعضا ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك في الواقع . فكان واحد منهم هنا ، وواحد هناك ، يتفقون مع أفاضل التجار ، كل على انفراد ، مما جعلهم يخسرون قضيتهم ، ويضطرون للسفر ثانية ، دون أن يدفع لهم تعويض عن فترة الانتظار قبل التحميل ، ودون أن يتخلصوا من أي جزء من المسئولية ، سواء عن التمويل أو عن الحمولة ، ودون أن يتخلصوا من الديون الثقيلة المترتبة عليهم نحو التجار .

لم يكن عملا مربحا للتجار أن يقوموا هم بامتلاك المراكب وإدارة أمورها بأنفسهم ، فقد كان حب العرب للتجارة الخاصة ، وللمساومة على الأسعار ، حبا متأصلا ، عميق الجذور . فاذا ما قام النواخذة بإدارة مراكب التجار ، فإنهم مبالغون جدا لإدارتها لمصالحهم الخاصة فقط . ولذلك كان من الأفضل أن يقوم التجار بتمويل النواخذة ، بينما يتولى هؤلاء أمور المراكب ، ويستخدمونها لنقل الشحنات التي يريدونها التجار فقط . وكانت السلف التي يدفعها التجار مضمونة ، رغم أنه لم يكن هناك نظام للضمان (أو التأمين) ، فقد كان يبدو لي أن النواخذة أنفسهم هم الضمان الوحيد . فاذا فقدوا مراكبهم ، فقدوا أسباب معاشهم ، كما فقدوا أموال التجار أيضا ، الا أنهم كانوا مرغمين على تسديد ديون التجار . ولم تكن هناك فائدة تدفع على الدين ، لأن ذلك ممنوع شرعا ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يسددون أكثر مما يقترضون .

لقد كانت هموم النواخذة ومشاكلهم تهمهم وحدهم ، ولم يكن للبشارة أي نصيب منها . ولذلك لم يعقد هؤلاء الاجتماعات ، ولا اقترحوا القواعد الجديدة . وما أن أصبحت المراكب التي يرتبطون بها ، جاهزة للسفر ، حتى كانوا على ظهورها كالمعتاد .

- - - - -

ومرت الايام ، وأخذت المراكب تغادر الميناء ، مركبا وراء مركب ، متجهة صوب الشمال ، وكان بعضها يسافر دون أن تكون معداته مكتملة التجهيز ، لأن الرحلة الى شط العرب كانت قصيرة جدا . وكثيرا ما كان « المعلمون » ، وبعضهم حديثو التعمين ، هم الذين يقودون المراكب الى شط

العرب ، لينتظروا تحميلها بالتمر هناك ، بينما يتخلف النواخذة في الكويت ، أطول مدة ممكنة ، لأنهاء بعض المعاملات المالية ، أو للتمتع بنسائهم . وقد ظل المنظر على طول الواجهة البحرية يعج بالحياة والحركة ، وبالمتعة للمشاهد المتفرج ، فعلى مقربة من « مسجد الخليفة » ، كانت مجموعة من صانعي الأشرعة تعمل ، في الظل ، في صنع شراع رئيسي يبلغ طوله مائة وستين قدما . بينما كان غيرهم يطلون خزانات الماء الخشبية بزيت السمك ، وآخرون يحملون المراسي المطلية بالقار الجديد ، الى مراكبهم ، كما كانت بكرات العارضات تجهز بالشكل السليم ، والأشرعة تنقل وهي ملفوفة مثل خيام السيرك ، والقوارب الطويلة تنقل من مرابضها الصيفية على الشاطئ وتعم في البحر . وهنا وهناك ، كان الصبية الصفار يلهون ويلعبون بنماذج مصغرة من المراكب ، يعومونها على الماء الضحل ، وهم ينشدون أناشيد البحارة المعروفة . بينما كان النواخذة يقابلون « المعلمين » ، الذين كانوا عادة من أقاربهم ، على طول الرصيف الحجري الممتد على الجهة الغربية من بيوتهم . كما كانت المراكب تبنى أو تجلفط ، أو تطلق ، أو تصلح ، أو تدشن ، أو تعوم ، أو تجهز ، أو تكون مسرحا لرقص البحارة وهزجهم . وكان صانعو الخبز يعملون في مخابزهم البسيطة ، كما كان بائعو الشراب يقفون على جانب الطريق ، يمارسون تجارتهم الرائجة .

وفي أحد الأحواض القريبة من وسط المدينة ، كانت « قطرة » ناصر الصغيرة تقف صامتا ، فقد كانت آخر مركب من مراكب المياه العميقة يتخلف عن السفر . وكان ناصر نفسه يجلس على دكته ، ينتظر عودة المراكب الصغيرة من موسم الفوص . فقد كان ناصر هذا رجلا رقيق الحال ، وكان مركبه « القطرة » مركبا عتيقا . ولم يكن يقدر على القروض الكبيرة ، كما لم يكن مركبه الصغير يقدر على جني الربح الوفير . ولذلك كان على ناصر أن يرضى بأي بحار يوافق على السفر معه . وهكذا جلس ينتظر عودة مراكب الفوص . فبعد موسم الفوص السيء جدا هذا العام ، سيعود الغواصون وقد ازدادوا فقرا بتزايد ديونهم ، وعندها سيكونون على أتم استعداد لقبول الأجر القليل الذي يستطيع ناصر أن يعرضه عليهم . وكان بإمكان ناصر أن ينتظر عودتهم ، فالتمر دائما متوافر في البصرة يستطيع أن يحمل منه ما شاء متى شاء .

للمرة المائة نزلت الى الشاطئ لتأفرج على « القطرة » العتيقة ، ذات الخطوط الانسيابية الجميلة ، التي لم تبد لي شبيهة بالقطرة من أي وجه من الوجوه . لقد كانت بغلة عتيقة جميلة ، ذات هيكل انسيابي الخطوط . ولكني لاحظت ، منذ مدة ، وكلني حزن وأسى ، أن هيكلها أصبح منهكا ، بعد

انقضاء نصف قرن عليه وهو يحمل الخشب . كما كانت أسطحها ملتوية ، وغائرة عند الصاري الرئيسي . ومن آن لآخر كانت بعض المسامير ، التي تثبت ألواحها بعضها ببعض ، تتساقط ، فالتقطها من الطين المحيط بها ، وأجدها مسامير طويلة صدئة ، مصنوعة من حديد سيء . ثم أحدث نفسي قائلا : « لا ! لن تنفعني أبدا ! انه لن الجنون أن آخذ مركبا كهذا في رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي ، من غير أن أمل ، بل واحتاج بشكل ملح الى طقس ممتاز متواصل ، وتوفير من الله لا يحق للبحار أن يتوقعه منه . لا ، لا بد أن تبقى القطة في الكويت ، فليس باستطاعتي انقاذها من الاندثار . لقد كان بإمكانني أن اشتريها بخمسة آلاف روبية ، وكان ناصر ، الذي كان يعلم برغبتي في انقاذها ، لا يكف عن امتداحها ، ليس لأنه كان يرغب في التخلص منها - فقد كان يحبها حبا جما - الا أنه كان يعلم أن أيامها معدودات ، وأناي اذا اشتريتها ، فسيكون مصيرها أفضل بين يدي مما لو حصل عليها أحد العمانيين ، كما أنه كان بإمكانه أن يشتري « بومبا » جيدا بالمبلغ الذي أدفعه ثمنها لها .

ولكنني لم أستطع أن اشتري « القطة » رغم حبي الشديد لها . لقد كان الشهر شهر سبتمبر (أيلول) الآن ، وكان هناك في أوروبا أمور أهم وأخطر بكثير من انقاذ تلك البغلة الجميلة . وهكذا اضطررت لترك ناصر ، وهو ينتظر عودة مراكب النوص . وكنت أعلم أنه قد أبحر بها ثلاثة وعشرين عاما ، بالاضافة الى عام آخر لم يستخدمها خلاله ، لأنه ذهب لتأدية فريضة الحج . كما كنت أعلم أيضا بأنه ليس من المحتمل أن أعثر على بغلة قديمة أجمل من هذه البغلة في أيامنا هذه ، أو في أي وقت آخر في المستقبل ، لأن هذا المركب ينتمي الى تلك الأيام ، التي كانت فيها المراكب تبنى على أيدي صناع مهرة ، يضيفون كل لوح خشبي الى هيكلها ، بمنتهى العناية والحب ، وبعد تفكير وتقدير عميقين مضمينين . لقد كان النجار الذي بنى هذه البغلة رجلا يحب المراكب التي كان يقوم ببنائها حبا عظيما ، حتى أنه أوصى أن يدفن بعد موته في المكان الذي تبنى عليه المراكب ، فقد أراد أن يظل قريبا من المراكب التي أحبها ، حتى بعد موته .

وفي أحد الأيام ، قابلت خليلا ، النجار الشاب ، الذي كان يعمل على ظهر « فتح الخير » ، ووجدت أنه قد عاد الى عمله في بناء المراكب ، وكان يساعد في تركيب متن لمركب جديد . وكان يعمل بجهد ونشاط ، وجميع النجارين يعملون بسرعة فائقة تشبه ، الى حد بعيد ، سرعة البحارة واندفاعهم ، وهم يؤدون مهامهم على ظهر المركب . وعندما تساملت عن سبب هذه السرعة التي لا مدعاة لها . كان جواب خليل : « هذه سمة

عصرنا هذا • فنحن نقوم بأي عمل على وجه السرعة • هيا ! هيا ! هيا !
هذا كن ما نقوله ونسمعه هذه الأيام • ولكن ليست هذه هي الطريقة السليمة
لبناء المراكب • اذا انتظرت هنا حتى المساء ، ستلاحظ أننا نركب هذه
الأيام ثلاثة ألواح على كل جانب من جانبي المركب في اليوم الواحد • وهذا
خطأ ! » •

ثم تابع خليل كلامه ، وأخذ يقص علي من أخبار تلك الأيام التي
بنيت فيها « القطة » ، و « سمحان » ، وأفضل المراكب الكويتية الأخرى •
لمقد كانت تلك الأيام هي العصر الذهبي لصناعة بناء المراكب ، حين لم يكن
يجرؤ على لمس ألواح المراكب الجديدة الا نجارون خبراء ، وكان المعدل اليومي
المقبول لا يزيد عن تركيب لوح واحد في اليوم • وكان العمل يجري على مهل ،
الا أنه كان دقيقا جدا ، ومرهقا ، ومتقنا غاية الاتقان • ولم يكن هناك
شيء أهم من اتقان العمل • ولم يكن يسمح الا للرجال الخبراء ، كبيرى
السن ، من النجارين الملتحين ، بالقيام بمهمة البناء الفعلى للمركب ، بينما
كان الآخرون جميعا ، حتى النجارون ذوو السنوات الطويلة من الخبرة ،
يشقون الألواح ، ويحفرون الثقوب • ولم يكن بالامكان تركيب أكثر من
لوح واحد فى اليوم ، لأن كل شيء يجب أن يكون من الدرجة الاولى ، وما
كان أحد يرضى بأقل من ذلك • وكان العمال والمتدربون يخضعون لنظام
انضباط صارم ، وكانت فترة التدريب طويلة شاقة • ولذلك كان كل رجل
يشعر بالفخر والاعتزاز لما أنجزه من العمل ، كلما دشن مركب جديد وأنزل
الى البحر • وكان « المعلمون » الكبار من بناء المراكب ينتقلون من مركب
الى آخر ، ينتقدون هذا ويمتدحون ذاك ، ويقترحون بعض التحسينات على
مركب ثالث • وكان هناك مجال لتزيين المراكب ، والحفر على خشبها فى
تلك الايام ، كما كان النجارون المتقدمون فى السن يوصون بأن يدفنتوا فى
الاحواض ، تحت متون المراكب • وتنهذ خليل ، وتابع كلامه قائلا : « سقى
الله أياما لا تنسى ! » • ولم يكن خليل متقدما فى السن ، بل على العكس ،
لم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، ويكاد لا يذكر الظروف
التي يتحدث عنها • ولكنه كان قد سمعها من والده ، الذى كان نجارا قبله ،
وهو يتحسر عليها الآن • فقد تغيرت الاحوال ، وأصبح كل شيء يتم بسرعة
غير معقولة ، دون كبير اهتمام باتقان الصنعة ، أو حتى باختيار الخشب
المناسب • كما أصبح المركب ، الذى كان يستغرق بناؤه ثمانية أشهر أو
تسعة ، يبنى فى شهرين اثنين ، ولكنه لا يمضى عليه خمسة عشر عاما ،
حتى يصبح « خردة » لا يصلح لشيء • لقد أصبح عمر المركب العربى الجيد
الآن لا يزيد عن خمسين عاما ، بينما كان المعدل مائة عام فى السابق •

لقد سمعت كلاما كثيرا مماثلا لهذا ، فى أثناء جولاتى على طول

الواجهة البحرية . وكنت دائما أتوقف عند بيت خليفة الغانم ، كبير الأسرة التي ينتمى إليها النواخذة المشهورون الذين يدعى كل منهم « عبد الوهاب » . . . وكان خليفة الغانم هذا رجلا ملتجيا، جليلا ، يزيد عمره عن السبعين ، ذا صوت خافت لطيف ، ومعرفة كبيرة بتاريخ الكويت ، وبفتون البحر . وكنت كثيرا ما أجلس وأتجاذب أطراف الحديث معه ، ويكون ذلك أحيانا في غرفته الخاصة في البيت المطل على الشاطئ ، والذي يمتد أمامه فناء واسع حيث بنيت مراكب أبنائه . وفي أحيان أخرى كنت أتحدث معه ومع الرجال العقلاء الآخرين ، أثناء جلساتهم المسائية . وفي هذه الجلسات كان الجميع يجلسون دائما في صف طويل، وهم يفترون السجاد، ويتكئون على الحشايا ، بينما يتحلى كل منهم من عقالة ، ويترك نعليه في الشارع أمامه ، ويستند بظهره الى الحائط . فقد كانوا مجموعة من الرجال الأجلاء المهيبين ، وكان يشرفنى جدا أن يسمح لى بالجلوس بينهم .

وكنا عادة نتحدث عن أيام الكويت الأولى ، وكيف نشأت صناعة بناء المراكب ، وازدهرت فيها . وقد فهمت منهم أن الكويت كانت ، فى الغالب ، أحدث ميناء على سواحل الخليج العربى كله ، فلم يكن عمر المدينة ، بحسب قول خليفة الغانم ، يزيد عن قرنين من الزمن الا أنها كانت دائما مرفأ بحريا . فمن ناحية ، كان على البدو ، لكى يتمكنوا من العيش ، أن يخرجوا لصيد السمك . ومن ناحية أخرى ، كانت مراكب الفوس البحرانية والاحسانية تصل اليها ، لأنها كانت مقرا أفضل لهم بالنسبة للجرف الشمالى . ومن ناحية ثالثة ، عندما استولى الايرانيون على ميناء البصرة ، وأثروا تأثيرا بالغا على تجارة التحويل والتوزيع البحرية ، التى كان ذلك الميناء يقوم بها ، انتقل جزء كبير منها الى الكويت . فقد كانت الكويت فى مركز جغرافى مناسب لتكون ميناء لتوزيع البضائع الى شمالى نجد . وعلاوة على ذلك ، فقد استطاعت المحافظة على استقلالها ، وأصبحت ميناء ممتازا لتحويل البضائع الى مناطق واسعة فى العراق وايران . وكان تجارها تجارا معنكين ، كما أن بناء المراكب ، الذين جلبوا من مسقط والبحرين ، ومن مينائى قشم وبندر لنجة الايرانيين ، اكتسبوا شهرة واسعة فى طول البحار الشرقية وعرضها .

وبدأت الهجرة الى المدينة ، وبدأ يؤمها ويستقر فيها أناس من « زبارا » فى قطر . كانوا قد هاجروا الى هناك أصلا من نجد ، وأناس من « الزبير » على الحدود مع العراق ، وأناس أتوا من نجد ، مباشرة ، وبعد ذلك تبعهم كثيرون من ايران . وبموجب ما قاله خليفة ، فقد كانت الكويت تتمتع بحكومة رشيدة بشكل مستمر ، وما زالت تحافظ عليها حتى الآن .

كما كان تجارها معروفين بتعاملهم العادل ، أما نواخذتها فقد كانوا رجالا طيبين ، وكان بحارتها معروفين ، حتى منذ مائة عام ، بأنهم أفضل البحارة فى الجزيرة العربية بأسرها . وقد أضاف خليفة قائلًا ان الكويت كانت ترسل الى البحر ، قبل مائة عام ، أكثر من مائتى مركب ، علاوة على مراكب الفوص . وكانت معظم تلك المراكب صغيرة نسبيا ، الا أن خليفة أتى على ذكر بغلة تبلغ حمولتها أربعمائة طن ، كان جده يذكرها تماما . وربما كانت مائة من تلك المراكب تبلغ حمولة كل منها مائة طن . وكانت تجارة المراكب مقصورة على الهند ، وبلدان الخليج ، وسواحل الجزيرة العربية ، والموانئ الأفريقية الواقعة على ساحل البحر الأحمر . فلم يكونوا فى تلك الايام يبحرون كثيرا الى ساحل افريقيا الشرقى ، لأن التجارة مع هذا الساحل كانت من اختصاص العمانيين تقريبا . أما المدينة فقد كان ازدهارها كافيا لسد حاجة سكانها ، الذين كانوا يعيشون عيشة قانعة ، ولكنها لم تكن من الغنى بحيث تغرى الطامعين بغزوها - ولم يكن ذلك ليتم ، على كل حال ، والمدينة على ذلك القرب من ميناء البصرة .

وقد احتلت الكويت مركزا متقدما بين سائر الموانئ العربية فى عهد الشيخ مبارك الكبير ، الذى وصل الى الحكم عن طريق اغتيال أخويه ، وذلك قبيل مطلع القرن الحالى بقليل . وقد دلنى خليفة على البيت الذى تمت فيه جريمة الاغتيال . وعلى الرغم من أن الكويتيين لم يوافقوا فى بادئ الأمر على اغتصاب الشيخ مبارك للحكم ، الا أن ذلك كان فى رأى خليفة ، نعمة على الكويت . فقد كان مبارك رجلا طموحا ، مستبدا ، الا أنه حكم البلاد بيد أبوية قوية ، فازدهرت ازدهارا كبيرا . وقد ساعدها على ذلك تدنى الاحوال فى بقية الموانئ الواقعة على سواحل الخليج الجنوبية ، والاساليب المتسرعة غير المتقنة التى كان يتبعها الاتراك المتساهلون ، الذين خلفوا الايرانيين على حكم البصرة ، والمشاكل التى حدثت فى البحرين وايران ، وتدهور الاحوال فى مسقط بعد وفاة السيد سعيد - كل هذه الامور ساعدت الكويت على النهوض والازدهار . فقد انتعشت تجارة اللؤلؤ فيها ، كما واصلت مراكبها القيام برحلاتها الطويلة . وأصبح يتجمع فى ميناء المدينة ما يزيد عن ألف مركب من كل لون وحجم ، منها مائة وخمسون مركبا كبيرا من تلك التى تسافر فى المياه العميقة ، ومائتين من المراكب الاصغر حجما التى تتاجر مع موانئ الخليج ، ومائتين من مراكب الفوص ، وثلاثمائة واقفة على الشاطئ وعلى أهبة الاستعداد للقيام بأية رحلة تجارية ، علاوة على مائتين من قوارب صيد السمك .

لقد كان الكويتيون ، الذين خبروا شظف العيش فى الصحراء ، كما

عرفنا اشكالات القائمة في الاماكن الاخرى ، يتدرون أهمية الهدوء والاستقرار في الكويت ، وقد وجدت أنهم جميعا يكتنون للبلاد حبا عظيما . وكان بعض المثقفين أحيانا يرتادون تلك الجلسات المسائية ويشترون في أحاديثها ، وكان في حديثهم أكثر مما ينبغي من عدم الرضى عن الاحوال السيئة السائدة في البلاد ، وكثير من الاشارة الى الديمقراطية السائدة في العراق ، والتي يجب أن تكون المثل الاعلى الذى يسمون اليه . وكان الشباب الناعثون من العراق ، وهم يرتدون السراويل الحريرية ، يسببون كثيرا من التذمر بين أهلهم من الكويتيين العرب . ولكن البلاد كانت تبدو لى مكانا آمينا ، شريفا ، مرضيا ، على الرغم من التخلف الذى كان هؤلاء يعيرونه عليها ولذلك فان بإمكان لابسى السراويل الحريرية هؤلاء أن يعودوا من حيث أتوا ، اذا لم يعجبهم الحال ، فقد كانت الكويت للعرب الاقحاح . فاني أكره أن أرى النساء وقد خلعن الحجاب فجأة في الكويت ، والرجال جميعا وقد ارتدوا السراويل الاوروبية ، ووضعوا على رؤوسهم لباس الرأس الايطالى الغريب المستعمل في العراق . كما أكره أن أرى آلات الديزل وقد نصبت في المراكب الجميلة ، والشيخ يعتمر الخوذة الواقية من الشمس ، وأولئك الرجال الشجعان من رواد المقاهى اندائمين ، يتزاحمون على دور السينما . فالكويت بلاد حسنة كما هي ، وبإمكان مواطنيها أن يقوموا بالاصلاحات الضرورية بشكل تدريجى - كالمدارس الحديثة ، والشوارع المعبدة ، وشبكة المياه السليمة ، والمستشفيات ، والعناية بالصحة العامة . فقد مضى على قيام أول مجلس بلدى في البلاد حوالى سبع سنوات ، وقد أخذ جميع هذه الامور على عاتقه ، أما المال اللازم لتلك الاصلاحات ، فسيأتى من النفط الذى كان في مراحله التجريبية عندما غادرت البلاد .

وفي عصر أحد الايام ، قابلت « نجدى » أمام حانوت الفواصين فى السوق . وهذا الحانوت لا يبعد كثيرا عن سوق النساء ، الذى تجلس فيه النساء فى الشارع لبيع ما شاء لهن أن يبعن من الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم ، وكان الحانوت فى شارع جانبى ، بين « بسطات » الملابس القديمة ، بجانب دكان يبيع الأزياء العسكرية الفنلندية القديمة . أما بضاعته فكانت تتألف من انقطاع ، والسراويل القصيرة السوداء ، وقمصان الغوص البيضاء (١) (التى تلبس لابعاد سمك الشفنين أو الدول) ، وحلقات من الخيزران لسلال المحار ، وحبال خشنة ، وأثقال من الرصاص لم أرها تستعمل فى الغوص - وبعض ملابس الغوص السوداء التى تستعمل على ما أظن ..

عبد الله الحمد ->

(١) انظر الحاشية عن هذا الموضوع فى الفصل السابق (المترجم)



فى المياہ التى تكثر فيها كلاب البحر المفترسة • وهنا قابلت نجدى ، الذى لم يكن فى الواقع يتفرج على أى من بضاعة الحانوت ، بل كان مارا به مرورا عابرا فقط • وقد أخبرنى بأن أهله قد اشتروا يوما جديدا لأخيه عبد الله ، وأنه سيرسل يوم عبد الله وبومه الى البصرة فى خلال الايام القليلة القادمة • وقد دعانى الى حضور الحفل الراقص الذى سيقام بمناسبة طلاء المركب ، ولكنى اعتذرت وشكرت له دعوته ، فقد كنت قد شاهدت ما يكفى من الرقص الذى كنت أراه يوميا على الشاطئ • فقد كانت جميع مراكب الكويت تطللى ، وأصبحت الاحتفالات بهذه المناسبات من الامور العادية جدا ، وقد أخبرنى نجدى بأنه تمكن من تسديد حسابات البحارة جميعا بأن دفع لكل منهم نصيبه (١٣٥ روبية) - وكان هذا مبلغا قليلا ، وهو يعرف ذلك ، فقد بلغ فى العام السابق (١٦٥) روبية • الا أن ما دفعه كان أفضل نسبة دفعت فى الكويت فى ذلك الموسم ، فرضوان لم يدفع سوى (٩٥) روبية ، وعبد الوهاب (١٢٥) روبية ، أما عبد الوهاب الكبير فقد دفع (١٢٠) روبية فقط ، لقد كان عاما سيئا على الجميع •

ولكنه كان يعتقد أن بإمكان بحارته أن يتدبروا أمورهم ، فان احتياجاتهم قليلة ، ومعظمهم شبان صغار السن ، وكان بعضهم متزوجا من واحدة فقط • كما أنهم كانوا يحصلون على مورد اضافى من المال ، من بيع البضائع التى كانوا يحملونها معهم ، ويتاجرون بها لحسابهم الخاص ، بالاضافة الى أن كلا منهم يحصل على علاوة اضافية ، من ثمن العدد الاضافى المهرب من أخشاب « المانجروف » التى حصلوا عليها بعرق الجبين • كما كان فى مكنتهم ، اذا شاؤوا طبعا ، أن يحصلوا على سلفة على حساب الرحلة الآتية • لقد كان بإمكانهم أن يعيشوا فى السوق على بضع آنات فى اليوم •

لقد استطعت ، خلال اقامتي بالكويت ، أن افهم أن فكرة الأوربيين عن الحریم لا تنطبق على البحارة ، بل ولا على أى من العرب على الاطلاق ، فلم يكن هناك ما يمتقده الأوروبيون من توافر مجموعة كبيرة من النساء الصغيرات الجميلات فى المنزل الواحد ، يختار منهن سيد البيت من يشاء • لقد كان الهدف من تعدد الزوجات هو انجاب الرجال الأشداء المحاربين الذين يرثون والدهم • ففي بلاد ترتفع فيها نسبة الوفيات بين الأطفال وتكون كثير من النساء عاقرات ، وتشيع الأمراض الخطرة كالجدرى فتقضي على الكثيرين ، كان على الرجل أن يباعد بين المخاطر بأن يوزع مائه ، اذا كان لذريته أن تبقى وتزدهر (الا أنه لم يكن لدى البحارة ما يورثونه لذريتهم سوى ديون الغوص فى بعض الأحيان) • وبموجب الشرع الاسلامي ، يحق للرجل أن يتخذ أربع زوجات ، شريطة أن يتمكن من اعالتهن (والعدل

بينهن) جميعا • وكان بإمكان كل زوجة لرجل ميسور أن تطالب بمنزل مستقل اذا شئت ، وكان التجار هم الذين يقدرّون على ذلك • بل أنهم كثيرا ما كانوا مكرهين عليه ، اذا كانوا يرغبون في الحفاظ على أسرهم لأن كثيرين منهم كانوا يضطرون لمغادرة الكويت والعيش سنوات طويلة في مراكز تجارية بعيدة • ولذلك فقد كان من المألوف أن يقوم الواحد منهم بتأسيس أسرة جديدة حتى عندما ينتقل الى بلدة قريبة كالبصرة مثلا •

لقد كانت النساء متوافرات ، بالطبع ، لمن شاء المتعة السريعة ، وهؤلاء يصلحن للهو العاثر ، ولكنهن لا يصلحن زوجات لرجال محترمين ، وأمهات بنين • وكان من المدهش أن يعرف المرء كم من أساليب التحايل والخديعة يمكن أن توجد خلف الجدران الصماء والوجوه المحجبة • فقد كان في الكويت عدد من الشبان المعروفين برجولتهم وجرائثهم وقوتهم الجنسية • وعندما كنت أذرع الشوارع الخلفية الهادئة مع واحد من هؤلاء ، بعيدا عن السوق الرئيسي ، كنت ألاحظ أمورا كثيرة مدهشة • فكان صاحبي يتفحص سطوح المنازل بنظراته الجريئة ، حتى اذا ما ظهرت إحدى الفتيات الجميلات فوق أحدها ، عرف أنها مستعدة للمغامرة ، كما قال لي صاحبي التاجر الشاب عبد الله - وكثيرا ما كانت بعض الأيدي البضة تبرز من النوافذ المشبكة ، وتلقي ببعض الرسائل المعطرة في الهواء ، أو تركض إحدى الاماء السواحليات المسنات خلفه ، وتلقي في يده رسالة بكل سرعة وخفة ، وهي تمرق بمحاذاة • أما الرسائل الجوابية فكان ينقلها له أخوته الصغار ، أو بعض الصبية ، وترتب اللقاءات بواسطة هذه الرسائل • وكان صاحبي عبد الله يتقيد بقاعدة واحدة لا يحيد عنها في جميع مغامراته الغرامية ، وهي ألا يمسه فتاة بكرا ، فقد نهى النبي عن الاقتراب من هؤلاء (١) • فالفتاة غير البتول لا تستطيع الزواج ، فان فعلت وافتضح أمرها ، فانها تطرد من بيت الزوجية في يوم الزفاف ، وهي تجر أذيال الخزي والعار •

ولكن هذا القيد ، الذي ألزم عبد الله به نفسه ، لم يكن يزعجه • فقد كانت الفتيات العذارى صغيرات السن جدا ، والرقابة عليهن صارمة ، ولم تكن احداهن تجرؤ على ارسال الرسائل من النافذة الى أي رجل كان ، وكان يجري تزويجهن بأسرع ما يكون • وقد سألت عبد الله « كيف يمكن لفتاة أن تتزوج دون ان تجتمع بأي رجل ؟ » فأجاب أن ذلك أمر سهل • فقد كان ذوو القربى المقربون هم الذين يتدبرون أمر زيجات كهذه • ولم يكن

(١) النهي بالطبع ليس صادرا عن النبي (صلعم) ولكنه من صلب الدين ، وهو يشمل الشيب والبكر ، ويعاقب مرتكب الزنا عقابا زاجرا ، يعرفه كل مسلم • (المترجم) •



للفتاة في ذلك يد • كما أنها لا ترى زوجها المقبل أو يراها هو الا ليلة الزفاف • الا أن اختا لها ، مثلا ، تصفه لها بكل تفصيل ؛ كما تفعل أخت للعريس أيضا ، علاوة على أن بإمكان الفتاة أن ترى عريس المستقبل عن بعد وهو يعبر الشارع ، اذاً أمكن ترتيب ذلك •

وقد عدد لي عبد الله الصفات التي يطلب توافرها في العروس المناسبة له • فقال انها ينبغي أن تكون جميلة ، وأن تتحلى بقسمات وجه بهية يمكن أن تستمر كذلك • وينبغي ألا تكون مثقفة ثقافة عالية ، بل ماهرة في الأعمال المنزلية وإدارة شئون البيت ، كما يجب أن تكون من أسرة معروفة بشبابها الأقوياء ، وأن تكون رقيقة الشمائل هادئة الطبع ، ليس فيها ما يوحى بالاسترجال من قريب أو بعيد • أما خصائص الجمال المطلوبة فهي ، أولا ، وقبل كل شيء ، ألا يكون فيها كبيرا بحال من الاحوال ، ويجب أن يشرق لون الصحة والعافية في وجنتيها (ربما للتأكد من أنها ليست مصابة بفقر الدم) ، كما يجب أن تكون رجلاها وفخذاها لدنتين وثدياها كبيرين ناعمين ، وعنقها طويلا ، وأن تكون دافئة ومتجاوبة مع مطارحات الدعابة والغرام التي يتقرب بها الزوج اليها - وهذا أمر يمكن أن تتعلمه بالتدريج • الا أنها يجب ألا يكون لحمها رخوا ، أو تكون من الوزن الثقيل ، أو يمكن أن تصبح كذلك في المستقبل •

لقد بدت لي هذه الأوصاف المطلوبة في الزوجة ، كأنها مواصفات سلعة تجارية يصعب الحصول عليها • الا أن عبد الله طمأنني بأن أعدادا كبيرة من الفتيات اللواتي تجتمع لهن هذه الصفات متوافرات ، لا في الكويت فحسب ، بل وفي بلدان عربية مجاورة أيضا • ولذلك فقد كان مستعدا للزواج اعتمادا على تقرير أسرته ، ووصف أخته الأثيرة الى نفسه ، من غير أن يرى عروس المستقبل • بل انه كان في الواقع قد عقد الأمر على الزواج في المستقبل القريب ، وطلب من بعض أفراد أسرته أن يشاهدوا ويصفوا له فتاة جميلة تعيش في الزبير • وعندما سألت عبد الله لماذا اختار الزبير بالذات ؟ أجاب بأنها تقع على بعد مائة ميل شمال الكويت ، وفي الطريق الى البصرة ، وهي لذلك في موقع مناسب لكليهما • فيمكن أن يبني بيتا صغيرا هناك ، ويذهب اليه كلما شاء • كما أن البلدة تقع في منطقة صحراوية ، والحياة فيها بسيطة لم تفسدها يد المدنية بعد ، مع أنها إحدى مدن العراق •

ومرغان ما تواترت التقارير ، وكانت جميعها طيبة ، وحدد يوم

في القهى

للزفاف ، وكنت واحدا من المدعوين • وصلنا الزبير في المساء ، فوجدتها مدينة رومانسية ذات طابع عربي صميم ، واتجهنا الى الفناء الواسع خلف منزل العروس ، كأننا آتون لالقاء تحية المساء ، وللحديث وشرب القهوة • وكان هناك والد العروس وأحد أعمامها ، بالاضافة الى بعض أقارب عبدالله من الذكور • ولم نر أثرا لأية نسوة • جلسنا نحتسي القهوة المرة ، وشربنا الفناجين الثلاثة التي كان من اللائق أن نشربها في مثل هذه المناسبات • وبينما نحن نفعل ذلك ، وصل شيخ جليل قادما من المسجد • ولم يضع الرجل وقته سدى ، بل سرعان ما أمسك بيد عبد الله في كفه الأيمن ، وبهدوء واند العروس في كفه الأيسر ، وأخذ يقول بضع كلمات بصوت رخيم ، وسيماء الجد على وجهه بادية ، وانتهى الأمر • ويظهر أن هذا فقط هو الدور الذي من المفروض أن يؤديه هذا الاحتفال • ثم دارت فناجين القهوة ثانية ، بالاضافة الى شيء من الحلوى ، كما مرت علينا أواني البخور ، التي أخذنا نحرك دخانها بأيدينا لندخله داخل كوفياتنا ، بحسب الأصول • وانقضى الأمر ، فغادرنا المكان ، وأمضينا ليلتنا نائمين في فناء بيت جماعة من أقارب عبد الله •

ولم يذهب عبد الله الى عروسه الا عند الساعة الثالثة بعد مغيب شمس اليوم التالي • وعندئذ نزلنا جميعا في شارع الزبير الضيق ، ميممين وجوهنا شطر البيت الذي كانت أسرة العروس تسكنه ، ومعنا عبد الله وهو يرتدي جلالبيه وعباءاته ، وأفضل عقال لديه ، وعيناه تشمان بحرارة الشوق • وعند البوابة كانت مجموعة من نساء الزبير يقفن ، وقد تجلن بالسواد من قمة الرأس الى أخمص القدم • فتخطيناهن مسرعين ، لأن صاحبي لم يكن يرغب ، لسبب من الأسباب ، أن يشيع خبر هذا الزواج على نطاق واسع (ربما ليبقي خبره سرا بالنسبة لزوجاته الأخريات الموجودات في الكويت) • الا أن إحدى النسوة بدأت تصيح قذلة : « ما هذا الزفاف ؟ أهكذا تأتون عبر الأزقة المعتمة من غير أضواء أو ميمميين ؟ واين العريس ؟ » وهلم جرا ••• الا أن بوابة الفناء انستحت عندئذ على مصراعها ، وسارع عبد الله بالدخول الى الداخل • وكان يهمس لي أن حفلات زفافه الأخرى كانت أفضل من هذه ، فقد كان يرافقه في مسيرته الى كل من زوجاته الأخريات أكثر من ستمائة رجل • وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي أنوب فيها عن ٥٩٩ رجلا •

وفي هذه المرة دخلنا الى المنزل نفسه ، حيث كانت غرفة جديدة قد بنيت على جزء من السطح المستوي ، وزينت بالأشرطة البراقة والشموع المضيئة ،

صانعوا العباءات ←



وفرشت بالأثاث الذي كان يتألف من منضدة ، وأريكة كبيرة ، وصندوق نسائي ، وسرير مزدوج ، وكانت الأرضية مغطاة بالسجاد . وعندما دخلنا الغرفة ، واحدا بعد الآخر ، وجدنا والد العروس فيها . فالتقينا التحية ، وجلسنا قليلا ، ثم شربنا الشاي الشديد الحلاوة ، والقهوة بنكهة الهال ، وتناولنا شيئا من الحلوى والكعك ، وكان عبد الله لا يكاد يستطيع صبرا ، فلم أر في حياتي عربيا تبلغ به اللهفة هذا الحد . وأخذ يهمس في أذني : « الآن ! لقد حان الوقت الذي سأراها فيه ! » .

مكثنا هناك مدة عشر دقائق تقريبا ، ثم أخذنا نلقي تحية الوداع ، ونهنيء عبد الله ونتمنى له التوفيق ، ثم خرجنا من الغرفة بكل جد ووقار ، واحدا بعد الآخر ، ونزلنا الدرج ثانية ، ثم مررنا بسرعة مخترقين ذلك الجمهور الغفير من النساء اللواتي كن ينتظرن هناك . ولم نبعد كثيرا عن المنزل ، حتى سمعنا صيحة غريبة ، (زغرودة) أحد نصفها بهيج ، ونصفها الآخر حزين ، تصدر عن النساء المتجمعات في الفناء . فعلق شقيق عبد الله على ذلك بقوله : « ها ، ها ! لقد دخل عبد الله بالعروس . كل شيء على ما يرام ! الله كريم ! » فهمت من هذا الكلام بأن تلك الصيحة كانت الإشارة المتعارف عليها ، الصادرة من فراش العروسين ، والتي تبشر الجميع بالأخبار الطيبة .

لم يتح لي أن أرى الزوجة الجديدة ، أو أية زوجة أخرى . ولكنني عندما قابلت عبد الله مرة ثانية ، كان يتلمظ ، ويقول أنه كان موفقا جدا في زواجه الجديد .

بدأ الآن عدد مقاهي البحارة ، بل ومقاهي النواخذة أيضا ، يتضائل تضائلا ملحوظا ، وأخذت أصوات الرجال المسنين ترتفع ثانية في المساء على طول الواجهة البحرية . فقد رحل الشباب ، واستعاد هؤلاء أماكنهم ثانية ، بعد أن أقفر الميناء من المراكب الكبيرة . وكانت معظم مراكب الغوص قد عادت الى قواعدها الآن - فقد كان الوقت أواخر شهر سبتمبر (أيلول) - وتوزعت أطقمها هنا وهناك ، فعاد البدو الى رعاية قطعانهم من الغنم ، بينما التحق البحارة بمراكبهم الكبيرة ، وقد ازدادوا هزالا وارهقا عن ذي قبل . وفي أوروبا كانت الحرب مستعرة وأثر ذلك تأثيرا سيئا جدا على سوق اللؤلؤ ، الذي اندثر تقريبا ، بعد أن كان كاسدا في السابق . لقد كانت أياما سيئة ، احتار العرب في فهمها ، وكانوا يتساءلون عن أسباب قيام تلك الحرب المخيفة ، ولكنني لم أستطع اجابتهم على تساؤلاتهم ، فقد كان الأمر كله محيرا ومربكا لي ، مثلما كان مربكا لهم . كما كان علي أن أغادر الكويت حالا .

لقد حان وقت رحيلي عن الكويت ، ومغادرتي لأصدقائي من البحارة العرب . فأخذت اودع المسئولين والوجهاء ، وبدأت بصاحب السمو شيخ البلاد . فوجدته جالسا في مجلسه الصباحي ، على الشرفة العليا لقصر مبارك ، وأخذت أنظر للمرة الأخيرة على تلك الرسوم الباهتة للسيدات الجميلات التي كانت تزين الغرف ، وكلها مرصعة باللآلئ الكبيرة ، ثم أنتقل ببصري الى الجون في الخارج ، حيث كانت بعض المراكب الكبيرة تستعد للاقلاع . لقد مضت على وفاة مبارك سنوات كثيرة ، الا أن تلك النساء الجميلات ما زلن هناك على الجدران والسقف ، يجلن بنظرن في تلك الغرف المهجورة ، كما كان حفيد مبارك يقيم مجلسه على الشرفة المطلة على البحر . وقد قدمت لسمو الشيخ شكري الجزيل على كرم ضيافته أثناء وجودي الذي استمتعت به في الكويت ، وشربت معه القهوة ، وتحادثنا قليلا . وفي أثناء ذلك كان بدوي يحمل مدفعا رشاشا يقف خلف سموه باستمرار ، كما كان بعض البدو الآخرين يجلسون حوله ، وبنادقهم المحشوة في أيديهم الا أن هذا المظهر العسكري كان لا يعني شيئا ، مقابل الطريقة الهادئة المنظمة التي تتم فيها المراسم . وقال سموه لي أنه يأمل أن أكون قد شعرت كأني في بيتي وأنا في الكويت ، وأني سأزورها ثانية . وقد أجبته بأني شعرت بذلك فعلا . وكنت أتمنى لو أمكنني مشاركته نظراته المشرقة للمستقبل .

وبعد ذلك قمت بزيارة الشيخ علي الخليفة في حصنه . فوجدت اثنين من لصوص اللؤلؤ معلقين على صليب منصوب أمام المقر . وسألني الشيخ العجوز : « أين جملك الذي ستسافر على ظهره ؟ » فأجبت أن هناك حربا كبيرة دائمة ، وعلي أن أسارع بالعودة . ولكنه أضاف قائلا : « لا داعي للمجلة . فستصل بسرعة الى هذه الحرب على ظهر البعير . » ودعت الشيخ وغادرت المكان ، بينما كان الجنود ينزلون اللصين من فوق الصليب ، ليسوقوهما ، والخزي يجلل هامتيهما ، الى السجن عن طريق السوق الكبير . ثم ذهبت لأقدم فروض الشكر لأmirال أسطول الغوص ، الشيخ صباح . ثم فعلت مثل ذلك مع رئيس محكمة الغوص ، الشيخ عبد الله الجابر . بعد ذلك قمت بتوديع أصدقائي من النواخذة الكبار ، ومن أعيان البلدة ، ومن التجار . وقد استغرقني السلام على الجميع وقتا طويلا ، لأنه كان من السهل علي أن أكون صداقات كثيرة في الكويت . ولم استطع مغادرة البلاد قبل منتصف النهار ، عندما خرجت من البوابة الجنوبية ، في نفس الوقت الذي كان فيه فريق من البدو يخرجون ، وهم يرقصون ويهزجون ، وأيديهم متشابكة ، احتفالا بزفاف أحدهم ، بينما كانت قطعان الغنم والجمال تدخل المدينة . وكانت الحمير تجري ، وهي محملة بقرب الماء المستخرج من

الآبار الواقعة خارج المدينة ، كما كان بعض البدو ينصبون خيامهم خارج السور .

وهكذا غادرت الكويت ، عن طريق البر الى البصرة فأوروبا ، وكنت حزينا وأنا أترك المدينة وراء ظهري . لقد كان للبلاد حظها من المشكلات ، الا أنها كانت أقل من غيرها من البلدان المشابهة لها في المساحة ، كما كان عليها أن تتغلب على كثير من المصاعب أيضا . وقد تمكنت حتى الآن من حل مشاكلها ، والتغلب على صعوباتها ، وليس هناك من سبب يجعلها عاجزة عن مواصلة ذلك في المستقبل . فمراكبها وبحارتها معروفون بسمعتهم الطيبة في طول البحار الشرقية وعرضها ، وبريق لؤلؤها مشهور في باريس ونيويورك ، وتجارها يلاقون كل احترام من سوريا الى سنغافورة ومن القاهرة الى كاليكوت بالهند . وهي مكان لطيف جميل ، يعيش فيه المواطنون بسلام ووثام ، ويساعد فيه التجار الأغنياء الفقراء من المواطنين بحسب تعاليم الاسلام ، ويتصرف الشيخ كوالد للجميع .

وبينما كنت أغادر المدينة في وضع النهار ، وأرى قوافل الجمال وهي تدخل اليها محملة بالعوسج وحطب الوقود ، قادمة من الصحراء ، وفريقا من الصبية ، وهم يسوقون حميرهم بمرح الى حيث الآبار التي يملأون منها قربهم بالماء الصالح للزراعة - كنت أشعر بالحنين الى البقاء هناك ، حيث يمكنني أن أشتري « البغلة » التي تعجبني ، وأجالس الرجال الحكماء الأجلاء موسما آخر ، وأتعلم المزيد من فنون الملاحة في البحار الشرقية . وكانت الشمس تسطع باهرة في سماء صافية ، خالية من الغيوم ، الا أن الجو لم يكن شديد الحرارة ، بل كان معتدلا ، لطيفا ، والهدوء والسكينة يلفان كل شيء . وعندما كنت انظر الى علم الكويت الأحمر ، وهو يخفق على قصر الشيخ ، وعلى جميع المراكب الراسية في الميناء ، كنت أقول في نفسي ها هو علم أود لو استطعت الابحار وأنا أرفعه على مركبي ، كما أود لو استطعت أن أعيش في ظله مرة أخرى . وداعا ، يا كويتي العزيزة ! حق لك أن تفخري برجالك الذين يبنون المراكب العظيمة ، وببحارتك الذين يبحرون على ظهورها الى أقاصي الأرض .

خاتمة

خاتمة

على الأمواج اللاهبة من الحر المشبع بالرطوبة ، التي كانت تخيم على نهر البصرة « شط العرب » ، كانت هياكل وصواري ما يزيد عن مائة من المراكب تنعكس بشكل غريب ، بحيث كانت المراكب القريبة تبدو كأنها تتراقص وتهتز كأوراق الشجر في مهب الريح ، بينما كانت المراكب البعيدة تبدو كأنها مفصولة عن الماء التي تقف فيه ، بطبقة واضحة المعالم تماما ، ولكنها وهمية ، من الهواء . كنا في شهر أكتوبر (تشرين أول) ، إلا أن ميناء « الفاو » ، الواقع على مدخل نهر البصرة ، كان لا يزال حارا لدرجة لا تطاق . وكان ذلك اليوم حارا جدا ، ساكن الريح رطبا لدرجة لا تكاد تحتمل . وكانت أشجار النخيل الخضراء تقف على الجانب العراقي من النهر ، أصولها في الماء ، ورؤوسها العالية في الجحيم ، بينما تتراكم عناقيد البلح بغزارة بين سعفها . وعلى مسافة منا الى الشمال ، كان الدخان القدر الصادر من عبدان ، الميناء الايراني الغني بالنفط ، يلوث عشرة أميال من الجو الذي لم يقترب ذنبا ليلقى هذه المعاملة . وكانت مياه النهر الواسع ، الصفراء اللون ، تجري بسرعة نحو البحر ، وهي تحمل على ظهرها المراكب المسافرة ، وهي موسوقة بالتمور . وكانت مراكب تقلع مغادرة الميناء ، بينما مراكب غيرها تصل اليه . وكان هناك عشرات من المراكب من جميع الأصناف ترسو قبالة مدينة « الفاو » أو تسير على صفحة الماء - فهناك المراكب العظيمة الجميلة القادمة من مدينة الكويت المجاورة ، وهناك البغلات الجميلة والسمايك القوية القادمة من ميناء صور في عمان ، وهناك المراكب الهندية « الكوتيا » القادمة من بومباي ، وخليج كوتش ، وهناك المراكب الفارسية والعمانية والحضرية وتلك القادمة من ساحل المهرة ومن الساحل المتصالح ، ومن الباطنة . وكان التمر هو الذي يجذب هذه المراكب جميعا ، وكانت هذه هي مقدمة أسطول موسم التمور ، الذي يقوم بتوزيع حصيلة العراق منها على البلدان الواقعة على شواطئ البحار الشرقية .

كان المنظر ممتعا ومملوء بالحياة والحركة ، بل كان يمكن أن يكون لطيفا ، لولا حرارة ذلك اليوم القاتلة ، ورطوبة « الفاو » الهائلة ، التي تكاد تكتم الأنفاس . وكانت القوارب الطويلة ذاهبة آتية من المهبط الصغير القائم في قلب الميناء واليه ، وهي تنقل النواخذة ، والمعلمين وقائدي الدفة من مراكبهم الى البر . وكان منهم الايرانيون الوقورون

المهيون بجلابيهم البيضاء وعماماتهم الملفوفة بعناية كبيرة ، كما كان منهم العمانيون (من أهالي صور) بلحاهم المحناة وقمصانهم الداكنة ، وصدرياتهم المطرزة ، علاوة على الكويتيين الرشيقين ، بجلابيهم وكوفياتهم البيضاء المصبوغة باللون الأزرق الخفيف ، والحضارمة بوزراتهم القصيرة ، وقطع القماش السوداء الصغيرة التي يرتدونها تحت الركبة ، والهنود وهم يرتدون طبقات من القطن الخفيف الشفاف ، والقمصان الحريرية التي يلبسونها بدلا من المعاطف - جميع هؤلاء كانوا يجيئون ويعودون عن طريق المهبط وهم يقومون بمهام تتعلق بمراكبهم الراسية في الميناء . وعلى البعد السحيق ، فيما بعد الحاجز القائم عند مصب النهر ، كانت الأشعة المثلثة ، التي كانت الحرارة تكاد تحجبها عن الأنظار ، تشير الى ثلاثة مراكب محملة بالتمور ، كانت قد أقلمت في ذلك الصباح ، ولكنها تقف الآن هناك خارج الميناء وهي تنتظر الفرج عندما تتحرك الريح . وبينما كنت أقف هناك أراقب المشهد ، وصل المركب الضخم (الداو) ببطء ووقار قادما من الكويت ، متجها الى أعالي النهر ، ليحمل شحنته من الرصيف القائم على مقربة من أحد بساتين النخيل . وكان بحارته يقفون بوزراتهم على طول سوره ، وهم يتمتعون عيونهم المتعطشة الى الخضرة ، بمنظر البساتين التي كان المركب يمر بها . فقد كانت تلك الخضرة ، وهذا الماء العذب ، هي الصورة التي يحملها الكويتي عن جنة الفردوس . وكانت هذه هي جنة حمد بن سالم - هذه الأرض التي كانت تجري من تحتها الأنهار ، التي كان ينمو فيها كل ما تشتهي النفس ، والتي لا تتطلب من العربي الطيب الا أن ينام ويستريح ، فيما ينضج التمر ، وبقية أنواع الفاكهة وحدها ، وتأتي الى مائدته ليتمتع بها هنيئا مريئا .

ولكن حمدا بن سالم وأمثاله لم يكن لهم من تلك الجنة الا أن يتمتعوا أبصارهم بها فقط ، فقد كانوا جميعهم ، من حمد بن سالم الى النواخذة ، الى المعلمين الآخرين ، على وشك ركوب البحر مرة ثانية ، والابتعاد عن هذا الفردوس . وقد رأيت بين المراكب المائة ، يوم نجدي وبوم أخيه عبد الله المشتري حديثا . وكان حمد بن سالم قد أوصل « فتح الخير » بكل أمانة وكفاءة الى النهر ، وحمله بالتمور ، وها هو ذاهب على ظهر مركب عبد الله ليعمل « معلما » هناك . وكان المركبان موسوقين وجاهزين للسفر ، الا أن « نجدي » لم يكن قد وصل بعد . وكنت أنا قد أتيت الى هذا المكان مع التجار الذين زودوا المراكب بالحمولة ، وكنت أرافقهم الآن الى أن يروا المراكب وقد أقلمت من الميناء بالفعل . ولم يكن يهم هؤلاء سوى أن يسرعوا بارسال المراكب التي تحمل بضاعتهم ، لا سيما أن الحرب مستعرة في أوروبا ، والسفن التجارية الكبيرة معطلة عن السفر . وكانت هذه فرصة ذهبية ، لم تتح لهم منذ سنوات طويلة ، وعليهم اغتنامها بارسال شحناتهم من التمر

الجديد الى الاسواق بدون أى تأخير . فما دامت السفن البخارية لن تستطيع حمل التمور الجديدة الى سوق عدن ، فان على المراكب الشراعية اذا أن تهرع الى ذلك السوق ، والسابق هو الذي يفوز بأفضل الاسعار ويجنى أعظم الارباح .

لذلك فقد حضر التجار بأنفسهم ليتأكدوا من أن مراكبهم قد نزلت الى البحر بأكبر سرعة ممكنة ، وقد قمت بمرافقتهم لرؤية تلك المراكب وهى تطلع . وكان من المنتظر أن يصل نجدى فى ذلك اليوم ، فقد كان قد استدعى من الكويت ، وأبلغ أن مركبه جاهز للسفر . وبينما كنا ننتظر ، شاهدت باصا عتيقا قادما على طريق « الفاو » . ثم مر بمحاذاتنا ، ورأينا نجدى ، فى داخله . وسرعان ما توقف ، ونزل منه نجدى ببطء وهو متصلب الجسم ، متعب من السفر ، يتبعه اسماعيل الموسيقى ، ويوسف الشيرازى . وبادرنا بالسلام قائلا : « السلام عليكم » ، فرد التجار عليه السلام قائلين « وعليكم السلام ورحمة الله » . ثم تابعوا قولهم فى الحال : « هيا الى السفر ! أقلع الليلة بدون تأخير ! فمن المحتمل أن تهب الريح الليلة ، ومراكبكم جاهزة للسفر . هيا ! هيا ! الى البحر ! سارعوا الى عدن ! هيا الله لكم الريح المؤاتية ! » وكان نجدى يقف حافى القدمين على طريق « الفاو » وقد تلمطخ جلبابه بالعرق والتراب من أثر سفره الطويل ، بينما كان أحد طرفى كوفيته يغطى فمه ليحميه من لهيب الصحراء ورمليها . لقد كان متعبا ، ومغبرا ، وحزيننا لتركه الكويت . ولكنه لم يفعل شيئا سوى أنه مسح على شاربيه القصيرين ، وتمتم بصوت هادئ « طيب ! ان شاء الله ! » أما التجار فقد تابعوا حثه على السفر حالا وبدون تأخير ، فلم يكونوا يعرفون أو يفهمون شيئا غير هذا . « هيا الى السفر ! أقلع فى الحال ! سارع الى عدن ! » هذا هو كل ما كانوا يقولونه .

وقفت ، وأنا أسمع كلامهم هذا ، وقد عادت بى الذاكرة الى تلك الرحلة الطويلة الشاقة التى سيقوم بها ذلك الرجل ، ذو الانف الاقنى ، الواقف هناك . تلك الرحلة التى سيقضى فيها تسعة شهور ، ويقطع عشرة آلاف ميل ، تمتد من شط العرب ، وحول نصف الجزيرة العربية ، وعلى طول ساحل حضرموت ، وعلى امتداد الساحل الشرقى لافريقيا ، وجنوبا الى زنجبار وتنجانيقا ، لقد تذكرت كل ذلك وتصورت الرحلة الجديدة . وأفقت من حلم اليقظة على صوت التجار وهم يصيحون « هيا الى البحر ! أقلع ! أقلع ! » فقد كان هذا كل ما يعرفونه وكل ما يستطيعون قوله . ولم يزد نجدى عن التمتمة بكلمات « طيب ، ان شاء الله ! » .

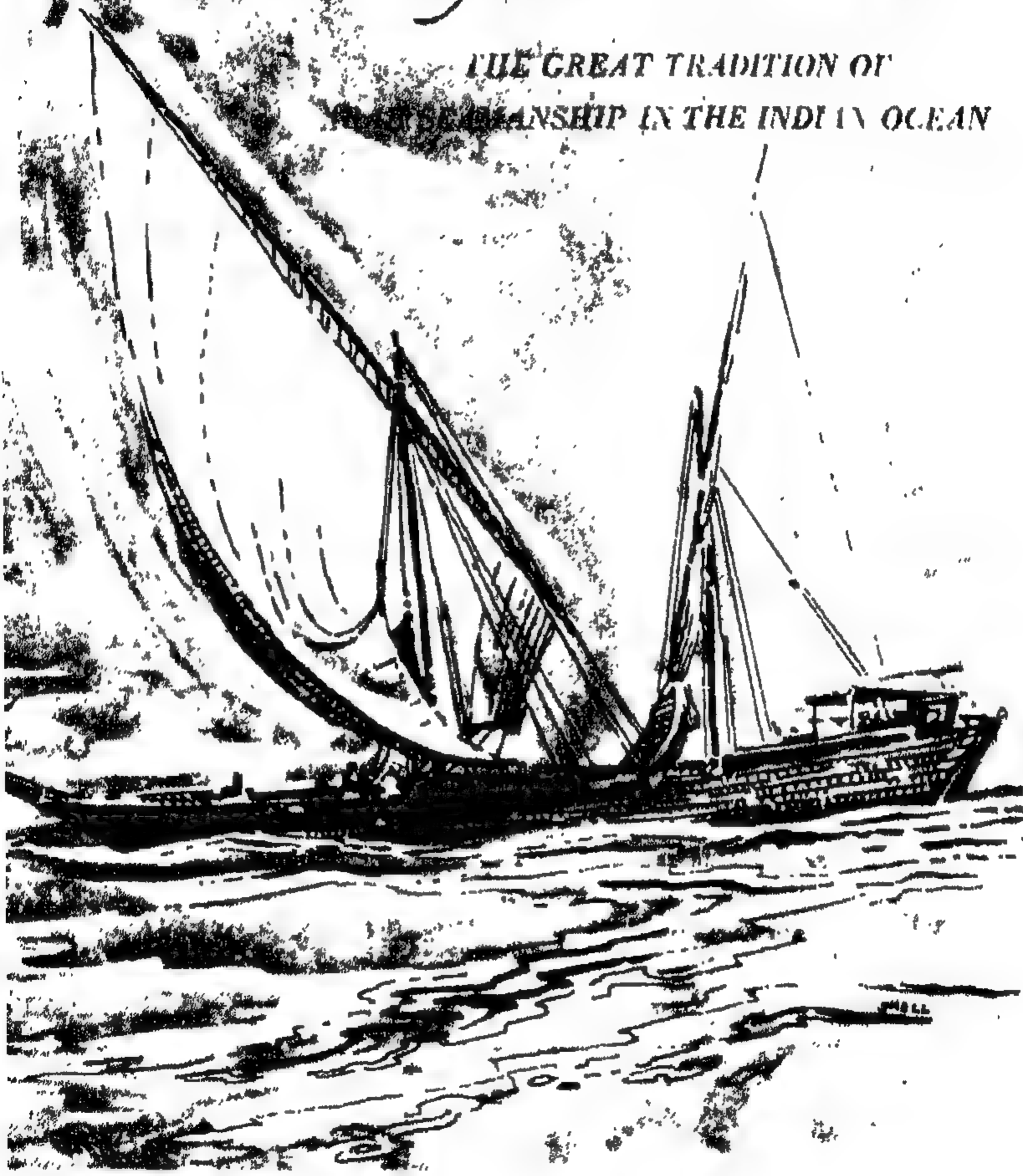
ولم يكن واحد منهم يبدو أحسن حالا من أثر بقائه تلك الشهور

الاربعة على البر الا اسماعيل، الذى أمضى تلك المدة وهو يعزف على قيثارته
فى سوق الكويت * الا أنه كان حزينا أيضا ، وكان ينظر الى النهر بعينين
متعتين * أما يوسف الشيرازي المسكين فقد كان يقف صامتا وقد ذبل ، وزاد
الشيب فى رأسه حتى أصبح يبدو، فى جلبابه الابيض، كأنه الشيخ * فقد كان قد
عاد لتوه من موسم الفوص على اللؤلؤ ، ولم يكن منه الا ديننا جديدا عليه
هـ ، بالاضافة الى الدين الذى ورثه عن أخيه المتوفى * مسكين يوسف ا
ها هو ذاهب ثانية ليقضى تسعة أشهر من التعب والشقاء * الا أن العمل
المتواصل على المركب سيبدو له ، حتى فى دلتا الروفيجي الفظيعة ، كأنه
اجازة مريحة اذا قورن بأعمال الفوص * وكان آخر ما رأيت من يوسف
ابتسامته الباهتة ، وهو يودعنى ، ويلحق بنجدى واسماعيل وهما يدرجان
على طريق « الفاو » حفاة الاقدام متجهين الى البحر *

ALAN VILLIERS

Sons of Sinbad

THE GREAT TRADITION OF
SEAFARERSHIP IN THE INDIAN OCEAN



صورة غلاف الكتاب الاصلی

الملاحق

الملحق رقم (١)

فيما يلي قائمة بالانواع المختلفة من المراكب العربية ، كما رأيتها وعرفتھا ، مع المميزات الخاصة بكل منها . وتكاد الفروق بين الأنواع المختلفة تنحصر في الهيكل فقط . ويستطيع العربي أن يميز بين نوع وآخر ، من الفروق في شكل الهيكل ، أما بقية الأجزاء والمعدات فهي واحدة تقريبا في جميع الانواع :

البغلة : البغلة هي مركب المياه العميقة التقليدي في الخليج العربي وفي خليج عمان . وتمتاز هذه بمؤخرتها ذات النوافذ الخمس ، التي كثيرا ما تكون محفورة بأشكال مختلفة على نسق مركب « الكارافيل » البرتغالي القديم . وللبغلة شرفات على الجانبين قرب المؤخرة كما يعلو مؤخرتها المعكوفة رأس حيوان ذو قرنين . ولا تبني البغلات الآن الا في ميناء « صور » في عمان ، وقد اندثرت من الكويت تقريبا وربما لا يوجد منها أكثر من خمسين بغلة عاملة الآن (١) .

البدن : هذا هو المركب الشائع في الموانئ الصغيرة الواقعة على ساحل عمان وساحل المهرة ويمتاز هذا المركب بخطوط هيكله المستقيمة ، وبهيكله المسطح الذي ليس فيه انحناء الى أعلى من الطرفين وبصاريه القائم عموديا ، وبطريقة قيادته القديمة الغريبة بواسطة نظام معقد من الحبال والدعامات الخشبية . كما أن عمود المؤخرة يمتد ويرتفع الى علو كبير ، وعندما يرسو هذا المركب ، يفصل السكان جزئيا عنه ، ويربط بأحد جانبيه . « والبدن » عادة مركب صغير ، ليس فيه غالبا الا صار واحد ، الا أن الانواع ذات الصاريين كثيرة الانتشار بين تلك المراكب التي تتاجر مع شرقي أفريقيا .

(١) ملاحظة : « الكويتا » الهندي شبيه جدا بالبغلة العربية ، وكذلك الانواع الهندية الاخرى التي تسمى « جونيا » و « جانيا » . والعرب نادرا ما يشتركون المراكب الهندية في هذه الايام . فغالبا ما يشتري العمانيون والایرانيون مراكبهم من الكويت ، الا أن ميناء صور وغيره من الموانئ عادة تبني مراكبها بنفسها . وهناك فروق طفيفة بين انواع المراكب التي تبني في الموانئ الصغيرة الواقعة على البحر الاحمر وعلى ساحل حضرموت ، الا أن هذه المراكب صغيرة جدا . أما مراكب المياه العميقة فهي عادة إما من انواع البوم أو البغلة أو السميوك ، مع عدد قليل من نوع الجلبوت أو البدن (المؤلف) .

البلم : هذه مراكب صغيرة عادة، تتاجر بين البصرة والموانئ القريبة الواقعة على الخليج العربى . ويقوم فى الواحد منها صار واحد فى أغلب الاحيان . وهى مراكب صغيرة جميلة ، مؤخراتها تشبه مقدماتها ، ولها مقدمات مقوسة ، لا تشبه العمود البارز فى مقدمة البوم ، أو رأس الحيوان ذا القرنين ، الذى يميز السمبوك والبغلة . وتستعمل مراكب البلم بكثرة فى أسطول الكويت للفوص على اللؤلؤ . (١)

البتيل : وهو نوع من المراكب مندثر الآن تقريبا . وقد رأيت واحدا منها فقط ، واقفا على رمل الشاطئ فى « الخبر » ، غير بعيد عن البحرين . كان هذا المركب متشابه الطرفين ، يتميز بالزخرفة الجميلة المحفورة على المقدمة والمؤخرة ، وحتى على عمودى المؤخرة والمقدمة اللذين كان كل منهما يحمل عددا من النماذج المميزة . وكانت هذه المراكب كثيرة الاستعمال فى الفوص على اللؤلؤ فى الماضى ، وكان أمراء البحر يفضلونها على غيرها . وعلى الرغم من جمال زخرفتها ، إلا أن هذه الزخارف لم تكن لها أية فائدة . وقد توقف البحارة عن استعمال هذا المركب الآن .

البوم : لقد احتل البوم مكان البغلة وأصبح المركب الشائع الاستعمال فى المياه العميقة وخاصة بين عرب الخليج العربى . والبوم مركب متشابه الطرفين ، عمود مقدمته مبنى على شكل نوع من الدقل المائل ، المصنوع بالألواح ، كما يتميز بسكانه الذى يشبه النير . ويستخدم البوم دون غيره ، فى الكويت ، لتجارة البحار العميقة ، كما أن الايرانيين يفضلون هذا النوع من المراكب أيضا .

الجليوت : يتميز هذا المركب بمقدمته الواقفة بشكل عمودى ، وبمؤخرته المستوية المرتفعة . ويذكرنى هذا المركب بذلك المركب الحربى البريطانى القديم المسمى (Jolly boat) الذى ربما اشتق اسم هذا المركب من اسمه . ويستخدم على نطاق واسع فى الفوص على اللؤلؤ فى الخليج ، خصوصا بين الكويتيين والبحرانيين . كما يستخدمه أهالى صور خاصة والعُمانيون اجمالا فى تجارتهم فى المياه العميقة . والجليوت لا يصل حجمه أبدا الى حجم البوم أو البغلة ، فتتراوح حمولته فى الغالب بين ٢٠ و ٥٠ طنا .

(١) البلم : مركب بصرى صغير كان يستخدم لنقل الخضار والفاكهة وعلف الماشية من البصرة الى موانئ الخليج ، ولم يكن من مراكب الفوص ، كما يذكر المؤلف .
(المترجم عن أحمد البشر الرومى)

ماشوة : وهو الاسم الذى يطلق عادة على القارب الطويل • ويقاد هذا بالمجاديف ، وان كان يركب له شراع فى بعض الاحيان • ويمكن أن يكون له مقدمة ، اما مستقيمة ، أو معقوفة ، ومؤخرته عادة مستوية ومرتفعة •

السمبوك : ربما كان هذا أكثر المراكب العربية جميعها شيوعا بل أنه شائع لدرجة أن اسم « سمبوك » كثيرا ما يطلق على جميع المراكب ، كما يطلق الاوربيون عليها كلها كلمة « داو » • والسمبوك الاصلى له مقدمة منخفضة ، معقوفة ، ومؤخرته عالية مبنية ، تكون عادة مربعة ومزخرفة فى الغالب ، ولكن بدون الشرفات على الجانبين ، أو النوافذ الخلفية التقليدية • وغالبا ما تكون المؤخرة مثقوبة – عادة فى أربع مواضع – لتهوية المساحة الكائنة تحت سطح المؤخرة • الا أن هذا المركب يخلو تماما من الزخارف الجميلة المحفورة التى تتميز بها البغلة • والسمايك شائعة فى البحر الاحمر ، وعلى السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، وفى صور ، الميناء العماني ، حيث بدأت هذه المراكب تحل محل البغلات ، وتصبح أحب الانواع الى بحارة هذا الميناء القديم • وتتميز خطوط هيكل السمبوك بالانسياب والجمال • كما يتميز هذا المركب بالرشاقة خلال الابهار بالشراع ، شأنه فى ذلك شأن المراكب العربية الاخرى ، كما أن للسمايك المبنية فى ميناء صور أسطحا كاملة ، بعكس المراكب الاصغر حجما التى تبنى فى موانئ البحر الاحمر ، والتى ليس لها أسطح مطلقا •

الشوعي : هذا نوع من القوارب الصغيرة الشائعة فى الكويت • وهى تشبه السمايك الى حد كبير ، سوى أنها أصغر منها بكثير (فلا يزيد وزنها عن خمسة عشر طنا) ، كما أن هناك اختلافا طفيفا فى الطريقة التى تجمع فيها خشبات المقدمة بحيث تصبح عمودا يرتفع أمامها • ويستعمل الكويتيون هذا القارب كثيرا فى صيد اللؤلؤ •

الزاروك : هذا نوع من السمبوك الصغير المتشابه الطرفين ، السريع جدا ، الذى يكثر استخدامه فى الموانئ اليمنية الواقعة على البحر الاحمر • وليس لهذه المراكب أية أسطح ، وقلما يزيد وزنها عن خمسين طنا • والزاروك العادى يشبه فى شكله وخطوط هيكله قارب النجاة الانجليزى الممتاز ، الا أنه لا يعادله من حيث المتانة •

الملحق رقم (٢)

الجوانب الاقتصادية لمراكب المياه العميقة

يمكن تقدير ما يكلفه بناء مركب كبير في ميناء الكويت في الأوقات العادية ، على أساس سعر الجلة من تمر البصرة الذي يبلغ ما بين ست روبيات وسبع ٠ (مع العلم أن أرقامى مبنية على الاسعار التي كانت سائدة ما بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، وعلى أن الروبية الهندية تعادل عادة شلنا انجليزيًا ونصف ، أو حوالي ٣٣ سنتا أمريكيا) ٠ فما دام وزن المركب وطاقته تحسبان دائماً بما يمكنه أن يحمل من جمل تمر البصرة ، التي يزن كل منها (١٨٠) رطلا انجليزيًا ، فمن المعقول جدا استعمال هذه الوحدة لتقدير التكلفة ٠ وعلى هذا الأساس فإن المركب الذي تبلغ حمولته (١٠٠٠) جلة يكلف بناؤه حوالي (٦٠٠٠) روبية ٠ وقد كلف « فتح الخير » ، الذي يستطيع أن يحمل حوالي (٢٣٠٠) جلة ، كما علمت من صاحبه ، ما بين (١٢٠٠٠) و (١٣٠٠٠) روبية ٠ أما سبب هذه التكلفة المنخفضة فيرجع الى أن صاحبه / ربانه كان حريصا جدا في اختيار أخشابه ومعداته ، كما أنه اكتفى بصاريين غير متقنين نسبيا ٠ وكان من الممكن بيعه بمبلغ (١٤٠٠٠) روبية ، أي حوالي (١٠٥٠) جنيه استرليني ٠ وبالمقارنة باليوم العربي ، فإن مركبا شراعيًا نظيفًا ، مثل الكتش (١) أو السكونة (٢) بنفس القياسات ، يكلف على الأقل ضعفي المبلغ ، إذا كان مبنيا من الخشب الطري في فنلندا أو أستونيا ، وضعفي الثمن ونصفه ، إذا كان مبنيا من خشب البلوط أو الدردار في الدنمرك أو جنوب السويد ، وربما ثلاثة أضعاف الثمن إذا بني من خشب تسمانيا الصلب الجيد ، في أحواض بناء السفن هناك ٠ إلا أن كل هذه المراكب تفضل المركب العربي من حيث سلوكها في عرض البحر ، كما أنها جميعا ، باستثناء المركب المبني من الخشب الطري ، تعمر أكثر بكثير من المركب الكويتي ٠

عندما يعقد أحد النواخذة العزم على بناء بوم جديد ، فإنه غالبا ما يجلب الخشب بنفسه من ساحل مالابار ، ويختار عادة الرخيص منه ٠ ونتيجة لذلك ، فإن الخشب ، الذي ينشر وتستهمل ألواح له لتغطية المركب ، قلما

(١) الكتش Ketch هو نوع من المراكب الشراعية ذات الشراعين (المترجم) ٠

(٢) السكونة Schooner هو مركب شراعي ذو صاريين أو أكثر (المترجم) ٠

يكون من النوع الجيد : أما الضلوع والزوايا فتكون عادة أغصان شجر طبيعية مستوردة من إيران ، أو العراق أو الهند (١) . أما الصواري ، وهي الجزء الغالي الثمن من أجزاء المركب ، فتكون عادة من جذوع أشجار الساج الهندية (٢) أما إذا كان النوخدة على عجلة من أمره ، ولم يسعفه الوقت لاستيراد الأخشاب اللازمة ، فإنه غالباً ما يحصل عليها من أكوام الخشب المتوافرة في الكويت : وبعد أن يشتري الخشب ، يتعاقد مع أحد « معلمي » بناء المراكب ليبني له مركبه . فيقوم هذا بدورته باستخدام العدد اللازم من التجارين والمساعدين والعمال . ويمكن أن يحصل التجار على روبية ونصف يومياً ، مقابل عمله من الفجر إلى التسق ، أما العمال فلا يزيد أجر الواحد منهم عن الروبية الواحدة في اليوم . ومن المحتمل أن يحصل نجار ممتاز جداً على ثلاث روبيات في اليوم ، علاوة على الطعام الذي يجب أن يزود به في أوقاته .

فإذا عدنا إلى « فتح الخير » ، نجد أن ثمن الخشب المستورد من مالابار لبنائه ، قد بلغ حوالي (٦٠٠٠) روبية ، كما تم التعاقد مع أحد التجارين المختصين على بناء الهيكل العاري والسكان بسبلغ (٢٨٠٠) روبية . أما أعداد الأشرعة ، فقد قام به البحارة أنفسهم من غير مقابل ، على اعتبار أنه جزء من تجهيز المركب ، وأنه يدخل ضمن الجهد الذي عليهم أن يبذلوه لكي يستحقوا حصصهم في المستقبل : فإذا كان البحارة يرغبون في العمل على ظهر المركب الجديد ، فإن عليهم أن يخططوا أشرعته . وقد دفعت لهم قروض ، على الطريقة العربية التقليدية ، لكي يتمكنوا من إعالة أسرهم خلال المدة التي يجري فيها تجهيز المركب . وكانت القاعدة هي أنه إذا قبل النجار سلفة النوخدة ، فقد ربط نفسه بالعمل على ظهر مركبه .

ويقوم البحارة أيضاً بتركيب حبال المركب وأجهزته الأخرى . ولذلك فإن هذه العملية (التي تكلف الكثير في تسمانيا ، أو الدنمرك ، أو ساحل أمريكا الشرقي) لا تكلف شيئاً في الكويت . فهم يخططون الأشرعة ، ويركبون الحبال وملحقاتها ، ويطلقون قاع المركب ، ويعومونه بعيداً عن الحوض الذي يبنى فيه . أما النجارون فهم مسئولون فقط عن بناء الهيكل وعن جلفطته . بينما يقوم البحارة بنقل وتركيب الدفة ، وعجلة القيادة ،

(١) اضلاع المراكب لم تكن تستورد من إيران أو العراق ، بل من كاليكوت بالهند ، وهي من نوع الساج البري غير المستقيم (المترجم) .

(٢) صاري المركب ليس من خشب الساج ، بل من خشب يسمى « الفن » وهو على نوعين « فن اصل » و « فن ابراهيم » (المترجم) .

وسندوق البوصلة ، والرحوية ، وأية تجهيزات أخرى يمكن حملها ، وتشمل هذه ، علاوة على ما ذكر ، القارب الطويل ، وقارب التوخذة (الذي يمكن أن يكون جذع شجرة محفورا) ، والموقد ، وبعض المراسي القديمة ، وزوجا من خزانات المياه الخشبية . وجميع هذه الأشياء يشتريها التوخذة بأرخص الأسعار ، كما يشتري المواد اللازمة للجلفطة ، والطلاء ، كزيت السمك ، وأدوات التثبيت ، والبكرات المصماء ، والبكرات العادية القليلة التي يجهز بها المركب . كما يشتري التوخذة أيضا المواد اللازمة للحيال . وعندما لا يكون البحارة ، الذين اتفق معهم على العمل معه ، مشغولين في خياطة الأشرعة ، أو تجهيز المركب بالمعدات ، أو بأعمال أخرى مشابهة ، فإنهم يقومون بمد الكابلات والحيال اللازمة لصواريه وأشرعته ، وأية أجهزة متحركة أخرى يحتاج إليها . وهكذا فإن ثمن التجهيزات المصنوعة من الحبال يقتصر على ثمن المواد التي تصنع منها الحبال ، وبما أن هذه لا تعدو أن تكون ألياف جوز الهند الرخيصة المستوردة من الهند ، فإن ثمنها ضئيل جدا . كما أن ثمن الأشرعة يقتصر على ثمن القماش القطني اللازم لها ، وهذا يكون عادة قليلا ، لأنه من القماش الهندي أو الياباني الرخيص . وتصنع جميع حبال المركب من هذه الألياف ، كما أن غرز الخياطة غير متقنة ، واللفقة دائرية وبسيطة جدا . أما الطرق التي تستعمل في أماكن أخرى لتقوية الحبال ، كإضافة قليل من قطران ستوكهولم إلى أليافها المفزولة ، فلم تكن معروفة أبدا . ويقتصر ثمن الصواري على ثمن الخشب الذي تصنع منه فقط . أما المراسي ، ومجالات القيادة ، والبوصلات وصناديقها فتكون عادة مستعملة وقديمة جدا ، وتكون في الأصل مشتراة من أكوام الخردة في بومباي قبل سنوات طويلة ، ومستعملة في مركبين آخرين على الأقل . وتبنى القوارب الطويلة على الشاطئ ، تحت مظلة من الحصير ، في نفس الوقت الذي يبنى فيه البوم نفسه . ويكلف بناء قارب طويل من هذا النوع مبلغا كبيرا ، يصل إلى ثمانين روبيا للقدم . فإذا كان طول القارب ثلاثين قدما مثلا ، فإنه يكلف ما بين (٢٠٠) و (٣٠٠) روبية ، إلا أن من الممكن شراؤه بسعر أرخص بكثير . وهذه التكلفة تشمل الصاري ، وشراعا واحدا ، علاوة على مرساة صغيرة .

ويمكن ، إذا ، حساب تكلفة بناء وتجهيز مركب مثل « فتح الخير » بشيء من التفصيل ، على الوجه التالي :

روبية	ثمن الخشب
٦٠٠٠	قيمة العقد مع كبير التجارين
٢٨٠٠	الأشرعة
٢٠٠٠	

روبيه	الصواري
١٠٠٠	القارب الطويل
٢٠٠	الأجهزة والمعدات ، بما في ذلك الرحوية ، وصندوق البوصلة ، وخزانات الماء ، والموقد ، وأربع من المراسي ، والهكرات والمواد اللازمة للعبال
٣٤٠	مواد الجلفطة والطلاء بما في ذلك زيت السمك
١٠٠	اللازم لطبقتي الطلاء الخارجية والداخلية
٦٠	قارب التوخذة
١٢٥٠٠	المجموع

ويبلغ عدد الأشرعة التي يزود بها مركب جديد ، سبعة أشرعة . ويشمل ذلك ثلاثة أشرعة رئيسية (ذات أحجام مختلفة . يبلغ حجم أكبرها الذي يسمى « العود » ، حوالي ضعف حجم أصغرهما ، الذي لا يستعمل إلا عند هبوب الرياح القوية فقط) ، بالإضافة إلى شراعين مزينيين ، وشراعين من النوع الذي ينشر على سارية المقدمة . ولكن كثيرا ما يقلع البوم الجديد في رحلته الأولى دون أن يكون مجهزا بجميع المعدات والتجهيزات المذكورة .

وتكلف بغلة ، من نفس الحجم ، (٢٠٠٠) روبية زيادة على ما ذكر ، بسبب كمية الخشب الإضافية اللازمة لبناء مؤخرتها المربعة العالية ، وبسبب العمالة الإضافية اللازمة . فأعمال الحفر وحدها ، إذا تمت حسب الأصول ، تكلف ما لا يقل عن (١٠٠٠) روبية . ولكن الكويتيين لم يبنوا بغلة واحدة منذ أكثر من ربع قرن ، بينما تغلو البغلات المبنية هذه الأيام في ميناء صور العماني من معظم الزخارف في الغالب .

أما مواد تثبيت الخشب فهي دائما من الحديد الرديء ، المطروق باليد في دكان حداد على الشاطئ ، ولا يعالج الحديد بأي شكل من الأشكال قبل أن يندق في المركب .

أما التمويل اللازم لبناء المركب ، فانه يأتي دائما من أحد التجار . ويكون لهذا ، عادة ، مصالح في بساتين النخيل على شط العرب ، أو مصلحة من نوع آخر في تجارة التمر في العراق ، ويرغب في استعمال المركب الجديد لنقل التمور التي يتاجر بها ، ولكنه لا يرغب في تحمل مسئولية امتلاك المركب . ولذلك فان النواخذة يمولهم التجار ، ويسمح لهم

بأن يكونوا المالكين الاسميين لمراكبهم . وهذا النوع من التمويل ضروري جدا ، لأن النوخذة لا يستطيع في أي وقت من الأوقات ، أن يمتلك المال اللازم لبناء المركب . فاذا امتلك هذا القدر من المال ، ترك البحر وأصبح تاجرا .

وليس هناك نظام للتأمين في البلاد . وبدلا من ذلك فإن طريقة التمويل المذكورة تجعل استثمارات التجار ، في الواقع ، من مسئولية النوخذة . فاذا ما فقد المركب لأي سبب من الاسباب ، ظل النوخذة مسؤولا عن الدين (١) ، كما أن نظام التنزيل من قيمة المركب مقابل الاستهلاك غير معروف أيضا خلال السنوات الخمس الاولى من عمره . وما يحصل فعلا في بعض الأحيان هو العكس تماما ، فمركب مثل « فتح الخير » مثلا مبني على يدي نجار ، من الدرجة الاولى ، بسعر منخفض جدا ، تزداد قيمته في الواقع ، زيادة كبيرة خلال السنوات الخمس الاولى عندما تنتشر سمعته الطيبة ، ويعرف الناس أنه مركب سريع ، قوي ، قادر على مصارعة الأمواج . أما بعد السنوات الخمس الاولى ، فإن قيمة الاستهلاك السنوي من قيمة مركب من هذا الحجم تبلغ حوالي (١٠٠٠) روبية سنويا ، منذ السنة الخامسة حتى العاشرة . وبعد ذلك تظل قيمته ثابتة تقريبا حتى السنة الخامسة عشرة . أما بعد ذلك ، فمن الممكن أن ينحدر الثمن انحدارا سريعا ، خاصة اذا لم يحافظ على صيانة المركب ، وابقائه في حالة جيدة .

أما المؤن فإنها تشتري بأرخص الأثمان . فالكويت ميناء حر ، والمؤن والمعدات رخيصة ، وذلك يشمل المواد اللازمة للبحال ، وقماش الأشرعة ، والجير والدهن المستعملين في طلاء المركب ، والقماش اللازم للجلفطة ، والمراسي وبقية الأدوات البحرية ، والقوارب ، المصنوعة من جذوع الشجر المحفورة والمجلوبة من ساحل ملابار ، والمجاذيف المصنوعة من الأخشاب المسطحة المجلوبة من « لامو » و « روفيجي » والمركب على طرف كل منها راحة (كراحة اليد) مستديرة - جميع هذه الأدوات والمواد رخيصة الثمن . أما القارب الطويل فهو نفسه القارب الذي يستعمل لقطر المركب ، كما أن

(١) يبدو ان كلام المؤلف بعيد جدا عن الحقيقة . فالتجار لا يسجلون المراكب باسماء النواخذة ، بل باسم مالكتها (الذي هو التاجر) . فاذا لم يكن بمقدور مالك المركب السفر عليه ، فإنه يتعاقد مع نوخذة يرتضيه ، ولا يكون هذا النوخذة مدينا بشيء لصاحب المركب . وعند حدوث حادث للمركب ينجم عنه خرقه أو تحطمه ، فإن النوخذة لا يتحمل أي جزء من ثمن المركب أو قيمة حمولته .

كما ان معظم مراكب السفر كانت ملكا لأصحابها ، وليس للتجار . وهم الذين يقومون بالبحث عن العمولة والاتفاق مع التجار على الاجرة في كل ميناء . الخ . (المترجم ، عن أحمد البشر الرومي)

طاقم المركب يتألف من بحارته ، والعاملين على بنائه في الأصل . أما تجاره ، فهو صانعه نفسه . وأما نوحدة المركب فهو الذي يشرف على بنائه وهو الذي يصمم أشيعته ، وهو قبطانه ودليله في جميع الأحوال . ولا يستعمل من الخرائط والوسائل الأخرى المعينة على الملاحة ، إلا الحد الأدنى ، ومع أن على المركب أن يحمل مصابيح على جوانبه ، إذا كان يسافر في تجارة إلى الهند ، فإن هذه المصابيح تجهز ، ولكنها لا تستعمل أبداً ، ولا تكلف شيئاً سوى ثمنها الأصلي . ولا يوجد على المركب أية أطواق أو أحزمة للنجاة ، أو عوامات ، أو أنوار تطلق للاستغاثة ، أو صواريخ ، أو أي شيء من هذا القبيل .

أما فيما يتعلق بالأرباح التي يجنيها مركب مثل « فتح الخير » من رحلة عادية كالرحلة التي قمنا بها ، فسأحاول أن أقدم ميزانية تقريبية جداً من ذلك . وهي كل ما أستطيع أن أفعله ، لا سيما أن تفاصيل هذه الأمور تعد من الأسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها أحد ، وذلك لكي أعطي فكرة ما عن الطريقة التي تتم فيها رحلة تجارية عادية لمركب عربي من مراكب المياه العميقة . لننظر أولاً إلى الجانب التجاري للمركب « فتح الخير » خلال رحلته التي قام بها عام ١٩٣٨ - ١٩٣٩ م . أولاً ، حمل المركب التمر من شط العرب ، إلى المكلا . وهناك طلب منه أن يوصل الشحنة إلى بربرة ، على ساحل الصومال البريطاني . ومن بربرة إلى عدن ، لم يكسب شيئاً ولم يحمل شيئاً . فيما عدا كيساً أو اثنين من التمور ، حملها إلى عدن خدمة لأحد التجار الكويتيين . وفي عدن ، استخدم المال ، الذي حصل عليه المركب أجراً على نقل التمر ، لشراء الملح ، والأرز ، والسكر ، والحليب المجفف ، واللوز الهندية ، وبعض الأشياء المتفرقة الأخرى ، وكانت النية أن تباع هذه السلع في موانئ الصومال الإيطالي ، وكينيا ، وزنجبار . وفي موانئ المكلا ، وشحر في حضرموت ، حمل المركب بعض الطيبات ، والمسك الحصري ، (الذي يحبه العرب المقيمون على الساحل الأفريقي حبا كبيراً لأنهم يعتقدون أن له صفات منشطة للجسم) ، والسمن ، وحجارة الطبخ العربية ، كما قام المركب بتحميل (١٣٠) مسافراً . كان كل رجل منهم يدفع ثمانين روبية ، وكل امرأة تدفع اثني عشر روبية أجراً للسفر إلى أفريقيا . وفي حيّون ، وجد قائد المركب أن التجارة العادية مستحيلة ، بسبب القيود التي فرضها الإيطاليون على إخراج العملة من البلاد ، فاضطر أن يقنع بمبادلة بعض الأرز والسكر بالسكك المحلي المجفف ، وبمزيد من الملح . وهنا بيع قارب قديم بمبلغ (١٠٠) روبية . وفي موقاديشو كانت التجارة العادية مستحيلة أيضاً ، إلا أن عدداً من المسافرين انضموا إلى المركب للسفر إلى ممباسا ، وزنجبار ، ووجدت طرق وأساليب للتخلص من

معظم السمن ، وحجارة الطبخ ، وكثير من السلع الأخرى . وفي لامو ، لم يكن المركب أي ربح ، فيما عدا بعض المسافرين الذين كانوا متجهين إلى ممباسا وزنجبار . وفي ممباسا ، بيع شيء من السمن ، وقليل من الأرز ، وأخذ بعض المسافرين المتجهين هذه المرة إلى زنجبار فقط . وفي زنجبار تم التخلص من كل الشحنة التي على المركب ، بالإضافة إلى جميع الركاب . وقد استخدم المال الذي تم الحصول عليه بهذه الطريقة ، لإرسال المركب إلى دلتا الروفيجي ، حيث تم الحصول على شحنة كاملة من خشب المانجروف بالشراة وبطرق أخرى . وعند توقف المركب في زنجبار ، في طريق العودة إلى الوطن ، بيع عدد قليل من الأعمدة الخشبية الخفيفة ، وأضيف إلى العمولة القرنفل وجوز الهند ، والشعيرية ، ومجموعة متنوعة من الصابون . وكان القصد أن تباع جميع هذه الأشياء في مسقط وموانئ الخليج العربي . ثم قفل المركب عائدا إلى الجزيرة العربية .

وقد اعتبرت العوائد التي تم الحصول عليها من بيع هذه البضائع ، بالإضافة إلى أجور الركاب ، ومجموع ثمن الأعمدة الخشبية - اعتبرت جميعها ربحا . وعلى هذا الأساس يمكن حساب الجانب التجاري من الرحلة على الشكل التالي :

الروبيات المقبوضة	البند
أجرة شحن ٢٣٠٠ جلة من التمر من البصرة إلى بربرة بسعر ١/٢ روبية للجلة الواحدة	= ٣٤٥٠ روبية
ثمن شراة الملح والأرز والسكر والحليب المجفف ٠٠ الخ من عدن الرصيد	= ٣٠٠٠ روبية = ٤٥٠
في المكلا وشعر : أجور سفر (١٠٣) رجال بمعدل ٨ روبيات ، و (١٥) امرأة بمعدل ١٢ روبية للشخص الواحد	= ١٠٠٠
في حيفون : ثمن مبيع قارب	= ١٠٠
أيضا ، تمت مبادلة الأرز ، الخ بالسمك المجفف والملح . الربح من هذه العملية ، بعد بيع السمك في زنجبار في وقت لاحق	= ٥٠٠

الروبيات المقبوضة

البنسب

	في موقاديشو : أجور سفر بعض الركاب الى لامو بالإضافة الى ثمن مبيع السمن ، وحجارة الطبخ الخ .	= ٢٥٠
	في لامسو : أجور سفر بعض الركاب الى ممباسا وزنجبار	= ١٠٠
	في ممباسا : أجور سفر بعض الركاب الى زنجبار في زنجبار : الربح غير الصافي من مبيع الحمولة (لا يدخل في ذلك قيمة المبادلة التي جرت في حيفون)	= ١٠٠ = ٨٠٠
	في دلتا الروفيجي : مجموعة تكلفة شحن الخشب (بما في ذلك بعض الرسوم غير الرسمية ، ٠٠٠ الخ)	= ١٧٠٠
	ثمن مبيع هذه الشحنة في البحرين	= ٦٠٠٠
	رصيد الربح من الأعمدة الخشبية	= ٤٣٠٠
	رحلة المسودة : الربح المحصل من بيع الصابون والقرنفل ، والشميرة ، وجوز الهند ٠٠ الخ ، (بالتقريب)	= ١٠٠٠
	عائدات أخرى : لم يسجل مصدرها أو طريقة الحصول عليها الا أن للبحارة الحق في نيل حصتهم منها (بالتقريب)	= ١٠٠٠
	مجموع الأرباح غير الصافية	= ٩٦٠٠

من مجموع الأرباح هذه ، التي كانت تقل بمقدار (٣٠٠٠) روبية
عن رحلة العام السابق ، خصم ثمن الأكل ، عندما أجرى الحساب الختامي
في الكويت ، بعد شهرين من انتهاء الرحلة ، وكان جميع البحارة يشاركون
في تكلفة الطعام ، التي يجب أن تنضم من الأرباح غير الصافية بموجب
التقاليد المتعارف عليها . وقد بلغت تكلفة الطعام ، بمعدل (٣) أنات في
اليوم لثلاثين رجلا ، لمدة مائتين وسبعين يوما (١٥٠٠) روبية . وعندما

تخصم هذه من المبلغ الكامل ، يبقى (٨١٠٠) روبية . وهذا المبلغ بموجب التقاليد المتبعة في تقسيم الأنصبة (الأسهم) ، يقسم الى نصفين : نصفه ، البالغ (٤٠٥٠) روبية يكون من نصيب المركب والـ (٤٠٥٠) الباقية تقسم على البحارة . أما نصيب المركب ، فان جزءا كبيرا منه ينفق على صيانته ، وعلى تغطية النفقات الأخرى للرحلة . وحسبما استطعت أن أستنتج ، يوزع النصف الباقي على أساس أسهم متساوية ، ما عدا أولئك البحارة الذين عليهم مسئوليات وواجبات اضافية ، فقد كانوا يتقاضون نصف سهم أو ربع سهم اضافي . لقد كان توزيع الأنصبة في « فتح الخير » كما يلي :

عدد الأسهم	
٥	التوخذة
٣	المعلم
$٤\frac{1}{2}$	قائدو الدفة ، عدد $٣ \times ١\frac{1}{2}$ سهم لكل منهم
$١\frac{1}{2}$	حريف البحارة
$١\frac{1}{4}$	مساعد حريف البحارة
$١\frac{1}{2}$	الطباخ
$١\frac{1}{4}$	أمين المخزن - المضيف (يوسف الشيرازي)
١٨	البحارة ، عدد ١٨ ، سهم واحد لكل منهم
٣٦ سهما	المجموع

ومن ضمن هذه ، تحسب الأسهم الأربعة الإضافية للتوخذة ، والسهمان الإضافيان للمعلم ، من النصف المخصص للمركب ، لا من النصف المخصص للبحارة . وبذلك يقسم مبلغ الـ (٤٠٥٠) روبية المخصصة للبحارة على ثلاثين سهما متساويا ، فينص السهم الواحد (١٣٥) روبية . من هذه الأسهم ، يأخذ البحارة سهما لكل منهم ، بينما يخص الآخرين كالضباط الصغار ، سهم وجزء من السهم . أما النجار ، فانه يتقاضى أجره مسنّ النوخذة مباشرة ولا يشارك في أسهم البحارة . وتأتي وارداته من بيع القوارب التي يصنعها على ظهر المركب خلال الرحلة ، سواء بيعت أم لم تباع .

وبالإضافة الى الحصص الإضافية التي تكون من نصيب الضباط الصغار ، فان النوخذة يتولى أمر عدد من رجال المركب ، مثل المغنسي

عبد اللطيف ، واسماعيل الموسيقي ، وذلك البحار الذي كان مسئولاً عن تقديم القهوة للضيافة ، وذلك بأن يمنحهم الاكرامية « البقشيش » اما من نصيبه كنوخذة ، او من النصف المخصص للمركب . اما المبدأ العام الذي يستند عليه منح الاكرامية ، فكان ارضاء كل فرد من أفراد طاقم المركب . فمن الذين يقبضون الاكرامية أيضاً ، البحارة الذين يثبتون جدارة خاصة ، او يعملون بجهد واثقان واضحين ، او يقدمون جهداً اضافياً من أي نوع ، او يثبتون وجودهم بسرعة استجابتهم ، او باظهار مهارات خاصة . فبالاضافة الى حصة رجل مثل يوسف الشيرازي مثلاً ، فانه يقبض اكرامية ، مكافأة له على الجهد الاضافي الذي كان يبذله باهتمامه بأمور النوخذة والوقوف على خدمته طوال الرحلة .

وعلاوة على الحصص الشرعية التي يستحقها الجميع ، فان لكل فرد من أفراد طاقم المركب موارد رزقه الخاصة ، اما من عمليات التهريب البسيطة ، او من بيع ما يحمله من السلع بالطريق القانوني . فلكل بحار الحق بأن يصطحب معه صندوقاً واحداً فقط ، وتسمح له التقاليد بأن يملأه بما يشاء من السلع التي يعتقد أنها تدر عليه الربح الوفير . وللنوخذة أيضاً أعماله الخاصة ، التي تشمل في بعض الأحيان ، ما يملأ نصف القمرة الكبير من السجاد المجمي بالاضافة الى عدد من الصناديق القديمة المحفورة حفرًا جميلاً ، كما يمكن أن تشمل تلك الاعمال تحويل العملات ، ونقل الرسائل والطرود الصغيرة ، ونقل وبيع بعض الكتب الدينية ، واهدام نسخ القرآن الكريم ، وبيع الحجب والتماويذ وما إليها - وكانت جميع هذه الأمور تضيف القليل الى موارد الافراد . ولكن من غير المحتمل أن يحصل معدل ما يحصل عليه البحار المادي من أعماله الخاصة ، او من سلعه طوال الرحلة ذهاباً وإياباً ، الى أكثر من خمس عشرة أو عشرين روبية . الا أن بإمكان النوخذة أن يكسب ألف روبية ، اذا كانت الظروف مؤاتية ، وكان هو مقتصدًا في لهوه وملذاته . كما يمكن أن يكسب « المعلم » عدة مئات من الروبيات . اما الموسيقي ، فانه عادة يصيب توفيقاً كبيراً ، بل ربما جمع من المال ما يكفي لتسديد الديون المتراكمة عليه من عمله في الفوص ، وفي بعض الأحيان يكسب كثيراً جداً من موسيقاه ، حتى أن نوخذة الفوص يفضل أن يحصل على نسبة معينة من دخله ، على أن يضطره للعمل على ظهر المركب مع احتمال فشله في الحصول على شيء من اللؤلؤ . وقد كان اسماعيل ، المني على مركبنا ، يحصل على كثير من الاكراميات من كبار التجار ، والأعيان ، الذين كان يعزف لهم وهم يحضرون ولائنا ، وكانت أدواته الموسيقية مهداة من النوخذة الذي يمنحه اكرامية مناسبة أيضاً عند انتهاء الرحلة . وكان هذا رجلاً مهماً بالنسبة للمركب ، فقد كان عزفه يساعد على انجاح الولايم التي كان النوخذة يقيمها ، وترفع من شأنه أمام

الآخرين ، وبالتالي ، تساعد في أعماله التجارية • أما المغني ، فقد كان يقبض الاكرامية لأن غناؤه كان يضفي جوا من السعادة على المركب ، وينخف من مشقة العمل • وربما حصل على خمس عشرة روبية عن الرحلة •

وعندما يكون بعض الصبية على ظهر المركب ، فإنهم لا يحصلون على حصص كالبحارة الكبار ، بل يكسبون ، بعض الاكراميات من النوخة والبحارة •

وفيما يلي قائمة بالطعام الذي استهلك خلال الشهور التسعة التي قام المركب « فتح الخير » بالرحلة خلالها ، وذلك بقدر ما استطيع حساب كمياتها • وينبغي الاشارة هنا الى أن جمع الاحصائيات من الصرب ليس بالأمر السهل ، ولم أستطع شخصيا الحصول على أية معلومات على الاطلاق، الا بالاصرار المتواصل بدون كلل او ملل ، وبفحصي الدقيق الشامل لكل بنود المصروفات ، في نفس الوقت الذي كان الصرف يتم فيه (بقدر ما كان ذلك ممكنا) • فلم يكن يبدو أن أيا من الامور يتم بطريقة مستقيمة واضحة تماما • واني أقدم الأرقام التالية ، على أن تعتبر كدليل صحيح الى حد ما ، لا كأرقام دقيقة جدا •

لقد كان استهلاكنا ، بقدر ما استطلعت اكتشاف كمياته أو تقديرها كما يلي :

روبية

١٢٠	التمر : ٤٠ جلة ، بمعدل ٣ روپيات للجلة الواحدة
٥٠٠	الأرز : ٥٣ كيسا ، بمعدل ٨ - ١٠ روپيات للكيس الواحد
٧٢	الطحين : ١٢ كيسا ، بمعدل ٦ روپيات للكيس الواحد
٨٤	السكر : ٧ اكياس ، بمعدل ١٢ روبية للكيس الواحد
٤٠	السماك المجفف : (وكان يشتري فقط عندما لا يتوافر السمك الطازج • السعر مختلف ولكنه ليس عاليا جدا) •
٩٠	الدال (الذرة الهندية) : ٦ اكياس ، بمعدل ١٥-١٦ روبية للكيس الواحد
٦	الملح : ٣ اكياس ، بمعدل ٢ روبية للكيس الواحد
٥٠	الشاي : (استهلك كمية كبيرة منه ، ولكنها كانت من النوع السيئ جدا) حوالي

روبية	
٣٠	القهوة : (استهلكت كمية كبيرة منها ، ولكنها كانت من النوع السيء جدا) حوالى
١٢٠	السمن : (بعضه ممتاز من الكويت ، بسعر ٢٠ روبية للصفيحة وبعضه الآخر سيء
٥٠	السليط (زيت) : المجموع =
٥٠	مواد مختلطة (أشياء غامضة : للاستعمال في المرق ، وفي الولاثم ، الخ ٠٠)
١٠	الفلفل الحار : (مرغوب جدا ، وكان دائما يشتري طازجا)
٥٠	البصل : (كان يستعمل في المرق وفي الولاثم)
٣٠	البطاطا : (كان استعمالها قليلا جدا)
٥	القرنفل : (للقهوة)
٥	الزنجبيل (للقهوة - عادة كريهة جدا)
١٥	معجون الطماطم : (استعمال على قلة ، لتحسين نكهة مرق احشام الماعز ، الخ ، في الولاثم ٠ وكان هذا يشتري من عدن في حلب صغيرة جدا واستعملنا منه نصف صندوق خلال الرحلة بطولها)
٢٠	الحليب المجفف : (نادرا ما استعمال)
٥	السمن : (الخبز الفطير : قلما استعمال ٠ استعمال فقط في مناسبات خاصة)
٥	الفلفل الأسود : (من المأكول المفضلة جدا ، كالفلفل الحار ، وكان يشتري طازجا من الأسواق)
٥	الفجل الأبيض : (من عدن)
٥	الليمون
١٥	خضر طازجة أخرى (قلما استعملت)
٤٠	(١٠) نعجات حية ، اشترت من بربرة بسعر ٤ روبيات للرأس الواحد
٨٠	(١٥) نمجة وعنزة حية استهلكت خلال بقية الرحلة واشترت بسعر (٥) الى (٦) روبيات للرأس الواحد
١٥٠٢	المجموع

أعتقد أن هذه التقديرات سخية بالنسبة لمركب عربي قوي حسن الإدارة . وكانت بعض فراخ الدجاج الطازج تشتري أحيانا لتقدمها في إحدى الولايات ، إلا أن النوخة هو الذي كان يدفع ثمنها عادة . وفي الموانئ كان التجار يبعثون أحيانا ببعض الهدايا إلى المركب كنمجة ، أو عنزة ، أو بضع دجاجات ، أو بعض الفاكهة . كما كان السمك يصاد بوفرة كبيرة طوال الرحلة .

وبإجراء عملية حسابية بسيطة ، نجد أن غذاء البحار على ظهر المركب الكويتي كان يكلف حوالي ثلاث روبيات يوميا - أي ما يعادل أقل من ثلاث بنسات ونصف البنس ، أو سبع سنتات أمريكية . ولكي أتوصل إلى هذا المعدل شملت في مصروف التغذية ، ثمن الغذاء الذي كان يقدم لركاب الدرجة الأولى على المركب ، وكذلك ما كان يقدم للمطابخ السواحليين في دلتا الروفيجي علاوة على تكلفة معظم الولايم التي كانت تقام على المركب في كل ميناء تقريبا ، فيما عدا سلالة .

وقد وصل إلى علمي ، وأن كنت لا أستطيع تأكيد هذا الأمر ، أن البحار العامل على مركب عماني لا تتكلف تغذيته أكثر من اثنتين اثنتين فقط في اليوم ، وأنه يكون سعيد الحظ إذا كسب ستين روبية من رحلته السنوية بأكملها .

الملحق رقم (٣)

وفي هذا الملحق يشرح المؤلف الكلمات العربية التي استخدمها في الكتاب وذلك لكي يستطيع قراء كتابه من غير العرب فهمها عندما ترد في النص . ونحن لا نجد داعيا بالطبع لأن نفعل ذلك . فقرأ هذه النسخة المترجمة سيكونون جميعا من العرب .

(المترجم)

الملحق رقم (٤)

اغاني البحر

نظرا الى أن المؤلف ذكر بعض الأغنيات التي كان يشدو بها البحارة في مناسبات مختلفة ، وتمت ترجمتها في مواضعها باللغة العربية الفصحى ، ونثرا لا شعرا ، مما يققدها الكثير من مزايها الأصلية ، فقد رأينا أن نستأنس برأي بعض التواخذه الكويتيين من ذوي الخبرة والاهتمام بالموضوع ، وكان لذلك نتائج طيبة ، وغير متوقعة . أما أنها طيبة ، فذلك لأننا تمكنا من الوصول الى حقيقة الأمر ، وهو أن البحارة كانوا ينشدون اغاني خاصة بكل مناسبة ، وأن ذلك كان من الأمور المتعارف عليها على ظهور المراكب العربية جميعها ، سواء كانت مراكب غوص ، أو مراكب سفر بعيد . وأما أن النتائج كانت غير متوقعة ، فذلك لأنه تبين لنا أن المؤلف ، لعدم معرفته بالحقيقة المذكورة ، وقلة معرفته باللغة العربية ، كان الى حد كبير يخترع تلك الأغاني التي أتى بها في مؤلفه .

وبما أن أبحاثا علمية معروفة قد تمت ، وأبحاثا أخرى يجري العمل فيها الآن ، وتتعلق بالأغاني الكويتية القديمة ، برية كانت أم بحرية ، فسنقتصر في هذا الملحق على ذكر تلك الأغاني التي ذكرها المؤلف في كتابه ، والتي يجد القارئ حاشية في هامش الصفحات التي تذكر فيها ، مشيرة الى هذا الملحق . أما من كان شديد الاهتمام بهذا الموضوع فبإمكانه أن يعود الى تلك الأطروحات المتخصصة لينال قسطا أوفى من المعرفة . وما وصل الى علمنا من هذه الدراسات هي :

(١) دراسة للماجستير بعنوان : « اغاني البحر في الكويت - النهمة - » قامت بها الأنسة حصة السيد زيد الرفاعي ، بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٧١ م .

(٢) دراسة للماجستير بعنوان : « الأغاني الكويتية » ، قام بها السيد يوسف الطوخي ، بقسم الموسيقى العربية ، بالمعهد العالي للتربية الموسيقية بالقاهرة ، عام ١٩٧٤ م .

وقد زودنا بالأغاني التالية ومعانيها ومناسباتها ، وطريقة أداء كل منها ، الأخ الكريم السيد أحمد البشر الرومي ، نوحدة السفر القديم ، والمهتم بهذه المواضيع اهتماما خاصا ، ونحن ندين له بالشكر الجزيل . كما أشرنا في بعض المواضع الى رسالة الماجستير رقم (١) بأعلاه .

(المترجم)

الأغنية الأولى

● العرضة :

وهي أغنية الحرب - وإن استعملت في الأعياد والأعراس ، وتستخدم على المراكب أثناء دخولها الموانئ . لهذا فإن أشعارها حماسية في العادة ، تعث على الحرب والصبر والجلد .

والأمثلة الثلاثة التالية تم الحصول عليها من المغني « النّهّام » المشهور سمود الغرير . وجميعها على نفس الإيقاع .

طريقة غناء العرضة بأنواعها :

يقوم أحد المغنين بأشهاد بيت من الشعر ، فتردد المجموعة البيت نفسه وهم جرا ، وأفرادها يتمايلون على دقات الطبول والدقوف ، ولكن دون ضرب الأرض بالأقدام .

المثال الأول :

يا لله يا المطلوب عُونِكَ لي بِلِينَا	يوم شَبَّ الحرب ما فيها بقايا (١)
مِعْتَبِينَ السُّوءَ لِي مِعْتَبِينَا	مِنْ سَعَى بالحرب مَاعَدَ الرِّزَايا (٢)
لَا زِمَ الحَرْبِي عَلَى جَمْعِهِ زَمِينَا	وَالطَّنَايا نِلْتَقِيهَا بِالطَّنَايا (٣)
دُون عِزِّ الدَّارِ بَعْنَا واشْتَرِينَا	بِالصَّمَايِلِ مَا يَفِيدَنَّ الحَكَايا (٤)
شِخْنَا سَالَمَ عَلَى رَأْيِهِ مِشِينَا	لَوْ يُوْرَدْنَا عَلَى حَوْضِ المَنَايا
وَنَ دَعَاْنَا فِي نَهَارِ الضِّيقِ جِينَا	مَعَدَّ عَيْنِكَ يَوْمَ صَوَّتَ بِالحِمَايا (٥)
مَعَدَّ عَيْنِكَ بِالرَّجَالِ المِسْتَحِينَا	كَلَّ شُغْمُومٍ كَمَا ذِيبُ السَّرَايا (٦)

الشروح :

- (١) لي بلينا : لو أو إذا ابتلينا .
- (٢) معتبين : قاصدين ، السوء : الرزايا : المصائب .
- (٣) الحربي : المعارب . على جمعه : على ربه أو جماعته . زمينا : مرافق ، ملتزم . الطنايا : القهر ، الظلم .
- (٤) الصمايل : الصديق . الحكايا : الكلام ، والمعنى العام : أننا نبيع أرواحنا فداء للوطن .
- (٥) سعد عينك : أي : نحن مستعدون للتجاوب . بالحمايا : لحماية الدار .
- (٦) شغوم : شجاع .

ولمعتادي لَوَّ يَدُورِ الرَّايِ فِينَا مايجي يَحْمِي عَطِييِنِ الْهَوَايَا (١)
خَبْرَةٌ عَنَّا وَرَبْعَهُ خَابِرِينَا يَوْمَ ذَبَحُوا ذَوْنَهُامِثِلِ الضَّحَايَا
كَمْ صَبِي زَالِ عُمَرَهُ مِنْ يَدِينَا مِنْ جُمُوعِ مَا بَقِيَ مِنْهَا صَمَايَا (٢)

المثال الثاني :

حَرِيبِينَا يَوْمَهُ تَعَنَّنَا حَقٌّ عَلَى الْعَانِي نِزْوَرَةٌ (٣)
رَدَّ السَّلَامَ خَشُّو مِهِنَنَا لِي ضَيِّعَ الشَّيْطَانُ شُورَةً (٤)
يَوْمَ غَشَّى الْمَطْلَاعَ مِنَّنَا يَوْمَ السَّمَاءُ تَكَسَّرَ طُيُورَةٌ (٥)
جَوَّ عَايِيهِ الطُّيْرُ غَشَّى عَامِينَ وَهَذَا الْيَوْمَ دُورَةٌ (٦)
مِنْ ضَيِّعَ الْهَقْوَةِ تِمَنَّى بِأَمَّا وَطِينَا كِلَ بُورَةٌ (٧)
مَهْبُولٌ يَا بَاغِي وَطَنَنَا دَارِ تِلَاعَجٍ بِهِ قُصُورَةٌ (٨)

الشروح :

- (١) عطيين الهوايا : من يعطون هواه او يعطون امانيه • والمعنى العام : لو ادار العدو رايه فينا بغية غزونا ، فانه لا يرى فينا الا من يعظم امانيه •
- (٢) صمايا : بقايا - المعنى العام : كم شاب منهم مات على ايدينا ، من اعداد كبيرة لم يبق منها بقية •
- (٣) حريبيننا : عدونا الذي يحاربنا • يومه تعنا : يوم يرغب في معاربتنا •
المعنى العام : في اليوم الذي يرغب احد في معاربتنا ، لا ننتظره ، بل نخرج له نزوره - اي نفزوه او نقاتله في مقر داره •
- (٤) خشومها : خشومها والمقصود هنا خشوم او فوهات البنادق •
لي : اذا • شوره : رايه •
- المعنى العام : اي اننا نرد السلام للعدو من فوهات البنادق ، اذا ضيع الشيطان رايه اي اغواه على محاولة مهاجمتنا •
- (٥) غشى : راي المطلاع : الرائي ، او الطليعة •
المعنى العام : ان اول رؤيتنا للعدو هو ذلك اليوم الذي تبدأ فيه الطيور من التصور تعوم فوق جثث قتلاه •
- (٦) المعنى العام : غزانا اعداؤنا قبل عامين ، والطيور كانت عندئذ مسرورة من قنومهم •
واليوم يعودون ثانية ليلقوا المصير نفسه •
- (٧) الهقوة : الراي • وطينا : وطننا • بوره : ارضه ، جهته •
المعنى العام : من ضيع الراي السديد ، نحن نقصده حيثما كان •
- (٨) تلاعج : تضيء ، تتلالا •
المعنى العام : مجنون من يحاول الاعتداء علينا ، فنحن نعيش في بلاد عزيزة ، تتلالا الانوار في قصورها •

المثال الثالث :

- رَاكِبٌ اللَّيْلِ تَسْبِيقُ خَفَّاقِ الْجَنَاحِ
لِي أَمْرَ سَتَ خَطَرٍ تَصْرُمُ قَوِيَّ حَبَالِهَا (١)
- إِنْدَبَ الْمَرْسُولُ يَلْفِي عَلَى شَيْخِ الصَّبَاحِ
قَلِيلُ لَبُو جَابِرٍ بِلَادَهُ يَنْصَفِي جَالِهَا (٢)
- لِي أَنْتَهَضُ طَيْرَ السَّعْدِ ثُمَّ نَوَى لِلْمَرَّاحِ
لِي احْتَرَكُ سَبْعَ الْجَزَائِرِ تَهَيَّزَ جَبَالِهَا (٣)
- شَيْخِنَا خَلَّ الْحَكَايَا تَطِيرُ بِهَا الرِّيَّاحُ
لَا تَطِيعُ أَشْوَارُ نَاسٍ تَرْبِي مَالِهَا (٤)
- مَا يَفِيكَ الدَّارُ وَالْجَارُ إِلَى زَلِّ الْمَزَّاحِ
كُودَ ضَرْبُ مُصَقَّلَاتٍ تَبِينُ أَفْعَالِهَا (٥)

الشروح :

- (١) امرست : انطلقت • تصرم : تقطع • اللي تسبق خفاق الجناح : الفرس أو الناقة السريعة •
المعنى العام : يا راكب الفرس أو الناقة السريعة جدا ، والتي اذا انطلقت لم يعد من السهولة ايقافها ، من غير أن تقطع العبال القوية التي تسيطر عليها كاللجام وما شابهه •
- (٢) اندب المرسل : ارسل الرسول • يلفي على : يلهب الى • يصفى جالها : يصون حدودها •
المعنى العام : ارسل رسولا الى الشيخ وقل له ان يصون حدود بلاده ،
(او ان يختار صفوة الرجال للدفاع عن حدودها) •
- (٣) لي انتهض طير السعد : اذا حالفنا الحظ •
لي احترك : تتحرك • الجزاير : الجزر •
اي : اذا قرر الشيخ التحرك للحرب اهتزت الجبال في الجزر السبع •
- (٤) اي : يا شيخنا لا تهتم بالكلام ، ولا تأخذ برأي اناس يتاجرون بالمال •
- (٥) الى زل : حتى يزول • كود : الا • مصقلات : سيوف حادة منقيلة •
اي : لا يحمي الدار والجار الكلام والهزل ، بل تحميها السيوف الصقيلة العادة •

الأغنية الثانية

● الخطة :

وهي الأغنية التي ينشدها البحارة عند رفع الشراع الرئيسي (المود) .
تقول الأنسة حصّة الرفاعي في أطروحتها المشار إليها بأعلاه
ص (٢٧٤) :

« الخطة نوعان : « شيلة » وهي غناء جماعي ينشده البحارة في حالة
عدم وجود منفرد (نهام) على ظهر السفينة . والغناء عبارة عن دهماء
وتضرع الى المولى أن يسهل عليهم مهمتهم الشاقة ولكن عندما
يوجد نهام أو أكثر على ظهر السفينة فانهما يتبادلان المواويل . وقبل
الشروع في الغناء ، تردد المجموعة كلاما غير ملحن هو بمثابة استهلال
للخطة مثل :

..... صلى وسلم عليه ، يا رسول الله ، هي يا هي ، يا الله
والكريم ، يارحمن يا رحيم ، خاطفين ومتوكلين على الله .

ثم يدخل النهام الاول منشدا (اللازمة والبيتين التاليين) ، ويرد
الثاني مكمل موال زميله (بانشاد البيتين التاليين) ثم يعود الاول ،
وهلم جرا (.....)

المثال :

(اللازمة)	يا الله يا الله يا الله
	شِلْنَا واتكلنا على الله
	ربي عليك اتكالي
(أو : عزيت يا من له الملك)	يا خالق لك الملك
	كريم تعلم بحالي
	علمك بسود الليالي
	بلكوذ بك يا محمد
	بشكي لك عما جرى لي
(مسكين : تصغير مسكين)	مسكين ، أنا مسكين
	ما ينذرني إيش حالي
	ما حالي الا المودة

الأغنية الثالثة

● الدَّوَّارِي :

وتنشد هذه الاغنية عند جر السفينة الى الشاطئ بالطريقة التي ذكرها المؤلف ، وذلك اذا كان حبل المرساة يزيد طوله عن الكيلومتر الواحد .

طريقة الغناء :

يبدأ الغناء أقدم البحارة من المغنين « النهامين » على ظهر السفينة ، فيفتتح باللازمة ، ثم ينشد الشطرين التاليين ، ثم يردد اللازمة ثانية لكي ينتبه المغني « النهام » الثاني ، ويستعد لقول الشطرين التاليين ثم اللازمة . ويدخل المغني الثالث ان وجد ، أو الاول ثانية ، ويتابع الغناء بنفس الطريقة .

يصاحب هذه الاغنية التصفيق ، وأحيانا يستعمل الطبل مع التصفيق ، ودق القدم على السطح بشكل ايقاعي .

المثال :

الزَّيْنُ وَاشْشَقَاتِي (اللازمة)

(١) هَبَّ الْغُرَيْبِي عَدَّائِي

وَالْهَمَّ أَزْرَى بِحَالِي

(٢) رَاعِي الْمُورَّسِ شُعَاعِي

(٣) يَزْهَى بِنَقْشِ الذُّرَاعِي

نَفْسُ الْوَبَرِ فِي كُفُوفِهِ

(٤) أَزْرَقَ وَعَيْنِي تَشُوفُهُ

(٥) لَيْمَنْ قُبِّلَ حَيَّ شُوفُهُ

(٦) بِقُؤُولِ حَيِّ الْقِبَالِي

(٧) لَيْمَنْ قَبَّعَ لِي بِكُمَةِ

بَجَلِي عَنِ الْقَلْبِ هَمِّهِ

(٨) يَا سَعْدَ أَبُو مِّنْ يِّلِمُهُ

(٩) فِي مَهْمَةٍ يَا رِفَاقِي

الشروح :

- (١) القريبى : الهواء الغربى المنعش • العنان : المنطقة الممتدة من الكويت الى القطيف •
- (٢) المورس : الثوب المصبوغ بالورس وهو نبات احمر اللون •
شعاعى : مشع ، مضيء ، جميل •
- (٣) النقش : الوسم بالعناء •
- (٤) ازرق : اشارة الى النقش الازرق •
- (٥) المعنى : انه اذا قيل ، يؤنسنى وفرحنى رؤيته •
- (٦) المعنى : اقول انى احيى القادم قبائلى •
- (٧) اى : اذا وضع كفه على وجهه خَفَرًا وحياء •
- (٨) يلمه : يعاقبه •
- (٩) مهمه : مكان خال •



« أبناء السندباد » نافذة غربية على ماضي الكويت

د. علي سعود عطية

القبس - العدد ٢٧٦٧ - الثلاثاء ١٩٨٠/١/٢٩

● ● « أبناء السندباد » كتاب عربي ، وضعه الكاتب الانكليزي آلن فليبرز ، ترجمه وحقق فيه الدكتور نايف خرما ، بتكليف من وزارة الاعلام الكويتية ، سيصدر قريباً ● ●

ان يتصلى المرء لآثر نفيس مكتوب بلغة أجنبية ، فينقله الى العربية ، انجاز كبير . وهذا ما فعله الدكتور نايف خرما استاذ اللغة الانكليزية بكلية الاداب بجامعة الكويت . فقد اتيج لكاتب هذه السطور ان يطلع على مخطوط لترجمة محكمة لكاتب الرحالة الانجليزى فليبرز ، قام بها الدكتور خرما بتكليف من وزارة الاعلام ويستعد لنشرها في وقت قريب . واهمية هذا الانجاز تكمن في ناحيتين أساسيتين :

الناحية الاولى ان الدكتور خرما يملك الاداة القوية للترجمة فقد عانى اللغة الانكليزية فترة كبيرة من الزمن : طالبا ، ومدرسا ، وموجها عاما ومستشارا لها في وزارة التربية ، الى ان تسلم منصبه الحالي استاذا لها في جامعة الكويت . ومن هنا فقد جاءت ترجمته للكتاب ترجمة دقيقة محيطه بادق الدقائق فيه . واستطاعت معدته الفكرية القوية ، ان تهضم وتنقل لنا اثرا بمقدار ما هو غنى ، وملء ايضا بالمعاني والتجارب التي عاشها مؤلفها - كما سنتحدث عنه فيما سيلي - وملء كذلك بالتركيبات اللغوية المركبة ، اذا لم نقل المعقدة احيانا . وحتى لا يشق المترجم على قارئه ، فقد توخى اسلوبا وسطا . . اسلوبا يروق للمثقف ولا يشق على القارئ العادي . . كما انه حرص الحرص كله على ان لا يفقد الكتاب شيئا من اصالته الفنية ، وجمال ديباجته . وعلى هذا فقد وفق توفيقا كبيرا . وقد وصف المترجم منهجه في الترجمة في مقبمة كتابه فقال :

« . . . التزامنا التزاما تاما بالنص الاصلى . . . مع حرصنا الشديد على نقل الافكار وتفاصيل الوصف للاشياء والاحداث . . لم نحاول ان نستخدم لغة ادبية خاصة يعسر على القارئ العادي ان يفهمها او يستمتع بها . بل عمدنا الى استعمال لغة عادية ، سليمة بقدر الامكان ، عربية البنية والجرس ، في معظم الاحيان . . . حاولنا بقدر استطاعتنا الحفاظ على التغييرات في اسلوب المؤلف ، من الاسلوب الادبي الرفيع ، الى الاسلوب الفني الرقيق ، الى اسلوب الكلام والخطاب . . . »

وحقيقة الامر ان الترجمة جاءت مشوقة ، قريبة الى النفس . . حتى انك اذا شرعت في قراءتها شعرت برغبة كبيرة في الاستمرار على ذلك ، وشدك الكتاب اليه شدا قويا ، واصبحت قراءته بالنسبة لك متعة فنية فضلا عن كونها متعة فكرية ، بل سياحة في عالم كبير من المعرفة والخبرة الشاسعة الابعاد .

مقارنة بين ترجمتين

ولعل الدكتور نايف خرما قد رسم لنا طريقا في كيفية تناول الاثر الغربي ، والامانة في التعامل معه . ويظهر هذا في المقارنته بين ترجمتين للكتاب نفسه ، الذي هو محل النقد في هذه الدراسة . الترجمة الاولى - تصدى لها احد المترجمين قبل الدكتور خرما - التي طغت على الحقيقة العلمية ، وأسرفت في علم العناية والاهمال ، حتى تخلت عن كثير من الفقرات ، وكان من جراء ذلك ان تداخلت الافكار ، وغضبت المعانى ، وبإيجاز سادت القوضى . والترجمة الثانية التي بذل فيها المترجم جهدا كبيرا ومخلصا ، وتفرغ لها ردحا غير قليل حتى استوت على ساقها ، وجاءت اثرا تمتاز به المكتبة العربية . ولا نبالغ اذا قلنا نموذجا يحتذى للاخلاص والامانة العلمية والذاب والمثابرة والمكابدة العميقة .

والناحية الثانية ، ان الكتاب نفسه باللغة الانكليزية اثر قيم ، وجهد عظيم ، وبخاصة في ادب الرحلات . ومن هذا تأتي قيمته كمرجع كبير في فن الملاحة وركوب البحار . فكتابه الانكليزي الن فليبيرز احد الرواد في ركوب البحار . وكتب البحر الى استراليا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره ، وفي عام ١٩٣٥ كان الن فليبيرز (او الشيخ ماجد كما كان البحارة العرب يسمونه) يقود المركب الشراعى « جوزف كونراد » الذي كان آخر مركب شراعى يدور حول رأس هورن باقى جنوب القارتين الاميركيتين . كما انه كان قبطان المركب الشراعى الذي بنى على غرار مركب « مائ فلور » (الذى سافر فيه كريستوفر كولمبس الى اميركا) عندما قام برحلته الشهيرة الى اميركا عام ١٤٥٧ .

وعندما حطت به عصا الترحال في جنوب الجزيرة العربية في اواخر الثلاثينات ، انطلق من عدن برحلة عظيمة طوف فيها عالم البحر العربى من جنوب الجزيرة الى ساحل افريقيا ، (مقاديشو ومباسا وزنجبار الى دلتا نهر الروفيجى) ، عودا الى الخليج العربى ، ووصولا الى الكويت . ولقد ادرك الرحالة الانكليزي الكويت في اواخر الثلاثينات ، فوصفها لنا وصفا دقيقا . ورأى رؤية عميقة وتوقف عندها لحظة خاصة ، واضفى عليها من اشراق بيانه وعمق تفكيره ودقة بحثه ما جعل كتابه تاريخا يضاف الى التاريخ ، فضلا عن كونه ادبا من الالب او فنا من الفن . ولعمري فانه كان لا بد لهذه العقبة من تاريخ الكويت ، كويت ما قبل النفط ، ان تدون ، وان تدون تدويننا والقياس يتبع من التجربة العارة والمعاشية الصادقة ، والمعاناة الكاملة . ولقد فعل الرحالة الاوروبى هذا . . .

كويت ما قبل النفط

تشكل فترة ما قبل النفط في تاريخ الكويت ، وتلك الايام المشحونة بالعرق والدموع والجهد الاصيل المثار ، والجلد الصوفى العظيم في مقارعة الصعاب ، وتحلى الطبيعة القاسية . . . اقول تشكل تلك الفترة بنوا مركزيا في نفس كل كويتي عاش تلك الايام في الحقيقة والواقع ، او انه عاشها بالفكر والخيال كما فعل جيل الابناء . كما انها تشكل نفعا اصيلا في سيمفونية الرحلة الكويتية عبر التاريخ . . . واحيانا تشكل حنيئا يبلغ درجة النوستالجيا . وياخذ انماطا متعددة في الاتارة الفنية والفكرية والادبية الكويتية ، كما انها سلوى كبيرة للكثيرين ، يتذكرونها بشغف ، ويجمعون حولها وحول اسمائها في المجالس والدواوين ، ويتوقون اليها توقا دافقا يشعرون به شعورا اصيلا ، وبخاصة عندما يحسون بتعقيدات الحضارة الحديثة ومشقة العيش والقلق الذي جلبته الحضارة

مثلهم في ذلك مثل شعراء الرومانسية في أوروبا ، الذين ثاروا على تعقيدات الثورة الصناعية فعادوا الى الطبيعة بما فيها من جمال وبساطة ، واستلهموها اجمل انوارهم وابدع انتاجهم . ومثلهم في ذلك ايضا - في تراثنا العربي - مثل تلك البدوية التي امتلات رومانسية - ايضا - وهامت عشقا بحياة البداوة والصعراء المغطاة بما فيها من بساطة ويسر وعفوية .. واعنى بها ميسون الكلبية التي ردت عندما تزوجها معاوية فاسكنها ردهات القصور ، واحاطها بمظاهر النعمة من ريش واراتك وخدم وحشم .. ردت هذه المظاهر او قل انها ثارت على هذه المظاهر ، ولم تنسها اباما مضت جميلة رفراقة كالماء العذب يسرى .. وقالت :

لبيت تغشق الأرياح فيه

أحب السي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب السي من لبس الشفوف

لسان حال كل كويتي في زمننا هذا يقول : رهي الله تلك الايام ، وسقاها من ماء الزن ؛ بما كانت وما حملت ؛ ومن هنا ، فانهم سيجدون في الكتاب الذي ترجمه الدكتور خرما ، ولم يغفل عليه بالنفحة الادبية - كما ذكرنا - سيجدون به عزاء ، كما سيجدون به جمالا وستداعى لديهم الذكريات ويعودون الى رومانسية الثلاثينات في الكويت ، وكما وفق ايضا الكاتب في وصفها ، وصفا متعاطفا - وستبقى من اجمل فصول الكتاب تلك التي تصف العواطف الجريئة التي يتبادلها الشبان والفتيات ، على استحياء ، في مجتمع بسيط ، قبل ان يجمع بينهم على سنة الله ورسوله ؛ الدريشة من ورائها الفتاة ترقب العالم الخارجي بتعجب وخجل ، وحيرة . والفريج ، ودروب الكويت المتعرجة وحشود الناس تودع السفر ، والفواصين وتستقبلهم في عيد بهيج ، وتعامل الناس ببساطة وحب . كل هذه المعاني يحملها المرء للمؤلف ، ويشعر من قراءتها بصدق الكاتب وفهمه وتعمقه .

ووضع الكويت في اواخر الثلاثينات ، والذي هو امتداد لمئات من السنين سبقتها كمثل مشهد او مشاهد في تمثيلية شجية سخية ، شغوصها مختارون بعناية ، ويقومون بادوارهم بصدق واصالة ، ويؤدون واجبههم بخشوع ومجبة . وقد اتيج لاحد الاشخاص ان يسجل هذه المسرحية قبل ان يسدل عليها الستار باكتشاف النقط وتغير معالم الحياة - الى الابد ؛ وكان هذا الذي سجل هذا المشهد ، او هذه المشاهد ، قبل ان يسدل الستار ، هو الرحالة فليبرز في كتابه ومن هنا ، فان له قيمة ترقى الى مرتبة القيمة الوثائقية .

امر آخر بين امور جديرة بالتقدير - وما اكثرها - في هذا الكتاب ان كاتبه يجمع بين خاصيتين اساسيتين : خاصية العالم وخاصية الاديب ، وتلتقي هاتان الخاصيتان لتمعنا كتبه قيمة على قيمة .

اما انه عالم فتكتشف هذا في شدة عنايته بالتفاصيل . ويظهر هذا التفصيل اكثر ما يظهر في وصف السفن الكويتية بغاصة والعربية بعامة . فعلى ما أعلم فأنني لم اقرأ الا استقصى فيه كاتبه نواحي متعددة في بنيان السفينة : البوم والبغلة والسنبوك

وغيرها ، كما استتفى كاتبنا هذا • ولعل هذا ما ادهق المترجم من امره سرا ، حتى يكاد لا يجد لهذه التفاصيل مقابلا في اللغة العربية المعروفة ، مما يضطره ان يتقرب في المراجع العربية القديمة ويبدل في ذلك جهدا غير قليل وعلى هذا فانه فضلا عن الترجمة فقد عمد الى التحقيق فكانما يجعله هذا قد اضاف الى علم الكتاب علما شديدا الصلة به لصيقا برسائلته • ولقد امتد البحث بالمترجم فاتهصل ببعض ذوى الخبرة والبصيرة من رجالات الكويت ، ومن عناصر أيام السفر والهجر ، فاستشارهم بشأن هذا الكتاب • وما غمض من شأن بعض التسميات الانكليزية لاصطلاحات البحر والسفر وهالم السفينة واجزائها • وكان للاستاذ احمد البشر الرومي والاستاذ محمد الرشيد ، وغيرهما من اهل الخبرة والدراية ، جهد مشكور وفضل لا ينكر •

عاشق السفن والبحر

واما انه اديب فالكاتب عاشق كبير لعالم السفن والبحر بعامة ولولا انه كذلك فانه لم يكن ليقف عند تلك الاجزاء فيوفيهما حقها قبل ما وقاما • وقارىء الكتاب لا يشعر ان الكاتب يصف هذه التفاصيل وصفا عاديا ، بل انه يشعر ان حبه الكبير للسفينة يتحول في أسلوبه الى ترنيمة هادئة يلقيها في محراب حبه ، او صلاة يصليها في محرابه •

لم يصف الكاتب السفينة واجزائها وانماطها وانما وصف كل مكان زاره ، وما اكثر المحطات التي وقف بها او استوقفته • ولا نريد ان نقول عنه كما قيل عن شعراء العرب في الجاهلية انه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ؛ ولكنه بذل شيئا من حشاشة ذاته • وصور ، عن وهي وانفعال صادقين كل ما كان يمر به • وصف رومانسية الموانئ المهجورة البعيدة ، كما انه وصف هوالم متعددة ليست بتلك الرومانسية وجمالها ولطفها • وانما فيها من تعقيدات الحياة ما فيها • وصف عالم ركاب البحار ، من مفارمين وافافين ، كما انه وصف - على الجانب الآخر - عالم السفر جميعه : النواخذة والفواصين ، ومساعدتهم ، والتجارة بين الموانئ المختلفة •

ولعل من اكثر ما وفق به الكاتب هو مقدرته على وصف الاشخاص ، حتى لكانك تراهم !

وفن التشخيص لدى الكاتب - اى المقدره على رسم الشخص - فن قائم بذاته ، شبيه برسم لوحة ، يخطوط سريعة ويسيرة • ومع ذلك فان الشخصية تبرز امامك من عالم الخيال كأنها واقع مجسد ؛ تتعراها يداك بلمس كما يقول الشاعر المعري •

وان قارىء الاداب الغربية والشرقية لن ينسى نموذجا فريدا رسمه الكاتب بريشته الدقيقة المعطاء ، هي صورة النواخذة الكويتي « نجلى » • هنا تمكن الكاتب ان يرسم الملامح البدنية واللامح النفسية والخلقية ، فبرزت شخصيته بين دفتي الكتاب قوية اصيلة ذكية كريمة وسيمة •• جماع كامل لكل صفات العربى كما ترجوها وكما تحبها !

اكثر من ذلك ، ان الكاتب وفق في وصف عالم كامل ، عالم البحارة على ظهر السفينة وهم يمخرون عباب البحار برحلتهم الطويلة • قادة السفينة ومعاونوهم : الطباخ والنجار والموسيقى والمغنون ومع هؤلاء الركاب المسافرين سفرا بعيدا او قريبا ، والتجار • وكل ما يدور ويعمل في نفس كل منهم ، وما هي تجربته ، وماذا يشكو وماذا يامل •

ويرجو • حتى لكأنك تعيش معهم رحلتهم مشرقا ومغربا ، يوما فيوما بل ساعة لساعة ، وتشعر وسط كل ذلك ماذا كانت تشكل كويت الامس للكويتي الراحل عنها الى حين ••
الامل ، والحب ، والاسرة ، والامل ، والولد ، والوطن •• الاستقرار وكل ما يمكن ان تجود به الحياة من نعمة ، ورغد ، وهناء •••

الرحالة الكويتي

وصف الكاتب ما للكويت في نفوس ابنائها من عشق او تعشق ؛ وركز على الرحالة الكويتي اكثر ما ركز • وهذا ما يجعلنا نذكر ميزة اخرى للكاتب ، وهي انه خص الكويت بكل تعاطفه • وانه اذا كان الكاتب قد جار على بعض المناطق الاخرى ، او اهلها - من غير الكويت - فان تعاطفه مع الكويت وثنائه على الكويتيين ، لما لمسه لديهم من قيم ومحافظة على روح العروبة ، واخلاقيات البحر العربية ، لم يتزعزع ولم يتغير طوال صفحات الكتاب •

كتاب ابناء السندباد فيه الكثير مما يدعو الى السرور او الدهشة •• جاء كناه وفار لوصف مغامرات احفاد السندباد وابنائهم ، ذلك الرحالة العربي الذي جوب الافاق تحمله قافلة وتحمله قافلة •• ووصل الى بلاد بعيدة بعيدة ؛ وماني ما ماني واعظمها الدهشة ؛ واكتشاف عوالم جديدة •• وشرب من التجربة حتى ثمل ؛ مما تمتلئ به صفحات الف ليلة وليلة وغيرها من كتب الرحلات الملتهبة ، الى درجة الاسطورة •• ولما جاءت اطروحة الكاتب الاساسية لتصف شيئا او اشياء من اخلاق ابناء السندباد هؤلاء : مغامراتهم ، هفويتهم الى درجة الاتكالية احيانا ، شجاعتهم القاتلة ؛ ومقدرتهم على التكيف وحسن التخلص والقلب على المصاعب •• وفوق كل هذا ايمانهم بالعناية الربانية ، وتسليم امرهم لله العظيم ، مدبر هذا الكون وب الارض والسماء والبحار •

تلکم هي بعض الافكار والمشاعر والخواطر عن هذا الكتاب الذي نرجو ان ينفع الله به وان يلقي من القراء ما هو به جدير • وان يكون نافذة للاجيال تطل من خلاله على ذلك العالم الغابر ، عالم ما قبل النقط ، يتل ما له وما عليه •

يقول المترجم في مقدمة كتابه ما نصه :

« وهي (اي الترجمة) موجهة بصفة خاصة الى الجيل الجديد والاجيال المقبلة ، من ابناء النقط في الكويت ، الذين لا يعلمون الكثير عما قاساه اباؤهم واجدادهم في شظف العيش ومشاق الحياة سواء في المدينة او في مواسم الغوص ، او على متون المراكب الكبيرة ، ياخذون من ذلك عبرة ، ويستفيدون موعظة ، ويسيروا على منهاج السابقين ، في سمو الخلق وطيب المعاملة والصبر على المصاعب والمثابرة في الجهد لبلوغ الهدف المنشود ، والتعاون مع بعضهم بعضا ومع حكومتهم الرشيدة في السير بسفينة البلاد الى بر الامان في هذا البحر المتلاطم من الاوضاع العالمية المضطربة » •

ونحن اذا كنا نريد من كلمة ختامية نقولها حول الترجمة او التعريب لا بد لنا ان نقول اننا ما زلنا بحاجة الى ان نغترف الحكمة والمعرفة من مظانها اينما كانت وبأي لغة كانت • واننا اذا كنا فاعلين ولا بد فاعلون حتى نلحق بركب الحضارة فلنختار اثارا من مثل هذا الاثر - الذي تحدثنا عنه - غذاء للعقل وغذاء للروح •• وبذلك نكون قد حققنا للثقافة هدفا وازدودنا معرفة وعشنا تجربة رائدة رشيدة نحو عالم الفضل وحضارة اغنى واخصب واكثر تقدما •

مطبعة حكومة الكويت



د . نايف فخر خرم

- من مواليد صائد فلسطين .
- حاصل على البكالوريوس من جامعة لندن في اللغة الانجليزية وآدابها .
- الماجستير في طرق تعليم اللغة الانجليزية من الجامعة الأمريكية في بيروت ، والدكتوراه في علم اللغة التطبيقي من جامعة لندن .
- له خبرة طويلة جدا في تعليم اللغة الانجليزية ووضع مناهجها وامتحاناتها على جميع المستويات .
- عمل موهبا وخبرا لتعليم اللغة الانجليزية بوزارة التربية بالكويت .
- أسس مركز اللغات على مستوى الجامعة ، بجامعة الكويت ، وعمل مديرا له لمدة عامين .
- له عدد من المقالات والكتب باللغتين العربية والانجليزية والترجمات من الانجليزية الى العربية .
- يعمل حاليا بقسم اللغة الانجليزية بجامعة الكويت - كلية الآداب - حيث يدرس علم اللغة النظري والتطبيقي ، والترجمة ، والكتابة ..

مطبعة حكومة الكويت
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



د . نايف فخر خرم

- من مواليد صائد فلسطين .
- حاصل على البكالوريوس من جامعة لندن في اللغة الانجليزية وآدابها .
- الماجستير في طرق تعليم اللغة الانجليزية من الجامعة الأمريكية في بيروت ، والدكتوراه في علم اللغة التطبيقي من جامعة لندن .
- له خبرة طويلة جدا في تعليم اللغة الانجليزية ووضع مناهجها وامتحاناتها على جميع المستويات .
- عمل موهبا وخبرا لتعليم اللغة الانجليزية بوزارة التربية بالكويت .
- أسس مركز اللغات على مستوى الجامعة ، بجامعة الكويت ، وعمل مديرا له لمدة عامين .
- له عدد من المقالات والكتب باللغتين العربية والانجليزية والترجمات من الانجليزية الى العربية .
- يعمل حاليا بقسم اللغة الانجليزية بجامعة الكويت - كلية الآداب - حيث يدرس علم اللغة النظري والتطبيقي ، والترجمة ، والكتابة ..

مطبعة حكومة الكويت
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م